الحرب العالمية الأولى

1914

أهم المعارك الغربية والشرقية
سقوط الدولة العثمانية

هشام البطل — مكتبة النافذة

الحرب العالمية الأولى

تأليف: هشام البطل

الناشر
مكتبة النافذة

الحرب العالمية الأولى

هشام البطل

الطبعة الأولى 2009

رقم الإيداع: 21254/ 2008

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

كل الحقوق محفوظة

الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثينى(ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787
Mob: 012 3595973
Email: alnafezah@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، أما بعد فلم تنل الحرب العالمية الأولى نصيبها المفترض من الدرس والبحث، وظل جُلّ الاهتمام في الكتابات التي تناولت الحروب الأوربية باللغة العربية منصبًّا على الحرب العالمية الثانية وتأريخها إلا أن الاثنتين في الحقيقة كلٌّ لا ينفصل؛ فلولا الأولى لَمَا كان هناك هتلر في ألمانيا، ولَمَا كانت هناك حرب ثانية، ولابد لدراسة الثانية من بحث الأولى، وترجع أهمية الحرب العالمية الأولى إلى أنها مرحلة فاصلة بين عصرين عصر السيف والجياد، والقلعة وتراص الجنود في الميدان والهجوم على المواجهة، وعصر الطائرة والغواصة، والدبابة وقذائف الغاز السام وتكتيكات القوات الخاصة، وإن كانت تلك الحرب شرًّا أصاب العالم فإنها لم تكن أيضًا تخلو من الحسنات؛ حيث تعلمت الجيوش في تلك الحرب كيف تحارب، وعلمت المعارك القاسية القادة العسكريين كيف يحاربون وينتصرون، وبعد تلك الحرب أخذت الحروب شكلاً جديدًا في أسلوبها حيث تدخلت التكنولوجيا بشكل كبير في الأمور العسكرية، كما حَدَت الحرب العالمية الأولى بمعاركها المختلفة ولا سيما معركة السوم وكامبري بالمفكرين العسكريين الأوربيين إلى ابتداع نظريات عسكرية جديدة أدت

إلى إحداث ثورة في مجال التسليح وفي الفكر عمومًا، الأمر الذي حدد شكل الصراعات المسلحة بين الدول في المستقبل، مثل نظرية الحرب الخاطفة التي أرسى دعائمها المفكر العسكري البريطاني ليدل هارت، وتلقفها الألمان بشغف بعد ذلك ليضيفو عليها ويطوروها حتى واتتهم الفرصة ليطبقوها فعليًّا، كما حدث في اجتياح بولندا وفرنسا، ومعارك الحرب العالمية الثانية، وتسببت تلك الحرب في إعادة رسم خارطة أوربا، فقد انهارت ممالك وإمبراطوريات ودمرت أراض، وظهرت دول جديدة لم يكن لها وجود من قبل، وأنهت أكثر من خُمسين عامًا من التوتر والنزاعات، وبانتهاء تلك الحرب كانت الدولة العثمانية عدو أوربا اللدود قد زالت من الوجود، واقتسمت الدول المنتصرة الأراضي التي كانت تابعة لها، وانهارت دولة كانت لا تغيب عنها الشمس، ونجح الغرب في تلك الحرب في تسديد طعنة نافذة إلى الإمبراطورية التي أقضت مضجعهم منذ نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أخطر نتائج تلك الحرب أنها مهدت لاحتلال اليهود لأرض فلسطين، وكان سقوط القدس المجاني أحد أكبر وأهم أحداث الحرب؛ حيث دخلها الإنجليز دون قتال، لا من أجل الصليب تلك المرة بل لضمان عدم إقامة إمبراطورية إسلامية من جديد، حيث تم تسليمها لليهود بحيث تفصل بين شرق الدولة وغربها، وتظل تهدد أمن الدول المحيطة بها طالما كان لها وجود، وليس من أهداف هذا الكتاب بحث تاريخ الحرب بشكل مفصل بل يتعرض لها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، فهدف هذا الكتاب الأساسي هو عرض أهم معارك الحرب، وعند بدئي في هذا الجهد المتواضع لم أجد الكثير من المراجع العربية التي تغطي الموضوع، وكان جُلُّ ما وجدته عن الحرب العالمية الأولى باللغات الأوربية، ولقد اعتمدت كثيرًا على الويكيبيديا، وهي موسوعة حرة موجودة على الإنترنت إلا أنني قد اضطررت في معظم الأحيان إلى تصحيح بعض المعلومات أو الأرقام المبالغ فيها، وذلك

بالرجوع إلى المصادر الألمانية؛ حيث كان لابد من أخذ الحذر من المبالغات البريطانية، وهي كثيرة.

وأخيرًا فما كان من توفيق فمن الله، وما كان من تقصير فمن نفسي.

والله ولي التوفيق

هشام البطل

الفصل الأول

ما قبل الحرب

الجذور الحقيقية للحرب

ترجع أصول الحرب العالمية الأولى إلى أربعة عقود من الصراعات والخصومات التي أدت في النهاية إلى اندلاع الحرب، بينما كان السبب الظاهر لاندلاعها هو مقتل الأرشيدوق فرديناند فرانتس ولي عهد النمسا والمجر على يد جافريلو برينتسيب الصربي إلا أن الأسباب الحقيقية وراء الحرب كانت أكثر تعقيدًا وتشابكًا مما ينطوي عليه هذا التبرير البسيط، فلم تنشأ الظروف الدولية المتأزمة في ذلك الوقت من فراغ بل سبقها عقد كامل من الصدام الدبلوماسي بين القوى العظمى إلى أن تفجر الوضع بنشوب الحرب.

وعلى الرغم من أن الحرب العالمية الأولى قد نشبت بسبب سلسلة من الأحداث التي فجرتها عملية الاغتيال إلا أن الاسباب الحقيقة للحرب تمتد جذورها إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير شاملة أسبابًا قومية وسياسية، وثقافية واقتصادية، وشبكة معقدة متشابكة من التحالفات العلنية والسرية، والتوازنات المضادة والتي نسجت خيوطها بين الأمم الأوربية المختلفة على امتداد القرن التاسع عشر، في الفترة التي تلت هزيمة نابوليون بونابارت مباشرة في عام 1815، ومن الأسباب التي يعلق عليها الكثير من المؤرخين والمعلقين اندلاع الحرب العالمية الأولى هي ظهور النزعات

القومية والصراعات التي لم يتم حلها، ونظام التحالفات المعقد بالإضافة إلى التخطيط العسكري المسبق، وسباق التسلح، وكذلك السباق الاقتصادي بين دول أوربا وحالة التشرذم التي كانت عليها أوربا في الفترة التي سبقت الحرب.

سباق التسلح

اشتد سباق التسلح بين كل من إنجلترا وألمانيا بحلول عام 1906 بتدشين ألمانيا للسفينة دريدنوت إتش إم إس، السفينة المدرعة ذات القدرات العسكرية الثورية في ذلك الوقت، والتي جعل حجمها وقدرتها السفن السابقة عليها في الطراز عديمة الفائدة، وكانت بريطانيا تحتفظ بالصدارة في مجالات بحرية أخرى على كل من ألمانيا وإيطاليا.

الخطط والتعبئة

ترجع مجريات الأحداث في هذه الحرب وجهات نظر المحللين السياسيين الذين تناولو مسار الحرب العالمية الأولى بالبحث والتي تفترض أن برامج التعبئة لألمانيا وفرنسا وروسيا ساهمت بشكل كبير في تصعيد التوتر، ويؤكد فريتس فيشر أحد المعلقين العسكريين على أن الطبيعة العدوانية المتأصلة في خطة شليفن التي أطرت للاستراتيجية العسكرية على جبهتين، وكان القتال على جبهتين يعني أنه على ألمانيا أن تتخلص من خطر أحد الجبهتين بشكل سريع قبل أن تتفرغ للجبهة الأخرى، ولذا فقد ركزت الخطة على الهجوم القوي على الأجناب للاستيلاء على بلجيكا، وإصابة الجيش الفرنسي بالشلل عن طريق أخذ المبادءة بضربة قبل أن يستكمل العدو عمليات الحشد، وبعد الهجوم تقوم القوات الألمانية بالاندفاع عن طريق السكك الحديدية، وتقوم بسرعة بتدمير القوات الروسية التي تتسم

عمليات الحشد الخاصة بها بالبطء، بينما كانت الخطة الفرنسية هي الاندفاع السريع إلى وادي نهر الرور قلب الأراضى الصناعية الألمانية، مما يسبب نظرياً إصابة قدرات ألمانيا على شن حرب متطورة بالشلل، وكانت الخطة الروسية تتركز على حشد جيوشها ضد جيوش كل من النمسا والمجر وألمانيا، ومن الملاحظ أن العامل المشترك الحاسم في الخطط الثلاث كان عامل السرعة، وقد تم إعداد جداول زمنية محكمة، وبمجرد بدء التعبئة لم يعد بالإمكان أن ترجع العجلة إلى الخلف، وقد تسبب تخلف الاتصالات وتعقيد الدبلوماسية في ذلك الوقت في تفاقم الوضع إضافة إلى ان الخطط الحربية لكل من فرنسا وروسيا وألمانيا، كانت تميل إلى الهجوم في تصادم واضح مع التحسينات التي كانت قد أدخلت على القوى النيرانية الدفاعية والتخندق.

قرر فيلهلم الثاني بناء أسطول بحري ضخم يمكن أن يربط ألمانيا بطموحاتها القديمة في المستعمرات والمناطق التجارية؛ ليهدد بذلك السيادة الإنجليزية في تلك المناطق، وقد عهد في ذلك إلى وزيره البحري ومستشاره المقرب الأدميرال ألفريد فون تربيتس، والذي شجعه دعم القيصر له إضافة إلى حماسه الشخصى في التوسع في الأسطول.

القوات البحرية للدول الأوروبية في 1914			
الدولة	الطاقم	السفن الحربية الكبيرة	الحمولة بالطن
روسيا	125,000	10	738,000
فرنسا	168,000	12	828,000
بريطانيا	549,000	54	27,400,000
ألمانيا	544,000	51	25,700,000

النمسا والمجر	185,000	17	1,170,000

جدول يوضح القدرات البحرية للدول المتحاربة في الحرب العالمية الأولى.

اغتيال ولي عهد النمسا والمجر

في أبريل 1914 حاولت الحكومة المدنية الصربية فرض سلطتها على الجيش الصربي إلا أن الجيش قاوم ذلك بضراوة، وبعد كثير من الإجراءات والإجراءات المضادة من الجانبين قام الجيش بعقد اتحاد مع ملك صربيا والمعارضة البرلمانية، وأجبروا الحكومة المدنية الصربية على الاستقالة في نهاية يونيو من نفس العام، غير أن انتصار الجيش لم يدم طويلاً وذلك كنتيجة لتدخل السفير الروسي -أنذاك- هارتفيج، الأمر الذي أدى إلى أن يقلب الملك للجيش ظهر المجن، ويقوم بإعادة الحكومة المستقيلة، ودعا إلى انتخابات جديدة بل واتخذ قرارًا بالتنحي عن الحكم لصالح ابنه الأمير ألكساندر، وفي خضم هذه الأزمة قام أعضاء من الجيش الصربي ذوو نفوذ سياسي كبير بتدريب ثلاثة من الطلبة البوسنويين وتدريبهم على الاغتيالات وتزويدهم بالسلاح، وقامو بإرسالهم إلى النمسا -هنجاريا- وغادر الثلاثة بلجراد في 28 مايو، وفي 28 يونيو 1914 تم اغتيال ولي عهد النمسا -هنجاريا- وزوجته سوفي دوقة هوهنبورج في سارايفو عاصمة البوسنة، والتي كانت تحت إدارة نمساوية -هنجارية- منذ عام 1878، وتم ضمها في عام 1908، وقد تم إطلاق النار عليهم على يد جافريلو برينتسيب، والذي كان عضوًا في منظمة اليد السوداء السرية[1] أحد الثلاثة الذين غادروا بلجراد، وقد كان برينتسيب واحدًا من مجموعة تضم ستة

[1]- اليد السوداء: تنظيم سري تأسس في عام 1911 في صربيا، كان يهدف إلى توحيد الدول التي يعيش فيها الصرب بما فيها البوسنة والهرسك التي كانت جزءا من الإمبراطورية النمساوية المجرية.

أفراد (ثلاثة من بلجراد وثلاثة آخرين مجندين محليًّا)، وبتنسيق من دانيلو إيليتش، وكان الهدف من الاغتيال هو فصل البوسنة عن النمسا - هنجاريا- بشكل عنيف، وربما مناطق أخرى إذا أمكن وضمها إلى صربيا؛ لتشكل صربيا الكبرى أو يوجوسلافيا، وكانت أهداف الاغتيال وأسلوبه متفقًا مع منهج الحركة التي عرفت فيما بعد بـ "بوسنيا الفتاة"، وعلى الفور قامت النمسا -هنجاريا- بإجراء تحقيق جنائي، فقد تم القبض على إيليتش وخمسة من القاتلين، والتحقيق معهم على يد قاضي التحقيقات، وقد اعترف القاتلون الثلاثة القادمين من صربيا بكل شيء تقريبًا، فقد أمدهم الميجور الصربي فويسلاف تانكوسيتش بخمس قنابل وأربع مسدسات، وكذلك بالتدريب والمال بل وبأقراص للانتحار بالإضافة إلى خريطة مشار فيها بالعلامات إلى مواقع الحراسة، وبالمعرفة عن قناة تسلل من صربيا إلى سارايفو، وبطاقة تخولهم استخدام هذه القناة، وفي أثناء تدريبهم وبينما هم في طريقهم إلى سارايفو، فقد تم تزويدهم بالعون عن طريق ثلاثة ضباط صف من الجيش الصربي بدرجة سارجنت (رقيب)، بالإضافة إلى نقيبين وميجور آخر أشار إليهم المتهمون، علاوة على الميجور تانكوسيش، وقد تسبب صمت الميجور إيليتش أثناء التحقيقات وتمسكه الشديد بعدم الأفصاح عن أية معلومات في التعتيم على الدور الحقيقي لصربيا، وعلى حجم اتصالاته برئيس المخابرات العسكرية الصربية، واتصالاته بالجبل الأسود وفرنسا، ومما زاد في عدم وضوح لرؤية لدى المحققين هروب المتهمين الستة إلى الجبل الأسود في الوقت الذي لم يكن فيه المحققون قد توصلوا إلى الحقيقة بأكملها، فما كانوا قد وجدوه حتى ذلك الحين كان يضمن لهم فقط التحقيق مع الشهود والقبض على المشاركين في صربيا.

فى البداية تعاملت كل من ألمانيا والنمسا -هنجاريا- مع حادثة الاغتيال باعتبارها مسألة دبلوماسية تخص الشرطة، ويمكن تسويتها بالطرق

السلمية، وفي 30 يوليو وصى وكيل وزارة الخارجية الألمانية تسيمرمان السفير الصربي بأنه على صربيا أن تفتح تحقيقًا قضائيًّا مع جميع الرعايا الصرب المتورطين في المسألة داخل الحدود الصربية، وقد تكلم تسيمرمان أيضًا مع السفير الروسي طالبًا منه نقل نفس الرسالة إلى الصرب، وفي نفس اليوم تحدث سفير النمسا -هنجاريا- مع وزير خارجية صربيا جرويتس مطالبًا إياه بفتح تحقيق قضائي، الأمر الذي رد عليه الوزير الصربي كاذبًا "بأنه لم يتم اتخاذ أية إجراءات حتى الآن، والأمر لم يثر اهتمام الحكومة الصربية"، وبعد ذلك تبادل الجانبان الكلمات الحادة وبعدها وفي السادس من يوليو أكد الكونت تشرنين متحدثًا عن حكومة النمسا -هنجاريا- على ضرورة التحقيق مع المحرضين على مؤامرة الاغتيال داخل الحدود الصربية، وذلك مع وزير الخارجية الروسي سيرجي سازونوف، ولكن وزير الخارجية الروسي أوقفه مما دعا إلى الاعتقاد بأن صربيا ترفض إجراء تحقيقات قضائية في مؤامرة الاغتيال بالرغم من احتمال أن يقود ذلك إلى خطر نشوب حرب عالمية في أوربا، وذلك لأن التحقيقات كانت سوف تكشف عن تورط مسئولين صرب على مستوى عال من الأهمية في مؤامرة الاغتيال، وستظهر أن رئيس وزراء صربيا بنفسه كان يتابع تطورات خطة الاغتيال.

وقد سهل الرفض الصربي لاجراء تحقيقات والدعم الروسي لهذا الرفض على تكوين اتفاق في كل من ألمانيا والنمسا -هنجاريا- على تبني دبلوماسية صارمة تجاه صربيا لهزيمتها دبلوماسيًّا، وعند الفشل في ذلك يتم التدخل عسكريًّا، وقد أكدت ألمانيا للنمسا -هنجاريا- بشكل قاطع أنها سوف تحترم هذا التحالف، وعرف هذا التأكيد بعد ذلك باسم "شيك على بياض"، وعرف هذا التحالف بالتحالف الثلاثي وضم كل من ألمانيا والنمسا -هنجاريا- وإيطاليا، وكان دفاعيًّا في طبيعته، وبموجب هذا التحالف فإنه إذا تعرضت النمسا -هنجاريا- لتهديد قوى خارجية مثل

روسيا يعتبر التحالف قائمًا حينئذ، بينما لا يتم تطبيق بنوده إذا كانت النمسا والمجر هي البادئة بشن الهجوم. وقد استغرق الحصول على دعم ألمانيا وجمع الأدلة الجنائية وصياغة الطلبات التي سوف تقدم إلى صربيا قرابة الأسبوعين، وكان التوقيت في الحقيقة سيئًا حيث كانت القمة الفرنسية الروسية على وشك البدء في أعمالها، وقد وصل الرئيس الفرنسي ريموند بوانكاريه ورئيس وزرائه إلى سان بطرسبرج في العشرين من يوليو، واجتمع مع القيصر ووزرائه، وغادرها متجهًا إلى فرنسا في الثالث والعشرين من يوليو، ولم يعرف حتى الآن ما تم في هذه القمة بَيْدَ أن النمسا والمجر انتظرت حتى انتهت أعمال القمة، وأصدرت قرارها ثم أعلنت خطابًا بمطالبها في الساعة السادسة في نفس اليوم بتوقيت بلجراد، وهو الخطاب الذي عرف فيما بعد باسم إنذار يوليو.

الإنذار

كانت صياغة الإنذار عنيفة، وقد جعلت النمسا والمجر الإعلان الذي أصدرته صربيا في 1909 للقوى العظمى والذي تعهدت فيه صربيا قسرًا باحترام وحدة أراضي النمسا والمجر، والاحتفاظ معها بعلاقات جيرة طيبة أساسًا للمطالب العشر الواردة في الإنذار، بالإضافة إلى المطالب الأخرى الواردة في مقدمته، وقد ركزت هذه المطالب على التحقيق القضائي، والقبض على من سمتهم بالمتآمرين العسكريين الصرب الذين أشار إليهم المتهمون بالاغتيال، وتدمير البنية التحتية الإرهابية ووسائل الدعاية لها، وتطهير الجيش الصربي من الإرهابيين، ووضع صربيا من جديد على جادة الصواب فيما يخص حسن الجوار، ودعا صربيا إلى الاعتراف بسوء سلوك ضباطها والإلماح للسلطات النمساوية المجرية بالتدخل في التحقيقات في صربيا، وأعطتها مهلة ثمان وأربعين ساعة للموافقة على المطالب أو تقوم

النمسا والمجر بسحب سفيرها.

وكانت الحكومة الصربية في ذلك الوقت تجنح إلى المهادنة واسترضاء النمسا والمجر لتهدئة الوضع، وقد أخذ الوزراء الصرب في اعتبارهم الضعف الذي أظهرته روسيا في عامي 1908 و1909 فقد بدأوا في صياغة رد يوافقون بموجبه على جميع الطلبات الواردة في الإنذار النمساوي المجري، وبينما كان الدبلوماسيون الصرب يبحثون دعم حلفائهم، وقد تباحثوا بالفعل خلال القمة مع فرنسا حول الإجراء الذي يجب اتخاذه تجاه مثل هذا الإنذار وإذا بروسيا على عجل ترسل رسالة تعرب فيها عن دعمها الكامل وتوصي بقبول المطالب الواردة في الإنذار مع الاحتفاظ بالسيادة الصربية الضرورية، وبدأت في التجهيز للحرب. وبعد كلمات الخطاب التي تعبر عن التحالف والدعم والإجراءات التي تم اتخاذها بدأ الصرب في صياغة رد جديد مهادنًا وسلميًا في لهجته ومظهره، ولكنه يستبعد المطلبين رقم 8 ورقم 10 من الإنذار، ويطالب بإحالة المطلبين المتنازع عليهما إما إلى محكمة لاهاي أو إلى مؤتمر القوى الأربعة للحكم النهائي، وقامت صربيا بالتعبئة وأصدرت ردها في الخامس والعشرين من يوليو خلال المهلة التي منحها لها الإنذار، وكان الرد الصربي انتصارًا دعائيًا لها؛ لأن القراءة الغير متأنية للرد ستجعله يبدو كما لو كانت صربيا قد وافقت على المطالب النمساوية المجرية، وأن الصرب أمة محبة للسلام، وتريد تجنب الحروب، وعلى الفور قامت النمسا والمجر بتنفيذ تهديدهما بقطع العلاقات الدبلوماسية، وبدأت الحكومة الصربية على أثر ذلك في إخلاء الحكومة والجيش من العاصمة بلجراد، وفي السادس والعشرين من يوليو وبطريق المصادفة على ما يبدو عبر جنود احتياط صرب كانوا مسافرين على متن سفينة بخارية إلى الجزء النمساوي المجري من النهر بالقرب من تيميس كوبين، وبدخولهم إلى الحدود أصبحت الحرب على الأبواب، إذ اطلقت عليهم طلقات تحذيرية لإبعادهم وساهمت التقارير المبالغ فيها عن الحادثة

المقدمة إلى القيصر فرانتس يوزف في إقناعه بضرورة تعبئة الجيش وإعلان الحرب على صربيا في الثامن والعشرين من يوليو. وفي التاسع والعشرين من يوليو تم قصف الجانب الصربي من الحدود بالمدفعية، وعلى أثر ذلك وفي نفس اليوم أصدر قيصر روسيا أمرًا بالتعبئة الجزئية (التعبئة الكاملة ضد النمسا والمجر وتعبئة أسطولي بحر البلطيق والبحر الأسود)، وكذلك التعبئة العامة ومؤخرًا وفي نفس اليوم تلقى القيصر الروسي برقية من قيصر النمسا والمجر محذرًا فيها إياه من مغبة التدخل الروسي، وبأنه سيقود إلى حرب شاملة، فقام القيصر بإلغاء المرسوم الذي أصدره والخاص بإعلان التعبئة، وفي الثلاثين من يوليو أقنع الوزراء الروس القيصر بأن يصدر من جديد الأمر بإعلان التعبئة العامة في روسيا، وفي الواحد والثلاثين من يوليو أمرت النمسا والمجر بالتعبئة العامة ردًّا على التعبئة التي قامت بها روسيا.

الحليف المخلص

كان القيصر فيلهلم الثاني صديقًا مقربًا لأرشيدوق النمسا والمجر فرديناند فرانتس، وقد شعر بالصدمة عند اغتياله، وقد رغب في البقاء في برلين حتى يتم حل الأزمة إلا أن رجال حاشيته أقنعوه بأن يقوم برحلته البحرية السنوية في بحر الشمال في السادس من يوليو 1914، وكان هذا متفقًا مع السياسة الألمانية التي تهدف إلى تحجيم الأزمة، وقصرها على إطار محلي بحيث تبدو وكأنها أزمة محلية بين صربيا والنمسا والمجر، وقد قام القيصر فيلهلم بمحاولات عجيبة للبقاء في قلب الأزمة عن طريق البرقيات عندما كان يتنزه في البحر مع الأسطول الألماني وعندما وصلت الأسطول الاخبار عن إعلان صربيا للتعبئة ورفضها لطلبات النمسا والمجر، وبأنها تقوم بإخلاء حومتها من العاصمة بلجراد القريبة من الحدود مع

النمسا والمجر إلى نيش تحسبًا للحرب أصدر القيصر حينئذ أوامره للأسطول بالعودة إلى كوكسهافن (كيل الحالية)، ورحل في الخامس والعشرين من يوليو في السادسة مساءا بالرغم من اعتراضات مستشاره، ووصل إلى برلين في الثامن والعشرين من يوليو، وقرأ نسخة من الرد الصربي وقام بكتابة تعليق عليه يخالف تعليقًا سابقًا قام بكتابته في الرابع والعشرين من يوليو وهو "الإنذارات يتم قبولها أو رفضها ولا نقاش في ذلك".

"حل عبقري في غضون 48 ساعة هذا أكثر مما كان يمكن توقعه، وهو نصر معنوي عظيم لفيينا، ولكن معه تسقط أية حجة للحرب، وكان على السفير جيسل أن يبقى صامتًا في بلجراد، ولا ينبغي أبدًا ان تصدر أوامر بالتعبئة بناءا على هذه الوثيقة".

ولم يكن بعد معروفًا للقيصر الألماني أن الوزراء والجنرالات قد أقنعو القيصر فرانتس يوزف قيصر النمسا والمجر البالغ من العمر 84 عامًا بتوقيع إعلان الحرب على صربيا.

طبول الحرب

خلال تلك الفترة كانت بريطانيا قد دعت إلى مؤتمر عاجل لتسوية الأزمة، وهو مؤتمر يكون فيه كل من النمسا والمجر وألمانيا شريكين متساويين وكان مقررًا أن يضم بلدين من دول التحالف الثلاثى ألمانيا وإيطاليا، وبلدين من دول التفاهم الثلاثي بريطانيا وفرنسا، وبهذه الطريقة كان من المقرر تمثيل كل من التحالفين بشكل متساو غير أن النمسا والمجر وألمانيا لم يرغبا في تلك الوساطة، حيث إنهما اعتبرا أن إيطاليا ستنظر إلى الحرب على أنها عمل عدائي بطبيعته وبالتالي سترفض الانضمام للحرب في جانب التحالف الثلاثي كما حدث لاحقًا، ومن ناحية أخرى كانت جهود النمسا والمجر وألمانيا الدبلوماسية تركز على تحجيم الأزمة كما ذكر

سابقًا، وحصرها في إطار محلي كأزمة بين صربيا والنمسا والمجر، وكان ذلك بالطبع سيؤدي إلى هزيمة كاملة للصرب، وعندما أصبح واضحًا لألمانيا أن روسيا وفرنسا وربما إنجلترا كذلك سيقفون إلى جانب صربيا، بدأت في الدعوة إلى "التوقف عند بلجراد"، وهو ما يعني أن تقوم النمسا والمجر باحتلال بلجراد والتي كان بها بالكاد خمسة آلاف جندي صربي مدرب، ثم عقد مؤتمر يتم فيه التفاوض على المطالب الأصلية للنمسا والمجر، ولكن باستعداد النمسا والمجر وصربيا وروسيا لحرب، ومع المضي قدمًا في برامج التعبئة الغير مرنة فلم يقدر لمثل هذه المحاولة أن تنجح، وإنما أعطيت الفرصة لمناقشة الاقتراح لأن روسيا كانت بحاجة إلى الوقت لاستكمال التعبئة، ولأن النمسا والمجر لم تكن على استعداد أن تسخف من مقترحات حليفتها ألمانيا في وقت قد تحتاج فيه لدعمها الكامل، وعندما علمت ألمانيا أن روسيا تمارس حقها في إعلان التعبئة وجهت إليها إنذارًا في 31 يوليو مطالبة إياها بوقف التعبئة خلال 12 ساعة، ومن المثير للعجب أن هذا التصعيد للموقف من جانب ألمانيا وقع عندما أصدرت النمسا والمجر موافقتها أخيرًا على إعادة فتح باب التفاوض مع روسيا بشأن حل الأزمة مع صربيا وفي ليلة 30-31 يوليو تسلم قيصر ألمانيا وثيقة تفيد بأن روسيا لن تقوم بإلغاء التعبئة، فقام بكتابة تعليق مطول يشتمل على الملاحظات المدهشة التالية:

"لا شك لدى في ان إنجلترا وروسيا وفرنسا قد اتفقو فيما بينهم - عالمين بأن التزامات المعاهدة تجبرنا على الوقوف بجانب النمسا والمجر- على استخدام النزاع النمساوى الصربي كذريعة لشن حرب إبادة ضدنا، فورطتنا في الاحتفاظ بعهودنا مع الإمبراطور العجوز المبجل قد تم استغلالها لخلق موقف يعطي إنجلترا العذر الذي طالما بحثت عنه لإبادتنا متخذة في ذلك مظهرًا زائفًا للعدالة بحجة معاونتها لفرنسا في الاحتفاظ بميزان القوى المعروف في أوربا، متلاعبة بكل الدول الأوربية في سبيل مصلحتها ضدنا".

وفي الرابعة وثلاث وعشرين دقيقة في الأول من أغسطس توقفت المناقشات الألمانية الدائرة بشأن إعلان الحرب على روسيا عندما وصلت برقية من السفير الألماني في بريطانيا تحتوي على عرض بريطاني يضمن حياد فرنسا، وبذلك يتم قصر الحرب على حرب واحدة في الشرق، وبالرغم من معارضة الدوائر العسكرية الألمانية إلا أن ألمانيا قبلت ذلك العرض على الفور بشرط أن توافق فرنسا على احتلال ألمانيا لاستحكاماتها الرئيسية في تول وبري وفردان، وتمشيًا مع ذلك القرار طلب القيصر فيلهلم الثاني من جنرالاته تحويل التعبئة إلى الشرق فأخبره هيلموت فون مولتكه (الصغير) بأن ذلك مستحيل، فرد عليه القيصر قائلاً: كان عمك سيعطيني إجابة مختلفة، وبدلاً من ذلك تقرر استكمال التعبئة كما خطط لها وإلغاء الغزو المزمع للكسمبورج، وبمجرد إتمام التعبئة يقوم الجيش بالانتشار شرقًا، وأدرك البريطانيون وقتها مدى حماقة عرضهم فتراجعوا عنه، وحفظًا لماء وجههم ادعوا بأن العرض لم يفهم بشكل صحيح، ولم يكن لتلك الحادثة تأثير سوى إبطاء التعبئة الألمانية وخطة الحرب في الغرب، فقامت ألمانيا وفرنسا بالتعبئة في نفس الوقت تقريبًا وفي الساعة السابعة مساءً في سان بطرسبرج وبانتهاء المهلة الممنوحة للإنذار الألماني لروسيا التقى السفير الألماني مع وزير الخارجية الروسي، وسأله ثلاث مرات ما إذا كانت روسيا ستعيد النظر في الإنذار الألماني أم لا؟ ثم صافحه وسلمه وثيقة إعلان الحرب على روسيا.

بدء العمليات

بدأت ألمانيا الحرب العالمية الأولى في الثاني من أغسطس 1914، عندما قامت بغزو لوكسمبورج تمهيدًا لاحتلال بلجيكا متبعة في ذلك خطة شليفن -التي سيشار إليها لاحقًا بتفصيل أكبر- وفي نفس اليوم قدم وزير

خارجية بريطانيا إلى السفير الفرنسي في لندن كامبون تعهدات حكومته بأن تقوم بريطانيا بحماية فرنسا عن طريق قواتها البحرية، وفي نفس اليوم أيضًا قامت ألمانيا بتسليم إنذار إلى بلجيكا مطالبة فيه حرية عبور الجيش الألماني للأراضي البلجيكية، وبحق البحرية الألمانية في استخدام المرافئ والموانى البلجيكية، ورفضت بلجيكا الإنذار، وفي الثالث من أغسطس أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا، ثم على بلجيكا بدورها في الرابع من أغسطس، وكان هذا التصرف من جانب ألمانيا يمثل خرقًا للحياد الذي كانت تنتهجه بلجيكا، وهو وضع كانت تلتزم به ألمانيا وفرنسا وإنجلترا بموجب معاهدة، ولم يكن هناك شك في أن إنجلترا لن تقف ساكنة إذا قامت ألمانيا بإعلان الحرب على فرنسا، وقد وفر انتهاك ألمانيا لحياد بلجيكا الذريعة المناسبة للساسة الإنجليز للحرب، ولاحقًا وفي الرابع من أغسطس أعلن المستشار الألماني أمام الرايشتاج أن غزو بلاده للكسمبورج وبلجيكا يعد خرقًا للقانون الدولي إلا أن بلاده في حالة ضرورة "والضرورة لا تعترف بالقانون"، وفي السابعة مساءًا في ذلك المساء سلم السفير البريطاني لدى ألمانيا السير إدوارد جوشن إنذار بريطانيا لسكرتير وزارة الخارجية الألمانية جوتليب فون ياجوف، وقد ورد في ذلك الإنذار أن إنجلترا تطلب ردًا إيجابيًا يفيد بأن ألمانيا ستتوقف عن انتهاكها لحياد بلجيكا، وذلك خلال خمس ساعات، أي عند منتصف الليل بتوقيت ألمانيا، وقد رد ياجوف بأن ألمانيا لا تستطيع إعطاء رد إيجابي خلال خمس ساعات، وعلى إثر ذلك طلب جوشن لقاءًا خاصًا وشخصيًا مع المستشار الألماني بيتمان هولفيج، فقام هولفيج بدعوته على العشاء، وخلال محادثتهما أعرب هولفيج عن اندهاشه لأن إنجلترا يمكنها ان تقاتل ألمانيا بسبب معاهدة 1839 والتي تضمن حياد بلجيكا، وأشار إلى المعاهدة بأنها قصاصة ورق مقارنة بالنتائج المخيفة للحرب الأنجلو ألمانية، ولم تصل برقية جوشن إلى جري وزير خارجية إنجلترا، وبقيت مسألة حالة الحرب

بين ألمانيا وإنجلترا معلقة إلى أن انتهت مدة الإنذار في منتصف الوقت بتوقيت برلين، وقد نشرت المحادثة بين جوشن وبين بيتمان فيما بعد، وسببت غضبًا عنيفًا في الشارع الإنجليزي والأمريكي على السواء، فقد توقعت الحكومة الإنجليزية حربًا محدودة تستخدم فيها بحريتها القوية بشكل أساسي.

الفصل الثاني

أهم معارك الجبهة الغربية

الحرب على الجبهة الغربية

لابد قبل أن نتناول العمليات الحربية على جبهات الحرب العالمية الأولى أن نتناول الخطط الحربية للدول المتحاربة، والتي كان لها عظيم الأثر -كما ذكرنا من قبل- في إشعال فتيل الحرب، فقد كانت تلك الخطط موضوعة وجاهزة قبل فترة من اندلاع الحرب، وكانت مثل القنبلة التي تم نزع فتيلها، ولا يملك حاملها إلا أن يلقيها، فقد كانت كل خطط الدول المتحاربة تتميز بعدم المرونة، ويعدها المؤرخون العسكريون بحق أحد اسباب قيام الحرب، وكان من أبرز تلك الخطط خطة "شليفن" الألمانية والتي تم إعدادها بعد دراسة وافية ومتمحصة لأحد أكبر معارك هانيبال ضد روما، وكانت تعتمد أساليب تكتيكية ما يزال في الإمكان تطبيقها في وقت قيام الحرب حتى على المستوى الاستراتيجي، وكانت هذه الخطة متطورة في أسلوبها، ولم يكن ينقصها كما علق عليها الاستراتيجي البريطاني "ليدل هارت" إلا التطور في وسائل الاتصال والمعدات العسكرية ووسائل النقل العسكرية، وكان يمكن تنفيذ هذه الخطة السابقة لعصرها بعد عدة عقود، والجدير بالذكر أن خطة "شليفن" مثلت الأساس الذي ارتكزت عليه خطة "هالدر" فيما بعد لاحتلال فرنسا في الحرب العالمية الثانية، وكان التشابه بينهما كبيرًا.

خطة شليفن

لم تكن فرنسا من وجهة النظر العسكرية الألمانية خصمًا قويًّا على المدى الطويل، وخصوصًا بعد هزيمتها المخزية في الحرب الفرنسية البروسية عام 1870 وذلك على عكس روسيا، والتي اعتبرتها ألمانيا خصمًا صعب المراس وخصوصًا إذا اتسع الوقت المناسب للقيصر الروسي لتعبئة بلاده ذات الإمكانيات الضخمة، وبعد توقيع التفاهم الودي بين إنجلترا وفرنسا في عام 1904 كلف القيصر فيلهلم الفيلد مارشال ألفريد جراف فون شليفن بوضع خطة تسمح لألمانيا بالحرب على جبهتين، وفي ديسمبر 1905 بدأ شليفن في تعميمها، وكانت الخطة ترتكز على كسب الحرب على جبهتين عن طريق الاكتساح السريع لفرنسا في الغرب، وقد وضعت الخطة مدة 39 يومًا لسقوط باريس، و42 يومًا لاستسلام فرنسا قبل أن يستطيع الروس استكمال التعبئة، والانقضاض على شرق بروسيا، واعتمدت الخطة على قدرة ألمانيا على غزو فرنسا قبل أن تستطيع فرنسا حشد كامل قواتها للدفاع عن نفسها، ثم الالتفات بعد ذلك إلى روسيا قبل أن تستكمل استعداداتها، حيث إنها كانت في نظر المخططين العسكريين الألمان أبطأ الجيوش الثلاثة في قدرتها على التعبئة، ووفقًا لهذه الخطة كان لابد لألمانيا أن تقوم بتعبئة سريعة بغض النظر عن حياد لوكسمبورج وبلجيكا وهولندا، وكذلك اجتياح كاسح من الجانب الأيمن القوي (الجنوبي الغربي) عبر بلجيكا وشمال فرنسا مع الاحتفاظ بأوضاع دفاعية في جناح الوسط واليسار في اللورين والفوسج والموزيل، ولم يكن من المحتم الاستيلاء على باريس (حيث دام حصارها شهورًا في حرب عام 1870) بل يمكن اجتيازها بالجناح الأيمن إلى الغرب من المدينة، ولم يكن من بين أهداف الخطة غزو المدن أو ضرب المناطق الصناعية بهدف إضعاف المجهود الحربي الفرنسي، ولكن كان هدفها أسر معظم أفراد الجيش الفرنسي وإجبار فرنسا على الاستسلام، وكان جوهر الخطة قد تم

استخدامه ضد فرنسا لهزيمتها في الحرب الفرنسية البروسية، وكانت الخطة أن يتم تطويق الجيش الفرنسي حول باريس، وإجباره على التورط في معركة حاسمة وهو محاصر. وكانت بذرة هلاك الفكرة تكمن في جوهرها فقد سيطر إغراء تطويق الجيش الفرنسي من جانبين على كل من واضع الخطة الفيلد مارشال شليفن والرجل الذي أوكلت إليه مهمة تعديلها الجنرال هيلموت فون مولتكة الصغير، وكان مقررًا أن يتم التطويق بواسطة الجناح الأيمن القادم من شمال وغرب فرنسا والجناح الأيسر القادم من الشرق، وكان ذلك مستوحًى مما تم من إبادة الجيش الروماني على يد هانيبال في معركة كانايه عام 216 قبل الميلاد، والتي خضعت لدراسة دقيقة من قبل شليفن، وفي الحقيقة كانت هذه الخطة عبارة عن إعادة تطبيق لتكتيكات هانيبال، ولكن على نطاق استراتيجى أوسع مع الأخذ في الاعتبار التطور الهائل الذي قد تم إحرازه في مجالات الاتصالات والنقل.

ومن الناحية السياسية كان أحد العيوب التي شابت خطة شليفن أنها استندت على احتلال دول محايدة لتعبر من خلالها القوات الألمانية إلى فرنسا، ومن الناحية النظرية كان احتلال دولة مثل بلجيكا على سبيل المثال هو الذي أدى إلى إعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا.

كذلك اعتمدت الخطة على افتراض بطء التعبئة الروسية كنتيجة لشبكة السك الحديدية السيئة بها، وبعد هزيمة فرنسا ستقوم رئاسة الأركان الألمانية بتحويل تركيزها إلى الجبهة الشرقية مع روسيا وكانت الخطة تعتمد على إرسال 91٪ من القوات الألمانية إلى فرنسا والباقي 9٪ فقط إلى روسيا، وكان مفترضًا هزيمة الجيش الفرنسي في ستة أسابيع، وهو الوقت المقدر لاستكمال روسيا لتعبئة جيشها، ثم الالتفات إلى الجبهة الشرقية قبل أن تستطيع روسيا أن تتخذ أي رد فعل، وقد نقل عن القيصر فيلهلم الثاني قوله: "باريس للغداء والعشاء في سان بطرسبرج".

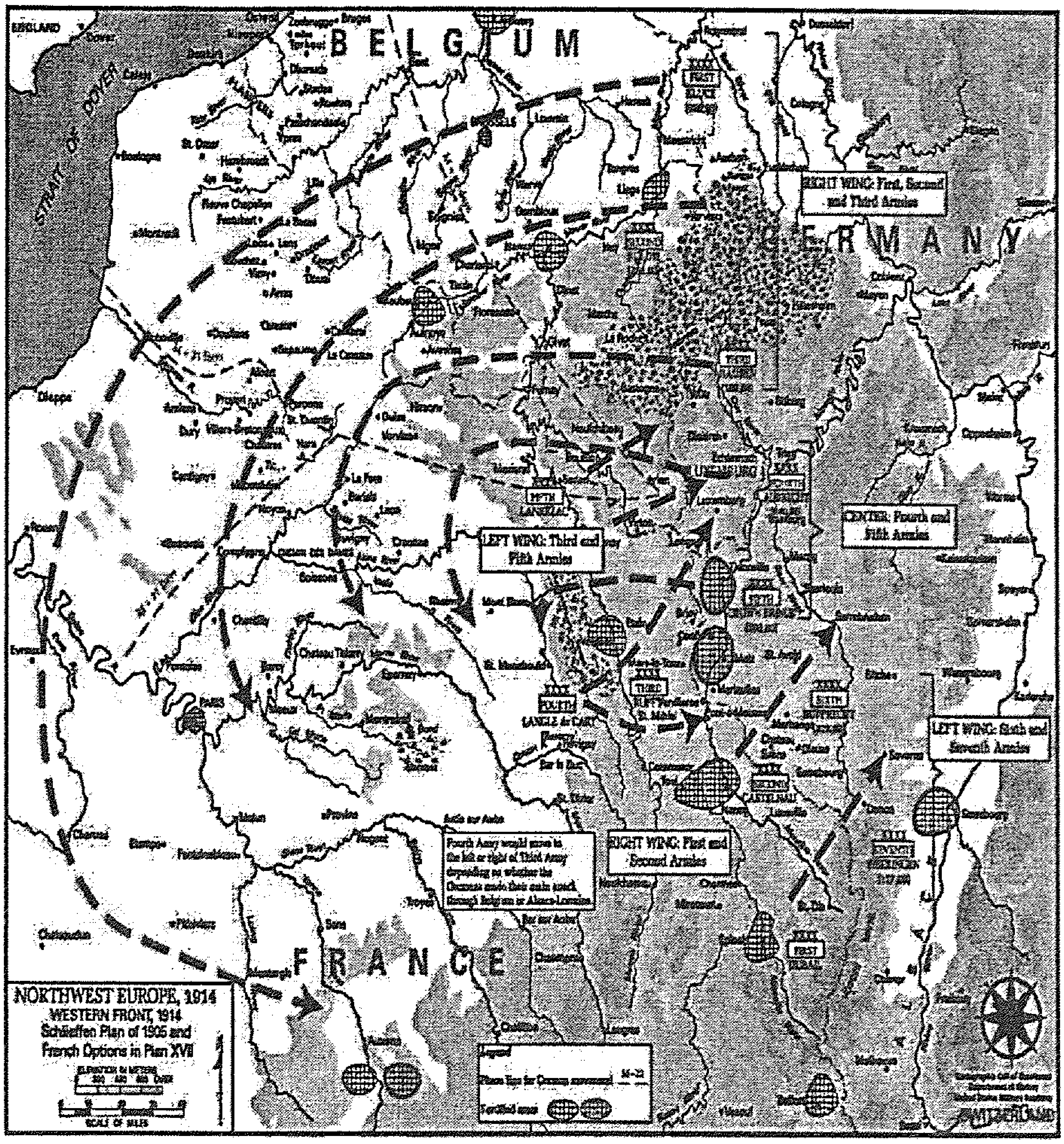

خطة شليفن مبين بها اتجاه الهجوم الألماني والهجوم الفرنسي المضاد المتوقع

التعديلات على الخطة

بعد تقاعد شليفن في 1906 تولى رئاسة الأركان الألمانية الجنرال هيلموت فون مولتكة الصغير، وقد اختلف مع خطة شليفن في جوانب كثيرة، واعتبرها محفوفة بالمخاطر، وحيث إن الخطة قد تم إعدادها في عام 1905 فقد أصبحت جزءا من التفكير العسكري الألماني، ولم يكن من

الوارد أبدًا إلغاؤها كلية، فلم يكن في مقدور مولتكة حينئذ إلا أن يدخل عليها بعض التعديلات، فقام بتخفيض أعداد ضخمة من القوات الرئيسية التي كانت ستدخل فرنسا من الشمال لدعم القوات في الألزاس واللورين والقوات الأخرى على الحدود الروسية، والتغيير الآخر الملحوظ الذي أجراه كان قراره بألا يدخل هولندا، وبدلاً من ذلك يقوم بإرسال القوات عبر بلجيكا وحدها، وكانت هذه التعديلات محل نقاش فقد وصفه تيرنر "بالتعديل الجوهري الذي تم إجراؤه على خطة شليفن، والذي ربما حكم على الهجوم الألماني في الغرب بالفشل قبل أن يبدأ"، ويقول تيرنر: إنه بإضعاف مولتكة للهجوم الألماني الرئيسي فلم يكن لدى الألمان فرصة لهزيمة الجيش الفرنسي بالسرعة الكافية، وأصبحت القوات الألمانية تمتد بطول جبهتين، ويقول أيضًا بأن التخلي عن العبور من هولندا لم يتسبب فقط في خلق عنق زجاجة عند الحدود الألمانية البلجيكية، ولكن كذلك فإن عدم السيطرة على السكك الحديدية الهولندية قد خلق مشكلة ضخمة في الإمداد فاقت المكاسب التي حصلوا عليها باستطاعتهم السيطرة على الموانئ الهولندية.

وفي عام 1977 عندما قام مارتن فان كريفيلد بتحليل الخطة من الناحية اللوجيستية أحس بأن تعديلات مولتكة على الخطة كانت ظاهرية أكثر منها حقيقية حيث إن الفيلقين المخصصين لاحتواء الجيش الهولندي الذي كان تعداده يصل إلى 90000 على وجه التقريب كانا من الممكن بدلاً من ذلك أن يتم استخدامهما لغزو فرنسا، ويشير فان كريفيلد كذلك إلى أنه بينما كان شليفن قد خصص خمسة فيالق لاستغلالها في أنتويرب إلا أن مولتكة قد قلصها إلى اثنين "وعلى ذلك يتضح أن الجناح الأيمن لمولتكة لم يكن بنفس القوة التي خطط لها شليفن، وأن هذه الخسارة لم يكن في الإمكان تعويضها بسياسة التوفير التي انتهجها مولتكة".

و مبكرًا ووفقًا للخطة الفرنسية حشد الفرنسيون قواتهم ودفعوا بها

تجاه الحدود الفرنسية الألمانية في محاولة بائسة لإعادة احتلال الألزاس واللورين، وكان ذلك يصعب تمامًا فلا اتجاه مفهوم التطويق وفقًا لخطة شليفن والتي دعت إلى دفاع متراخ بل وإلى الانسحاب الأمر الذي سيلعب دور الطعم للجيش الفرنسي فيندفع ورائها مخليًا الطريق لاندفاع القوات الألمانية المتقدمة غير أن إضعاف مولتكة لليمين الألماني والدفاع عن الألزاس واللورين ونقل فيالق ثلاثة جيوش وفرقة خيالة من الجبهة الغربية للمساعدة في احتواء التقدم الروسي شرقي بروسيا كل ذلك قد ساهم في فشل الجيش الألماني في اختراق قوات الحلفاء في المارن، وبدون ذلك الاختراق فإن الخطة كانت قد دمرت تمامًا.

و تعد خطة شليفن مثيرة للجدل في أوساط المحللين العسكرين فما زال الجدال دائرًا حول أسباب فشل الخطة، ولكن بشكل عام فإن الخطة قد فشلت للأسباب التالية:

المقاومة البلجيكية: بالرغم من أن الجيش البلجيكي من ناحية الحجم كان عشر الجيش الألماني إلا أنه قام بتثبيت الجيش الألماني قرابة الشهر أثناء دفاعه عن التحصينات والمدن وقد استخدم الألمان مدفعية البرتا لتدمير القلاع لبلجيكية في ليبج ونامور وانتورب، ولكن البلجيكيين كانوا ما يزالون قادرين على الرد مهددين بشكل ثابت خطوط الإمداد الألمانية في الشمال، كذلك كانت التقارير الواردة عن اجتياح بلجيكا المحايدة والدور الذي لعبته الدعاية في إبراز الفظائع الألمانية لها كبير الأثر في شحن الرأي العام في الكثير من الدول المحايدة ضد ألمانيا والقيصر فيلهلم.

القوات البريطانية: كانت القوة البريطانية صغيرة العدد عند بداية الحرب فكانت قرابة 75000 جندي، وكان الفرنسيون قد قاموا بحشد ملايين المجندين، وكان هدفهم هو استخدام هذه الأعداد لهزيمة الألمان في الألزاس بشكل سريع، ولهذا الهدف قام قائد القوات الفرنسية جوزيف جوفر بوضع

القوة البريطانية على الجانب الأيسر، حيث اعتقد أنه لن يكون هناك قتال، ونظرًا للتقدم الألماني السريع عبر بلجيكا فإن القوة البريطانية كادت أن تباد تقريبًا إلا أنها نجحت في تعطيل الألمان حتى وصول التعزيزات الفرنسية والبريطانية، وبينما كانت تلك القوة البريطانية تنسحب خلال شهر أغسطس فإنها قد وفرت مقاومة كافية للجيش الأول الألماني بقيادة ألكساندر فون كلوك لمحاولة جذب الجنرال الألماني بعيدًا عن خطته، وقد تحول فون كلوك إلى الجنوب الشرقي في اتجاه كومبيين معرضًا مجنبته لحامية باريس بقيادة جالييني الأمر الذي جعل معجزة المارن ممكنة الحدوث.

سرعة التعبئة الروسية: تحرك الروس بأسرع مما كان متوقعًا وكسبوا أرضًا في شرق بروسيا بأسرع مما توقع الألمان، وبينما لم يكن التقدم الروسي قد شكل تهديدًا حقيقيا بعد إلا أنه في حالة استمرارهم لكسب الأرض بهذا الشكل كانوا سيقتربون بشكل خطير من برلين، وقد نتج عن ذلك أن قام الألمان بسحب المزيد من الجنود من قوات الهجوم الرئيسي لتعزيز الجبهة الشرقية، وثبت أن ذلك غير مجدٍ بالمرة، حيث إن القوات التي تم سحبها من الجبهة الغربية كانت لا تزال في حالة انتقالية أثناء انتصار الألمان في معركة تاننبرج في الجبهة الغربية في اوائل سبتمبر 1914 بينما بدأت ألمانيا تخسر معاركها على الجبهة الغربية.

نظام السكك الحديدية الفرنسية: بسبب التعطيل البريطانيين والبلجيكيين للألمان فقد كان لدى الفرنسيين الوقت لنقل المزيد من القوات إلى الألزاس واللورين، وكان الألمان يقللون من إمكانيتهم على القيام بذلك خصوصًا مع الوقت الإضافي الذي اكتسبوه من إبطاء حركة القوات الألمانية، فقام الفرنسيون بإرسال بعض قواتهم بالقطار والبعض الآخر بالتاكسي والباقي سيرًا، وقبل وصول الألمان إلى فرنسا كانت القوات الفرنسية هناك بانتظارهم.

الخطة الفرنسية

كان الهدف الأساسي للخطة 17 الفرنسية التي وضعها فرديناند فوش في أعقاب الخزي الذي لحق فرنسا من جراء هزيمتها في الحرب الفرنسية البروسية في عام 1870 والتي تلقفها القائد العام للجيش الفرنسي الجنرال جوزيف جوفر رئيس أركان الجيش الفرنسي منذ عام 1911 وذلك في عام 1913 كان استعادة أراضي الالزاس واللورين التي كانت تحت السيطرة الألمانية منذ انتهاء حرب 1870، وكان الجنرال جوفر قد رفض اقتراحًا بخطة سابقة تعتمد على التركيز الدفاعي على الحدود البلجيكية وبدلاً من ذلك أعلن عن نيته في التقدم لمهاجمة الجيوش الألمانية، وكانت الخطة 17 هجومية في جوهرها معتمدة على فلسفة القوة الحيوية التي تفترض وجود مثل هذه القوة لدى الجنود الفرنسيين، أو الروح القتالية القادرة على دفع أي عدو إلى التقهقر، وقد افترضت هذه النظرية الفلسفية العجيبة أن يكون الجندي الفرنسي المتوسط أفضل من نظيره الألماني، وفي الواقع فقد تم الاستغناء عن خدمات الكثير من الضباط خلال المراحل الأولى للحرب رغبة من القادة الفرنسيين في بث الروح العسكرية، ومن ضمنهم لانريزاك في أعقاب فشل الجيش الفرنسي في معركة شارلروا.

و بشكل فني فقد ارتكزت الخطة 17 على أن تتقدم خمسة جيوش فرنسية إلى الألزاس واللورين، وكان مقررًا أن يقوم كل من الجيشين الأول والثاني من الجناح الأيمن لقوات الغزو بالتقدم والاستيلاء على الألزاس واللورين (بنفس الترتيب، كما كان شليفن يأمل عندما وضع خطته)، وفي الوسط يقوم الجيش الثالث بالتقدم والهجوم على قلاع ميتس تيونفيل، والتي كانت ألمانيا تحتلها منذ عام 1871، بينما يقوم الجيش الخامس في الجناح الشمالي المتمركز على اليسار من ميزير وموغيدي والذي تم إسناد دور أكثر مرونة له معتمدًا على الطريق الذي ستأخذه القوات الألمانية

باتباع الاتجاه العام للجيش الثالث أو بالاندفاع إلى داخل ألمانيا عن طريق غابات الاردين الجنوبية، أو أن يتحرك باتجاه الشمال الشرقي باتجاه لوكسمبورج وبلجيكا على أن يتم الاحتفاظ بالجيش الرابع في وضع شبه احتياطي، بحيث يدعم جناح اليسار أو جناح الوسط حسب الحاجة. وكان مهندسو الخطة الفرنسية (ومن بينهم جوزيف جوفر) وإلى وقت قصير قبل إعلان الحرب لم يكونوا قد وضعوا في الاعتبار إلا بشكل سطحي احتمال أن تقوم ألمانيا بمحاولة غزو فرنسا عبر بلجيكا. وعند تعديل الخطة تحسبًا لهذا الاحتمال كانت الاستعدادات الفرنسية في أغسطس 1914 باهتة على أفضل تقدير. وقبل اندلاع الحرب كان جوفر ومستشاروه على قناعة بأن احتمالات تدخل إنجلترا كانت لابد أن تمنع ألمانيا من غزو بلجيكا، وكانت إنجلترا قد وقعت معها معاهدة تضمن حيادها كما ذكر من قبل، غير أن الألمان الذين كانوا لا يلقون بالاً إلى تلك المعاهدة ظنوا أن بريطانيا ستنظر إليها بنفس الطريقة، وبينما قدر الفرنسيون وبشكل دقيق قوة الجيش الألماني إلا انهم لم يلتفتوا كثيرا إلى قدرة ألمانيا على استخدام قوات الاحتياط، وكانوا لا يثقون كثيرًا في قوات الاحتياط الموجودة لديهم، ومن الجدير بالذكر أن الخطة الفرنسية كانت أكثر تكيفا من الخطة الألمانية إلا أنها كان يشوبها عيب خطير وهو التقليل من شأن قوات الاحتياط الألمانية حتى في حالة حشدها، على اعتبار أنها قوات احتياط تواجه تشكيلات نظامية، وقد ثبت فيما بعد أن ذلك كان خطأً خطيرًا في الحسابات، فقد صاحب ذلك التقليل من شأن خطة شليفن الأمر الذي أدى إلى خراب فرنسا في ظرف شهر من نشوب الحرب، ولسوء حظ الفرنسيين أيضًا أن الاستطلاع الذي قام به فيلق الخيالة بقيادة الجنرال سورديه قد أكد ما يعتنقه جوفر من أفكار بأن الألمان ليسوا أقوياء في الألزاس واللورين، وأنهم لن يستطيعوا أن يدافعو ضد الروس وفي نفس الوقت قادرين على غزو بلجيكا، ونتيجة لذلك الاستطلاع وقناعة جوفر

المسبقة فقد طرح ذلك الاحتمال من حساباته، غير مدرك أن الحدود الروسية كانت فعلاً ضعيفة، بينما كانت الاستعدادات لغزو بلجيكا تجري على قدم وساق، وانتهى مصير الخطة 17 إلى الفشل، فقد كانت الدفاعات الألمانية في الألزس واللورين أقوى مما كان يتوقع الفرنسيون، وفي خلال أسابيع قليلة تم دفع الفرنسيين إلى التقهقر إلى الخلف إلى مواقعهم الأولى، بينما تقدم الألمان بدون مقاومة تقريبًا عبر بلجيكا وشمال فرنسا، وكانوا يهددون باريس منفذين في ذلك خطة شليفن وأثبت الهجوم الذي شنه الفرنسيون على الألزاس واللورين أنه كارثة، فقد تم صده من قبل الدفاعات الألمانية، الأمر الذي جعل الفرنسيين يلجئون بشكل كبير للدفاع، والأمر الوحيد الذي سمح للفرنسيين وحلفائهم من البريطانيين بإيقاف تقدم الألمان في معركة المارن الأولى هو قيام القيادة العليا الألمانية بتحويل اتجاه بعض القوات إلى الجبهة الشرقية، ومن أجل هجوم مضاد في الألزاس (والذي قام الفرنسيون بصده) ولم يكن فشل الخطة 17 الفرنسية فشلاً كاملاً؛ فقد كانت خطة شليفن الألمانية تقوم على وضع دفاعات ضعيفة في الألزاس واللورين لجذب الفرنسيين بعيدًا عن باريس إلى داخل ألمانيا، بحيث يتم تطويقهم من جانبين، ثم تدميرهم تمامًا، وقد مكن عدم استيلاء الفرنسيين على الألزاس والانسحاب إلى خطوط خلفية الفرنسيين من الانتصار في معركة المارن الأولى والتي سنتعرض إليها فيما بعد.

غزو لكسمبورج

وبداية كانت لوكسمبورج مرحلة انتقالية لجيش البريخت فون فورتمبرج الرابع الألماني، فقد كانت أحد السكك الحديدية تمر من شمال الراين إلى فرنسا عبر مدينة ترواسفيرج في أقصى شمال لوكسمبورج، وكان أول خرق ألماني لسيادة لوكسمبورج وحيادها هو استخدام محطة ترواسفيرج، وقد

اعترض إيشن ولكنه لم يكن يملك إزاء ذلك إلا الاحتجاج، وفي اليوم التالي قام الألمان بالغزو الشامل، فقد تحركت القوات الألمانية عبر جنوب شرق لوكسمبورج وعبروا نهر الموزيل عند مدينتي رميش وفاسربيليج، واتجهوا صوب العاصمة مدينة لوكسمبورج، وتم نشر عشرات الآلاف من القوات الألمانية في لوكسمبورج في غضون أربع وعشرين ساعة، وأعطت الدوقة ماري ديلايد أوامرها لجيش لوكسمبورج الصغير -والذي كان عدد جنوده أقل من أربعمائة فرد- بعدم المقاومة نهائيًا، وفي مساء الثاني من أغسطس التقت هي وإيشن مع القائد الألماني أوبرست ريتشارد كارل فون تيسمار في مدينة لوكسمبورج عند جسر أدولف، وأبدت اعتراضًا لينًا على عملية الغزو، ولكن كل من الدوقة ورجل السياسة المسن إيشن قبلا بحقيقة كون الغزو الألماني لا يمكن تحاشيه، وفي نفس اليوم قام المستشار الألماني ثيوبالد فون بيتمان هولفيج بتبرير الاحتلال الكامل للوكسمبورج باعتباره ضرورة عسكرية مدعيًا أنه إذا لم تقم ألمانيا باحتلالها فقد كانت فرنسا ستقوم بذلك، وقد رفض الوزير الفرنسي في لوكسمبورج هذه المزاعم مدعيًا أن فرنسا لم تكن لتنتهك حياد لوكسمبورج ما لم تكن ألمانيا قد قامت بذلك أولا، وحاول بيتمان هولفيج أن يعرب عن أسف بلاده، وذلك بعرض تعويضات عن الخسائر التي لحقت بلوكسمبورج بسبب التواجد العسكري الألماني فيها.

غزو بلجيكا

أملت التغييرات التي أجراها مولتكة على خطة شليفن على الجناح الأيمن الألماني أن يمر في فجوة الموز بين هولندا والاردين، وهو ممر ضيق تتحكم فيه مدينة لييج، والفشل في الاستيلاء على لييج وشبكة القلاع الاثني عشر المحيطة بها هو الذي أودى بالجداول الزمنية للخطة الألمانية منذ البداية، وكانت مهمة سحق لييج ملقاة على عاتق قوة مكونة من ستة

ألوية، وعلى رأسها أريش فون لودندورف والـذي بحكـم رئاسـته للقسـم الخاص بالتعبئة والانتشار في رئاسة الأركان من 1908 إلى 1913 قد ساهم بشكل كبير في التخطيط، وكانت الاستحكامات تسـتطيع احتمـال قـذائف من عيار 21 سنتيمتر، ولكن سكودا في بيلسن وكروب في آسن كانت قـد أنتجت ألبرتا الضخمة عيار 30.5 سـنتيمتر و 42 سـنتيمتر القـادرة علـى إطلاق قذائف خارقة للـدروع بمـدى سـبعة اميـال، وكـان النشـر السـيئ للقوات من العوامل التي أضعفت الدفاع البلجيكي، ودعـا الملـك ألـبرت كقائد أعلى إلى التركيز على الموز بين نامور ولييج، بحيث يستطيع الجيش البلجيكي أن يعطل الألمان حتى وصول الدعم الفرنسي البريطاني، غـير أن رئيس الأركان البلجيكي الجنـرال دي سـيلييه دي مورانفيـل قـام بوضـع معظم قواته بحذر في الوسط خلف نهر جيت، بحيـث يمكـنهم أن يقومـوا بتغطية بروكسل أو أن يرتدو إلى أنتورب عنـد الضـرورة، وبالتـالي وعنـد اندلاع الأزمة فإن الملك ألبرت كان بالكاد لديه الوقت لإرسـال فرقـة إلى نامور وفرقـة أخـرى ولـواء لتعزيـز لييـج، وبـدأ الهجـوم في الخـامس مـن أغسطس بشكل سيئ للألمان، وعندما زادت الخسائر قام لودندورف بنفسه بقيادة الهجوم في الوسط، وبحلول السـابع مـن أغسـطس كـان الألمـان قـد اخترقوا شبكة الاستحكامات ودخلوا لييج، حيث قام لودنـدورف بجـراءة بتأمين استسلام القلعـة. وقـد صـمدت القـلاع البلجيكيـة إلى أن بـدأت مدافع الهاوتزر الضخمة في الاشتراك بالمعركة وفي الثاني عشر من أغسطس وبعد مضي أربعة ايام من القصف العنيف استسلمت الحصـون مما سمـح للجناح الأيمن الألماني بالتقدم، ثم تم نقـل لودنـدورف الـذي أصـبح الآن بطلا قوميًا إلى الجبهة الشرقية كرئيس أركان للجيش الثامن بقيادة الجنرال باول فون هندنبورج، وأدى عدم ظهـور القـوات الإنجليزيـة الفرنسـية إلى إقناع الجيش الميداني البلجيكي بالانسـحاب في اتجـاه أنتـورب في الثـامن عشر من أغسطس، وبعد يومين من ذلك دخل الألمان بروكسـل، وسـقطت مدينة نامور التي قامت مدافع الهاوتزر الألمانية الثقيلة بقصـفها، وذلـك في الثالث والعشرين من أغسطس، وتبعتها آخـر حصـونها بسـرعة، وللحفـاظ

على الجدول الزمني للعمليات لتجنب ترك قوات مؤخرة كبيرة العدد لجأ الألمان إلى سياسة التخويف Schrecklichkeit في محاولة لقمع السكان المحليين عن طريق إعدام المدنيين أو تدمير ممتلكاتهم ومنازلهم، فعلى سبيل المثال كان ثمن المقاومة المزعومة لمؤخرة الجيش الأول هو حرق لوفين ومكتبتها التي ضمت الكثير من مخطوطات العصور الوسطى التي لا يمكن تعويضها، ويمكن أن نتساءل هل كان لدفاعات ليبج والمقاومة اللاحقة على سقوط المدينة أي أثر في تأخير التقدم الألماني، فقد كان يمكن للألمان أن يكسبوا أربعة أو خمسة ايام إذا كانت المقاومة البلجيكية أضعف مما كانت عليه، ولكنهم كانوا ما يزالون قادرين على اجتياز بلجيكا والذي أضر فعليًا بخطة الألمان هو الحاجة إلى إرسال خمسة فيالق من الجناح الأيمن لاستغلالهم في نامور وموبوج وأنتورب.

القلاع البلجيكية

عقب انتهاء الحرب الفرنسية البروسية بين عامي 1870 و 1871 أدركت بلجيكا مدى هشاشتها في مواجهة أي غزو أجنبي وخصوصًا من جانب فرنسا وألمانيا، وفي عام 1880 أسند الملك ليوبولد الثاني إلى المهندس البلجيكي الجنرال "هنري بريالمون" مهمة وضع خطة للدفاع عن البلاد، وكان الناتج النهائي هو بناء سلسلة من اثنتي عشرة قلعة حول "ليبج" وتسع قلاع أخرى حول "نامور" والتي تعترض الطرق التي ستسلكها أي قوات تقوم مستقبلا بغزو بلجيكا، وتم التخطيط لبناء قلاع إضافية عند "أنتورب" لتدعيم تلك القلاع التي كانت مبنية بالفعل هناك كرد فعل للتهديد الذي مثلته قوات نابوليون الثالث في عام 1859، وبحلول عام 1890 كان بناء القلاع قد اكتمل، وشعر البلجيكيون بأنهم آمنون داخل الثلاث سلاسل من القلاع الكبيرة، وكانت القلاع مسلحة بشكل جيد مثل مدافع سريعة الطلقات من عيار 57 ملم ومدافع 150

ملم وهاوتزرات عيار 210 ملم، وكانت المدافع والهاوتزرات الأثقل عياراً يتم وضعها في قباب مسلحة بالدروع، ومصممة لحمياتها من نيران الدانات شديدة التفجير، وكان مسئولا عن الدفاع عن القلاع الكبيرة طاقم قوامه خمسمائة جندي بما فيهم جنود المشاة.

عيوب التصميم

كان تصميم القلاع وتوزيعها الجغرافى يشوبه عيوب خطيرة وخصوصًا عند تحسن المركبات الكيماوية للمتفجرات وصناعة المعادن الخاصة بالدانات:

أولاً: كانت الأبراج ضعيفة وخصوصًا عندما تكون في موقع مرتفع، وعلاوة على ذلك فإن الشكل المثلث ومتعدد الأضلاع للقلاع والخنادق الجافة المحيطة بها كان يساعد على تركيز نيران المدفعية الثقيلة على مراكز القلاع، الأمر الذي زاد من هشاشتها، وكان الدمار الذي تحدثه دانة مدفع ألمانية واحدة في قلعة "لانسين" كبيرًا.

ثانيًا: وكانت الطريقة التي يتبعها البلجيكيون لصب الخرسانة خطأ آخر، فكان يتم صب الخرسانة في طبقتين الأمر الذي قلل من مقاومتها، وتؤكد بعض المصادر أن خليط الخرسانة البلجيكية كان من جودة أقل من تلك الفرنسية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، وثبت عدم كفاية الثلاث أمتار خرسانة التي كان ينادي بها البلجيكيون، وأثبت التصميم البلجيكي أنه غير كافٍ، وكذلك لم يكن البلجيكيون يستخدمون الحديد المسلح، وبخلاف القلاع الفرنسية لم تخضع القلاع البلجيكية لعملية تحديث لتواكب التطورات الجديدة في المدفعية منذ عام 1890 إلى عام 1914.

ثالثًا: فإنه من الناحية التكتيكية لم يكن للقلاع بين "نامور" و"لييج"

طريق للربط بينها ولدعم بعضها البعض، ولم يكن هناك موقع وسيط قد تم بناؤه بينهما، ولم تكن القلاع في "ليبج" تقع في مواقع تمكنها من دعم بعضها البعض.

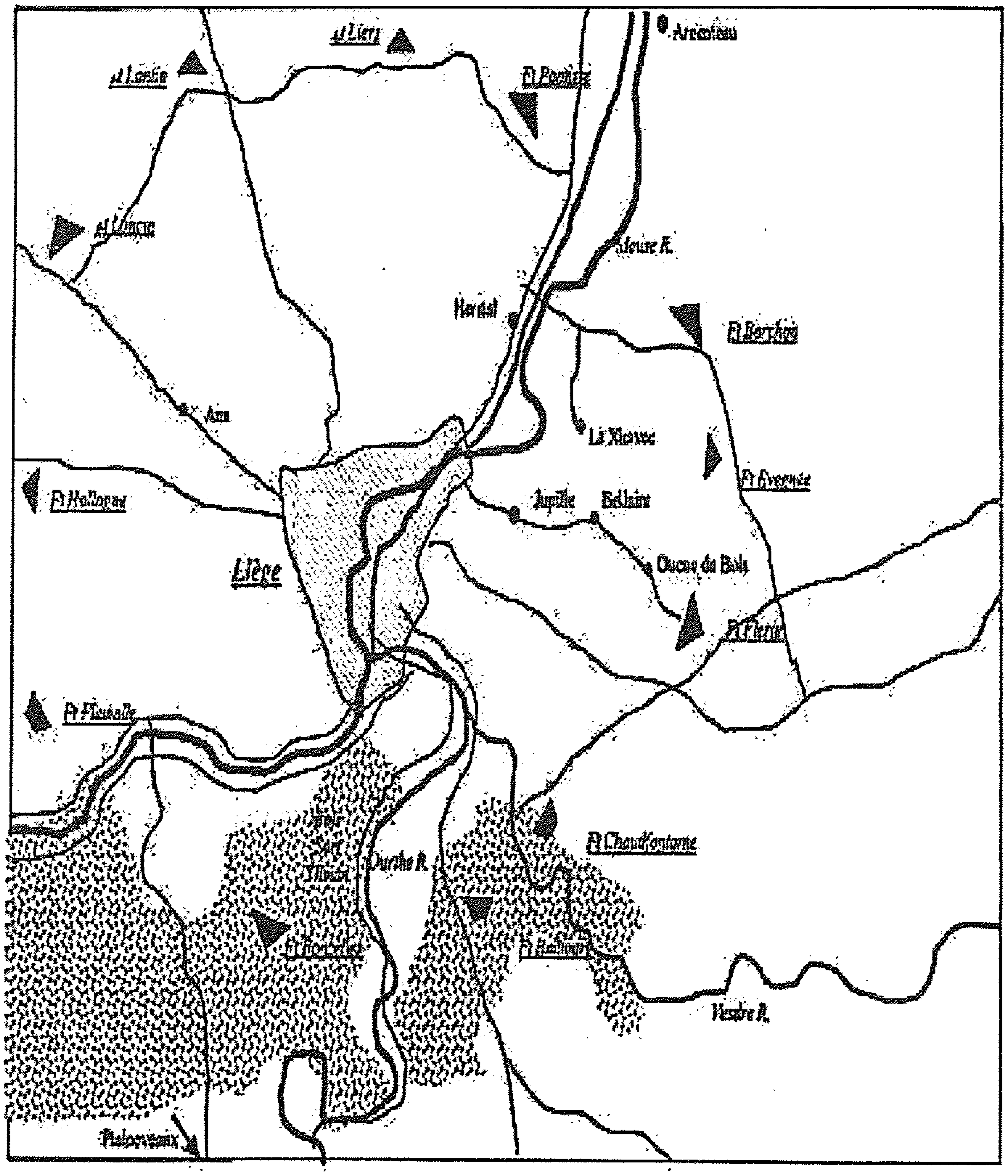

خريطة تبين توزيع القلاع حول مدينة لييج البلجيكية

معركة لييج

تقع مدينة "لييج" البلجيكية عند نقطة التقاء نهري "المـوز" و"أورت" بـين غابـات الارديـن إلى الجنـوب مـن "ماسـتريخت" في هولنـدا وسـهل الفلاندرز الممتد إلى الشمال والغرب، وكان نهر "الموز" يسيل مـن خـلال وادٍ ضيق في "لييج" مما يعرقل بشكل كبير التقدم الألمـاني، وكانـت تقـع على خط السكك الحديدية الرئيسي من ألمانيـا إلى بروكسـل، وينتهـي في باريس نفس خط السكك الحديدية الذي كـان كـل مـن "فـون شـليفن" و"فون مولتكة" يخططان لاستخدامه في النقـل إلى فرنسـا، وكانـت هنـاك مرافق صناعية كبيرة ومصانع ومرافق أخرى، يمكنهـا المسـاعدة في الـدفاع عن المدينة وبالإضافة إلى ذلك سلسلة مكونة من اثنتي عشرة قلعة والـتي تم استكمالها بقطر من سـتة إلى عشـرة كيلـومترات حـول المدينـة في عـام 1891 كما ذكرنا، وكانت منـاطق التغطيـة النيرانيـة الخاصـة بكـل قلعـة تتداخل مع منطقـة التغطيـة الخاصـة بالقلعـة المجاورة، وقـد تم تصـميمها بحيث إذا هوجمت إحدى القلاع تستطيع القلعتان المجاورتان توفير الـدعم المدفعي، فقد كانت تفصل بين كل منها مسافة أربعة كيلـومترات تقريبًـا، وكانت القلاع تتخذ الشكل المثلث أو المربع يحيط بها خندق وشبكة مـن الاسلاك الشائكة، وكانت مبنية بالكامل من الخرسـانة كمـا ذكرنـا سـلفا بالإضافة إلى تسليحها من المدفعية بأعيرة مختلفة، وكانت تدافع عنها أطقـم مـن جنـود المشـاة المسـلحين بالرشاشـات وآخـرين مسـلحين كـذلك بالرشاشات، وكانت الرشاشات مركبة علـى الأبـراج وكانـت تـدور علـى محورها 360درجة، وكان يمكن رفع أبراج المدافع من عيار 57ملم لإطـلاق النار، وفي المجموع كان بكل قلعة عدد 8قطعة مدفعية، وكان بتلك القلاع مخـازن للـذخيرة ومبيـت للجنـود يتسـع لخمسـمائة جنـدي، ومحركـات كهربائية للإنارة، ولم تكـن القـلاع تتصـل ببعضـها الـبعض عـن طريـق أسلاك التلفون أو التلغـراف، وكـان هـدف القيـادة الألمانيـة تحييـد تلـك القلاع؛ لأنها تقف في طريـق تقـدم جنـاح الـيمين الألمـاني للسـماح لـه

بالتقدم إلى شمال فرنسا عبر بلجيكا، وكان مقررًا أن يتم ذلك في يومين فقط وفقًا للخطة الأصلية، حيث كان المخططين الألمان قد اعتبروا أن القوات البلجيكة أن قامت بمقاومة القوات الألمانية، فإن مقاومتهم ستكون رمزية، وقد ثبت خطأ ذلك الاعتقاد فيما بعد، وكانت هناك العديد من نقاط الضعف في القلاع كانت الأرض صعبة جدًا من حيث إمكانية تغطيتها نيرانيًا، حيث كان هناك الكثير من الوديان التي تجري في الغابات المحيطة، وكانت الدفاعات البينية قد تم بناؤها قبل المعركة مباشرة ولم تكن دقيقة، ولذا لم يكن بإمكانها إيقاف الألمان عن اقتحام المدينة، وكانت القلاع ضعيفة في المؤخرة، وكان ذلك هو الاتجاه الذي قصف منه الألمان القلاع، وكانت ظروف التهوية وتركيبات الإعاشة والتركيبات الصحية غاية في السوء، الأمر الذي نتج عنه نقص الهواء وروائح فظيعة، ولم تكن الخرسانة على أحسن حال وكانت القلاع مصممة لتتحمل هجومًا من مدافع حتى عيار 210ملم وهو آخر عيار معروف في عام 1890 الذي تم فيه إكمال بناء القلاع، وكان الليوتنانت جنرال "جيرار ماتيو ليمان" قد تم اختياره ليقود الفرقة الثالثة، وتحصينات "ليبيج" وكان ضابطًا قضى سنوات طويلة في الخدمة، وكان معلمًا عسكريًا للملك ليوبولد، وكان قد تلقى أوامر من الملك ألبرت الأول تقضي بالتمسك بالقلاع إلى النهاية، وكان لديه قوة قوامها حوالي ثلاثون ألفا من الجنود للدفاع عن المناطق بين القلاع، وحوالي ستة آلاف جندي موزعين على القلاع بما يشمل أعداد الحرس المدني لملء الدفاعات، ومن أجل أن يقوم الألمان بتقليل الأعداد التي تقوم بالدفاع عن القلاع خصص الألمان قوة من ستين ألف جندي وتدعى جيش "الموز"، وتتكون من ستة ألوية مشاة وفرقتين خيالة الثانية والرابعة بالإضافة إلى خمسة كتائب مشاة خفيفة، ونظرًا لأهمية تلك المرحلة من الخطة الألمانية فقد عمد الألمان إلى إسنادها إلى الجنود النظاميين الذين كانوا منخرطين في الخدمة العسكرية في وقت السلم بدلا من الاعتماد على القوات الجديدة التي كان يتم استكمال تجنيدها وحشدها في ذلك الوقت من الحرب، وتم إسناد قيادة تلك القوة إلى

الجنـرال "أوتـو فـون اميش" ويصـحبه ضـابط الأركـان "آريـش فـون لودندورف" كمراقب والذي كان بصفته رئيسًا لشـعبة التعبئـة والانتشـار برئاسة الأركان الألمانية بين عامي 1908 و1913 كـان قـد اضـطلع بـدور كبير في التخطيط للعملية، وبعد إعلان الحرب على بلجيكا في الثالث من أغسطس ورفض بلجيكا للإنـذار الألمـاني بالاستسـلام دخلـت جماعـات الاستطلاع والمفارز الأولى للقـوات الألمانيـة المكلفـة بـاحتلال القـلاع إلى الأراضي البلجيكية بعد أن عـبرت الحـدود في السـاعة الثامنـة مـن اليـوم الرابع من أغسـطس، وتقـدمت الخيالـة إلى نهـر "المـوز"، ولكنهـا وجـدت الجسر الذي يعبر النهر قد تم تدميره، ولتجد مقاومة أكثر ممـا كـان الألمـان يتوقعونه إلا أنه وفي أواخر وقت الظهـر مـن نفـس اليـوم نجحـت الخيالـة الألمانية في العبور إلى الشمال عنـد "فيزيـه" ولاقتهـا هنـاك قـوات اللـواء الثاني عشر، وقاتلت القـوات البلجيكيـة بشـكل لا بـأس بـه إلا أنهـا في النهاية اضطرت للانسحاب إلى خط القلاع، وكانـت القـوات الألمانيـة قـد توقفت حتى انتهاء تلك الليلة عـن التقـدم لتسـتأنف هجومهـا في اليـوم التالي بقصف مدفعي عنيف للقلاع البلجيكية، وسارعت الفرقـة الثالثـة البلجيكية التي كانت تقوم بالدفاع عن المدينـة ببنـاء تجهيـزات هندسـية، وفي نفس اليوم نجحوا في صد هجوم للمشاة الألمانية التي تمر بين القلاع، وكان قد تم صد هجوم على قلعة "بارشون" وتكبـد فيـه الألمـان خسـائر كبيرة بسبب الرشاشات والمدفعية، وبعد فشل الهجوم نفذ الألمان أول غـارة جوية في التاريخ، وذلك باستخدام المناطيد لإسقاط القنابل علـى "ليـيج"، وفي نفس الوقت تحركت الخيالة إلى الجنوب مـن "فيزيـه" لتطـوق المدينـة، وبدا أن المدينة ستسقط قريبًا ولذا أصـدر "ليمـان" أوامـره للفرقـة الثالثـة بالانسحاب من المدينة والانضمام إلى الجيش البلجيكـي الـذي يحتشـد في الغرب، وقد تسلم "لودندورف" قيادة اللواء الرابع عشر بعد أن كـان بـلا قيادة والذي تمكن من شق طريقه بين القـلاع، وتمكـن ذلـك اللـواء مـن الاستيلاء على المدينة في السـابع مـن أغسـطس، حيـث قـام "لودنـدورف" بإرسـال جماعـة إلى المدينـة للمطالبـة باستسـلامها، ومـرة أخـرى رفـض

البلجيكيون العرض الألماني فقام "لودندورف" على أثر ذلك بإغارة على مقر قيادة "ليمان"، وكان الهدف الرئيسي لتلك الإغارة أن يثير مخاوف "ليمان" ويدفعه إلى قلعة "لونسان" غرب المدينة، وكذلك ليرسل معظم حاميته إلى بروكسل في الخلف مدفوعًا بالاعتقاد الخاطئ أنه واجه قوات أكبر مما توقع بعدة مرات، إلا أنه وبالرغم من ذلك وبالرغم من أن قوات "لودندورف" كانت تتحرك بحرية داخل خط القلاع إلا أن المدافعين كانوا ما يزالون يدافعون عن القلاع والمدينة نفسها، وسرعان ما تغير ذلك الوضع ففي السابع من أغسطس شرع "لودندورف" بالتقدم باتجاه قلعة "لييج" القديمة والتي استسلمت بدون قتال، واعطت الفرصة للجنرال "لودندورف" للسيطرة على المدينة، والأكثر أهمية السيطرة على الجسور عبر نهر "الموز" سليمة غير أن سلسلة القلاع المحيطة استمرت صامدة معرقلة التقدم الألماني حيث كانت تقع على خط السكك الحديدية، وصمدت القلاع في وجه القصف الثقيل الذي لا يتوقف، وكذلك هجمات القوات الألمانية، ولكن معظم القلاع كانت تقوم بصد المهاجمين ودفعهم إلى الخلف ولم تتوقف عن العمل سوى قلعة "فليرون" حيث كانت آليات رفع الأبراج الخاصة بها قد تعطلت بسبب دانات المدفعية الألمانية، وكانت القلعة الوحيدة التي تم احتلالها نتيجة لهجوم المشاة هي قلعة "بارشون" والتي تم الاستيلاء عليها في العاشر من أغسطس، وللتقليل من أثر تلك القلاع عمد الألمان إلى استعمال المدفعية بشكل مكثف مثل مدافع "برتا" الألمانية ومدافع "شكودا" النمساوية من عيار 30.5سم، والجدير بالذكر أنه عند الانتهاء من بناء تلك القلاع كان الاعتقاد السائد وقتها أن أكبر مدافع يمكن نقلها برًا هي المدافع من عيار 21سم، ولذلك فإنه لا القلاع ولا جدرانها قد صممت لتحمل القصف بالعيارات الثقيلة للدانات التي كانت تنهال عليها أثناء المعارك، وكانت دانات تلك المدافع تنزل من فوق عليها مخترقة الجوانب الخرسانية، ثم تنفجر في الداخل عن طريق فتيل مؤجل، وقد أدت تلك الطريقة في القصف إلى استسلام القلاع واحدة تلو الأخرى، وكانت آخر قلعة

تستسلم هي "بونسيل" في السادس عشر من أغسطس، وفي الخامس عشر من أغسطس كان "ليمان" قد جرح عند قلعة "لونسان"، حيث تسببت دانة مدفعية ضربت مخزن الذخيرة في القلعة في تحويلها إلى ركام، ووجد الجنرال "ليمان" به وتم حمله وهو فاقد للوعي ليصبح أسيرًا للألمان، ويشير بعض المؤرخين العسكريين إلى أن العشرة أيام التي تمكنت فيها "ليج" من الصمود قد نسفت الجداول الزمنية للألمان وفقًا لخطة "شليفن" وأخرتها يومين مما أكسب الحلفاء وقتًا لم يكونوا ليملكوه إذا كانت المدينة قد وقعت قبل ذلك بيومين، إلا أن القادة الألمان ينفون أن يكون حصار المدينة قد عطل جداول تعبئة الجيش الألماني الذي كان يتم تعبئته في ذلك الوقت، ومن ناحية أخرى كانت تلك الأيام العشرة دفعة قوية للروح المعنوية للحلفاء، على الرغم من أنه لا البريطانيين ولا الفرنسيين كانت لديهم خطط للدفاع عن "ليج" أثناء الهجوم الألماني الأمر الذي سهل الاستيلاء على المدينة، ومن ناحية أخرى استغل الفرنسيون المقاومة البلجيكية للألمان في الدعاية لرفع الروح المعنوية لجيوش الحلفاء حتى قام الرئيس الفرنسي بمنح وسام صليب فيلق الشرف إلى المدينة عن مقاومتها للهجمات الألمانية طيلة عشرة أيام.

نتيجة المعركة

أزال سقوط "ليج" العائق الرئيسي الذي كان يعرقل القوات الألمانية عن التقدم عبر بلجيكا، وقلل كذلك من إيمان الأطراف المختلفة المتحاربة بالقيمة العسكرية للدفاعات والتحصينات الثابتة، الأمر الذي كان له أكبر الأثر فيما بعد في معركة "فردان"، حيث لم يضع الفرنسيون حولها دفاعات كافية نظرًا لأنهم لم يعودوا مؤمنين بقدرات القلاع.

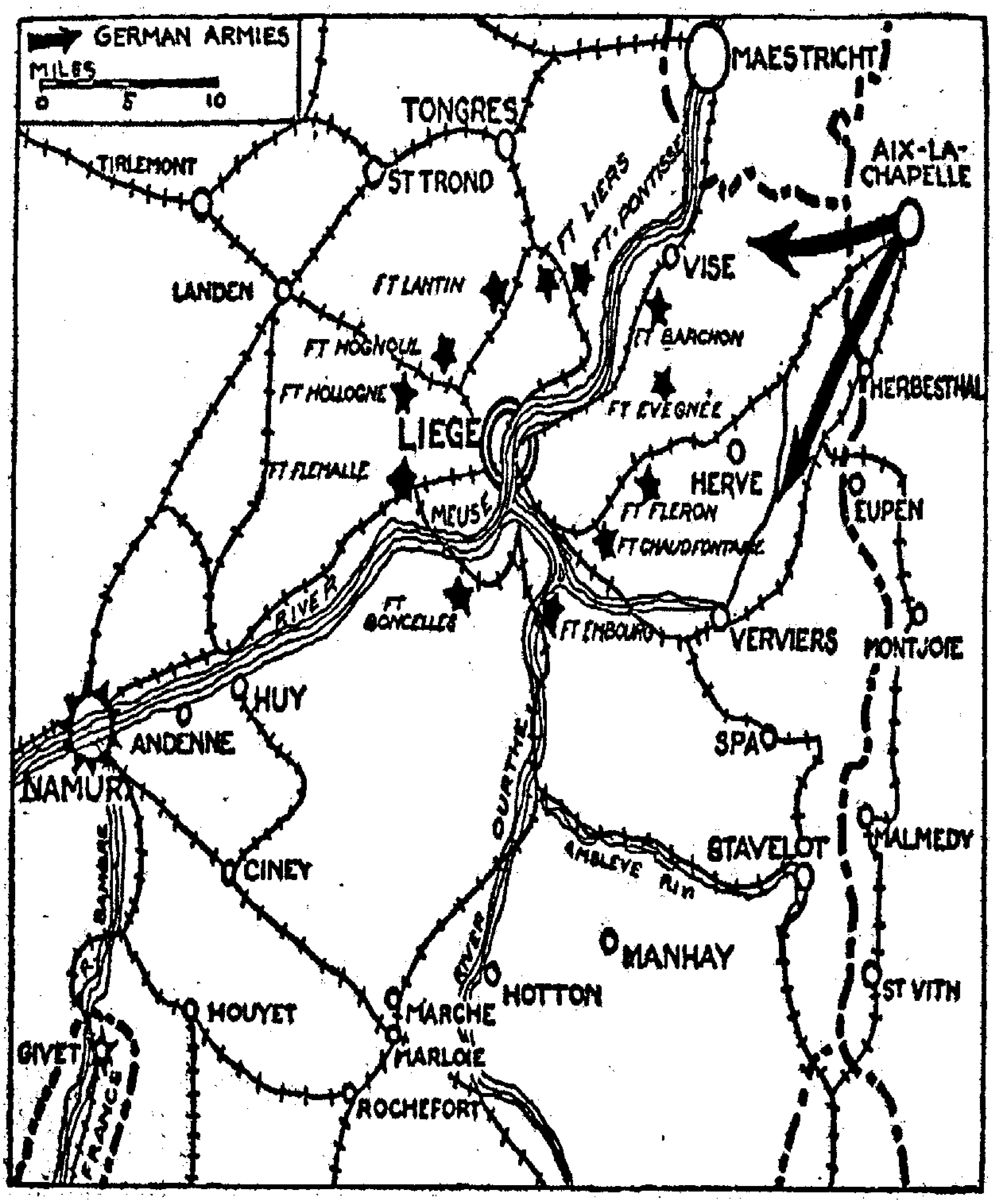

خريطة تبين أوضاع القوات المتحاربة حول مدينة لييج

غير أن ذلك الدرس لم يكن صحيحًا، حيث ثبت فيما بعد عندما هاجم الألمان "فردون" أن القلاع الحديثة المبنية بشكل جيد يمكنها أن تلعب دورًا استراتيجيًّا قيمًا في الدفاع الثابت، كذلك تسببت المقاومة البلجيكية العنيفة والتي لم يكن الألمان يتوقعونها، وأدت كما ذكرنا في تعطيل الجداول الزمنية للخطة الألمانية، حيث كان مفترضًا أن يتم احتلال

"ليبج" في ثمان وأربعين ساعة، وبدلاً من ذلك استغرق الألمان عشرة أيام كاملة للتمكن من الاستيلاء على المدينة مما أدى إلى ارتباك في الخطة الألمانية ولا ريب.

معارك الحدود

تمهيد

وضعت الخطة الفرنسية على محك الاختبار لأول مرة في السادس من أغسطس عندما تقدم فيلق "بونو" إلى مناطق الألزاس العليا، فسرعان ما أجبرت القوات الألمانية القادمة من شتراسبورج "بونو" على التقهقر، ولكن جيش الألزاس بقيادة الجنرال "بو" حاول مجددًا في الرابع عشر من أغسطس أن يستولى على "مولوز" غير أنه بتصاعد التهديدات لجناحي اليسار والوسط للحلفاء. كان على جوفر أن يسحب تشكيلات بو؛ لاستغلالها في مكان آخر على طول الجبهة مع القوات الألمانية، ولم تترك هذه التحركات الافتتاحية للفرنسيين إلا ركنًا صغيرًا من الألزاس في سفوح تلال الفوج. بدأ الجيش الأول بقيادة دوباي والجيش الثاني بقيادة الجنرال دو كاستيلنو في الاندفاع بشكل رئيسي باتجاه اللورين في الرابع عشر من أغسطس. وكان الفيلد مارشال شليفن عند وضع الخطة ينوي أن تقوم جيوش الألمانية في الجناح الأيسر بالتخلى عن الأرض للقوات الفرنسية جاذبة إياها بعيدًا عن قوات الجناح الأيمن التي ستقوم بالدور الحاسم، ولكن عندما عرض أمير بافاريا هجومًا مضادًا يقوم به الجيش السادس بقيادته، والجيش السابع بقيادة فون هيرينجن وقع مولتكة تحت إغراء النتائج المتوقعة من تطويق جانبي الجيش الفرنسي، قائلا: دعهم يستمرون. وقد كشفت الأحداث اللاحقة عن أن الحالة المعنوية التي سببها التقدم نحو "ساربورج" و"مورانج" في العشرين من أغسطس لم تستطع أن

تنتصر على المدفعية الحديثة والرشاشات الألمانية. وقد تم دفع القوات الفرنسية والتي كانت قد بدأت تعاني من خسائر ضخمة إلى الخلف باتجاه الاستحكامات الحدودية، وبالرغم من إظهارهم لقوتهم وعزمهم على تنظيم دفاع ناجح عن "نانسي" وخط الموزيل غير أن التعديلات على الخطة الألمانية الأصلية لم تمكن القوات الألمانية من التعامل مع الفرنسيين بشكل صحيح وتوجيه ضربة قاتلة لهم، وعندما قلت حدة القتال في هذه المنطقة استطاع "جوفر" مرة أخرى أن ينقل قواته لدعم جناح اليسار والوسط للحلفاء. ومن ناحية أخرى بسبب تقليلهم من مدى قدرة استغلال الألمان لاحتياطياتهم ولأنه لم تكن بعد لديهم معلومات دقيقة عن الهجوم الألماني عبر بلجيكا فقد أخطأ "جوفر" في تقديره لحجم وقوة جناح الوسط الألماني، وعند إصدار الأوامر لكل من الجيش الثالث بقيادة "روفي" والجيش الرابع بقيادة "دي لانجل دي كاري" تخبط كل منهما عند اصطدامهما بالقوات الألمانية حول نوشاتو وفيرتون، واشتبكا مع القوات الألمانية في معارك دموية كان من نتيجتها أن تم صد كل منهما في ليلة الواحد والعشرين والثاني والعشرين من أغسطس. وبشكل عام فقد تعامل "مولتكة" مع العمليات بشكل ينطوي على عدم الحزم ربما أكثر من الفرنسيين، وفي السابع عشر من أغسطس قام بجهود لتحسين تنسيق الجناح الأيمن الألماني واضعًا "فون كلوك" تحت قيادة "بولوف" المتردد، وقد أثار ذلك حفيظة "كلوك" المشاكس ومنعه من نقل الجيش الأول بعيدًا إلى الغرب، الأمر الذي كان ضروريًا لتحويل الجناح الأيسر للحلفاء. غير أن القدرات الحقيقية وتحركات القوات الألمانية بدأت تتجلى في "لانريزاك" عندما كان قائد الجيش الخامس الفرنسي يقترب من "السامبر" و"موز" بين "شارلروا" و"جيفيه" ووجد الجيشين الثاني والثالث الألمانيين يتقدمان من شمال وغرب بلجيكا، وقد تسببت تحذيراته إلى نعته بين أوساط القيادة العامة الفرنسية بالانهزامي، ولكن عندما عبرت قوات

"بولوف" "السامبر" في الواحد والعشرين من أغسطس، وبعد فشل الهجمات المضادة الفرنسية في اليوم التالي فقد تبخرت أية آمال في هجوم فرنسي باتجاه الشمال الشرقي. وفي الثاني والعشرين من أغسطس وبتهور غير مسبوق وبدون انتظار الجيش الثالث بقيادة "هاوزن" قام "بولوف" بالضغط على الفرنسيين لدفعهم خمسة أميال اضافية، وقد تعارض ذلك مع التأثير الذي أحدثه عبور "هاوزن" لنهر "الموز" في 23 أغسطس؛ لأنه مع إبعاد الجيش الفرنسي إلى الجنوب أكثر مما كان مقدرًا فقد كانت مهاجمة مؤخرته أصعب نسبيًّا. وبالرغم من ذلك فإنه عندما ظهر "هاوزن" على يمينه شعر "لانريزاك" بأن عليه أن يتصرف على الفور؛ ليتجنب الكارثة، ويطلق مصطلح معارك الحدود على سلسلة من المعارك التي دارت رحاها بطول الحدود الشرقية لفرنسا وفي جنوب بلجيكا بعد اندلاع الحرب بقليل، وكانت تلك المعارك صدامًا بين الاستراتيجيات العسكرية للأطراف المتحاربة، تحديدًا كان ذلك صداما بين الخطتين الألمانية والفرنسية بين خطة "شليفن" والخطة 17 الفرنسية، وكان هدف الخطة الفرنسية كما سلف الذكر هو استرداد مقاطعات الألزاس واللورين والتي فقدتها فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية، وتثبيت القوات الألمانية في الراين ومهاجمة الوسط الألماني عبر جنوب الاردين، وبخلاف الخطة الفرنسية كانت الخطة الألمانية قد تنبأت بالنوايا الفرنسية، وقرر المخططون الألمان الالتزام بسياسة دفاعية في الوسط والتمسك بجبهة اللورين والألزاس بأقل القوات الممكنة، والإبقاء على معظم القوات الفرنسية مشتبكة هناك، وتكون القوة الأساسية الألمانية على جناح اليمين وتندفع من بلجيكا المحايدة، ثم إلى داخل فرنسا والانقضاض على باريس، ثم تنفيذ مناورة تطويق عملاقة هدفها وضع القوات الفرنسية في فخ بين قوات ألمانية من جانبين وتدميرها بسرعة إلى آخر كل تلك التفاصيل التي تناولناها عند شرحنا لخطة "شليفن"، ولكن أحد أكبر عيوب تلك الخطة

هي أنها لم تفترض قيام بريطانيا بالحرب إلى جانب تلك الدول كحليف، وظنت أنها ستبقى على الحياد واعتبرت أن القوة الإنجليزية ممثلة في الجيش النظامي أصغر من أن تمثل تهديدًا أو تأثيرًا حتى لو تدخلت في القتال، وكانت الدفاعات الحدودية الفرنسية تتكون أساسًا من منطقة محصنة من "فردان" إلى "تول" وقلاع معزولة مثل "إيبينال" و"بلفور" وفي الشمال اعتمدت فرنسا على أرض غابات الاردين الوسطى التي لا يمكن اجتيازها، وتخيلت ان تظل بلجيكا على الحياد ولا تستخدم أراضيها ضدها، ولذا ارتأت الخطة الفرنسية هجومًا ذا شقين شمال وجنوب خط "فردان - تول" ففي الجنوب سيقوم الجيشان الأول والثاني بالهجوم على اللورين، وفي الشمال تقوم الجيوش الثالث والربع والخامس بالهجوم عبر الاردين الجنوبية باتجاه لوكسمبورج، وعلى الجناح الأيسر للجيش الخامس الفرنسي المواجه للحدود البلجيكية كانت قوات الحملة البريطانية والتي تركزت قرب قلعة قرية "موبيج"، وكانت القوات الألمانية على الحدود مساوية للقوات الفرنسية في الإعداد والتوزيع، وحتى في كونها مقسمة إلى شمال وجنوب المنطقة المحصنة بين "ميتس" و"تيونفيل" غير أنه وفي بلجيكا إلى الشمال كانت القوات الألمانية التي ستخوض المواجهة مع الجيش الخامس الفرنسي وقوة الحملة البريطانية هي الجيوش الأول والثاني والثالث الألمانية والتي تشكل الجناح الأيمن لخطة "شليفن".

حسابات جوفر الخاطئة

بالرغم من أن ألمانيا قامت بغزو بلجيكا في الرابع من الغسطس وبدأت في حصار "ليبج" وبالرغم من كل الادلة التي تفيد تجمع القوات الألمانية شرق "ليبج" فإن القائد العام الفرنسي "جوزيف جوفر" طرح تمامًا فكرة وجود تهديد من ناحية جناحه الشمالي، وأصر على الاستمرار في تنفيذ

الخطة 17، بل إنه رحب بفكرة أن يكون الجناح الأيمن الألماني قويًّا معتقدًا أن الألمان لكي يقوموا بتقوية جناحهم الأيمن لابد أن يؤثر ذلك على جناحهم الأيسر الذي سيقوم هو بالهجوم في مواجهته، وسبب ذلك في الحقيقة هو أنه وفي عام 1913 صرح الجنرال "نويل دي كاستلنو" والذي كان ساعتها نائب رئيس الأركان في الجيش الفرنسي بأن هجوم الألمان من الفلاندرز سيكون أفضل لفرنسا، وظلت وجهة النظر تلك سائدة في القيادة العليا الفرنسية وحتى عندما بدأت الجيوش الألمانية في الاندفاع من بلجيكا في وسط أغسطس قال نائب جوفر:

" إذا ارتكب الألمان حماقة محاولة تطويقنا عبر شمال بلجيكا فسيكون ذلك أفضل، فكلما ازداد عدد رجالهم في الجناح الأيمن كلما سهل علينا أن نخترق خطوط الوسط التابعة لهم".

الهجوم الفرنسي

وفي السابع من أغسطس بدأ أول هجوم فرنسي في الحرب العالمية الأولى والمعروف بهجوم "مولوز"، وبدأ في الجنوب عندما قام الفيلق السادس الفرنسي وفرقتا مشاة وفرقة خيالة بالتقدم إلى داخل جنوب الألزاس بهدف الاستيلاء على مدن "مولوز" و"كولمار"، وتم الاستيلاء على "مولوز" بدون قتال، وأدى ذلك إلى احتفالات ضخمة بطول فرنسا وعرضها، غير أن الألمان ما لبثوا أن قاموا بهجوم مضاد في التاسع من أغسطس مما أجبر الفرنسيين على البدء في انسحاب بطيء انتهى في اليوم التالي، وعلى أثر ذلك قام "جوفر" بإرسال فرقتين لدعم القوات المهاجمة، ولكنهما وصلتا متأخرتين ولم تستطيعا منع سقوط "مولوز" وكرد فعل على صد الفيلق السادس والفرق الأخرى أرسل الجنرال "جوفر" فرقًا أخرى إضافية من جيش الألزاس بقيادة الجنرال المتقاعد "بول بو".

معركة مولوز

كانت تلك المعركة -كما ذكر- هي أول هجوم يشنه الفرنسيون في تلك الحرب، ويدأ الهجوم في الساعة الخامسة صباحًا في السابع من أغسطس، وكما قلنا فإن المعركة كانت جزءا من الخطة الفرنسية لاستعادة الألزاس ثم اللورين، وبغض النظر عن البعد القومي لمسألة الاستيلاء على الألزاس فإنه أي من الناحية العسكرية احتلال القوات الفرنسية للألزاس سيضعها في موقع يسمح لها بحراسة جناح القوات الفرنسية التي سوف تتحرك إلى الشمال، وكان الجنرال "بونو" هو الجنرال الذي أسندت إليه قيادة عملية الاستيلاء على "مولوز"، ووضعت تحت قيادته قوة من الجيش الأول بالإضافة إلى فرقتي مشاة وفرقة خيالة، وكان على تلك القوة مواجهة الجيش السابع الألماني بقيادة الجنرال "فون هيرينجن"، وبعد أن عبرت القوات الفرنسية الحدود في صباح ذلك اليوم تمكن الفرنسيون من احتلال مدينة "التكيرش" الحدودية بعد هجوم بالسلاح الأبيض غير أن "بونو" -الذي أثارت قلة كثافة الدفاعات الألمانية شكه- كان يتخوف من التقدم أكثر خشية أن يضع نفسه في فخ أعده الألمان بعناية إلا أنه وتحت ضغط الأوامر التي صدرت بالتحرك إلى الراين في اليوم التالي استأنف "بونو" تقدمه، وتمكن من احتلال "مولوز" بعد أن تركها الألمان بدون قتال، وبالرغم من موجة الاحتفالات الضخمة التي أثارها الاستيلاء على "مولوز" في كل أنحاء فرنسا وبرغم أن أهالي المنطقة كانوا ينظرون إلى القوات الفرنسية على أنها قوات تحرير وخلاص إلا أن الألمان ما لبثوا أن عاجلوا الفرنسيين بهجوم مضاد في صباح يوم التاسع من أغسطس قرب "سرناي" بعد أن وصلت احتياطياتهم من "ستراسبورج"، ونظرًا لغياب أية احتياطيات فرنسية قريبة لم يكن الفرنسيون قادرين على القيام بدفاع مركز، وبدأ "بونو" في سحب قواته في نفس اليوم، وعلى الفور أرسل القائد العام "جوفر" فرقة من الاحتياط للمعاونة في الدفاع عن المدينة،

ولكنها وصلت متأخرة بحيث لم يكن بإمكانها عمل أي شيء، وتراجع "بونو" باتجاه "بلفور" لكي يتفادى التطويق.

معركة اللورين

بدأ الهجوم الفرنسي الرئيسي في الجنوب -والمعروف باسم معركة اللورين- في الرابع عشر من أغسطس عندما تقدم الجيش الأول بقيادة الجنرال "أوجوست دوباي" باتجاه "ساربورج" بينما اتجه الجيش الثاني بقيادة الجنرال "دي كاستلنو" نحو "مورانج" وقد رحب الألمان بتلك التحركات الفرنسية، وخصوصًا الجيشين السادس والسابع، وكانا تحت القيادة المشتركة للأمير "روبرخت" وكان "روبرخت" مسئولاً عن القوات الألمانية المكلفة بالاشتباك مع الفرنسيين عند هجومهم في الوسط حتى يتم تطويقهم بواسطة الجناح الأيمن الألماني، وكان جنود المؤخرة الألمان المسلحين بالرشاشات قد كبدوا المشاة الفرنسية خسائر فادحة، والذين كانوا ما يزالون يرتدون أزيائهم التي تعود إلى القرن التاسع عشر والمكونة من المعاطف الزرقاء والسراويل الحمراء.

الهجوم الألماني المضاد

لم يكن الأمير "روبرخت" راضيًا عن الدور الدفاعي الموكل إليه، وقد التمس من قيادته السماح له بشن هجوم مضاد، وكان ذلك مخالفا بشدة للخطة الألمانية ككل إلا أنه وتحت الإلحاح المستمر من قبل "روبرخت" تخلت القيادة الألمانية عن سياسة الدفاع في تلك المنطقة، وتم إصدار الأمر بالهجوم، وبالفعل بدأ الهجوم المضاد في العشرين من أغسطس وعلى أثره أصدر الجنرال "دوباي" أوامره بالانسحاب من "مورانج"، وقد تسبب ذلك في تعرية الجناح الأيسر للجيش الاول الفرنسي بقيادة الجنرال "نويل دي

كاستلنو"، الذي ما إن رأى ذلك حتى تقهقر خارجا من "ساربورج"، واضطر جيش الإلزاس بقيادة الجنرال "بو" للتراجع، وفي الثاني والعشرين من أغسطس كانت القوات الفرنسية قد عادت إلى خطوط البدء. عند نهر "الموزيل"، ولم يتوقف الألمان عند الحدود وبدلاً من ذلك تقدموا وحاولوا الاستيلاء على "نانسي"، وتمكن الفيلق العاشر بقيادة الجنرال "فوش" من الدفاع عن المدينة بنجاح، وتمكن من وقف الهجوم الألماني، وتحولت المعارك إلى وضع راكد حتى الرابع والعشرين من أغسطس عندما قام الألمان بشن هجوم محدود، وكان الفرنسيون قد استطلعوا أرض المعركة قبل بدء الهجوم وعلموا بنوايا الألمان في الهجوم، الأمر الذي قلص المكاسب الألمانية وقصرها على نتوء صغير من الأرض، وفي اليوم التالي فَقَدَ الألمان ذلك النتوء عندما هاجم الفرنسيون، واستمر القتال حتى نهاية الشهر، وفي ذلك الوقت كان يتم بناء الخنادق، وتبع ذلك ما يشبه السكون في تلك الجبهة، وكانت خطة "شليفن" الألمانية قد تبعثرت حينما شن الامير "روبرخت" ذلك الهجوم بين "تول" و"ايبينال" والذي بدأ في الثالث والعشرين من أغسطس، غير أن القوات الفرنسية كانت تحتل دفاعات جاهزة وتمكنت من صد الهجوم الألماني والذي استمر أربعة أيام، وكانت القوات التي استخدمت في هجوم "روبرخت" من الممكن استخدامها في المارن حيث كانت ستثبت فائدتها.

هجوم الاردين

بموجب الخطة 17 الفرنسية كان الهجوم في الوسط سيتم بواسطة الجيوش الثالث والرابع والخامس الفرنسيين، ولكن قبل الوقت الذي تقرر فيه الهجوم كانت الخطة على وشك الانهيار، وكان قائد الجيش الخامس الشمالي الجنرال "شارل لانريزاك" قد أثار شكه التقدم الألماني في بلجيكا، وطلب الإذن بإعادة ترتيب قواته بعيدًا عن الاردين وباتجاه

بلجيكا متحولاً إلى الغرب داخل الزاوية بين نهر "سامبر" ونهر "الموز"، واستمر "جوفر" يطرح فكرة التهديد الألماني ولكنه في الثاني عشر من أغسطس سمح للجنرال "لانريزاك" بتحريك الفيلق الأول غربا إلى "دينان" على نهر "الموز" وعندما تلقى "لانريزاك" إشارة تفيد وقوع هجوم ألماني على "دينان" أذعن "جوفر" أخيرًا، وأمر السواد الأعظم من الجيش الخامس بالتحرك إلى الشمال الغربي، واتخاذ أوضاع خلف "السامبر"، وبالإضافة إلى فقدان معظم الجيش الخامس في هجوم الاردين وسحب "جوفر" أيضًا فرقًا لتعزيز جبهة اللورين بعد هجوم "روبرخت" المضاد، وبدأت معركة الاردين في الحادي والعشرين من أغسطس بهجوم الجيش الثالث بقيادة الجنرال "بيير روفي" باتجاه "بري"، بينما تقدم الجيش الرابع بقيادة الجنرال "فرناند دي لانجل دي كاري" باتجاه "نوفشاتو"، وكان الجيشان الألمانيان الرابع بقيادة "البرخت دوق فورتمبرج" والخامس بقيادة "الأمير فيلهلم" يقومان بتقدم منهجي عبر الاردين منذ التاسع عشر من أغسطس، وفي الحادى عشر من أغسطس تصادمت غلالات من القوات المتقدمة الألمانية والفرنسية في سلسلة من المناوشات المرتبكة، وكانت القوة الرئيسية قد وصلت في الثاني والعشرين من أغسطس، وكانت مكونة في الغالب من المشاة، وهجمت بقوة، ولكن كان ينقصها الدعم المدفعي وهزمتهم التكتيكات الألمانية، وخصوصًا قدرة الألمان على استخدام الخنادق والرشاشات والمدفعية الثقيلة، وكانت هناك جناحات فرنسية منعزلة عن بعضها البعض وخصوصًا في "فيرتون" منطقة عمل الفيلق السادس، ولكن بحلول ليلة الثالث والعشرين من أغسطس كان الجيشان الثالث والرابع الفرنسيان ينسحبان في فوضى رهيبة متراجعين إلى خط "موزيل" عبر "سيدان" و"ستيناي" و"فردان".

معركة الاردين

التقت مجموعتان من الجيوش الألمانية والفرنسية في تلك المعركة، وعلى الجانب الألماني كان الجيشان الرابع والخامس بقيادة كل من "الدوق البرخت" والأمير "فيلهلم" على التوالي، والجيشان الثالث والرابع الفرنسيان بقيادة كل من "بيير روفي" و"فرنان دي لانجل" وكان الجيشان الألمانيان يمثلان الوسط الألماني لخطة "شليفن" في التقدم عبر فرنسا، وكان الجيش الخامس الفرنسي في تلك الأثناء مشتبكاً في الشمال عند "شارلروا" بعد الأنباء التي وردت من بلجيكا عن القوة الألمانية المتصاعدة هناك، وبدأت القوات الألمانية في التقدم عبر الغابة في التاسع عشر من أغسطس، وأخذت في بناء مواقع دفاعية حيث ذهبوا، وكان الأمير "فيلهلم" متمركزًا في "بريري" وكان الدوق "البرخت" في الطريق إلى "نوفشاتو"، وكان الهدف من تقدم القوات الفرنسية مباشرًا وهو مهاجمة أجناب جناح الوسط الألماني عند مروره من غابة الاردين، ومع قدوم الضباب الكثيف كانت القوات المتحاربة يتعثر بعضها ببعض، وفي الحادى والعشرين من أغسطس كان الاستطلاع المتقدم أمرًا لا قيمة له مع وجود ذلك الضباب، وفي تلك المرحلة المبكرة تصور الفرنسيون أن القوات الألمانة ما هي إلا غلالة صغيرة من القوات الألمانية، ثم غمرت الأعداد الألمانية القوات الفرنسية، وكان اليوم الأول يتسم بمعارك مبعثرة ومناوشات متفرقة، ثم بدأت المعارك الكبيرة في اليوم التالي وقد عوض التمركز التكتيكي المتقدم للقوات الألمانية النجاحات الفرنسية العرضية بل تفوق عليها، وذلك بالرغم من كبر الخسائر على الجانبين وكانت الأزياء العسكرية الفرنسية الفاتحة اللون مميزة وسط الغابة علاوة على عدم اتخاذ الفرنسيين لأية إجراءات للإخفاء والتمويه، كل ذلك جعل الجنود الفرنسيين أهدافًا واضحة للألمان، وقد هاجم الفرنسيون المواقع الألمانية في الغابة بروح هجومية ومعنويات مرتفعة، ولكن نيران الرشاشات الألمانية مدعومة بنيران

المدفعية الثقيلة قامت باجتثاثهم.

نتائج المعركة

بعد المعركة بدأ الألمان يحفرون خنادق على حين شرع الفرنسيون في انسحاب تسيطر عليه الفوضى في نهاية الثالث والعشرين من أغسطس، وكان "روفي" قد تم إبعاده عن قيادة الجيش الثالث الفرنسي والذي انسحب إلى "فردان" يطارده الجيش الخامس الألماني، وانسحب الجيش الرابع إلى قرب "سيدان" و"ستيناي" واشتبك مع مطارديه الألمان، ونجح مؤقتًا في إيقاف التقدم الألماني من السادس والعشرين إلى الثامن والعشرين من أغسطس، وكنتيجة للانسحاب الفرنسي السيئ تمكن الألمان من الاستيلاء على موارد الحديد الهامة، كذلك مكنهم ذلك من الاستمرار في تقدمهم داخل فرنسا، وكان حجم الهزيمة الفرنسية كبيرًا، وقد اتضح ذلك للجنرال "جوفر" بعد مرور فترة كبيرة من الوقت، وحتى في ذلك الوقت كان "جوفر" يرجع الفشل الفرنسي إلى الاداء السيئ والضعيف لقواته بدلاً من إرجاعها إلى الاستراتيجية الألمانية، ولم تثنيه تلك الهزيمة عن التخطيط لهجمات في المعارك المستقبلية.

شارلروا ومونس

وبحلول العشرين من أغسطس بدأ الجيش الخامس الفرنسي في التركز على جبهة بطول أربعين كيلومترًا متركزًا عند "شارلروا"، وكان يمتد شرقًا إلى قلعة "نامور" البلجيكية، وعلى يساره فيلق الخيالة بقيادة الجنرال "سورديه" والذي كان يربط الجيش الفرنسي بالقوة الهجومية البريطانية في "مونس"، وكان جيش "لانريزاك" قد أضعفه نقل خمسة عشرة فرقة إلى اللورين، وتواجهه على الجانب الآخر ثمان وثلاثون فرقة من الجيش الثاني

الألماني بقيادة الجنرال "بولوف" والجيش الثالث الذي يتحرك باتجاه الجنوب الغربي، غير أن "جوفر" أصدر أوامره إلى "لانريزاك" بالهجوم عبر "السامبر" قبل أن يبدأ في التحرك في صباح الحادي والعشرين من أغسطس، وشن الجيش الثاني هجومًا عرف فيما بعد باسم معركة "شارلروا" عن طريق الهجوم عبر نهر "السامبر"، وأقام رأسي جسرين ولم يستطع الفرنسيون تقليلهما، حيث كانت تنقصهم المدفعية، وهجم "بولوف" ثانية في الثاني والعشرين من أغسطس بثلاثة فيالق ضد جبهة الجيش الخامس كلها، واستمر القتال في الثالث والعشرين من أغسطس عندما بدأ جناح الوسط حول "شارلروا" في التراجع إلى الخلف، وفي تلك الأثناء كان الجيش الثالث الألماني قد عبر "الموز" وشن هجومًا أماميًّا ضد الجناح الأيمن الألماني ممثلاً في فيلق يقوده الجنرال "لوي فرانشيه ديسبيري"، وهدد هجوم الجيش الثالث بقطع خط الانسحاب على "لانريزاك" ولكن قوات "فرانشيه" أوقفت التقدم الألماني، وقامت بهجوم مضاد ناجح غير أنه وبإخلاء "نامور" ووصول الأخبار عن انسحاب الجيش الرابع الفرنسي من الاردين أصدر "لانريزاك" أوامره بالانسحاب، وفي الثاني والعشرين من أغسطس تقابلت دوريات القوة الهجومية البريطانية مع غلالة الخيالة من الجيش الأول الألماني بقيادة الجنرال "فون كلوك" قرب "سواني" جنوب غرب بروكسل، ومبدئيًّا أصدر القائد العام البريطاني الفيلد مارشال سير "جون فرنش" أوامره بالهجوم، وكان يعتقد أنه يواجه قوة أقل من قواته، وفي الحقيقة كان الخمس فرق مشاة وفرقة الخيالة التي تتكون منها القوة الهجومية البريطانية كان قوامها سبعين ألف جندي، وكان عليهم مواجهة مائة وستين ألفا من الجنود الألمان وهم السواد الأعظم للجناح الأيمن في خطة "شليفن".

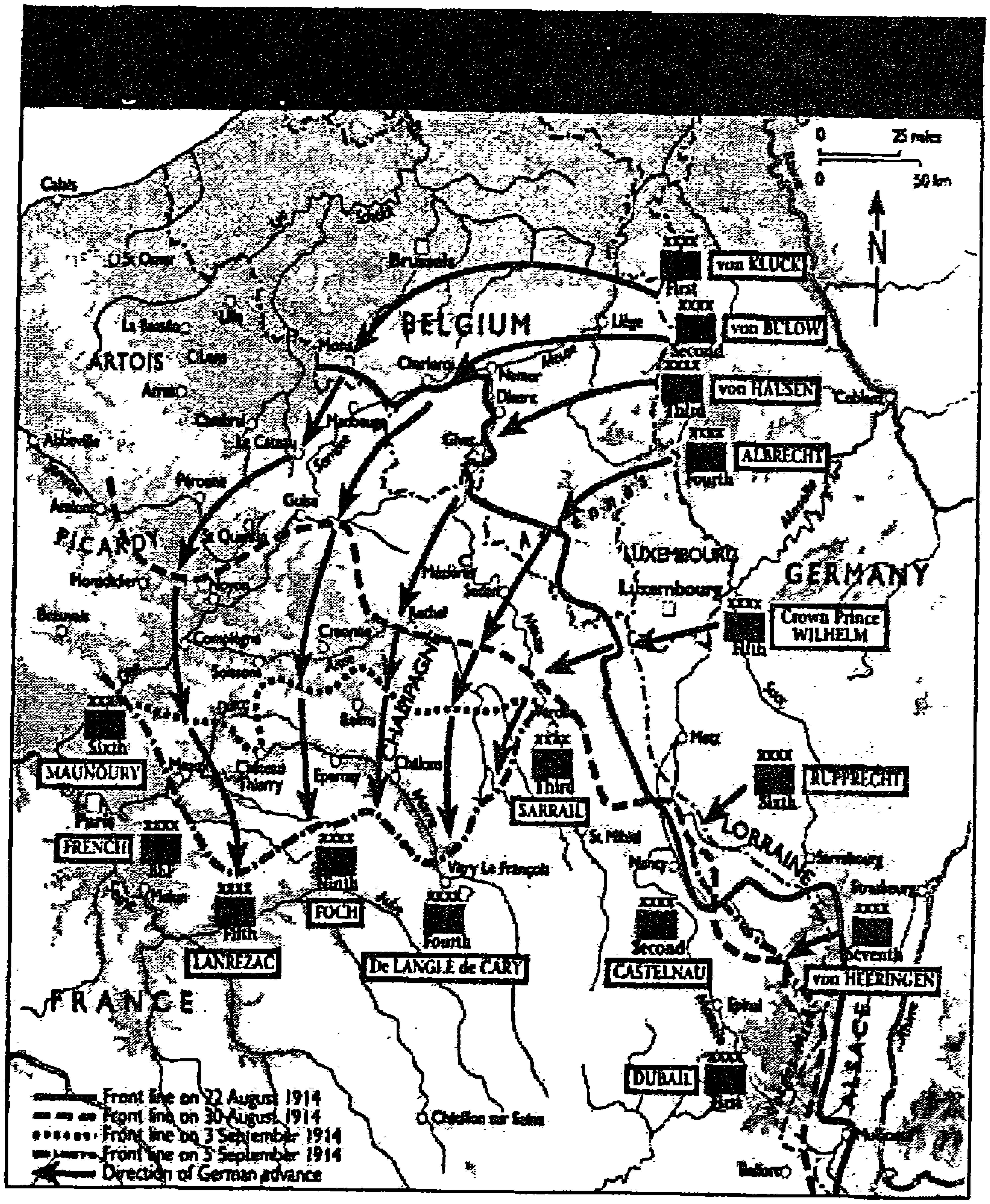

معارك الحدود بين القوات الألمانية وقوات الحلفاء

ولحسن حظ البريطانيين فقد قرر الفرنسيون أن يتخذوا مواضع دفاعية بطول قناة "مونس - كونديه"، وبدأت معركة مونس في الثالث والعشرين من أغسطس عندها حرص "فون كلوك" على الاحتفاظ باتصال قواته مع

الجيش الثاني بقيادة "بولوف" على يساره، وقام بشن هجوم أمامي على الخطوط البريطانية، وكان ثقل الهجوم الرئيسي يقع على الفيلق الثاني البريطاني بقيادة الجنرال "هوريس سميث"، وقد تسببت نيران البنادق في تكبيد الجنود الألمان خسائر كبيرة، حيث هاجموا مجتمعين في أرض لا تتوفر فيها ظروف التغطية الجيدة وصمد البريطانيون أمام التوجه الألماني حتى حلول الليل، ثم بدأوا يتراجعون إلى خط دفاعي ثان بالخلف، وخصوصا بعد ان انسحبت خيالة "سورديه" وتركت الجناح الأيمن مكشوفاً، وكذلك لأنهم وبالحسابات العددية البسيطة لم يكن بمقدورهم مواجهة القوات الألمانية في ذلك القطاع، ولم يقم "فون كلوك" بأية محاولة لمطاردة القوات البريطانية المتراجعة مما أتاح لهم أن ينسحبوا ويتخلصوا من النيران الألمانية في الرابع والعشرين من أغسطس.

معركة مونس

بعد استسلام الجيش البلجيكي في قلعة "لييج" في السادس عشر من أغسطس استمر الألمان في التقدم نحو باريس طبقا لخطة "شليفن"، وبدأت فلول الجيش البلجيكي في الانسحاب باتجاه القوة الهجومية البريطانية والتي كانت تتقدم لمهاجمة القوات الألمانية، وفي هذه الأثناء كان يتم دفع الفرنسيين إلى الخلف وذبحهم في الطرف الجنوبي للجبهة، وفقد الفرنسيون بذلك القدرة على معاونة البلجيكيين، ولذا وقع على القوات البريطانية مواجهة الجيش الألماني بكل ثقله في تلك المنطقة، وكانت القوة الهجومية الإنجليزية بقيادة الفيلد مارشال السير "جون فرنش" قد تقدمت داخل بلجيكا ووصلت إلى منطقة "موبوج لو كاتو" على الجناح الأيسر للحلفاء، وأخذت مواقعها على جبهة بطول 32 كيلومترًا بطول قناة "مون كونديه" وخشي الفيلد مارشال لورد "كتشنر" والذي كان قد تم تعيينه سكرتيرًا للدولة لشئون الحرب في الخامس من أغسطس من أن تركيز القوة

الهجومية البريطانية إلى الأمام قد يؤدي إلى ابتلاع القوات الألمانية التي تحتشد شمالي "الموز" للقوات البريطانية، ولم يستطع تغيير منطقة الحشد، ولكن التهديد المتوقع للغزو الألماني تسبب في أن يعطل إنزال فرقتين نظاميتين. وبذلك وعند بداية الحملة كان في يد السير "جون فرنش" المتقلب المزاج فقط أربع فرق مشاة وفرقة خيالة واحدة، وقد تفاقمت مشكلته وحالته المزاجية عندما أصيب "جريرسون" قائد الفيلق الثاني بأزمة قلبية مميتة ووقوع اختيار "كتشنر" عليه ليحل محله مع الجنرال سير "هوريس سميث دورين" والذي كانت علاقاته مع الفرنسيين متوترة منذ أمد بعيد. وعلى الرغم من ذلك وبعد القيام بعملية حشد هادئة نسبيًّا للقوات تحركت القوة الهجومية البريطانية إلى داخل المنطقة الصناعية بالقرب من "مون" في الثاني والعشرين من أغسطس متوقعة أن تشترك في هجوم الحلفاء داخل بلجيكا.

وبدلاً من ذلك أصبح واضحًا أن القوة الهجومية البريطانية أمام الممر الذي سيسلكه الجيش الأول الألماني المندفع من الشمال الشرقي وبالرغم من موقعه المكشوف وعد السير جون بتغطية الجناح الأيمن للانريزاك الذي فشل في وقف الألمان عند السامبر، عن طريق التوقف في مون لمدة أربع وعشرين ساعة. وكان فيلقان من الجنود يحتل خط قناة مون كوند والنتوء الصغير حول المدينة، بينما كان الفيلق الأول بقيادة الليوتنانت جنرال سير دوجلاس هيج على يمينه، ولفترة من الوقت لم يكن كلوك على علم بانتشار القوات البريطانية عبر محور تقدمه أثناء صباح الثالث والعشرين من أغسطس، وبينما كان يسير بقواته بتهور عبر القوات الهجومية البريطانية قام بسلسلة من الهجمات السيئة التنسيق ضد مواقع "سميث دورين" في المنطقة الناتئة وبطول القنال.

وقد دفعت القوة الهجومية البريطانية ثمنًا رهيبًا من جراء مواجهتها للتشكيلات الألمانية الكثيفة، ولكنها استطاعت التأقلم بسرعة مع القوة

النيرانية ودقة المدفعية الألمانية وعلى الرغم من أن الفيلق الأول بقيادة "هيج" لم يشتبك بشكل كثيف في المعارك إلا أن قوات "سميث دورين" صمدت حتى وقت متأخر من ظهر ذلك اليوم، غير أن الضغط الشديد من جانب القوات الألمانية وتفوقها العددي كان له قول الفصل في النهاية الأمر الذي جعل الفيلق الثاني يتقهقر إلى الخلف حوالي ميلين إلى مواقع تم اختيارها مسبقاً.

وكان أداء هذه القوة البريطانية جيداً في أول معاركها المهمة، فقد قامت بتثبيت الجيش الأول بقيادة "فون كلوك" عند الخليج في أفضل أوقات اليوم. وكانت معظم الخسائر البريطانية والتي بلغت 1600 ما بين قتيل وجريح في الفيلق الثاني، غير أنه وفي تلك الليلة ازداد التهديد المحدق بالجناح الأيمن للجيش الخامس الفرنسي قرب دينان مما دفع بـ "لانريزاك" إلى الانسحاب بدون التشاور مع "جوف" أو مع البريطانيين، ولم يكن لدى البريطانيين خيار إلا أن يحذوا حذو ،الفرنسيين وقد ثبت بعد ذلك ان هذا الانسحاب كان من حسن الطالع للبريطانيين حيث إن التراجع للخلف قد تلازم مع المجهودات الألمانية المجددة من قبل الألمان لمهاجمة الجناح الأيسر الهش للقوات البريطانية.

المعركة

فى الساعة السادسة صباحًا في الثالث والعشرين من أغسطس وصلت طلائع قوات الجنرال "ألكساندر فون كلوك" إلى "كاستو"، وهي مدينة صغيرة بطول "شوزيه دي بروكسل" على حافة "مون" وكان الميجور "توماس بريدجز" قائدًا لسرية الخيالة "سي" من فرسان الحرس الملكي البريطاني، وقد قام بإعطاء الأمر بفتح النار على الخيالة الألمانية (بعد مطاردة قصيرة للخيالة) مما أدى إلى تراجعهم، وكانت القوة الهجومية

البريطانية تتشكل من أربعة فرق نظامية مرتبة في شكل فيلقين (الفيلق الأول والثاني)، وكان جنود هذه القوة مدربين بشكل جيد، إذ كان الجنود قادرين على إطلاق النار بشكل جيد من بنادق "لي انفيلد" بمعدل 15 طلقة على الأقل في الدقيقة، وآخرين كانوا قادرين على الأداء بمعدلات أعلى وقام الألمان على إثر ذلك بتحضير مواقع دفاعية ضحلة.

الصباح

فى التاسعة صباحًا تقدمت تسع كتائب ألمانية تعاونها نيران المدفعية ضد كتيبتين من الفرقة الثالثة مشاة آخذين تشكيل الاستعراض، وتم القضاء عليهم، ونظرًا لكثافة النيران واستمراريتها ظن الألمان أنهم يواجهون رشاشات، ولكن في ذلك الوقت كان تسليح كتيبة المشاة رشاشان فقط، وكانت الخسائر التي تكبدها الألمان من جراء نيران البنادق التي يحملها الجنود، ثم بعد ذلك مباشرة وصل بقية الجيش الألماني الأول وساءت الأمور أكثر بالنسبة للحلفاء، وكانت نيران المدفعية الألمانية تجبر البريطانيين على التخلي عن مواقعهم، ولاحت في الأفق فرصة لتقدم ناجح للألمان ولكنهم كانوا ما يزالون قادرين على المقاومة، وخسر البريطانيون ألفًا وستمائة قتيل وجريح، ولكنهم احتفظوا بمعنويات جيدة، لأنهم ظنوا أنهم لازالوا قادرين على وقف التقدم الألماني، وكان جنود الكتيبة الرابعة من حملة البنادق يتولون مسئولية الدفاع عن المداخل الشمالية لمون، كانت الكتيبة تدافع عن الجسر الواقع عند تلك النقطة وعن جسر السكك الحديدية في الغرب، وقد تم غلق ذلك الجسر وبذلك قطع طريق "مون - بروكسل" وعند ذلك الجسر تمكن البريطانيون من وقف الألمان إلا أن أحد الجنود الألمان قام بالسباحة في القنال تحت نيران البنادق البريطانية وتمكن من تشغيل الآليات الميكانيكية المسئولة عن فتح الجسر، وقام بفتحه

وبرغم قتله في النهاية إلا أن مجهوده لم يضع هباءا فقد مكن القوات الألمانية من عبور الجسر في النهاية، وعلى بعد مئات الياردات إلى الغرب وفرت رشاشات الكتيبة دعمًا نيرانيًّا جيدًا، وتكبد البريطانيون خسائر فادحة من جراء نيران البنادق الألمانية، واستطاع أحد الضباط الصغار البريطانيين (الوحيد الذي لم يكن قد أصيب بعد) فتح النار من رشاش على القوات الألمانية ولكنه ما لبث أن أصيب بعدة جروح، وتم إخلاؤه على الفور إلى محطة الإسعاف الخاصة بالكتيبة، حيث مات هناك متأثرًا بجراحه، وقام أحد الجنود بفتح النار من الرشاش الآخر لتغطية انسحاب الكتيبة قبل أن تندفع القوات الألمانية إلى موقعه وتأخذه أسيرًا، وتم هدم الجسر الأساسى الذي كانت الكتيبة تدافع عنه، وقد وصلت الكتيبة الرابعة من الفوج الرابع تحت النيران الألمانية من قرية "اوبورج" وقد عانى الفوج الواحد والثلاثون مشاة من خسائر ضخمة، ولكن ما لبثوا أن تم تعزيزهم بالفوج الخامس والثمانين مشاة والفوج السادس والثمانين بنادق، وكانت هذه الأفواج الثلاثة تضم الفرقة الثامنة عشرة الألمانية، وهي وحدة تم تشكيلها من فرق من شمال ألمانيا، واشتبكت الفرقة الثامنة عشرة مع البريطانيين مع استخدام السد الذي يتحكم في ارتفاع مياه القناة والذي لم تتم حراسته، وذلك على بعد كيلومتر من المحطة ليمكنوا الخيالة من العبور وقبل حلول منتصف النهار بدأ البريطانيون بالانسحاب، ولمعاونتهم في الانسحاب طلبوا تعزيزًا من الكتيبة الثانية (الأيرلندية الملكية) ووصلت التعزيزات تحت النيران، غير أن الفرقة السابعة عشرة الألمانية كانت قد عبرت القنال بكامل قوتها عند "الهافر" وتحركت بمحاذاة طريق "الهافر - مون" مبعثرة جناح اليمين البريطاني، وعند محطة "أوبورج" قتل جندي غير معروف لتغطية انسحاب وحدته، فقد بقي في المبنى المحترق للمحطة واشتبك مع القوات الألمانية المتقدمة، وقد سمح ذلك لوحدته بالانسحاب إلى مقابر "سان سيمفوريان" في ضواحي "مون".

في الظهر

في الساعة الثانية بدأ البريطانيون يدركون أنه سيتم اكتساحهم بعد أن سمعوا بانسحاب الجيش الفرنسي إلى الجنوب، ورأوا أن الجيش البلجيكي قد انسحب بدوره، وأدركوا أن جناحهم الأيمن قد انكشف، وتبعت القوة البريطانية الهجومية حلفاءها، وقامت بالانسحاب بدورها من "مونس"، واشتبكت الكتيبة الثانية بنادق في عملية كلاسيكية مع تسعة كتائب ألمانية وقامت بتثبيتها إلا أنها تكبدت خسائر فادحة حتى تم عزلها ثم سحقها نهائيًّا في "اترو" ولم يتبق منها إلا 240 جنديًّا في السابع والعشرين من أغسطس، ولكنهم أمنوا انسحابًا هادئًا لفرقتهم وللفيلق الثاني الذي تراجع إلى "لو كاتو" والفيلق الأول الذي تراجع إلى "لاندريسي"، واستمر الانسحاب أربعة عشر يومًا حتى وصلت القوة الهجومية البريطانية إلى أطراف باريس، وتسببت التقارير الصحفية التي تناولت المعركة وبرغم الرقابة التي كانت مفروضة على الصحف في ذلك الوقت في زيادة سريعة في معدلات التجنيد في بريطانيا.

الملائكة تحارب ضد الألمان !!

في الرابع والعشرين من أبريل 1914 نشرت مجلة بريطانية رواية تفيد أنه كانت هناك قوة فوق طبيعية قامت بالتدخل في اللحظات الحاسمة من المعركة لمعاونة البريطانيين، وقد أدى نشر ذلك الخبر إلى إثارة روايات مشابهة عن رؤية وانتشار الإشاعات، وقد تراوحت الإشاعات بين رؤية رماة أقواس من العصور الوسطى إلى سحب مضيئة إلى قديسين، وأحيانًا خيالة.

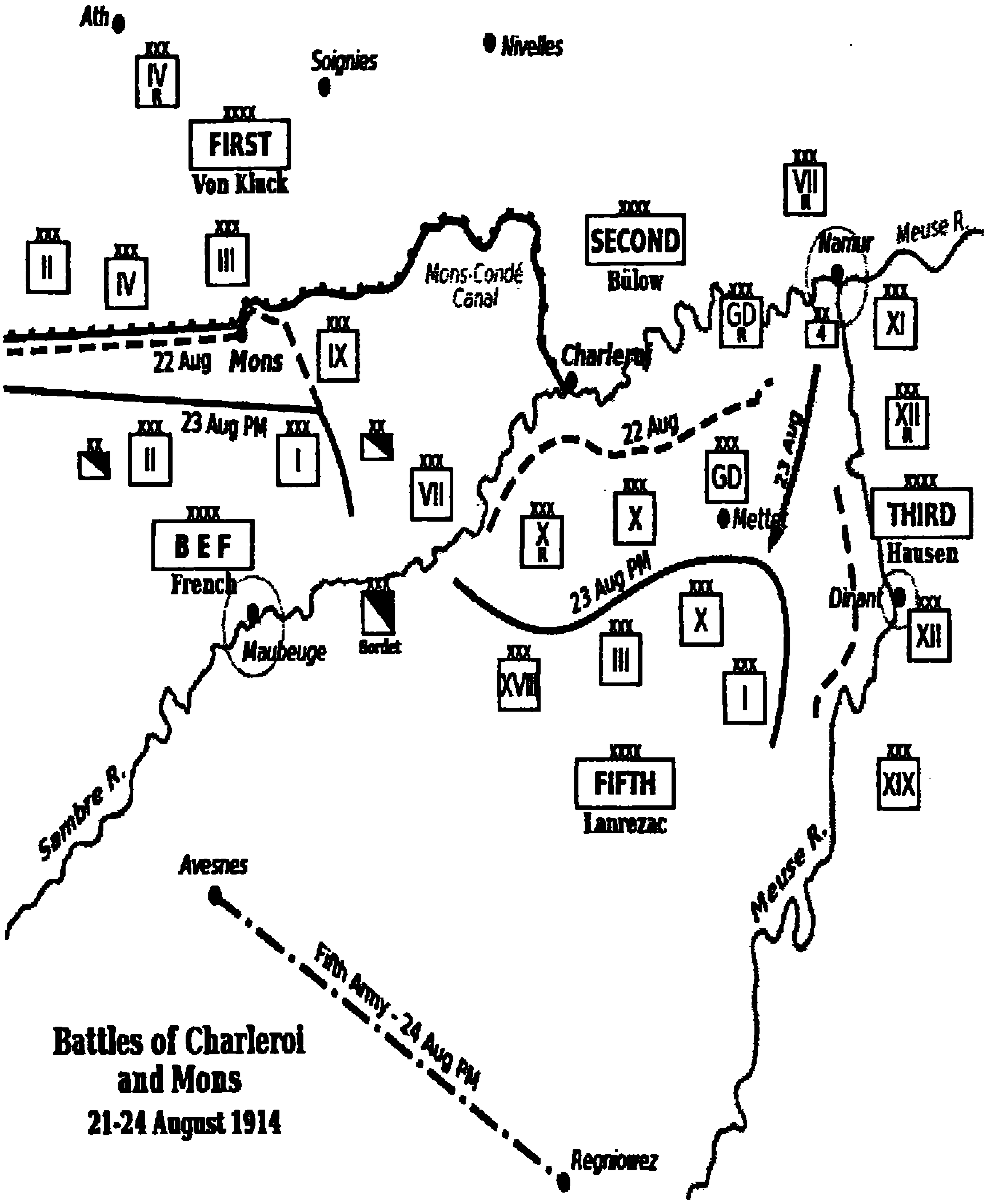

خريطة تبين معارك شارلوا ومونس

وكان الكاتب "آرثر ماكن" قد نشر قصة قصيرة في التاسع والعشرين من سبتمبر 1914 بعنوان رماة الأقواس في أكثر الجرائد البريطانية انتشارًا وهي جريدة "أخبار المساء" وبالطبع لم تكن كل تلك الإشاعات سوى

إشاعات نشرتها دوائر الاستخبارات البريطانية كنوع من الدعاية لإقناع الإنجليز بعدالة قضيتهم، وكذلك للتغطية على الانسحاب المهين والتخفيف من الأثر المدمر للمعنويات الذي قد يخلفه انسحاب البريطانيين أمام الألمان في معركة مونس.

الانسحاب الكبير

في الأسبوع الاخير من أغسطس كانت جيوش الحلفاء في كل مكان تنسحب، وعلى الرغم من أنها قد احتفظت ببعض المرونة التي مكنتها من تنظيم عمليات في المؤخرة إلا أنه وفي تلك المرحلة وعندما بدأت الخطة 17 الفرنسية تتحول إلى قصاصات من الورق عديمة القيمة بدأ "جوفر" يظهر أفضل ما في جعبته، وقد رفض التخلي عن أفكار الهجوم، وقام بتشكيل الجيش السادس الجديد، وأسند قيادته إلى الجنرال "مونوري" على الجناح الأيسر للحلفاء الذي كان يتعرض للخطر، وقد أخذ ببرود من جنود الاحتياط الذين يتبعونه ومن الجناح الأيمن الفرنسي لذلك الغرض، وكان القادة الألمان كما اتضح في السنوات اللاحقة أمثال "فالكنهايم" و"لودندورف" يسمحون بفوات الفرص التي تتسنى لهم في العمليات من أجل التعتيم على أهدافهم الاستراتيجية الأساسية، ولم يكن "مولتكة" استثناءا في هذا الصدد، وكانت الفكرة التي طغت على القيادة الألمانية لتحقيق تطويق من جانبين لجيوش الحلفاء قد أقنعت "مولتكة" بأن يطلق أيد قادة جيوش جناح اليسار، وفي الخامس والعشرين من أغسطس قام بإجراء آخر كان من شأنه بعثرة خطة "شليفن" حيث سحب فيلقين من الميمنة المهمة للمساعدة في سد الطريق على التقدم الروسي في شرق بروسيا، بشرط أن يتم إسناد مهام التغلب على القلاع المتعددة إلى تلك التشكيلات الباقية، وبذلك فقدت جيوش جناح اليمين الألمانية أكثر

من ربع قوتها، وهي بعـد لم تقـم بمهمتهـا الرئيسـية، وكـان علـى قـوات الحلفاء والقوات الألمانية أن تسير مسافة 20 مـيلاً يوميًّـا في حـر أغسـطس اللافح، وبالنسبة للجنود البسطاء كانت عوامل الجوع والعطـش والإجهـاد وأرجلهم التي التهبت أهم لديهم من الخطط العسكرية الكبيرة الـتي كـان قادتهم يضعونها، وبعد معركة "مونس" كانت قوة الحملـة البريطانيـة قـد انقسمت إلى قسمين تفصل بينهما غابة "مورمال" وفي السادس والعشرين من أغسطس قدر "سميث دورين" أن الألمـان قـريبين للغايـة مـن الفيلـق الثاني، والذي لم يكن بامكانه في ذلك الوقت دفعه إلى البعد عـن أعمـال القتال الدائرة والانسحاب بدون أن يتورط في معركة أخرى، وخالف أوامر وتوجيهات السير "جون فـرنش"، وقـام بالتمسـك بموقعـه في "لـو كـاتو" حيث عانى الألمان من بعض الخسائر الأخرى في مواجهـة القـوة المجوميـة البريطانية، بينما خسر الفيلق الثاني البريطاني سـبعة آلاف ومائـة واثـنين وثمانين من القتلى بين ضابط وجنـدي، ولكنـه بسـبب مراعاتـه للتوقيـت استطاع الانسحاب بشكل منظم بما تبقى مـن قواتـه وتـدهورت علاقـات "سميث دورين" المتوترة أساسًا مع السير جنرال "جون فرنش" بعد واقعـة "لو كـاتو"، ولكـن الفيلـق الثـاني البريطـاني تمكـن مـن تحقيـق بعـض المكاسب حيث إنه لم يتمكن فقط مـن جعـل الألمـان يبـالغون في تقـدير حجم القوة البريطانية بل إنه أعاق "فون كلوك" عن مطاردته علـى الفـور علاوة على ذلك كان استنتاج فـون كلـوك الخـاطئ بـأن القـوة المجوميـة البريطانيـة تتقهقـر إلى الجنـوب الغربـى ولـيس إلى الجنـوب قـد أعطـى تشكيلات القوات البريطانية مساحة لم تكن تتوقعها لتتحرك فيها بحريـة، مما سمح لهم في الأيام التالية بالانسحاب بشكل مـريح نسـبيًّا ولم تسـتطع تلك الراحـة أن تزيـل غـم الجنـرال سير جـون فـرنش والـذي أحـس أن الفرنسيين تخلوا عنه وخيبت أماله الخسائر الكبيرة التي عانت منها القوات المجومية البريطانية، وكان يعتقد الآن أنـه لا يمكـن إنقـاذ القـوة المجوميـة

البريطانية إلا بالانتقال بها بعيدًا عن خط قتال الحلفاء، والانسحاب بها خلف نهر السين، ولم يمنع ذلك سوى تدخل كتشنر شخصيًّا في زيارة لفرنسا تم ترتيبها على عجل في الأول من سبتمبر لمنع السير جون فرنش من تنفيذ فكرته تلك.

معركة المارن

نهر المارن

هو أحد روافد نهر السين في المنطقة بين شرق وجنوب شرق باريس، ويمتد بطول 525 كيلومترًا تقريبًا، ويبدأ عند سهل اللانجر ويجري شمالاً، ثم ينحني غربًا عند سان ديزييه وشالون ان شامباني، ويتصل بنهر السين عند "شارانتون"، وكان نهر المارن مسرحًا لمعركتين مهمتين في الحرب العالمية الأولى، أولأهما معركة المارن الأولى، ووقعت في عام 1914 وكانت من نقاط التحول الكبرى في الحرب، والثانية بعد أربعة أعوام في عام 1918.

المعركة

بحلول نهاية شهر أغسطس 1914، كانت كل جيوش الحلفاء على الجبهة الغربية قد اضطرت إلى التراجع العام في اتجاه باريس. وفي الوقت نفسه واصل جيشان من الجيوش الألمانية الرئيسية تقدمهما عبر فرنسا. وبدا جليًّا أنه سيتم الاستيلاء على باريس، حيث تقهقر كل من الجيش الفرنسي والقوة المجومية البريطانية إلى الخلف، وبعد أن هربت القوة المجومية البريطانية من مخالب فون كلوك تحرر ذلك الأخير للمرة الأولى من قيادة بيلوف Billow المباشرة في السابع والعشرين من أغسطس، وقام

فور ذلـك بالتوجـه إلى الجنـوب الغربـى باتجـاه أمـيين Amiens، وبحلـول الثامن والعشرين من أغسطس أصبحت القوة الهجوميـة البريطانيـة أقـل في الأهمية بالنسبة له حيث كان يزن فكرة الاندفاع إلى الداخل، وهو تحـرك كان يمكن أن يمكنه من دفع لانريـزاك Lanrezac بعيـدًا عـن بـاريس، وأن يطوي ميسرة الجيش الفرنسي الخـامس، وفي تلـك المرحلـة أصـدر جـوفر Joffre أوامـره للانريـزاك الـذي لم يكـن متحمسًـا بالالتفـات إلى الغـرب والقيام بشن هجوم مضاد بين جيز Guise وسـان كانتـان St Quentin، وفي الحقيقـة فـإن لانريـزاك تعامـل مـع العمليـة بمهـارة عاليـة، ففـي التاسـع والعشرين من أغسطس كان فرانشـيه ديسـبري قـد نجـح في وقـف فيلـق الحرس المهيب التابع للجيش الثاني الألماني عند جيز Guise وقـد تسـببت تلك الضربة في أن يقوم بيلوف الذي ترقب شرًّا أن يطلب الدعم من فـون كلوك، ووفر ذلك الحجة لفـون كلـوك لتغـيير الاتجـاه، ويـدون أن يطلـب موافقة مسبقة من رئيس الأركان الألماني الجنرال فون مولتكة أصـدر فـون كلوك أوامره للجيش الأول بالتحرك إلى الداخل بدلاً من المرور إلى الغرب من العاصمة الفرنسية باريس، كما كان مخططًا، وتحـرك الجـيش الأول إلى الشمال الشرقي منهـا معرضًـا جنـاح فـون كلـوك للـهجوم مـن الجـيش السادس الفرنسي بقيادة مونوري Maunoury والذي كان متمركزًا في تلك المرحلة إلى الشمال من باريس، وبعد حدوث ذلك وتفلت القيادة شيئًا ما من أيدي مولتكة لم يجد ذلك الأخير سـوى أن يهنـئ فـون كلـوك علـى مناورته، ولم يرى الحلفاء فرصة باهرة في أول الأمر في انحراف قـوات فـون كلوك إلى الداخل إلا أن الأثر المباشر لتحـرك فـون كلـوك كـان اجتـذاب قوات فون كلوك للصدام مرة أخرى مع القوة الهجومية البريطانية، وتبعـت ذلك بعض العمليات الجريئة مثل تلـك العمليـة الـتي تم القيـام بهـا في الأول من سبتمبر في نيري Nery عندما نجحت بطارية مدفعية من مدفعية الخيالة الملكية في المساعدة في تعطيل الفرقة الرابعة خيالة الألمانية لمدة أربع

ساعات، وبعد أن انسحبت لمسافة مائتي ميل عبرت القوة الهجومية البريطانية نهر المارن في الثالث من سبتمبر، ولكن الاستطلاع الجوي كشف عن ضعف جناح فون كلوك الأيسر، وفي الرابع من سبتمبر عندما أسرع فون كلوك متقدمًا عن بيلوف عبر نهر المارن أقنع الحاكم العسكري لباريس الجنرال جاليينى Gallieni الجنرال جوفر بوقف الانسحاب، وإصدار الأمر لميمنة الحلفاء بالقيام بهجوم مضاد، وفي نفس الوقت تقريبًا اعترف مولتكة ضمنيًّا بفشل هجوم الجناح الأيمن الألماني، وذلك عندما أوقف فون كلوك وبيلوف ووجههما للالتفات إلى الناحية الشرقية من باريس وفي السادس والسابع من سبتمبر تعامل فون كلوك بعبقرية مع الهجوم الفرنسي على جناحه وعلى اتصالاته، فارتد بجيشه الأول إلى الوراء، وارتكز على محوره في الغرب وأرسل ثلاثة فيالق لمواجهة قوات مونوري Maunoury بطول أورك Ourcq ولم تنجح القوات التي اندفعت من باريس في عربات التاكسي في وقف تقهقر وحدات مونوري إلى الخلف، ولكن تحرك فون كلوك باتجاه الغرب مرة أخرى تسبب في توسيع الفجوة بين الجيشين الألمانيين الأول والثاني، وكانت طائرات الحلفاء قد اكتشفن وجود تلك الفجوة وعلى الفور قامت بإبلاغ قادة القوات البرية المشاركة في المعركة، وكان الحلفاء من الذكاء بحيث قاموا سريعًا باستغلال الفجوة الموجودة في الخطوط الألمانية، فسارعوا بإرسال قوات من القوة الهجومية البريطانية لتساند الجيش الخامس الفرنسي في الاندفاع بين الجيشين الألمانيين فكان الجناح الأيمن للجيش الخامس الفرنسي هاجم الجيش الثاني الألماني، ومع أن القوات الألمانية كانت قريبة جدًّا من شق ثغرة في مواجهة الجيش السادس بقيادة مونوري بين السادس والثامن من سبتمبر إلا أن الإمدادات ما لبثت أن وصلت لمعاونة الجيش السادس في صورة ستة آلاف جندي تقريبًا تم نقلهم بعربات التاكسي إلى الجبهة، وفي الليلة التالية شن الجيش الخامس الفرنسي بقيادة الجنرال فرانشيه ديسبري

هجومًا مفاجئًا على الجيش الثاني الألماني بغرض توسيع الفجوة بين الجيش الأول والثاني الألمانيين إلا أن بولوف تمكن من الرد بكفاءة على الضغط الذي مارسه عليه فرانشيه[2] والجيش التاسع بقيادة فوش وفي اليوم الثالث كان الهجوم المضاد للحلفاء يتداعى في مواقع عدة، وتم صده بخسائر كبيرة، وعند احتدام المعارك في التاسع من سبتمبر بدأ الألمان يفقدون أعصابهم عندما عبرت القوة الهجومية البريطانية من جديد نهر المارن، وتقدمت بحذر إلى الفجوة بين جيشي جناحي اليمين واليسار الألمانيين، فقد بدا أن الجيشين الأول والثاني الألمانيين قد يتعرضا للتطويق، ومن ثم يتم تدميرهما، وعندما وصلت تلك الأنباء إلى الجنرال فون مولتكه أصيب بانهيار عصبي، وحل معاونوه محله، وأصدروا الأمر بانسحاب عام إلى نهر ايين Aisne لإعادة تجميع القوات، وطاردت القوات البريطانية والفرنسية الجيشين الألمانيين ولكن معدل تقدم الحلفاء كان بطيئًا حوالي تسعة عشر كيلومترًا في اليوم، وتوقف الألمان على بعد خمسة وستين كيلومترا عند نقطة إلى الشمال من نهر آين حيث بدأوا في حفر الخنادق، وفي الحقيقة فإن معركة المارن تحولت إلى صدام إرادات بين قادة الجيوش المتحاربة، وبينما كانت أعصاب مولتكة وبولوف قد انفلتت تمامًا كان جوفر المتبلد الشعور يشدد من قبضته على الأمور، وكان مقدرًا لسمعته ولسلطته كمنقذ فرنسا أن تثبتا في الشهور القليلة القادمة فيما بعد، وعلى الناحية الأخرى لم يظل مولتكة طويلاً في منصبه كرئيس أركان، وفي الرابع عشر من سبتمبر سيطر الجنرال آريش على مقاليد العمليات الحربية في فرنسا، وللحفاظ على معنويات الجنود في الجبهة ولحفظ ماء وجه الجنرال فون مولتكة تم الإبقاء عليه اسميًّا في منصبه حتى الثالث من نوفمبر، وبالرغم من أن الحلفاء اقتنصوا نصرًا استراتيجيًّا في

---

[2]كان جوفر قد قام بتعيين فرانشيه ديسبري خلفًا للجنرال لانريزاك الذي كان دائمًا ما ينظر إليه على أنه تنقصه الروح الهجومية.

معركة المارن إلا أنهم كان ما يـزال أمـامهم طريـق طويـل ليقطعـوه لهزيمـة الجيوش الألمانية، فبحفر الجنود الألمان للخنادق عند آيين امتد أجل الحرب لسنوات بعد ذلك، وكان انسحاب الألمان إلى آيين عنـد تلـك النقطـة قـد مثل نقطة فارقة في الحرب وفي التفكير الألماني، حيث تخلى الألمـان بـذلك عن خطة شليفن، ويذكر أن مولتكة عند تلـك النقطـة أبلـغ القيصـر بـأن ألمانيا خسرت الحـرب، فكـان أن تسـببت منـاورة بولـوف تلـك في إنقـاذ باريس وتقويض آمال الألمان في الحصول علـى نصـر سـريع علـى الجبهـة الغربية، وساهمت تلك المعركة في إطالة أمد الحرب لسـنين طويلـة قادمـة، كذلك تسببت معركة المارن في إعطـاء قيمـة كـبيرة للطـيران، حيـث كـان الاستطلاع الذي قامت به طائرات الحلفاء هو أهم أسباب انتصـار الحلفـاء على الألمان في تلك المعركة الحاسمة، ويعدد المؤرخون الكثير مـن الأسـباب التي أدت إلى النصر الـذي حققـه الحلفـاء علـى الألمـان في معركـة المـارن الأولى، ويضعون من بين تلك الأسباب استماتة الفرنسيين في الـدفاع عـن عاصمتهم حتى أن الجنود كان يـتم نقلـهم بواسـطة عربـات التاكسـي إلى الجبهة، وكذلك يعول المؤرخون كثيرًا على التغيير الذي قـام بـه الألمـان في آخر لحظة لخططهم، وسياسة الشدة الـتي انتهجهـا الجنـرال جـوفر وفصـل الجيشين الأول عن الجيش الثاني والذي فتح فجوة عرضها ثمانية وأربعـون كيلومترًا تقريبًا في الجبهة الألمانية والتي سمحـت لفـرق الخيالـة بالانـدفاع عبرها، وإجبار الجيش الأول الألماني علـى الانسحاب، كانـت تلـك هـي الأحداث التكتيكية التي أثرت على نتائج المعركة، ولكن السبب الحقيقي لانسحاب الجيش الأول الألماني وتراجعه كان يرجـع ببسـاطة إلى أن قوتـه قد تقلصت عندما تحرك إلى الأمام أبعد من قواعد إمـداده، بينمـا تزايـدت قوة الجيش الفرنسي حتى بعد تقهقره إلى الخلـف عنـدما اقـترب بشـكل كبير من قواعد الإمداد الخاصة به في باريس، ويتبين من النظـرة الفاحصـة إلى عناصر الإمداد واللوجيستيات كيـف خسـر الجـيش الألمـاني -خاصـة

ذلك الذي كان تحت قيادة فون كلوك- قوته عندما ابتعد عن قواعد إمداده، وتلك العناصر هي علف الجياد وذخائر الأسلحة؛ فقد كان من الصعب إعاشة كميات كبيرة من الحيوانات التي كانت تحمل الإمدادات بعيدًا عن قواعدها، ولم يكن شليفن أو مولتكة قد حسبوا ذلك في الخطة، ويفترض المعلقون العسكريون الغربيون -وعلى رأسهم الأمريكيون- أن تجاهل مثل تلك النقطة كان بسبب أنه لا حل لتلك المشكلة، والحقيقة أن الألمان لم يكونوا بمثل ذلك الخرق إلا أنه يبدو أن شليفن عندما وضع خطته كان يتصور أن تلك النقطة سيتم إيجاد حل لها فيما بعد، وكان الجيش الألماني ضخمًا؛ فكان جيش فون كلوك وحده يضم أربعة وثمانين ألفًا من الجياد والتي يلزم لتغذيتها ما يقرب من ألف طن من العلف يوميًّا، ومن الجلي أن أية محاولة لجلب تلك المؤن عبر خطوط مواصلات القوات الألمانية ستستحوذ على كل تلك الخطوط والتي كانت تسمى مراحل Etappen، وبناء على ذلك كان يتم تغذية الجياد بالذرة الخضراء والتي كانت تسبب إعياءً وضعفًا للجياد مما كان يقلل من كفاءتها، وفي الحادي عشر من أغسطس كان على الألمان أن يقوموا بسحب أحد فرق الخيالة من الخطوط؛ لأن الجياد كانت تتضور جوعًا، وبلغ منها الإعياء مبلغه، وبعد ذلك بيومين كان يتوجب أن تنال كل وحدات الخيالة قسطًا من الراحة لمدة أربعة أيام وقبل أن يعبر الألمان الحدود الفرنسية كانت كل جيادهم تعاني من الإرهاق ونقص العلف، وكانت الخيالة تتكبد الخسائر لأن الجياد لم تكن قادرة على حمل الفرسان بصورة سريعة، وكانت ضعيفة جدًّا، وأخيرًا لم تكن المدفعية الألمانية الرهيبة قادرة في معركة المارن على حسم المعركة بسبب أن الجياد لم تتمكن من مواكبة تقدم القوات، وبذلك حرم النقص في العلف الألمان من ميزتهم النوعية في القتال، وأصدر بولوف أوامره إلى فون كلوك بالتحول من قوسه الواسع والتحرك إلى الشرق لمساندته، وتسببت تلك المناورة في أن ينقل الألمان المفصل الذي

يتحركون حوله إلى شرق باريس، وبذلك سمحوا للجيش السادس الفرنسي بمهاجمة الجناح الأيمن لفون كلـوك، وأنهـت تلـك المنـاورة معركـة المـارن حيث تسببت في إيقاف التقدم الألماني في الخامس من سبتمبر.

الإمداد في المارن

تلقى الجيش الأول الألماني بقيادة فون كلـوك ضـربة مـؤثرة في معركـة المارن حيث كان بعيدًا جدًّا عن قواعد إمداده أكثر بكثير مـن أي تشـكيل آخر للجيش الألماني في مواجهة الجناح الأيمن الفرنسي الـذي يتواجـد إلى اليمين من خطوط مواصلاته في باريس، وظهرت الميزة الفرنسية في مرحلـة حاسمـة مـن المعركـة حينمـا اسـتخدم الجـرال جـاليبني Gallieni الحـاكم العسكري لباريس التلفون لتوجيه ألف ومائتي تاكسي من شوارع باريس لدفع فرقة فرنسية إلى ساحة المعركة، ومنعت بعـض العوامـل مـن وصـول تلـك الفرقـة في الوقـت المحـدد لهـا إلى خـط الجبهـة؛ أولاً لأن محركـات السيارات كان يدفع عنها ضرائب عالية وغالبًا ما كانت تصـيبها الأعطـال، ولم تكن هناك قطع غيار متوافرة لها، وثانيًا لم يكن قد تم تقـنين التمـوين بالجازولين بعد، وثالثًا تم تقدير معدل استخدام الذخيرة بأقـل ممـا ينبغـي ومما ساهم في تفاقم الموقف أن عمليـة الإمـداد في الجـيش الألمـاني كانـت مركزية إلى حد كـبير حتـى أن الجنـرال زايجـر Seiger في رئاسـة الأركـان والذي كان مسئولاً عن الإمداد بالـذخيرة في ألمانيـا لم يكـن يتخلـى عـن احتياطياته المتناقصة من الذخيرة إلا في اللحظات الأخـيرة، وكتـب جنـرال جرونر من رئاسة الأركان في يومياته أنه في المستقبل سيكون من الضروري أن يتم إعطاء القادة الميـدانيين في الجيـوش السيطرة الكاملـة علـى مخـازن ذخيرة خاصة بهم وهو بذلك يلخص مسألة لا تزال خلافية حتى الآن.

الحرب في 1915

في عام 1915 بدأت أول المعارك الكبيرة في القوقاز بين قوات الدولة العثمانية والقوات الروسية، وهزمت فيها القوات العثمانية هزيمة كبيرة وتكبدت خسائر فادحة بينما وعلى الجبهة الشرقية كانت القوات الألمانية قد حققت انتصارًا كبيرًا على الجيش الروسي بمساعد الجيش العاشر في معركة بحيرات مازوريان التي دارت في الشتاء من الثاني حتى السابع والعشرين من فبراير، وعلى إثرها انهارت القوات الروسية تحت وطأة الضربات المتلاحقة التي كالتها لها القوات الألمانية، وانسحبت من شرق بروسيا وبعد أن تولى إريش فون لودندورف Erich von Ludendorff رئاسة أركان القوات الألمانية مع باول فون هندنبورج Paul von Hindenburg سقطت بولندا، وسقطت كورلاندا، ثم تبعتها لاتفيا، وفي بولندا تشكلت حكومتان أحدهما تابعة لإمبراطورية النمسا والمجر في لوبلين Lublin، والأخرى تابعة لألمانيا ومقرها وارسو، وعلى الجبهة الغربية في فبراير ومارس وقعت معركة الشتاء المعروفة باسم معركة شامباني Champagne والتي استخدم فيها الفرنسيون القصف المدفعي العنيف كتمهيد قبل هجوم المشاة، ولأول مرة على نطاق واسع، ومع ذلك لم يكن مثل ذلك التكتيك ناجحًا جدًّا حيث كانت القوات الألمانية هناك من المرونة بحيث استطاعت التعامل مع هجوم المشاة، وتمكنت من صد الهجوم من الخنادق المحكمة البناء عن طريق القصف المدفعي ومدافع الماكينة، وبعد تلك المعركة بقليل بدأ الألمان في معاملهم يطورون أحد أخطر أسلحة الحرب العالمية الأولى الغازات السامة، واستخدمت غاز الكلور في أول هجوم لها، وكان ثقيلاً جدًّا وترسب في الخنادق، وكان الهجوم الأول بالغاز في آيبر Ypre أقرب إلى التجربة منه إلى الهجوم، وكان تأثيره كبيرًا فهرب أو قتل خمسة عشر ألف جندي من الجنود الجزائريين. حسب التقديرات الألمانية،

والذين كانوا قد جلبوا إلى فرنسا قسرًا لمحاربة الألمان على الجبهة الغربية مما مكن الألمان في البداية من التقدم بدون مقاومة، ومع ذلك لم تستغل القوات الألمانية ذلك في التقدم، وتمكن الحلفاء من غلق الجبهة أمامهم وليس من المحقق تاريخيًا على وجه الدقة ما إذا كان الحلفاء قد استعملوا الغاز قبل الألمان أم العكس، وفي الخامس والعشرين من أبريل بدأ هجوم الحلفاء على الدردنيل بهدف الاندفاع إلى اسطنبول واحتلالها، ومن ثم تأمين طريق ملاحي آمن للروس، وخرق الحلفاء حياد اليونان واحتلوا جزيرة ليمنوس Lemnos لاستغلالها كنقطة انطلاق لهم في هجماتهم على الدولة العثمانية، وكانت صخور جاليبولي المدببة وبنادق القوات العثمانية في انتظارهم لتفشل الحملة على جاليبولي بنهاية العام، ويضطر الإنجليز للانسحاب وعلى الجبهة الشرقية وقعت معركة جورليتسيه تارنوف Gorlice-Tarnów من الثاني حتى السابع من مايو والتي وفقت في أثنائها القوات الألمانية والقوات النمسا والمجر في اختراق المواقع الروسية بعمق، وتم الاستيلاء على بشيميسل Przemysl وليمبرج Lemberg بحلول شهر يونيو، وتمكنت قوات الدولتين من استعادة جاليسيا تحت سيطرتهما مرة اخرى وفي السابع من مايو أغرقت غواصة ألمانية سفينة الركاب البريطانية لوزيتانيا Lusitania قرب سواحل أيرلندا الجنوبية والتي كانت حسب البيانات الرسمية الألمانية تحمل معدات عسكرية وسلاحًا لإنجلترا، وتسببت تلك الحادثة في توتر كبير للعلاقات بين ألمانيا والولايات المتحدة، وفي التاسع من مايو حاول البريطانيون والفرنسيون بقيادة فوش وبيتان Pétain أن يقوموا باختراق الخطوط الألمانية في منطقة ارتوا Artois فيما عرف بمعركة أرتوا الثانية، وبالرغم من الخسائر الضخمة التي تكبدها الإنجليز والفرنسيون إلا أنهم لم يتمكنوا من فتح ثغرة في الجبهة كما كانوا يأملون، وظلت المنطقة على حالها من الركود العسكري فلا الحلفاء يتقدمون ولا الألمان يتقدمون، أما في الثالث والعشرين من مايو فقد أعلنت

إيطاليا الحرب على النمسا والمجر، وكانت جبهة القتال هي منطقة التيرول Tirol بطول نهر إيسونزو إلى ساحل البحر الأدرياتيكي، ونتيجة لذلك وجدت النمسا والمجر نفسها في حرب على ثلاث جبهات الأمر الذي زاد من تعقيد وضع دول المحور وحتى صيف عام 1917 حاولت القوات الإيطالية بلا جدوى في أحد عشر هجومًا أن تجتاح الدفاعات النمساوية في التيرول، وكان النمساويون يستغلون الطبيعة الجبلية للمنطقة لصالحهم في الدفاع، وتكبد الإيطاليون خسائر فادحة في المعارك التي وقعت على قمم الجبال، ويذكر أن عدد القتلى الناتج عن الصقيع والانهيارات الجليدية كان يزيد عن أعداد القتلى الذين خلفتهم المعارك، وحسن دخول بلغاريا الحرب في الرابع عشر من أكتوبر من موقف دول المحور، وتمكنت القوات البلغارية بالتنسيق مع قوات ألمانية ونمساوية من احتلال صربيا وإخراجها من دائرة الصراع، وعلى الجبهة الغربية دارت أكبر المعارك التي ميزت عام 1915 بين الخامس والعشرين من سبتمبر والثالث عشر من أكتوبر في أرتوا وشامبان، ونتج عن تلك المعارك اختراقات ضئيلة للمواقع الألمانية، وكانت خسائر الإنجليز والفرنسيين فيها عالية، ولم تأت المعارك التي دارت في آرجون Argonne، والتي استخدم فيها الحلفاء الألغام التي يتم دفنها تحت الخنادق بأية تغيرات تذكر على الجبهة الغربية، بل إن عام 1915 يعتبر عام الخسائر للقوات الفرنسية حيث خسرت به أكثر مما خسرت من جنود في باقي سنوات الحرب.

معركة الفردان

تعتبر معركة الفردان من أهم معارك الحرب العالمية الأولى على الجبهة الغربية بين القوات الألمانية والقوات الفرنسية من الحادي عشر من فبراير إلى الثامن عشر من ديسمبر 1916، حول مدينة فردان على نهر الموز في

شمال شرق فرنسا، وقد قتل في تلك المعركة أكثر من ربع مليون وجرح حوالي نصف مليون على الأقل، وكانت تلك المعركة من أطول معارك الحرب العالمية الأولى وأكثرها دموية، وأصبحت رمزًا يمثل فظائع الحرب في كل من فرنسا وألمانيا، وتعادل في أهميتها أهمية معركة السوم التي سنفصلها لاحقًا، وكان الشعار الذي أطلقه الفرنسيون في تلك المعركة "إنهم لن يمروا".

الأهمية الإستراتيجية

ظلت مدينة "فردان" طيلة قرون تلعب دورًا استراتيجيًّا هامًّا في الدفاع عما وراءها من أراضي فرنسا، وذلك نظرًا لموقع المدينة الاستراتيجي على نهر "الموز"، وعلى سبيل المثال فشل أتيلا الهون في القرن الخامس في محاولته لاحتلال المدينة، وعند تقسيم دولة شارلمان جعلت معاهدة فردان الموقعة عام 843 مدينة فردان جزءا من الإمبراطورية الرومانية، ولعبت "فردان" دورًا مهمًّا في الخط الدفاعي الذي تم إنشاؤه بعد أن وضعت الحرب الفرنسية البروسية أوزارها في عام 1870 وكحماية ضد التهديدات الألمانية بطول الحدود الشرقية تم إنشاء خط قوي من التحصينات بين "فردان" و"تول" وبين "ابينال" و"بلفور"، وكانت "فردان" تحرس المدخل الشمالي لسهول "شامباني"، وبذلك تحمي الطريق إلى العاصمة الفرنسية باريس، وفي صيف عام 1914، وخلال الغزو الألماني لفرنسا وأثناء معركة المارن صمدت مدينة "فردان" كالمتراس في وجه الغزو الألماني بل إن بعض التحصينات بالمدينة صمدت في وجه القصف المدفعي الألماني الذي كانت تقوم به مدافع ألبرتا العملاقة، وكانت الحامية الخاصة بالمدينة تقبع داخل القلعة التي تم بناؤها على يد "فوبان" في القرن السابع عشر، وبحلول نهاية القرن التاسع عشر تم بناء شبكة من الأنفاق والتي كان يتم استخدامها كورش ومخازن للذخيرة ومستشفى ومقر للقوات الفرنسية،

وعلاوة على ذلك كانت مدينة "فردان" تقع على محور ثلاثمائة وستين درجة للحلقة الخارجية للتحصينات، والتي تم بناؤها خلال عام 1880 وقد جعل هذا من مدينة "فردان" قلعة تم احتواؤها داخل قلعة، ومنطقة محصنة تمتد إلى خارج أسوار المدينة، وكانت قلاع "فردان" من نوعيات وأحجام مختلفة، وبذلك تمكنت من توفير الأساس لمقاومة قصف المدفعية الألمانية الثقيلة بأعيرتها المختلفة، وعلى سبيل المثال كانت القلاع التي تقع إلى الشمال وإلى الشرق من "فردان" قد تم تقويتها في أوائل عام 1900 (دوومون ومولانفيل على سبيل المثال) باستخدام أسطح خرسانية مسلحة ذات كثافة شديدة بالصلب، وتم تزويد تلك القلاع بمدافع ميدان إضافية من عيار 75مليمتر، وتم تركيبها على منصات خرسانية مدعمة والتي تطل على الأجناب حتى تقوم بتوفير نيران الأجناب في الفواصل بين القلاع، وكذلك كان قد تم بناء عدة قلاع في عام 1880 على نفس الخط الدفاعي ولكن إلى الغرب والجنوب من "فردان" تركت تلك القلاع ولم يطرأ عليها أي تحسين (لاندريكور ومار وأودانفيل على سبيل المثال)، وكان السبب في ذلك القرار هو أن الهجوم الألماني المحتمل كان سيأتي من الشمال والشمال الشرقي وهو افتراض ثبتت صحته إلى حد كبير فيما بعد.

الطريق إلى المعركة

كان الألمان والحلفاء على حد سواء يمنون أنفسهم بانتصار سريع في الحرب، وكانت جداول العمليات الألمانية قد تعثرت وأصبحت هباءً، وتقلصت حركة الحرب في الجبهة الغربية وانحصرت في حرب كر وفر، ولم ينتصر أحد الطرفين نصرًا حاسمًا، وبدلاً من أن ينسحب الألمان قرروا أن يتمسكوا بالأراضي التي احتلوها ويجعلوها قواعد انطلاق لإتمام أهدافهم في الحرب، وتطورت الحرب على الجبهة الغربية إلى حرب خنادق

لم يستطع فيها أي من الطرفين إحراز نصر حاسم، وفي عام 1915 كانت الأطراف المتحاربة قد خاضت عدة معارك غير حاسمة في نتيجتها، فالألمان لم يتمكنوا من إحراز نصر أو تطوير لوضعهم بعد معركة "ايبر"، والفرنسيون لم يحرزوا أي تقدم في معركة "شامباني"، ولم يكن حال الإنجليز في معركة "نوف شابيل" أفضل حالاً، ولم تحدث تلك المعارك أي فارق سوى الخسائر الفادحة في الأرواح على الجانبين، وفي مذكراته التي سطرها رئيس الأركان الألماني "اريش فون فالكنهاين" بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أشار إلى إدراكه التام لحقيقة أنه لم يعد بالإمكان إحراز أي تطور يذكر أو تحقيق ثغرة ملموسة إلا أنه اعتقد انه ما زال بالإمكان هزيمة فرنسا إذا تكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة، وأوضح أن نيته كانت مهاجمة الفرنسيين في مكان لا يمكنهم الانسحاب منه لأسباب استراتيجية ولأسباب تتعلق بالكرامة الوطنية وكان اختياره لمدينة "فردان" موفقاً تماماً فلم يكن الفرنسيون مستعدين على الإطلاق للانسحاب من المدينة أو التوقف عن الدفاع عنها، حيث إنها وكما قلنا تتحكم في الطريق إلى باريس وكان "فالكنهايم" يفرض على القوات الفرنسية في تلك الحالة أن يتورطوا في معركة استنزاف رهيبة لا يمكنهم الانسحاب منها، وقال "فالكنهايم": إنه اختار مدينة "فردان" على نهر "الموز" موقعاً لتلك المعركة لجعل فرنسا تنزف الفرنسيين، فالمدينة المحاطة بسلسلة من القلاع والتحصينات كانت معقلاً مهماً يطل على الخطوط الألمانية وتتحكم وتسيطر على الطريق المباشر إلى باريس كما ذكرنا، وفي أوائل عام 1916 كانت المدينة التي تتبجح بحصانتها ومنعتها قد ضعفت إلى حد كبير حيث تمت إزالة الكثير من المدفعيات والحاميات التي كانت موجودة في القلاع لتحولها إلى مجرد أبنية حجرية حارمة إياها من المزية الهندسية التي كانت تحتفظ بها، وكان ذلك من الأخطاء التي ترجع في الأساس إلى الجنرال "جوزيف جوفر" القائد العام للجيوش الفرنسية الذي افترض

ومعه آخرون بالطبع أنه ونظرًا للسهولة التي سقطت بها قلاع كل من مديني "ليبج" و"نامور" البلجيكيتين أن استخدام القلاع ومثلها من التحصينات لم يعد له جدوى في الحروب الحديثة، وكانت قلاع المدينة قد تم تعريتها من حوالي خمسين بطارية مدفعية كاملة فيما بين شهري أغسطس وأكتوبر من عام 1915 وحوالي 128000 لفة من الذخائر، وتم إرسال تلك الأسلحة إلى قطاعات أخرى من قطاعات الحلفاء التي كانت تعاني نقصًا في المدفعية، وظلت عملية تجريد القلاع من أسلحتها دائرة على قدم وساق حتى نهاية شهر يناير من عام 1916 حتى لم تعد قلاع "فردان" تمتلك إلا ثلاثمائة مدفع مع ذخيرة غير كافية، وعندما قرر "فالكنهايم" اختيار ميدان للقتال المرتقب كان يراعي اختيار موقع بظروف مادية ترجح كفة القوات الألمانية وكانت مدينة "فردان" معزولة من ثلاث جهات وكانت اتصالاتها بالمؤخرة الفرنسية ضعيفة للغاية، وأخيرًا كانت نهاية خط السكك الحديدية الألماني الخاص بالإمداد تقع على بعد اثني عشر ميلاً فقط من المدينة بينما كان لدى القوات الفرنسية طريق واحد لإعادة الإمداد وهو ما كان الفرنسيون يسمونه بالطريق المقدس وكان "فالكنهاين" يتوقع معدلات خسائر من الجانبين ترجح كفة الألمان في النهاية حيث كان على يقين من أن الفرنسيين سيندفعون إلى فخ الموت ذلك غير عابئين بمعدل الخسائر، حيث سيكون همهم الأول هو التمسك بالدفاع عن المدينة، وقرر "فالكنهاين" في مذكراته أن القتال الذي جر إليه الألمان الفرنسيين كان مخططًا يهدف إلى تحطيم الجيش الفرنسي أكثر مما يهدف إلى إحراز نصر عسكري تقليدي ويورد جزءًا من مذكرة بعث بها إلى القيصر يقول فيها:

"وصلت الحرب في فرنسا إلى نقطة تنبئ بالانفجار وليس من الضروري القيام بانتصار كبير، حيث إن ذلك على كل حال خارج

إمكانياتنا الحالية وما بإمكاننا حقاً هي أهداف للاستيلاء عليها بحيث تجبر العامة الفرنسية على الإلقاء بكل رجل تحت تصرفها، وإذا فعلوا ذلك فإن قوات فرنسا ستنزف حتى الموت".

غير أنه وفي الوقت الحالي قد ناقش بعض الباحثين مدى صحة تلك الوثيقة والتي أطلق عليها مذكرة عيد الميلاد ومن ضمنهم "هولجر افلرباخ" فلم تظهر لها أية نسخة، والإشارة الوحيدة لها تظهر فقط في رواية "فالكنهاين" للحرب في مذكراته، وكان قادته جيشه في "فردان" وعلى رأسهم أمير التاج الألماني ينكرون أية معرفة لهم بوجود خطط تهدف إلى استنزاف الفرنسيين وفي رأي "افلرباخ" أن "فالكنهاين" لم يقم بتصميم هجومه خصيصًا من أجل استنزاف الجيش الفرنسي، وجعل فرنسا تنزف ولكنه اتخذ من نتيجة الهجوم على "فردان" فيما بعد كتبرير للهجوم بالرغم من عدم تحقيقه لأهدافه وتميل التحليلات المعاصرة إلى نفس النزعة وتستبعد التفسير التقليدي للهجوم، وربما كان الهجوم قد تم تخطيطه بغرض اجتياح الدفاعات الضعيفة للمدينة وسحقها والاستيلاء على "فردان"، ومن ثم فتح الجبهة كلها وكان سقوط "فردان" وهي تمثل القلب في شبكة سكك حديدية ممتدة سيساعد الألمان كثيرًا.

بدء القتال

كانت دفاعات المدينة ضعيفة للغاية لأن معظم المدفعيات كانت قد أخليت من التحصينات المحلية إلى مناطق أخرى قبل الهجوم، ولكن الفرنسيين كان لديهم استخبارات جيدة نوعًا ما علاوة على أن الهجوم الألماني تعطل بسبب سوء الأحوال الجوية مما منح الفرنسيين الوقت الكافي فدفعوا بفرقتين من الفيلق الثلاثين إلى منطقة الدفاع، وهما الفرقة الثانية والسبعون والفرقة الحادية والخمسون وكانت القوة الفرنسية التي تدافع عن

المدينة الآن قوامها أربع وثلاثون كتيبة في مواجهة اثنين وسبعين فرقة ألمانية، وكانت القيادة العليا الألمانية تخطط للهجوم في الثاني عشر من فبراير غير أن الضباب والأمطار الثقيلة والرياح العاصفة تسببت في تعطيل الهجوم لمدة أسبوع، وبدأت المعركة فعليًّا في الحادي والعشرين من فبراير من عام 1916 بمدفع بحري من عيار 38سم على بعد 20 ميلاً من المدينة، وأطلق أول دفعة من طلقاته على الجسر الذي يعبر نهر "الموز" وكانت تلك الطلقة التي أخطأت هي مقدمة لتسع ساعات من قصف مدفعي رهيب غير مسبوق في وحشيته على المدينة، فقد أطلقت المدفعية الألمانية حوالي مليون قذيفة (بما يشمل قذائف الغاز) أطلقها ألف ومائتا مدفع موزعين على جبهة طولها أربعون كيلومترًا، وتبع ذلك هجوم من ثلاثة فيالق من الجيش الألماني الفيلق الثالث والفيلق السابع والفيلق الثامن عشر وسقطت على غابة "كور" وحدها ثمانون ألف قذيفة وأدى ذلك إلى تمزق اتصالات الفرنسيين في المؤخرة، وكان المدافعون في حالة من الذهول لم تسمح لهم بصد أي هجوم كبير ولحسن حظ الفرنسيين كان المخططون الألمان حذرين للغاية مما أدى بهم إلى تقليص عمليات المشاة في اليوم الأول إلى دوريات قتالية قوية تستخدم تكتيكات الاقتحام للبحث عن النقاط الضعيفة في الخط الفرنسي، ولم يتجاهل تلك الأوامر سوى قائد الفيلق السادس الألماني "فون تسفيل" وأظهر بقواته ما كان يمكن تحقيقه فقام بنشر قوات اقتحام خلف الدوريات القتالية وتمكن في خمس ساعات من تأمين غابة "أومون" وفي غابة "كور" اعتمد "دريان" في دفاعه على النقاط الحصينة بدلاً من خطوط الخنادق المستمرة والتي مكنت المدافعين من "الشاسور"[3] من الدفاع عن ذلك الموقع بعناد في مواجهة

---

[3] الشاسور تعني الصياد بالفرنسية، وهو اسم يطلق على بعض أفواج المشاة الخفيفة الفرنسية أثناء الحرب العالمية الأولى وأطلق عليهم الصيادون لأنهم كان يتم تجنيدهم

الفيلق السابع عشر الألماني، واستخدم الألمان قاذفات اللهب للمرة الأولى في تاريخ الحروب لإخلاء الخنادق الفرنسية، وقام الألمان بتوظيف قوات الاقتحام الألمانية الجديدة لقيادة الهجوم وبنادقهم معلقة، وكان هذا يحدث لأول مرة في الحرب العالمية الأولى وكان كل جندي يمسك بقنبلة يدوية في يده، وكانت تلك التكتيكات الصادمة جديدة تماما على الفرنسيين، ويعزو بعض المعلقين والمؤرخين العسكريين إلى تلك التكتيكات السبب في فقدان الفرنسيين لأراضٍ في اليوم الأول للمعركة في مواجهة الألمان، وبحلول الثاني والعشرين من فبراير كان الألمان قد تمكنوا من التقدم لمسافة خمسة كيلومترات، وتمكنوا من الاستيلاء على غابة "كور"، وكان الفرنسيون قد استماتوا في الدفاع عن المدينة لدرجة أن كتيبتين من الجيش الفرنسي يقودهما الكولونيل "إميل دريان" قد تمكنتا من الصمود أمام الألمان في غابة "كور" لمدة يومين قبل أن ينجح الألمان أخيرًا في الاستيلاء عليها وفي الثاني والعشرين من فبراير كان "فون تسفيل" مرة أخرى هو الورقة الألمانية الرابحة فقد اندفع وشق طريقه شاطرًا فوجًا محليًا فرنسيًّا على ميسرة الفرقة الثانية والسبعين الفرنسية ممزقًا إياها، وتمكن من فتح ثغرة في الخط الفرنسي الأول وكشف بذلك الجناح الأيسر للقوات الفرنسية في غابة "كور"، وأثناء المساء قتل "دريان" أثناء محاولته الانسحاب بكتائبه المبعثرة إلى "بومون" حيث كان يحارب إلى جانب الكتيبتين السادسة والخمسين والتاسعة والخمسين من "الشاسور" وانسحق جزء كبير من الخط الأمامي الفرنسي وبالرغم من الخسائر المروعة التي تكبدها الفرنسيون إلا أن المتبقي منهم كان ما يزال بإمكانهم تكبيد الألمان خسائر متزايدة وخصوصا بين قوات الاقتحام الرئيسية، واستمر الألمان في شق طريقهم وقاموا بدفع القوات الفرنسية إلى التراجع باتجاه

أصلاً من بين الصيادين العاملين في الغابات.

"سامونيو" و"بومون" و"أورن" في الخلف وفي الحقيقة أن الفرنسيين أبلوا بلاءا حسنًا في معركة "فردان" بالذات ربما لأنهم يدركون أهمية المدينة، وفي اليوم التالي كان الألمان يواجهون خط الوسط والذي تم إنشاؤه حديثًا بناءا على أوامر "دي كاستلنو"، ولذا لم يكن موجودا بالخرائط الألمانية، وتم التغلب في ذلك المساء على الدفاع الفرنسي الضعيف في "أربوا "الذي كانت تقوم به الفرقة الحادية والخمسون، ولكن المكاسب الألمانية في الثالث والعشرين من فبراير كانت مخيبة للآمال ولسوء حظ الألمان كانت المدفعية الفرنسية القوية تحتشد على الضفة اليسرى لنهر "الموز" وعلى المدى القصير كانت تلك التطورات قد أراحت الفرنسيين بشكل ضئيل وقبل حلول فجر الرابع والعشرين من فبراير كانت "سامونيو" في أيد ألمانية وكانت الفرقتان الفرنسيتان الحادية والخمسون والثانية والسبعون قد قاربتا على الانهيار وسقط حينئذ "بومون" ولكن الألمان قاموا بسحقهم، ولم يتبق من الكتيبتين سوى مائة وثمانية عشر جنديًّا من "الشاسير"، وإذا علمنا أن تلك القوات من المفترض أنها من أشرس قوات الجيش الفرنسي لأدركنا مدى عنف وقوة الهجوم الألماني، ونتج عن ضعف الاتصالات الفرنسية أن القيادة لم تعلم إلا في اليوم الثاني من الهجوم بحجم الخسائر المريعة التي تكبدها جنودها في اليومين الأولين من المعركة، وفي الرابع والعشرين من فبراير تقهقر المدافعون الفرنسيون من الفيلق الخامس عشر مرة أخرى وتركوا خط الدفاع الثاني ولكنهم أنقذوا من كارثة محققة بظهور الفيلق العاشر بقيادة الجنرال "بالفورييه" والذي يضم الفرقة السابعة والثلاثين الأفريقية والتي قد بدأت في الوصول إلى ميدان القتال لدعم الوحدات المستنزفة من الفيلق الخامس عشر الفرنسي، وكان إرسال ذلك الفيلق يهدف لإحلاله محل الفيلق الخامس عشر أصلاً، ولم يكد الجنود يصلون إلى الموقع وقبل حتى أن يتمكنوا من التقاط أنفاسهم تم

الدفع بهم على الفور إلى المعركة، وفي تلك الليلة أوصى رئيس أركان الجيش الفرنسي الجنرال "دو كاستلنو" رئيسه قائد عام الجيش الفرنسي جنرال "جوزيف جوفر" بأنه يجب إرسال الجيش الثاني الفرنسي بقيادة الجنرال "فيليب بيتان" إلى قطاع "فردان" لاستكمال احتياجات الدفاع هناك، وكان الألمان في ذلك الحين يسيطرون على "بومون" وغابة "فوس" وغابة "كورييه" وجزء من الطريق إلى سهل "لافوش" والذي كان يقود إلى قلعة "دوومون"، وفي حوالي ثلاث ساعات تقريبًا كان الموقع الفرنسي الثاني قد انهار وكان المشاة الجزائريون والرماة المغاربة من الفرقة السابعة والثلاثين قد دخلوا في المعركة تدريجيًا وبدون حماية كافية من البرد القارس والمدافع الألمانية، ولم يكن بإمكانهم أن يرجحوا الكفة لصالح الفرنسيين، وفي الحقيقة فإن الكتيبة الثالثة الجزائرية قد اندحرت أمام جنود براندنبورج من الفيلق الثالث الألماني كاشفة أمامهم قلعة "دوومون"، وفي الخامس والعشرين من فبراير تمكنت دورية ألمانية قوامها عشرة جنود من فوج المشاة الرابع والعشرين من الفيلق الثالث من الاستيلاء على درة التحصينات الفرنسية في ذلك الوقت وهي قلعة "دوومون" واستولوا على المدافع الثلاثة التي كانت موجودة بها بينما كانت الحامية الفرنسية من رجال المدفعية الفرنسية يغطون في النوم.

قلعة دوومون

استغل رجال تلك الدورية بقيادة النقيب "فون براندس" الثغرة التي نتجت عن ارتداد الكتيبة المغربية الثالثة، واندفعت تلك الدورية إلى ما خلف الأهداف المقررة لها حتى وصلت إلى قلعة "دوومون"، وكانت الحامية في تلك القلعة تقل عن ستين فردًا، وكان الألمان قد تجرأوا بسبب الخمول الذي ظهر لهم في نشاط القلعة وتسلل القليل من الجنود بقيادة

رقيب يدعى "كونتسه" إلى الخندق الجاف الذي يحيط بالقلعة من الخارج ولما لم يتم اكتشافهم من قِبَل الفرنسيين قاموا بالتسلق عن طريق فتحة من فتحات المدافع وبالرغم من ان قذائف البرتا من عيار 42سم لم تحدث ضررًا يذكر في جدران القلعة إلا أن الدخان الناتج عنها بالإضافة إلى موجات الصدمة التي تسببت فيها جعلت الجنود الفرنسيين يلتجئون إلى الاختباء داخل جدران القلعة وتبع "كونتسه" هذا ثلاث جماعات من الجنود الألمان البراندنبورجيين، وفاجئوا الجنود الذين وجدوهم داخل القلعة يغطون في النوم، واستسلمت القلعة بالكامل في الرابعة وثلاثين دقيقة صباحًا، وقد أدى الاستيلاء على القلعة بتكاليف بسيطة إلى موجات عارمة من الفرح الشعبي في ألمانيا وبدا أن الطريق أصبح ممهدًا للقوات الألمانية للاستيلاء على "فردان" وفي القيادة العامة للجيش الفرنسي انقسم رأي الجنرالات الفرنسيين إلى رأيين أحدهما وعلى رأسه "دي لانجل" يرى الانسحاب إلى المرتفعات الموجودة إلى الشرق والجنوب الشرقي من المدينة، أما الرأي الآخر المضاد فيتزعمه الجنرال "دي كاستلنو" والذي عارض بشدة سياسة الانسحاب بعد أن تأكد من أن الجيش الثاني بقيادة الجنرال "بيتان" سيقوم بالتمسك بالضفة اليسرى لنهر "الموز"، وكان قد ظهر في "فردان" كما ذكرنا في الخامس والعشرين من فبراير وأحرق كل الأفكار التي تدعو إلى الانسحاب، وكان "دي كاستلنو" قد عينه من قبل قائدًا لمنطقة "فردان"، ودعا "دي كاستلنو" كذلك إلى أن يقوم "بيتان" بالدفاع عن الضفة اليمنى من النهر بأي ثمن، وإلى حد ما كانت تلك الإجراءات تقع حيثما أراد "فالكنهاين"، وكانت العقيدة القتالية الفرنسية والإحساس الوطني الفرنسي يجعل فكرة إخلاء المدينة غير متصورة من الأصل، وكان هذا الدور ملقى على عاتق الجنرال "بيتان" الذي كان جنرالاً خبيرًا وكان لديه فهم عميق للقوى النيرانية ومحل ثقة مرءوسيه وجنوده وكان مجرد وجوده في "فردان" سببًا في رفع معنويات الجنود

بشكل غير عادي، وأعاد من جديد فكرة الثقة في قلاع "فـردان" كعمـود فقري للدفاع الفرنسي، حيث قرر "بيتان" تقوية قـلاع "فـردان" وإعـادة ملئها بالجنود لتشكل المتراس الأساسـي في الـدفاعات الفرنسـية الجديـدة، ووضع خططًا تفصيلية لخطوط مقاومة جديـدة علـى ضـفتي نهـر "المـوز" وأعطى أوامر بإنشاء مواقع مدفعيـة في "أفونكـور" وقلعـة "مـار" وأطـراف "فردان" وقلعة "روزيلييه"، وتم تقسيم خط "برا - دوومون" الـدفاعي إلى أربعة قطاعات وأوكل كل قطـاع إلى قـوات فرنسـية جديـدة مـن الفيلـق العشرين الفرنسي المسمى بالفيلق الحديـدي، وكانـت مهمـتهم الأساسـية هي تعطيل التقدم الألماني عن طريق شن هجمات مضادة، وكانت المدفعية الفرنسية قد بدأت تركز نيرانها نوعًا ما علـى القـوات الألمانيـة وبـدأت في اسـتنزافها عـلاوة علـى أن الجنـرال "بيتـان" كـان يعـي جيـدًا أهميـة اللوجيستيات، وحيث كانت المدفعية الألمانية بعيدة المدى قد تمكنـت مـن قطع جميع طرق السكك الحديدية التي تـربط "فـردان" منـذ عـام 1915 ولذا اعتمد "بيتان" على الطريق الوحيد المتوافر إلى الجنوب مـن "فـردان" والذي أصبح يعرف باسم الطريق المقـدس، واسـتخدم حـوالي ثلاثـة آلاف شاحنة لحمل المؤن والعتاد إلى الخطوط الفرنسـية، وكانـت تتحـرك بمعـدل عربة واحدة على الطريق كل أربع عشرة ثانية، ولم يغفل القادة الألمان عن ذلك الطريق بل كانوا يصبون نيران المدفعية الألمانية على الطريق محـاولين قطع خط الإمدادات الفرنسية، وفي التاسـع والعشـرين مـن فبرايـر تسـبب هطول الثلوج الكثيفة في إبطاء الهجوم الألماني علاوة على الدفاع الفرنسي المتماسك والبسالة التي أظهرها الفوج الفرنسي الثالـث والـثلاثين والـذي كان يقوده "بيتان" نفسه في السنوات الـتي سـبقت الحـرب -والحقيقـة أن الجنرال الفرنسي "فيليب بيتان" استطاع أن يبث في جنوده روحًا جديدة، وتمكن من رفع معنويات الجـيش الفرنسـي والأهـالي القلائـل المتـبقين في أطراف "فردان"، وكان النقيب "شارل ديجول" الذي سيصبح فيمـا بعـض

رئيسًا لفرنسا قائدًا لكتيبة في هذا الفوج، وتم أخذه أسيرًا أثناء المعركة- وأعطى ذلك الإبطاء فرصة للفرنسيين لجلب المزيد من الجنود، فتمكنوا من ضخ تسعين ألف رجل وثلاثة وعشرين ألف طن من الذخائر من رأس السكك الحديدية من "بار لو دوك" إلى "فردان"، وكان قد أعطى أوامر بألا تتوقف حركة الإمداد ليل نهار على الطريق المقدس، وكما حدث في معظم الهجمات الكبيرة على الجبهة الغربية فقدت قوات المشاة الألمانية المتقدمة الغطاء المدفعي حيث تحول ميدان القتال إلى بركة من الوحل والطين، وأصبحت عملية تحريك بطاريات المدفعية الألمانية إلى الأمام عملاً مستحيلاً علاوة على أنه وبتقدم الألمان إلى الأمام أصبحوا في مدى المدفعية الفرنسية على الضفة الغربة لنهر "الموز"، وبذلك أصبح كل هجوم جديد بالمشاة يكلف الألمان أكثر من الهجوم السابق عليه، حي كانت يتم قطع وحدات الجيش الخامس الألماني والتي كانت عادة ما تهاجم بأعداد كبيرة باتجاه الجنوب على الضفة الشرقية عن أجنابها بشكل شرس بواسطة مدفعية "بيتان" على الجهة المعاكسة لنهر "الموز" أو على الجهة المعاكسة من وادي "الموز"، وعندما استولى الألمان اخيرًا على قرية "دوومون" في الثاني من مارس 1916 كانت أربعة أفواج ألمانية قد تم تدميرها، وأدرك الألمان أنهم لن يستطيعوا إحراز أي تقدم آخر ضد "فردان" من الأمام، وبدأوا حينئذ بالتحول إلى الأجناب وهاجموا في التل الذي كان معروفًا باسم تل الرجل الميت في السادس من مارس، وقلعة "فو" في الثامن من مارس، وكان لتل الرجل الميت قمتان وكان يوفر ميزتين مهمتين؛ أولهما أنه يشمل بطارية مدفعية ميدانية فرنسية نشطة، وثانيهما عند النظر من مرتفعاته يمتد أمام المراقب مشهد بانورامي شامل للمنطقة الريفية المحيطة، وبعد اجتياح غابة "كوربو" ثم خسارتها عقب هجوم مضاد فرنسي عكف الألمان على التحضير لمحاولة أخرى للهجوم على تل الرجل الميت في التاسع من مارس ومن اتجاه "بتينكور" هذه المرة، واستطاعوا الاستيلاء

على غابة "كوربو" مرة أخرى ولكن بخسائر فادحة للدرجة التي منعتهم من الاستمرار، وكانت النتائج مشابهة إلى حد كبير لما حدث على الجانب الآخر لنهر "الموز" حيث تلاشت الجهود الألمانية للتقدم تحت أسوار قلعة "فو"، وبعد ثلاثة شهور من القتال الوحشي استولى الألمان على قرى "كومبير" و"شاتانكور" إلى الغرب من "فردان"، واستسلمت قلعة "فو" الموجودة في الشرق نهائيًا في السابع من يونيو، وكانت الخسائر كبيرة على الجانبين وحاول الجنرال "بيتان" إنقاذ حياة جنوده عن طريق التمسك بموقف دفاعي، ولكنه أبعد عن القيادة بترقيته إلى قائد مجموعة جيوش الوسط في الأول من مايو، وحل محله الجنرال "روبير نيفل" ذو العقلية الهجومية، وكان الهدف الألماني التالي هو قلعة "سوفيل"، وفي الثاني والعشرين من يونيو 1916 قاموا على الفور بقصف الدفاعات الفرنسية بغاز الديفوسجين السام والذي كان الألمان يعرفونه باسم غاز الصليب الأخضر بسبب العلامات الموجودة على القذائف الخاصة به، وهاجموا في اليوم التالي بثلاثين ألف رجل واستولوا على بطارية "تيومون" وقرية "فلوري"، ولم يتمكن الألمان من الاستيلاء على "سوفيل" برغم أن القتال استمر حتى الثالث من سبتمبر من نفس العام، وأجبر هجوم الحلفاء في اليوم في الأول من يوليو من عام 1916 الألمان على سحب بعض بطاريات مدفعيتهم من "فردان" للوقوف أمام الهجوم البريطاني الفرنسي المشترك في الشمال، وقد شن الحلفاء ذلك الهجوم لكي يتسنى لهم تخفيف الضغط قليلاً عن الفرنسيين في "فردان"، وبحلول الخريف كانت القوات الألمانية المهاجمة في قطاع "فردان" قد أصابها الإنهاك وتم استبدال الجنرال "باول فون هندنبورج" بالجنرال "فالكنهاين" رئيسًا للأركان، وشن الفرنسيون هجومًا مضادًا في الحادي والعشرين من أكتوبر، وكان الجنرال "نيفل" هو مهندس تلك العملية، وشملت العملية قصفًا عنيفًا وهجومًا للمشاة، وكبد الفرنسيون قلعة "دوومون" خسائر فادحة وذلك باستخدام مدافع من عيار

16بوصة المركبة على قضبان سكك حديدية والتي تم إرسالها إلى الجبهة عن طريق السكك الحديدية، وقامت الطائرات بعملية الاستطلاع للأهداف التي ينبغي قصفها، واستطاعوا استعادة القلعة في الرابع والعشرين من أكتوبر، وفي الثاني من نوفمبر فقد الألمان قلعة "فو" وانسحبوا على أثر ذلك، وأخيرًا شن الفرنسيون هجومًا نهائيًا بدأ في الحادي عشر من ديسمبر، ونجح في دفع الألمان إلى الخلف عند المواقع التي بدأوا هجومهم منها تقريبًا، ثم شن الفرنسيون هجومًا أصغر في حجمه وفي أهميته على "فردان" في أغسطس من عام 1917 واستعادوا تل الرجل الميت ومرتفعات تل 304 على الضفة اليسرى لنهر "الموز".

الخسائر

كان من الأهمية بمكان من الناحية الإستراتيجية وتبعًا لأهداف القيادة الألمانية عند التخطيط لمعركة "فردان" أن يكبدوا الفرنسيين خسائر أكبر مما تتكبده قواتهم، وقد حدث ذلك بالفعل ولكن معدل الخسائر كان عاليًا أكثر من المعدل اثنان إلى واحد الذي كان الألمان يأملونه برغم أن أعداد القوات الألمانية كانت تفوق أعداد القوات الفرنسية هناك بشكل كبير، وكانت الخسائر الفرنسية مروعة لذا أصر الجنرال "بيتان" الذي رُقِّي فيما بعد إلى درجة المارشال على تدوير القوات بشكل دوري في وجه الآلة الحربية الألمانية، وكان تدوير القوات يعني أن سبعين بالمائة من الجيش الفرنسي قد مر بمفرمة "فردان" يواجههم خمسة وعشرون بالمائة فقط من القوات الألمانية التي كانت تحارب على تلك الجبهة، وكانت هناك أربع وعشرون فرقة فرنسية تحارب في "فردان"، وتقدر الخسائر الفرنسية برقم كبير وهو حوالي 161000 قتيل وحوالي 101000 مفقود و216000 جريح، بينما تقدر خسائر الألمان بحوالي 142000 قتيل

و187000 جريح، وتشير الإحصائيات الخاصة بنوعية الخسائر إلى أن معظم القتلى على الجانبين كانوا نتيجة لنيران المدفعية، وتشير الوثائق الفرنسية إلى أن معدل استهلاك الفرنسين لدانات المدفعية في الخمسة شهور الأولى بلغ خمسة عشر مليونًا من القذائف معظمها قذائف مدفعية ميدان، وكانت النيران الأساسية تاتي من خمسة وسبعين بطارية مدفعية والتي كانت تتكون من ألف مدفع بطول خط جبهة "فردان"، وتبين الصور التي التقطت لميدان المعركة أن الفوهات الناتجة عن قذائف المدفعية تتداخل مع بعضها البعض على مساحة بمئات الأميال المربعة، مما يبين عنف القصف وكثافته، وتعرف معركة "فردان" أيضًا بمفرمة "فردان" أو مطحنة نهر "الموز"، وأصبحت رمزًا للإرادة القتالية الفرنسية أثناء الحرب العالمية الأولى، بل وأثرت تلك المعركة في الفكر الإستراتيجى الفرنسي، وخصوصًا بعد ثبوت نجاح نظام التحصينات الثابتة مما أدى فيما بعد إلى إنشاء خط ماجينو الدفاعي كأفضل وسيلة تفتق عنها ذهن القيادة العسكرية الفرنسية للدفاع عن الحدود الفرنسية الألمانية بعد انتهاء الحرب.

رواية فالكنهاين للمعركة

كانت إمدادات الذخيرة بهدف الهجوم على "فردان" قد زادت عن أية كمية تطلبتها أية معركة أخرى، وكذلك كانت كل مهام العمل والعتاد المتعلق بالإمدادات، ولأجل صرف انتباه العدو عن كل تلك التحضيرات تم تكليف الجيوش الأخرى في الغرب بمهمة شغل العدو عن طريق هجمات صغيرة على قطاعاته، وقد تصرفت القوات بشكل مبهر وضربت مثالاً يحتذى في قيامها بتلك المهمة، ففي التاسع من يناير هاجم الجيش الثالث "لا ميزون دو شامباني"، وفي الثاني عشر من فبراير هاجمه في "سانت ماري"، وفي الثالث عشر من نفس الشهر شن هجومًا على

"تاور"، أما في الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من يناير كان الجيش الثاني قد لاقى نجاحًا في هجومه على "فريز" جنوب السوم، وقام الجيش السادس بتوجيه ضربته في السادس والعشرين من يناير إلى "نوفيل"، وفي الثامن من فبراير إلى الغرب من "فيمي"، وفي الحادى والعشرين من فبراير إلى الشرق من "سوشيه"، واندفعت مفرزة من جيش "جيده" إلى الأمام داخل الخطوط الفرنسية بالقرب من "أوبرسيبت" في الثالث عشر من فبراير، وفي كل موقع تم تحقيق الأهداف المقررة للقوات، وتكبد العدو خسائر كبيرة، وكانت الخسائر الألمانية الطفيفة في تلك الهجمات مبررة؛ لأن الهدف من تلك العمليات هو التعمية على خططنا، وفي المقابل كانت طبيعة الأشياء فقط ألا يتم الموافقة على العمليات الكبيرة وليس الهجوم الرئيسي الذي تم التخطيط له بالفعل، وعندما قام الجيش الثالث بالاستعلام عما إذا كان ما يزال عليه أن يقوم بهجوم كبير في قطاعه فتم إبلاغه بالرد، وأضيفت الملاحظات التالية إلى شرح الخطط التي ينبغي اتباعها في قطاع "الموز":

"إن مشكلتنا بكل دقة هي كيفية تكبيد العدو خسائر فادحة في نقاط حرجة وبتكلفة قليلة نسبيًّا من جنودنا، ولكن يجب علينا ألا ننظر إلى حقيقة أن خبرة الهجمات السابقة التي كانت تتم بأعداد كبيرة لا تغري حقيقة باتباعها، فسيبدوا تقريبًا كما لو كانت مسائل القيادة والإمداد في مثل تلك الهجمات لا يمكن حلها، وفي اليوم المقرر لشن الهجوم كانت ظروف الأرض في منطقة "الموز" والتي غمرتها الأمطار المستمرة قد منعت أي تحرك للقوات، بينما كانت الرؤية السيئة بسبب السماء الملبدة بالغيوم قد جعلت من عمل المدفعية شيئا مستحيلاً، ولم يتحسن الطقس بشكل كافٍ قبل منتصف الشهر للبدء في القصف في الحادي والعشرين من فبراير، وكان هجوم المشاة الناجح في اليوم التالي قد تم تنفيذه باندفاع لا

يمكن مقاومته، وتم الاستيلاء على الخط الأول للعدو ببساطة، ولم تتمكن القلاع المتقدمة التي تم بناؤها في وقت السلم من إيقاف المهاجمين الشجعان بالرغم من أن مدفعيتنا لم تصبها كثيراً، وفي الخامس والعشرين من فبراير اجتاح الفوج الرابع والعشرين مشاة (براندنبورج) باجتياح قلعة "دوومون"، وهي الركن المنيع والقوي ذو السمعة الرنانة لنظام الدفاع عن "فردان" في الشمال الشرقي، وفي نفس الوقت أفسح العدو الطريق في وادي "أورن" وبنفس القدر في جنوب طريق "ميتس - فردان" بحيث تتمكن الجبهة الألمانية هنا من التحرك إلى سفوح مرتفعات "الموز"، واتضح من الكثير من العلامات أن تلك الدفعة الألمانية القوية لم تهز كل جبهة العدو فقط، ولكن امتد تأثيرها إلى شعوب وحكومات دول التفاهم، غير أن قيادات أركان العدو على اختلافها اعتبرت أنه من الضروري إيقاء الحركة المتقدمة في مواجهة المرتفعات، وبدأت الهجمات المضادة العنيفة - ويمكننا القول:- اليائسة بقوات تم جمعها على عجل من كل أجزاء الجبهة، وتم صدها في كل مكان بخسائر شديدة الفداحة للعدو، وكان يمكن للموقف أن يتغير غير أنا لم نكن قد تمكننا من جلب مدفعيتنا والتي كانت غير قادرة على المتابعة بشكل سريع على الطرق التي كانت ما تزال صالحة للمرور بالكاد، وكذلك توفير الإمداد بالطعام والذخيرة، وفي تلك الأثناء كان العدو وبسرعة مذهلة قد نجح في جلب عدد من بطاريات المدفعية القوية إلى المواقع الموجودة خلف مرتفعات "مار" على الضفة الغربية للنهر، وكان تأثيرها على أجناب جيشنا شديداً، وكان علينا إيقاف الإزعاج الذي تسببه تلك المدافع، ولم يكن من الممكن القيام بذلك بكفاءة من الضفة اليمنى لنهر "الموز"؛ لأنا كنا مشغولين بالتعامل مع قوات العدو التي تواجهنا بشكل مباشر، وكانت الوسيلة الوحيدة المتاحة كما تنبأنا وجهزنا هو دفع الجبهة الألمانية على الضفة اليسرى للنهر بعيداً

بحيث تستطيع المدفعية التعامل مع المدفعية الفرنسية البريطانية على مرتفعات "مار" بشكل أكثر كفاءة من ذي قبل، وكان لدينا الآن قوات متاحة لتنفيذ تلك الحركة الضرورية، وبغض النظر عن المحاولة الضعيفة التي تمت في "شامباني" لم يقم العدو بشن أية هجمات على أية قطاعات أخرى، وأظهر استطلاعنا عدم اتخاذ أية استعدادات لهجوم وشيك، وفي الحقيقة أصبح ذلك احتمالا بعيدًا، وكان الفرنسيون قد جمعوا كل احتياطياتهم تقريبا من باقي جبهتم، وسلموا الإنجليز على وجه السرعة القطاع القريب من "أراس" (Arras) والذي كان تحت مسئوليتهم في السابق، وذلك من أجل توفير الوسائل الضرورية للتمسك بمواقعهم في قطاع "الموز" (Meuse)، وأجبر الإنجليز عندما تولوا مسئولية قطاع "أراس" (Arras) على جعل خطوطهم ممتدة بشكل كبير، وكانت تشكيلات جيوش المجندين الخاصة بكتشنر في إنجلترا آخذة في التزايد، وكان علينا بناءا على ذلك أن نتوقع أن الوجود البريطاني في القارة والمتمثلة في أربعين إلى اثنين وأربعين فرقة سيتضاعف في تاريخ غير بعيد، غير أن مسألة متى وما إذا كانت تلك القوات ستكون جاهزة لاستخدامها في هجوم لم تكن قد تأكدت بعد، وفي تلك الظروف كانت المسألة التي ينبغي على القيادة العامة الألمانية بحثها هي هل يتم وقف عملية "الموز" ونبدأ في عملية أخرى على جبهة أخرى؟ وكان ذلك الإجراء يعني تخليًا كاملاً عن الفكر الذي تأسس عليه الهجوم شمال "فردان" (Verdun)، وكذلك لم يكن هناك أي سبب يدعو إلى القيام بذلك، وكنا حتى الآن قد حققنا ما كان مرسومًا، وكان لدينا الكثير من الأسباب لنأمل أن نفعل المثل في المستقبل، وفي الحقيقة فإن هذا هو ما حدث، ولم يكن لأي هجوم في أي مكان آخر مستقبل جيد، وكان العدو ما يزال يتمسك بخطوطه بقوات كبيرة، فالإنجليز على سبيل المثال كان لديهم من سبعة إلى ثمانية

أفراد في كل ياردة من جبهتهم، وكان يجب التوصل إلى النجاح ضد مواقع يتمسكون بها جيدًا مثل تلك المواقع فقط عن طريق تركيز المدفعية التي نمتلكها على "الموز" (Meuse) وعلاوة على ذلك كان ذلك يعني تضييعًا كبيرًا للوقت، وكان العدو بلا ريب سيستغل ذلك لنقل الاحتياطات، وعلى ذلك تم رفض فكرة تغيير مسرح العمليات، وتم تنفيذ الهجوم في السادس من مارس، وفي الأسابيع التالية على الضفة الغربية نجح الهجوم إلى ذلك الحد حتى أن الفرنسيين تم إلقاؤهم إلى خارج خطوطهم الأمامية بخسائر كبيرة كل مرة، وبسبب الطبيعة الخاصة بالبلد لم نستطع استغلال تلك النجاحات لدفع مدفعيتنا إلى الأمام بما يكفي، وبالتالي فإن الأعمال التجهيزية هنا كان ينبغي الاستمرار بها، واستمر القتال الشديد لشهر ابريل بالكامل على الضفة الغربية، ولم تكن هناك أية وقفات سريعة تخللت هجومنا في هذا القطاع حتى احتلالنا للجزء الرئيسي من تل 304 في السابع من مايو، وكانت إدارة العمليات في "الموز" (Meuse) في أيدي رئاسة أركان قيادة مجموعة الجيوش التي يقودها أمير العرش نفسه، ولكن بعد امتداد العمليات أصبح تخفيف بعض ذلك العبء على رئاسة الأركان ضروريًّا، وبالتالي وفي مارس بينما احتفظنا بالسيطرة فقد وضعنا الجنرال "فون مودرا" (on Mudra) في قيادة اليمنى وفي الضفة اليسرى وضعنا الجنرال "فون جالفيتس" (von Gallwitz) والذي استلم مكانه في قيادة الجيش الحادي عشر في مقدونيا الليوتنانت جنرال "فون فينكلر" (von Winkler)، وكما تقرر كان هناك توقف مؤقت لهجومنا على القطاع الغربي، ولكن لا يجب أن يفترض من ذلك أن الأمور أصبحت هادئة هناك بشكل مطلق، فهنا وكما على الضفة الشرقية احتدم القتال بشكل مستمر وبشراسة أكثر من ذي قبل، واستمر الفرنسيون بدون توقف في هجماتهم المضادة ولم تتوقف معركة المدفعية أبدًا .

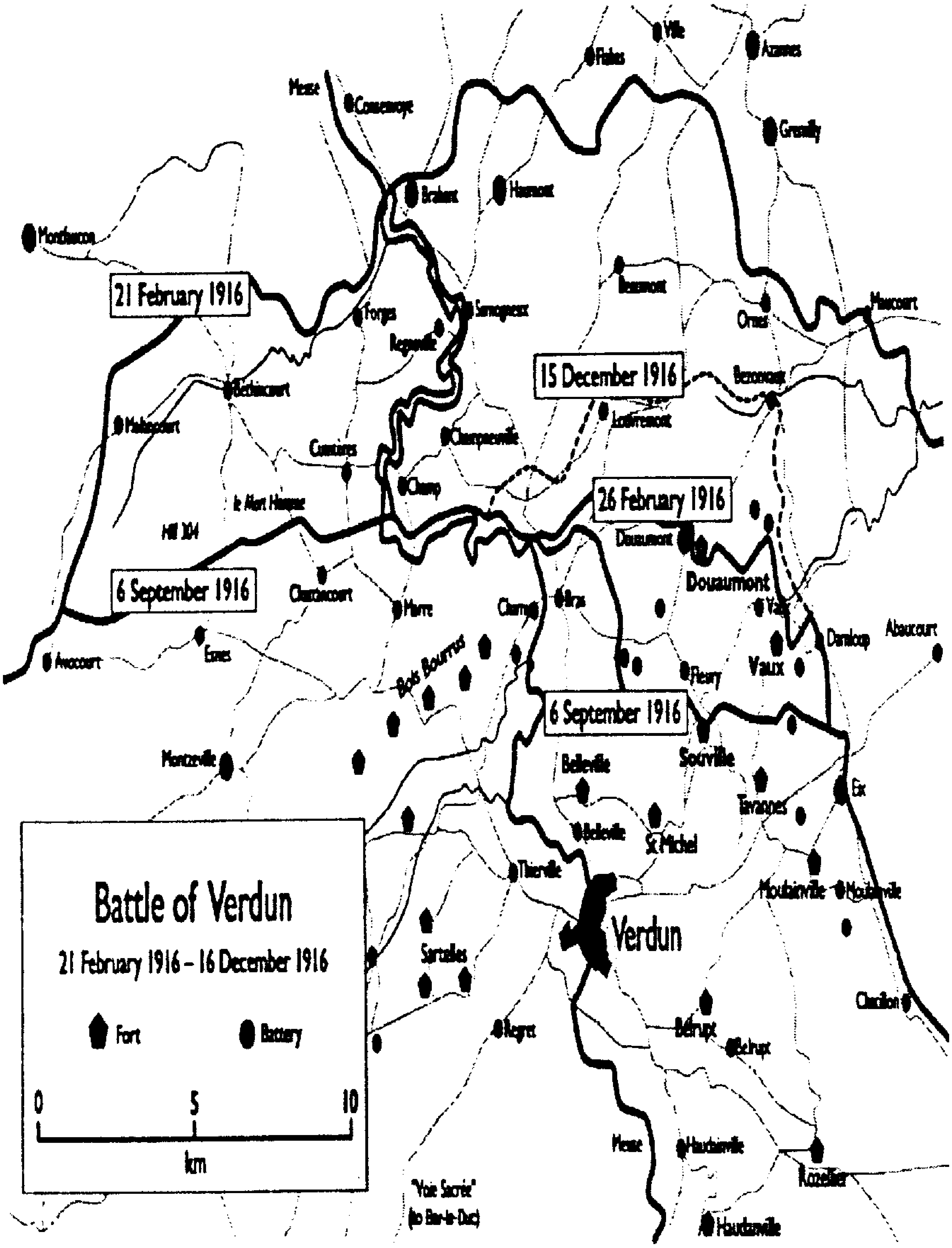

خريطة تبين خط سير المعركة

معركة السوم

الموقع الجغرافي للسوم

تقع السوم في شمال الغربى لفرنسا، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى نهر السوم، وتتكون المنطقة من مجموعة من التباب المرتفعة التي يقطعها نهر السوم مُشَكِّلَةً بذلك مانعًا مائيًّا طبيعيًّا، الأمر الذي أعطى القوات الألمانية مزية نسبية في الدفاع عن المنطقة، وجعل الهجوم عليها غاية في الصعوبة إذ تتحكم التباب في السهل الموجود على الجانبين، وتجعل منه ميدانًا صالحًا للرماية ضد أية قوات مهاجمة.

خريطة توضح موقع السوم إلى الشمال الغربي من فرنسا

استمرت أعمال القتال في السوم من يوليو 1916 إلى نوفمبر من نفس العام، وكانت من أكبر معارك الحرب العالمية الأولى وبخسائر بلغت 1.4مليون ما بين قتيل وجريح، وكانت من بين أكثر المعارك الدموية التي تم تسجيلها، فقد حاول الحلفاء اختراق الخطوط الألمانية على جبهة طولها 25كيلومترًا شمال وجنوب نهر السوم في شمال فرنسا، وكانت أهداف القتال كالتالي :

أ- استنزاف القوات الألمانية في معركة طويلة.

ب- إجبار الألمان على سحب قوات رئيسية من الجبهة الشرقية.

ج- اختراق الجناح الأيمن للجيب الألماني والتقدم في العمق؛ لتهديد طرق مواصلات القوات الألمانية في جبهة الفردان لتخفيف الضغط الهجومي على القوات الفرنسية هناك، عن طريق سحب القوات الألمانية بعيدًا عن معركة الفردان.

وكانت قوات الحلفاء قد حاولت اختراق ذلك الجناح في عام 1915 عند مدينة لانس، ولكنها فشلت؛ لذا تقرر أن يتم تسديد الضربة هذه المرة إلى منطقة السوم جنوبي لانس بغرض الوصول إلى بابوم والوصول بعد ذلك إلى كامبري، غير أنه وبنهاية أعمال القتال في السوم كانت الخسائر قد زادت عما تمت خسارته في الفردان.

وكما أن معركة الفردان ما زالت تؤلم الضمير الفرنسي فلابد من القول بأن معركة السوم لها نفس الأثر عند البريطانيين، وكان من أبرز أيام هذه المعركة التي دامت شهورًا هو يوم الأول من يوليو 1916 والذي خسر فيه البريطانيون 67470 من بينهم 19240 قتيل، فقد كان يومًا من أكثر الأيام دموية على الجيش البريطاني، وكما كان أثر ذلك اليوم رهيبًا على القوات البريطانية، فقد كان له نفس الأثر على قوات البلدان الأخرى المتحاربة، فقد وصف أحد الضباط الألمان النقيب فون هنتيج هذا اليوم فيما بعد بأنه "قبر من الطين للجيش الميدانى الألماني"، وبحلول نهاية المعركة كان

البريطانيون قد تعلموا العديد من الدروس في الحروب الحديثة بينما عانى الألمان من خسائر لم يكن بالإمكان تعويضها، كما كان من أهمية هذه المعركة أنها حسمت الكفة في الحرب لصالح الحلفاء. كما يقول المؤرخ البريطاني سير جيمس أدموندز: "لا ريب أن هذه المعركة قد مثلت الأساس للانتصار النهائي للحلفاء في الحرب".

الموقف قبل بدء القتال

في أوائل عام 1916 كانت القوات الألمانية في شمالي فرنسا تأخذ شكل زاوية قائمة، رأسها عند شمال ضواحي باريس عند مدينة نوايون، ويمتد ضلعها الرأسي من الشمال إلى الجنوب، في حين يمتد الضلع الأفقي من الغرب إلى الشرق، وكانت قوات الحلفاء -كما أشرنا سابقا- مشتبكة مع القوات الألمانية في معركة فردان في محاولة منها لمنع الجناح الأيسر للقوات الألمانية من الاندفاع نحو الجنوب الغربي باتجاه باريس.

طبيعة الدفاعات الألمانية

كانت الدفاعات الألمانية في منطقة السوم والمتمثلة في الخنادق دفاعات قوية نظرًا لطبيعة الأرض في تلك المنطقة، وكانت أرض السوم كَلْسِيّة وكذلك كانت الخنادق عميقة ومتصلة، وتسمح بسهولة تحرك الأسلحة وانتقالها في داخلها من موقع إلى آخر، وكانت مجهزة بمرابض للمدفعية ومحاطة جيدًا بحقول ألغام لتأمينها ضد تسلل قوات الحلفاء إليها، وكذلك الهجوم عليها ليلاً من قبل عناصر الاستطلاع الخاصة بالحلفاء، كما أخذ في الاعتبار مبدأ الإخفاء والتمويه، فتمت تغطية مداخل الخنادق بفروع الأشجار؛ لإخفائها عن أعين الاستطلاع، وكانت الاستحكامات الألمانية مكونة من طابقين ومزودة بغرف للراحة ومكاتب وغرف للضباط، ومراكز

قيادة وسيطرة، ومخازن للأسلحة والذخيرة والمعدات، ومخازن للتعيين والمواد التموينية.

إستراتيجية الحلفاء

كانت إستراتيجية الحلفاء لعام 1916 قد تمت صياغتها بشكل كبير في مؤتمر في شانتي والذي تم عقده بين السادس والثامن من ديسمبر 1915، فقد تقرر شن هجمات في نفس الوقت يقوم بها الروس في الشرق والإيطاليون (وكانوا قد انضموا للتفاهم) في جبال الألب، والإنجليز والفرنسيون في الجبهة الغربية، وبذلك يقومون بمهاجمة القوات الرئيسية من جميع الجهات، وفي أواخر ديسمبر عام 1915 حل الجنرال سير دوجلاس هيج محل الجنرال سير جون فرنش كقائد عام للقوات الهجومية البريطانية، وكان هيج يميل إلى فكرة الهجوم الإنجليزي في الفلاندرز، حيث كانت قريبة من خطوط تموين القوات البريطانية عن طريق الموانئ، وكان لها هدف إستراتيجي وهو سحب الألمان بعيدًا عن الساحل البلجيكي المطل على بحر الشمال، وكانت الغواصات الألمانية تهدد بريطانيا منه، غير أنه وبالرغم من عدم وجود ترتيبات رسمية فإن البريطانيين كانوا يعدون الشريك الأصغر على الجبهة الغربية، وكان عليهم الانصياع لما تمليه السياسة الفرنسية وفي يناير 1916 وافق القائد الفرنسي الجنرال جوزيف جوفر على أن يقوم الإنجليز بهجوم في الفلاندرز، ولكن بعد مناقشات مستفيضة تم التوصل في شهر فبراير إلى اتفاق يقضي بأن يتم شن هجوم مشترك بين كل من الجيشين الفرنسي والإنجليزي حيث يلتقيا على شكل زاوية قائمة عند مدينة "بيكاردي" على نهر السوم.

وكانت الخطط التي تم وضعها لمهاجمة السوم قد بدأت بالكاد تاخذ شكلها عندما بدأ الألمان في معركة الفردان في الحادي والعشرين من شهر

فبراير 1916 وحيث أخذ الفرنسيون على عاتقهم الدفاع عن فردان، فقد قلل هذا من قدرتهم على الاضطلاع بدورهم في معركة السوم، وانتقل هذا العبء بشكل كبير إلى البريطانيين، وانتهى الحال بفرنسا إلى المساهمة بثلاثة فيالق عند بدء الهجوم ويتطور الأعمال القتالية في معركة السوم تغير الهدف من الهجوم بعد أن كان توجيه ضربة حاسمة إلى القوات الألمانية تهدف إلى تخفيف الضغط على الجيش الفرنسي حيث تغير ميزان القوى ليصبح 13 فرقة فرنسية و20 أخرى للبريطانيين، وعلاوة على ذلك كان هناك عدم اتفاق بين هيج وقائده الأعلى المحلي السير جنرال هنري رولينسون والذي كان يفضل سياسة القضم والتمسك -أي مهاجمة قطع صغيرة من الأرض والتمسك بها- متعارضًا مع مفهوم هيج الخاص بمعركة حاسمة.

وكان الجيش النظامي البريطاني الأصلي القوي المكون من ست فرق عند بداية الحرب قد استهلكته المعارك التي دارت في عامي 1914 و1915 وأصبحت نواة الجيش الآن تتكون من المتطوعين من القوات المحلية وجيش اللورد كتشنر الجديد، والذي بدأ في تشكيله عام1914 وقد تطلب التوسع وجود جنرالات للقيادات العليا، وكنتيجة لذلك أصبحت الترقيات تتم بمعدلات تدير الرأس، ولم تكن دائمًا تعكس الكفاءة أو القدرات العسكرية، وكان هيج نفسه قد بدأ الحرب وهو يقود الفيلق البريطاني الأول قبل أن ينتقل إلى قيادة الجيش الأول البريطاني ثم القوة الهجومية البريطانية (والتي كانت في الواقع مجموعة مكونة من أربعة جيوش ثم خمسة وتضم ستين فرقة)، وكذلك فإن تلك الزيادة في الأعداد قد أدت إلى إضعاف الكفاءة العامة للقوات، وقوضت الثقة التي كان يضعها القواد في رجالهم، وكان ذلك يتجلى بشكل خاص فيما يتعلق برولينسون، وقبل منتصف عام1916 كان عدد الطائرات البريطانية من طراز فوكر قد ازداد، وكان السرب الملكي الجوي قد حقق السيادة الجوية فوق ميدان

المعركة، وعلى جبهة السوم حشدت القوات الجوية الملكية البريطانية عشر أسراب و185 طائرة ضد 129 لألمانيا.

وقد اتبع البريطانيون سياسة هجومية شديدة تمكنهم من الاستطلاع من أجل القصف المدفعي وذلك عن طريق الطيران أو المناطيد المربوطة مع حرمان الألمان من تلك المزية، ولم ينقلب الميزان ثانية لصالح الألمان إلا في سبتمبر عندما استخدم الألمان طائرات جديدة، وكان الألمان يحتلون أراض عالية ولم يتم التعرض لها أو مهاجماتها تقريبًا منذ أكتوبر1914، وكان لديهم سعة من الوقت لبناء خنادق ممتدة ودشم لا تؤثر بها قذائف المدفعية في التربة الجيرية وكذلك لم يكن الهجوم مفاجئًا

اليوم الأول

كان يوم الأول للهجوم البريطاني الفرنسي المشترك في السوم الأول من يوليو1916 كارثة غير مسبوقة في تاريخ الجيش البريطاني فقد عاني البريطانيون من كثرة خسائرهم في ذلك اليوم إذ قتل 19240 جنديًا حصدتهم المدافع الآلية الألمانية. وكان مقررًا أن يكون هجوم السوم هو أكبر هجوم تشنه القوات الهجومية البريطانية، وكذلك كان أول هجوم تشترك فيه أعداد جوهرية من كتائب الجيش الجديد للورد كتشنر، وكذلك اشتركت من كتائب البالس التي تشكلت استجابة لدعوة اللورد كتشنر للتطوع في أغسطس1914 وكان اليوم الأول غير معتاد حيث كانت الفرق العسكرية البريطانية من إنجلترا وأيرلندا فمنذ عام 1915 كانت الفرق الكندية تشارك بشكل بارز في المعارك البريطانية، ولم يتم إبراز دور المشاركة الفرنسية، ويرجع ذلك بشكل كبير إلى أن الهجوم الفرنسي والذي كان ناجحًا إلى حد كبير قد غطت عليه الكارثة التي أصابت القوات البريطانية، وكذلك كان الفرنسيون مشغولين بالدفاع عن الفردان، ومع

ذلك كانت المشاركة الفرنسية في السوم جوهرية، ومما يذكر أن النجاح البريطاني الوحيد في اليوم الأول للمعركة كان في القطاع الجنوبي المجاور للفيلق العاشر الفرنسي.

خطة الهجوم

كانت الخطة البريطانية في السوم هي أن يفتحوا ثغرة يمكن استغلالها بواسطة الخيالة، وبمجرد اختراق الجبهة الألمانية تقوم قوة متحركة بالاندفاع شمالاً باتجاه أراس، وتطوير الهجوم عبر الخط الألماني غير أن البريطانيين لم يكن لديهم خبرة كافية بالحرب في الخنادق، وقد واجه الحلفاء ثلاث خطوط دفاعية ألمانية، اثنان منهما مكتملين والثالث كان قيد الإنشاء، وكان خط المركز التقريبي لميدان القتال قد تم تحديده بالطريق الروماني الذي يسير من ألبرت في الغرب إلى بابوم في الشرق، وكان نهر السوم يجري على بعد ثمان كيلومترات جنوبي الطريق، وكان مقرراً أن يقوم الجيش الرابع بقيادة السير جنرال هنري رولينسون بالهجوم الرئيسي على أن تقوم فرقتين من الجيش الثالث بقيادة الجنرال اللنبي بهجوم خداعي على الجناح الشمالى، وعندما يتم فتح الثغرة تبدأ المرحلة التالية وهي استغلال الثغرة عن طريق ثلاث فرق خيالة من جيش الاحتياط بقيادة السير جنرال هوبرت جو، وكانت معركة السوم بالنسبة للجنرالات الثلاثة أول معركة يتولون مسئوليتها وهم قادة جيوش، ويقوم الجيش السادس الفرنسي بقيادة الجنرال ماري إميل فيول بالجهود الفرنسي الرئيسي، وكان مقدراً للجيش الفرنسي العاشر في أقصى الجنوب بقيادة الجنرال ألفريد ميشليه أن يلعب دوراً صغيراً في المعركة، وكان هذان الجيشان جزءاً من مجموعة الجيوش الشمالية الفرنسية والتي كانت تحت قيادة الجنرال فرديناند فوش اعتباراً من 3يوليو1916، وكان من المفترض أن تكون هناك

منطقة فاصلة بين الجيشين البريطاني والفرنسي وهي منطقة مستنقعات بطول نهر السوم.

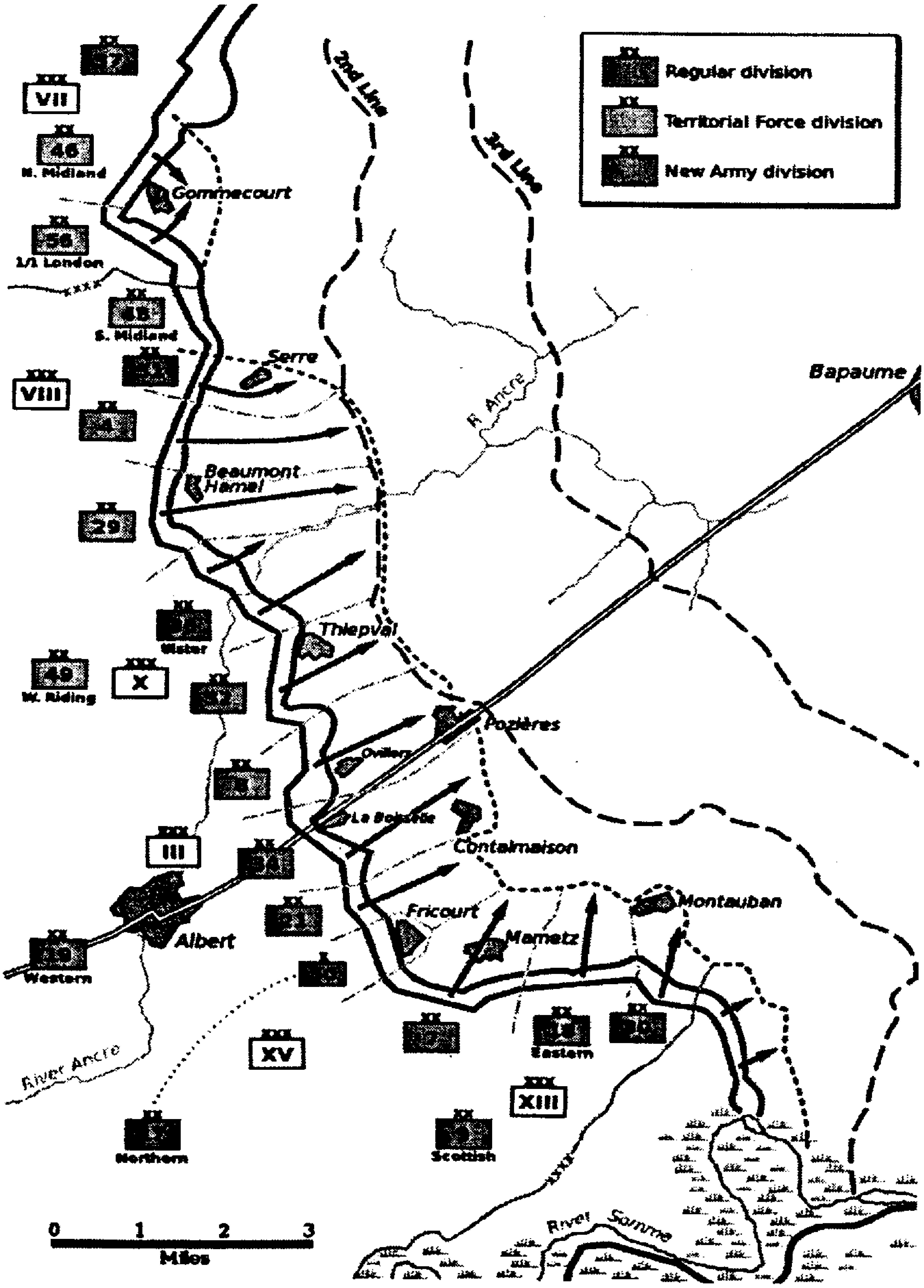

خريطة توضح الخطة البريطانية لمهاجمة المواقع الألمانية في اليوم الأول للمعركة

ولكن بدلاً من ذلك قام القائد العام الفرنسي الجنرال جوزيف جوفر بوضع الفيلق العاشر الفرنسي شمال السوم بمحاذاة مجموعة الجيوش الرابعة (الفيلق الثالث عشر البريطاني) بحيث يفقد البريطانيون قدرتهم على التصرف بشكل مستقل، وكان في مواجهة البريطانيين والفرنسيين في السوم الجيش الثاني الألماني بقيادة الجنرال فريتس فون بيلوف، وكان الألمان قد علموا باستعدادات الحلفاء للهجوم في أبريل ولكنهم طرحوا فكرة أن تكون القوات البريطانية تمثل تهديدًا لهم معتبرين إياها "محدودة القيمة قتاليًا" غير أنه وقبل حلول شهر يوليو كانت التطورات مقلقة بالنسبة لبيلوف، وقد طلب التصريح له بشن هجوم وقائي لتمزيق خطط الحلفاء غير أنه وفي الرابع من يونيو قام الروس بشن هجوم بروسيلوف، وكان على الألمان أن يرسلوا قوات إلى الشرق لحل الأزمة المتنامية، وبالتالي لم يكن بالإمكان توفير الأعداد المطلوبة في السوم ولم تتوفر منها إلا قوات قليلة، فكانت كل التعزيزات التي تم توفيرها هي أربعة فرق بالإضافة إلى المدفعية فقط، ونتيجة لذلك كان لدى بيلوف ست فرق فقط على الجبهة وأربعة ونصف احتياط عندما شن الحلفاء هجومهم المتكون من 13 فرقة بريطانية وست فرق فرنسية.

الإعداد للمعركة

المدفعية

كانت الخطة قد حددت ستة أيام للقصف المدفعي التمهيدي ثم تمت زيادتها لاحقًا إلى سبعة أيام نتيجة لسوء الأحوال الجوية، وكان لدى الجيش الميداني الرابع 1010مدفع ميدان و182مدفع ثقيل و245هاوتزر بالإضافة إلى 100 مدفع وهاوتزر فرنسيين، وبينما كان ذلك يعد زيادة جوهرية عن المعارك البريطانية السابقة إلا أن مجموعة المهام المنوطة بها

علاوة على طول الجبهة التي سيتم قصفها كانت تزيد عن قدرة قطع المدفعية المتوفرة وبالإضافة إلى قصف الخنادق الألمانية كان على القصف المدفعي أن يقوم بمهمتين؛ الأولى هي قطع الأسلاك الشائكة لتسهيل عبور المشاة لها فيما بعد، والثانية هي تحييد وإسكات بطاريات المدفعية الألمانية، وفي تلك الأيام السبعة أطلقت المدفعية البريطانية أكثر من مليون ونصف المليون قذيفة، وكان ذلك اكثر من عدد القذائف الذي أطلقته المدفعية الألمانية في الاثني عشر شهرًا الأولى للحرب، بالاضافة إلى ربع مليون قذيفة تم إطلاقها في اليوم الأول للهجوم، وكان القصف شديدًا لدرجة أنه كان يمكن سماعه على بعد ثلاثمائة ميل، وبينما كان هذا القصف جديدًا على البريطانيين إلا أنه لم يكن الأول من نوعه فقد سبقت معركة "أرتوا" الفرنسية الثانية ستة أيام من القصف تم فيها إطلاق 2.1 مليون قذيفة.

وقد زاد إنتاج القذائف البريطانية في السوم منذ فضيحة القذائف في1915، ولم تكن القذائف جيدة الصنع إذ أن الكثير من القذائف لم تكن تنفجر، وكذلك فان نسبة الشرابنل إلى نسبة المواد شديدة الانفجار كانت عالية، وكان الشرابنل عمليًا غير صالح للاستخدام ضد المواقع المتخندقة، وكانت القذائف تتطلب ضبطًا جيدًا للفتيل حتى يكون لها تأثير في قطع الأسلاك الشائكة.

الألغام

عندما استلم البريطانيون قطاع السوم من الفرنسيين فقد استلموا معه عددًا من الألغام، وكانت التربة الجيرية للسوم مثالية لشق الأنفاق، وقد تم إعداد عشرة ألغام لليوم الأول للمعركة ثلاثة ألغام كبيرة تزن عشرين طنًا وسبعة أخرى تزن 2300كيلوجرام، وكان هدف الألغام مزدوجًا؛ الأول تدمير الدفاعات الألمانية، والثاني توفير السواتر لجنود المشاة المتقدمين في

المنطقة المجردة من السلاح، وعند انفجار كل لغم ينـدفع المشـاة إلى الأمـام لاحتلال الفوهة التي نتجت عن انفجـاره، وكانـت الألغـام الكـبيرة الـتي تحتوي على أربع وعشرين طنًّا من الأمونـال علـى جـانبي طريـق ألـبرت ويابوم قرب لابوازيل، وكان لغم الواي شمال الطريـق، ولغـم لوكنـاجر إلى الجنوب، وكان اللغم الآخر الكبير تحت حصن هوثورن ريدج قرب مدينـة بومون هامل، وكان يحتوي علـى 18 طنًّـا مـن المتفجـرات، وتقـرر تفجـير الألغام قبل ساعة الصفر بدقيقتين أي في السـابعة وثمـان وعشـرين دقيقـة صباحًا، وكان الاستثناء الوحيد هو لغم هوثورن ريـدج والـذي تم تفجـيره قبل ساعة الصفر بعشر دقائق كاملـة في السـابعة وعشـرين دقيقـة، وكـان توقيت تفجير أحد الألغام الصغيرة سيئًا فانفجر متـاخرًا بعـد بـدء هجـوم المشاة، وفي ذلك الوقت كانت ألغام السوم هي أكبر ألغا تم تفجيرهـا أثنـاء الحرب، ولكن تفوقت عليها الألغام التي تم تفجيرها في معركة ميسين.

حرب الخنادق

كانت الصورة المعتادة للهجوم على الخنادق أثناء الحرب العالميـة الأولى هي كتلة من الجنود تقتحم خطًا بينما يطلق المدافعون عليهم النار، كانت تلك في الواقع الطريقة السائدة في بداية الحرب، ولم يكن ذلـك التكتيـك ناجحًا على الدوام إلا فيما ندر، وكنت طريقة الهجوم المعتادة هي الهجـوم ليلاً من خنادق مواصلات معدة من قبل حيـث يقومـون بإزالـة العقبـات الموجودة بالفعل في الميدان، وفي عام1917 طـور الجنـرال الألمـاني أوسـكار فون هوتيير Oskar von Hutier تكتيكات اقتحام عن طريق قـوات اقتحـام عالية التدريب وجيدة التسليح، تقوم باقتحام النقاط الضعيفة في الخطـوط المعادية وتجنب النقاط القوية، وعلاوة على ذلـك كـان مـن الضـروري ألا تبدأ الهجمات بالطريقة التقليدية، أي بتمهيد مدفعي والذي يمكن أن يحذر

القوات المعادية وبناء عليه كان من المتوجب أن تقوم وحدات مشاة قوية بالهجوم على التحصينات المدافع عنها جيدًا، وبذلك تتمكن من الاختراق بعمق في المناطق المعادية، وبالطبع فإن الاندفاع في ظل ضعف الاتصالات والاحتياطات المحدودة ضئيل، وقد استخدم هذا التكتيك أثناء معركة كامبري وهجوم الربيع في عام1918، وكان دور المدفعية ينقسم إلى شقين فمن ناحية كان على المدفعية أن تدمر دفاعات العدو وأن تدفع القوات المعادية إلى الخلف، ومن ناحية أخرى كان على المدفعية أن تنتج ستارة من القصف المدفعي من القذائف من أجل الحماية من أية هجمة مضادة، وتقوم بقصف مُركّز على قطعة معينة من الأرض بحيث تسبق المشاة المهاجمة مباشرة، ووفقًا لجدول محدد مسبقًا يتم قصف قطعة أوسع من الأرض، ثم يقفز القصف عدة أمتار في الاتجاه المعادي بينما تتقدم المشاة (التي تتبع القصف كأقرب ما يمكن) إلى قطعة الأرض التي تم قصفها قبل ذلك، غير أن الصعوبة التي كانت تواجه هذا التكتيك هو التوافق المضبوط بين المشاة والمدفعية، ومع ذلك كان الاستيلاء على الهدف جزءا صغيرًا من نجاح الهجوم، فكان يتعين على القوات أن تحتفظ بالهدف الذي استولت عليه، فلم يكن يتعين على الجندي المهاجم أن يحمل معه السلاح فقط بل كذلك المعدات اللازمة مثل أكياس الرمل والفئوس والجواريف والأسلاك الشائكة لكي يتمكن من الدفاع عن الخندق في وجه أي هجوم مضاد، وعلق الألمان أهمية كبيرة على الهجوم المضاد لإعادة السيطرة على الخنادق التي فقدوها، وكلفهم هذا التكتيك حياة الكثير من جنودهم، حيث بدأ البريطانيون اعتبارًا من عام1917 في الترتيب لهجماتهم بشكل أفضل وبالتالي كان باستطاعتهم صد الهجمات المضادة بشكل أفضل.

الاتصالات

كانت أحد أكبر الصعوبات التي تواجه الجنود المهاجمين هي الاتصالات ذات الكفاءة، فقد كانت الاتصالات ما تزال تحبو وبالتالي لم تكن مناسبة للعمليات، ولذلك كانت التشكيلات تستخدم التلفونات والسيمافورات ومصابيح الإشارة والكور المضيئة والحمام الزاجل وسعاة البريد، ومع ذلك لم يكن من الممكن الاعتماد بشكل كامل على أي من تلك الطرق، وكانت التلفونات هي قناة الاتصالات الأكثر كفاءة إلا أن كابلات التلفونات كانت هشة أمام المدفعية وفي معظم الأحيان كان القصف المدفعي يتسبب في قطعها في المراحل الأولى من المعركة، وللتغلب على ذلك كان يتم وضع الكابلات على شكل السلم بحيث توفر توصيلا غزيراً، وعلى سبيل المثال كان يتم استخدام الطلقات المضيئة للإعلان عن نجاح ما أو لإعطاء الأمر ببدء هجوم بالمدفعية محدد مسبقاً، ولم يكن شيئاً غير عادي أن ينتظر ضابط يقود هجوماً من ساعتين إلى ثلاث ساعات حتى يصله تقرير عن سير المعركة، وفي تلك الأثناء لم يكن من الممكن اتخاذ قرارات سريعة، وفي كثير من الحالات كان المصير النهائي للمعركة يتحدد على مستوى الكتيبة.

وعن الاتصالات في الميدان يورد الفيلد مارشال القائد مونتجومرى العسكري البريطاني الشهير في مذكراته الواقعة التالية:

"وخلال معركة السوم في الصيف التالي كان على أحد الوية المشاة أن يكون هو اللواء الضارب في هجوم تقوم به الفرقة، وكان من الأمور الهامة أن يتلقى قائد اللواء بسرعة معلومات عن التقدم الذي تحققه قواته المتقدمة، فعلى هذا التقدم تتوقف حركة القوات الاحتياطية في المؤخرة، وكانت المشكلة في معرفة الطريقة التي يجب أن تؤمن بها سرعة وصول المعلومات المتجمعة وأظهر مقر اللواء العام اهتماماً كبيراً حين علم أن حمامة يمكن أن تستعمل لنقل الاخبار، وقد تسلمنا هذه الحمامة في

الوقت المناسب، وبقيت بضعة أيام في قفص خاص.

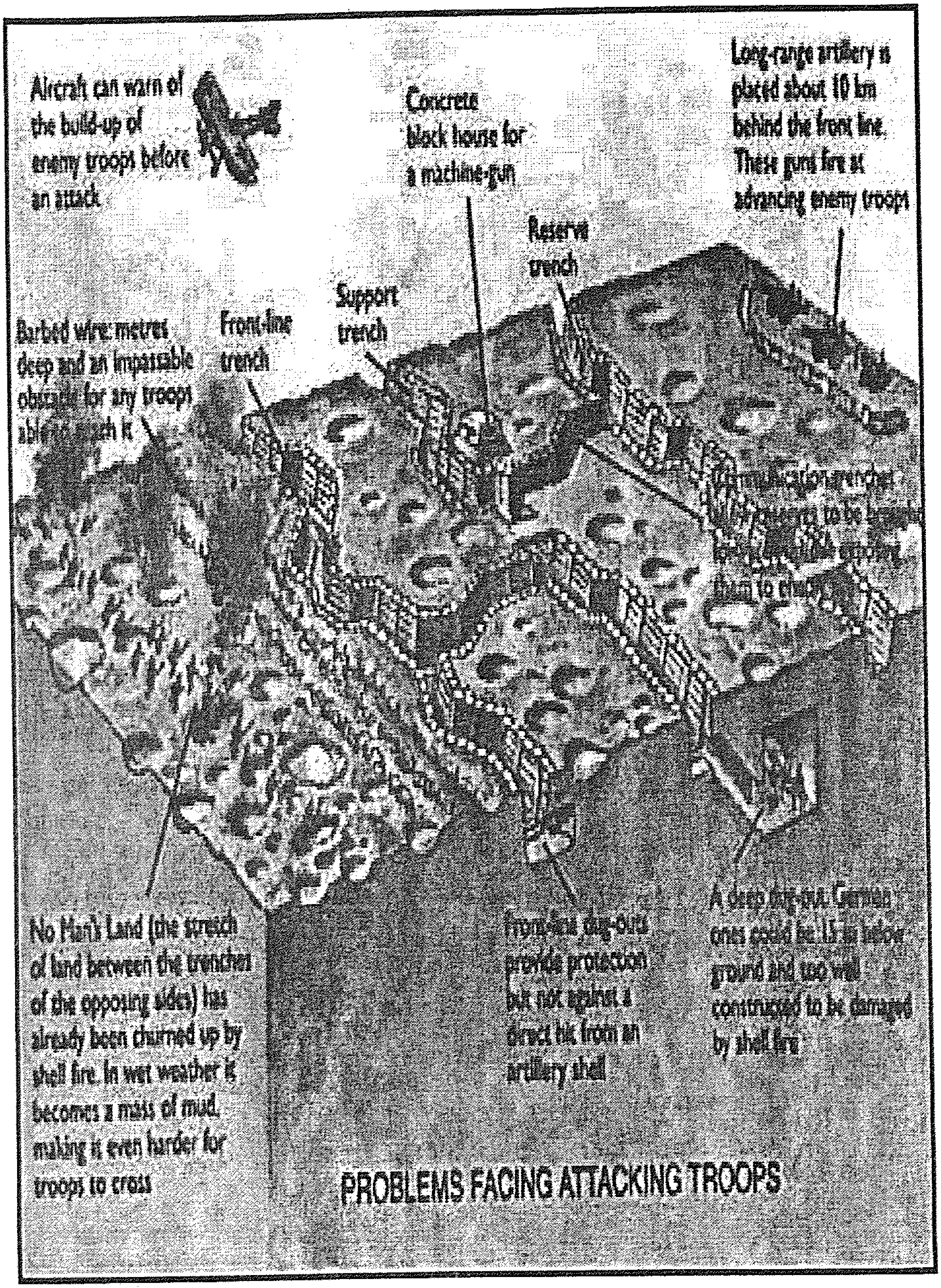

قطاع راسي في أحد الخنادق يبين تعقيد بنيتها

وعندما جاء يوم الهجوم عهد بالحمامة إلى جندي كان عليه أن يرافق وحدات الطليعة، وقيل له: إن أحد الضباط سيكتب في وقت من الأوقات رسالة تربط في إحدى أرجل الحمامة وعليه عندئذ أن يطلقها فتطير عائدة إلى قفصها في مقر اللواء العام، وشن الهجوم وأخذ قائد اللواء ينتظر بقلق عودة الحمامة، ولكن الوقت أخذ ينقضي دون أن تصل الحمامة وأخيرًا هبطت الحمامة هبوطا هادئا نحو قفصها وسلمت الرسالة إلى الجنرال فإذا به لا يجد فيها إلا هذه العبارة (لقد سئمت من نقل هذا الطائر المقدس معي في أنحاء فرنسا) ولقد قضيت الأشهر الأخيرة من الحرب كرئيس لأركان حرب الفرقة السابعة والأربعين في لندن فدرست مطولاً مشكلة معرفة كيفية الحصول بسرعة في القوات العامة للفرق على المعلومات الدقيقة بالغة الأهمية حول تطورات القتال، وهي المعلومات التي تتيح للجنرال تكييف استعداداته وفقًا للوضع التكتيكي كما يتبدى وأخير ابتدعنا طريقة تتلخص في تزويد هيئات أركان حرب أفواج الطليعة بضباط لديهم أجهزة إرسال ومكلفين بأن يبعثوا الرسائل باللاسلكي، وكانت الصعوبة آنذاك في الحصول على أجهزة إرسال ملائمة يمكن أن يحملها الجندي، ولم تكن هذه الطريقة إلا وسيلة لبلوغ الغاية، ولكنها أعطت نتائج حسنة في كثير من الأحيان، وكان في ذلك نواة الطريقة التي قمت بتحسينها في الحرب العالمية الثانية، والتي أصبحت أخيرًا تتمثل في فريق ضباط الاتصال المزودين بسيارات الجيب والعاملين انطلاقًا من المقرات العامة التكتيكية المتقدمة".

تكتيكات المشاة

قبل المعركة نشرت قيادة أركان رولينسون "التوجيهات التكتيكية للجيش الرابع"، وهو كتيب تعليمات يقرر أفضل التكتيكات التي ينبغي على جنود المشاة استخدامها في الهجوم، وقد حددت التوجيهات أنه على

الكتائب أن تتقدم في أنساق بواقع سريتين للنسق الواحد وعلى جبهة بطول 400ياردة أي 370متر بفاصل 5ياردات (4.6متر) بين كل جندي، وعلى ذلك فإن الكتيبة الواحدة ستتقدم على ثمان أنساق علاوة على أنساق إضافية لكتائب القيادة وحاملة نقالات الإسعاف، على أن يتم تنفيذ التقدم بخطوات ثابتة 50ياردة في الدقيقة (أي 46 متر)، وكان على الجنود في الأنساق الأولى أن يحملوا 70أوقية (أي 32كيلوجرام) من العتاد بنادق وسونكيات وذخيرة وقنبلتين ومعدات لحفر الخنادق، وشكائر رمل فارغة ومقصات لقطع الأسلاك وطلقات مضيئة .... إلخ، وعلى الأنساق التالية أن تحمل المعدات اللازمة لتدعيم الخنادق التي يتم الاستيلاء عليها، مثل الأسلاك الشائكة والأوتاد. وكان الهدف من ذلك مزدوجًا، فأولاً حسب التقديرات البريطانية كانت المدفعية ستقوم بتدمير الاستحكامات الألمانية، وما كان على المشاة إلا أن يتقدموا ليحتلوا الأهداف المقررة لهم، ثانيًا كانت وحدة المشاة الأساسية القادرة على المناورة في عام1916 هي السرية أو 100رجل تحت قيادة ضابط واحد، وقد كان القليل من كتائب الجيش الجديد هم الذين حصلوا على تدريب تكتيكي وبالتالي لم يكن متوقعًا إلا القليل منهم لإبداء براعة تكتيكية من قوات لم يمر على كونها نظامية إلا فترة قصيرة نسبيًّا وبخبرة عملية قليلة في عمليات الهجوم العسكرية، ومع ذلك فقد تعامل الكثير من القادة مع المعركة بتفاؤل، وكان من ضمن الخطاب الذي ألقي على مسامع الكتيبة الثامنة لمشاة يوركشاير الملكية الخفيفة قبل المعركة ما يلي:

"عندما تصعدون إلى القمة يمكنكم أن تقوموا بإرخاء أذرعتكم وأن تدخنوا الغليون والسجائر وتقوموا بالزحف على بوزيير قبل أن تقابلوا أي ألماني حي".

و بالرغم من أنه قد تم إلقاء اللوم في الفشل الذي وقع في اليوم الأول على تلك التكتيكات المرتبكة فإنها لم تكن معايير تلتزم بها الفرق

المهاجمة، فقد تركت إلى القائد الفردي لتقرير الطريقة التي ينبغي اتباعها، وقد تحركت الكثير من الوحدات إلى المنطقة الحرام قبل ساعة الصفر حتى يمكنهم الاندفاع إلى الخنادق الألمانية بمجرد انتهاء التمهيد المدفعي، ولم يكن نجاح أو فشل هجوم وحدة معينة يعتمد كثيرًا على تكتيكات المشاة، ولكن على ما إذا كان السلك الشائك قد قطع جيدا أم لا، وعلى كثافة القصف المدفعي الألماني في المنطقة الحرام، وعلى السرعة التي كان المدافعون يقومون بها بتشغيل رشاشاتهم.

الهجوم التضليلي

احتل الجيش الثالث بقيادة الجنرال اللنبي خط الجبهة شمالي الجيش الرابع بقيادة رولينسون، وتقابل الجيشان جنوب قرى فونكفيليه (التي تسيطر عليها بريطانيا) وجومكور (التي تسيطر عليها ألمانيا)، وعند جومكور كانت الخنادق الألمانية تنحني حول القلعة وحدائقها صانعة منطقة ناتئة كانت تميز كل المناطق الغربية الألمانية، وقد أعطى الجنرال هيج تعليماته إلى اللنبي بالقيام بهجوم تضليلي بهدف تثبيت القوات الألمانية في خنادقها وجذب نيران مدفعيتهم بعيدًا عن الهجوم الرئيسي، وكان على الجيش الثالث أن يقوم بالاستيلاء على جومكور لتقليل البروز المزعج، وقد وقعت هذه المهمة على عاتق الفيلق السابع بقيادة الليوتنانت جنرال سير دويلي سنو، وكانت هناك فجوة بين هجوم جومكور التضليلي والحافة الشمالية للهجوم الرئيسي، وقد أخذت الاستعدادات بأوضح ما يمكن لتشتيت انتباه الألمان بعيدًا عن الجيش الرابع، ولكن ذلك جعل من مهمة الفيلق السابع أكثر صعوبة، وكانت الخطة عمل حركة كماشة لضرب قاعدة البروز والاستيلاء على الحامية التي في الجيب، وكانت الكماشة الشمالية هي الفرقة السادسة والأربعين والجنوبية هي الفرقة السادسة والخمسين.

كانت الفرقة السادسة والخمسون قد أعدت خنادق للانقضاض على المنطقة المجردة من السلاح، وعندما بدأ الهجوم في الساعة السابعة والنصف صباحًا كان التقدم جيدًا في البداية، فقد تم الاستيلاء على أول ثلاثة خنادق للألمان، وقد تم الدفع بجماعة نحو المفصل المتوقع مع الفرقة السادسة والأربعين شرقي القرية، وبمجرد هطول قذائف المدفعية الألمانية على المنطقة المجردة من السلاح فقد ثبت أنه من المستحيل أن تصل التعزيزات إلى المواقع التي تم الاستيلاء عليها، أو أن يتم حفر خندق لعمل جناح دفاعي إلى الجنوب وفي النهاية أجبر من بقي على قيد الحياة على الانسحاب.

وعلى العكس فإن هجوم الفرقة السادسة والأربعين قد بدا سيئًا وأخذ يسوء، فلم يتم قطع الأسلاك الشائكة الألمانية (وامتلأت الأرض بقذائف لم تنفجر)، وساهم الدخان في تعطيل البريطانيين بدلاً من أن يعاونهم كما كان مقررًا، وعلاوة على ذلك كانت الأرض في ذلك القطاع مبتلة وطينية مما أعاق الحركة، وقد نجحت بعض القوات في الوصول إلى الخنادق الألمانية، ولكن بأعداد لم تكن تكفي للتمسك بها، وقد تم طرد قائد الفرقة الميجور جنرال مونتاجيو ستيوارت وورتلي على أثر فشله في ذلك اليوم.

بومون هامل

كان الليوتنانت جنرال إيلمر هنتر من الفيلق الثامن يتولى قيادة القطاع الذي يشغله الجناح الشمالي للجيش الرابع وكان على ثلاثة فرق من الفيلق الثامن أن تقوم بالهجوم في اليوم الأول، بينما تقوم الرابعة (الفرقة 48) بالتمسك بالفجوة بين الجيشين الثالث والرابع على امتداد ميل واحد، وكان على الفرقة الواحدة والثلاثين تشكيل الجناح الدفاعي

للجيش الرابع، وكان ذلك يشمل الاندفاع شرقًا للاستيلاء على قرية "سير"، ثم الالتفات شمالاً، وكانت الفرقة الواحدة والثلاثون تتشكل بالكامل من كتائب "بالس"، وقد وصلت جماعات صغيرة إلى قرية "سير" واخترقت جماعة أخرى ميلاً وربع الميل، ولكن بحلول نهاية اليوم تم قتلهم أو أسرهم، وانسحبت الفرقة إلى خط البداية بعد أن عانت من خسائر تقدر بثلاثة آلاف وستمائة بين قتيل وجريح وأسير.

وقامت الفرقة الرابعة بالهجوم بين "سير" و"بومون هاميل" واستطاعت الاستيلاء على النقطة الألمانية القوية هناك غير أنه وبرغم أن ذلك كان النجاح الوحيد في ذلك القطاع إلا أنه تعرض لهجمات مضادة ألمانية كثيفة، وتم ترك الموقع في الثاني من يوليو بعد أن خسرت الفرقة أربعة آلاف وسبعمائة قتيل.

وقامت الفرقة التاسعة والعشرون بالهجوم باتجاه "بومون هامل" بادئة بتفجير اللغم تحت "هوثورن ريدج" الذي سبقت الإشارة إليه والذي تم تفجيره في السابعة وعشرين دقيقة، وفشل البريطانيون بشكل كامل في الاستيلاء على الفوهة التي نتجت عن انفجار اللغم، بل كان الانفجار قد حذر المدافعين قبل بدء الهجوم، وتم حصد جنود المشاة عند محاولتهم لعبور المنطقة الحرام بواسطة الرشاشات الألمانية حتى قبل أن يصلوا إلى منطقة الأسلاك الشائكة، وقامت كتيبتان من اللواء الثامن والثمانين في منتصف النهار بمحاولة أخرى ومعها كتيبة نيوفاوندلاند الأولى وكان جنود هذه الكتيبة قد بدءوا الهجوم بدون أدنى دعم، وكانوا يهاجمون من الخط الاحتياطي بسبب انسداد خنادق المواصلات، ولكن معظم الخسائر كانت عندما حاولوا أن يمروا خلال الفجوات في الأسلاك الشائكة البريطانية، وقد خسرت الكتيبة ستمائة وأربع وثمانين جنديًا، أي واحدًا وتسعين بالمائة من قوتها، وكانت ثاني أعلى خسائر على مستوى الكتيبة في ذلك اليوم.

تيبفال

كان الفرقة السادسة والثلاثون صاحبة النجاح الأكثر أهمية في القطاع الشمالي في اليوم الأول للقتال، وكانت تهاجم بين "أنكر" و"تيبفال" ضد موقع كان يعرف باسم حصن "شفابن"، وتجاهلت تكتيكات المشاة الشائعة في ذلك الحين، حيث قام جنود المشاة بالزحف عبر المنطقة الحرام قبل ساعة الصفر بمعاونة ستارة كثيفة من الدخان، واستطاعوا الانقضاض على خط الجبهة الألماني عند توقف التمهيد النيراني المدفعي، وقد واصلوا التقدم حتى الخط الثاني الألماني المعروف باسم حصن "شتوف" غير أنه بمجرد بدء القصف الألماني على المنطقة الحرام فقد كان من المستحيل تعزيز المواقع التي تم الاستيلاء عليها، وحيث فشل الهجوم على الجانبين فقد تعرض الجنود إلى هجمات مضادة من ثلاثة اتجاهات، وبعد أن صمدوا طوال اليوم اضطر الأحياء منهم إلى الانسحاب مساءًا، وكانت الفرقة الثانية والثلاثون قد هاجمت قرية "تيبفال" ونتوء "لايبتسيج" إلى الجنوب منها، وكانت "تيبفال" قلعة كان مقدرًا لها أن تلازم البريطانيين طوال فترة القتال في السوم، واتسم القتال في اليوم الأول بالفشل التام، ولم يحقق أي نجاح، وكان نتوء "لايبتسيج" أحد النجاحات المهمة في القطاع الشمالي، واستولت عليه كتيبة جلاسجو والتي قامت بالزحف مسافة سبعة وثلاثين مترًا من الخط الأمامي الألماني قبل ساعة الصفر، وصمدت في وجه الهجمات المضادة الألمانية.

أوفييه ولابوازيل

كانت قريتا "أوفييه" و"لابوازيل" تقعان على جانبي طريق "ألبرت بابوم" وتمثلان حدود جبهة الجيش الرابع، وكان على خيالة جيش الاحتياط أن يتقدموا من هذه النقطة إذا تم عمل ثغرة، وبمهاجمتها لقرية

"أوفيبه" كان على الفرقة الثامنة أن تعبر ستمائة وتسعين مترًا من الأرض الحرام، وتتقدم إلى وادي "ماش" والذي كان أرض قتل حقيقية، وبالرغم من استحالة تلك المهمة تقريبًا إلا أن الألوية قد قامت باختراق لم يدم طويلاً وذلك حتى خط الخنادق الألماني الثالث، وتمكنت مجموعة صغيرة من الاستيلاء على قطاع من خندق الخط الأمامي الألماني وأن تتمسك به حتى الساعة التاسعة صباحًا، ولكن بحلول الظهر كان الهجوم قد فشل.

وقامت الفرقة الثالثة والأربعون بالهجوم على محور طريق "ألبرت بابوم" تعاونها انفجارات أكبر اللغمين على كل من جانبي "لابوازيل" وإلى الجنوب من القرية استطاع بعض المشاة الوصول إلى الفوهة التي نتجت عن تفجير لغم "لوكناجر" حيث تم تثبيتهم، وقام اللواء الاسكتلندي بمهاجمة وادي "ماش" وقرية "لابوازيل" في قطاع يعرف باسم "جلوري هول"، وكان اللواء الأيرلندي هو لواء الاحتياط والذي أوكلت إليه مهمة الدخول خلف القوات المهاجمة والاستيلاء على الأهداف الثانوية في "كونتالميزون" و"بوزيير"، وعند ساعة الصفر بدأ اللواء تقدمه من موقع الاحتياط المعروف باسم خط "تارا أوسنا"، وكان عليه التقدم مسافة 1.6 كيلومتر عبر أرض مفتوحة قبل أن يصلوا حتى إلى الخط الأمامي البريطاني، وقد قتلوا جميعًا بنيران الرشاشات الألمانية لقوة صغير تتكون من خمسين رجلاً على وجه التقريب والتي تقدمت بطول الطريق حتى وادي "ماش" جنوب "لابوازيل" وحتى حافة "كونتالميزيون"، وتم أسر من بقي على قيد الحياة بعد أن تقدموا حوالي 3700 متر.

وعانت الفرقة الرابعة والثلاثون من أكبر الخسائر على مستوى الفرق في ذلك اليوم بعد أن ألقت بثلاثة من ألويتها في هجوم على أصعب الأهداف فقد خسرت 6380جنديًّا وضابطًا بين قتيل وجريح وأسير، وقد تجاوز هذا الرقم أسوأ الخسائر، والتي تكبدتها الفرقة التاسعة والعشرون

بألف رجل ويتحطم هذه الألوية بهذا الشكل فقد تم سحبهم من الفرقة، واستبدال ألوية من الفرقة السابعة والثلاثين بهم.

فريكور ومامتس ومونتوبان

تقع قرية "فريكور" عند ثنية في خط الجبهة حيث تتجه شرقًا لمسافة ثلاثة كيلومترات، ثم تميل جنوبًا باتجاه الجنوب ثانية قبالة نهر السوم، وإذا تمكنت هجمات الفيلق الخامس عشر التي كان مقررًا لها أن تتم على جانبي "فريكور" أن تصل إلى أهدافها فإن القرية كان سيتم عزلها في جيب بحيث تعتبر غير ضرورية لشن هجوم أمامي، وتقدمت الفرقة الواحدة والعشرون إلى شمال "فريكور" في محاولة لحماية المشاة من النيران الجانبية من القرية، وقد تم تفجير ثلاثة ألغام مرة واحدة تحت نتوء "تامبور" عند الحافة الشمالية للقرية، وكان الهدف الوحيد لتفجير هذه الألغام هو زيادة الشفة من الأرض التي تقوم بالحماية عن طريق تعتيم الرؤية من القرية، ولكن مكاسب ذلك كانت في أضيق الحدود وأنجزت الفرقة الواحدة والعشرون بعض التقدم، وقامت بالاختراق بعمق المؤخرة في "فريكور"، واستطاع اللواء الخمسون من الفرقة السابعة عشرة التمسك بخط الجبهة في مواجهة القرية، وقد صدرت الأوامر إلى إحدى كتائب اللواء (الكتيبة العاشرة) بالتقدم قريبًا من "فريكور" وتكبدت خسائر قدرت بسبعمائة وعشرة جنود، وهي من أسوا خسائر الكتائب في ذلك اليوم، وقامت سرية من كتيبة جرين هوارد السابعة بهجوم مرتجل مباشرة باتجاه القرية وتمت إبادتها عن آخرها، وقد علق قائد الكتيبة فيما بعد على ذلك قائلاً:

"تلقيت رسالة تفيد بأن سرية من سرايا اليمين قامت بالهجوم في الساعة الثامنة وعشرين دقيقة، وكل ما أستطيع التعليق به على ذلك هو أن أفترض أن قائد السرية قد جُنّ".

وإلى الغرب من "فريكور" تقع قرية "مـامتس" والـتي اسـتولت عليهـا الفرقة السابعة بالرغم من أن خط الأهداف خلـف القريـة لم يكـن قـد تم الوصول إليه، وكانت الخسائر في "مامتس" قـد جعلـت الموقـع الألمـاني في "فريكور" متداعيًا، ولذا فقد تم سحب الحامية أثناء الليل، وسيطرت دورية من الفرقة السابعة عشرة على القرية في وقت مبكر من صباح الثاني مـن يوليو، وكان الفيلق الثالـث عشـر يسـيطر علـى الجنـاح الجنـوبي للخـط البريطاني، وكان هدفه قرية "مونتوبـان"، وكانـت الفرقتـان الثامنـة عشـرة والثلاثـون وكلتاهمـا مـن التشـكيلات الجديـدة في الجـيش قـد احتلتـا أهدافهما متكبدتين خسائر تزيد على 3000جندي وضابط، وكـان هنـاك عدد من الأسباب لنجاح الجناح الجنوبي، فقد كانت الفرقة الثامنة عشـرة برغم أنها من التشكيلات الجديدة إلا أنها قد خضعت للتدريب على يـد الميجور جنرال "إيفور ماكس" والذي كان ينظر إليـه باعتبـاره أحـد أبـرع الجنرالات البريطانيين في تلك الحرب، وكذلك لم تكن الـدفاعات الألمانيـة في الجنوب منيعة مثل تلك التي في الشمال عنـد طريـق "ألـبرت بـابوم"، وكانت تفتقر إلى مزايا الأرض وكذلك كانـت تـدعمها المدفعيـة الفرنسـية للجيش الفرنسي المجاور.

من ناحية أخرى استطاعت بعض الفرق البريطانية الأيرلنديـة أن تقـوم بأداء ممتاز، ويعلق ميدلبروك المؤرخ العسـكري البريطـاني في كتابـه اليـوم الأول في السوم قائلاً:

"صدرت الأوامر للكتائـب الموجـودة في المقدمـة مـن الفرقـة السادسـة والثلاثين (فرقة ألستر الاسكتلندية) بالهجوم من الغابة في الساعة السابعة والنصف صباحًا، وتم اقتيادهم قريبًا من الخنادق الألمانية، وبدون التشكيل في أنساق والذي تبنته الفرق الأخرى، واندفعت إلى الخط الأمامي الألمـاني باستخدام مزيج من التكتيكات مع الاندفاع السريع، وكانت الجائزة الـتي تنتظرهم هي احتلال قطاع طويل من خط الجبهة الألماني".

وفي جزء آخر من الكتاب يقول:

"وفي الشمال عند (جومكور) هاجمت الفرقة السادسة والخمسون (اللندنية) وكان أداؤها لامعًا، وقامت باستخدام خندق جديد تم حفره في الأرض الحرام مستعينة بستار كثيف من الدخان، وقامت أربع كتائب بالاستيلاء على كل الخط الأمامي في مقابلها".

وبشكل عام كان اليوم الأول قد باء بالفشل الذريع وخسر البريطانيون 19240قتيلا و35493جريحا وفقد2152 وتم أسر585 بخسارة إجمالية 57470 فردًا، وكانت الخسائر المبدئية شديدة بشكل خاص بين الضباط، والذين كانوا حتى ذلك الوقت يرتدون أزياء عسكرية مختلفة عن ضباط الصف والدرجات الأخرى، وكان الجنود الألمان قد تم تدريبهم على التعرف على أزياء الضباط الألمان، بينما كانت خسائر الفرنسيين سبعة آلاف خلال هذا اليوم، أما بالنسبة للخسائر الألمانية فيصعب حصرها لأن الوحدات الألمانية كانت تقدم تقريرا عن خسائرها كل عشرة أيام غير أن خسائر الألمان في هذا اليوم تقدر بحوالي ثمانية آلاف على الجبهة البريطانية من بينهم 2200أسير، وكان التفاوت بين أعداد الخسائر على الجانبين البريطاني والألماني أكبر عند "أوفييه" حيث عانت الفرقة الثامنة البريطانية من خسائر تقدر بخمسة آلاف ومائة وواحد وعشرين بينما كانت الخسائر الألمانية أمامهم 280 فقط بمعدل 18 إلى 1.

القطاع الفرنسي

وبخلاف زملائهم البريطانيين تمتعت الفرق الفرنسية بنجاح كامل في اليوم الأول بل وتخطت الأهداف المقررة لها في مواقع جنوب نهر السوم، فقد كان الفرنسيون متفوقين بشكل كاسح في المدفعية عن البريطانيين سواء في الخبرة أو في الأعداد، فقد كان الفرنسيون يمتلكون 84بطارية

مدفعية في مقابل ثمانية للألمان في ذلك القطاع علاوة على ذلك كانت المدفعية الفرنسية أكثر فاعلية وكفاءة من المدفعية الإنجليزية التي كانت تطلق قنابل الشرابنل التي لم يكن تأثيرها يزيد على إطلاق الدخان، ولم تكن حتى قادرة على قطع الأسلاك الشائكة الألمانية، وكذلك ساعدتهم سحابة الضباب التي غطت النهر والتي أعتمت الرؤية في المراحل الأولى للمعركة، لقد تم تحقيق أهداف اليوم الأول كلها من "مونتوبان" إلى نهر السوم برغم أن الفيلق العاشر الفرنسي كان مكلفًا بالدعم في ذلك القطاع، وفي التاسعة والنصف انطلق فيلق المستعمرات الفرنسي من خنادقه في هجوم مخادع بغرض تضليل الألمان وبث إحساس الأمان فيهم، وقد نجح الهجوم التضليلي مثل الفرق الألمانية في الشمال فقد تقدموا بسهولة وفي أقل من الساعة كانوا قد اجتاحوا "فاي" و"دومبيير" و"بيكانكور"، واستطاعوا الحصول على موطئ قدم لهم في سهل "فلوكورت"، وأصبح الخط الألماني الأول في يد الفرنسيين، وبحلول الساعة الحادية عشرة كانوا قد وصلوا إلى الخط الثاني الألماني وعليه قرى "اسفييه" و"هربيكو" و"فوبير" حتى بدون أن يحتاجوا لإرسال الاحتياطيات وأسر الفيلق حوالي أربعة آلاف أسير ألماني، كانت خسائره أقل كثيرًا من خسائر الفيالق الأخرى بمعايير ذلك اليوم، وإلى اليمين من فيلق المستعمرات كان الفيلق الخامس والثلاثون قد قام بالهجوم أيضًا في الساعة التاسعة والنصف صباحًا والتي كان أمامها فرقة واحدة فقط فقد أحرزت تقدمًا أقل غير أن أهداف اليوم الأول قد تم تحقيقها بالكامل، وتم اكتساح الخنادق الألمانية بالكامل، وتحقق عنصر المفاجأة فقد فوجئ الألمان بالهجوم، وتقدم الفرنسيون مسافة كيلومتر ونصف وكيلومترين على الضفتين الشمالية والجنوبية على التوالي، وفي شمال نهر السوم فقد هاجم الفيلق العاشر الفرنسي مع البريطانيين في السابعة والنصف، وبرغم أن التقدم كان جيدًا إلا أنه لم يكن يسيرًا أو بدون مشقة، فقد هاجم

الفرنسيون قرية "كورلو" على نهر السوم مرتين حتى تم الاستيلاء عليها، وقاوم الألمان بشراسة في قطاع غابة "فافيير"، وكان البريطانيون قد توقفوا عند أهدافهم في "مونتوبان" مما نتج عنه عدم تمكن الفرنسيين من التقدم إلى الأمام.

نتائج اليوم الأول

بحلول ليل ذلك اليوم -وكان الليل يستمر لست ساعات فقط في يوليو- بدا الكثير من الناجين في شق طريقهم إلى الخلف باتجاه الخنادق البريطانية، وذهب المسعفون وحاملو النقالات للبحث عن الجرحى، وبعضهم استمر في العمل إلى اليوم الثاني وقد بقي بعض الجرحى في المنطقة الحرام لمدة تصل إلى أسبوع حتى تم إنقاذهم، وكان رد الفعل الألماني على محاولات البريطانيين لإنقاذ جرحاهم متفاوتًا من موقع إلى آخر، ففي الخامس من يوليو عند "بومون هامل" اقترب ضابطان من الخدمات الطبية البريطانية تحت علم الصليب الأحمر ورتبوا لهدنة مع نظرائهم الألمان، وقد دامت هذه الهدنة حتى تم التقاط الجرحى الباقين، وفي مناطق أخرى لم يظهر هذا السلوك، فقد كان يتم إطلاق النار على كل من يتحرك في المنطقة الحرام، وقد فشل نظام المستشفيات الميدانية البريطاني بشكل كبير في الأول من يوليو، وقبل المعركة كان الجنرال رولينسون قد طلب استعدادًا لاسوأ الاحتمالات ثمانية عشر قطار إسعاف لإخلاء الجرحى، وقد أكد له الليوتنانت جنرال ماكسويل أنه سيتم تلبية احتياجاته غير أنه لم يتم توفير هذا العدد، واستطاعت القيادة فقط توفير عدد ثلاثة قطارات، وكانت ترحل غير ممتلئة عن آخرها قبل أن يصل حشد الجرحى إلى محطة إخلاء الجرحى والتي كانت تتسع فقط لتسعة آلاف وخمسمائة حالة، ونتيجة لذلك فقد كان الكثير من الجرحى يتركون

في العراء بدون تلقي الرعاية الطبية، ولم يمكن السيطرة على هذا الخلل في الخدمات الطبية للجيش الرابع البريطاني قبل الرابع من يوليو، وبلغ من مقدار الضغط على الخدمات الطبية أن وصل بعض الجرحى إلى المستشفيات في إنجلترا وهم لا يزالون يرتدون الزي العسكري الميداني، ونتيجة لتخلف وسائل الاتصال الميدانية فإنه لم يكن لدى الجنرالات فكرة عن الحجم الحقيقي للكارثة التي حلت بالجيش البريطاني في الأول من يوليو1916 ففي السابعة والنصف قدر الجنرال رولينسون خسائره بستة عشر ألفاً وارتفع الرقم إلى أربعين ألفاً في الثالث من يوليو، ولم يتم تسجيل العدد النهائي (ستون ألف قتيل وجريح) حتى السادس من الشهر نفسه (بالرغم من عدم التوصل إلى الأرقام الحقيقية لبعض الوقت) وكمثال على بُعْدِ المعلومات المحدودة التي كانت تصل إلى القيادة البريطانية عن الواقع كتب الجنرال "هيج" في يومياته في اليوم الأول من يوليو:

"في شمال أنكر أبلغت أن الفيلق الثالث عشر قد بدأ بشكل جيد إلا أنه وبمرور ساعات اليوم أجبرت قواته على التراجع إلى الخلف إلى الخط الأمامي الأول فيما عدا الكتيبتين اللتين احتلتا قرية "سير" وبلغني أنهما قد تم عزلهما، وأنا اميل إلى الاعتقاد وبناء على التقارير اللاحقة أن أعدادا قليلة من الفيلق الثالث عشر قد تركوا خنادقهم"

وكان الفيلق الثالث عشر قد انطلق من خنادقه بالفعل، وكانت خسائره أربعة عشر ألف فرد، وقد استخدم هذا التصريح فيما بعد لتصويره كرجل قاسٍ وغير مبال بواجبه تجاه الجنود الذين يقودهم، بالرغم من أن تقديره قد بنيٍ على المعلومات التي وصلت إليه.

وفي الساعة الحادية عشرة من اليوم الأول أصدر الليوتنانت جنرال "هنري رولينسون" قائد الجيش الرابع البريطاني أوامره باستئناف الهجوم،

ونتيجة للارتباك وضعف الاتصال عبر سلسلة القيادة البريطانية الممتـدة لم يدرك البريطانيون حجم الكارثة، وعين الجنرال "هيج" الليوتنانـت جنـرال "هوبرت ج" ليتولى قيادة القطاع الشمالي بينما كان الجيش الرابع يتـولى مسئولية القطاع الجنوبي، وكـان الجنـرال "جـو" يـدرك حجـم الفشـل في قطاعه، ولم يصدر الأوامر باستئناف الهجوم إلا في الثالث من يوليو، وعلاوة على ذلك كان البريطانيون يجهلون الفرص التي كان من الممكن استغلالها في جنوب طريق "ألـبرت بـابوم" حيـث حققـوا نجاحـات جزئيـة، ومـن المعـروف الآن وجـود فجـوة في ذلـك الوقـت في الـدفاعات الألمانيـة بـين "أوفيبه" على الطريق و"لونجفال"، وفي الثالث من يوليو استطاعت دوريـة استطلاع من الفرقة الثامنة عشرة الاختراق بعمق ميلين في الأراضى الـتي يسيطر عليها الألمان، ولم تلق أية إنشاءات دفاعية ألمانية غير أن البريطـانيين فـاتتهم الفرصـة أو لم تكـن لـديهم المـوارد الكافيـة لاسـتغلالها، وبعـدها استطاع الألمان أن يسدوا تلك الفجوة، وكانـت غابـة "مـامتس" مـا تـزال خالية في الثالث من يوليو، ولكـن قـام الألمـان بإعـادة احتلالهـا في اليـوم التالي، ولم يمكن الاستيلاء عليها قبـل العاشـر مـن يوليـو بعـد محـاولتين كلفتا الحلفاء الكثير، وكانت أماكن مثل غابة "هاي" وغابة "دلفيـل" قـد كلفت الحلفاء خسائر عاليـة في الأرواح قبـل أن يتمكنـوا مـن الاسـتيلاء عليها تمامًا في أغسطس وسبتمبر، وكتب "رولينسون" عن الفترة مـن الأول إلى الرابع من يوليو قائلا:

"كان من الممكن أن نتمكن في غضون تلك الأيام الأربعة من السيطرة بشكل كامل على الخط الثالـث الشـرس للـدفاعات والـذي لم يكـن قـد استكمل بناء نصفه في ذلك الوقت، ويضايقني كـثيرًا الـتفكير فيمـا كـان يمكن أن يكون".

وبينما كـان البريطـانيون يكـافحون مـن أجـل إنجـاح هجـومهم كـان الفرنسيون يتقدمون بشكل سريع في جنـوب السـوم، وكـان يومـا الثالـث

والرابع من يوليو هما النقطة الحرجة في العملية حيث لاحت إمكانية فتح ثغرة، ولكن ما لبثت تلك الثغرة في التلاشي بعد أن ظهرت مباشرة عندما اضطر الفيلق العاشر لوقف تقدمه على الضفة الشمالية لكي يمكن البريطانيين من اللحاق به وبدأت المشاعر العدائية تجاه البريطانيين تظهر بوضوح في صفوف القوات الفرنسية نتيجة لذلك، وفي أماكن أخرى كان فيلق المستعمرات الأول يستمر في الضغط، وبحلول الثالث من يوليو كانت مناطق "فريز" وغابة "ميريوكور" و"هربيكور" و"بوسكو" وغابة "شابيتر" و"فلوكور" و"أسفييه" في أيد فرنسية، وفي أثناء ذلك تم أسر ثمانية آلاف ألماني بينما كان الاستيلاء على وادي "فلوكور" من الأسباب التي مكنت "فوش" من دفع المدفعية الثقيلة لدعم الفيلق العاشر على الضفة الشمالية، واستمر الفرنسيون في هجومهم في اليوم الخامس من الشهر، وتمت السيطرة على "هيم"، ثم سقطت في الثامن من يوليو كل من "أرديكور أو بوا" ومزرعة "موناكو" (وهي قلعة حقيقية محاطة بمزاغل خفية للمدافع الرشاشة في المستنقع القريب) ثم تلتها "بياش" و"ميزونت" وقلعة "بياش" في التاسع والعاشر من يوليو على التوالي، وبذلك وخلال عشرة أيام من القتال وعلى جبهة طولها اثنا عشر كيلومترًا أحرز الجيش السادس الفرنسي تقدمًا بعمق عشرة كيلومترات في بعض النقاط علاوة على احتلال كامل مساحة وادىِي "فلوكور" (والذي كان يشكل الدفاع الأساسي لمنطقة بيرون)، وأسر في أثناء ذلك اثني عشر ألفا من الألمان، واستولى على خمسة وثمانين مدفعًا وستة وعشرين هاونًا من نوع "مينِنفريفر"[4] ومائة مدفع رشاش، ومعدات أخرى وبأقل قدر من الخسائر، أما بالنسبة للبريطانيين فقد تمخض أول أسبوعان من المعركة عن سلسلة من المعارك الصغيرة تمهيدًا لاندفاع كبي،ر ومن الثالث إلى الثالث عشر من يوليو قام جيش رولينسون الرابع بعدد 46عملية نتج عنها

[4] حرفيًا قاذف الألغام وهو هاون قصير المدى استخدمه الألمان بعياراته الثلاثة لدك الدشم الفرنسية.

25000بين قتيل وجريح، ولكن بدون تقدم يذكر، وقد أظهر ذلك فرقًا في الإستراتيجية بين "هيج" ونظرائه الفرنسيين وكان سببًا للاحتكاك، وكان هدف "هيج" هو الاحتفاظ بالضغط المستمر على الألمان بينما كان كل من "فوش" و"جوفر" يفضلان الاحتفاظ بقوتهما إعدادًا لضربة واحدة ثقيلة، وكانت معركة السوم تعتبر نجاحًا للحلفاء من جانب مهم، ففي الثاني عشر من يوليو وكنتيجة لقتال الحلفاء في السوم وللموقف في الشرق ألغى "فالكنهاين" الهجوم الألماني على "فردان" وبينما كان القتال مستمرًا هناك حتى ديسمبر إلا أن الفرنسيين هم الذين أملوا مسار القتال ففي السوم لم يستطع جيش "بيلوف" أن يتحمل الضغط البريطاني والإنجليزي وحده فقد كانت كل فرقة ألمانية على خط الجبهة تتعرض للهجوم من قوة تقدر بثلاث أو أربع فرق للحلفاء، وفي التاسع عشر من يوليو تمت إعادة تنظيم القوات الألمانية حيث تولى "فون بيولف" قيادة الجيش الأول الألماني المسئول عن القطاع الشمالي، والجنرال "ماكس فون جالفيتس" الذي تسلم قيادة الجيش الثاني الذي كان يغطي القطاع الجنوبي، وعلاوة على ذلك فقد تم إسناد مسئولية قيادة الجيوش الألمانية في السوم إلى "جالفيتس"، وفي اليوم التالي لبدء المعركة كانت هناك تعزيزات ألمانية في الطريق إلى السوم عبارة عن سبعة فرق مدرعة، وتقرر الدفع بسبع فرق أخرى إلى منطقة القتال في خلال أسبوعين وفي شهري يوليو وأغسطس بلغ عدد الفرق التي دفع بها الألمان خمسة وثلاثين فرقة أخرى لدعم قواتهم في القطاعين البريطاني والفرنسي، وكان من نتيجة الضغط المزدوج للبريطانيين والفرنسيين أنه بحلول شهر أغسطس لم تكن الاحتياطات الألمانية تزيد عن فرقة واحدة فقط، وكان البريطانيون يأملون في أن يقوم الألمان بسحب القوات من القطاعات الأخرى في الجبهة لتعزيز القوات في السوم، وسعيًا وراء تحقيق هذا الهدف قام الحلفاء بسلسلة من الإغارات بهدف تثبيت الفرق الألمانية على جبهة السوم، وكانت أكبر هذه المعارك هي معركة "فروميل" في التاسع عشر والعشرين من يوليو في

مقابل "أوبير ريدج" في "أرتوا" والتي تكبد فيها الحلفاء خسائر تقدر بسبعة آلاف وثمانين أسترالي وبريطاني بين قتيل وجريح، ولم يتم الاستيلاء على أية أرض، ولم تؤد إلى وقف نقل الفرق الألمانية من "أرتوا" إلى السوم وكانت هزيمة مشينة للحلفاء.

المرحلة الثانية للمعركة

قام الجيش الرابع البريطاني ببدء المرحلة الثانية لمعركة السوم في اليوم الرابع عشر من يوليو والذي وصفه أحد القادة الفرنسيين بأنه "هجوم للهواة خطط له هواة"، وبالرغم من ذلك إلا أن البريطانيين نجحوا في هجومهم على عكس الكارثة التي حلت بهم في اليوم الأول للمعركة، إلا أنه وبالرغم من ذلك النجاح فإن البريطانيين ومثلما حدث في اليوم الأول لم يستطيعوا استغلال انتصارهم نظرًا لازدياد شراسة المقاومة الألمانية، وانقلب الأمر لمعركة استنزافية دموية أخرى.

معركة "بازانتين"

في أعقاب الفشل الذريع في اليوم الأول كانت خطط الجنرال "دوجلاس هيج" قد أصبحت هباءًا تذروه الرياح، فقد كان الهجوم شمال طريق "ألبرت بابوم" قد فشل فشلاً ذريعًا بينما في جنوب الطريق وبمحاذاة الفيلق العاشر الفرنسي كانت أهداف "مونتوبان" و"مامتس" قد تم الاستيلاء عليها، ولذا فقد قرر "هيج" أن يركز عملياته المستقبلية في الجنوب، واستلم جيش الاحتياط البريطاني بقيادة الليوتنانت جنرال "هوبرت جو" مسئولية القطاع البريطاني بأكمله من الليوتنانت جنرال "هنري رولينسون"، وبينما استطاع البريطانيون اختراق الخط الأمامي للدفاعات الألمانية شمال نهر السوم إلا أنهم ووجهوا بالخط الثاني

للدفاعات بكامل قوته والذي كان يمتد بطول سلسلة الأراضي المرتفعة من "تيبفال" القريبة في الشمال إلى قرى "جيمون" و"جنشي" في الجنوب حيث كان البريطانيون قد تقدموا إلى "مامتس" و"مونتوبان"، وكان الموقع الثاني يمتد من سلسلة "بازانتين" والتي كانت تقع عليها عدة قرى إلى جانب "لونجفال"، وكانت غابة "دلفيل" ملاصقة لها، وأصبحت هذه القرى هي هدف الهجوم البريطاني المزمع القيام به.

العمليات التحضيرية

خلال الأربعة عشر يوما التي سبقت المعركة نفذ الجيش الرابع سلسلة من العمليات التمهيدية للتحضير للهجوم على سلسلة المرتفعات، وقد تضمن ذلك الاستيلاء على مجموعة من الأهداف كان مقررًا السيطرة عليها في اليوم الأول، ولم ينجح البريطانيون في احتلالها، وأظهرت الثمن المروع الذي كان على البريطانيين أن يدفعوه نتيجة لتذبذب وتردد القيادة البريطانية العليا ففي الثالث من يوليو احتلت الفرقة الاسكتلندية (التي كانت احتياطي الفيلق الثالث عشر) غابة "برنفاي" شرق "مونتوبان"، بينما استولت الفرقة التاسعة عشرة على "لابوازيل" في ثاني محاولة لها، وفشل الهجوم الذي قامت به الفرقة الثانية عشرة على "أوفيبيه" شمال طريق "ألبرت بابوم"، وفي اليوم التالي احتلت الفرقة التاسعة غابة "كاتربيلار" غربي "مونتوبان"، ولم يكن تقدم الفيلق الخامس عشر في غابة "مامتس" سهلاً، فقد ترك الألمان الغابة في اليوم الأول ولكنهم أعادوا احتلالها في الرابع من يوليو في الوقت الذي بدأ فيه البريطانيون جهودهم للاستيلاء عليها، وفي السابع من يوليو تم تنسيق سلسلة من الهجمات على "أوفيبيه" و"كونتاليزون" وغابة "مامتس" وأحرزت الفرقتان الثانية عشرة والخامسة والعشرون تقدما طفيفا في "كونتاليزون" بينما فشلت

الفرقة الثامنة والثلاثون (ويلز)، وقد حاولت مرة أخرى في العاشر من يوليو، واستولت على غابة "مامتس" في المحاولة الثانية، بينما تمكنت الفرقة الثالثة والعشرون من احتلال "كونتالميزون"، وكما ذكرنا من قبل فقد قام الجيش الرابع بسلسلة من الهجمات من الثالث إلى الثالث عشر من يوليو تحضيرًا للهجوم الكبير، الأمر الذي أثار انتقادات عديدة لهذه الطريقة التدريجية التي اتبعها كل من "رولينسون" و"هيج" والتي كانت تؤدي غالبًا إلى المزيد من الاستنزاف الذي يصيب البريطانيين بأكثر مما يصيب الألمان، غير أنه وبالاستيلاء على "كونتالميزون" وغابة "مامتس" فإن الجيش الرابع البريطاني كان في وضع يسمح له بمهاجمة سلسلة مرتفعات "بازانتين".

خطة الهجوم

كانت خطة الهجوم في ذلك اليوم والتي وضعها الجنرال "رولينسون" وقائد الفيلق الثالث عشر الليوتنانت جنرال "والتر كونجريف" تشبه قليلاً الخطة الفاشلة التي تم اعتمادها للهجوم في أول أيام المعركة، فكانت القوات المهاجمة تتكون من فيلقين، يقوم الفيلق الخامس عشر بالهجوم على اليسار على بلدية "بازانتين" الصغيرة وبلدية "بازانتين" الكبيرة، بينما يقوم الفيلق الثالث عشر بالهجوم من اليمين على "لونجفال"، ويهاجم كل فيلق عند الفجر في الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة، ويتكون كل فيلق من فرقتين على أن تتقدم الكتائب المهاجمة ليلاً وتتحرك إلى المنطقة الحرام لمسافة 1100متر، وترقد قريبًا من السلك الشائك الألماني على استعداد للاندفاع للخنادق الألمانية عند وقف القصف المدفعي، ويسبق الهجوم قصف مدفعي عاصف يستمر خمس دقائق، وفي واقع الأمر فقد بدأ التمهيد النيراني المدفعي قبل المعركة بثلاثة

أيام في الحادي عشر من يوليو، ولكنه لم يكن في حجم التمهيد النيراني الذي تم القيام به في أول يوم، ولذا فلم يكن يدل بشكل واضح على نوايا البريطانيين في الهجوم، وكان التأكيد الأساسي على ضرب مواقع البطاريات الألمانية لتدمير المدافع الألمانية وكان لدى "رولينسون" 950 مدفع وهاوتزر أي ثلثا قوة التمهيد النيراني في الأول من يوليو، ولكنه كان يهاجم بها ربع خط المواجهة الذي كان يهاجمه في اليوم الأول للمعركة أي حوالي خمسة كيلومترات ونصف مقارنة بعشرين كيلومترًا، وكذلك فإن عمق التقدم المخطط له كان أقل ولذا فقد تعرض الخط الدفاعي الثاني للألمان لقصف كثيف بمعدل (330 كجم قذائف للمتر)، وقد اعرب الجنرال "هيج" عن شكوكه في الخطة، وكان يعتقد أنها أكثر تعقيدًا من اللازم، وأن زحف الجنود غير ذوي الخبرة ليلاً سيؤدي إلى الارتباك قبل بدء الهجوم، واقترح "هيج" خطة بديلة تتضمن هجومًا من غابة "مامتس" حيث تكون الخطوط أكثر قربًا ثم طي الجناح الألماني باتجاه "لونجفال" غير أن خطة "رولينسون" هي التي تغلبت في النهاية بالرغم من أن "هيج" طالب بأن تقوم الفرقة الاحتياطية للفيلق الثالث عشر (الفرقة الثامنة عشرة) بتطهير غابة "ترون" في أقصى جناح اليمين.

الهجوم فجرًا

كانت فرقة الحرس الألمانية الثالثة هي المسئولة عن قطاع الموقع الألماني الثاني من "بازانتين" الصغيرة إلى "لونجفال"، وفي الساعة الثالثة وعشرين دقيقة فتحت المدفعية البريطانية نيرانها بشكل كثيف على خنادق الخط الأول الألماني، وفي الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة تحول القصف إلى خط خنادق الاحتياط الثاني الألماني، واندفع جنود المشاة مهاجمين المواقع الألمانية واستمر القصف على خنادق الاحتياط لدقيقتين أخريين قبل

الهجوم مرة أخرى، وكان على النسق الأول لجنود المشاة والذين كانوا يحملون القنابل اليدوية أن يقوموا بالاندفاع في خط مستقيم في اتجاه خنادق الاحتياط تاركين مهمة تطهير الخط الأول للأنساق التي تليهم، ولم تكن المفاجأة كاملة ففي بعض المواقع استقبل المدافعون الألمان المشاة المتقدمة بنيران البنادق والرشاشات، ولكن في أماكن أخرى تم أسر الجنود في خنادقهم، وكما حدث في الأول من يوليو فإن قطع الأسلاك كان يتفاوت من منطقة إلى أخرى ففي بعض القطاعات لم تكن تشكل مانعًا للقوات المهاجمة، وفي مناطق أخرى تم تعطيل الأنساق التي تقوم بالهجوم وتم تمزيقهم تمامًا، وعلى اليسار هجمت الفرقة الحادية والعشرون من غابة "مامتس" مرورًا بغابة "بازانتين" الصغيرة، وعلى اليمين كانت الفرقة السابعة والتي كان يواجهها تسعمائة متر من الأرض الحرام يجب عليها عبورها قد قامت بجعل كتائبها تزحف حتى مسافة تسعين مترًا من السلك الشائك الألماني حين توقف القصف، وكانت الفرقة السابعة تواجهها سلسلة من الخنادق خندق "فلاتيرون" و"مارلبورو"، والنتوء الذي كانت تقع خلفه غابة "بازانتين" الكبيرة، ولكنها وصلت إلى كل الأهداف المكلفة بها، وبحلول منتصف نهار ذلك اليوم كانت هاتان الفرقتان التابعتان للفيلق الخامس عشر قد تمكنتا من الاستيلاء على قرية "بازانتين" الصغيرة، وعلى اليمين كانت فرقتان من الفيلق الثالث عشر تهاجمان بين "بازانتين" الكبيرة و"لونجفال"، وعلى يسار اليمين كانت الفرقتان الثالثة والتاسعة (الاسكتلندية)، وكانت الفرقة التاسعة والتي تضم لواء مشاة من جنوب إفريقيا (تمثل احتياطيًا قرب "كارنوي") قد استولت على "لونجفال" ووصلت إلى حافة غابة "دلفيل"، والتي كانت تجاور القرية ولكنها لم تستطع الاستيلاء على الحصن الألماني في مزرعة "واترلو"، وفي الوسط لم تسر الأمور جيدًا مع الفرقة الثالثة التي كانت تهاجم من "مونتوبان" باتجاه "بازانتين" الكبيرة، فلم تفتح ثغرة في

الأسلاك الألمانية، وتنبه المدافعون وأخطا القصف المدفعي الألماني على المنطقة الحرام الكتائب المهاجمة، ولكنه أصاب بعض الأنساق التالية وكذلك كان حظ اللواء الثامن سيئًا ففقد ثمانية ضباط ومائتين من الرتب الأخرى، وفي تلك الأثناء كانت الفرقة الثامنة عشرة تهاجم من غابة "برنفاي" شرق "مونتوبان" قد استولت بنجاح على غابة "ترون".

وبينما كان التقدم بطيئا على اليمين والقتال مستمرًا في مواجهة "لونجفال" استولى الفيلق الخامس عشر على قرى "بازانتين" بحلول الساعة التاسعة صباحًا، ولاحت في الأفق فرصة لفتح ثغرة، فقد كان باستطاعة البريطانيين أن يروا بالعين المجردة الوادي الضحل شمال شرق الغابة العليا من سلسلة مرتفعات "بازانتين" والتي كان يقع خلفها الخط الثالث الغير مكتمل للدفاعات الألمانية، ولم يكن القصف قد أثر كثيرًا وكانت الأرض جيدة وتبشر بعبور جيد للخيالة، وقبل التقدم قرر الجنرالات القيام باستطلاع فقام كل من البريجادير جنرال "بوتر" من اللواء التاسع التابع للفرقة الثالثة والميجور جنرال "واتس" قائد الفرقة السابعة بالسير إلى حافة الغابة العليا بدون أن تطلق عليهم رصاصة واحدة، وبدت الغابة خاوية غير أنه وبالرغم من ذلك فقد قوبل بالرفض طلب الفيلق الخامس عشر بالسماح للواء الاحتياط التابع للفرقة السابعة باحتلال الغابة، وبدلاً من ذلك تم استخدام الخيالة وتم رفع درجة استعداد فرقة الخيالة الهندية الثانية لاستغلال الثغرة غير أنها كانت تعسكر في "مورلانكور" على بعد أربعة أميال إلى الجنوب من "ألبرت"، وكان عليها أن تمر من ساحة المعركة التي كانت تتقدم عبرها القوات البريطانية في الأسبوعين السابقين وتم إصدار الأمر إلى الفرقة بالتحرك إلى الأمام في الساعة السابعة وأربعين دقيقة، ولكنها بحلول منتصف النهار لم تكن قد وصلت إلا إلى "كارنوي" قريبًا من الخط الأمامي البريطاني القديم، وذلك في الساعة الثانية عشرة والربع، وأصدرت قيادة الجيش الرابع الأمر إلى

الفرقة السابعة بالتقدم، ولكن الأمر سرعان ما تم إلغاؤه لأن "لونجفال" لم يكن قد تم تطهيرها بعد، ونتيجة لذلك كان ما يزال بوسع المدفعية الألمانية أن تغطي المداخل عبر الوادي إلى الغابة العليا، وأخيرا وفي الساعة السابعة مساءا كانت الخيالة قد وصلت وعبر فوجان (السابع فرسان) و(الثاني خيالة ديكان) بين "بازانتين" الكبيرة و"لونجفال"، وهجموا برماحهم على الغابة العليا، ولسوء حظ المهاجمين كانت فرصة اقتناص نصر سهل في الغابة العليا قد فاتت، وكان الألمان قد أعادوا تجميع قواتهم في هذا القطاع بعد الصدمة التي تلقوها في الصباح وبدءوا في التسرب ثانية إلى داخل الغابة، وكانت المدفعية إضافة إلى الرشاشات الألمانية في استقبال الخيالة، وقد وصف الملازم أول "بيدل" وهو ضابط استطلاع مدفعية الهجوم قائلا:

"كان مشهدًا لا يمكن تصديقه فقد كانوا يجرون بخيولهم ورماحهم مشرعة وأعلامهم مرفوعة، ويقفزون من فوق المنحدر إلى الغابة، كانوا يعدون بجيادهم عبر كل ذلك، ويسقطون على الأرض بدون أمل أمام الرشاشات الألمانية لأن الألمان كانوا يطلقون النار من المرتفعات على الجنود في أسفل الوادى كانت هزيمة نكراء ومشهدا تراجيديًّا".

غير أن فوجا الخيالة وصلا إلى الغابة العليا وقتلا عددًا من الجنود الألمان وأخذوا 32 أسيرًا، وقد صمدوا ليلة الرابع عشر والخامس عشر من يوليو غير أنه لم تكن هناك تعزيزات وشيكة، وتم إصدار الأمر إلى بقية فرقة الخيالة الهندية بالانسحاب إلى معسكرهم، وفي الصباح التالي انسحب الفوجان (السابع فرسان) و(الثاني خيالة ديكان) وفي هذه الأثناء كانت الفرقة الثالثة والثلاثون (من احتياطيات الفيلق الخامس عشر) قد بدأت في التقدم عبر "فريكور" في الساعة الثانية ظهرًا ووصلت إلى مرتفعات "بازانتين" عندما كانت الخيالة قد دخلت، وكان عند الفرقة أوامر بالعبور خلال الفرقة الحادية والعشرين والاستمرار في التقدم، وكان الموقف مرتبكا

للغاية في تلك الليلة حيث اعتقدت القيادة العليا أن الغابة العليا قد تم الاستيلاء عليها، وكان اللواء المائة من الفرقة الثالثة والثلاثين قد صدرت إليه الأوامر بالتعزيز، ولكن وبينما يقوم جنود اللواء بحفر الخنادق في الطرف الجنوبي للغابة اكتشف قائد اللواء أن الغابة لم يتم السيطرة عليها إلا أنه وبالرغم من ذلك صدر الأمر إلى اللواء في يوم الخامس عشر من يوليو بأن يصطف عبر الوادي وأن يجعل الغابة على جناحه الأيمن ويتقدم باتجاه "مارتانبويش"، وتجاهلت الفرقة الاحتجاجات ومضى الهجوم قدمًا في الساعة التاسعة صباحًا بعد نصف ساعة من التمهيد النيراني، ونتيجة لتعرض اللواء إلى نيران الرشاشات الألمانية فإن الهجوم لم يكن له أي تأثير، وكانت الكتيبة التي كلفت بمهمة تطهير الغابة ودعم القوات المتقدمة قد ارتدت للوراء على أعقابها خارجة من الغابة بعد أن تبقى منها فقط 67جنديًّا وضابطًا من أصل مائتين.

نتائج الهجوم

كان ثمن فشل البريطانيين في استغلال الفرص التي كانت لديهم في صباح يوم الرابع عشر من يوليو رهيبًا على الجيش الرابع، فقد تسبب في استمرار المعركة وتحولها إلى معركة استنزاف دموي دامت شهرين قبل أن تنجح في الاستيلاء على الغابة العليا بشكل نهائي، كذلك قام الألمان في أعقاب الخسائر التي مني بها البريطانيون في المعركة ببناء خندق انتقالي يعرف باسم الخط الانتقالي لربط موقعهم الثاني قرب "بوزيير" بموقعهم الثالث الذي كان تحت الإنشاء على سلسلة المرتفعات التالية، وكان الخط الانتقالي يسير من الطرف الشمالي للغابة العليا، ولم يكن بالإمكان الاستيلاء على نقطة منه دون الاستيلاء على الأخرى، ولذا لم يسقط الخط الانتقالي ولا الغابة العليا في أيدي الحلفاء حتى الهجوم الكبير التالي في

الخامس عشر من سبتمبر فيما عرف باسم معركة "فلير كورسيليت"، وكان هناك موقف مشابه في غابة "دلفيل" التي تبادل الألمان والبريطانيون السيطرة عليها أكثر من مرة في الشهر الذي تلى ذلك.

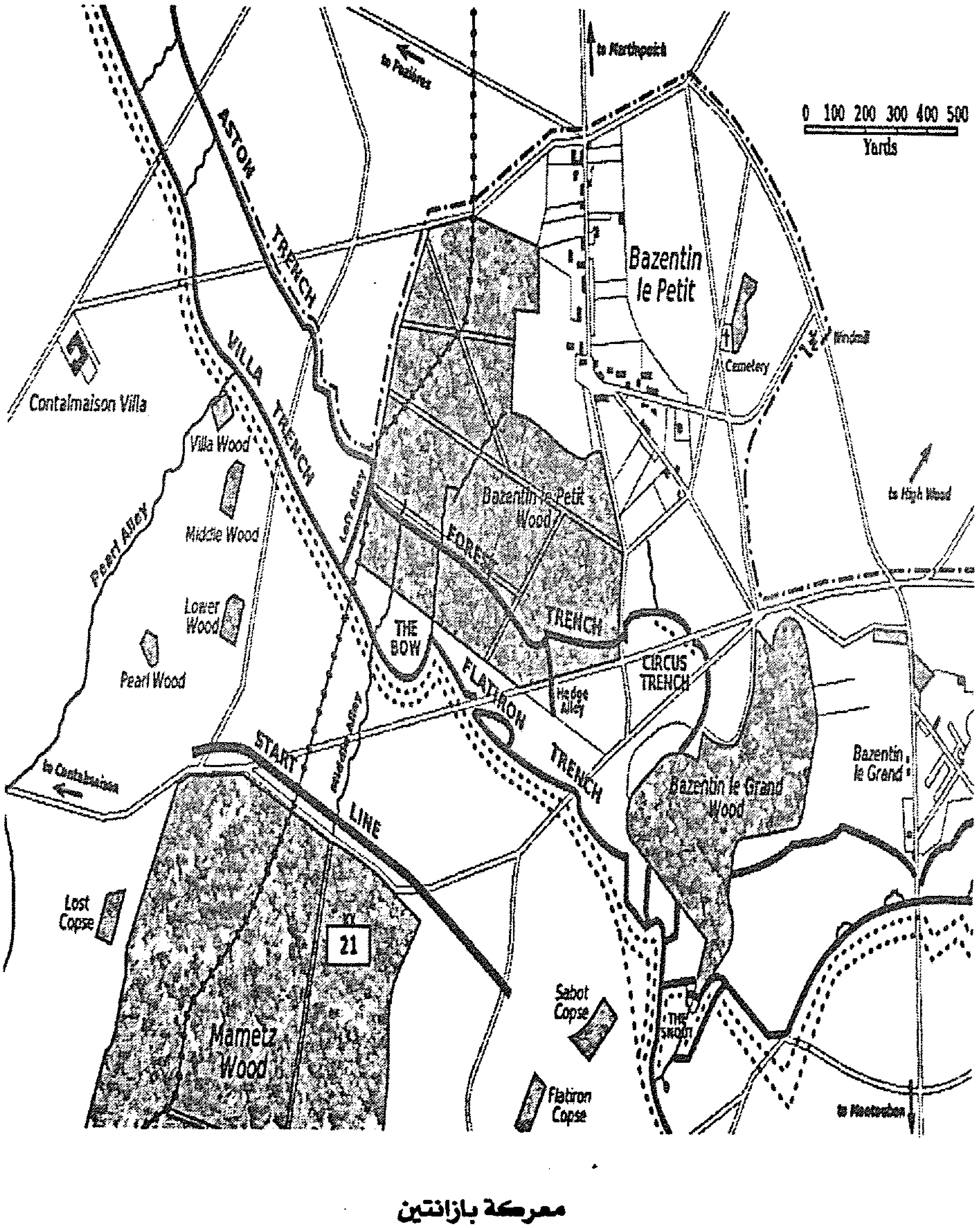

معركة بازانتين

وبعد اختراق الموقع الألماني الثاني اتجه التركيز إلى الأجناب وعلى اليمين بعد الاستيلاء على غابة "دلفيل" كان يجب الاستيلاء على قرى "جيمون" و"جنشي" لكي تستطيع القوات الفرنسية اللحاق بالقوات البريطانية، وعلى اليسار كانت النقطة الحصينة الألمانية في "بوزيير" تحمي الموقع الثاني شمال طريق "ألبرت بابوم" وأظهر هجوم الفجر أن البريطانيين قد عرفوا الصيغة المناسبة لنجاح المعارك في حروب الخنادق إلا أن المعارك التالية أثبتت أنهم لم يتعلموا الدرس بعد، وكان الهجوم الكبير التالي للجيش الرابع في ليلة الثاني والعشرين والثالث والعشرين بقوة ستة فرق، ولكنه انتهى بالفشل الذريع فلم تكن الهجمات منسقة، وكان التمهيد المدفعي غير دقيق علاوة على أن الألمان الذين كانوا قد تعلموا دروسًا من المعارك السابقة قد تبنوا نظامًا أكثر مرونة للدفاع بعيدًا عن طريقة الدفاع بتركيز القوات في الخنادق الأمامية.

معركة بوزيير

استمرت معركة "بوزيير" لمدة أسبوعين بغرض الاستيلاء على قرية "بوزيير" الفرنسية وسلسلة المرتفعات التي تقع عليها، وذلك خلال المرحلة الوسطى من معركة السوم، وبينما كانت القوات البريطانية تحارب في معظم قطاعات السوم إلا أن تلك المعركة تعرف باسم المعركة الأسترالية، وانتهت المعركة بسيطرة القوات البريطانية على السهل شمال وشرق القرية، وفي وضع يسمح لها بتهديد الحصن الألماني في "تيبفال" من الخلف، وكان ثمن الاستيلاء على "بوزيير" رهيبًا، ويتضح ذلك في كلمات المؤرخ الأسترالي "تشارلز بين" إذ يقول:

"إن التضحيات الأسترالية تتجلى بشدة في سلسلة مرتفعات بوزيير أكثر من أي مكان آخر على وجه الأرض".

قبل المعركة

تقع قرية "بـوزيير" على طريـق "ألـبرت بـابوم" علـى قمـة سلسـلة المرتفعات تقريبًا في مركـز قطـاع العمليـات البريطـاني في منطقـة السـوم، وكانت أعلى نقطة في ميدان القتال تقع قريبًا من القرية وحيث إن الأرض في منطقة السوم كانت متموجة بشكل خفيف فإن أي ارتفاع طفيف كان ولا شك يعاون في إدارة نيران المدفعية، وكانت "بـوزيير" غايـة في الأهميـة للدفاعات الألمانية، إذ كانت القرية المحصنة تعد نقطة أمامية لنظام الخنـادق الدفاعية الألمانية الثاني، والذي كان البريطانيون يعرفونـه باسـم "الخطـوط الألمانية القديمة" وكان هذا الخط الألماني الثـاني يمتـد مـن خلـف مزرعـة "موكيه" في الشمال ويسير خلـف "بـوزيير" إلى الشـرق، ثـم إلى الجنـوب باتجـاه سلسـلة مرتفعـات "بـازانتين" وقـرى "بـازانتين" الصـغرى و"لونجفال"، وفي الرابع عشر من يوليو وأثناء معركة "بازانتين" التي سبق الإشارة إليها تمكن الجيش الرابع بقيـادة الليوتنانـت جنـرال سـير "هنـري رولينسون" من الاستيلاء على ذلك القطاع الجنـوبي مـن الخـط الألمـاني الثاني، وبدأت الفكرة الملحة والخاصة بالاندفاع عبر الخط الألمـاني الثـاني تطرح نفسها من جديد إلا أن "بـوزيير" كانـت تقـف في طريـق تنفيـذها، وكان القائد العام البريطاني الجنرال سير دوجلاس هيج" تنقصه الـذخيرة اللازمة للقيام بهجوم باتساع الجبهة في أعقـاب الرابـع عشـر مـن يوليـو، وكان يعتقد بأنه سيتعذر على الألمان الدفاع عن "بوزيير" و"تيبفال" طالما ظل البريطانيون محتفظين بقـوة انـدفاعهم شـرقًا، وأصـدر "هـيج" الأوامـر للجنرال "رولينسـون" بـالتركيز علـى الوسـط بـين الغابـة العليـا وغابـة "دلفيل" وكذلك قرى "جيمون" و"جنشي"، وفي تلك الأثناء كانت الخطة هي الاستمرار في الضغط وأخذ "بوزيير" عن الطريق التقدم خطوة بخطـوة بشكل ثابت ومنهجي، وبين الثالث عشر والسـابع عشـر مـن يوليـو قـام الجيش الرابع بشن أربعة هجمـات صـغيرة علـى "بـوزيير" بـدون نجـاح

وتكبد خسائر عالية، وفي تلك الفترة تعرضت القرية لقصف عنيف، وتمت تسويتها بالتراب وتمكن جنود المشاة المهاجمين مرتين من اقتحام الخندق الذي كان يدور حول الحافة الجنوبية والغربية للقرية والذي كان يعرف باسم "خندق بوزيير"، ولكن في المرتين تم صدهم، وبالمثل فشلت المحاولات للوصول إلى شرق القرية عن طريق التقدم خلال الخطوط الألمانية القديمة.

الاستيلاء على بوزيير

وخطط "رولينسون" للقيام بهجوم على جبهة واسعة بست فرق في الثامن عشر من يوليو بين طريق "ألبرت بابوم" في الشمال و"جيمون" في الجنوب، وقرر "هيج" نقل مسئولية "بوزيي" إلى جيش الاحتياط بقيادة الليوتنانت جنرال "هوبرت جو" والذي كان يتمسك بالخط الواقع شمال الطريق حيث إن الهجوم قد تم تأجيله إلى ليلة الثاني والعشرين والثالث والعشرين من يوليو بعد وقت قصير من بدء الهجوم في أول يوم.

وألحقت ثلاث فرق أسترالية بجيش "جو" فيلق "إنزاك الأول" والذي كان قد بدأ التحرك من قطاع "أرمنتيير" ووصلت الفرقة الأسترالية الأولى إلى "ألبرت" في الثامن عشر من يوليو، وبالرغم من تأجيل الهجوم إلا أن "جو" الذي كان مشتهرًا بأنه وصولي قال لقائد الفرقة الميجور جنرال "هارولد ووكر": "أريدك أن تستمر وتهاجم بوزيير غدًا في الليل".

وأصر "ووكر" الحذر والذي كان قد حارب في جاليبولي على أن يتم الهجوم بعد الإعداد له بشكل ملائم، ولذا فقد توافق الهجوم على "بوزيير" مرة أخرى مع هجوم الجيش الرابع في ليلة الثاني والعشرين والثالث والعشرين من يوليو، وكانت الخطة تقضي بأن تقوم الفرقة الأولى الأسترالية بالهجوم على "بوزيير" وأن تتقدم على ثلاث مراحل تفصل بين كل واحدة منها نصف ساعة بينما في شمال طريق "ألبرت بابوم" تقوم

الفرقة البريطانية الثامنة والأربعون من الفيلق الخامس بمهاجمة الخنادق الألمانية غربي القرية وكانت عناصر من الفرقة مائة وسبعة عشر الألمانية تتولى مسئولية الدفاع عن القرية والمنطقة المحيطة بها، ومبكرًا في الثاني والعشرين من يوليو حاولت الكتيبة التاسعة الأسترالية تحسين موقعها عن طريق التقدم إلى الخطوط الألمانية القديمة باتجاه الطريق، ولكن تم صدها وكان التحضير للهجوم يتضمن قصفًا شاملاً للقرية وللخطوط الألمانية القديمة يستمر عدة أيام، وكان القصف يتضمن إلقاء غاز الفوسجين والغاز المسيل للدموع، وكان مقررًا أن يدخل المشاة في الساعة الثانية عشرة والنصف صباحًا في الثالث والعشرين من يوليو (اللواء الأول والثالث الأستراليان)، وزحف جنود المشاة إلى المنطقة الحرام قريبًا خلف القصف، وعندما توقف القصف اندفعوا إلى الخنادق الألمانية، وتم في المرحلة الأولى الاستيلاء على خندق "بوزيير" الذي يحيط بجنوب القرية، أما في المرحلة الثانية فكان على الأستراليين التقدم إلى حافة القرية بين ما تبقى من الحدائق الخلفية لبيوت التي تحد طريق "ألبرت بابوم"، وكان على التقدم أن ينتقل إلى خط طريق "ألبرت بابوم" في المرحلة الثالثة، وانسحب الجنود الألمان القلائل الذين بقوا على قيد الحياة إما إلى الحافة الشمالية للقرية أو للخطوط الألمانية القديمة في الشرق، وكان مخططا أيضًا أن يتم الاستيلاء على الخطوط الألمانية القديمة عند الطريق، ولكن الأستراليين فشلوا في ذلك نتيجة للمقاومة الألمانية الشرسة للجنود الذين يحتمون بالخنادق وأعشاش الرشاشات، وكذلك نتيجة للارتباك الناتج عن الهجوم الليلي على أرض بلا ملامح، فقد أدت أسابيع من القصف إلى تحويل المرتفعات إلى ميدان من الفوهات والحفر، وكان من المستحيل عمليًا تحديد أماكن الخنادق، وأدى الفشل في الاستيلاء على الخطوط الألمانية القديمة إلى جعل الطرف الشرقي لبوزيير عرضة للهجوم، ولذا فقد شكل الأستراليون جناحًا أقصر من أهدافهم وعلى الحافة الغربية للقرية استولى الأستراليون على

موقع "جيبرالتار" الحصين والذي كان البناء الوحيد في المنطقة الذي احتمل القصف، وفي يوم الثالث والعشرين من يوليو خرج بعض الأستراليين للاستطلاع على الطريق، وقاموا بأسر بعض الجنود الألمان واحتلوا أجزاء أخرى من القرية، وفي تلك الليلة تحركت الكتيبة من اللواء الثاني الاحتياط وقامت بتأمين باقي القرية، في الحقيقة حقق هجوم الفرقة الثامنة والأربعين على الخنادق الألمانية غرب "بوزيير" بعض النجاح إلا أن الهجوم الرئيسي للجيش الرابع بين "بوزيير" و"جيمون" كان فاشلاً ومكلفاً.

التشبث بالقرية

كان النجاح في السوم يتحقق بخسائر عالية كما لو كانت تكلفة الفشل، وبالنسبة للأستراليين كانت "بوزيير" كذلك فنظرًا لكون "بوزيير" هي المكسب البريطاني الوحيد في الثالث والعشرين من يوليو اتجهت إليها أنظار الألمان، ولأن القرية كانت تشكل عنصرًا لا غنى عنه في المنظومة الدفاعية الألمانية أصدرت القيادة الألمانية الأمر بأخذها بأي ثمن، وتمت ثلاث محاولات، ولكن تم صدها عن طريق المدفعية أو الرشاشات، ولم يكن الاتصال سيئًا فقط عند الألمان بل كان كذلك عند الإنجليز ولذلك لم يحصلوا على تأكيد بسقوط "بوزيير" قبل السابعة صباحًا في الرابع والعشرين من يوليو، ونظرًا لالتفات البريطانيين إلى قطاعات أخرى في الجبهة فإنه كان لدى الفيلق الرابع الألماني الذي تقع "بوزيير" في قطاع مسئوليته الفرصة لتركيز معظم نيران مدفعيته على القرية والمناطقة المحيطة بها.

ومبدئيًا كان القصف منهجيًا وعنيفًا ولكنه لم يتسم بالكثافة، وكان للمناطق المعروفة مثل الخنادق والنقاط الحصينة مثل دشمة "جيبرالتار"

حظًّا وافرًا من قذائف المدفعية، وتم التركيز كذلك على المدخل الغربي للقرية وكان يعرف بعد ذلك ونتيجة لعنف القصف باسم طريق الرجل الميت، واشتد القصف الألماني في يوم الخامس والعشرين من يوليو، وذلك تمهيدًا لهجومهم المضاد التالي للاستيلاء على القرية، وكان الفيلق التاسع الألماني قد استلم القطاع وألغى قائده الهجوم المضاد المخطط له، واختار أن يركز على الدفاع عن الخطوط الألمانية القديمة والتي كانت الهدف التالي للبريطانيين، وبلغ القصف أشده في السادس والعشرين من يوليو، وبحلول الساعة الخامسة مساءا طلب الأستراليون الذين كانوا يعتقدون بأن هناك هجومًا مضادًا على وشك البدء الإذن بالرد بنيران المدفعية وبالإضافة إلى بطاريات الفيلق الأول الأسترالي والفيلق الثاني البريطاني انضمت أيضًا إلى القصف مدافع الفيلق البريطاني المجاور، ودفع ذلك القصف بدوره الألمان إلى الاعتقاد بان الأستراليين يعدون لشن هجوم الأمر الذي أدى بهم لزيادة قصفهم ولم يتوقف القصف إلا بحلول منتصف الليل، وكان القصف الألماني على "بوزيير" هو الأشد من نوعه وتجاوز في عنفه أسوأ قصف تعرضت له فرقة أسترالية من قبل على الجبهة الغربية للحرب، فقد خسرت الفرقة الأولى الأسترالية في أول جولة لها في "بوزيير" 5285 بين قتيل وجريح، وعندما تم تخليص من بقى منهم على قيد الحياة علق أحد الملاحظين قائلا:

"كانوا يبدون كرجال في الجحيم، وكانوا منهكين ومبعثرين، ويمشون كمن يحلمون بعيونهم الزجاجية تلك".

معركة فروميل

كان النتوء الذي تحتله القوات الألمانية متمثلة في الفرقة السادسة احتياط البافارية يشير إلى الشمال الغربي، وكان الحلفاء يعرفون تلك

المنطقة باسم الرغيف المسكر نظرا لشكلها المتميز، وكانت صغيرة بحيث وفرت ميزة لمن يحتلها بالسماح لهم بالاستطلاع وتغطية امتدادات الأرض الحرام على الجانبين، وكانت خطة الجنرال "ريتشارد هاكينج" البريطاني للمعركة هي أن يندفع المشاة ويقوموا بتخطي الخط الأول للخنادق الألمانية في هجوم مفاجئ في واضحة النهار بعد أن يسبق ذلك قصف مدفعي، ثم يتقدموا لمسافة أربعمائة متر إلى الخط الثاني، وتقوم الفرقة الأسترالية الخامسة بالهجوم إلى اليسار من النتوء في غضون أيام بعد وصولها إلى فرنسا -وكانت تلك الفرقة تتميز بضعف خبرتها القتالية- على أن تقوم الفرقة الحادية والستون البريطانية المعروفة باسم الفرقة الثانية لجنوب "ميدلاند" بالهجوم على اليمين، وقبل استكمال استعدادات الهجوم كان هدفه الأولي الذي كان يرمي إلى تضليل الألمان عن الهجوم الرئيسي في السوم قد استنفذ إلا أن "هاكينج" كان حريصًا على الاستمرار.

بدء المعركة

هجمت المشاة في السادسة مساءًا بعد إحدى عشرة ساعة من القصف التمهيدي المتواصل، وسرعان ما تمكن اللواءان الثامن والرابع عشر من احتلال الأهداف المقررة لهما غير أنهم وبوصولهم إلى خط الخنادق الثاني لم يجدوا أية خنادق ولم يجدوا أية وسائل للتمسك بالخط والدفاع عن الأرض التي اكتسبوها، بينما تم تمزيق اللواءين الخامس عشر والمائة وأربعة وثمانين البريطانيين عند محاولتهما لعبور الأرض الحرام إذ صبت عليهم الرشاشات الألمانية وابلا من النيران، ويتذكر أحد الناجين فيما بعد الأحداث التي مرت عند محاولة اللواءين لعبور الأرض الحرام في ذلك المساء قائلا:

"كان الهواء ممتلئًا بالرصاص وكأنما كان يكون شبكة متقاطعة من

الموت، وكان المئات من الجنود يتم حصدهم في طرفة عين مثل أسنان مشط كبير يتم كسرها".

و تفاقمت الكارثة عندما طُلِبَ من اللواء الخامس عشر الأسترالي أن يصحب الفرقة الحادية والستين البريطانية في هجوم ليلي آخر في التاسعة مساءا، ولكن قيادة الفرقة البريطانية ألغت الهجوم فجأة بدون إنذار اللواء الأسترالي ولأسباب غير مفهومة حتى الآن، ويبدو أن إلغاء الهجوم كان مجرد تكتيك من تلك التكتيكات التي اعتادها الإنجليز في القتال بجنود وتشكيلات غير إنجليزية كما تعودوا في معظم المعارك التي خاضوها في تلك الحرب، ويبدو أنهم أرادوا استطلاع الدفاعات الألمانية والتعرف إلى مواطن الضعف والقوة بها وجس نبضها قبل أن يقوموا هم بالهجوم، وذلك عن طريق هجوم محدود يقوم به الأستراليون، وفي الوقت ذاته يقومون بتوفير قواتهم في تلك الجهة لمعارك أخرى قد يتم التخطيط لها في المستقبل القريب، فقد تعود الإنجليز على القتال بجنود من غيرهم، فنجدهم مثلاً في المعارك التي دارت في المنطقة العربية بالعراق يقاتلون العثمانيين بقوات هندية، وفي الثورة العربية أيضًا لجئوا إلى إزعاج العثمانيين وتعطيلهم عن طريق دفعهم إلى القتال والتورط في معارك يخوضونها مع قوات مرتزقة -بدو- جمعوا شملهم عن طريق ذهب سرقوه من مصر ويقودهم رجل مخدوع، على أي حال بدأ الأستراليون الهجوم وحاول نصف الكتيبة الثامنة والخمسين الأسترالية بلا جدوى أن يقوموا باحتلال النتوء، ونجح الألمان في فتح ثغرة بين اللواءين الرابع عشر والخامس عشر عن طريق الدفع بوتد يتكون من جنودهم في المسافة بين اللواءين، وفصلوا بذلك القوات الأسترالية عن بعضها البعض وبعد تم أن تم عزل اللواءين وتطويقهما من الأجناب اضطروا إلى الانسحاب في الصباح التالي، وكان الألمان قد قاموا بنصب الرشاشات وتعرض الجنود الأستراليون المنسحبون لخسائر رهيبة.

نتائج المعركة

فشل الهجوم تمامًا في تضليل الألمان عن اتجاه الهجوم الأساسي وخصوصًا حينما اتضحت طبيعته المحدودة للألمان، ولم يلق البيان العسكري الزائف الذي أرسلته القيادة البريطانية إلى الصحف قبولاً لدى الأستراليين، وكان نصه كالتالي:

"بالأمس مساءا إلى الجنوب من أرمانتيير نفذنا إغارات مهمة على جبهة بعرض ميلين، وقد شاركت بها القوات الأسترالية ونجحنا في أسر مائة وأربعين أسيرًا ألمانيًّا".

وبالطبع فإن هدف ذلك البيان الكاذب هو التغطية على الخسائر الرهيبة التي تكبدتها القوات الأسترالية وانعدام التنسيق الذي جعل الفرقة الحادية والستين البريطانية تلغي هجومها بدون إخطار اللواء الأسترالي المصاحب لها مما كبده خسائر جسيمة، وكذلك للإبقاء على الروح المعنوية للبريطانيين جيدة حيث كان من نتيجة تلك المعركة أكثر الخسائر جسامة في الأرواح بين صفوف القوات الأسترالية في أربع وعشرين ساعة فقط، والتي لم تفقها في الخسائر سوى معركة بولكور، وكانت الخسائر الأسترالية التي بلغت خمسة آلاف وخمسمائة وثلاثة وثلاثين قتيلاً وتعادل تلك الخسائر خسائر القوات الأسترالية في حروب البوير والحرب الكورية وحرب فيتنام مجتمعة، وكان من جراء تلك المعركة أن أصبحت الفرقة الخامسة الأسترالية عاجزة تمامًا عن القتال تمامًا لشهور بعد المعركة، فقد تم إبادة كتيبتين بعد المعركة بشكل كامل، وكان من المحتم إعادة بنائهما، ومن الكتيبة الستين التي كان قوامها 887 لم ينج إلا ضابط واحد ومائة وستة جندي وصف ضابط، وخسرت الكتيبة الثانية والثلاثون سبعمائة وثمانية عشر قتيل من قوتها، وتسببت تلك المعدلات العالية من الخسائر الأسترالية علاوة على سلوك القيادة العليا البريطانية في إفساد العلاقات

بين القيادتين البريطانية والأسترالية بشكل كبير، وكـان ذلـك القطـاع هـو القطاع الذي خدم به أدولف هتلر وكان حينئذ في السابعة والعشرين مـن عمره ويحمل درجة عريف يعمـل في حمـل الرسـائل في الفـوج السـادس عشر مشاة احتياط البافاري، والذي كان يتولى مسئولية الـدفاع عـن نتـوء رغيف السكر وظل هتلر يخدم كجندي في ذلك القطاع منذ مـارس1915 إلى سبتمبر1916، وكانت أهمية تلك المعركـة تنبـع مـن أنهـا أول معركـة تقاتل فيها فعلاً القوات الأسترالية على الجبهة الغربية، وكانت أول عمليـة للأستراليين أحد أكـبر الهـزائم الكـبيرة الـتي منـوا بهـا، ويصـف النصـب الذكاري الذي أقيم لتلك المعركة بأنها أسوأ أربعة وعشرين ساعة في تاريخ أستراليا كلها، وكانت تلـك المعركـة نصـرًا حاسمًـا وكـبيرًا للألمـان، وكـان الحلفاء قد تكبدوا تلك الخسائر بدون اكتساب أرض.

الخطوط الألمانية القديمة

في الرابع والعشرين من يوليو وبمجرد تـأمين "بـوزيير" ضـغط الجنـرال "جو" من أجل التحرك الفوري نحو الخطوط الألمانية القديمة شمال وشـرق القرية، وكانت أول مهمة هي الاستيلاء على الخطوط حتى طريق "ألـبرت بابوم" الهـدف الأولـي الـذي لم يـتم تحقيقـه، وعـن طريـق الهجـوم لـيلاً استطاعت الكتيبة الأسترالية الخامسة أن تجد طريقهـا إلى الخنـادق الألمانيـة القديمة، وقامت على أثر ذلك الفرقة الثامنة عشرة احتيـاط الألمانيـة بشـن هجوم مضاد، وفي نفس الوقت وعلى يمين الأستراليين قامـت الفرقـة الأولى البريطانية بمحاولة الاستيلاء على ممر "مونستر" وهو قسم من خـط حيـث يتقاطع مع الخطوط الألمانية القديمة، ودارت هناك معركة شرسة تراشق فيها الطرفان بالقنابل ولم يتم الاستيلاء إلا على جزء صغير من الخنادق وقبـل أن يتم سحبها قامت الفرقة الأولى الأسترالية بمحاولة إعداد خـط يسـتخدم للهجوم على الخطوط الألمانية القديمة، واستلمت الفرقـة الثانيـة الأسـترالية

القطاع في السابع والعشرين من يوليو، وضغط الجنرال "جو" الذي كان يتحرق شوقًا للهجوم من أجل هجوم فوري، وكان قائد الفرقة الجنرال "جوردون ليج" تنقصه الخبرة والثقة اللتان كانتا لدى الجنرال "ووكر" وبالطبع خضع للضغط الذي مارسه عليه الجنرال "جو"، وفي ليلة الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من يوليو وفي ظروف غير مواتية كتلك التي تحققت للفرقة الأولى في الهجوم السابق كان من المتوقع أن يبدأ هجوم الفرقة الثانية، وكان القصف الألماني الشرس قد تسبب في إزعاج القوات التي تقوم بالتحضير للهجوم، وجعل من عملية التجهيز للهجوم شيئًا مستحيلا، ومنع الغبار الذي أثارته القذائف الألمانية نقاط الملاحظة وإدارة النيران للمدفعية الأسترالية غير قادرة على توجيه مدفعية الميدان التي أسندت إليها مهمة تحطيم وقطع شباك الأسلاك الشائكة الألمانية المعقدة، وكان من أثر الهجوم الذي قامت به الفرقة الثالثة والعشرون البريطانية على ممر "مونستر" أن تدخل اللواء الخامس الأسترالي، وشهدت المعارك التي دارت رحاها على أثر ذلك الهجوم تراشقًا بالقنابل اليدوية استخدمت فيه المشاة البريطانية والأسترالية ما يربو على خمسة عشر ألف قنبلة يدوية، واستمر الهجوم الرئيسي في شق طريقه، وكان مقررًا أن يبدأ في الساعة الثانية عشرة والربع صباحًا في التاسع والعشرين من يوليو، ولكن اللواء السابع الأسترالي تأخر في الوصول إلى خط البداية وتمكن الألمان من رصد تحركاته، وعندما بدأ الهجوم انصب وابل من نيران الرشاشات الألمانية على الجنود الأستراليين ونجحوا في تثبيتهم في مكانهم، ولم يستطع الأستراليون التقدم قيد أنملة وعلى يسارهم في شمال الطريق كان اللواء السابع قد قابل أثناء تقدمه شبكة من الأسلاك الشائكة لم يتم قطعها بعد، وعلى الجناح الشمالي تم تحقيق بعض التقدم الطفيف على يد اللواء السادس، ولكن بغض النظر عن قطاع اللواء السادس فشل الهجوم في كل القطاعات، وحتى في الهجوم التحضيري في اليوم السابق على الهجوم فقدت الفرقة الثانية ثلاثة آلاف وخمسمائة جندي، وكان

على القيادة أن تقوم بسحب اللواء السابع إلى الخلف حيث تعاظمت خسائرها إلى حد يصعب معه الاستمرار في القتال، وغضب الجنرال "هيج" من فشل الفرقة وقام بتعنيف الليوتنانت جنرال "ويليام بيردوود" قائد الفيلق الأسترالي وأصر بالتالي الجنرال "ليج" على تحسين أدائه، ولتجنب الارتباك الذي قد يحدثه التقدم ليلا كانت الخطة هي الهجوم في الساعة التاسعة والربع ليلا قبل الإظلام الكامل حيث يمكن تمييز قمة المرتفعات وكثبان "بوزيير"، غير أن الهجوم في ذلك التوقيت كان يعني أنه لابد من تجميع القوات في النهار، الأمر الذي لم يمكن عمله إلا داخل الخنادق للحماية من النيران الألمانية، ولذا فقد تقرر تشييد نظام خنادق للدخول والتجميع، وشرع الجنود بحفرها ليلاً وحيثما كان الألمان يرون الجنود يحفرون كانوا يظنونهم قوات تحتشد للهجوم ويبدءون في قصف مواقعهم بالمدفعية، وكان من المقرر أن يتم الهجوم الأصلي في الغسق في الثاني من أغسطس، ولكن الخنادق لم تكن قد اكتملت بعد، ففي مناطق يكون بناء الخنادق قد عطلته المدفعية الألمانية وفي مناطق أخرى تكون المدفعية الألمانية قد دمرت الخنادق التي تم بناؤها، وتم تأجيل الهجوم إلى الثالث من أغسطس ثم الرابع من أغسطس، وعندما اعتبر البريطانيون أن الخنادق قد اكتملت أدى ذلك الإعداد والتخطيط الجيد إلى النجاح عندما قامت الفرقة الثانية بالهجوم، فقد تمكنت حينئذ من الاستيلاء على الخطوط الألمانية القديمة، وإلى الجنوب متعامدًا على طريق "ألبرت بابوم" كان القصف المدفعي الكثيف قد تسبب في طمس معالم الخطوط الألمانية القديمة وانتهى الأمر بالأستراليين إلى التقدم خلف الأهداف المقررة لهم، وعلى الحافة الشرقية لبوزيير ومن الخطوط الألمانية القديمة التي استطاع الأستراليون الاستيلاء عليها كان الأستراليون يطلون على الريف الأخضر وقرية "كورسيليت" وقريبًا منهم الغابات حول "بابوم" على بعد خمسة أميال، وأصدر القائد الألماني الأمر باستعادة التل60 على مرتفعات "بوزيير" بأي ثمن.

الهجوم المضاد

بحلول الخامس من أغسطس كانت ألوية الفرقة الثانية الأسترالية قد أصابها الإنهاك والتعب، وكان لابد من إحلال الفرقة الرابعة الأسترالية مكانها، وبينما كانت عملية الإحلال تجري على قدم وساق في ليلة الخامس والسادس من أغسطس تعرض الأستراليون لقصف بالغ العنف، وكان في مقدور الألمان أن يقوموا بقصف الأرض التي احتلها الأستراليون من جميع الجهات وكذلك من "تيبفال" التي كانت تقبع في المؤخرة، وفي صباح السادس من أغسطس كان الهجوم الألماني المضاد يحاول الاقتراب من الخطوط الألمانية القديمة، ولكن تلقتهم نيران الرشاشات واضطروا للتخندق واستمر القصف خلال النهار، وفي نهاية اليوم كان معظم أفراد الفرقة الثانية الأسترالية قد تم استبدالهم، وكانت خسائرها في اثني عشر يوما من القتال6848 قتيلاً، وفي الرابعة صباحًا قبل الفجر بقليل في السابع من أغسطس شن الألمان هجومهم المضاد الأخير على جبهة عرضها ثلاثمائة وسبعين مترًا وقاموا بتخطي الخطوط الألمانية القديمة التي كانت محمية بشكل ضعيف (وكان معظم الأستراليين يحتمون في الخنادق الألمانية القديمة)، وتقدم الألمان أمامًا نحو "بوزيير" وكانت كارثة للأستراليين وكان الليوتنانت "ألبرت جاكا" قد صعد من الخنادق ومعه سبعة جنود من سريته وقد تم عزلهم تمامًا وهاجموا الخط الألماني من المؤخرة، وقد شجع ذلك الأستراليين الآخرين المبعثرين عبر السهل على الانضمام إلى القتال، ودارت معركة شرسة وجرح "جاكا" بشكل عنيف، ولكن بوصول الدعم من الأجناب أصبح الأستراليون في وضع أفضل، وتم أسر معظم الألمان الذين بقوا على قيد الحياة، ولم يقم الألمان بعدها بأية محاولات لاستعادة "بوزيير".

بعد الاستيلاء على "بوزيير" كانت خطة الجنرال "جو" هي شق الطريق بقواته إلى الشرق خلف القلعة التي يحتلها الألمان في "تيبفال" بعد

أن يقوم بتأمين "بوزيير" والقطاع المجاور لها من الخطوط الألمانية القديمة، وانتقل الهجوم إلى مرحلته الثانية وهي الاندفاع شمالاً بمحاذاة المرتفعات نحو النقاط الألمانية الحصينة عند مزرعة "موكيه" والتي كانت تقوم بمهمة الدفاع عن مؤخرة "تيبفال"، وكان على الفيلق الأسترالي -المعروف باسم الأنزاك- أن يقوم بالتقدم بمحاذاة المرتفعات، بينما وعلى اليسار منهم يقوم الفيلق الثاني البريطاني بالاحتفاظ بنفس معدل التقدم معهم ويقلل الدفاعات في نتوء "تيبفال"، ووقعت المهمة مبدئيًّا على عاتق الفرقة الرابعة الأسترالية والتي كانت قد تكبدت خسائر تقدر بألف قتيل في المعركة الأخيرة التي دارت عند قيام الألمان بهجومهم المضاد على أن يتم استدعاء الفرقة الأولى والثانية الأستراليتين مرة أخرى وتتبعهما الفرقة الرابعة، وعندما انتهت الكارثة التي حاقت بالقوات الأسترالية في "بوزيير" في شهر سبتمبر تم استبدال الفيلق الكندي بهم والذي قام بمهمة التمسك بهذا القطاع حتى انتهاء القتال في السوم وأصبحت الخطوط التي كان الألمان يحتلونها قبل ذلك هي نقطة انطلاق الهجوم الكندي والذي عرف باسم معركة "فلير كورسيليه".

ظهور الدبابة

قبل أن نتحدث عن معركة "كورسيليه" التي استخدمت فيها الدبابات لأول مرة لابد أن نتعرض أولاً ومن الناحية التاريخية إلى الظروف التي أدت إلى نشأة فكرة الدبابة والتطور في الفكر العسكري عمومًا والفكر العسكري الأوربي على وجه خاص، ونناقش الضرورات التي دفعت بالبريطانيين إلى الخروج على العالم بذلك الاختراع الثوري في تاريخ الحروب والذي في حقيقة الأمر لا يعد ابتداعًا من جانب الإنجليز بل هو تطوير لمفاهيم عسكرية كانت وما تزال قائمة لدى الأوربيين بشكل عام

ولدى الإنجليز بشكل خاص، وخصوصًا بعد أن اتسعت إمبراطوريتهم ونشأت أصلا فكرة استخدام الدبابة كدرع يحمي الجنود أثناء عبورهم للمناطق المكشوفة من ميادين القتال نتيجة لثبوت الجبهة الغربية وبدلا من الحرب السريعة والانتصار الحاسم الذي كانت تتوقعه الأطراف المتحاربة انقلبت الحرب على الجبهة الغربية بشكل خاص إلى مجموعة من المعارك الصغيرة والكبيرة، وتحول الأمر إلى حرب خنادق ثابتة حيث كان يتم خسارة أعداد كبيرة من المشاة بسبب الأسلاك الشائكة والرشاشات التي يستخدمها الألمان وهم متحصنون بخنادقهم المنيعة مما ألجأ المفكرين العسكريين البريطانيين إلى التفكير في مركبة مدرعة توفر الحماية لراكبيها، وتوفر كذلك قوة نيرانية يمكنها التأثير على العدو، وتحل كذلك مشكلة الأسلاك الشائكة الألمانية الرهيبة التي كان الجنود يعلقون بها، وتتكفل الرشاشات بمهمة تمزيقهم بعدها إلى قطع صغيرة، وفي الحقيقة فإن مشكلة التقدم بالقوات للهجوم تحت نيران العدو هي مشكلة قديمة قِدَم الحرب ذاتها وفكرة بناء درع متحرك لحماية المشاة ليست بالجديدة فقد قام الإغريق على سبيل المثال ببناء أبراج ضخمة تستخدم للحصار، وكان لدى الآشوريين دروعًا ضخمة يستخدمونها لحماية الرماة، وكذلك الصينيون والرومان من بعدهم، والذين كانت لديهم أبراج مدرعة تسير على عجلات ومسلحة بالمنجنيق، وكذلك البولنديون والتشيكيون كان لديهم في العصور الوسطى عربات من المعدن تسير على عجلات وتستخدم في الحروب، وفي العصور الوسطى صمم ليوناردو دافينشي مركبة تسير على عجلات ويسيرها الجنود إلا أن الأمر لم يخرج عن كونه تصميمًا ولم يقدر له أن يرى النور، ولا يصعب تصور الهاجس الذي كان يسيطر على العقلية العسكرية الأوروبية من حيث الاحتياج الكبير إلى الدروع لحماية جنودهم من النبال، ويستطيع المشاهد لآثار أوروبا أن يرى في كل مكان من أوروبا القلاع الحجرية الضخمة التي كان الأوروبيون

يقيمونها في كل موقع قد يتعرض للهجوم، ولم يقم المسلمون بتطوير كبير في الدروع إذ كان من الأسس التي قام عليها الفكر العسكري الإسلامي هو مبدأ خفة الحركة، والمطالع للتاريخ العسكري الإسلامي ما يلبث أن يتبين أن خفة الحركة كانت من العوامل المهمة التي كانت تمكن المسلمين من الانتصار على أعدائهم في المعارك المختلفة، فبينما كان المشاة والخيالة المسلمون مسلحون بدروع خفيفة ويتحركون في ميدان القتال بخفة وينقضون بسرعة على أعدائهم نرى المشاة البيزنطية على سبيل المثال ترزح تحت أثقال دروعها متيحة الفرصة للمسلمين من خيالة ومشاة في الفتك بل إنه وفي نفس المعركة نرى الخيالة المتحركة بقيادة خالد بن الوليد تصعق الخيالة البيزنطية بهجومها وعلى أثر ذلك تنسحب الخيالة البيزنطية لينقض عليها المسلمون مرة أخرى بخيلهم قبل أن يعاودوا التشكيل للمعركة، ولا يمنع ذلك بالطبع أن المسلمين كان لديهم آلات للحصار بل كان لديهم آلات مشهورة مثل الدبابة والعرادة، ولكن القرآن الذي نزل على النبي صلى الله عليه وسلم والذي حض المؤمنين في أكثر من موضع على نيل الشهادة صبغ الفكر العسكري الإسلامي بصبغة الهجوم الخاطف وخفة الحركة، في حين كان الفكر العسكري الأوربي مختلفاً كل الاختلاف فنجد الفرد يهتم بسلامته في المقام الأول، ويتبين ذلك بشدة في معارك الحروب الصليبية التي دارت بين المسلمين والصليبين، ونرى قبل الحرب العالمية الأولى عندما كان الألمان يجهزون أنفسهم للحرب نراهم يعملون ليل نهار لتصميم مدفعية من عيار كبير قادرة على دك الأسوار السميكة للقلاع الفرنسية كما رأينا، بينما كانت كل تلك الآلات القديمة التي سبق الإشارة إليها تركز على الحصار وكيفية التغلب على القلاع وتهمل التكتيكات الحديثة للمشاة وطريقة المناورة والتشكيلات والقدرة على الحركة، وقد هددت التطورات التي نتجت عن الثورة الصناعية في أوربا إلى تحويل أي حرب جديدة إلى حرب حصار

طويلة الأمد على غرار الحروب التي كانت تدور في العصور الوسطى وإلى حروب يحتمي فيها جنود الأطراف المتحاربة في خنادق مما يطيل أمد الحروب ويستنزف موارد وطاقات البلدان المتحاربة، وكانت القطارات المدرعة تستطيع حمل أوزان كبيرة ولكنها تذهب فقط إلى حيث تأخذها القضبان، وبالطبع فإنه يستحيل مد قضبان في ميدان قتال تغطيه رشاشات جيش عدو، فقد كان بالإمكان تصور السهولة التي ستقوم بها أية قوات معادية في تدمير القضبان الحديدية التي يتم إنشاؤها فضلاً عن استحالة إنشائها من الأساس كما أشرنا، وبالنسبة للطائرات فإنه من الممكن للطائرة في تلك الظروف التي كانت تحيط بمعارك الحرب العالمية الأولى بشكل عام وبشكل خاص معارك السوم أن تقوم باختراق الخطوط المعادية، وأن تهاجم خطوط الدفاعات الأرضية وتقوم بتدميرها، ولكنها لا يمكن لها الاستيلاء على الأرض بنفسها فضلاً عن الاحتفاظ بالأرض، ولكن يثور سؤال: لماذا لم يستخدم الحلفاء الطائرات لدك الخنادق الألمانية وتدمير الدفاعات الأرضية على الأقل لتقليص حجم الخسائر قبل أن يقوم المشاة بالهجوم؟ وسنناقش تلك النقطة لاحقاً، وعلاوة على ما سبق فقد فكر البريطانيون في استخدام العربات المدرعة والتي سبقوا الآخرين إلى إنتاجها والتي أثبتت كفاءتها في القتال إلا أنها لم تكن تجدي فتيلاً عند عبورها لأراض تمتلئ بالخنادق أو تسيطر عليها نيران الرشاشات، وكانت الصعوبة الأساسية هي قدرة عجلات السيارة على اجتياز مساحة من الأرض الوعرة، الأمر الذي قد تتزايد الخسائر من جرائه لا العكس، وكما ذكرنا سلفاً فإن المبدأ الذي كان يشكل الإطار الذي يفكر من خلاله العسكريون البريطانيون هو تقليل الخسائر وحماية الفرد، فقد كانت بريطانيا تنزف زهرة شبابها في تلك الحرب وفي معركة السوم على وجه التحديد، فقد قتل فيها جيل كامل من شباب إنجلترا وكان جورج ويلز الكاتب الإنجليزي قد وصف في أحد أعماله في ديسمبر1903 عربات

مدرعة تحمل مدفعًا ورشاشات لاختراق شبكات الخنادق، وتشق الدفاعات المحيطة بها فتفسح الطريق للمشاة، ولم يلبث خياله أن تحول إلى حقيقة ففي بريطانيا نبتت الفكرة عندما كانت إحدى الشركات التي تنتج الجرارات -وهي شركة ريتشارد آند هورنسبي وهي شركة بريطانية للتجهيزات الزراعية- قد عملت على تطوير جرار يسير على جنزير وعرضته على الجيش البريطاني في عام1905 فأثارت الفكرة اهتمام قيادة الجيش للدرجة التي دفعتهم إلى منح جائزة لتلك الشركة على اختراعها، غير أنهم وفي نهاية الأمر لم يتبنوا الفكرة، وانتهى الحال بالعربات المجنزرة إلى جر المدافع، وعلى أثر ذلك قامت الشركة البريطانية ببيع براءة اختراعها إلى شركة أمريكية في كاليفورنيا والتي قامت بتطوير جرارات تسير على جنزير على أساس الفكرة البريطانية وقبل اندلاع الحرب العالمية الأولى اشترت الحكومتان البريطانية والفرنسية عددًا من تلك الجرارات المجنزرة من الشركة الأمريكية لاستخدامها لحمل البضائع الثقيلة، وأثناء أعياد الميلاد في عام1914 رأى أحد ضباط الجيش البريطاني وهو الكولونيل "سوينتون" الجرارات المجنزرة وهي تعمل، وفكر في تطوير العربات المدرعة وتعديلها لتسير على جنزير بدلاً من العجلات الأمر الذي يجعلها مثالية لميادين القتال الثابتة والوعرة، وبدأ ذلك الضابط في إقناع حكومته بمزايا تلك الفكرة وفي غضون عام من ذلك وبدعم من تشرتشيل ولويد جورج كانت الدبابة الأولى قد خرجت إلى الوجود، وبذلك تمكن البريطانيون من حل معضلة القتال في أرض مليئة بالخنادق فقد دمجوا بين تقنيات مختلفة لإنتاج سلاح جديد، فقد كانت الدبابة الأولى تحتوي على جنزير وبدن وفوقهما برج مركب عليه مدفع ويحيط بالبدن درع من المعدن مضاد للرصاص، وأصبح ذلك المزيج من العربة المدرعة والدرع المعدني والمدفع والجنزير هو الاختراع المعروف الآن بالدبابة.

معركة كورسيليه

دارت تلك المعركة في الخامس عشر من سبتمبر1916 ودامت لمدة أسبوع وكانت أكبر وآخر ثلاثة هجمات يقوم بها الحلفاء في معركة السوم، وتعتبر تلك المعركة من أهم المعارك إذ تم بها ولأول مرة في تاريخ الحروب استخدام الدبابات كسلاح، وكانت تحدوا الحلفاء آمال كبيرة في أنها ستثبت نفسها كسلاح حاسم، ولكن كان أداء الدبابة "ماركة1" البريطانية أثناء المعركة مهلهلا، وتم توجيه اللوم إلى الجنرال "دوجلاس هيج" لكشفه سرًا حربيًا كهذا قبل أوانه، وقد حذره من ذلك القادة الذين يرأسهم وكذلك ممثلين عن الحكومة الفرنسية التي أرسلت ممثلا لها إلى لندن على أمل إقناع البريطانيين بالضغط على الجنرال "هيج" لإثنائه عن عزمه باستخدام الدبابة، وكان الجنرال "هيج" يرغب في استخدام الدبابات في اليوم الأول للقتال في الأول من يوليو وبعدد دبابات أكبر مما توفر له في معركة "كورسيليت" غير أنه وبالرغم من عدد الدبابات المحدود الذي أتيح له في تلك المعركة إلا انه كان مصرًا على استخدامها الأمر الذي يعتبره بعض المحللين قرارًا متناقضًا، وربما كانت تسيطر عليه الرغبة في تجربة السلاح أو إحداث أثر نفسي لدى الألمان عن طريق مفاجأتهم باستخدام سلاح جديد، مما قد يفيده بالتالي في إنجاح الثغرة التي كان يسعى إلى فتحها في تلك المعركة، وقد كانت حجة معارضيه ومن بينهم ونستون تشرتشيل الذي كان مناصرًا كبيرا للدبابات هي قلة العدد المتاح، والذي قد لا يحدث أي أثر في المعركة، وعلق تشرتشيل على ذلك قائلا: إن البوارج البرية المتوفرة في المعركة كانت قليلة إلى حد بعيد علاوة على أن تلك الدبابات لم تكن الاختبارات الكافية قد أجريت عليها بعد حيث فشلت وثبت ضعف أدائها إلى حد كبير أثناء فترة الاختبارات، وثبت عمليًا أنه لا يمكن الاعتماد عليها حيث كانت تزن ثمانية وعشرين طنًا، وتتحرك ببطء السلحفاة بسرعة نصف ميل في الساعة، ولكنها كانت مضادة لنيران الأسلحة الصغيرة وبدرجة أقل غير منفذة لنيران الرشاشات،

وكانت شرائح المعدن تتقافز بداخل الدبابة مما جعل صانعيها يزودون قادتها بخوذة ثقيلة نادرًا ما كانوا يلبسونها غير أن نيران المدفعية كان يمكنها أن تدمر الدبابة وهذا ما كان يحدث في المعركة، وكانت قيادتها عسيرة ونظام الرؤية بها ضعيف جدًا مما كان يؤدي أحيانًا إلى أن تقوم الدبابة بتوجيه نيرانها إلى القوات البريطانية بدلاً من الألمانية، ولم تكن الاتصالات اللاسلكية قد أتيحت بعد حتى وقت متأخر من الحرب، ولذا كان يستعاض عنها بالحمام الزاجل، وكما حدث في هجوم سابق في الأول من يوليو والذي عرف باسم معركة "ألبرت" وفي معركة "بازانتين" في الرابع عشر من يوليو كان "هيج" يأمل في فتح ثغرة خلال الدفاعات الألمانية مما يقلب الحرب إلى حرب متحركة وليس حرب خنادق، وكان الهجوم على جبهة بطول 12كيلومترًا، وتم استخدام اثنتي عشرة فرقة في الهجوم، وسبق الهجوم بالطبع تمهيد مدفعي، ولكن نيران المدفعية في تلك المرة كانت تتعمد ألا تقصف بعض المناطق لتستخدمها الدبابات كممرات تسير عليها عند تقدمها، وبدأت كل قوة الدبابات التي كان البريطانيون يمتلكونها وعددها تسع وأربعون دبابة من طراز "ماركة 1" في التحرك إلى مواقعها وتعطل سبع عشرة منها بينما عندما وصلت الدبابات الباقية إلى مواقعها فشلت سبعة منها في التحرك عند ساعة الصفر، وبذلك كان عدد الدبابات التي تتحرك في الميدان سبع عشرة دبابة فقط أخذت تشق طريقها ببطء شديد في المنطقة الحرام بين القوات، وبالرغم من كل ذلك فإن إطلاق الدبابات كان له آثار تدميرية على معنويات القوات الألمانية، ولكن بسبب تشتيتها على جبهة طويلة وعدم تركيزها فقد تقلص أثرها وفاعليتها إلى الحد الأدنى، ومن الناحية الأخرى كان رد فعل القيادة الألمانية أنه يمكن تدميرها، ولا يجدر بهم أن يقلدوا الفكرة وعلى الرغم من ذلك نجحت قوات الحملة البريطانية والقوات الكندية في احتلال شريحة عرضها اثنان كيلومتر وذلك خلال الثلاثة أيام الأولى، وكان ذلك شيئًا غير عادي بمعايير تلك الفترة، وفي معركة السوم على وجه الخصوص

آخذين في الاعتبار ظروف القتال الغير مريحة في حروب الخنادق، وبالرغم من نجاح القوات البريطانية والكندية والنيوزيلندية في تحقيق مكاسب ملموسة في ذلك اليوم إلا أنه لم يبد أن هناك فرصة قريبة لتحقيق ثغرة وظلت، جبهة السوم جبهة استنزاف علاوة على أن الألمان لم يتوقفوا عن إرسال تعزيزاتهم، وزاد من سوء الظروف أن هطلت الأمطار وخلقت ظروفا شنيعة جعلت المشاة بين خيارين لا ثالث لهما إما أن يعيشوا ويقاتلوا وإما أن يموتوا، وكان من ضمن الأهداف التي تم الاستيلاء عليها في تلك المرحلة الغابة العليا والخط التبادلي تلك الأهداف التي كان البريطانيون يحاربون من أجلها طيلة الشهرين الماضيين من المعركة، وعلى جناح اليمين تمكن الفيلق الكندي من الاستيلاء على "كورسيليت"، بينما في الوسط تم الاستيلاء على قرى "مارتنبويش" و"فلير" وكان ذلك بسبب التأثير الذي أحدثه استخدام الدبابة، ولكن كان ذلك أقل من الأهداف التي كانت معينة أساسًا مثل المواقع الألمانية في "جودكور" و"ليبوف"، وعلى اليمين نجح التحصين الألماني المعروف باسم "كوادريلاتيرال" في إيقاف تقدم البريطانيين قليلاً قبل "مورفال"، كل تلك الظروف مجتمعة أدت إلى وقف الهجوم البريطاني وتثبيته تمامًا في السابع عشر من سبتمبر، وعانى البريطانيون من خسائر ثقيلة هذه المرة وكان من ضمن القتلى "ريموند اسكويث" ابن رئيس الوزراء البريطاني، وتم وقف الهجوم في الثاني والعشرين من سبتمبر، ولم يؤد استخدام الدبابات إلى فتح أية ثغرات أو إلى إحراز أية نتائج ذات قيمة إلا أن "هيج" قد أصبح مهووسا بها لدرجة أنه طالب بتصنيع ألف دبابة أخرى، ومن أجل أن يتمكن الجيش البريطاني من الاستيلاء على الأهداف التي قد أسند إليه احتلالها قام الجيش الرابع البريطاني بشن الهجوم المعروف باسم معركة "مورفال" في الخامس والعشرين من سبتمبر، وحملت الأسابيع التي بدأت من منتصف يوليو إلى منتصف ديسمبر معها تغيرًا تكتيكيًا طرأ على جبهة السوم فغيرت شكل العمليات من عمليات دفاع ثابت إلى عمليات حرب شبه

مفتوحة، كان الألمان يحتلون فيها أثناء القتال خطوطًا غير منتظمة من الخنادق التي تتكون بسبب الحفر والفوهات التي تنتج عن القصف المدفعي للحلفاء بخلاف الخنادق المنتظمة، وبعد أن حل "هندنبورج" و"لودندورف" محل "فالكنهايم" في أواخر أغسطس كان هناك ميل نحو الدفاع المرن في العمق حيث كانت المواقع الأمامية يحتلها عدد أقل كثافة من الجنود، ومن ناحية أخرى كان البريطانيون وبشكل متكرر يستخدمون المدفعية لتغطية تقدم المشاة، وأصبح الآن إلزاميًّا على المشاة البريطانية أن تنوع من تكتيكاتها، وأن يتخلوا بشكل تدريجي عن تشكيل التقدم في صفوف العتيق، والتركيز على توظيف جماعات صغيرة تعمل معًا وتقوم بدعم نفسها نيرانيًا بأسلحتها بطريقة المفارز المغيرة أو جماعات الاقتحام التي كان الألمان قد بدأوا يميلون إليها بشكل كبير، وكانت سرايا وفصائل المشاة البريطانية تحتاج إلى قوة نيرانية متكاملة معها لتجعلها أكثر اعتمادًا على نفسها وقادرة على الاقتحام والتسلل إلى النقط الحصينة بدلاً من الهجوم الثابت من الأمام، ومن الناحية الأخرى ظل المدفعيون البريطانيون يعملون بعقيدة القصف المدفعي الثقيل الممتد وإدارة النيران بشكل مركزي، وفي الحقيقة كان ذلك لا يجدي في الهجوم على القوات المتناثرة أو مواقع الألمان القليلة الكثافة، ولم يكن بالطبع كل قادة الفرق البريطانية وأركانهم يستطيعون استيعاب تلك التطورات، حيث كانوا يهتمون أكثر بالقيام بجعل خطوطهم مستقيمة لتأمين عمليات الخروج من الخنادق للقيام بالهجوم على النظام الدفاعي الألماني، وواجه "هيج" انتقادات متزايدة من سياسيي حكومته الذين أحسوا أن التقدم المحدود الذي تم إحرازه حتى الآن لا يبرر الخسائر الكبيرة التي منيت بها بريطانيا، وكانوا يضغطون عليه من أجل تحقيق نتائج ملموسة من هجومه المزمع القيام به في منتصف سبتمبر، وكان "هيج" يشعر بالتفاؤل من تقارير رئيس شعبة استخباراته البريجادير جنرال "تشارتريس" والتي كان مفادها أن الألمان قاربوا على الوصول إلى حالة الإعياء، وشعر بأنه قد يتمكن من فتح ثغرة

على المدى القريب وخصوصًا وأن هجومه الوشيك كبير الحجم على الخط الثالث الألماني سيصحبه استخدام السلاح الجديد الدبابة، وقد حذر الكولونيل "سوينتون" من استخدام الدبابات بأعداد قليلة، ولكن "هيج" كان حريصًا على استخدامها للتعامل مع النقاط الحصينة المتفرقة والقرى المحصنة والتي كان بإمكانها لو لم يستخدم الدبابات أن توقف تقدم قوات المشاة، وقام هو و"رولينسون" بنشرها بطول خط القتال بدلاً من تركيزها والقتال بها مجتمعة في نقطة واحدة، وكان "هيج" يأمل في تحقيق الثغرة عن طريق استخدام المشاة الجدد والمدفعية، حيث كانت بطاريات المدفعية موزعة بشكل كثيف إذ كان عدد قطع المدفعية المستخدمة في ذلك اليوم ضعف العدد الذي قام بالتمهيد النيراني في اليوم الأول للمعركة، وعلى جبهة أقل من تلك التي دارت فيها معركة الرابع عشر من يوليو، وكقائد الجيش الرابع الذي كان له الدور الأساسي اقترح "رولينسون" أن يتم الهجوم على مراحل في ثلاث ليال متتابعة، ولكن رأي "هيج" هو الذي تغلب في النهاية، حيث أراد هجومًا قويًا يتم بلا توقف، ولم يكن "رولينسون" في موقف يتيح له الجدال بعد هزائم الجيش الرابع الذي يقوده في أغسطس، وكان هدف الهجوم الذي بدأ في الخامس عشر من أغسطس هو الاستيلاء على خطوط الدفاعات الألمانية الثالثة عند "فلير" ويتبعها "مورفال" و"ليبوف" و"جودكور"، وصدر الأمر إلى الفيلق الكندي وهو جزء من الجيش الاحتياطي على يسار "رولينسون" بالاستيلاء على "كورسيليت"، وأسندت مهمة دعم المشاة صبيحة الهجوم إلى عدد تسع وأربعين دبابة هي كل ما كان بحوزة البريطانيين من دبابات، ولم تصل منها إلى خط الهجوم سوى ست وثلاثين دبابة، وسبب التمهيد المدفعي بعض الخسائر في صفوف الألمان، وكذلك نبههم إلى احتمال بدء الهجوم ووصلت أربع دبابات إلى "فلير" بين قطاع الفرقة الحادية والأربعين البريطانية والقوات المدافعة الألمانية، وتقدمت إحداها على الشارع الرئيسي للقرية بينما اشتبكت الثلاث دبابات الأخرى مع مواقع الرشاشات

الألمانية والنقاط الحصينة على الأطراف الغربية والشرقية للقرية واستولى الفيلق الرابع عشر على "فلير" بينما تمكن الفيلق الكندي من احتلال "كورسيليت"، وتم تأمين "مارتنبويش" والغابة العليا، وبشكل إجمالي وبالرغم من أن التقدم في الخامس عشر من سبتمبر ظل محدودًا بمسافة حوالي 2500 ياردة على جبهة بعرض أقل من ثلاثة أميال إلا أن "مورفال" و"ليبوف" صمدتا لعشر أيام أخرى، ولم تسقط كل من "كومبل" و"جودكور" حتى السادس والعشرين من سبتمبر، ومرة أخرى توقف التقدم البريطاني وبدا احتمال تحقيق تلك الثغرة بعيد المنال كما كان دائمًا.

تقييم المعركة

كان المؤرخون والمعلقون العسكريون دائمًا ما ينتقدون "هيج" لاستخدامه الدبابات مبكرًا قبل أوانها في "فلير" و"كورسيليت" في الخامس عشر من سبتمبر، وكذلك بسبب نشرها على شكل خط مستقيم بطول جبهة المعركة بدلاً من تركيزها في تشكيل واحد، الأمر الذي أفقدها أثرها التكتيكي، بينما يقول البعض إن تلك الدعاوى غير صحيحة، فلو كان السلاح الجديد قد تم تأجيل استخدامه فربما لم يكن ليثبت نجاحه بأكثر مما حدث في المعركة، وكان الجيل الأول من الدبابات البريطانية ماركة1 التي تم استخدامها في المعركة بطيئة الحركة جدًا، ولا يمكن الاعتماد عليها، ولربما كان من الخطأ استخدامها على نطاق واسع قبل أن يتم التأكد تمامًا من مزاياها وعيوبها في الميدان وفي ظروف القتال، ويعذر البعض "هيج" في قراره باستخدام الدبابات حيث كان يتخيل أنه لن يكون في الإمكان استخدامها في المستقبل القريب، وكان هو كما أسلفنا متحمسًا جدًا لاستخدامها، وربما كان النقد الذي وجه إلى "هيج" لإطالة الهجوم البريطاني على السوم إلى ما بعد منتصف سبتمبر مبررًا أكثر،

ويبدو أن ما حفز إصراره هو الاعتقاد الجازم بأن الجيش الألماني كان لابد وأن ينهار بشرط ألا يتوقف الحلفاء عن هجماتهم، وأن يواصلوا الضغط عليهم بشكل مستمر، وفي الأسبوع الأخير من سبتمبر بينما كان الجيش الرابع يقوم بالهجوم باتجاه "مورفال" و"ليبوف" و"جودكور" و"كومبل" قام الجيش الاحتياطي بقيادة "جو" بالقيام بأكبر عملياته حتى ذلك الوقت وهي معركة "تيبفال".

معركة تيبفال

تقع قرية تيبفال Thiepval على نتوء يسيطر على وادي أنكر Ancre على بعد سبعة كيلومترات إلى الشمال من "ألبرت" وعلى بعد حوالي اثنين وثلاثين كيلومترًا من "أميين"، وتعتبر معركة "تيبفال" هي أكبر هجوم كبير يشنه الجيش الاحتياطي البريطاني بقيادة الليوتنانت جنرال "هوبرت جو"، وذلك أثناء معركة السوم، وكان ذلك الهجوم قد تقرر شنه بحيث يتزامن مع الهجوم الذي يشنه الجيش الرابع البريطاني في "مورفال"، وكانت جبهة الهجوم تمتد من حصن "شفابن" إلى "كورسليت"، وبدأ الهجوم في السادس والعشرين من سبتمبر في الساعة الثانية عشرة وخمسة وثلاثين دقيقة بعد ثلاثة أيام من القصف المدفعي المكثف، بهجوم أربعة فرق اقتحام على جبهة بطول ستمائة ياردة، وعلى أقصى اليمين كانت الفرقتان الثانية والأولى الكنديتان، ومهد لهما الطريق قصف مدفعي قبل أن تحتلا أهدافهما المقررة إلى الشمال من "كورسيليه"، واندفعت الفرقة الحادية عشرة التي انضمت إلى هاتين الفرقتين مهاجمة باتجاه الشمال من خلال أنقاض ما كان يعرف باسم مزرعة "موكيه"، ولكن تلك الفرقة عانت من جراء محاولتها التغلب على من تبقى من المدافعين الألمان الذين كانوا يقاتلون باستماتة، وكان استسلام تلك الحامية المنهكة في النهاية هو

الذي سمح للفرقة الحادية عشرة بالتحرك باتجاه حصن "تسولرن"، ولكن الخسائر الفادحة التي عانتها الفرقة عطلت نوعًا من تقدمها وتسببت في إبطائه، وفي الليل توقف المهاجمون عند الحصن وكان ذلك الحصن قد تمت مهاجمته بلا أي نجاح في أغسطس وسبتمبر بواسطة فرق من أستراليا ثم كندا فيما بعد، وقد لاقت الفرقة الثامنة عشرة نجاحًا مبكرًا في تقدمها التدريجي على التل في "تيبفال"، ولكن الألمان استماتوا في المقاومة، وتوقف الاندفاع عبر القرية بسبب نيران الرشاشات قرب القلعة وتدخلت دبابة واحدة في المعركة، وفي حوالي الساعة الثانية والنصف وبعد اشتباكات عنيفة وجهًا لوجه تم تأمين جزء كبير من "تيبفال"، وتم تطهيرها في الصباح الباكر بشكل كامل، وخلال فترة الظهيرة وعقب إخلاء حصن "تسولرن" اجتاحت الفرقة الحادية عشرة حصن "شتوف" وتمكنت من الاحتفاظ بحافته الجنوبية بشكل حذر، وفي اليوم التالي تمكنت الفرقة الثامنة عشرة بقيادة الميجور جنرال ماكس Maxse من الاستيلاء على القلعة الألمانية في تيبفال، وكانت قرية "تيبفال" هدفًا في الأول من يونيو، وكانت دائمًا ما تقف أمام المحاولات البريطانية المتكررة للاستيلاء عليها، وكانت الفرقة الثامنة عشرة قد قامت بأداء جيد في مونتوبان Montauban في الأول من يوليو، يحفزها قائدها الميجور جنرال ماكس، وكانت فرقته قادرة على الهجوم مباشرة بطول سلسلة المرتفعات من الجنوب؛ لأن الموقع الألماني في غرب تيبفال كان قد ضعف نتيجة للهجوم على مزرعة موكيه، وختمت العمليات البريطانية الناجحة نوعًا في الثامن والعشرين من سبتمبر بالاستيلاء على حصن شفابن Schwaben إلى الشمال من تيبفال، وهو أحد أهداف اليوم الأول، وكان مسرحًا للقتال الشرس الذي دار بين الفرقة ستة وثلاثين وبين القوات الألمانية، وكان الجنرال جو Gough حريصًا على استمرار الضغط على الدفاعات الألمانية، ونتيجة لذلك دخل القتال في مرحلة استنزاف فيما يعرف باسم معركة مرتفعات أنكر Ancre،

وفي أكتوبر تقدمت الفرقة الرابعة الكندية تقدمًا ملحوظًا إلى الشمال الشرقي من تيبفال، ولم يتم إخراج آخر المدافعين الألمان من حصن شفابن Schwaben قبل الرابع عشر من أكتوبر، وكان الفيلق الكندي ما يزال يقاتل من أجل أجزاء من خندق رجينا Regina حتى أواخر الأسبوع الثاني من نوفمبر، وكانت معركة أنكر هي آخر المعارك الصغيرة التي دارت على جبهة السوم، وبدأ القتال فيها بهجوم شنه الجيش الخامس البريطاني في الثالث عشر من نوفمبر والذي كان يعرف في السابق باسم قوات الاحتياط بقيادة الليوتنانت الجنرال هوبرت جو، وكان هدف القتال سياسيًّا بقدر ما كان عسكريًّا فقد كان على قادة جيوش الحلفاء أن يلتقوا في مؤتمر يتم عقده في شانتيلي Chantilly في الخامس عشر من نوفمبر، وكان القائد العام البريطاني الجنرال سير دوجلاس هيج يرغب في أن يذهب إلى ذلك المؤتمر ومعه تقرير عن تقدم تحققه القوات البريطانية في السوم؛ ليعرضه على نظرائه الفرنسيين وخطط جو لهجوم على جانبي نهر أنكر وهو رافد من روافد نهر السوم والذي كان يجري خلال القطاع الشمالي لميدان القتال، وإلى الجنوب من أنكر كانت تقع قرية تيبفال التي تم الاستيلاء عليها كما سبق القول وسان بيير ديفيون St Pierre Divion والتي كانت ما تزال في أيدي الألمان وإلى الشمال من أنكر تقع قرى بومون هامل Beaumont-Hamel وبوكور سور لانكر Beaucourt-sur-l'Ancre، ولم يشهد ذلك القطاع أية عمليات كبرى منذ فتح هجوم السوم في الأول من يوليو، وبحلول شهر نوفمبر كان البريطانيون قد تعلموا الكثير من الدروس عن تخطيط وتجهيز وتنفيذ الهجمات في حروب الخنادق، ومع الدعم المدفعي والدبابات والتغطية بوابل من الرشاشات الآلية تمكنت الفرقة الحادية والخمسون من الاستيلاء على بومون هامل، بينما وعلى يسارهم تقدمت الفرقة البريطانية الثانية بطول سلسلة مرتفعات ريدان Redan، وعلى اليمين هاجمت الفرقة الثالثة والستون

الأراضي المنخفضة بين بوكور Beaucourt، وكانت تلك الفرقة قد وصلت إلى بوكور في اليوم الأول، وقامت بتأمين القرية في الرابع عشر من نوفمبر، وإلى الجنوب من أنكر تمكن الفيلق الثاني البريطاني من الاستيلاء على أهدافه بسهولة نسبية، ولم تكن النتائج إيجابية على الجناح الشمالي وكان من المتوقع أن تقوم الفرقتان الثالثة والحادية والثلاثون بتشكيل جناح دفاعي والاستيلاء على قرية سير Serre ولكن هجومهم فشل، وبالنسبة لفشل الفرقة الثالثة كان الوضع كما لو كان التاريخ القريب يعيد نفسه، فمثلما حدث في اليوم الأول في السوم حدث في ذلك الهجوم حرفيًّا وفي تلك النقطة كان يمكن اعتبار معركة أنكر ناجحة للبريطانيين، وكان هيج راضيًا عن النتيجة إلا أن جو كان حريصًا كما كان دائمًا على استمرار الهجوم إلى الأمام، وفي الثامن عشر من نوفمبر كان مقررًا أن يقوم الفيلق الثاني بالاندفاع باتجاه قرية جرانكور Grandcourt والنهر، وإلى الشمال من النهر كان على الفيلق الخامس أن يقوم بتأمين باقي سلسلة مرتفعات ريدان Redan، ولم ينجح أي من الهجومين، وعندما أوقف جو الهجوم في أنكر كانت معركة السوم قد توقفت، وفي القطاع الجنوبي كان الجيش الرابع البريطاني قد أنهى عملياته في السادس عشر من نوفمبر، وفي القطاع الفرنسي كانت آخر عملية قد تمت بين الرابع عشر والخامس عشر من نوفمبر في غابة سان بيير فاستSt Pierre Vaast، وكان على الطرفين المتحاربين الآن أن يدافعا ضد الشتاء عدوهما المشترك وتوقف القتال.

نتائج المعركة

من الصعب اعتبار معركة السوم نصرًا للحلفاء فلم يحقق الحلفاء هدفهم المأمول بفتح ثغرة يتقدمون عبرها لمواصلة التقدم على الخطوط الألمانية، وكان أعمق تقدم لهم على الأرض هو ثمان كيلومترات تقريبًا،

وفي بعض المواقع تقدم البريطانيون لمسافة حوالي ميلين وفقدوا من جراء ذلك ما يزيد على أربعمائة ألف جندي، كما خسر الفرنسيون مائتي ألف قتيل في ميدان المعركة، وفي الواقع كانت المعركة كارثية على الجيش البريطاني فقد فقدت بريطانيا جيلاً كاملاً من شبابها في ستة أشهر، ولا يقتصر الأمر على شباب بريطانيا وحلفائها من الأستراليين والأيرلنديين والكنديين والنيوزيلنديين، بل تعدى هؤلاء إلى المغاربة والجزائريين والأفارقة الذين سيقوا قسرًا من بلادهم للزج بهم في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وتقول الأرقام البريطانية أن الألمان خسروا في تلك المعركة ما يقرب من الستمائة ألف جندي، أي ما يزيد عن نصف مليون في حين أن تقديرات القيادة العامة الألمانية لخسائر ألمانيا هي تقريبًا أربعمائة وخمسون ألف قتيل، وبالرغم من تلك الخسائر الكبيرة لا يمكن القول بأن هدف هيج من استنزاف الجيش الألماني قد تحقق، ولكن المعركة أدت إلى إضعاف كبير للقوات المتحاربة من الجانبين، وبالرغم من أن الألمان تراجعوا عدة كيلومترات إلى الخلف، ومع ذلك فلم تتمكن قوات الحلفاء من استغلال مساحة الأرض الصغيرة التي اقتنصتها من أيدي الألمان كنقطة انطلاق لهم في هجمات مستقبلية، وفي بداية عام1917 انسحبت القوات الألمانية إلى خط كامبري وسان كانتان St. Quentin – Cambrai إلى تحصين سيجفريد Siegfriedstellung المبني جيدًا، ولكنهم قبل أن يتركوا المنطقة قاموا بنشر الألغام بها، ويمكن النظر إلى تقهقر الألمان من تلك المنطقة على أنه تكليل لجهود الحلفاء في معارك دامية دامت حوالي ستة أشهر، كما أنه من ضمن المكاسب التي حققتها هجمات الحلفاء في السوم أن الألمان قد التزموا طيلة النصف الأخير تقريبًا من عام1916 على الجبهة الغربية جانب الدفاع، وفي المقابل استطاعت هجمات دول المحور في أواخر الصيف وحتى نهاية العام من الاستيلاء على جزء كبير من أراضي رومانيا التي كانت قد دخلت الحرب حديثًا إلى جانب الحلفاء، مما أدى إلى

إضعاف روسيا حيث تدخلت هي الأخرى على الجبهة الرومانية، حيث شنت القوات الألمانية هناك هجمات ناجحة بقيادة فالكنهاين Falkenhayn وماكنزن Mackensen أدت إلى احتلال الألمان للعاصمة الرومانية في نهاية الأمر بالرغم من دفاع الجيش الروماني وأسر الألمان ثلاثمائة وخمسين ألفاً من القوات الرومانية، وأصبحت معظم الأراضي الرومانية تحت سيطرة الألمان مما حدا بالروس إلى الدفع بعض فرق إلى الحدود خوفاً من اجتياح الألمان لشرق روسيا، وفي مقابل ذلك النصر الألماني نفذ الحلفاء المزيد من الهجمات في عام1917 على الجبهة الغربية إلا أن الألمان وبناء على خبراتهم السابقة في التعامل مع هجمات الحلفاء في السوم نجحوا في تجاوز تلك الهجمات، حيث كانوا يحتلون خنادقهم الأمامية بأقل عدد من الجنود وعند الهجوم يقومون بالتخلي عن قطاعات صغيرة من خطوط الخنادق بسرعة ليجتذبوا القوات المهاجمة إلى عمق منظومة الخنادق، ثم يتبع ذلك هجوم مضاد تشنه فرق الاحتياط الألمانية، ونتج عن تلك التكتيكات الجديدة هزيمة الفرنسيين القاسية في معركة أيين Aisne، ويعتبر يوم الأول من يوليو هو أسوأ يوم في تاريخ الجيش البريطاني على الإطلاق، ويعتبره الأيرلنديون الشماليون يوم الأضحية حيث خسروا فيه أكثر من نصف فرقة أولستر Ulster الأيرلندية، ويلخص المؤرخ العسكري البريطاني معارك الحرب العالمية الأولى فيقول:

"ليست سوى مذابح جماعية غبية متبادلة".

علاوة على ذلك كانت التأثيرات الإستراتيجية والتكتيكية لمعركة السوم ثورية، فلم تكن المعركة شراً كلها بل ساهمت المعارك التي دارت على جبهة السوم في دفع عجلة العلوم العسكرية إلى الأمام، حيث تعلمت الجيوش الحديثة خطأ تكتيكات المشاة القديمة، وتحسنت نوعية الذخائر إلى غير ذلك من الدروس التكتيكية المهمة التي استفادها الحلفاء من تلك

المعركة.

خط هندنبورج

كان خط هندنبورج خطًّا دفاعيًّا ألمانيًّا في شمال شرق فرنسا، واستغرق بناؤه فترة الشتاء من عام1916 إلى عام1917 وكان يمتد لمسافة مائة وخمسين كيلومترًا من مدينة آراس إلى نهر الآين، وكان هندنبورج ولودندورف هما من فكر في إنشاء هذا الخط، وكان الخط مبنيًّا عبر نتوء في الجبهة الألمانية، ولذلك فإن القوات الألمانية بتمركزها في الخط تكون قد قصرت من طول جبهتها، وكان طول الجبهة قد قل بمسافة خمسين كيلومترًا، وبدأت القوات الألمانية تتمركز فيه في فبراير من عام1917، وفيما يخص الأرض الواقعة بين الخطوط الألمانية القديمة وخط هندنبورج، فقد اتبعت فيها القوات الألمانية سياسة الأرض المحروقة، حيث قاموا بتدمير كل ما يمكن للحلفاء استخدامه أو الإفادة منه، وكان الخط يتكون من دشم من الأسمنت المسلح ومواقع لمدافع الماكينة ونطاقات كثيفة من الأسلاك الشائكة، وأنفاق مواصلات لتحريك القوات وخنادق عميقة ومواقع قيادة وسيطرة، وعلى بعد كيلومتر واحد من التحصينات خط ملاحظة تشغله قوات قليلة الكثافة والتي كان دورها ينحصر في مناوشة أية قوات مهاجمة وتعطيل تقدمها، وكان الخط ينقسم إلى خمس نقاط حصينة متصلة ببعضها البعض من الشمال إلى الجنوب، وكان أشهرها وأقواها تحصين سيجفريد.

معركة كامبري

شهدت معركة كامبري والتي وقعت في الفترة م بين العشرين من نوفمبر إلى الثالث من ديسمبر من عام1917 أول استعمال ناجح للدبابات

في عملية مشتركة بين أفرع القوات المختلفة، وأظهر استخدام الـدبابات أن خـط هنـدنبورج Hindenburg Line الألـماني يمكـن اختراقـه، بينـما أظهـر الهجوم الألماني المضاد فائدة تكتيكات المشاة الجديدة، ويقول ليـدل هـارت Liddell Hart معلقًا على هذه المعركة: إنها واحدة من العلامات في التـاريخ العسكري وفجر عصـر جديـد، وتقـع مدينـة كـامبري الفرنسـية في شمـال منطقة بادو كاليه Pas-de-Calais، وكانت تلك المدينـة في عـام1917 نقطـة الإمداد الرئيسـية لتحصـين سـيجفريد Siegfried Stellung وهـو جـزء مـن تحصينات خط هندنبورج، وكان الاستيلاء على سلسلة مرتفعات بورلـون Bourlon مكسبًا مهما للحلفاء وكذلك مؤخرة القوات الألمانية في الشمال.

خطة الهجوم

قدم اقتراح الهجوم بالدبابات أصلاً مـن الميجـور جنـرال تشـارلز فـولر J.F.C. Fuller وذلـك في شـهر يونيـو1917، ووافـق قائـد الجـيش الثالـث دوجلاس هيج على الخطة في سبتمبر من نفس العام، وبعد فشـل آخـر في منطقة آيبر تم اختيار منطقة السوم لعدة أسباب أحدها خـاص بالـدبابات، ذلك لأن طبيعة أرضها الكلسية أفضل كـثيرا مـن التربـة الطينيـة الموحلـة التي تكسو جبهة الفلاندرز في ذلك الوقت، ويقول ليدل هارت: إن الهدف الأساسي لخطة فولر لم يكن قائمًـا علـى احـتلال أرض بـل كـان تـدمير الدفاعات وتحطيم معنويات الألمان وإشاعة الفوضـى في صـفوفهم، علـى أن يستغرق ذلك من ثمان إلى اثنتي عشرة ساعة باستخدام تسـع كتائـب مـن الدبابات وثلاث فرق مشاة أو خيالة على الأكثر، وقد نقـل قائـد الهجـوم هذه الفكرة إلى هيج ولكنها توقفـت بسـبب التركيـز علـى معركـة آيـبر، وكانت الخطة معقدة نوعًا ولكنها تعتمد بشكل بسيط على اختراق الخـط الألماني بهجوم مركز عبر جبهة ضيقة حوالي تسعة كيلـومترات بـين قنـاة

الشمال وقناة سان كانتان St. Quentin، ثم يتم تطويـق كـامبري واحـتلال مرتفعات بورلـون، وتم اسـتخدام تكتيكـات تم تطويرهـا حـديثًا في ذلـك الوقت، ومنها الاعتراض الجوي وتشكيلات مختلطة مـن المشـاة والـدبابات، وكذلك تم استخدام الخيالة في الخطـة وأوكلـت مهمـة الهجـوم لفـرق مـن الجيش الرابع البريطاني ومنها عشرة على الأقل كانت ما تزال تتعافى مـن المذبحة التي تعرضت لها في معركة آيبر الثالثة، وكان قائـد الهجـوم الفيلـد مارشال جوليان بينج Julian Byng أكثر تفاؤلاً باحتمـالات النجـاح مـن هيج، وعلى الجانب الآخر كانـت القـوات الألمانيـة المدافعـة تتبـع الجـيش الثاني الألماني بقيادة الجنرال جـورج فـونْ ديـر مـارفيتس Georg von der Marwitz، وكانت المجموعة المخصصة أصلاً هي Gruppe Caudry والمعروفـة باسم الفيلق الثالث عشر تتكون أساسًا من الفرقة العشرين والفرقة الرابعة والخمسين والفرقة التاسعة احتياط إضافة إلى الفرقة183، وكان علـى فـرق الفيلقين الثالث والرابع البريطانيين أن تقـود الهجـوم، وكـان علـى الفيلـق الثالث أن يهجم باتجاه الجنوب (يمين) بين كريفكـور Crèvecoeur وبونـافي Bonavis، وكـان علـى فـرق الخيالـة أن تنتظـر إقامـة رأس الجسـر حـول ماركوان Marcoing ومازنيير Masnières لاستغلاله في التقدم، بينمـا كـان الفيلـق الرابـع يتقـدم باتجـاه الشـمال (يسـار) ويقـوم بالاسـتيلاء علـى هافرينكـور Havrincourt وفليسـكيير Flesquières وجرينكـور Graincourt وكانتان Cantaing، وذلك ليسمح لفرق الاحتياط والخيالة بالاستيلاء على مرتفعات بورلون، وأسندت إلى الفيلق الخامس مهمة اسـتغلال النجاحـات التي حققتها القوات السابق الإشارة إليها في السـيطرة علـى الأرض حتـى نهر سانسيه Sensée وتأمين العبور وألقى بكامل قوة فيلق الدبابات الذي تم إنشاؤه حديثًا في المعركة، وكان عدد الدبابات ثلاثمائـة وخمسـون دبابـة من طراز ماركة4 لاستغلالها في أول يوم مـن أيـام المعركـة، وكـان مجمـوع الدبابات التي استخدمت طوال أيام المعركة هـو أربعمائـة وسـتة وسـبعون

دبابة، وعند فتح الهجوم الأول هجم البريطانيون بمائتين وستة عشر دبابة واحتفظوا بستة وتسعين أخرى كاحتياطي، وتم تزويد عدد قليل من الدبابات بكباري خشبية ضخمة من جذوع الأشجار للمساعدة في عبور الخنادق، وكلابات خاصة للمساعدة في إزالة الأسلاك الشائكة، وكان التقدم الأول بتشكيل مختلط من الدبابات والمشاة بحيث تتقدم الدبابات أولاً وخلفها وعلى بعد خمسين ياردة تتقدم فصائل المشاة في صفين، وكانت كل دبابة تحمي ثمان فصائل مشاة، ومهمتها تطهير الخندق، وشارك في المعركة أيضًا أربعة عشر سربًا جويًا بريطانيًّا لرشق الخنادق بالقنابل وللتغطية على الضجة التي ستنشأ عن تقدم الدبابات.

المعركة

بدأت المعركة في الساعة السادسة وعشرين دقيقة صباحًا في العشرين من نوفمبر حيث فتح ألف وثلاثة مدفع بريطاني النار على الدفاعات الألمانية الرئيسية، وعلى عكس الهجمات السابقة التي قام بها الحلفاء لم يكن التمهيد المدفعي طويلاً في مدته -كما رأينا في معركة السوم مثلاً- بل توقف بعد فترة ليست بالكبيرة، ثم تبع القصف المدفعي إطلاق قذائف الدخان لمنع الألمان من القيام باستطلاع جوي ولحرمانهم من رؤية ميدان المعركة، وستر تقدم الدبابات والمشاة، ثم تمهيد مدفعي قصير لتغطية تقدم التشكيلات المهاجمة، وبالرغم من جهود البريطانيين للاحتفاظ بسرية العملية أثناء مراحل التجهيز إلا أن الاستخبارات الألمانية تمكنت من الحصول على بعض المعلومات الخاصة بالهجوم وإنذار بعض القطاعات التي ستتعرض للهجوم مثل قطاع هافرينكور الذي كان على أهبة الاستعداد عندما بدأ الهجوم، وكذلك علم الألمان مسبقًا بأن الحلفاء سيستخدمون الدبابات في تلك المعركة وبداية كان هناك نجاح كبير في

معظم المناطق، وبدا للبريطانيين كما لو كانوا على وشك تحقيق نصر كبير إذ أن الألمان أصيبوا بالذهول في بعض القطاعات، وتمكنت الدبابات من عبورها بيسر وبدون أي مقاومة، وتم اختراق خط هندنبورج بنجاح لمسافة ثمان كيلومترات وفقًا للأرقام البريطانية وما يزيد قليلاً على ستة كيلومترات وفقًا للأرقام الألمانية، وعلى اليمين كانت الفرقة الثانية عشرة قد تقدمت بعمق غابة لاتو Lateau قبل أن يصدر لها الأمر بالتخندق، وشقت الفرقة العشرين الخفيفة طريقها عبر لافاكري La Vacquerie، ثم تقدمت لتستولي على الجسر الرئيسي عبر قناة سان كانتان عند مازنيير، ويرجح أغلب المؤرخين العسكريين أن الجسر تم تدميره حيث قام الألمان على الأرجح بتفجيره، بينما يقول البعض الآخر إن الجسر قد انهار تحت وطأة وزن الدبابات التي حاولت اجتيازه، وقضى تدمير ذلك الجسر على أي أمل للبريطانيين في استمرار التقدم في تلك الناحية، وفي الوسط تمكن البريطانيون من الاستيلاء ريبكورت Ribécourt وماركوان Marcoing، وبعد ذلك بفترة عندما حاولت الخيالة العبور واجهت نيرانًا شديدة وأجبرت على التراجع إلى الخلف من نوايل Noyelles، وفي الوسط توقفت الفرقة الحادية والخمسين عند أهدافها الأولى في فليسكيير، وكان التقدم حول اليسار منها قد أصبح معرضا لنيران الألمان، ويعتقد أن قائد تلك الفرقة قام باستخدام الدبابات بطريقة تقليدية مما أنشأ فراغًا زائدًا بين الدبابات والمشاة مما أدى بالتالي إلى فشل الهجوم في تلك المنطقة علاوة على أن فليسكيير كانت من أقوى النقاط في الخط الألماني، وكانت تجاورها نقاط أخرى قوية، وتمكن الألمان في تلك المنطقة بقيادة الميجور كريبس Krebs من الدفاع بشكل جيد ضد الدبابات وكانوا يشتبكون مع الدبابات بشراسة، وأدت شراسة الدفاع الألماني إلى تدمير أربعين دبابة دمرتها مدفعية مواقع فليسكيير، ومما يذكر أن الألمان قاتلوا بشجاعة في هذه المعركة حتى أن مدفعًا ألمانيًا واحدًا كان يقوم على تشغيله جندي

واحد نجح وحده في تدمير ست عشرة دبابة من بين الدبابات الأربعين التي تم تدميرها في هذا القطاع إلا انه وبالرغم من شجاعة الألمان تلك فقد أرغموا في نهاية الأمر عن التخلي عن فليسكيير ليلاً، وعلى اليسار اكتسحت الفرقة الثانية والستون طريقها عبر هافرينكور وجرينكور إلى أن وصلت إلى الغابة عند مرتفعات بورلون ووصلت الفرقة الثالثة والستون على يسارها إلى طريق بابوم - كامبرى Bapaume-Cambrai، ونتيجة لصدامات اليوم الأول توقفت مائة وثمانون دبابة منهم خمس وستون دبابة تم تدميرها وأعطبت واحدة وسبعون دبابة أخرى بأعطال ميكانيكية وانحشرت واحدة وأربعون دبابة في الخنادق وخسر البريطانيون أربعة آلاف جندي في اليوم الأول، وفشل البريطانيون في الوصول إلى سلسلة مرتفعات بورلون، وأسرعت القيادة الألمانية وأرسلت التعزيزات ليلاً، وساد الارتياح لأن البريطانيين لم يتمكنوا من استغلال مكاسبهم الأولى، وعندما استؤنف القتال في اليوم التالي الحادي والعشرين من نوفمبر كان إيقاع التقدم البريطاني أبطأ بكثير، وتم الاستيلاء على فليسكيير التي تركها الألمان ثم كانتين Cantaing في الصباح الباكر، ولم يكن البريطانيون يتقدمون بقدر ما كانوا يعززون مكاسبهم التي حققوها في اليوم الأول، وتوقفت جهود الفيلق الثالث رسميًّا وانصرف الاهتمام إلى الفيلق الرابع، ووجهت الجهود إلى احتلال المرتفعات، وكان القتال حول بورلون وأنو Anneux شرسًا قبل الغابة مباشرة، وكان قتالاً مكلفاً فقد نجحت الهجمات المضادة الألمانية في طرد البريطانيين خارج موفر Moeuvres وفونتين Fontaine، وحتى بعد الاستيلاء على أنو وجدت الفرقة الثانية والستون نفسها غير قادرة حتى على دخول غابة بورلون، وكان البريطانيون مكشوفين في نتوء، وكان هيج ما يزال يريد الاستيلاء على مرتفعات بورلون فحلت الفرقة الأربعون بقيادة جون بونسونبي John Ponsonby محل الفرقة الثانية والستين المنهكة في الثالث والعشرين من الشهر، وكان تدعمها مائة دبابة وأربعمائة

وثلاثـون مـدفعًا، وقامـت الفرقـة الأربعـون بـالهجوم في صـباح الثالـث والعشرين ولم يتقدموا تقدمًا يذكر، وكان الألمـان قـد وضـعوا فـرقتين مـن مجموعة أراس Gruppe Arras على المرتفعات، وكان لديهم فرقتان أخريـان احتياط، وتم تعزيـز مجموعـة كـودري Gruppe Caudry بالإضـافة إلى دعـم جوي قدمتـه أسـراب الطـائرات الألمانيـة بقيـادة البـارون الأحمـر نفسـه، ووصلت الفرقة الأربعون البريطانيـة إلى قمـة المرتفعـات ولكـن تم وقفهـا هناك، وتم الدفع بمزيد من القوات البريطانيـة للتحـرك إلى فـونتين ولكـن سرعان ما استنزفت الاحتياطيات البريطانية، بينما كـان الألمـان مسـتمرين في إرسال المزيـد مـن التعزيـزات، وكـان آخـر هجـوم بريطـاني في السـابع والعشرين مستخدمين في ذلك الفرقة الثانية والستين بالإضـافة إلى ثلاثـين دبابة، ونتج عن الهجوم المضاد الألماني أن انقلبت دفة الأمور حيث أصـبح النجاح الآن حليف الألمان بعد المكاسب الأولى الـتي حققهـا البريطـانيون، وكانت القوات البريطانية تحتفظ بنتوء عبارة عـن أحـد عشـر كيلـومترًا في تسـعة كيلـومترات ونصـف وجبهتهـا بطـول قمـة المرتفعـات، وفي الثـامن والعشرين كان الهجوم قد انتهى رسميًّا وصدرت الأوامر للقوات البريطانيـة بوضع الأسلاك الشائكة والتخندق، وسرعان ما ركز الألمان مدفعيتهم على المواقع البريطانية الجديدة، وفي الثامن والعشرين كان الألمان قـد أطلقـوا مـا يزيد على ستة عشر ألف قذيفة على الغابة.

الهجوم المضاد

لم تكن الهجمات قد استؤنفت بشـكل حـازم، ولم يكـن قـد تم نشـر التعزيزات الفرنسية، ولم يكن لدى فيلق الدبابات أيـة احتياطيـات قـادرة على القتال، على حين كانت القوات الألمانية تقوم بتعزيز قواتهـا بشـكل مستمر، وبشكل إجمالي يمكـن اعتبـار الهجـوم البريطـاني هجومًـا فاشـلا

حيث إنهم لم يتمكنوا من تحقيق أهدافهم الطموحة وهي تحقيق الاختراق الكامل لكامبري والاستيلاء عليها، وفي السابع والعشرين من نوفمبر كانت الدبابات التي كان من المقرر أن تجتاح الأرض يتم جرها من الجبهة، وفي نفس اليوم أصدر الجنرال فون لودندورف Erich Ludendorff بالتجهيز لهجوم مضاد، وبعد عشرة أيام من بدء الهجوم البريطاني كانت القوات الألمانية جاهزة للهجوم المضاد والتي نشرت فيها القيادة العليا للجيش الألماني لأول مرة وبشكل موسع قوات إقحام في الجبهة الغربية والتي عهد إليها بالهجوم المضاد بقيادة الجنرال جورج فون دير مارفيتس مع مجموعة آراس وأربع فرق في المواجهة وفرقتين في الخط الثاني، على أن تهجم مجموعتي كودري Caudry وبوزيني Busigny في أوقات مختلفة بثلاث فرق وفرقة احتياط، وتقوم بهجوم تضليلي أصغر، وبعد ذلك تتقدم مجموعتا كودري وبوزيني للقتال في الوسط قبالة ماركوان، وفي الجنوب تفتح الهجوم على بانتو Banteux في الساعة الثامنة وخمسين دقيقة، وتهاجم مجموعة آراس في الشمال عند بورلون في الساعة الحادية عشرة وخمسين دقيقة، ولاقت تلك القوات مقاومة بريطانية عنيفة، وكان على المدفعية الألمانية أن تسكت بطاريات المدفعية البريطانية باستخدام القذائف الشديدة التفجير وقذائف الغاز، وأن تضرب المشاة بقنابل الشرابنل، وتم نشر مجموعة من الغازات السامة المختلفة والغازات المهيجة للجلد والتي أجبرت جنود المدفعية البريطانية على خلع أقنعة الغاز واستنشاق الغازات المميتة مثل الغاز الذي كان يعرف بغاز الصليب الأخضر Grünkreuz وأسندت مهمة التعامل مع وحدات المشاة إلى قوات الاقتحام على التوالي، فقاموا بتكوين تشكيلات اقتحام واستلمت تلك القوات أسلحة خاصة وفقا لمهمتها مثل قاذفات اللهب على سبيل المثال والرشاشات الآلية والبنادق قاذفة القنابل وأسلحة أخرى، وهنا كان عليهم اقتحام نظام التحصينات البريطانية ثم بعد ذلك تقوم تشكيلات المشاة

العادية بالدخول وتطهير المواقع من أية مقاومة على أن تقوم بطاريات المدفعية الامامية (التغطية المصاحبة للمشاة) التي تتبع المشاة بتدمير بطاريات المدفعية البريطانية، وتمكن الألمان من تحقيق اختراق بطول الخط ولم يتوقع الحلفاء هجومًا بمثل هذا الحجم وعليه حصنوا مواقعهم الدفاعية في المنطقة التي استولوا عليها حديثًا بشكل ضعيف ففوجئوا تمامًا بالهجوم الألماني، وتقدمت مجموعتا كودري وبوزيني في اليوم الأول للهجوم المضاد بعرض حوالي ستة عشر كيلومترًا لمسافة ثمانية كيلومترات حيث هاجمت مجموعة كودري من بانتوزيلBantouzelle إلى روميلي Rumilly ولم تكن سرعة الهجوم الألماني متوقعة بالمرة، ونتج عن ذلك أن وقعت قيادة الفرقة التاسعة والعشرين والفرقة الثانية عشرة في أيدى الألمان، وفي الثالث من ديسمبر استولى الألمان على لافاكيري وانسحب البريطانيون من شرق قناة سان كانتان، ولو يكن حظ مجموعة آراس من النجاح كبيرًا فلم تتقدم سوى بعرض عشرة كيلومترات وبعمق أربعة كيلومترات حتى السادس من ديسمبر، وأسر الألمان تسعة آلاف أسير بريطاني، واستولوا على مائة وثمانية وأربعين مدفعًا وسبعمائة وستة عشر رشاشًا آليًا وأكثر من مائة دبابة أكثرها معطوبة، وانقلب الوضع إلى تعادل كامل حيث عانى كل من الطرفين الألماني والبريطاني من خسائر فادحة، وتوقفت المعارك مؤقتًا في تلك المنطقة في السابع من ديسمبر، وكان الألمان راضين عن نتائج الهجوم المضاد، فقد اثبت ذلك الهجوم لقوات الحلفاء أنه لم يحن بعد وقت الكلام عن هزيمة عسكرية ألمانية، وعادت الجبهة إلى نفس أوضاعها الثابتة الراكدة قبل ذلك الهجوم.

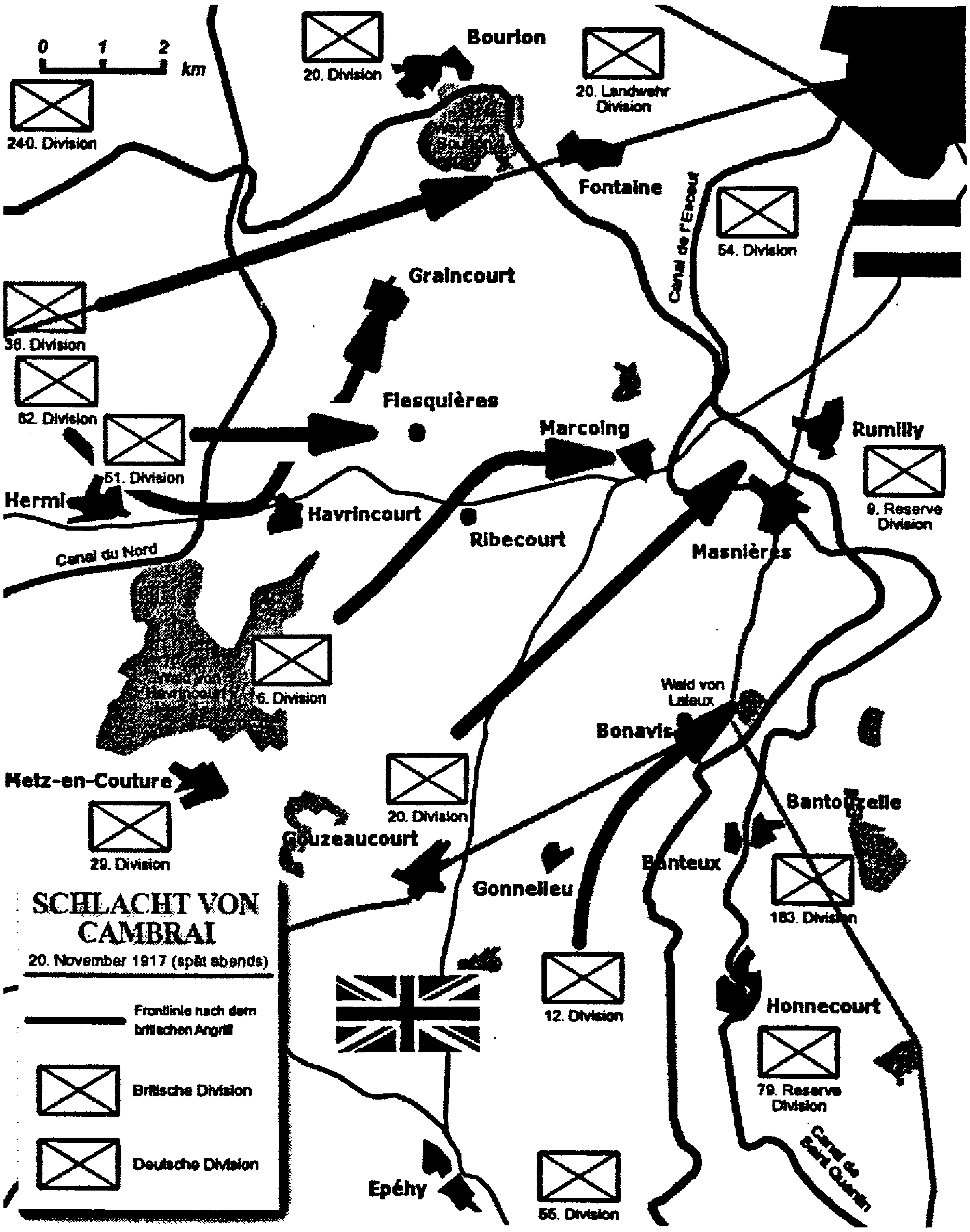

خريطة تبين مواقع القوات المتحاربة في معركة كامبري

مبينًا بها أماكن تقدم القوات البريطانية

الدعم الجوي

كان كل من الطرفين قد وضع أسرابًا جوية من أجل استطلاع التقدم على الأرض والدفاع ضد طائرات الطرف الآخر في كامبري، وهكذا طارت في الثاني والعشرين من نوفمبر بعد الظهر طائرة ألمانية من أجل استطلاع الوضع بين لافونتين وغابة بورلون، وفي البداية أبلغت عن سوء الرؤية وعند المساء أبلغت في طلعتها الثانية أن القوات البريطانية مسيطرة على المنطقة، وبعد ذلك بقليل أطلقت عليها المدافع الأرضية البريطانية المضادة للطائرات النار فسقطت على خط الجبهة الألمانية ونجا الرجلين بها، ولكن بجروح خطيرة، وكذلك وفي فليسكيير، وفي نفس اليوم تم إطلاق النار على طائرة ألمانية أخرى، وهذه المرة أيضًا نجا الرجلان، ثم تم أسرهما وتمكن الطيار الأسترالي الميجور روي فيليبس Roy Phillipps من إسقاط طائرة مقاتلة ألمانية في كامبري، وفي اليوم التالي الثالث والعشرين أسقط الليوتنانت الألماني كورت كوبرس Kurt Küppers في حوالي الساعة الثالثة طائرة بريطانية، ولا يعرف الكثير عن المعارك التي خاضها الطيار الألماني المشهور مانفريد فون ريشتهوفن Manfred von Richthofen والذي كان يعرف باسم البارون الأحمر، والمعروف أن عدد الطائرات التي أسقطها بلغ اثنتين وستين طيارة، بما فيها طائرة أسقطها في الثالث والعشرين من نوفمبر فوق كامبري، وحقق الطيار الكندي ليوتنانت كولونيل آندرو ماكيفر Andrew McKeever نجاحًا كبيرًا في اليوم الثلاثين من الشهر، حيث هاجم قاذفتي قنابل ألمانيتين عند الظهر وحاولت سبعة مقاتلات ألمانية من طراز دي في الباتروس Albatros D.V حمايتها فقام بإسقاط أربعة منها في معركة جوية عنيفة إلى الجنوب من كامبري، كذلك الكابتن البريطاني إدموند تيمبيست Edmund Tempest تمكن هو الآخر من إسقاط طائرة ألمانية إلى الشمال الغربي من غابة بورلون.

نتائج المعركة

بشكل عام كانت الخسائر كبيرة على الجانبين فخسر الألمان خمسين ألفا وخسر البريطانيون خمسة وأربعين ألفا، ودمر الألمان واستولوا على أكثر من مائتين وخمسين دبابة، وتغير الروتين القتالي على الجبهة بالكاد في تلك المعركة وحقق البريطانيون مكاسب خفيفة على الأرض في هافرينكور وريبكور وفليسكيير، وكانت الحقيقة التي فرضت نفسها على الحلفاء هو أنه من الممكن أن يطول أمد الحرب لأن القوات الألمانية قاومت بشكل شرس فيما بعد، وعليه كان هجوم نهر الموز - أرجون Meuse-Argonne هو الهجوم الوحيد للحلفاء في نهاية عام 1918، وكانت التكتيكات التي استخدمها البريطانيون في التنسيق بين المشاة وقوات المدرعات والطيران قد أرست أبعادًا جديدة في إدارة الحروب، وكان مقدرًا أن يستخدم الألمان بعد عشرين سنة تقريبًا نفس الأسلوب بعد أن طوروه فيما عرف باسم الحرب الخاطفة Blitzkrieg، وتعرف الألمان على ميزة القوات التصادمية التي يتم تدريبها بشكل خاص وكذلك بتكتيك هوتيير Hutier، وهو الدفع بأعداد معينة من تلك القوات في مناطق عمليات صغيرة، علاوة على ذلك ظهرت فائدة الفرق المتحركة التي يتم وضعها في القطاعات الحرجة من الجبهة، ومكنت تلك الملاحظات الألمان من النجاح في هجومهم في أوائل عام 1918 فيما عرف باسم هجوم الربيع.

أمريكا تدخل الحرب

كانت الولايات المتحدة تنتهج سياسة انعزال وتتجنب الحرب إلى جانب أي من القوى المتحاربة، واستمرت أمريكا على هذا النهج حتى أغرقت الغواصات الألمانية سفينة الركاب البريطانية لوزيتانيا Lusitania في عام1915 وكان على متنها مائة وثمانية وعشرون راكبًا أمريكيًّا وتعهد

حينئذ الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون Woodrow Wilson بأن أمريكا ستحارب، وحاول التوصل إلى تسوية في سبيل ذلك ولكنه فشل، وكان في ذلك متأثرا بسياسة سابقه تيودور روزفلت Theodore Roosevelt، الذي دأب على وصم عمليات الغواصات الألمانية بالقرصنة وطالب ويلسون ألمانيا بإنهاء حرب الغواصات الغير محدودة، واستجابت ألمانيا، وكان ويلسون يسعى لإدخال دولته في مفاوضات مع ألمانيا تدخل فيها عصبة الأمم واستقال وزير الخارجية الأمريكي في ذلك الوقت احتجاجًا على سياسات ويلسون التي تسعى إلى الحرب، وكان من ضمن الأسباب التي دفعت أمريكا إلى دخول الحرب هو عمليات التخريب المتعددة والتي قامت بها ألمانيا على أرض أمريكا، وكان من ضمنها تفجير ألمانيا لمستودع ذخيرة فيما عرف باسم بلاك توم Black Tom خوفاً من استعمال الحلفاء لتلك الذخائر وغيرها من العمليات التي قامت بها ألمانيا في نيوجرسي على سبيل المثال، وفي عام1917 مارست القوات البحرية الألمانية ضغطا على القيصر لاستئناف حرب الغواصات، وبدأت ألمانيا من جديد في استهداف السفن الغير حربية، ومن ناحية أخرى كانت المخابرات البحرية البريطانية قد نجحت في فك شفرة المراسلات الدبلوماسية الألمانية، واعترضت رسالة إلى حكومة المكسيك تعلن فيها ألمانيا عن استعدادها للدخول مع المكسيك في الحرب ضد الولايات المتحدة لاستعادة الولايات الجنوبية التي كانت أمريكا قد انتزعتها منها وهي تكساس ونيومكسيكو وأريزونا، وكان معنى تلك الرسالة أن تنشغل أمريكا في الحرب مع المكسيك، ولا تتمكن من نشر قواتها في أوربا الغربية في مواجهة ألمانيا مما سيعطى ألمانيا وقتا تستغله في خنق بريطانيا وقطع خط الإمدادات في المحيط الأطلنطي من الولايات المتحدة، وكانت ألمانيا في ذلك الوقت قد أغرقت سبع سفن أمريكية مما زاد من استعداد الأمريكيين لتقبل فكرة الحرب على ألمانيا، وبعد أن أطلعت بريطانيا ويلسون على البرقية الألمانية إلى المكسيك قام هذا الأخير بنشرها وطلب من الكونجرس إعلان الحرب،

وبالفعل أعلنت أمريكا الحرب على ألمانيا في السادس من أبريل من عام1917 وصاحب دخول أمريكا للحرب حملة دعائية منظمة لاستجلاب التأييد للحرب بين المواطنين الأمريكيين، شملت خطابات في التجمعات العامة يلقيها سياسيون وإغراق الصحف الأمريكية بفيضان من الصور والأخبار عن الحرب وتصوير ألمانيا بأنها الوحش الذي يجب القضاء عليه، والتهويل من أعمال ألمانيا العسكرية، وتصويرها في صورة المذابح الدامية، وما إلى ذلك من الأساليب الدعائية، ولم يكن لدى الولايات المتحدة جيشًا ضخمًا بل كان جيشها صغيرًا في ذلك الوقت، ولكن حكومة الولايات المتحدة نجحت في تجنيد أربعة ملايين جندي، وبحلول صيف عام1918 كانت ترسل إلى الجبهة الفرنسية يوميًّا عشرة آلاف جندي يضاف إلى ذلك أن قدرات أمريكا الإنتاجية لهائلة قد جندت كلها لصالح الحرب، فأخذت المصانع تنتج الطائرات والدبابات والمدافع والأسلحة والذخائر، وعندما دخلت أمريكا الحرب توقعت ألمانيا ألا يصل الجنود الأمريكيون إلى الجبهة إلا بعد عدة أشهر وعندما يبدأون تحركهم تتولى أمرهم الغواصات الألمانية، وأرسلت الولايات المتحدة مجموعة من البوارج إلى سكابا فلو Scapa Flow لدعم الأسطول البريطاني، وتم إرسال عدة أفواج من جنود مشاة البحرية الأمريكيين إلى فرنسا، وكان البريطانيون يريدون أن يدعموا قواتهم أثناء المعارك الدائرة بقوات أمريكية تقاتل تحت إمرتهم بدلا من تضييع الوقت بشحن الإمدادات، ورفض الجنرال جون برشينج John Pershing قائد القوات الأمريكية استخدام قواته كتعزيزات للوحدات البريطانية أو الفرنسية، وذلك بالرغم من سماحه للفرنسيين باستخدام وحدات أمريكية تتكون بالكامل من الجنود الأمريكيين السود والزج بهم في المعارك، وكانت العقيدة العسكرية الأمريكية في ذلك الوقت تقوم على أساس الهجوم الأمامي والذي كان البريطانيون والفرنسيون قد طرحوه منذ فترة بعد ما تبين لهم الخسائر الكبيرة التي تنتج عن استخدامه.

هجوم الربيع

بعد أن وقعت ألمانيا معاهدة بريست ليتوفسك التي خرجت بمقتضاها روسيا رسميًّا من الحرب تحررت الفرق الألمانية الخمسين التي كانت مرهونة بهزيمة روسيا، ورغبت ألمانيا في استغلال تلك الفرق في هزيمة قوات الحلفاء على الجبهة الغربية قبل أن تصل القوات الأمريكية كبيرة العدد، وكان الهجوم هذه المرة هو أكبر هجوم تقوم به ألمانيا على الجبهة الغربية لتكسر بذلك حالة الركود التي ميزت تلك الجبهة منذ عام1914، وكان هدف ذلك الهجوم الذي كان ينقسم إلى أربع هجمات منفصلة هو سحب القوات البريطانية بعيدًا عن موانئ القنال الإنجليزي الذي كان شريان الإمدادات لبريطانيا، ثم مهاجمة تلك الموانئ بعد ذلك بالإضافة إلى خطوط مواصلات أخرى، وكانت ألمانيا قد استفادت من الدروس التكتيكية التي اكتسبتها على مر المعارك التي مرت بها في الجبهة الغربية، وطورت أساليب الهجوم الخاصة بها ومن ناحية أخرى ونتيجة لمعركة السوم والتي خسر البريطانيون فيها أعدادًا كبيرة من جنودهم فقد نقحوا أساليبهم بما يتماشى مع التطور الحادث في ميادين القتال، وتخلوا عن أسلوب الهجمات بالموجات العتيق كان الجنرال أوسكار فون هوتيير Oskar von Hutier الألماني قد ابتدع تكتيكًا جديدًا واستخدمه في معركة كامبري، وكان الروس قد استخدموه أصلاً في هجوم بروسيلوف ضد القوات النمساوية على الجبهة الشرقية، ويعتمد هذا التكتيك على أن تقوم قوات مدربة تدريبًا عاليًا باختراق خطوط العدو وتجاوز الوحدات الأمامية تاركين النقط المحصنة للقوات التي ستتبعهم لاحقًا، ويكون هدف تلك القوات هو تدمير مراكز القيادة والسيطرة ووحدات المدفعية ومخازن الذخيرة خلف خطوط القوات المعادية، وكذلك احتلال الأرض بسرعة وكانت كل التشكيلات الكبيرة تختار أفضل عناصرها للالتحاق بتلك التشكيلات، وتم تشكيل وحدات كبيرة من تلك العناصر التي كانت

صفوة القوات الألمانية، وكان مجرد وجود تلك القوات يعطي ألمانيا ميزة في بداية الهجوم وفي نفس الوقت كان ذلك يعني أن أكبر الخسائر في بداية المعارك ستتكبدها أفضل التشكيلات الألمانية علاوة على انخفاض كفاءة التشكيلات الأخرى نتيجة لسحب تلك العناصر منها بالإضافة إلى استحداث ذلك التكتيك طور أحد ضباط المدفعية الألمان جورج بروخمولرGeorg Bruchmüller أسلوبًا اقتصاديًّا للقصف يعتمد على ثلاث مراحل الأولى قصف مراكز القيادة والسيطرة، ثم قصف بطاريات المدفعية المعادية، ثم المواقع الأمامية للمشاة، وكانت المدافع الثقيلة وذخيرتها متوفرة بكثرة على الجبهة الغربية في عام1918، من ناحية أخرى كان الحلفاء ونتيجة لخسائرهم الكبيرة قد توصلوا إلى أن أفضل وسيلة للدفاع هي الدفاع في العمق بمعنى تخفيض أعداد قوات المشاة في الخطوط الأمامية والاحتفاظ باحتياطياتهم ومخازنهم بعيدًا عن مدى المدفعية الألمانية، بحيث يتم اعتبار الخط الامامي مجرد نقطة حراسة تحتلها الدوريات والقناصة ومواقع مدافع الماكينة، وفي الخلف توجد منطقة القتال حيث يتم تلقي الهجوم ومقاومته، وخلفها منطقة مؤخرة حيث يتم الاحتفاظ بالاحتياطيات لدفعهم سواء لهجوم مضاد أو لإغلاق منطقة تم اختراقها، ويتم تنفيذه بحيث تنتشر فرقة المشاة كالتالى (كانت فرقة المشاة البريطانية تتكون من تسع كتائب) ثلاث كتائب تنتشر في المنطقة الأمامية وأربع كتائب في منطقة القتال التي تقع خلف الخط الأمامي وكتيبتي احتياط بعيدًا في الخلف، ولجأ الحلفاء إلى ذلك الأسلوب بعدما لاحظوا استخدام الألمان له في المعارك التي دارت في عام 1917، ولم يتم تنفيذ تلك الطريقة في الدفاع في كل المناطق نتيجة لنقص القوات في معظم الأحيان، وفي الحادي والعشرين من مارس شن الألمان هجومهم الأول على القوات البريطانية في قطاع السوم، وبدأ الهجوم في الفجر بقصف مدفعي وبالرغم من استعداد القوات البريطانية نوعًا ما إلا أن القصف ثم الهجوم من بعده كان مباغتًا

للبريطانيين، وفي نهاية اليوم الأول كان الألمان قد اخترقوا الخط البريطاني الذي يحتله الجيش الخامس البريطاني في عدة مواقع، وبعد يومين كان الجيش الخامس يقوم بانسحاب كامل، وتم الاستيلاء على حصون كثيرة، وكان لودندورف الذي لم يتمكن من تنفيذ الهجوم بأسلوب الاقتحام حرفيًا قد تورط في مهاجمة النقط القوية عند أراس Arras فأرهق بذلك قواته كثيرًا حتى تم صدهم، وكان الألمان قد اخترقوا عند الحدود الفاصلة بين مناطق القوات الفرنسية والقوات البريطانية، وتأخر الجنرال بيتان والجنرال هيج في إرسال التعزيزات فعين الحلفاء الجنرال فوش لتنسيق العمليات الحلفاء، وبعد ثلاثة أيام بدأ التقدم الألماني في التداعي حيث وصل جنود المشاة الألمان إلى حالة من الإعياء، وتعذر في نفس الوقت دفع المدفعية إلى الأمام لمساعدة المشاة، وكانت القوات الجديدة الأسترالية والبريطانية للدفاع عن مركز السكك الحديدية في آميين Amiens المهم لإمداد الحلفاء، وبعد محاولات كثيرة فاشلة للاستيلاء على آميين ألغى لودندورف الهجوم في الخامس من أبريل، وبالرغم من أن الألمان قد حصلوا على بعض المكاسب على الأرض إلا أن مدينتي آميين وأراس ظلتا في أيدي الحلفاء، كذلك كانت الأرض التي استولى عليها الألمان يصعب الدفاع عنها ضد أي هجوم مضاد يشنه الحلفاء، وفقد الحلفاء بما فيهم الأمريكيون ما يقرب من ربع مليون قتيل في تلك المعارك وألف وثلاثمائة قطعة مدفعية ومائتي دبابة، وكان من الممكن تعويض تلك الخسائر خصوصًا مع توافر القوة الإنتاجية الأمريكية الكبيرة إلا أن عدد الجنود الألمان الذين اقترب عددهم من ربع مليون كانوا من أفضل قواتهم وهي قوات الصدمة Stoßtruppen في تلك المعارك أصبح من الصعب عليهم تعويض خسائرهم، ولكن الألمان استأنفوا هجومهم في التاسع من أبريل وتقدموا بشكل ناجح في ليس Lys واستطاعوا دفع البريطانيين بعيدًا، وكانت المسافة التي تفصل بينهم وبين الموانئ هي خمسة عشر ميلا كان

يمكن احتلالها في أيام، وأصبح الموقف البريطاني حرجًا فاصدر هيج توجيهًا قال فيه:

"يجب علينا أن نقاتل للنهاية برغم أن ظهورنا إلى الحائط لأننا مؤمنون بعدالة قضيتنا".

ولكن الهجوم الألماني توقف هذه المرة أيضًا بسبب مشاكل لوجيستية تتعلق بالإمداد، كذلك لم يتوقف البريطانيون والكنديون والأمريكيون والفرنسيون عن شن الهجمات المضادة مما أدى بلودندورف إلى إلغاء هذا الهجوم في التاسع والعشرين من أبريل، ثم قام الألمان بشن هجوم آخر على المارن هذه المرة فيما عرف باسم معركة المارن الثانية، وكان التقدم الألماني هذه المرة سريعًا، ولم يتمكن البريطانيون من إيقافهم، وكان الألمان يريدون فصل القوات البريطانية عن القوات الفرنسية ليحققوا نصرًا سريعًا قبل أن تصل القوات الأمريكية، وبالفعل تقدمت قواتهم حتى نهر المارن، ولكن جنود مدافع الماكينة الأمريكيين والقناصة السنغاليين تمكنوا من إيقافهم بالإضافة إلى اشتبك قوات من مشاة البحرية الأمريكية معهم، وخسر الألمان كثيرًا في هذا الهجوم، وفي التاسع من يونيو هاجم الألمان مجددًا وبالرغم من أن الفرنسيين كانوا على علم بالهجوم مسبقًا من الأسرى الألمان إلا أن تقدم القوات الألمانية كان مذهلاً، ولم تنجح القوات الفرنسية أو الأمريكية في وقفهم غير أن الفرنسيين شنوا هجوما مضادًا عند كومبيين Compiègne في الحادي عشر من يونيو، وكان الهجوم مباغتًا تمامًا للألمان فألغى لودندورف الهجوم في اليوم التالي، وبعد ذلك وفي الخامس عشر من يوليو شن الألمان هجومًا جديدًا وكالعادة نجحوا في البداية في التقدم، ثم فقدوا المبادأة الذي انتقل إلى الحلفاء الذين بدءوا بدورهم في شن هجومهم الذي يعرف بهجوم المائة يوم، والذي أنهى الحرب فعليًا.

التأثير الإستراتيجي

نتج عن تلك المعارك أن خسر الألمان ما يقل عن مليون جندي في فترة ستة أشهر فقط، وتوقعت القيادة العليا أنها ستحتاج شهريا إلى مائتي ألف جندي لتعويض تلك الخسائر بالإضافة إلى أن الأراضي التي اكتسبوها في هجوم الربيع كانت نتوءات أطالت خطوطهم وكشفت قواتهم مما جعل مسألة الدفاع غاية في المشقة بالإضافة إلى فقد أفضل عناصر القوات الألمانية وإجهاد وإعياء القوات المتبقية، وكذلك كانت خسائر الحلفاء ضخمة، ولكن من ناحية أخرى تحسن التنسيق بين القوات بتعيين المارشال فوش قائدًا عامًّا، وتم استخدام القوات الأمريكية لأول مرة في المعارك كتشكيلات منفصلة، وكان وجودهم يعوض النقص الذي كانت تعانيه كل من إنجلترا وفرنسا في أعداد الجنود.

هجوم المائة يوم

بعد انسحاب القوات الألمانية من منطقة المارن على أثر الهجوم المضاد الذي شنته القوات الفرنسية اعتبر المارشال فوش أن الوقت قد حان لينتقل الحلفاء إلى الهجوم، وكانت القوات الأمريكية تتواجد الآن في فرنسا بأعداد كبيرة علاوة على القوات البريطانية التي عادت من فلسطين، وقدم المارشال هيج اقتراحًا بالهجوم شرق آمين إلى الجنوب الغربي من منطقة السوم، ووافق المارشال فوش على اقتراحه، وفي الثامن من أغسطس هاجم الحلفاء بأكثر من عشر فرق وخمسمائة دبابة، ونجحوا في فتح ثغرة بطول أربعة وعشرين كيلومترًا في الخطوط الألمانية، وأسر سبعة عشر ألفا من الجنود الألمان وثلاثمائة وثلاثين مدفعًا، حيث كانت الدبابات قد هاجمت من المؤخرة مسببة ذعرًا وارتباكًا بين القوات الألمانية، وكانت خسائر الحلفاء ضئيلة إذا ما قيست بحجم الهجوم حيث لم تتجاوز السبعة آلاف

جندي، وكان ذلك يومًا أسودًا على القوات الألمانية، ونتيجة لذلك الهجوم وبالرغم من توقفه بسبب نقص في الذخائر إلا أن الحلفاء احتلوا تسعة عشرة كيلومترًا، واضطر الألمان إلى التراجع إلى خط هندنبورج، وفي الحادي والعشرين من أغسطس شن الجيش الثالث البريطاني هجومًا جديدًا ونجح الهجوم في دفع الجيش الثاني الألماني إلى التراجع لمسافة خمسة وخمسين كيلومترًا، وتمكن البريطانيون من الاستيلاء على ألبرت، وفي السادس والعشرين من أغسطس تقدم الجيش البريطاني اثني عشر كيلومترًا، وسقطت بابوم في التاسع والعشرين من الشهر، ثم قام البريطانيون بتقديم وحدات المدفعية إلى الأمام واستأنف الجيش الرابع البريطاني هجومه، وعبر الفيلق الأسترالي نهر السوم في الحادي والثلاثين مخترقًا الخطوط الألمانية هناك، وكان ذلك من أكبر النجاحات العسكرية للحلفاء في الحرب، فبحلول الثاني من سبتمبر كان الألمان قد تراجعوا إلى خط هندنبورج.

الهزيمة

كان المارشال فوش بعد تراجع الألمان قد خطط لهجوم مركز تتقدم فيه القوات من عدة محاور، وبعد أن تكمل تقدمها تلتقي عند مدينة ليبج في بلجيكا، وشن فوش هجومه الأول في الثامن والعشرين من سبتمبر بالقوات الأمريكية في قطاع الموز - آرجون Meuse-Argonne ثم الجيش البلجيكي والبريطاني في أيبر Ypres والفلاندرز Flanders، وتقدمت القوات المهاجمة في كل من المنطقتين، ولكنهما توقفتا بسبب مشاكل لوجيستية وخصوصًا في القطاع الأمريكي، وفي نفس الوقت تقدمت القوات البريطانية والكندية، واجتاحت خط هندنبورج عند كامبري، وحينئذ شن هيج هجومه الرئيسي على خط هندنبورج، وتقدم الأمريكيون سبعة كيلومترات تقريبًا، وبعد ذلك وفي الخامس من أكتوبر اخترقت القوات

البريطانية إلى عمق دفاعات خط هندنبورج، وكانت تلك إشـارة إلى نهايـة التفوق العسكري الألماني في هذه الحرب، واقتنع القادة الألمان بأنه لا أمـل لهم في كسب هذه الحرب وازداد أمل الحلفاء في انتهاء الحرب بعد أن كانوا يتصورون أنه ليس بمقدورهم شن هجوم كبير قبل العـام القـادم، ويحلـول أكتوبر كانت الجيوش الألمانية تتراجع وتخلي الأراضي التي احتلتها في أول سنوات الحرب، وكـان الحلفـاء ينـدفعون باتجـاه ميـتس Metz في بلجيكـا حيث توجد محطة إمداد القوات الألمانيـة الـتي تمـد الجبهـة الغربيـة كلـها، وبوصول قوات الحلفاء إلى ذلك الخط تراجع الألمان مخلفين وراءهم كميات كبيرة من العتاد والمعدات الثقيلة، وبالإضافة إلى ذلك قام الحلفاء بعمليات في مؤخرة القوات الألمانية في آيبر والسامبر ومونس، واستمر القتال في تلك المناطق حتى الدقائق الأخيرة قبـل سـريان الهدنـة في الحـادي عشـر مـن نوفمبر.

الفصل الثالث

أهم معارك الجبهة الشرقية

الموقف على الجبهة الشرقية

كانت الجيوش الألمانية على الجبهة الشرقية دائمًا أقل في العدد ولكنها متفوقة في التدريب والتسليح والقيادة والتموين، وقد بنيت على أساس مفهوم الأمة المحاربة الأمر الذي لم يكن يعد مقبولاً لدى خصومها عند قيام الحرب، وكان الفكر العسكري الألماني في ذلك الوقت يرتكز على فكرة أنه إذا تم تدريب المجندين الإلزاميين وقيادتهم وتسليحهم بشكل جيد فإنهم سيوفرون خطًا أماميًا من القوات بأعداد أكبر مما قد يتوفر لدى خصومها الذين يعتمدون بشكل أساسي على قوات الاحتياط بغرض القيام بواجبات في الحاميات أو واجبات أخرى ثانوية، وعلى الجبهة الشرقية فقد كانت قوات المشاة الألمانية مصحوبة بدعم مدفعي وافر ويتفوق على الدعم المدفعي الروسي بشكل خاص في المدفعية الثقيلة والهاوتزرات، ونتيجة لتفكير القيادة العليا الألمانية في حرب قصيرة متحركة فإنها لم تكن قد استوعبت بعد بشكل كامل أهمية المدفع الرشاش، ولكنها كانت أقرب لاستيعاب ذلك من الروس الذين سلحوا قواتهم بنسبة واحد إلى ثمانية من القوات الألمانية، وعلاوة على ذلك فقد كانت ألمانيا تمتلك شبكة كثيفة وممتازة من السكك الحديدية للنقل البري الأمر الذي منحها مزية في سرعة إمداد قواتها على الجبهة الأمامية أو نقلهم بين

الجبهات الشرقية والغربية أو الشمالية والجنوبية، عندما كان النمساويون أو المجريون يحتاجون إلى الدعم، وعندما ووجهت ألمانيا بحرب غير متوقعة وطويلة الأمد فقد مكنتها بنيتها الصناعية من التواؤم بشكل أفضل وأسرع من روسيا أو النمسا والمجر.

وقد تم وصف بروسيا ذات مرة بأنها "جيش يدير دولة وليست دولة تدير جيشًا"

غير أنه بينما قامت بروسيا بلا شك بتوفير القيادة والقوات الممتازة فإن قوات ممالك فورتمبورج وبافاريا وساكسونيا وكذلك قوات الأرشيدوقيات مثل بادن أثبتو أنهم يمكن الاعتماد عليهم بشكل أكبر من القوات السلافية في جيوش النمسا والمجر أو الجنود الغير سلافيين في الجيوش الروسية، وقد قادت الشكوك حول الاعتماد على الجنديين الناطقين بالفرنسية من مناطق الألزاس واللورين إلى استبعادهم من المواجهة ضد فرنسا ولكنهم حاربوا بشكل جيد في الجبهة الشرقية.

وبالنسبة للنمسا والمجر فقد تراوحت معدلات استيعابهم للتجنيد الإلزامي في سنوات ما قبل الحرب159500 أي أقل عشرين بالمائة من النسبة إلى تعداد سكانها من ألمانيا، وحوالي 50 بالمائة أعلى من المعدل في روسيا، غير أنهما كان يمكنهما الاعتماد فقط على الوحدات الإمبراطورية المشتركة بينهما، فقد كان حوالي ثلثي تعداد سكان الإمبراطورية من بلدان تشترك معها في الحدود (إيطاليون في الغرب، وتشيكيون وسلوفاكيون وبولنديون ورومانيون في الشرق، وسلوفينيون وكرواتيون وصرب في الجنوب)، وقد تمت محاولة لفصل الأقارب العرقيين عن بعضهم البعض، ولكن لم يكن هناك ما يكفي من الجنود النمساويين أو المجريين لاستكمال مرتبات الوحدات على الجبهة الشرقية من الجنود بدون جنود سلافيين، الذين كانوا لا يمكن الوثوق بهم أمام الروس وخصوصًا بعد

منتصف عام1916، وكان الشح هو القاعدة في الإنفاق الدفاعي في النمسا والمجر، وبحلول نهاية عام1911 كان أقل من ربع ما تنفقه ألمانيا وأكثر قليلاً من ربع ما تنفقه روسيا، وقد ارتفعت هذه النسبة في ذلك العام مع تبني خطط لزيادة أعداد الجيوش في زمن الحرب من900000 إلى مليون ونصف، ولكنها ظلت منخفضة نسبيًا، وكنتيجة لذلك فقد كانت جيش النمسا والمجر أقل تسليحا من الجيوش الروسية، ومع ذلك فقد رأى رئيس الأركان كونراد في اغتيال فرانتس فرديناند فرصة لفرد العضلات العسكرية والتي لم تكن تكفي بحالتها تلك للتغلب حتى على صربيا، ومن ناحية أخرى ولأن ألمانيا تصورت حربًا قصيرة فلم ترى ثمة حاجة إلى تنسيق عملياتها في الجبهة الشرقية مع النمسا والمجر، وكانت الاتصالات بين رئاستي الأركان معلقة بشكل شبه كامل منذ عام1896 إلى1909 إلا أنهم قامو باستئنافها ثانية تحت إلحاح كونراد، غير أنه وحتى عام1914 لم يكن لدى الجانبين أية خطط لعمليات مشتركة ضد روسيا، وعلى الفور ظهرت الاختلافات في وجهات النظر، وقد توقعت ألمانيا بسبب اشتباك سبعين من فرقها الثمانين في الغرب دفاعًا من عشر فرق خلال من36 إلى40 يوم التي قدرت فيها قدرتها على إتمام الاستيلاء على فرنسا، وتوقعت القيادة العليا الألمانية أن تسعى روسيا عندئذ إلى السلام سواء كان ذلك على الفور أو بعد ذلك بوقت قصير، عندما ترى ما تستطيع فعله 80 فرقة ألمانية.

ومن ناحية أخرى فقد ألح كونراد على إعطاء الأولوية لمهاجمة الأجناب الجنوبية (نتوء وارسو) لبولندا الروسية، ولم تقم القوى المركزية أبدًا بحل مشكلة الأولويات بين الشرق والغرب.

الجيش الروسي

وكان تعداد الجيش الروسي في زمن السلم1423000 وخط لزيادته إلى4583000 في غضون ستة أسابيع ليصل إلى ذروته في زمن الحرب ليكون 6.5مليون في زمن الحرب غير أن نظام التجنيد الإلزامي المتأسس على قانون صادر عام1874 والذي تم تعديله بشكل طفيف في عام1912 لم يكن يضع في حسبانه الخسائر الهائلة التي قد يسببها استخدام آليات الحرب الصناعية الحديثة في ذلك الوقت، ولذا فقد سمح هذا القانون بالإعفاء من الخدمة بشكل موسع، فالكثير من غير المسلمين وكل المسلمين تم إعفاؤهم لبعدهم أو عدم تسليحهم، كذلك كان يتم إعفاء العائل الوحيد أو الابن الوحيد للأسرة من الخدمة في زمن السلم، أما في زمن الحرب فكانوا مسئولين فقط عن الحاميات والخدمات المعاونة، ولم يكن يتم الاحتفاظ بسجلات خاصة لهم وكذلك الرجال الذين كان لديهم إخوة أكبر يخدمون في الجيش أو عائلو الأسر التالون في الترتيب، وكانت جاهزيتهم للحرب تعتمد في المقام الأول على رغبتهم في الخدمة أو على مجهودات الشرطة في التحقق من رغبتهم من عدمها، وفي المقابل في ألمانيا فقد كان جنود الاحتياط أو "أرزاتس" يتم الاحتفاظ بسجلات كاملة لهم كاحتياطي أساسي، ويتم تعبئتهم عند نشوب الحرب، وكذلك كانت سياسة روسيا فيما يخص نسبة 1.1 في المائة من المتعلمين تتميز بالخطأ، حيث كانت لا تقوم بتجنيد المعلمين والاطباء والكيميائيين في زمن السلم، وكان الخريجون في درجات أخرى يخدمون من سنة إلى ثلاثة بدلا من أربعة، الأمر الذي افقدها كل إمكانية في تحويل الخريجين المناسبين إلى ضباط احتياط، وكانت هذه الامتيازات تذهب إلى طبقة المتعلمين الذين كانوا في غالبيتهم من أبناء الأغنياء الأمر الذي جعل العامة ينظرون إلى التجنيد الإجبارى على أنه عبء وليس واجبًا مدنيًا، وبالتالي يفكرون في تجنبه والهروب منه، وفي ألمانيا كان يمكن فقط لنسبة اثنين بالمائة من

الرجال في سن التجنيد الإلزامي أن يتم إعفاؤهم لأسباب تعليمية أو أسرية، بينما كانت النسبة في روسيا 48بالمائة ومنهم حوالي النصف يتم إعفاؤهم بشكل كامل حتى في زمن الحرب، وكان يتم الحصول على الأعداد المطلوبة عن طريق تطبيق نسب استعداد جسماني متدنية عن تلك التي كات مقبولة في أوربا، وفي ألمانيا كان يتم رفض 37بالمائة لأسباب طبية بينما كانت النسبة في روسيا 17بالمائة، ولم يكن ذلك يعني فقط نسبة أكبر في معدلات الإصابة بأمراض الميدان بل كان يعني كذلك انحدارًا أكبر في الاحتياطي المتوفر، فقد كان يتم استبعاد 3بالمائة تقريبًا من الاحتياطي الألماني لأسباب طبية، بينما كانت النسبة في روسيا 4بالمائة سنويًا، وكان ذلك يعني بقاء 75بالمائة من الاحتياطي الألماني بعد مرور عشر سنوات، بينما تكون النسبة في روسيا 66بالمائة، وعندما يمتد الاستدعاء إلى ما فوق سن37 يكون لدى ألمانيا احتياطي يفوق ذلك الموجود في روسيا، وفي سنوات ما قبل الحرب دربت ألمانيا ما يقرب من280000 مجند سنويًا، بينما قامت روسيا التي تمتلك ضعفي ونصف تعداد سكان ألمانيا بتدريب335000 أي بزيادة 20بالمائة فقط عن ألمانيا، وكان الجند الإلزامي الروسي المتوسط أقل في الاستعداد البدني وأقل تعليميًا من نظيره الألماني، وكذلك أقل تدريبًا وتسليحًا، وفي كل الجيوش فإن ضباط الصف يعتبرون العمود الفقري وكانت نسبتهم في ألمانيا 12 في الكتيبة بينما في روسيا كانوا 2 فقط في كل كتيبة، وفيما يخص التسليح فإن روسيا لم تكن تنقصها العقول المبتكرة ولكن كانت أفكارهم متباطئة عن أفكار عدوهم الأساسي، فقد كانت هناك ترسانة بتروجراد فقط التي كانت الوحيد القادرة على إنتاج مدفعية الميدان، وكان هناك خمسة آخرون قادرون على الإصلاح، وعندما تم التوسع في القوات المسلحة إلى مستويات زمن الحرب أصبح النقص في المدفعية مزمنًا، وكانت الرشاشات على نفس مستويات النقص ففي عام1914 كان لدى روسيا أكثر

من4100 (وهو أقل من واحد لكل كتيبة مشاة)، وكانت هناك فقط ترسانة تولا التي تقوم بتصنيعهم، وقد تم التعاقد مع شركات خاصة، وجرت محاولات للاستيراد من الخارج لسد النقص الموجود، ولكن خصومها الأساسيين كانوا قد ملأوا دفاتر مصنعي الأسلحة باحتياجاتهم، وبحلول عام1916 كان لدى روسيا فقط ثمن العدد الذي تحتاجه فعليًّا من الرشاشات، ولكن النقص الأكثر خطرًا كان في البنادق والذخيرة الخاصة بها فبينما كانت التقديرات تقل بنسبة الثلث عن الاحتياج الفعلي فقد كان هناك عجز فعلي في البنادق عند اندلاع الحرب يقدر بـ350000 بندقية، وبحلول نهاية عام1914 كان الجنود يصلون إلى الجبهة غير مسلحين، بعضهم يتم إعادتهم وآخرون كان يلقى بهم في المعارك بدون سلاح، ويتم تلقينهم أن عليهم أن يأخذو بنادق رفاقهم الذين يموتون، وكان الاحتياج الشهري للبنادق200000 بينما كان يتم إنتاج71000 فقط في عام1915 وارتفع إلى111000 في عام1916، ففي عام 1914 لم يكن في روسيا سوى ثلاثة مصانع تقوم بإنتاج البنادق وذخيرتها، وبالرغم من تضاعف الإنتاج عدة أضعاف إلى أنه ظل فقط نصف الاحتياج، ولم يتم أخذ قرار بإنشاء مصانع أخرى قبل عام1916 وقبل ذلك كان النقص في الذخيرة أقل حدة، ولكن كان ذلك بسبب أن الجيوش كان لديها فقط ثلثي البنادق التي تحتاج إليها، بينما عانوا من سلسلة من الهزائم وتم أسر اعداد ضخمة من الجنود وفقدوا أجزاء كبيرة من أراضيهم.

وقد اعتمدت كل جيوش الحرب العالمية الأولى بشكل كبير على الخيول وبخلاف الخيالة التي كان لديهم أكلهم أكثر مما يمكنهم استخدامه في ميادين معارك تسودها الرشاشات والخنادق والأسلاك الشائكة، فإن المدفعية ومطابخ الميدان كانت تجرها الخيول، وكذلك كانت العربات التي تحمل المؤن من رءوس السكك الحديدية إلى خطوط الجبهة، وكان عنصر التموين الأكبر هو علف الخيول، وكانت الحاجة إلى نقل الكثير منه عاملا

رئيسيًّا في زيادة الحمل على السكك الحديدية الروسية، وكان الجيش التركي مشتبكًا بشكل مباشر مع نظيره الروسي فقط في شرق الأناضول، وكان لرئيس البعثة العسكرية الألمانية الجنرال ليمان فون ساندرس من خلال رئيس الأركان الألماني الجنرال برونزارت فون شلندورف وأدميرال ألماني هو سوشون وضباط الأركان الألمانيين الذين شغلوا مناصب مهمة في الجيش التركي غير أن نفوذهم كان محدودًا بسبب أور باشا وزير الحربية التركي،

والذي كان يتخيل دورًا أكبر للفرق التركية الست والثلاثين أكبر مما كان يتطلبه الألمان.

التعبئة

فى الثلاثين من يوليو بدأت روسيا التعبئة وبعدها بستة أيام فقط توسل السفير الفرنسي إلى القيصر ليقوم بالهجوم على الفور ليخفف الضغط على الجيش الفرنسي، وكان اجتياح بروسيا بالجيش الأول بقيادة الجنرال رينينكامبف والجيش الثاني بقيادة الجنرال سامسونوف قد تم ترتيبه على عجل، وكان الروس يتفوقون عدديًّا على الفرق العشر التي يتكون منها الجيش الثامن الألماني (جنرال فون بريتفيتس وجافرون) بحوالي اثنين إلى واحد، وقد خطط الألمان لعملية تمسك بالمواقع في مازوريا يتلوها عند الحاجة انسحاب إلى خط نهر الفيستولا المنخفض الأكثر تحصينا، لينتظرو هناك التعزيزات من الجيوش التي قامت بغزو فرنسا، ولم تتعزز آمال روسيا المستقبلية عندما استجاب الدوق نيكولاي قائد القوات الروسية في 8أغسطس للتوسلات الفرنسية وأخذ فرقتين من رينكامبف من أجل الهجوم تجاه برلين كما أراد الفرنسيون.

الغزو الروسي لبروسيا

دخل الروس شرق بروسيا في 12-13 أغسطس وقام الجيش الأول بدفع الألمان إلى التقهقر ووضع العاصمة البروسية كونيجسبرج تحت التهديد، بينما كان كل من رننكامبف Rennenkampf وسامسونوف Samsonov في طريقهما إلى كارثة محققة كانت الجيوش الروسية الأخرى تزحف على جاليسيا Galicia وهي الجزء البولندي الذي كان خاضعًا لسيادة إمبراطورية النمسا والمجر في ذلك الحين، وكان نتوء وارسو يفتح جاليسيا Galicia على مصراعيها للغزو من ناحية أوكرانيا من الشمال ومن الشرق، وكانت جيوش النمسا والمجر المتباينة الأعراق والمشارب أقل قوة من الجيوش الألمانية، وكان بعض القادة الروس يفضلون القضاء على جيوش النمسا والمجر أولاً قبل أن يتفرغوا للألمان، وكانت القيادة الروسية Stavka قد خططت للاستيلاء على مجنبة ومؤخرة القوات النمساوية المجرية عن طريق الهجوم جنوب النتوء بالجيش الرابع بقيادة الجنرال إيفيرت Evert، بينما يتقدم الجيشان الثالث والثامن بقيادة روجسكي Ruzhsky وبروسيلوف Brusilov إلى داخل جاليسيا الشرقية، غير أن Conrad توقع ان يمنحه بطء الروس في تعبئة قواتهم ميزة عددية حتى أواخر شهر أغسطس وكان يعد لمهاجمة النتوء، ومن الناحية الاستراتيجية كان على كل جانب أن يخسر حيث كان كل منهما يجهز لقوات تفوقه عددًا ولكن سوء الحظ وقف إلى جانب روسيا هذه المرة، فقد تم نشر الجيش التاسع بقيادة الجنرال ليتشيتسكي Lechitsky والذي كانت قد أسندت إليه مهمة الاندفاع المزمع نحو برلين بطول نهر الفيستولا Vistula بين وارسو وكراسنيك Krasnik، وعندما أجلت كارثة جاليسيا مؤقتًا خيار التقدم نحو برلين كان قد تم نشره بالفعل بحيث كان بمقدور الروس استخدامه على أفضل صورة ضد النمساويين والمجريين، وفي شرق جاليسيا كان الجيش الثالث النمساوي بقيادة الجنرال برودرمان Brudermann المنتشر على طول نهر جرولا ليبا

Grula Lipa وكـان مـن المزمـع اسـتخدامه لحراسـة أجنـاب الجيشـين الأول والرابع وكانت تعاونه مجموعة كـوفيس Kovess المسـلحة تسـليحًا خفيفـا والمنتشـرة إلى الجنـوب وإلى الشـرق منـه، وكـان كـونراد Conrad ينتـوي استخدام الجيش الثاني بقيادة الجنـرال بـوم إيمـولي Bohm-Ermolli هنـاك، ولكنه كان في طريقه إلى صربيا عندما أدرك متأخرًا أن رحيله قـد أضـعف الوجود العسكري النمساوي المجري في جاليسيا فقام باستدعائه في الثلاثين من يوليو، ولكن اكتظاظ السكك الحديدية أبطأ عملية نقلـه إلى جاليسـيا، ولم يصل إلى مواقعـه في جاليسـيا شـرق سـامبور Sambor قبـل الخـامس والعشرين من أغسطس، وهاجم النمساويون الجيش الخامس بقيادة الجنرال بليـف Plehve في السـادس والعشـرين مـن أغسـطس، وكانـت معركـة كوماروف Komarow التي خاضها برودرمان Brudermann قد أتت بنتائج كارثية على القوات النمساوية المجرية عندما انقضت القـوات الـتي تحمـي تقدم روجسكي Ruzhsky وبروسيلوف Brusilov على الجـيش الثالـث ولم يكن يدرك مدى قربهم من قواته في الخلف، وكان قد قـام بهجـوم مضـاد في السادس والعشرين من أغسطس بدون التنسيق بين فيلقي المشاة المنوط بهما ذلك الهجوم أو توفير الدعم المدفعي لأي من الفـيلقين، وهـزم هنـاك هزيمة منكرة، وكانت أهم العوامل التي ساهمت في إنقاذ الجبهة النمسـاوية المجرية من الانهيار هو ثقل حركة وبطء الروس، ولكـنهم فقـدوا في ذلـك اليوم ثلاثمائة وخمسين ألفا من الضباط والجنود ما بين قتيل أو جـريح أو أسير، وكان ذلك العـدد يمثـل تقريبًـا نصـف عـدد قـوات النمسـا والمجـر، وكـذلك فقـدوا معظـم مسـاحة بولنـدا الـتي كانـت واقعـة حينئـذ تحـت سيادتهم، وتم عزل مائة وخمسين ألفـا مـن القـوات في قلعـة بشيميسـل Przemysl وبحلول السادس عشر من سـبتمبر كـانوا قـد انسـحبوا إلى مـا خلف نهر دونايتس Dunajec، وبرغم من الانتصار الذي حققه الـروس إلا أن ذلك النصر في حد ذاته بدأ يمثل لعنة قادت إلى هلاك القوات الروسـية

في الحرب فيما بعد، ومثل ذلك الانتصار أزمة للقيادة الروسية Stavka حيث كانت القوات الألمانية أقرب من المراكز الحيوية الروسية في النمسا والمجر، وكانت ألمانيا هي العدو الأساسي، وبينما كانت القوات النمساوية المجرية لا تمثل تحديًا كبيرًا أمام الروس حيث كان يمكن هزيمتها أو على الاقل احتواءها بأعداد قليلة من القوات الروسية، واستخدام الجزء الباقي ضد الألمان، ولكن ثار نقاش بين أوساط القيادة العليا الروسية حول قدرة ألمانيا على الصمود وحدها في وجه الحلفاء، وكان هناك رأي بأن القوات الألمانية ليس بمقدورها أن تحارب وحدها، وانقسمت القيادة الروسية في تلك النقطة على نفسها، فكان هناك مدرستان بين جنرالات روسيا في تلك الآونة، كان الرأي الأول يعطي الأولوية لمواجهة القوات الألمانية والرأي الآخر يعطي الأولوية للقضاء على قوات النمسا والمجر الضعيفة ثم التفرغ فيما بعد ذلك للقوات الألمانية الصلبة، وعلى الجانب الألماني كان هناك صراع مماثل حول الاستراتيجية الشرقية والاستراتيجية الغربية، فكان الهاجس الذي سيطر على تفكير مولتكه Moltke وخططه هو اجتياح فرنسا وهزيمتها عسكريًّا أولاً وبسرعة قبل أن تتمكن روسيا من حشد وتعبئة قواتها الضخمة والتي كانت تتفوق على القوات الألمانية عدديًّا، ولكن ينقصها التدريب كما ذكرنا من قبل، وعندما فشل في تحقيق ذلك أقاله القيصر في الرابع عشر من سبتمبر وعين مكانه وزير الحربية البروسي الجنرال فون فالكنهاين von Falkenhayn وكان عليه أن يعمل على مسألة كيفية القتال في حرب لا يمكن التنبؤ بمستقبلها، وكانت أهم مشاكله وقت توليه القيادة هو تحديد الأولويات وكان القتال في جاليسيا قد أظهر الضعف الشديد الذي يسري في أوصال الجيوش النمساوية المجرية وقيادتها، بينما أظهر القتال في شرق بروسيا نقاط الضعف لدى الروس، وفي تلك المرحلة نشأت فكرة الدفاع في الغرب بمعنى اتخاذ مواقع دفاعية في الجبهة الغربية والاحتماء بالخنادق والتزام جانب الدفاع بشكل كبير في فرنسا

وتوفير قوات من تلك الجبهة بحيث يكون في مقدور الألمان إرسالها إلى الجبهة الشرقية لمحاربة الجيوش الروسية ذات الاعداد الكبيرة والقضاء عليها، ومع ذلك كان فالكنهاين Falkenhayn يعتقد بأن الروس في الشرق قد يلجئوا إلى تفادي المعارك الحاسمة من أجل عدم الإلقاء بأعداد كبيرة في مثل تلك المعارك وأن النصر ينبغي إحرازه في الجبهة الغربية في فرنسا بالتحديد حيث لا تمتلك قوات الحلفاء الفرصة للتضحية بالأرض مقابل كسب الوقت، حيث كانت حكومات دول الحلفاء تعد شعوبها بنصر سريع طوال فترة الحرب، وكذلك لوجود القوات البريطانية هناك في الجبهة الفرنسية، وكانت بريطانيا هي العدو الأول لألمانيا في نظر رئيس الأركان الألماني الجديد ودعم فالكنهاين وجهة نظر مولتكه في وجوب تدعيم الجبهة النمساوية المجرية، ولكن ليس على حساب الجبهة الغربية، أي مع عدم سحب قوات من الجبهة الغربية وضخها هناك، وفي السادس عشر من سبتمبر أقر نهائيًا الاقتراح الذي تقدم به الجنرال لودندورف Ludendorff والذي يقضي بتحريك معظم قوات الجيش الثامن إلى جنوب سيليزيا Silesia لتشكيل جيش جديد وهو الجيش التاسع تحت قيادة الجنرال هندنبورج Hindenburg، والتقى رئيس أركانه مع كونراد لمناقشة التفاصيل اللاحقة وعارض كونراد فكرة وضع القوات النمساوية المجرية تحت قيادة ألمانية، ولم يضغط عليه لودندورف Ludendorff في هذا الصدد وأدرك أن النمساويين إنما يحتاجون إلى مساحة للتنفس بها، وكان وجود الجيش التاسع هو الذي يمكنه توفير مثل تلك المساحة، وقام بالفعل بإصدار أوامره لتحقيق ذلك قبل ذهابه لمقابلة كونراد، وبدأ الجيش التاسع تقدمه إلى الشمال الشرقي في التاسع والعشرين من سبتمبر بهدف دفع الروس إلى التقهقر إلى الخلف إلى منطقة فيستولا Vistula العليا بين وارسو وإيفانجورود Ivangorod والتي تعرف الآن باسم ديبلين Deblin وجر القوات الروسية بعيدًا عن القوات النمساوية المجرية والذي كان يأمل أن

تقوم الاخيرة باستئناف هجومها فيما بعد.

معركة جومبينن

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى كانت الأوامر التي صدرت للجنرال فون بريتفيتس von Prittwitz واضحة وهي التمسك بمواقعه وعدم البدء بهجوم على القوات الروسية، فكان يجب عليه بالجيش الثامن الذي يقوده أن يتمسك بمواقعه في شرق بروسيا بدون أن يحاول الهجوم حيث كان من المتوجب تركيز كل الجهود في الجبهة الغربية ضد فرنسا طبقًا لخطة شليفن، ولم يكن عليه فقط ألا يهاجم بل كان مصرحًا له من قبل القيادة الألمانية أن يتراجع إلى الخلف حتى نهر فيستولا Vistula في حالة إذا اشتد الضغط الروسي على قواته، ونشر الألمان ثلاثة جيوش في المنطقة الجيش الثامن بقيادة فون بريتفيتس ويتكون من ثلاثة فيالق يقودها كل من هيرمان فون فرانسوا Hermann von François وأوجوست فون ماكنزن August von Mackensen وأوتو فون بيلوف Otto von Below علاوة على فرقة خيالة، وكانت كل تلك القوات في مواجهة الجيش الأول الروسي بقيادة باول فون رننكامبفPaul von Rennenkampf، والجيش الثاني بقيادة أليكساندر سامسونوف Alexander Samsonov وكان الروس يتفوقون عدديًا بشكل ساحق، وكان فون فرانسوا قد شن هجومًا على الروس في معركة شتالوبنن Stalluponen بمبادرة شخصية منه مخالفًا أوامر رؤسائه مما أدى به في نهاية الأمر إلى التراجع باتجاه جومبينن Gumbinnen ولكنه بالرغم من ذلك كان قد تمكن من أسر ثلاثة آلاف جندي روسي، ونجح فون فرانسوا أن يقنع فون بريتفيتس بالقيام بهجوم وكانت حجته أن قواته والتي كان معظمها من سكان شرق بروسيا لن يسعدهم كثيرًا الانسحاب وترك أرضهم في يد أعدائهم الروس، وأن الروس ليسوا بالقوة

التي يبدون بها، وهكذا قرر فـون بـريتفيتس الاشـتباك مـع الجـيش الأول الروسي الذي يقوده رننكامبف، وكان قـوام القـوات الروسـية مائتـا ألـف جندي، بينما كان تعداد الألمان مائة وخمسين ألفًا فقـط، والجـدير بالـذكر أن ذلك القرار كان مخالفًا لأوامر فون مولتكه von Moltke، وكـان رئـيس الأركان الألماني قد أصدر أوامر قطعية بعدم الهجوم على الروس في الجبهـة الشرقية حتى تنتهي القوات الألمانية من هزيمة فرنسا في الغـرب، وعـلاوة على ذلك فإن فون فرانسوا الذي كان دائمًا مـا يضـرب بـالأوامر عـرض الحائط ولا يتحلى بالانضباط الذي كان يميز كـل القـادة الألمـان قـد بـدأ تحريك فيلقه في العشرين من أغسطس قبل ساعات من اكتمال استعدادات ماكنزن وبيلوف، ونتج عن ذلك الهجوم المبكر أن أصـبح الـروس حـذرين وباتوا يتوقعون هجومًا ألمانيًا وشيكًا، وكان الروس بما لديهم من تفـوق في أعداد بطاريات المدفعية يستطيعون نشـرها لصـد الهجـوم المحتمـل واضـطر الألمان للانسحاب في عجلة وبغير نظام مخلفين وراءهم سـتة آلاف أسـير في يد الروس في تلك اللحظة خشى فون بـريتفيتس أن تـتم محاصـرة جيشـه بين جيشي رننكـامبف وسامسـونوف بـرغم مـن أن هـذا الأخـير لم يبـد متحمسًا لمطاردة القوات الألمانية المنسحبة، وتملك الذعر من فون بريتفيتس فأصدر قرارًا لم يكن يتناسب بالمرة مع الوضع حيث أمر بانسـحاب كلـي إلى خطوط نهر الفيستولا تاركًا وراءه شرق بروسيا لقوات الروسية.

لودندورف

استولى الذعر الذي تملـك مـن بـريتفيتس علـى فـون مولتكـه كـذلك والذي أصبح يخشى في تلك المرحلة من أن يهـدد التقـدم الروسـي بـرلين نفسها واتخذ إجرائين تجاه الأزمـة الأول هـو عـزل فـون بـريتفيتس ونائبـة وتعيين باول فون هندنبورج واريش فون لودنـدورف مكانهمـا، ثانيًـا قـام

بنقل بعض الفرق من الجبهة الغربية ويعتبر كل المؤرخين العسكريين نقل القوات من الجبهة الغربية إلى الجبهة الشرقية تحركًا خاطئًا حيث أضعف الجناح الألماني إلى الشمال الغربي الذي كان يجتاح بلجيكا في تلك الأثناء والذين كان عليهم تطويق الجيش الفرنسي وإجباره على الاستسلام، وعلى الجبهة الشرقية كان القائدان الجديدان وهما أكثر صلاحية للقيادة من سابقيهما قد أصدرا أوامرهما بوقف الانسحاب وقررا أخذ زمام المبادأة مرة أخرى، وقادت تلك القرارات إلى معركة تاننبرج التي كانت نصرًا مبهرا للألمان وأحد أكبر نجاحاتهم في الحرب العالمية الاولى.

معركة تاننبرج

كانت خطة الحلفاء قبل الحرب هي الاعتماد على إنجلترا وفرنسا لتثبيت الجيوش الألمانية في الغرب حتى الانتهاء من تنظيم الجيوش الروسية الضخمة، ثم إرسالها إلى الجبهة وكانت الأعداد ضخمة حيث إن الروس وفي أقل من شهر تمكنوا من حشد عشرة جيوش ميدانية كاملة بأعداد جنود أكثر من أعداد جنود ألمانيا على الجبهتين مجتمعتين، وكان أحد أكبر عوامل الضعف في تلك الخطة هو افتقار الروس لشبكة سكك حديدية تتمتع بالكفاءة، وكانت شبكاتهم تعمل بمقاييس مختلفة عن شبكات السكك الحديدية الألمانية، بمعنى أنه ما لم يحصل الروس على عربات السكك الحديدية الألمانيّة فإن معظم جيوشهم يمكن فقط نقلها إلى الحدود الألمانية، وكان وجود جيوش النمسا والمجر إلى الجنوب وكذلك الجيوش اليابانية إلى الشرق من روسيا قد قلص من قدرات روسيا على التدخل في المرحلة الأولى، وبالمثل أيضًا فقد كان الألمان يعتبرون الروس التهديد الأساسي الذي يحدق بهم، وبالتالي كانت خطة "شليفن" التي أشرنا إليها من قبل تعتمد على قدرة الألمان على تصفية الجبهة الغربية

سريعًا في فرنسا، ثم تنقل ثقل جيوشها (عن طريق القطارات) إلى الجبهة الشرقية بسرعة لتتمكن من مجابهة الجيوش الروسية الضخمة العدد، وكان الألمان أساسًا قد بنوا خطتهم -كما رأينا- من الاعتقاد بأن الروس سيستغرقون وقتًا كبيرًا في تعبئة قواتهم، مما يمكنهم من تدمير جيوش فرنسا، ثم الالتفات إلى الروس، وكان ذلك يسمح للألمان بحراسة شرق بروسيا بشكل خفيف بقوات قوامها جيش واحد، وهي الجيش الثامن، ومعنى ذلك أنه لم يكن هناك مجال كبير لغير انسحاب مدمر حتى تتقرر الأمور في الجبهة الغربية، ومن أجل تعطيل القوات الروسية لأطول فترة ممكنة تم تحصين المنطقة بأكملها حول "كونيجسبرج" قرب الحدود الروسية بسلسلة طويلة من التحصينات وقبل اندلاع الحرب بقليل تطور الموقف بشكل كبير، كما توقعت التقديرات، وكان الجيش الثامن الألماني إلى الجنوب الغربي من "كونيجسبرج" في المنطقة التي كانت معروفة باسم النتوء البولندي، وكانت خطط الحرب الروسية تتركز على تقدم فوري للجيش الأول بقيادة الجنرال "بافل كارلوفيتش فون رننكامبف" إلى داخل شرق بروسيا بحيث يكون الاستيلاء على "كونيجسبرج" هدفًا أوليًّا على المدى القصير، وكان على الجيش الثاني الروسي بقيادة "أليكساندر سامسونوف" والواقع إلى الجنوب أن يتحرك إلى الغرب حول بحيرات "ماسوريان" ثم يستدير شمالاً عبر منطقة تلال لقطع الطريق على القوات الألمانية والتي سيتم إجبارها قبل ذلك على الدفاع عن المنطقة المحيطة بكونيجسبرج الأمر الذي إذا نفذ بنجاح يكون الألمان قد حوصروا.

بدء المعركة

عندما بدأت الحرب على الجبهة الشرقية سارت المعركة كما خطط لها الروس، وقام الألمان بتحريك ما يقرب من نصف وحدات الجيش الثامن

مدعمة بمجموعات صغيرة من حامية "كونيجسبرج" إلى الشرق من "كونيجسبرج" قرب الحدود، ودارت معركة "شتالاويونن" وهي اشتباك صغير قام به الفيلق الأول الألماني بقيادة "هيرمان فون فرانسوا" بشكل ناجح في البداية غير أن القائد العام للجبهة الشرقية الجنرال "ماكسيميليان فون بريتفيتز" أمر بالانسحاب باتجاه "جومبينن"، وكان الهجوم المضاد المخطط له في يوم العشرين من أغسطس لديه فرصة جيدة للنجاح، ولكن "فرانسوا" على ما يبدو قد شجعه نجاحه في "شتالاويونن" فقام بالهجوم مبكرًا مما أضاع الفرصة لتحقيق المفاجأة وانتهت معركة "جومبينن" بانسحاب الألمان عن طريق السكك الحديدية في معظم الأحوال إلى مواقع جنوب "كونيجسبرج"، وبسبب قلق "بريتفيتز" من خسائره في "جومبينن" واستمرار التقدم الروسي فقد أمر بالانسحاب إلى "فيستولا"، وكان ذلك يعني أنه يترك شرق بروسيا، وعندما علم رئيس الأركان الألماني "هيلموت فون مولتكه" بذلك قام باستدعاء "بريتفيتز" ونائبه "فالدرزيه" إلى برلين، واستبدل بهما "باول فون هندنبورج" والذي تم استدعاؤه بعد أن كان قد تقاعد و"أريش فون لودندورف" كرئيس للأركان، ولم تكن الأمور كما بدت للقادة الألمان في برلين بالكامل فقد كان القائدان الروسيان "سامسونوف" و"رننكامبف" يكرهان بعضهما البعض وخصوصًا بعد ان اشتكى "سامسونوف" علنًا من سلوك "رننكامبف" في معركة "موكدن" في عام1905، وبالرغم من الاعتقاد السائد بأن الجنرالين قد اشتبكا عند محطة القطار قد ثبت عدم صحته إلا أن "رننكامبف" لم يكن يميل إلى مساعدة "سامسونوف" إلا تحت ظروف ملحة، وفي نفس الوقت فقد كانت هناك مشاكل خطيرة لدى الجيش الثاني بقيادة "سامسونوف" فيما يخص التقدم أمامًا بسبب خطوط الإمداد الهشة في المؤخرة، ولم يكن "سامسونوف" يعلم أن الجنرال "رننكامبف" قد قرر تأجيل تقدم الجيش الأول لإعادة التجميع بعد "جومبينن" غير أن

الروس كان ما يزال لديهم اليد العليا بسبب حجم القوات التي قاموا بنشرها، ولم يكن الجيش الثامن قادرًا حتى على تغطية الجبهة الكاملة للخط الذي يتقدم بطوله جيش الجنرال "سامسونوف" والذي ترك جناح اليسار لديه في الجنوب الغربي مفتوحًا ليتقدم بدون أن تواجهه مقاومة، وفي حالة إذا ما لم تتمكن القوات الألمانية الموجودة في المناطق المحيطة بالعاصمة "كونيجسبرج" وهي في تلك المرحلة الفيلق السادس عشر من التحرك لوقف التقدم الروسي فإن الألمان سيكونون في ورطة حقيقية وسيتعرضون لخطر قطع الطريق عليهم.

الخطة

كان الكولونيل "ماكس هوفمان" نائب "بريتفيتز" للعمليات على وعي جيد بالمشاكل الكبيرة بين الجنرالين الروسيين وما الذي يمكن أن يعنيه ذلك بالنسبة لخطط العمل الخاصة بجيشيهما وخمن أنهما قد يظلان منفصلين كما كانا في ذلك الوقت، واقترح تحريك كل من ليس في خط الدفاع الشرقي عن "كونيجسبرج" إلى الجنوب الغربي، وتحريك الفيلق الأول بالقطار إلى يسار خط "سامسونوف" على مسافة أكثر من مائة ميل، والفيلق السادس عشر إلى الجنوب من الأول سيتم تجهيزه للتحرك مباشرة إلى الجنوب ليواجه الجناح الأيمن لقوات "سامسونوف" الفيلق الرابع، وعلاوة على ذلك فستقوم قوات الخيالة الصغيرة في الجوار بالتحرك إلى نهر الفيستولا إلى الغرب، ويبدو أنه كان يأمل في أن تتمكن الخيالة من استدراج "سامسونوف" إلى الغرب، بحيث يلتقي الجيشان، وترك لذلك جزءا صغيرًا من منطقة "كونيجسبرج" محصنًا أمام قوات الجيش الأول بينما كانت المداخل من الجنوب مفتوحة بالكامل، ونظريًا كانت الخطة مليئة بالمخاطر، فإذا تحرك الجيش الأول إلى الجنوب الغربي

بدلاً من التقدم غربًا مباشرة باتجاه "كونيجسبرج" فسيظهر إلى أقصى الجناح الأيسر للجيش الثامن مما يسمح إما بهجوم مضاد على الجيش الثامن أو بدلاً من ذلك التحرك شمالاً باتجاه "كونيجسبرج" من الجنوب، والتي كانت غير مدافع عنها الآن غير أن "هوفمان" ظل مقتنعًا بالخطة لسببين؛ السبب الأول أنه كان مدركًا للعداوة بين الجنرالين، والسبب الثاني هو أن الروس اعتادوا أن يرسلوا أوامر التحرك عبر الراديو غير مشفرة، ويبدوا أنهم كانوا على قناعة بأن الألمان لن يستطيوا الحصول على مترجمين للغة الروسية، ولكن الألمان اعترضوا الاشارات بسهولة وقاموا بترجمتها، وعندما وصل كل من "هندنبورج" و"لودندورف" في الثالث والعشرين من أغسطس أوقفا الانسحاب على الفور، وبدءا في تنفيذ خطة "هوفمان" غير أنهما تركا الخيالة حيث كانت تشكل ستارة أو حاجزًا أمام الجناح الأيسر للجيش الروسي الأول، وتم نقل الفيلق الأول بقيادة "فرانسوا" أكثر من مائة ميل بالقطار إلى أقصى الجنوب الغربي لملاقاة الجناح الأيسر للجيش الثاني الروسي، وكان على الفيلقين الباقيين تحت تصرف "هندنبورج" بقيادة كل من "بيلوف" و"ماكنزن" أن ينتظرا الأوامر بالتحرك جنوبًا على الأقدام لمواجهة الجناح الأيمن للجنرال "سامسونوف"، وأخيرًا فيلق رابع كحامية، وهو الفيلق الأول احتياط والذي صدر له الأمر بالبقاء قريبًا من نهر الفيستولا لملاقاة "سامسونوف" عند تحرك جيشه إلى الجنوب، وبذلك تم إحكام الفخ تمهيدًا لابتلاع الروس وعلم "لودندورف" في ذلك الوقت أن "مولتكة" قد قرر سحب ثلاث فيالق من الجبهة الغربية، وإعادة نشرهم إلى الشرق واحتج "لودندورف" بأنهم قد يصلون متأخرين بحيث قد لا يكون لهم جدوى بينما يؤثرون في نفس الوقت على الجبهة الغربية بإضعاف القوات التي تحارب فرنسا هناك وكان "مولتكة" يعتبر شرق بروسيا منطقة مهمة سياسيًا ولا ينبغي فقدانها وبالتالي تجاهل احتجاجات "لودندورف".

المناوشة

اعتباراً من الثاني والعشرين من أغسطس تلاقت قوات "سامسونوف" مع الألمان بطول الجبهة التي يشغلها، وتمكنت من دفعهم إلى الخلف بنجاح في عدة أماكن وفي الرابع والعشرين من أغسطس تصادموا مع الألمان في معركة صغيرة تعرف باسم معركة "أورلاو فرانكناو" حيث تمكن الفيلق العاشر الألماني الذي كان متحصناً في خنادق منيعة من إيقاف التقدم الروسي ولم يزحزح ذلك "سامسونوف" الذي رأى فيه فرصة رائعة لتطويق تلك الوحدة تماماً حيث كان حتى الآن يعتقد بأن جناحي جيشه لم يلقيا أية مقاومة، فأمر معظم وحداته بالتوجه إلى الشمال الغربي باتجاه نهر الفيستولا تاركاً الفيلق الخامس ليستمر باتجاه هدفه الأساسي في "زيبورج" وأصدر الجنرال لودندورف" الأمر إلى الفيلق الأول بقيادة "فرانسوا" الذي كان الآن قد تم نشره بالبدء في الهجوم على الجناح الأيسر لجيش "سامسونوف" عند "أوسداو" في الخامس والعشرين من أغسطس، ورفض "فرانسوا" هذا الأمر المباشر واختار أن ينتظر حتى يكون الدعم المدفعي الخاص به جاهزاً في السابع والعشرين من أغسطس، ولما كان كل من "لودندورف" و"هوفمان" ليس لديهما أي من ذلك فقد سافرا لمقابلة "فرانسوا" ليعيدا ذلك الأمر على مسامعه ووافق "فرانسوا" على بدء الهجوم، ولكنه اشتكى من نقص الذخائر وفي طريق عودتهم من ذلك الاجتماع كان "هوفمان" قد تلقى تقريراً عن اعتراض الألمان لرسائل اللاسلكي الخاصة بالروس، والتي تفيد بأنهم يعانون نقصاً في الأسلاك ومعداتها ولم يكن لدى الروس خيار آخر غير استخدامها، وكان "رننكامبف" سيستمر في اليوم التالي في تقدمه نحو الغرب متجاهلاً "سامسونوف" وكان ذلك بالضبط هو ما يأمله "هوفمان"، وبغض النظر عن نتائج المعارك في الأيام التالية فإن الجيش الأول الروسي لن يسبب أية متاعب للألمان، وقد أوضح اعتراض الألمان لخطط "سامسونوف" أنه ينوي

الاستمرار في السير باتجاه الشمال الغربي بعد أن استنتج أن الألمان سيستمرون في الانسحاب من تاننبرج، وكان "لودندورف" و"هندنبورج" يشكان في صحة تلك الرسائل التي تم اعتراضها، وكان عسيرًا عليهم أن يصدقوا أن يقوم أي قائد بإرسال رسائله بذلك الشكل الواضح، غير أنهما اقتنعا أخيرًا بصحتها ووضعت الخطة موضع التنفيذ، وكان على الفيلق الأول أن يبدأ هجومه على الجناح الأيسر الروسي في الخامس والعشرين من أغسطس، بينما صدرت الأوامر للفيلق السادس عشر للتحرك جنوبًا لملاقاة الجناح الايمن الروسي بأسرع ما يمكن، وحيث لم تكن هناك حاجة ملحة إلى التحرك الفوري الآن فإن "فرانسوا" طلب مرة أخرى أن يتم السماح له بالانتظار حتى تصل الإمدادات الخاصة بالمدفعية، وبدأ "لودندورف" و"فرانسوا" في الجدال وفي النهاية تم التوصل إلى قرار أن يقوم "فرانسوا" بتأجيل هجومه إلى السابع والعشرين من أغسطس كما كان يرغب.

المعركة

بدأ صباح السادس والعشرين من أغسطس بتقدم الجيش الأول الروسي إلى الغرب ولم يلاقي إلا مقاومة طفيفة، وكانت القوات التي كانت في السابق في مواجهتهم قد تحركت إلى الجنوب في مواجهة الجناح الأيمن للجيش الثاني، وكان مايزال هناك وقت لإغلاق الفجوة بين الجيشين وبالتالي تهديد التحركات الألمانية والتي كان يتم تقديم تقارير بها إلى القيادة الروسية غير أنه وفي ليلة الخامس والعشرين من أغسطس أصدر القائد الميداني الأمر للجيش الروسي الأول بالاستمرار في التقدم إلى "كونيجسبرج" مباشرة، وقد تم اعتراض تلك الأوامر مجددًا، وبسبب تأخر "فرانسوا" كان الفيلق السادس عشر هو الذي بدأ بالهجوم، فقد قابلا

فـرقتين منفصـلتين مـن الفيلـق الخـامس الروسـي قـرب "زيبـورج" و"بيشوفشتاين" وتمكن من دفع كليهما إلى الحدود في حالة من الفوضى، وبذلك تم فتح الجناح الأيمن للجيش الثـاني الروسـي، وفي نفـس الوقـت استمر التقدم الروسـي باتجـاه "تـاننبرج" ليقـوم الفيلـق العاشـر الألمـاني باعتراضه، وكانت النجاحات الوحيدة التي حققها الروس في الوسط حيـث تقدم الفيلق الثالث عشر باتجاه "ألنشتاين" بدون مقاومة وشن "فرانسـوا" هجومه على الجناح الأيسر الروسـي المتكـون مـن الفيلـق الأول، وأثبتـت المدفعية أنها قادرة على حسم القتـال، وقبـل حلـول الليـل كـان الـروس يتراجعـون وفي محاولـة منـه للإبقـاء علـى الخـط مسـتقرًا أصـدر الجنـرال "سامسونوف" الأمر إلى الفيلق الثالث عشر الذي دخل "ألنشتاين" بنجاح بإخلائها والتحول إلى الجنوب الغربـي للمسـاعدة في اخـتراق "تـاننبرج"، وباكتمال تلك المناورة أصبح السواد الأعظم من الجيش الثاني الروسـي في منطقة "تاننبرج" ويتكون من الفيلـق الثالـث عشـر الـذي وصـل مـؤخرًا والفيلق الرابع عشـر والفيلـق الثالـث والعشـرين، وبحلـول ليلـة الثـامن والعشرين من أغسـطس كانـت الابعـاد الكاملـة للخطـر المحـدق بـالقوات الروسية قد اتضحت، فكان الفيلق الأول علـى اليسـار والفيلـق الخـامس على اليمين ينسحبان، وفي نفس الوقت كان الوسـط يعـاني مـن مشـاكل إمداد خطيرة ولن يمضي وقت كبير حتى يتلاشى أي أمل له في اسـتكمال الهجـوم، ولم يكـن لـدى "سامسـونوف" أي خيـار سـوى إصـدار الأمـر بالانسحاب إلى الجنوب الشرقي قرب الحدود لإعادة تشكيل الخطـوط وفي نفس الوقت طلب من "رننكامبف" أن يتجاهل "كونيجسـبرج" ويلتفـت إلى الجنوب الغربي للمساعدة، ولكن كـان الوقـت قـد فـات، فقـد تمكـن "فرانسوا" من التقدم إلى الشـرق ليشـكل خطًا إلى الجنـوب مـن القـوات الروسية بين "نيدنبورج" و"فيلنبورج" مباشرة أمام القوات المنسـحبة، وفي نفس الوقت كـان الفيلـق الخـامس عشـر في الشـمال يتحـرك لملاقاتـه في

الجنوب الغربي، وفي اليوم التالي كانت القوات الروسية في الوسط قد قابلت تلك القوات في طريقهم إلى إعادة التجميع وأدركوا أنهم قد حوصروا في جيب تشكل إلى الشرق من "تاننبرج" قرب القرية المعروفة باسم "فروجناو"، حيث تم سحقهم في التاسع والعشرين من أغسطس، وحاول الجيش الأول الروسي القدوم لمساعدتهم ولكنهم كانوا قد تأخروا جدًّا، وقد أثبتت ستارة الخيالة أنها فعالة إذ قامت بتعطيل القوات الروسية، وقبل انتهاء المعركة بالفعل كانت أقرب الوحدات لا تزال إلى الشمال الغربي من نقطة التماس الأولية بين الفيلق السادس عشر الألماني والفيلق الخامس الروسي على بعد حوالي اثنين وسبعين كيلومترًا من الجيب الذي أقفلته عليهم القوات الألمانية، وكانت هناك وحدات أخرى مبعثرة بطول خط "كونيجسبرج"، وكان الجيش الأول ممتدًّا بشكل يمثل خطورة وقبل انتهاء المعركة في الثلاثين من أغسطس كان الألمان قد نجحوا في أسر خمسة وتسعين ألفًا من القوات الروسية، وتم قتل ثلاثين ألفًا آخرين، وتمكن حوالي عشرة آلاف فقط من الهرب، وكان معظمهم من الجناحين المنسحبين ولم يعد هناك وجود الآن لما يسمى بالجيش الثاني الروسي، وتكبد الألمان خسائر أقل من عشرين ألف، وتمكنوا من الاستيلاء على أكثر من خمسمائة مدفع، وتطلب الأمر ستين قطارًا لنقل المعدات التي تم الاستيلاء عليها إلى ألمانيا، وبدلا من ان يبلغ قائد ما كان يعرف بالجيش الثاني الروسي الجنرال "سامسونوف" خسارته إلى القيصر أطلق النار على نفسه في يوم التاسع والعشرين من أغسطس.

ملخص معركة "تاننبرج"

عثر في جيب أحد الضباط الروس القتلى على كتيب يكشف نوايا القيادة الروسية، وكشف عن أن جيش الجنرال "رننكامبف" كان عليه أن

يجتاز بحيرات "مازوريان" في الشمال ويتقدم في مواجهة خط "أنستربورج - أنجربورج"، وكان مقررًا أن يهاجم القوات الألمانية التي كان مفترضًا أن تكون خلف "أنجراب" بينما يقوم جيش "ناريف" باجتياز خط "لوتسن - أورتلسبورج" لمهاجمة الألمان من الأجناب، وكان الروس يخططون من وراء ذلك لهجوم مركز على الجيش الثامن الألماني، ولكن جيش "سامسونوف" كان ممتدًّا بشكل أكبر إلى الغرب أكثر مما كان مقررًا، ما الذي يمكننا فعله لمواجهة تلك الخطة الخطيرة للعدو؟ وكان الخطر المحدق أقل عندما نحسبه بمعيار جرأة الفكرة عما إذا كنا حسبناه بمعيار الحسابات المنطقية لقوة الخصم وخصوصًا القوة العددية المتوفرة لدى الروس، وكنا نأمل أن تكون الأمور مختلفة بمقياس قوة الإرادة فخلال شهري أغسطس وسبتمبر حشدت روسيا ما لا يقل على ثمانمائة ألف رجل وألف وسبعمائة مدفع في مواجهة شرق بروسيا والتي لم نكن قد خصصنا للدفاع عنها أكثر من مائتي وعشرة ألف جندي وستمائة مدفع كانوا تحت تصرفها، وكانت إجراءاتنا المضادة بسيطة، وسأحاول هنا أن أوضح الخطوط العامة لخطتنا للقارئ حتى وإن كان غير خبير ففي المقام الأول كنا نواجه السواد الأعظم لجيش "سامسونوف" بوسط رقيق، وأقول: رقيقًا وليس ضعيفًا لأنه كان يضم رجالاً لهم قلوب وإرادة كالصلب، فكانت بيوتهم خلفهم وزوجاتهم وأطفالهم ووالدوهم وأقاربهم وكل ما يمتلكونه، كانوا رجال الفيلق العاشر البروسيون الشجعان، وكان من الممكن أن ينحني هذا الوسط الرقيق تحت ضغط العدو ولكنه لم يكن لينكسر، بينما كان ذلك الوسط على جانبيه يضم مجموعتين مهمتين على جناحيه واللتان كان عليهما أن تقوما بالهجوم الحاسم، وكانت قوات الفيلق الأول والتي تم تعزيزها بقوات "اللاندفير" والذين كانوا بالمثل من أبناء مناطق مهددة والذين تم نقلهم إلى أرض المعركة من اليمين ومن الشمال الغربي وقوات الفيلق السابع عشر والفيلق الأول احتياط مع لواء

من "اللاندفير" من اليسار والشمال والشمال الشرقي على التوالي، وكان وراء هؤلاء الرجال -رجال الفيلق السابع عشر والفيلق الأول احتياط وكذلك "اللاندفير" وقوات "اللاندشتورم"- ما يجعل الحياة ذات قيمة، ولم يكن علينا فقط أن ننتصر على جيش "سامسونوف" بل كان علينا إبادته وبهذا فقط كان يمكننا أن نتعامل مع الجيش الآخر بقيادة "رننكامبف" الذي كان يقوم بسلب وحرق شرق بروسيا، وبذلك فقط يتسنى لنا أن نحرر أرضنا البروسية القديمة، وأن نكون في موقع يمكننا من عمل شيء آخر كان متوقعا منا وهو التدخل في المعركة الكبيرة الدائرة بين روسيا وحليفتنا النمسا والمجر في "جاليسيا" وبولندا، وإذا لم تكن تلك الضربات الأولى حاسمة فسيبقى الخطر على وطننا مثل المرض البطيء فستبقى جرائم الحرق والقتل في شرق بروسيا بدون قصاص، وسينتظرنا حلفاؤنا في الجنوب بدون جدوى وكانت الظروف والحال كذلك تتطلب إجراءات كاملة كان علينا أن نقامر بكل ما لدينا بأفضل قدر من المناورة بحيث لا نفقد شيئًا وكانت قلاع "جراودينتس" قد لفظت الكثير من قوات "اللاندفير" القادرين على القتال في الميدان، وعلاوة على ذلك كانت قوات "اللاندفير" تأتي من الخنادق بين بحيرات "مازوريان" والتي كانت تغطي عملياتنا الجديدة في الشرق، وقاموا بتسليم الدفاعات هناك إلى عدد أقل من قوات "اللاندشتورم" وبمجرد انتصارنا في المعركة فلن نعود بعدها في حاجة إلى قلاع "تورن" و"جراودينتس"، وحينها لن يعود هناك ما يقلقنا بخصوص الممرات بين البحيرات، وكان على فرقة الخيالة وحامية "كونيجسبرج" بلوائين من "اللاندفير" أن يظلا ليواجها "رننكامبف" والذي يمكن أن ينقض علينا مثل الانهيار الجليدي من الشمال الشرقي في أي وقت، ولكن في تلك اللحظة لم يكن يمكننا بعد القول ما إذا كانت تلك القوات ستكون كافية أم لا، وكانوا يشكلون غلالة رقيقة يمكن لصفوف "رننكامف" تمزيقها بسهولة إذا تحركت أو إذا

تقدمت سرايا خيالته بأعدادها التي لا تحصى والتي كنا نخشى تحركها، ولكنها ربما لا تتحرك، وفي تلك الحالة يمكن أن تكفي تلك الغلالة لتغطية نقاط ضعفنا، وكان علينا أن نخاطر في الأجناب والمؤخرة إذا أردنا أن نكون أقوياء عند النقطة المهمة، وتمنينا أن ننجح في خداع "رننكامبف" وربما كان هو الذي سيخدع نفسه فقد توهم قلعة "كونيجسبرج" القوية وحاميتها وكذلك خيالتنا خيال عدونا بحجم قوات كبيرة، ولكن حتى بافتراض أن "رننكامبف" غرق في الوهم الذي نريد إحكامه حوله ألن تحثه قيادته العليا على الزحف في اتجاه الجنوب الغربي باتجاه مؤخرة قواتنا؟ ألن يستجيب جيش "رننكامبف" بسرعة محمومة لنداء "سامسونوف" طالبًا المساعدة؟ وحتى إذا لم يستجب ألن تصل أصداء المعركة إلى الخطوط الروسية شمال البحيرات بل إلى قيادة العدو نفسها؟ وكان الاحتياط من "رننكامبف" لكل تلك الأسباب واجبًا بالرغم من أننا لم نتمكن من تنفيذ تلك لاحتياطات إلى الدرجة التي تمكننا من ترك حامية قوية وراءنا وإلا وجدنا أنفسنا أكثر ضعفًا في المعركة مما ينبغي، وعندما نفكر في الأرقام على الجانبين أظهرت المقارنة بين قواتنا والقوات الروسية أن الكفة ترجح لصالحهم، وحتى لو عددنا في جانبنا اللوائين من اللاندفير واللذين أتيا من شليزفيج هولشتاين حيث كانا يستخدمان من أجل حماية الساحل هذا بافتراض أنهما سيصلان في الوقت المناسب إلى المعركة، وكذلك بافتراض أن "رننكامبف" لم يتحرك ولم يلعب أي دور، وعلاوة على ذلك يجب أن نتذكر أن جانبًا كبيرًا من القوات البرية لاندفير Landwehr وقوات الاقتحام البرية المسماة لاندشتورم Landsturm كان عليه أن يحارب في الخطوط الأولى رجالاً كبارًا في السن ضد زهرة شباب روسيا، وكان لدينا نقطة ضعف أخرى كما أملاها الموقف علينا وهي أن أولئك الذين كان عليهم توجيه ضربة الإجهاز النهائية كانوا منهمكين في معارك شديدة وباهظة التكلفة، ألم يكونوا مجبرين على ترك ميدان المعركة

في جومبينن Gumbinnen للروس؟ لذلك لم يكن الجنود يزحفون بذلك الفخر الذي يميز المنتصرين، ولكنهم ومع ذلك كانوا يندفعون إلى المعركة بقلوب تملؤها الشجاعة وبثقة لا تهتز، وقد أبلغنا أن معنوياتهم كانت جيدة، وكان ذلك هو مبرر القرارات الجريئة، وحيث كانت تلك الثقة تهتز فلم تكن القرارات الجريئة تفشل في استعادتها، وكان الأمر كذلك قبل هذا فهل يمكن الآن أن يتغير؟ وليس لدي أي شك في أننا أقل عدديًّا ولكن من يجري الحسابات فقط معتمدًا على المشاهدات فلابد أن حساباته ستكون خاطئة، ولكن جدارة الجندي الداخلية هي كل شيء، وعلى هذا بنيت ثقتي.

ماذا كنت أعتقد بيني وبين نفسي؟

يمكن للروس أن يغزو وطننا ويمكن حينئذ حين يطئوا أرضنا بأرجلهم أن ترتفع معنوياتهم، ولكن ذلك لا يجعلهم جنودًا ألمان، وأولئك الذين يقودونهم ليسوا ضباطًا ألمان، وكان الجنود الروس قد حاربوا في ميادين معارك مانشوريا بكل الطاعة بالرغم من عدم تعاطفهم مع الطموحات السياسية لحكامهم في الباسيفيكي ولم يبدو لي أن الجيش الروسي في حربه مع دول المحور سيكون أكثر حماسًا لأهداف الحرب التي يطمح لها القيصر، ومن ناحية أخرى وعندما قلبت الأمر من كل جوانبه في رأسي فقد اعتبرت أنه لا الجنود ولا الضباط الروس سيظهرون أية كفاءات عسكرية في المسرح الأوربي أكثر من تلك التي أظهروها في المسرح الآسيوي، وأعتقد أنه من حقي أن أثق في جانبنا أكثر على أساس القيمة الجوهرية بدلاً من النقص العددي لقواتنا، كانت هذه خطتنا وكان هذا هو خط تفكيرنا قبل وأثناء المعركة، وقد ضغطنا تلك الأفكار والنوايا في تقرير قصير والذي أرسلناه من مارينبورج Marienburg إلى القيادة العامة في الثالث والعشرين من أغسطس.

"تركيز الجيش لهجوم بغرض التطويق في منطقة الفيلق العاشر تم التخطيط لها في السادس والعشرين من أغسطس".

وفي ليلة الثالث والعشرين مشيت قليلاً على الضفة الغربية لنهر نوجات Nogat من هناك كانت الأسوار الحمراء للقلعة الأبية للفرسان التيوتونيين أكبر لبنة في الآثار القوطية البلطيقية تصنع صورة جميلة حقا في ضوء المساء، واختلطت في ذهني صور للفروسية النبيلة القديمة بدون قصد مني مع صور المستقبل الغامض، وكان منظر اللاجئين يمرون إلى جانبي وأنا في مقاطعتي قد عمق الإحساس بالمسئولية الذي تملكني وكانت تلك ذكرى سوداوية ذكرتني بأن الحرب لا تؤثر فقط على الجندي المقاتل، ولكنها تجلب ألف كارثة للإنسانية بتدمير أساسيات وجودها، وفي الرابع والعشرين من أغسطس ذهبت مع أركاني إلى قيادة الفيلق العاشر ودخلت القرية التي كان عليها بعد قليل أن تعطي اسمها للمعركة التي كانت على وشك الاندلاع.

تاننبرج Tannenberg كلمة حبلى بذكريات أليمة للفروسية الألمانية صرخة النصر التي أطلقها السلافيون اسم ما يزال طاعنًا في ذكرياتنا بعد أكثر من خمسمائة عام من التاريخ، وقبل ذلك اليوم، لم أكن قد رأيت ميدان المعركة الذي أثبت أنه قدري للحضارة الألمانية في الشرق، وكان الأثر البسيط هناك يحمل شاهدًا صامتًا على أفعال وموت الأبطال وفي أحد الأيام التالية وقفنا إلى جانب ذلك الأثر بينما كان على الجيش الروسي بقيادة سامسونوف أن يواجه مصيره المحتوم بالهلاك، وفي طريقنا من مارينبورج إلى تاننبرج كان انطباعنا بالأثر الذي تتركه الحرب على الأهالي البؤساء لتلك المنطقة يتزايد فكان اللاجئون قليلو الحيلة يتدافعون زرافات ووحدانا إلى جانبنا حاملين معهم أمتعتهم ومتعلقاتهم وإلى حد ما عطلوا تحركات قواتنا عن التقدم في بعض المناطق، بينما كنا نحن على

عجلة من أمرنا للقاء العدو وبين ضباط رئاسة أركان الفيلق وجدت الثقة والعزم اللذين كانا مهمين وجوهريين لنجاح خطتنا، وعلاوة على ذلك كان لديهم رأي جيد عن معنويات قواتنا، الأمر الذي كنا بحاجة إليه في تلك النقطة، الحركة من المعركة، ولم يحمل الصباح لنا معلومات حاسمة لا عن عمليات رننكامبف Rennenkampf ولا عن تحركات سامسونوف، ولكن تلك المعلومات على ما يبدو كانت تؤكد حقيقة أن رننكامبف يتحرك إلى الأمام ببطء شديد ولم يكن في مقدورنا تبين السبب الذي يدفعه إلى ذلك، وعن جيش ناريف Narew علمنا أن صفوفه الرئيسية كانت تندفع إلى الأمام باتجاه الفيلق العاشر، وتحت ذلك الضغط رفض ذلك الفيلق جناحه الأيسر ولم يكن هناك ما يثير الريبة حيال ذلك الإجراء بل بالعكس فإن العدو إذا تابع سيقوم ذلك بكشف جناحه الأيمن بكفاءة للعمود الأيسر الخاص بنا والذي سيقوم بعملية التطويق والذي كان يزحف على بيشوفسبورج Bischofsburg، ومن ناحية أخرى فإن التحرك العدواني باتجاه جناحنا الغربي وباتجاه لاوتنبرج Lautenburg والذي كان على ما يبدو يجري على قدم وساق قد اجتذبت أنظارنا، حيث سببت لنا بعض التوتر، وكان لدينا الانطباع بأن الروس يفكرون بتطويقنا بدورهم عند تلك النقطة، وأنهم يتقدمون باتجاه مجنبتنا، ولكن الخامس والعشرين من أغسطس أعطانا صورة أوضح عن تحركات رننكامبف، فقد كانت صفوفه تزحف من أنجيراب Angerapp وبالتالي باتجاه كونيجسبرج Konigsberg فهل تخلى الروس عن خطتهم الأصلية؟ أم هل خدعت تحركاتنا القادة الروس وشكوا في أن قواتنا الرئيسية كانت داخل وحول القلعة؟ وعلى أي حال يجب علينا الآن ألا نتردد على الإطلاق في أن نترك غلالة رقيقة في مواجهة قوات رننكامبف الضخمة، وفي ذلك الوقت كان من الواضح أن سامسونوف الذي يتحسس طريقه كان يوجه صفوف قواته الرئيسية باتجاه الفيلق الألماني العشرين، وكان

الفيلق على الجناح الروسي الأيمن ولا شك يتجه إلى بيشوفسبورج Bischofsburg أي باتجاه فيلقنا السابع عشر والفيلق الأول احتياط والذي كان قد وصل إلى المنطقة شمال القرية في ذلك اليوم، وعلى ما يبدو كانت القوات الروسية الضخمة تحتشد في ملافا Mlawa، وكان هذا اليوم هو نهاية مرحلة التوقعات والتحضيرات، وكنا قد جلبنا الفيلق الأول إلى الجناح الأيمن للفيلق العشرين، وكان يمكن للهجوم العام أن يبدأ، وكان يوم السادس والعشرين من أغسطس هو أول أيام تلك المعركة الشرسة والتي دارت رحاها من لاوتنبورج Lautenburg إلى شمال بيشوفسبورج Bischofsburg، ولم تبدأ الدراما التي انكشف عنها الستار والتي امتدت مرحلتها إلى أكثر من ستين ميلاً بخط قتالي مستمر وبإرسال جماعات لا بعملية واحدة يمكن احتواؤها، ولكن بسلسلة من المشاهد كان الجنرال فون فرانسوا von Francois يقود قواته الشجاعة من شرق بروسيا على الجناح الأيمن، وقد اندفعوا إلى الأمام باتجاه Usdau وفي ذهنهم، أن يجتاحوا المدخل إلى ذلك الجزء من الجبهة الجنوبية للمعركة في اليوم التالي، وبالتدريج نفض الفيلق الرائع الذي يقوده الجنرال فون شولتز von Scholtz عن نفسه أغلال الدفاع ووهبوا أنفسهم لعملية الهجوم، وشهد ذلك اليوم قتالاً شرسًا حول بيشوفسبورج Bischofsburg، وبحلول الليل كان قد تم القيام بعمل رائع من جانبنا حتى تلك اللحظة ففي سلسلة من الضربات القوية كان الجناح الأيمن لسامسونوف قد هزم وأجبر على التراجع إلى أورتلسبرج Ortelsburg من قوات ماكنزن Mackensen وبيلوف Below الفيلق العاشر والأول احتياط، وكذلك القوات الأرضية Landwehr ولم يكن بمقدورنا حتى ذلك الحين إدراك حجم انتصارنا، وقد توقعت الأركان أن تجد في مواجهتنا في اليوم التالي المقاومة العنيدة إلى الجنوب من ميدان القتال ذلك اليوم، ولكن مع ذلك كانت ثقتهم عالية وبدا الآن جليًا أن الخطر الذي يهددنا كان من ناحية رننكامبف، وتم

إبلاغنا أن واحدًا من فيالقه كان يزحف عبر أنجربـورج Angerburg فهـل لن يجد طريقه إلى مؤخرة قواتنا التي تقوم بالتطويق مـن اليسـار؟ وعـلاوة على ذلك جاءت أنباء مزعجـة مـن قواتنـا علـى الأجنـاب ومـن مـؤخرة جناحنا الغربي أن قوات خيالة روسية قوية كانت تتحرك بعيـدًا هنـاك في الجنوب، ولم نتمكن من اكتشاف ما إذا كانت تتبعها مشـاة أم لا، وبـدت الازمة التي غلفت القتال تلوح في الأفق وكان هنـاك سـؤال فـرض نفسـه علينا وهو: كيف سيتطور الموقف إذا فرضت تلك التحركات القوية للعـدو وتفوقه العددي علينا تأخير قرارنا لمدة أيام؟ والمفاجئ هل لتلك الهـواجس أن تملأ القلوب حتى أن العزم القوي قد يبدأ في التحول إلى تـردد؟ وهـل تتسلل الشكوك وتتحول إلى رؤية واضحة؟ وهل لن يكون أكثر حكمة أن نقوي خطوطنا لنواجه رننكامبف مرة أخرى، وأن نكتفي بإجراءات بسيطة في مواجهة سامسونوف؟ ألم يكن من الأفضل أن نتخلى عن فكـرة تـدمير جيش ناريف Narew لكي نحصن أنفسنا من التدمير؟ وقـد تغلبنـا علـى الأزمة الداخلية التي غلفت نوايانا الأصلية وتحولنا بكل قوتنا إلى تحقيقهـا عن طريق الهجوم، ولذا فقد تم إصـدار الأمـر إلى جناحنـا الايمـن بالتقـدم مباشرة إلى نايدنبورج Neidenburg والجناح الأيسر الذي يقـوم بـالتطويق لاتخاذ مواقعه في الساعة الرابعة صباحًا والتدخل بكل قوته، وأظهر السـابع والعشرين من أغسطس أن انتصار الفيلق الأول احتيـاط والفيلـق السـابع عشر في بيشوفسبورج Bischofsburg في اليوم السابق كان له نتائج عميقة جدًا فالعدو لم ينسحب فقط، ولكنه كـان في الحقيقـة يهـرب مـن ميـدان المعركة، وعلاوة على ذلك علمنا أن تقدم رننكامبف باتجاه مؤخرة قواتنـا كان مجرد خيال لأحد الطيارين والحقيقة الجافة هي أنه كان فقـط يضـغط باتجـاه كونيجسـبرج Konigsberg فهـل رأى أو لم يـر أن الجنـاح الأيمـن لسمامسونوف كان مهددًا بالهلاك الكامل، وأن الخطر على جناحه الأيسـر كان كذلك يتزايد من ساعة لأخرى؟ لأنه حدث في ذلك اليوم أن قام كل

من فرانسوا Francois وشولتز Scholtz باجتياح خطوط العدو في أوسداو Usdau وإلى الشمال منها وهزموا عدونا الجنوبي، والآن وعندما ضغط وسط العدو إلى الأمام باتجاه ألنشتاين - هوهنشتاين Allenstein-Hohenstein فلم يعد ذلك نصرًا ولكن كان تدميرًا استدرجناه إليه، وبالنسبة لنا كان الموقف واضحًا وفي مساء ذلك اليوم أعطينا أوامر بالتطويق الكامل لجيش العدو بفيلقيه الثالث عشر والخامس عشر، واستمرت المعارك الدموية في الثامن والعشرين من أغسطس، وفي التاسع والعشرين من أغسطس رأى جزء كبير من الجيش الروسي أنه يواجه التدمير الكامل في هوهنشتاين Hohenstein، وتم الوصول إلى أورتلسبورج Ortelsburg من الشمال وفيلنبرج Willenberg عبر نايدنبورج Neidenburg من الغرب، وبدأت الحلقة حول الآلاف والآلاف من الروس تضيق، وحتى في ذلك الوضع اليائس كان هناك الكثير من البطولات الروسية من أجل القيصر بطولات حمت شرف السلاح، ولكنها لم تنجح في إنقاذ المعركة، وفي تلك الاثناء كان رننكامبف يستمر في تقدمه إلى كونيجسبرج Konigsberg وكان سامسونوف قد ضاع في اللحظة التي كان رفيقه يعطي دليلاً على أنه أفضل من الناحية العسكرية ولأننا كنا في الحقيقة في وضع يسمح لنا بسحب قوات من جبهة المعركة لتغطية أعمال التدمير التي كنا منهمكين فيها في المفرمة الكبيرة نايدنبورج Neidenburg فيلنبرج Willenberg وباسنهايم Passenheim والتي ظن سامسونوف أنه سيموت فيها من جراء اليأس الذي أحاط به، وبدأت صفوف الأسرى الآتية من تلك المفرمة في التضخم، وكان ذلك هو الدليل المتزايد على عظمة انتصارنا وكان من حظنا أن كان في أوستيرود Osterode احدى القرى التي جعلنا مقر قيادتنا فيها خلال المعركة أن استقبلت أحد قادة الفيلقين الروسيين اللذين تم أسرهما في نفس المبيت الذي أويت إليه عندما سافرت مع هيئة الأركان في عام1881 عندما كنت ضابط أركان

صغير، والآخر كان قد تم إيصاله إلي في مدرسة قمنا بتحويلها إلى مكتب، وفي اثناء سير المعركة اكتشفنا مدى حجم المواد التي كانت تحت تصرف القيصر بشكل عام، وقد خلق ذلك لدي الانطباع بأنها لا شك تحتوى على بعض الخصائص التي تستحق التدريب، وكما حدث في عامي1866 و1870 لاحظت في تلك المناسبة كيف نسي الضباط والجنود الألمان بإحساسهم الحماسي واحترافهم كل شيء عن العدو العاجز في الأسر، وسرعان ما انحسرت الرغبة في القتال لدى رجالنا، وتحولت إلى تعاطف إنساني عميق ولم يتمكن رجالنا من السيطرة على مشاعرهم تجاه القوزاق وحدهم، فقد كانوا يعتبرونهم السبب الرئيسي في كل الأعمال الوحشية الحيوانية التي عانى منها بشدة الشعب والبلد في شرق بروسيا، وكان القوزاق على ما يبدو منعدمي الضمير فكلما كان الواحد منهم يحس باقتراب آسره كان يبذل أقصى جهده لإزالة الشريط العريض على سرواله والذي يميزه، وفي الثلاثين من أغسطس قام العدو بحشد قوات جديدة في الجنوب والشرق وحاول كسر الطوق من الخارج من ميشانيتسMyszaniec أي من اتجاه أوسترولينكا Ostrolenka فأحضر صفوفاً جديدة وقوية إلى نايدنبورج Neidenburg وأورتلسبورج Ortelsburg ضد قواتنا التى كانت قد استكملت تطويق الوسط الروسي بالفعل، وكانت مؤخرتهم إلى الآن باتجاه العدو الجديد وكان هناك خطر في الطريق وذلك لأن الطيارين أبلغوا وقتها أن صفوف العدو بطول ثلاثة وعشرين ميلاً - ولذا كانت قوية جداً - وكانت تضغط إلى الأمام من ملافا Mlawa، ولكننا مع ذلك رفضنا التخلي عن فريستنا فقد كان يجب الإحاطة بقوات سامسونوف الرئيسية وإبادتها، وارسل كل من فرانسوا Francois وماكنزن Mackensen احتياطياتهما (وفي الحقيقة كانت احتياطيات ضعيفة)، وذلك لملاقاة العدو الجديد، وكانت محاولة الروس لانتشال قوات سامسونوف من الكارثة قد باءت بالفشل، وبينما كان اليأس يسيطر على من كان بداخل الحلقة

المميتة، وكان ضعفهم الظاهر قد جعل أولئك الذين أرسلوا لنجدتهم يحجمون عن ذلك وفي هذا الصدد فإن مسار أحداث معركة تاننبرج Tannenberg قد أكد خبرتنا الإنسانية والعسكرية كما في الأيام الخوالي، وكانت حلقتنا النيرانية حول جموع الروس المتكدسين والذين تأرجحوا بين هذا الاتجاه وذاك قد بدأت تضيق مع مرور الوقت، وبدا أن رننكامبف ينتوي مهاجمة خط نهر الديم Deime إلى الشرق من كونيجسبرج Konigsberg وبين لابياو Labiau وتابياو Tapiau في ذلك اليوم، وكانت جموع قوات خيالته تقترب من ميدان القتال في تاننبرج من منطقة لاندسبرج Landsberg وبارتنشتاين Bartenstein، غير أننا قد قمنا بالفعل بحشد قوات قوية منهكة ولكن يتوجها النصر للدفاع عن المنطقة المجاورة لألنشتاين Allenstein وكان يوم الحادي والثلاثين من أغسطس هو يوم الحصاد لقواتنا، وكانت ما تزال مشتبكة، وبالنسبة لقادة قواتنا كان يومًا للمداولة عن مسار العمليات المستقبلية، وبالنسبة لرننكامبف كان يوم الانسحاب إلى خط ديم - ألينبورج - أنجربورج Deime-Allenburg-Angerburg، وبحلول بواكير يوم التاسع والعشرين من أغسطس كان مسار الأحداث قد مكنني من الإبلاغ عن انهيار الجيش الروسي بالكامل في ناريف Narew إلى القيادة العليا، وفي ذلك اليوم وصلني في ميدان المعركة شكر القيصر باسم الوطن، ونقلت شكره بلساني وقلبي إلى رئيس أركاني وإلى قواتنا الرائعة وفي الحادي والثلاثين من أغسطس كان بمقدوري أن أبعث بالتقرير التالي للإمبراطور:

"أود أن أنقل لجلالتكم أن الطوق حول الجزء الأكبر من الجيش الروسي قد تم إغلاقه أمس، وتم تدمير الفيلق الثالث عشر والخامس عشر والثامن عشر، وأخذنا بالفعل أكثر من ستين ألف أسير وبينهم قائدا الفيلقين الثالث عشر والخامس عشر، وما تزال المدافع في الغابة، ويتم الآن جلبها

والغنيمة ضخمة غير أنه لا يمكن تقديرها بالتفصيل الآن وقد تكبدت الفيالق الموجودة خارج الطوق، وهما الفيلق الأول والفيلق السادس خسائر كبيرة، ويقومون الآن بالانسحاب بتسارع محموم عبر ملافا Mlawa وميشانييتس Myszaniec، وقد قامت القوات وقادتها بأعمال ومآثر فوق العادة".

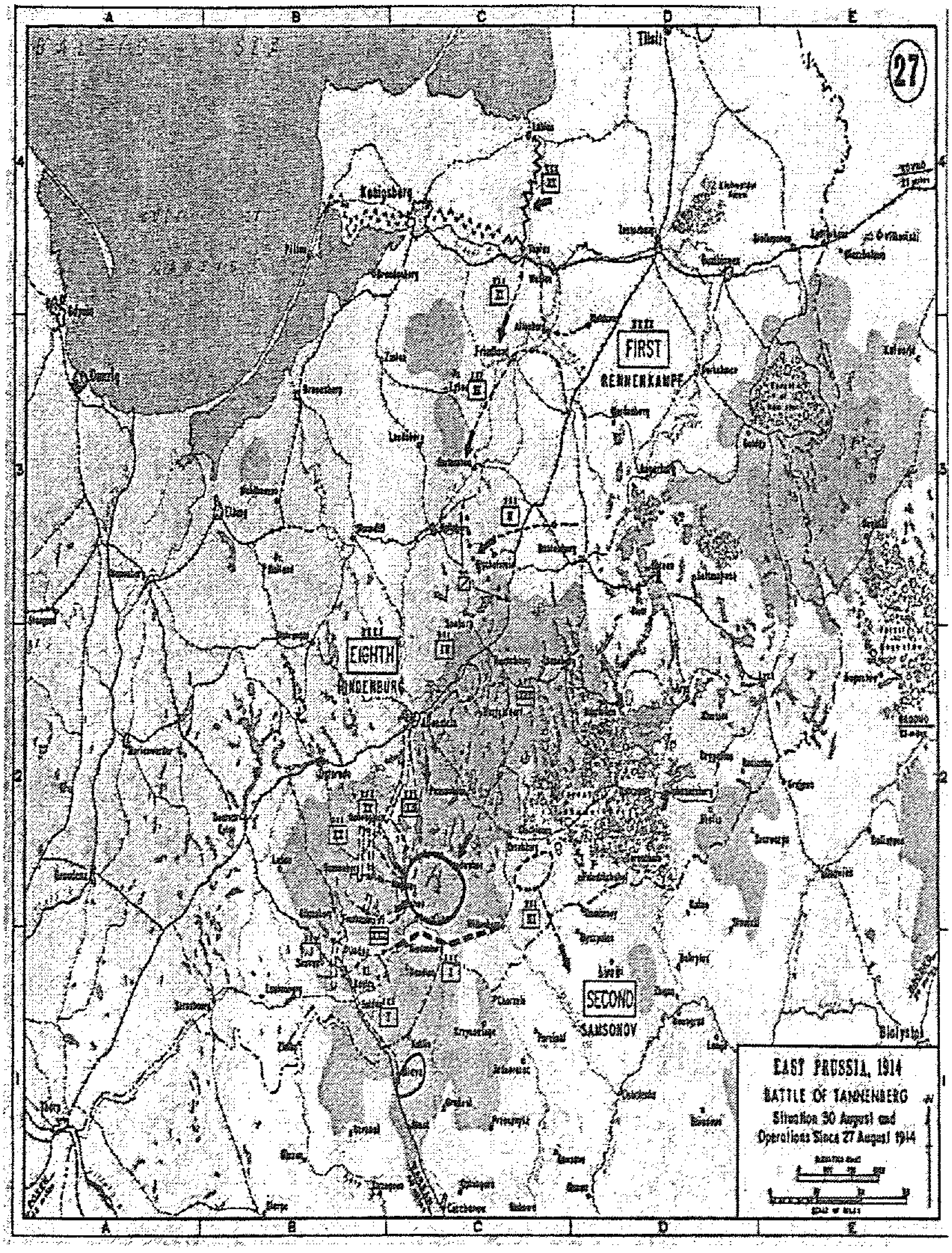

الوضع ليلة الثالث والعشرين من اغسطس

وفي مقر قيادتنا الجديد دخلت إلى الكنيسة قرب القلعة القديمة للفرسان التيوتونيين بينما كانت الصلاة تقام وعندما ختم رجل الكنيسة كلماته ركع كل الحاضرين من الجنود الشباب إلى جنود اللاندشتورم Landsturm كبار السن متأثرين بما تم إنجازه وكانت تلك خاتمة جيدة لإنجازاتهم البطولية.

معركة بحيرات مازوريان

تعد معركة بحيرات مازوريان من أهم المعارك التي دارت على الجبهة الشرقية فبعد إبادة الجيش الثاني الروسي وانتحار قائده الجنرال سماسونوف، كانت الخطة الروسية التي تهدف إلى الاستيلاء على شرق بروسيا من خلال هجوم تشنه القوات الروسية من الجنوب والشمال الشرقي قد فشلت، ومع ذلك لم يكن التهديد المحدق بالجهات الشرقية لألمانيا قد انتهى بعد، وكان جيش رننكامبف والذي لم يتدخل في معركة تاننبرج قد انسحب إلى مواقع دفاعية، وفي تلك الأثناء كانت رئاسة أركان الجبهة في الجنوب الشرقي لشرق بروسيا بقيادة الجنرال شيلينسكي Schilinski قد شكلت الجيش العاشر حتى يتم استخدامه إذا لاحت فرصة لهجوم جديد، ولم تكن القياد الروسية قد تخلت بعد عن فكرة شن هجوم على الأراضي الألمانية بالرغم من الكارثة التي حاقت بالجيش الثاني الروسي حيث كان ذلك الاتجاه يشتد يومًا بعد آخر نتيجة للضغط المستمر الذي تمارسه حليفة روسيا -آنذاك فرنسا- وكان رننكامبف قد أطاع بكل سرور أوامر شيلينسكي التي جعلت من تقديم المساعدة للجيش الثاني في معركة تاننبرج أمرا مستحيلا، وكانت قواته تتخذ أوضاعا دفاعية وكان يطمح في تجميع المزيد من القوات وحصل بالفعل على تعزيزات حتى وصل مجموع القوات التي يقودها إلى اثنتي عشرة

فرقة، وكان كذلك يأمل في الحصول على تعزيزات من الجيش العاشر المشكل حديثًا والذي كان يحتاجه لتأمين جيشه بتغطية الأجناب، ولم يقف الجيش الألماني الثامن مكتوف الأيدي فقد جلب له قائده السابق فون بريتفيتس تعزيزات من الجبهة الغربية قبل أن يعزله مولتكه ويعين الثنائي هندنبورج ولودندورف -كما ذكرنا سلفا- وبالطبع غادرت تلك التعزيزات فرنسا في طريقها إلى الجبهة الشرقية، وبذلك وصل حجم التعزيزات التي حصلت عليها القوات الألمانية على الجبهة إلى خمس فرق مشاة وفرقة خيالة، وبذلك كانت القوات الألمانية تتفوق على القوات الروسية بحوالي الثلث تقريبًا.

المعركة

أعطى التفوق الألماني في القوات رئاسة الأركان الألمانية مساحة تكتيكية تتحرك فيها بحرية بالرغم من أنها لم تكن ذات بال، وكان حل المشكلة هو وضع تفوق عددي محدود عند أحد مواقع العدو الضعيفة لفتح ثغرة في دفاعات الروس، وكان لودندورف قد اختار تلك الطريقة وفقا للنموذج الذي جرى اتباعه في تاننبرج، وتمت إعادة تنظيم القوات بمعاونة شبكة السكك الحديدية، وتم وضعها في موقع مواجه للجيش الأول الروسي، ومثلما حدث في معركة تاننبرج كان فيلق الجنرال فون فرانسوا المتكون من ثلاث فرق هو الذي سيقوم بتنفيذ الدور الحاسم في عملية الهجوم على الجناح الأيسر الروسي، وبذلك تعرفت القيادة الألمانية على الموقع الضعيف للجيش الروسي، وكان القائد الروسي يقوم بحساباته على أساس معلومات الاستطلاع المتخبطة حيث يشن هجوما من كونيجسبرج الخالية من السكان، ويركز فيالقه إلى الشمال الغربي ضد عاصمة بروسيا الشرقية، وكان جناحه الأيسر يتكون أساسًا من فرق احتياط مدعومة

بالخيالة، وكانت تتمركز في منطقة بحيرات مازوريان، وكانت حسابات رننكامبف بناء على ذلك أن الأرض التي تشقها مساحات مائية ستعيق أي هجوم ألماني، وتجاهل رننكامبف آراء الضباط الصغار حول الموقع الذي ستتخذه القوات الروسية في تلك المنطقة، وبدأ فون فرانسوا هجومه بتفوق عددي بنسبة ثلاثة إلى واحد، وكبدت وحداته على الجبهة القوات الروسية خسائر فادحة، وكانت المساحات المائية التي تملأ الأرض قد زادت من عدم ملائمة الوضع، حيث وبسبب وعورة الأرض وصعوبة السير فيها كانت الكتائب بالكاد تستطيع الاتصال ببعضها البعض، علاوة على صعوبة الاحتفاظ بالتنسيق المتبادل لتقديم العون، وتفاقم الأمر عندما رفض قائد الجيش العاشر تقديم المساعدة للقوات الروسية التي كانت في وضع صعب، وبذلك لم تعد هناك فرصة لشن هجوم مضاد روسي، وعندما كان الهجوم الألماني في ذروة نجاحه تمكنت القوات الألمانية من أسر ثلاثين ألفاً من القوات الروسية والاستيلاء على قطع مدفعية الفرق الروسية التي تدافع عن الموقع، وفقاً لخطة القيادة الألمانية كان على الفيالق التي المهاجمة أن تقوم بتطويق القوت الروسية على نفس النمط الذي نفذه الألمان في معركة تاننبرج، ولكن كان هناك عاملان منعا نفيذ ذلك، فكان فرانسوا يحاول شق القوات الروسية إلى نصفين معتمداً على الخيالة والتي لم تكن في معركة تاننبرج قد تصادمت مع قوات منظمة بالإضافة إلى مشكلة أخرى في الإمداد عن طريق البحيرات الصعبة العبور، وقرر رننكامبف ألا يواجه مصير سامسونوف، فأصدر أوامره بالانسحاب العام من الجبهة بحيث لا تتمكن القوات الألمانية من تطويق قواته، وعبر جيشه في الثالث عشر من سبتمبر الحدود الروسية وطاردته القوات الألمانية ودخلت الأراضي الروسية لأول مرة في وضح النهار.

نتائج المعركة

عزز النصر الذي أحرزه الألمان في هذه المعركة موقف الألمان على الجبهة الشرقية، واستغله الألمان إلى جانب نصر تاننبرج في الدعاية بشكل محموم وكانت معركة تاننبرج نصرًا إستراتيجيًّا إلا أن تلك المعركة كانت نصرًا تكتيكيًّا صغيرًا، وتجلى ذلك في الأسابيع القادمة حين شن الجيش العاشر والجيش الأول هجومًا مضادًّا ونجحا في دفع القوات الألمانية خارج الحدود الروسية، وتمكنا من احتلال أجزاء صغيرة من شرق بروسيا إلا أن الخطر الذي كان يهدد ألمانيا قد زال تمامًا.

معارك وارسو

كانت القيادة الروسية على علم قبل الثالث والعشرين من سبتمبر أن القوات الألمانية متواجدة في جاليسيا، وأعد الجراند دوق فختًا محولاً كل القوات ما عدا الجيش الثامن والثالث إلى الجبهة الألمانية، وأرسل الجيشين الثاني والخامس إلى شمال الفيستولا Vistula بين ساندوميرز Sandomierz ووارسو، والجيش الأول إلى الجنوب من نيمن Niemen ووارسو، وكان مقررًا أن يسمحوا للألمان بالتقدم إلى الفيستولا، ثم يقوم الجيش الأول ومعظم الجيشين الثاني والخامس بمهاجمتهم من الميسرة جنوب وارسو، ولم يكتشف الألمان تلك التحركات مفترضين أن الروس سيقومون بمهاجمة القوات النمساوية المجرية، وقاموا بناء على ذلك بتحويل ثلاثة فيالق لمواجهة التهديد المحتمل، وفي شرق بروسيا تقدم الجيش العاشر في التاسع والعشرين من سبتمبر ولكنه توقف بحلول الخامس من أكتوبر عندما قابل ستارًا من القوات ولم يلعب أي دور في المعركة الرئيسية، ولذا تقدموا إلى نهر سان San ودخلوا بشيميسل Przemysl في التاسع من أكتوبر، واشتدت المقاومة الروسية حينئذ مما أدى إلى وقف القوات النمساوية

الجرية، وأجبر لودنـدورف Ludendorff علـى إعـادة تجميـع قواتـه نتيجـة لإدراكه المتأخر أن القوات الروسية الرئيسية تتواجد على بعد مـا لا يقـل عن ثمانية وأربعين كيلومترًا إلى الشـمال أبعـد مما توقـع، وفي التاسـع مـن أكتوبر كشف الألمان عن طريق اعتراض رسائل الراديـو الروسـية أن هنـاك سبعة فيالق روسية ستتواجد في منطقة وارسـو بحلـول الحـادي عشـر مـن الشهر في اليوم الذي كان مفترضًا فيـه حسـب جـداول الخطـة الألمانيـة أن يقوم الجنرال ماكنزن Mackensen بالاستيلاء على وارسـو بفـيلقين فقـط، وفي العاشر من أكتوبر عثر الألمان في جثـة أحـد الضـباط الـروس القتلـي على نسخة من الخطة الروسية والتي أظهـرت أن التهديـد لم يكـن محـدقًا فقط بالجناح الأيسر للجيش التاسع من اتجاه وارسو، بل إن جناحه الأيمـن أيضًا كان مهددًا بسبب وجود الجيشين الروسيين الرابع والتاسع من رءوس الجسور الموجودة على الضفة الغربية لنهر الفيستولا، وفي الحادي عشر مـن أكتوبر أصدر ماكنزن Mackensen الأمـر بالانسـحاب، وتمكـن فالكنهـاين من توفير فيلق واحد فقط من الغرب، حيـث كانـت توشـك معركـة أيـبر Ypres الأولى على النشـوب وأرسـله لحمايـة بروسـيا، ولـذا فـإن تخفيـف الضغط على الجـيش التاسـع كـان يعتمـد إلى حـد كـبير علـى اسـتئناف القوات النمساوية المجرية للقتال على نهر سان San، إلا أن كـونراد رفـض أن يقوم بـذلك ورفـض طلـب لودنـدورف Ludendorffs البـديل بسـرعة الدفع بقوات إلى الشمال لمعاونة ماكنزن Mackensen، وطلب القيصر مـن الإمبراطور فرانتس يوزف Franz Josef، ولكنه أقـر رفـض كـونراد، ولكـن النمساويين استلموا المواقع التي كان الفيلق الألماني مسئولاً عنها في جبهة إيفانجورود Ivangorod، مما حرر فرقتين للاتجاه شمالاً، وكـان الـروس الآن متمركزين بشكل قوي بجيشهم الثاني إلى الغـرب مـن وارسـو، والجـيش الخامس في المدينة، وكانوا يعدون للانقضاض علـى القـوات الـتي يقودهـا الجنرال ماكنزن Mackensen، وفي التاسع عشر من الشـهر بـدأ الانسـحاب

وبعد أسبوع من ذلك أصدر لودندورف أمرًا بالانسحاب إلى مسافة حوالي مائة كيلومتر إلى خط بين كييلتسيه Kielce ورادوم Radom، لتجنب قيام الروس بتطويقه وكانت أولوية الحفاظ على القوات الألمانية الآن تتقدم على مساعدة حليفتهم إمبراطورية النمسا والمجر، وكان على قوات النمسا والمجر أن تنسحب بسرعة، وهذا بالفعل ما فعلته لكي تمنع الجيشين الرابع والتاسع الروسيين من تطويق قواتهم، وبحلول نهاية أكتوبر كانت الذخائر الروسية قد نفذت، وكانت معركة وارسو الأولى قد انتهت وخسر فيها الألمان كل مكاسبهم الأولى، وخسر النمساويون أكثر من ذلك، وتم عزل بشيميسل Przemysl مرة أخرى، وكان ماكنزن قد نجح في تفادي الفخ الذي نصبه له الجراند دوق ولكن إجمالا كان موقف الروس أفضل بكثير، واستأنف الجراند دوق تخطيطه للتقدم مباشرة إلى برلين، وبحلول أوائل شهر نوفمبر كانت عشرة جيوش تقف على أهبة الاستعداد في المناطق التي تسيطر عليها روسيا من بولندا، وكان رأس الحربة يتكون من الجيوش الثاني والخامس والرابع والتاسع في منعطف فيستولا Vistula، وكان الجيشان العاشر والأول يحميان جناحهم الأيمن والجيشان الحادي عشر والثامن يحميان جناحهم الأيسر، وكانت سبعة من ثمانية أجزاء من القوات الألمانية مشتبكة في قتال ضاري على الجبهة الغربية، وكان لمثل هذا التركيز للقوات (ستين فرقة على بعد أربعمائة وثمانين كيلومترًا من برلين) احتمالات نجاح عالية للغاية غير أن قائد الجبهة الجنوب شرقية إيفانوف Ivanov كان يدعو إلى العمل على القضاء على القوات النمساوية المجرية في جاليسيا أولا لإزالة التهديد الذي يمثلونه على الجهة الجنوبية لرأس الحربة واقترح رئيس أركانه أليكسييف Alexeyev الجيش الثالث والرابع والتاسع باتجاه كراكوف Krakow، والجيش الأول النمساوي الذي تم إنهاكه من قبل، وكان من شأن ذلك أن يشطر رأس الحربة إلى نصفين، وعليه رفض الجراند دوق هذا الاقتراح، ولكنه قرر كحل وسط ترك

الجيش الثالث على نهر سان، وإزالة الجيش التاسع من رأس الحربة ليحمي الأجناب ويغطي اتجاه كراكوف ومع ذلك ظل رأس الحربة كبيرًا، وكان على الجيشين اللذين يحميان الجناح الشمالي أن يهاجما الجيش العاشر بقيادة سيفرس Sievers لإعادة غزو شرق بروسيا بقوات قوامها عشرين فرقة، وتتقدم المجموعة الأولى بقيادة رننكامبف بمحاذاة نهر الفيستولا غرب وارسو بست فرق على أن تقوم الجيوش الثلاثة التي تشكل رأس الحربة (الثاني بقيادة شايدرمان Scheidemann والخامس بقيادة بليفيه Plehve والرابع بقيادة إيفيرت Evert) ومجموع قواتهم ست وعشرون فرقة بالتقدم غربا والرابع إلى سيليزيا Silesia والآخرين إلى أجناب الجيش الألماني التاسع، والذي كان يقوده الآن ماكنزن والمنتشر بين كاليش Kalisz وتشيستوخوفا Czestochowa.

معركة لودز

كان الألمان وأثناء انسحابهم يقومون بتدمير الطرق بشكل منظم ومنهجي لمنع الروس من استخدامها، وكانت مشكلة الإمدادات اللاحقة تعني ألا يبدأ الهجوم الروسي قبل الرابع عشر من نوفمبر، وكان الألمان يتنصتون على الرسائل اللاسلكية المتبادلة بين الروس، مما أعطى هندنبورج Hindenburg معلومات تفصيلية عن نوايا الروس وخططهم، وفي الثالث من نوفمبر اتخذ قرارًا جريئًا بتحريك الجيش التاسع بأكمله إلى تورون Torun للهجوم باتجاه الجنوب الشرقي على أجناب الجيشين الأول والثاني الروسيين، ونقلت السكك الحديدية مائتين وخمسين ألف جندي في خمسة أيام، أي بمعدل خمسين ألف رجل في اليوم، وبحلول العاشر من نوفمبر كان الجيش التاسع بالإضافة إلى فيلق من شرق بروسيا قد احتلا مواقعهما ولم يتبق في سيلزيا سوى فرقتين ألمانيتين للدفاع عنها، ولكن كونراد قام بدعمهما بخمس فرق من الجيش الثاني الذي كان تحت قيادة

بوم إيمولي Bohm-Ermolli وشن الجيش التاسع هجومه في الحادي عشر من نوفمبر، وعند فلوتسلافيك Wloclawek تمكن من إزاحة الفيلق الخامس السيبيري جانبًا، ولكنه فشل في القضاء عليه، وكانت معركة كوتنو والتي دارت بين الثالث عشر والسادس عشر من فبراير أكثر حسمًا حيث تم دك الفيلقين السيبيريين الخامس والثاني، وتم فتح فجوة تصل إلى أربعة وستين كيلومترًا بين الجيشين الأول والثاني، وتدفقت ثلاثة فيالق من المشاة وفيلق خيالة ألمانية إلى الجنوب وأنهت معركة وارسو الثانية وبدأت في معركة لودز Lodz، وبحلول الثامن عشر من الشهر تمت محاصرة لودز من كل الاتجاهات ما عدا الجانب الجنوبي ونجح الجيش الثاني الروسي في جلب نصف مليون من الجنود في ثلاثة أيام، وكان ذلك بنسبة اثنين إلى واحد من القوات الألمانية، ولكنهم وصلوا مرهقين حيث كانوا يسيرون على الأقدام، وكانت لودز تحتاج إلى الدعم بعد أن تم إنقاذها لحظيًا، وكانت أقرب القوات التي يمكنها توفير الدعم هي قوات الجيش الأول إلى الشمال من المدينة، ولم يظهر رننكامبف هناك إلا دعمًا قليلًا كما حدث في تاننبرج، وكانت القوات الروسية تتجنب معركة قد تكون نتائجها مثل نتائج معركة تاننبرج، ولم يكن لدى فالكنهاين الذي يحارب على الجبهة الغربية في أيبر أية قوات يستطيع توفيرها لدعم ماكنزن في كوتنو، وكان نصر كوتنو قد دعم موقف ألمانيا في الشرق، وفي الثامن عشر أبلغ فالكنهاين هندنبورج أنه لن يحتاج إلى تعزيزات وهاجم الألمان في لودز في التاسع عشر من نوفمبر، وكانوا يتوقعون نصرًا سهلًا ولكن الطقس أصبح باردًا فجأة مع تساقط الثلج، وكان ذلك في مصلحة المدافعين الروس ومع ذلك تقدمت مجموعة الجنرال شيفر Scheffer التي تتكون من الفيلق الخامس والعشرين وقوة خيالة وفرقة حرس باتجاه الشرق من المدينة، الأمر الذي كان يمثل تهديدًا بتطويق المدينة وكذلك الجيش الثاني الروسي، وكان أحد الألوية في اليوم الحادي والعشرين من الشهر قد اقترب إلى مسافة كيلومتر ونصف من مركز المدينة غير أن المدافعين أجبروه على التراجع إلى الخارج، وبحلول الليل كان قد تم وقفه، وفي الثاني والعشرين

من الشهر طوقت الفرق الروسية التي وصلت حديثًا قواته عن بريزيني Brzeziny بل وجهز الروس القطارات لنقل الأسرى المتوقعين، غير أن جرأة شيفر وانهدام التنسيق بين الروس علاوة على عدم نشاط رننكامف قد ساهم في إنقاذ مجموعة شيفر، فتمكنت من الاندفاع لمدة ثلاثة أيام وشق طريقها بين القوات الروسية الأكثر منها عددًا، ولم تحمل معها فقط ألفين من جرحاها بل ستة عشر ألفا من الأسرى الروس، وكانت طائرات الاستطلاع الروسية في استطلاعها لتلك المنطقة قد اعتبرت أن طوابير الأسرى الروس ما هم إلا قوات ألمانية، وعليه زادت من تقييم حجم القوات الألمانية، ولذلك لم تقوم القوات الروسية القريبة بالهجوم على مجموعة شيفر أثناء سيرها، وفقد شيفر نصف قواته تقريبا، ولكنه نجح في تفادي الفخ الروسي، وهكذا وفي الخامس والعشرين من نوفمبر انتهت معركة لودز وأجهضت خطة روسيا مرة أخرى للزحف على برلين، وأعطى ذلك السيادة لرأي القادة الألمان الذي كان يدعون إلى ضرب المناطق الضعيفة، وكان كونراد قد شن هجومًا في الثامن عشر من نوفمبر من كراكوف Krakow لمعاونة ماكنزن غير أن المقاومة العنيفة التي أبداها الروس في لودز على جبهة كراكوف قضت على الآمال التي كانت تحدوا القادة الألمان والنمساويين في تطويقهم أو دفعهم بعيدًا عن نهر الفيستولا في تلك المرحلة، وكان الأسوأ ما يزال بانتظار كونراد حيث إنه عرى جبهته من كراكوف باتجاه الشرق تاركا مهمة الدفاع عنها للجنرال بوروويفيتس Boroevic الذي كان يقود الجيش الثالث، وتم حشد بعض الفرق على عجل إلى الجنوب مباشرة من كراكوف، وحين أدركت القيادة الروسية ذلك قامت على الفور بإرسال الجيش الثالث بقيادة رادكو ديميترييف Radko-Dmitriev والجيش الثامن بقيادة بروسيلوف Brusilov للهجوم على جبهة كراكوف، وكان كل من الجيشين يضم عشرة فرق إلى الشرق من بوكوفينا Bukovina، ونجح بروسيلوف نجاحًا باهرًا وتقدم خلال جبال الكربات على السهول المجرية، ولكن الروس كان لديهم مشاكل متفاقمة في التنسيق لأن جبهاتهم في الشمال والغرب والجنوب

كانت متشعبة، وكانت اتصالاتهم بين بعضهم البعض وبين قيادتهم غير جيدة، وعند لقاء القادة الروس بالجراند دوق في التاسع والعشرين والثلاثين من نوفمبر حث روجسكي على الانسحاب إلى نهر الفيستولا لإعادة جميع القوات وإعادة التزود بالمؤن والعتاد واستعادة الوحدات التي تم ضربها في لودز، وانتظار الهجوم الألماني الذي كان يعتقد بأنه بات وشيكًا، وكان القيام بذلك سيؤدي إلى كشف الجناح الشمالي للجبهة الجنوبية الغربية ويجبرها هي الأخرى على الانسحاب، ورفض إيفانوف Ivanov ذلك وكانت قواته قد أوقفت النمساويين إلى الشمال من كراكوف، ونجحت في تحقيق مكاسب جيدة إلى الجنوب والشرق منها، وكان بالإضافة إلى ذلك قد أسر بعض القوات النمساوية، ولذا كان يدعو إلى القيام بهجوم جديد، واعترض الجرند دوق على اقتراح روجسكي ووافق على وجهة نظر إيفانوف بتحريك الجيش التاسع لمهاجمة كراكوف من الشمال على أن يهاجمها الجيش الثالث من الجنوب، وكان كل منهما يتكون من أربعة فيالق بيما يقوم فيلقان من الجيش الثامن بالاستمرار في الضغط في منطقة الكربات لمنع النمساويين من تعزيز كراكوف، وكانت نسبة جيوش الروس إلى جيوش كونراد الأربعة الصغيرة من حيث عدد الجنود هي اثنان إلى واحد، وكان بروسيلوف الآن في المجر تقريبًا، الأمر الذي أضحى يمثل تهديدًا لقلب إمبراطورية النمسا والمجر وعلى ذلك أرسل كونراد جزءا من الجيش الرابع بقيادة الأرشيدوق يوزيف فردينانند Josef Ferdinand وفرقة ألمانية كاملة إلى الجنوب من كراكوف على الجناح الأيسر للجيش الثالث لتبدأ معركة ليمانوفا لابانوف Limanowa-Lapanow واندفعت ثلاث فرق مشاة وفرقة خيالة من جيش الجنرال روت Roth إلى الأمام بين الثالث والسادس من ديسمبر مجبرة قوات رادكو ديمتربيف على وقف تقدمها، ومحاولة الاستعانة بقوات الجنرال بروسيلوف وأرسل الجنرال بروسيلوف الفيلق الثامن بقيادة الجنرال أورلوف Orlov والفيلق الرابع والعشرين بقيادة الجنرال تسوريكوف Tsurikov لمهاجمة الجناح الأيمن لقوات الجنرال روت، ودخلت المعركة مرحلتها الثانية في

الثامن من ديسمبر وكان الروس الآن يحاولون تطويق روت من الشرق، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك وأدى إرسال بروسيلوف لفيلقين من قواته لمساعدة ديميترييف إلى أن أصبح لديه فيلقًا واحدًا فقط لمواجهة الجيش الثالث النمساوي بأكمله والذي هاجم هو الآخر في الثامن من ديسمبر، وتمكن من الاستيلاء على ممرات دوكلا Dukla ولوبكا Lupka وأوجوك Uzhok الحيوية، ودفع بروسيلوف إلى التوقف عن تقدمه إلى المجر وانسحب الفيلق الروسي إلى الشمال باتجاه الجبال، وخفف ذلك من الضغط على قوات روت، حيث كان على الفيلقين الذين يواجهانه أن يتراجعا، وبحلول الخامس عشر من ديسمبر كانت القوات الروسية قد تراجعت إلى خط آخر بطول نهر الدونايتس Dunajec وتكبدت بعض الفرق الروسية خسائر وصلت إلى سبعين بالمائة من مجموع قوتها، وأثبت النمساويون والمجريون أنهم جنود شديدي المراس ولا يمكن كسرهم بسهولة بالرغم من أن القوات النمساوية المجرية لم تقدم مثل ذلك الأداء حتى نهاية الحرب.

هجوم بروسيلوف

كان هجوم بروسيلوف هو أهم هجوم قام به الروس في الحرب العالمية الأولى، وكانت فرنسا قد طلبت من روسيا في أوائل عام1916 أن تساعدها في تخفيف الضغط عليها حيث كانت القوات الألمانية تهاجم مدينةVerdun بشراسة بهدف استنزاف قوات الجيش الفرنسي، حيث تشن روسيا هجومًا على الألمان في الجبهة الشرقية على أمل أن تنقل ألمانيا المزيد من الوحدات من جبهة فرنسا إلى الجبهة الشرقية، وفي البداية شن الروس هجومًا على الألمان وخسر فيه الألمان نصف ما خسر الروس، وكان كارثة على الروس وفي صيف عام1916 كان هجوم السوم قد بدأ بنفس الغرض، وتحول إلى مستنقع تورط فيه الإنجليز لمدة ستة أشهر، ونتيجة لذلك استمر الحلفاء في الضغط على روسيا لشن هجوم على الألمان في الشرق، ونتيجة لذلك

تقدم الجنرال أليكسي بروسيلوف Aleksei Brusilov بخطته إلى القيادة الروسية وتقضي بشن هجوم كبير على القوات النمساوية المجرية لتخفيف الضغط على الإنجليز والفرنسيين في فرنسا والضغط على الإيطاليين في جبهة إيسونزو إن أمكن وإخراج النمسا والمجر خارج الحرب تمامًا، وحشد بروسيلوف أربعة جيوش تضم أربعين فرقة مشاة وخمس عشرة فرقة خيالة تواجه تسعة وثلاثين فرقة مشاة وعشرة فرق خيالة على الجانب النمساوي المجري أخذت شكل ثلاثة خطوط دفاعية إلا أن الألمان قاموا فيما بعد بتعزيز النمساويين بقوات أخرى، وتمكن أروس من الزحف سرًّا إلى مسافة واحد وتسعين مترًا من الخطوط النمساوية، ووصل التقدم في بعض النقاط إلى تسعة وستين مترًا، وكان بروسيلوف يخطط لهجوم مباغت على جبهة عرضها أربعمائة وثمانين كيلومتر، وطلبت قيادته تقليل الجبهة التي يهاجم عليها إلا أنه أصر ورضخت القيادة الروسية تحت إصراره في آخر الأمر، وفي الرابع من يونيو بدأ الهجوم بقصف مدفعية قصيرة ومركزة وكان الهجوم الأول ناجحًا وتم اختراق الخطوط النمساوية المجرية، وتمكنت ثلاثة جيوش من التقدم على جبهة واسعة، وكان من أسباب ذلك التكتيك الذي اتبعه بروسيلوف في استخدام قوات اقتحام قوية للهجوم على نقاط ضعيفة لعمل ثغرات تستطيع القوات استغلالها للنفاذ منها وهي قريبة الشبه جدًّا من تكتيكات هوتيير Hutier الألمانية، وكانت القوات الروسية تتقدم بسرعة واستولت على مدينة لوتسك Lutsk وفر منها القائد النمساوي على عجل، وفي تلك المرحلة كانت القوات النمساوية المجرية تنسحب بطول الجبهة، وأسر الروس أكثرمن مائتي ألف أسير، وأصبحت خطوط بروسيلوف ممتدة على مسافة واسعة مما كان يعطلها عن التقدم، وطلب بروسيلوف الإسراع بإرسال إيفيرت Evert لقواته لتنفيذ دوره في الدعم، ولكن هذا الأخير استمر في المماطلة ومنح ذلك الألمان وقتًا لإرسال قوات إلى الجبهة، وأقنع فالكنهاين نظيره

النمساوي بسحب قوات من الجبهة الإيطالية لمجابهة الهجوم الروسي في جاليسيا Galicia، وبدأت الإمدادات الألمانية تتوافد على الجبهة محولة على القطارات، وأخيرًا في الثامن عشر من يونيو شن إيفيرت هجوما متواضعًا، وفي الرابع والعشرين من يوليو تمكن النمساويون من دفع الروس إلى جنوب مدينة كوفيل Kovel بعد هجوم مضاد شنته قواته عليهم، وفي الثامن والعشرين من يوليو استأنف بروسيلوف هجومه وبالرغم من عدم كفاية الإمدادات إلا أن جيوشه وصلت إلى جبال الكاربات في العشرين من ديسمبر، وبدأت القيادة الروسية في نقل قوات من جيش إيفيرت إلى جبهة بروسيلوف، وعارض بروسيلوف ذلك لأن ذلك لم يكن يؤدي إلا إلى تكويم القوات على الجبهة بلا نظام، ووصلت القوات إلى حالة من الإرهاق، وأخيرًا خفت حدة الهجوم تمامًا بنقل القوات لدعم رومانيا التي اجتاحتها القوات النمساوية المجرية والقوات الألمانية.

نتائج الهجوم

بالرغم من أن الهجوم قد انتهى إلا أنه نجح تمامًا في تحقيق أهدافه فقد نقلت ألمانيا قوات من الجبهة الغربية لصد الهجمات الروسية، وكذلك قصم ذلك الهجوم ظهر القوات النمساوية المجرية، حيث خسرت واحدًا ونصف المليون جنديًّا تقريبًا، ولم تقم لها قائمة فيما بعد على تلك الجبهة، وكانت تعتمد في نجاحها على القوات الألمانية، علاوة على ذلك نجح ذلك الهجوم في جذب رومانيا إلى دخول الحرب مع الحلفاء بالرغم من النتائج الكارثية التي حاقت برومانيا من جراء ذلك، وعلى الجانب الروسي ضرب ذلك الهجوم مثلاً جيدًا في القيادة والتخطيط، وكان مثلاً جيدًا للتخطيط العسكري الروسي وكانت التكتيكات التي استحدثها بروسيلوف باستخدام قوات مدربة جيدًا تسمى بقوات الصدمة لفتح

ثغرات في الخطوط النمساوية لتستغلها القوات في الخلف تمثل تغيرًا نوعيًّا في التكتيكات السائدة، وهي تكتيكات الموجات البشرية التي كانت تسبب خسائر كبيرة، والتي استغلتها ألمانيا فيما بعد على الجبهة الغربية والتي سيقوم الألمان بتطويرها بشكل كبير لتلعب دورًا مهمًّا في هجمات الحرب العالمية الثانية فيما سمي بالحرب الخاطفة blitzkrieg، وليتم استخدامها في العديد من الحروب اللاحقة مثل الحرب الكورية وحرب الهند الصينية الأولى، إلا أنه وبالرغم من ذلك فإن روسيا خسرت حوالي نصف مليون جندي في ذلك الهجوم، وبعدها بدأت الكفاءة العسكرية الروسية في التردي، وبدأ الجنود الروس يتمردون ويهربون من ميادين القتال ومن الخطوط الأمامية حتى في أثناء النجاحات الروسية في الميدان كان الجنود يهربون حتى وصل عدد الجنود الفارين إلى ثمانية وخمسين ألف جندي تقريبًا، وكان ذلك نذيرًا بتغير كبير وشيك.

الثورة قادمة

كان الاستياء يتزايد في الشارع الروسي من الأداء المتدني للقادة الروس في المعارك المختلفة، فقد أخذت أخبار الهزائم تنهال على الروس، وكانت القوات الروسية تنتقل من هزيمة إلى أخرى، وحتى النجاح الذي حققه هجوم الجنرال بروسيلوف قد تلاشى بسبب عدم رغبة الجنرالات الآخرين في الزج بقواتهم في المعركة، وحتى الانتعاشة القصيرة التي خبرتها روسيا بدخول رومانيا الحرب قد انهارت باجتياح الألمان والنمساويين لرومانيا في السادس من ديسمبر من عام1917، ونتيجة لتلك الأوضاع المتدهورة اضطر القيصر الروسي إلى قيادة الجبهة بنفسه تاركًا وراءه القيصرة ألكساندرا Alexandra تدير الأمور داخليًّا في روسيا، وكانت تلك الأخيرة غير قادرة على إدارة دولة بحجم رسويا بالإضافة إلى انشغالها مع الراهب

راسبوتين السيئ السمعة، وأخذت أخبارهما معًا تتصدر الشائعات في الشارع الروسي حتى زكم فسادهما الأنوف، فدبر بعض الضباط الروس خطة لقتله، وعلى الجبهة أخذ الجنود الروس في الفرار من الميدان احتجاجًا على الطريقة التي تدار بها الحرب وعلى الحرب نفسها، التي كانت روسيا تخسر فيها زهرة شبابها، وفي مارس من عام1917 تصاعدت المظاهرات في سان بطرسبرجSt Petersburg عاصمة روسيا ومقر القيصر أنذاك واجتاحت موجات غفيرة من المدنيين والجنود الفارين من الجبهة شوارع العاصمة الروسية، وانتهت بتنازل القيصر نيكولاس الثاني Nicholas II عن العرش، وتعيين حكومة ضعيفة، وكان المد الشيوعى في ذروته في ذلك الوقت فتشارك البولشفيك السلطة مع تلك الحكومة الجديدة، وأدت كل تلك التطورات إلى ارتباك وفوضى في صفوف القوات الروسية على الجبهة، وفقد الجيش الروسي قدراته وأصبح عديم الفائدة، وتصاعد الاستياء من تلك الحكومة وفي تلك الأثناء تمكن البولشفيك عبر وعودهم المستمرة بإخراج روسيا من الحرب ونتيجة للاستياء الشعبي من أداء الحكومة القائمة من الوصول إلى السلطة في نوفمبر.

معاهدة برست ليتوفسك وخروج روسيا من الحرب

بدأ فلاديمير لينين Vladimir Lenin الذي يقود الحزب البولشفيكي في تنفيذ وعوده بعد وصوله إلى السلطة في نوفمبر فوقع مع الألمان هدنة في الشهر التالي، وبدأت مفاوضات بين الجانبين في الثاني والعشرين من ديسمبر من عام1917 بعد التوصل إلى الهدنة بأسبوعين وكانت مطالب ألمانيا هي استقلال بولندا وليتوانيا، واللتان كانتا تقعان تحت سيطرتها، بينما كانت مطالب الروس تنحصر في السلام بدون ضم أراضٍ وبلا تعويضات، وكان الروس يعتقدون أن ألمانيا ستغتنم الفرصة للتوصل

لاتفاق مع روسيا حيث كانت الولايات المتحدة قد أعلنت الحرب على ألمانيا قبل بدء المفاوضات بشهرين، ولكنها لم تكن قد قامت بمساهمة فعالة حتى تلك المرحلة مما سيساعد الألمان على سحب قوات من الجبهة الشرقية لهزيمة إنجلترا وفرنسا قبل أن تصل القوات الأمريكية، ولذا تشدد الروس في مطالبهم حيث كانوا يتوقعون تساهلاً من ألمانيا، ولكن الألمان أصروا على موقفهم ونتيجة لذلك أعلن الروس انسحابهم من المفاوضات، ومن جراء ذلك تنصلت ألمانيا من الهدنة، واستأنفت عملياتها العسكرية ضد روسيا، وفي التاسع عشر من فبراير كانت قد احتلت معظم مساحة أوكرانيا إضافة إلى روسيا البيضاء ودول بحر البلطيق، وانطلق أسطول ألماني عبر ثلوج بحر البلطيق إلى خليج فنلندا ليهدد العاصمة الروسية في ذلك الوقت سان بطرسبرج، واضطر الروس للموافقة على شروط أسوأ بكثير مما كان الألمان قد عرضوها في الجولة الأولى للمفاوضات، ووقعوا مع ألمانيا معاهدة برست ليتوفسك Brest-Litovsk التي أخرجت روسيا من الحرب نهائيًّا، وكان من شروط تلك المعاهدة:

- ضم أراضي دول البلطيق وبولندا وأوكرانيا لألمانيا على أن تقرر ألمانيا والنمسا والمجر مصيرها فيما بعد.
- إعادة الأراضي التي كانت روسيا قد استولت عليها من الدولة العثمانية.
- إعطاء الأرمن الحق في تقرير المصير.
- دفع ستة مليارات مارك ألماني على سبيل التعويض توقع بها اتفاقية لاحقة.

وبذلك خرجت روسيا من الحرب نهائيًّا.

الفصل الرابع

أهم المعارك في صربيا

حملة صربيا

كانت الاستراتيجية الصربية تقوم على الصمود بقدر الإمكان وانتظار الجيش الروسي ليأتي ويقوم بهزيمة جيش النمسا والمجر، وكان الجيش الصربي قد خبر الحرب نوعًا ما فقد مر بحربين في العامين الأخيرين، ولكنه من ناحية أخرى كان جيشًا مرهقًا وكانت تسليحه سيئا، وكانت قيادة النمسا والمجر تظن أن جيش صربيا سينهار في أقل من شهر، وكانت استراتيجية الصرب هي الصمود والتمسك بالأرض بأطول ما يمكنهم آملين أن يقوم الروس بهزيمة الجيش الرئيسي للنمسا والمجر، وكذلك كانت صربيا تخشى من جارتها العدوانية بلغاريا، والتي خاضت ضدها عدة حروب، وكانت أقربهم في عام1913 وكان قوام الجيش الصربي في بداية الحرب مائة وثمانون ألف جندي ويقودهم الماشال "رادومير بوتنيك" إلا أن حالته الصحية كانت سيئة حيث كان نزيل إحدى المستشفيات في بودابست، وقبضت حكومة النمسا والمجر عليه في المستشفى، ولكنها أطلقت سراحه بعد تدخل شخصي من رئيس الأركان العامة للنمسا والمجر "فرانتس جراف كونراد فون هوتسندورف" إظهارًا للشهامة والفروسية من ناحية وبناء على الحسابات التي تقضي بأن الجنرال المريض سيكون خصمًا سهلاً وثبت فيما بعد خطأ ذلك الاعتقاد فقد تعامل "بوتنيك" ببراعة مع الجيش الصربي مع أنه لم يترك غرفة المستشفى في

صربيا، بينما كان جيش النمسا والمجر كبيرًا بسبب إعلان روسيا للحرب وكان بإمكان النمسا والمجر أن تهاجم بجيشين (الخامس والسادس) على حدود البوسنة، وكان لديهم مائتان وسبعون ألف جندي وكانوا أفضل تسليحًا من الجنود الصرب بكثير، وكانت القيادة النمساوية المنجارية في يد الجنرال الغير كفء "بوتيورك" غير أن إمبراطورية النمسا والمجر كانت الثالثة في الترتيب من حيث عدد السكان في أوربا في عام1914 بعد روسيا وألمانيا واثني عشر ضعف جمهورية الصرب.

معركة تسير

تعرف معركة "تسير" أيضًا باسم معركة "جادار" حيث دارت العمليات الرئيسية لتلك المعركة قرب مصب نهر "جادار"، وكانت تلك المعركة نصرًا للجيش الصربي على جيش النمسا والمجر، وكانت القوات النمساوية والمجرية تحارب تحت قيادة الجنرال "أوسكار بوتيورك" و"ليبوريوس ريتر فون فرانك"، وكان "فون فرانك" القائد المباشر للقوات النمساوية المنجارية في معركة "تسير" وكانت القوات الصربية تحت قيادة الجنرال "ستيبا ستيبانوفيتش"

الاندفاع النمساوي

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى اندفعت القوات النمساوية المجرية بقيادة "بوتيورك" إلى الشمال الغربي لصربيا عبر نهري "سافا" و"درينا" وسقطت مدينة "شاباتس" بعد أن توسعت رءوس الجسور التي أقامتها القوات النمساوية المنجارية، وتمكنت معظم عناصر الجيشين الثاني والخامس من العبور إلى صربيا بنجاح بحلول الثاني عشر من أغسطس، وكان الجيش السادس بقيادة "بوتيورك" ما زال يحتشد إلى الجنوب، ولم

يكن في وضع يسمح له بالبدء في عملية موسعة في ذلك الوقت، ولذا فإن عبء القتال الأكبر في الأيام التالية وقع على عاتق الجيش الخامس، وطبقا لخطة "بوتيورك" كان مقررًا الهجوم في اتجاه "فاليفو" بعد عبور الحدود مباشرة والاستيلاء على المدينة في خمسة أيام.

رد الفعل الصربي

وصلت أنباء الهجوم النمساوى إلى رئاسة الأركان الصربية خلال اليوم، وكان من الواضح أن النمساويين قد بدأوا عملية كبيرة، ولكن الفيلد مارشال "بوتنيك" كان ما يزال عند رأيه أن الاندفاعة النمساوية الرئيسية ستأتي من الشمال وتتركز عند وادي نهر "مورافا"، ولم يكن قد تخلى عند تلك القناعة واستغرق الأمر بعض الوقت من معاونيه الجنرال "ميشيتش" رئيس العمليات والكولونيل "جيفكو بافلوفيتش" لإقناعه باتخاذ رد فعل حازم، ومع الضغط العسكري للنمسا والمجر كان حلفاء صربيا يضغطون عليها لاتخاذ موقف هجومي لأنهم كانوا يخوضون معارك صعبة في شمال غرب أوربا، وردت رئاسة الأركان بأن وحداتها مشتبكة بالفعل ضد رءوس الجسور النمساوية وتقدم الجيش الصربي الثاني بقيادة "ستيبانوفيتش" باتجاه "تسير" وفرقة "شوماديجا" باتجاه "شاباتس" وفرقة الخيالة باتجاه ماتشفا Mačva على الجناح الأيسر، ودخل الجيش الثالث بقيادة الجنرال "بافلي يوريشيتش شتورم" في المعركة، وكان الجيش الصربي الثاني وطبقًا لموقعه في مركز تشكيل النطاق الشمالي الغربي هو الأقوى بين الجيوش الثلاثة، ولكن ليس عدديًّا فقد كان الجيش الأكبر من ناحية العدد هو الجيش الذي أوكلت اليه مهمة حماية مدخل وادة نهر مورافا Morava وكان هذا هو أفضل مدخل إلى صربيا حيث تقل هناك الدفاعات الطبيعية على خلاف المنطقة الجبلية إلى الشمال الشرقي

والشمال الغربي من حيث قوة الفرق، حيث كان يتكون فقط من فرق الاستدعاء الأول prvi poziv والتي كان قوامها جنود في العشرينيات من عمرهم مسلحين بأفضل العتاد الموجود حينئذ، وكانت تلك فرق Šumadijska وMoravska وDunavska والتي كانت قد ألحقت بها أفواج أخرى حيث كانت مسئولة عن الدفاع عن بلجراد بالإضافة إلى فرق مركبة أخرى، وكانت تلك البنية التنظيمية من بنات أفكار الفيلد مارشال "بوتنيك" ليس فقط من أجل تدعيم وتقوية الوسط، ولكن كذلك بسبب وضعهم في الوسط، وكان من الممكن إلحاق فرق من الجيش الثاني إلى أي من الجيشين الأول أو الثالث في حالة ما إذا أملى الوضع الاستراتيجي مثل ذلك التحرك، وبذلك وعندما زال أي شك بالنسبة لاتجاه الهجوم المجري النمساوي قامت قوات النطاق الصربية بعملية إعادة تجميع لكل جيوشها، وبذلك كان على الجيش الثاني أن يواجه الجيش الخامس بقيادة فون فرانك von Franck وهو الجيش المجري النمساوي الوحيد الذي عبر إلى الأراضي الصربية بكامل قوته في وادي Cer وJadar.

المعركة

خلال شهر أغسطس من عام1914 خاضت القوات الصربية معارك شرسة ضد القوات النمساوية المجرية في منطقة تسير Cer الجبلية والتي تواجهت فيها قوات قوامها مائتي ألف على الجانب النمساوي المجري ومائة وثمانون ألفًا على الجانب الصربي، واستمرت المعركة الرئيسية في تسير من السادس عشر من أغسطس إلى التاسع عشر منه، ونجح الجيش الصربي في إحراز النصر على القوات النمساوية المجرية وقام بدفعهم إلى التقهقر إلى الخلف عبر درينا Drina ونجحوا في إفشال خطتهم بالكامل.

قتل وجرح في تلك المعارك حوالي ثمانية عشر ألفًا وخمسمائة من

الجيش النمساوي المجري ما بين ضابط وجندي، وأسر حوالي أربعة آلاف وخمسمائة وفقد الجيش الصربي حوالي ستة عشر ألف جندي ومائتين وخمسين ضابطًا قتلوا في تلك المعارك، وكنتيجة لتلك المعركة قامت إمبراطورية النمسا والمجر بسحب قواتها من منطقة ساندزاك Sandzak، واستمرت هجماتها على صربيا حتى نهاية خريف عام1914 بدون نجاح يذكر وأعطت معركة تسيرCer لقوى التفاهم أول انتصار لهم في مواجهة دول المحور، ومما يذكر في معركة تسير عدم رغبة بوتنيك Putnik في القيام بأعمال هجومية كما كان الأمر في حرب البلقان الأولى حيث كان يخشى من أن أي مخاطرة غير ضرورية يمكن أن تؤدي إلى خسائر أعلى في الجيش الصربي الذي كان بالفعل يحتاج إلى الرجال لاستكمال أعداد جنوده، ويظهر ذلك جليًا في رفضه لاقتراح ستيبانوفيتش Stepanović عشية اليوم الثالث للمعركة، وكان ستيبانوفيتش Stepanović قد أحس أن القوات المجرية النمساوية قد بدأت في التضعضع على جبهة تسير Cer، ولذا فقد اقترح مناورة جريئة تقوم فيها الفرقتان اللتان تحت قيادته بمطاردة من الأمام للقوات المعادية، بينما تقوم فرقتا الخيالة وفرقة تيموتشكا Timočka بهجوم آخر في نفس الوقت للمطاردة على المنحدر الشمالي لجبال تسير باتجاه ليشنيتسا Lešnica مع أوامر بمهاجمة القوات النمساوية المجرية من الأجناب وللوصول إلى الجسور العائمة على نهر درينا Drina، وبذلك يقطعون الطريق الرئيسي لانسحاب الجيش الخامس، وإذا كان قد تم القيام بتلك المناورة كانت هزيمة الجيش المجري النمساوي ستكون كارثية، ولكن ومع كل ذلك أصدر بوتنيك أوامره إلى ستيبانوفيتش بمطاردة القوات المعادية من الأمام وأمر بعدم القيام بأي هجوم على الأجناب والذي أيضًا سبب خسائر كبيرة في صفوف القوات المنسحبة، وتسبب فقدان الجيش الثالث للاتصال مع القوات المعادية في اليوم الثالث في مساعدة القوات المجرية النمساوية المنسحبة المتمثلة في الجيش الخامس على الانسحاب

بشكل أكثر نظامًا.

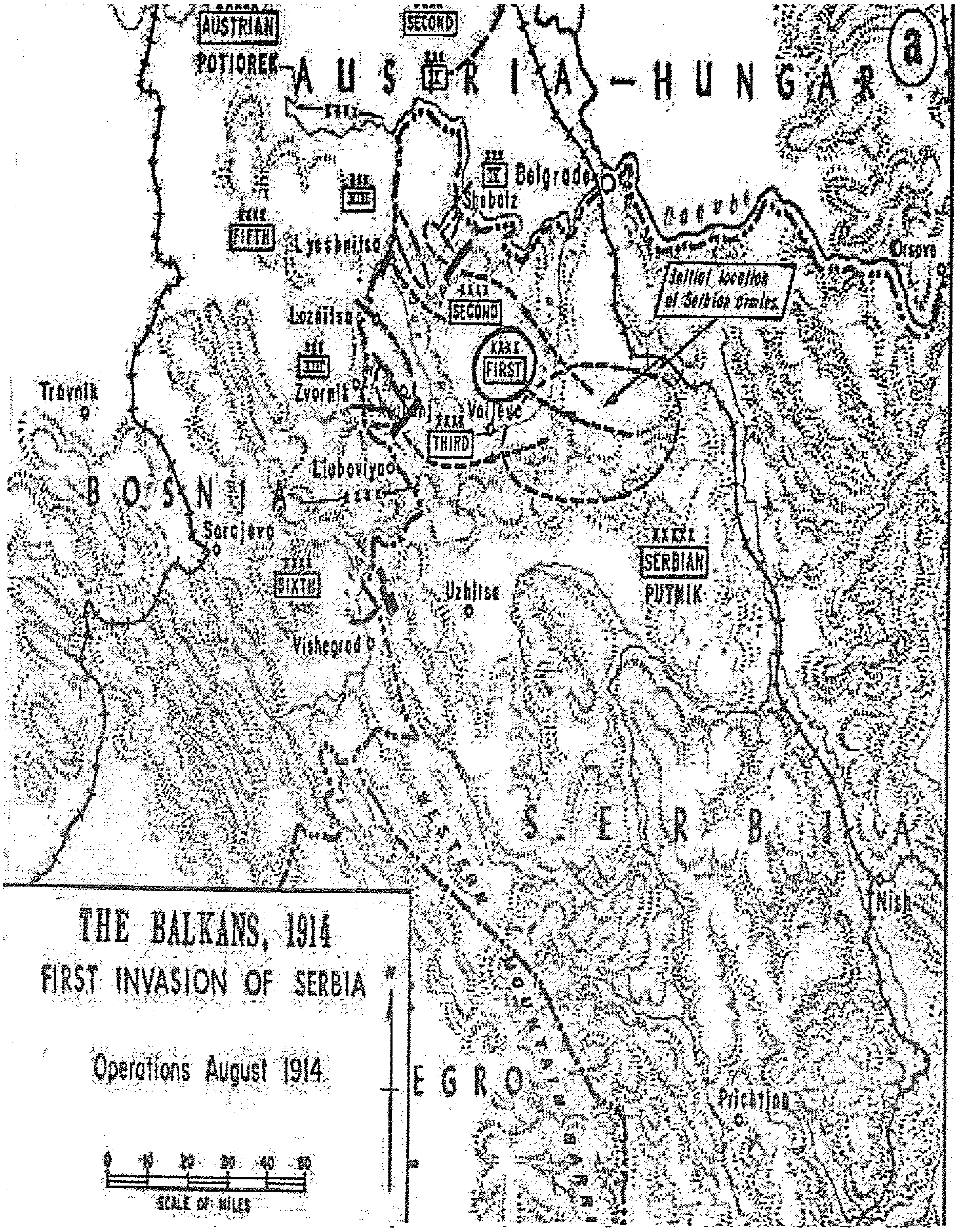

اتجاه الهجوم عند غزو القوات النمساوية والمجرية لصربيا في عام 1914

معركة درينا

تحت ضغط من الحلفاء قامت صربيا بجيشها الأول بشن هجوم عبر نهر سافا Sava داخل إقليم سيرميا التابع لإمبراطورية النمسا والمجر، وفي تلك الأثناء هزمت فرقة تيموك Timok الأولى من الجيش الصربي الثاني هزيمة قاسية حينما كانت تقوم بعبور تضليلي، وخسرت حوالي ستة آلاف جندي مقابل ألفين على الجانب الآخر، وحيث كانت كل قوات بوتيورك Potiorek في البوسنة فقد قرر أن افضل وسيلة لوقف الهجوم الصربي هي القيام بغزو في صربيا لإجبار الصرب على استدعاء قواتهم للدفاع عن بلدهم الصغير، وجاء الهجوم النمساوي المجري الجديد في السابع من سبتمبر من الغرب عبر نهر درينا Drina، وكان الجيش الخامس هذه المرة في ماتشفا Mačva والجيش السادس إلى الجنوب منه، وقام الجيش الثاني الصربي بصد هجوم الجيش الخامس هذه المرة وخسر النمساويون أربعة آلاف جندي، ولكن الجيش السادس نجح في مباغتة الجيش الثالث الصربي والحصول على موطئ قدم، وبعد إرسال بعض الوحدات من الجيش الثاني الصربي لدعم الجيش الثالث تمكن الجيش النمساوي المجري الخامس من إقامة رأس جسر له عن طريق هجوم جديد، وفي ذلك الوقت قام المارشال بوتنيك بسحب الجيش الأول من سيرميا مواجها معارضة قوية حيث قام باستخدامه لشن هجوم مضاد على الجيش السادس والذي سار على ما يرام في أول الأمر، ولكن المعركة ختمت بأربعة أيام من القتال الشرس عند إحدى قمم جبل ياجودنيا Jagodnja وتكبد فيها الطرفان خسائر مروعة في سلسلة من الهجمات والهجمات المضادة الأمامية، فخسرت إحدى الفرق الصربية حوالي أحد عشر ألف جندي وكذلك كانت الخسائر النمساوية على مستوى مماثل، وأصدر المارشال بوتنيك Putnik أوامره بالانسحاب إلى التلال المحيطة، وتحولت الجبهة هناك إلى مسرح آخر من مسارح معارك حرب الخنادق، وذلك لمدة شهر ونصف،

ولم تكن الظروف هناك مواتية للصرب حيث كانت القوات النمساوية المجرية تتفوق عليهم في أعداد بطاريات المدفعية الثقيلة ومخزونات الذخائر، وأيضًا كان الصرب يعانون نقصًا حادًّا في إنتاج قذائف المدفعية حيث كان لديهم مصنع واحد فقط ينتج ما يقرب من المائة دانة فقط يوميًّا، وكذلك كانت أحذية الجنود الصرب من الأحذية الصربية التقليدية بينما كان الجنود النمساويون يرتدون أحذية جلدية مضادة للبلل، وكان الصرب يحصلون على معظم اللوازم الحربية من الحلفاء الذين كانوا هم أنفسهم يعانون نقصًا فيها، ونتيجة لتلك الحالة كانت المدفعية الصربية صامتة معظم الوقت، بينما لم تكن المدفعية النمساوية تكف عن إطلاق النار وكانت الخسائر الصربية تصل في اليوم الواحد إلى ما يزيد عن مائة جندي، نتيجة لكل تلك الأسباب السابقة وخلال الأسابيع الأولى لحرب الخنادق شن جيش أوجيتسيه Užice الصربي (وهو عبارة عن فرقة واحدة تم تعزيزها) وجيش منطقة الجبل الأسود (وهو عبارة عن فرقة واحدة فقط) هجومًا وقائيًّا في البوسنة على أن كلا من الجانبين قاما بشن هجمات محلية قليلة وتكللت معظمها بالهزيمة، وفي أحد تلك الهجمات استخدم الجيش الصربي الألغام فقامت الفرق الصربية المشتركة بحفر الأنفاق تحت الخنادق النمساوية المجرية والتي كانت تبعد من عشرين إلى ثلاثين مترًا من الخنادق الصربية في ذلك القطاع، وقاموا ببث الألغام وفجروها قبل هجوم المشاة مباشرة، وكانت تلك أول مرة يستخدم فيها الجيش الصربي الألغام في تاريخه القصير.

معركة كولوبارا

بعد الهزيمة التي حاقت بالقوات الصربية في معركة درينا اضطر هذا الأخير إلى الانسحاب إلى الضفة اليمنى لنهر كولوبارا Kolubara وكان لدى الجيش الصربي مائتان وخمسون ألفًا من الجنود مسلحين تسليحًا

ضعيفًا، بينما وعلى الناحية الأخرى كان قوام قوات النمسا والمجر هناك مائتان وثمانون ألفًا من الجنود مسلحين بشكل جيد، وفي السادس عشر من نوفمبر من عام1914 شنت مجموعة جيوش البلقان التابعة لإمبراطورية النمسا والمجر وكانت تضم الجيشين الخامس والسادس ويقودها الفيلد مارشال أوسكار بوتيورك هجومًا عبر نهر كولوبارا، وكان هدف بوتيورك هو السيطرة على السكك الحديدية التي تصل بين أوبرينوفاتس Obrenovac وفاليفو Valjevo لاستخدامها لإمداد قواته بدلاً من الطرق الطينية في ماتشفا، وقام الجيش الخامس والذي كان يتمركز في الجزء الشمالي من الجبهة بالاستيلاء على مدينة لازاريفاتس Lazarevac والتي كان يحتلها الجيش الثاني الصربي، وفي الجنوب قام كل من الفيلق السادس عشر والفيلق الخامس عشر التابعان للجيش السادس بالهجوم على الجيش الأول الصربي واحتلا جبل مالين Maljen في الرابع والعشرين من نوفمبر، ونتج عن ذلك وضع الجناح الأيسر الصربي في وضع حرج، واندفع الجيش الخامس إلى الخلف وعبر الجيشان الثاني والثالث نهر ليج Ljig، وأصبحا إلى جانب الجيش الأول ولأن الجيش الأول الصربي كان في وضع حرج أراد قائده الجنرال زيفوين ميسيتس Zivojin Misic أن يترك موقعه الحالي وينسحب إلى موقع جديد في جبهة جورني ميلانوفاتسGornji Milanovac وكانت خطته أن يقوم بتأجيل القتال وحتى تحصل قواته على قسط من الراحة، ثم بعد ذلك يقوم بشن هجوم مضاد، ولم يوافق بوتنيك على تلك الخطة، وحذر ميسيتس من أنه إذا تصرف بتلك الطريقة فإن الجيوش الأخرى ستقوم بدورها بالانسحاب مما يترتب عليه إخلاء العاصمة بلجراد وأخبر ميسيتس بوتنيك بأنه أعطى الأوامر بالفعل وبأنه لن يغيرها طالما ظل قائدًا للجيش، وفي نهاية الأمر رضخ بوتنيك للأمر الواقع وأعلن قبوله للخطة على مضض، وعندما تم إخلاء بلجراد وضع بوتيورك خطة جديدة فقد أراد حشد كامل قوة

الجيش الخامس في منطقة بلجراد وإبادة الجيش الثاني الصربي الذي كان على الجناح الأيمن للجبهة الصربية، ثم يتحول الجيش الخامس إلى الجنوب ويأتي من خلف القوات الصربية مما سيجبرها على التسليم، وفي خطته تلك حط بوتيورك في تقييمه من القدرات الهجومية للجيش الأول الصربي في الجنوب، فكان تقييمه للموقف أن ذلك الجيش منهك وأضعف من أن يقوم بأكثر من الدفاع والتمسك، وأنه لن يفعل شيئًا بينما تقوم القوات النمساوية بالمناورة، وكان الجنود النمساويون والمجريون متعبين جدًّا حتى قبل أن تبدأ تلك المناورة، وبينما كانوا هم يسيرون كانت القوات الصربية قد أخذت قسطًا من الراحة في مواقعها الجديدة، وفي الثاني من ديسمبر كان ميسيتس قد أتم كل الاستعدادات للهجوم وأصدر بوتنيك الأمر لكل الجيش الصربي بالهجوم في اليوم التالي، وكانت تلك لحظة مثالية حيث كانت أكبر التشكيلات النمساوية المجرية قبل ذلك الحين خارج المعركة أثناء سيرها نحو الشمال.

الهجوم المضاد

في الثالث من ديسمبر شن الجيش الأول الصربي هجومه المضاد على الفيلق السادس عشر ونجح في مباغتته، وكان جيش أوجيتسيه يدعم الهجوم على الجناح الأيسر وتكبد الفيلق السادس عشر خسائر فادحة، ونجح الصرب في دفعه إلى التراجع، وفي الرابع من ديسمبر حاول الفيلق السابع عشر أن يوقف تقدم الجيش الأول، ولكن محاولته باءت بالفشل وأصدر بوتيورك أوامره للجيش الخامس بالهجوم حتى يتمكن من إكمال عمليته قبل أن يهزم الجيش السادس، غير أن ذلك الأخير كان ما يزال يتابع مسيرته نحو الشمال وفي الخامس من ديسمبر تمكن الجيش الأول الصربي من الاستيلاء على جبل سوفوبور Suvobor وهو الموقع الدفاعي الأساسي للجيش السادس النمساوي، وفي تلك الأثناء فشل الجيش الثالث

الصربي في دفع الفيلق الخامس عشر بعيدًا عن جبل رودنيك Rudnik، وتكبد جيش أوجيتسيه خسائر فادحة، ومع ذلك ساعدت تلك التشكيلات في الضغط على القوات النمساوية المجرية وعاونت الجيش الأول الصربي لتحقيق ثغرة، وفي المساء وصلت القوات النمساوية (الفيلق المشترك) إلى مواقعه الجديدة، وكان الجنود في أقصى حالات الإنهاك، وفي السادس من ديسمبر أمر بوتيورك الجيش السادس بالانسحاب على الضفة اليسرى لنهر كولوبارا، وأخيرًا هاجم الفيلق المشترك الجيش الثاني الصربي ولكن الصرب تمكنوا بسهولة من وقف الهجوم، وشن الفيلق المشترك هجومًا كبيرًا في الثامن من ديسمبر إلا أن الجيش الثاني الصربي تمكن من الاحتفاظ بمواقعه، بينما وقفت وحدات أخرى من الجيش الخامس وكانت أكثر نجاحًا ولكن ذلك النجاح كان متأخرًا فكان الجيش الأول الصربي قد استولى على فاليفو، وكان يندفع إلى الشمال، وعزز المارشال بوتنيك الجيش الثاني الصربي بقوات جديدة، وأمر بالهجوم قبل أن تقوم القوات النمساوية المجرية من تحصين مواقعها وهاجم الجيش الثاني في الثاني عشر من ديسمبر بقيادة ستيبانوفيتس Stepanovic ونجح في هزيمة الفيلق الثامن، وحينئذ كان متوجبًا على الجيش الخامس أن يقوم بإخلاء بلجراد ويجتاز نهر سافا في الخامس عشر من ديسمبر، وكانت المعركة قد انتهت ووقع ثلاثة وأربعون ألف جندي من القوات النمساوية في أسر الجيش الصربي، وكان عدد القتلى أكبر من ذلك وتمت ترقية ميسيتس إلى رتبة المارشال، بينما أجبر بوتيورك على التقاعد وبطول عام1914 كانت مجموعة جيوش البلقان التابعة لإمبراطورية النمسا والمجر قد فقدت ما يقرب من مائتين وسبعة وعشرين ألفًا من جنودها من بين أربعمائة وخمسين ألفًا بينما فقد الصرب ما يقرب من مائة وسبعين ألفًا من جنودهم.

نتائج الهجوم

بانتهاء تلك المعارك كانت قوات النمسا والمجر قد تكبدت خسائر ضخمة وفشلت في غزو أو هزيمة صربيا، وفي تلك الاثناء كانت تلك القوات تعاني تحت وطأة الضغط الشديد الذي تمارسه عليها قوات الجيش الروسي في تلك الآونة على الحدود الشرقية، وحيث إن صربيا لم تكن تمثل تهديدًا يذكر لإمبراطورية النمسا والمجر حتى بعد تلك الهزائم التي منيت بها قواتها في صربيا فلم تقم النمسا ولمدة عشرة شهور تالية بأي عمل حيال صربيا، وتم نقل معظم القوات الموجودة بالمنطقة إلى الجبهة الإيطالية، وعلى الجانب الآخر وبالرغم من انتصار الصرب فإن خسائرهم كانت مروعة بالنسبة لحجم قواتهم، حيث خسروا ما يقرب من عدد القوات العاملة التي كانت لديهم قبل أن تبدأ الحرب ويقوموا بالتعبئة، واقترن ذلك بوباء التيفود الذي انتشر في ريف صربيا بشراسة خلال الشتاء، وكان الصرب راضين عن التزامهم جانب الدفاع في عام1915، وكانوا يأملون في تزايد دعم دول الحلفاء لهم ولسوء حظ الصرب ونظرًا لانشغال الحلفاء في الجبهة الغربية بمعاركها العنيفة الطويلة فلم يكن ذلك الدعم المأمول نظرًا لقلته يحقق لهم أية مكاسب تذكر علاوة على أن ذلك الدعم وصل متأخرًا جدًا.

1915

فى أوائل عام1915 ولأسباب كثيرة حاول رئيس الأركان الألماني أريش فون لودندورف إقناع نظيره في النمسا والمجر كونراد فون هوتسندورفConrad von Hotzendorf بأهمية غزو صربيا، حيث إنه إذا تم احتلال صربيا ستتمكن ألمانيا من إمداد حليفتها في ذلك الوقت الدولة العثمانية بالمعدات والأسلحة العسكرية مستغلة في ذلك خط السكك

الحديدية عبر النمسا والمجر ثم صربيا الذي ستكون قد سيطرت عليه إذا ما تم غزو صربيا، وبينما لم يكن ذلك يصب بشكل مباشر في مصلحة إمبراطورية النمسا والمجر إلا انها أرادت هزيمة صربيا وفي نفس الوقت تدعيم موقف ألمانيا حليفتها، وكانت روسيا عدوًا يُعمل له حساب، ومع دخول إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء وتورط القوات النمساوية على الجبهة الإيطالية أضحت القوات النمساوية المجرية مشغولة إلى أبعد الحدود، وحاول كل من الحلفاء ودول المحور أن يجروا بلغاريا إلى جانبهم وكانت بلغاريا وصربيا قد خاضتا حربين خلال الثلاثين عامًا السابقة على بداية الحرب العالمية الأولى الحرب الصربية البلغارية في عام1885 وحرب البلقان الثانية في عام1913 وكان الرأي العام السائد في بلغاريا هو أن صربيا تضع يدها نتيجة لتلكما الحربين على أراضي بلغارية، ولوحت دول المحور للحكومة البلغارية باستعادة تلك الأراضي إذا دخلت الحرب إلى جانبهم وتمت هزيمة صربيا، ومع استمرار وتزايد الخسائر التي كانت تمنى بها إنجلترا وفرنسا وأستراليا يوميًّا في حملة جاليبولي وهزيمة الجيش الروسي في جوليتسيه Gorlice وقع الملك فرديناند Ferdinand ملك بلغاريا معاهدة مع ألمانيا في الثالث والعشرين من سبتمبر من عام1915 وبدأت في حشد جيشها من أجل الحرب، وكان الصرب قد حاولوا خلال التسعة أشهر السابقة على دخول بلغاريا الحرب ضدهم أن يبنوا من جديد جيشهم الذي دمرته الحرب في عامها الأول، وتحسين وضع الإمدادات لقواتهم، ولكنهم فشلوا في ذلك وبالرغم من الجهود التي بذلوها في ذلك الصدد لم ينجحوا في زيادة أعداد قواتهم إلا بمقدار ثلاثين ألف جندي فبلغ مجموع جيشهم حوالي مائتين وخمسة وعشرين ألف جندي، ولم يكن قد تم تسليحه كما ينبغي، وبالرغم من أن بريطانيا وفرنسا قد وعدتا أكثر من مرة بإرسال قوات كبيرة إلى صربيا إلا أن أيًّا من تلك الوعود لم يتحقق حتى انفلت الأمر من أيديهم، وعندما بدأت

بلغاريا في تعبئة جيشها أرسلت بريطانيا قوات قوامها فرقتين إلى صربيا ولكن تلك القوات وصلت متأخرة إلى مدينة سالونيكي اليونانية، وكان أحد أسباب التأخير يرجع إلى معارضة الحكومة اليونانية لدخول قوات من الحلفاء على أراضيها، وكانت القوات التي تحارب الصرب الآن هي الجيش البلغاري وجيشان من النمسا والمجر تحت القيادة الموحدة للفيلد مارشال ماكنزن، وكان مجموع تلك القوات البلغارية والنمساوية يزيد على ستمائة واثنين وثمانين ألفاً، وبدأ النمساويون هجومهم في السابع من أكتوبر بقصف مدفعي كبير وتبعه هجمات عبر الأنهار ثم في الحادي عشر من الشهر نفسه هاجم الجيش البلغاري من اتجاهين الجيش الأول من شمال بلغاريا باتجاه نيش Niš وجيشهم الثاني من الجنوب باتجاه سكوبيه Skopje، وهزم الجيش الأولى البلغاري الجيش الثاني الصربي في معركة مورافا Morava وهي معركة دارت لمدة سبعة وعشرين يومًا بين الرابع عشر من أكتوبر والتاسع من نوفمبر، حيث كان التقدم البلغاري بطيئًا نتيجة للأرض الوعرة والأحوال الجوية السيئة، وبالرغم من المقاومة الصربية اليائسة نجح البلغار في فتح ثغرة قرب بيروت Pirot، وانسحب الصرب إلى تيموك Timok، وعلى أثر انسحابهم قام الجيش البلغاري بمطاردة فلول القوات الصربية، وفي تلك المعركة اخترق البلغار إلى عمق تسعين كيلومترًا في الأراضي الصربية وقتل ستة آلاف من الصرب واستولى البلغار على ستين مدفع وكمية كبيرة من العتاد الحربي، بينما شق الجيش الثاني البلغارى طريقه عبر القوات الصربية الجديدة والتي كان مستوى تدريبها وتسليحها ضعيفاً وقطع خط السكك الحديدية الذي يؤدي إلى سالونيكي في ما يعرف بمعركة أوفتشي بوليه Ovche Pole والتي وقعت فيما بين الرابع عشر من أكتوبر والخامس عشر من نوفمبر، وكان هدف القوات البلغارية منها هو عدم السماح للقوات الصربية بالاتصال بقوات الحلفاء في سولون Solun وكانت الضربة الرئيسية فيها في كومانوفو

Kumanovo حيث تمكنت الفرقتان الثالثة عشر والسابعة من هزيمة الجيش الصربي بسهولة، وفي اليوم الثالث تقدمت الخيالة ووصلت إلى فيليس Veles وفاردار Vardar بعد أن دحرت الهجوم المضاد التي قامت به القوات الصربية، وبتلك النجاحات تحقق الهدف من الهجوم وأصبح وضع القوات الصربية حرجًا مع تقدم القوات البلغارية، فكان على الجيش الأساسي في الشمال أن يحاول الانسحاب أو يتعرض للتطويق ويتم إجباره على الاستسلام وفي معركة كوسوفو قام الصرب بمحاولة يائسة أخيرة للحاق بالفرقتين الغير مكتملتين اللتين أرسلتهما بريطانيا وفرنسا واللتان كانتا تتقدمان بشكل محدود من الجنوب، وبدأت تلك المعركة بعبور الجيش الأول البلغاري لمورافا الجنوبية وانتهت بهزيمة ساحقة للجيش الصربي، وقام الجيش البلغاري الأول بالهجوم الرئيسي باتجاه نيش بريشتينا Priština-Niš ولمدة يومين كان الجيش الصربي يحتل بروكوبليبه Prokuplje حيث قاوموا البلغار لفترة محدودة ثم بعدها انسحب الجيش الصربي، ثم قام بمحاولة عقيمة للتمسك بمدينة جنيلانيه Gnjilane، وحاول الصرب حينئذ شن هجوم مضاد يائس باتجاه فرانييه Vranje وكومانوفو Kumanovo للاتصال بالقوات البريطانية الفرنسية، ولكنهم هزموا ثانية واستولت فرقتا المشاة السادسة والتاسعة للجيش الأول البلغاري بسهولة على بريشتينا في الرابع والعشرين من نوفمبر، ثم تقدم الجيش البلغاري كله تدعمه من الشمال أجزاء من الجيش الحادي عشر الألماني، وانتهت المعركة في الرابع من ديسمبر عندما تم الاستيلاء على مدينة ديبار Debar، وفقد الصرب ثلاثين ألفًا من جنودهم ومائة وتسعًا وتسعين مدفعًا ومائة وخمسين عربة وكميات كبيرة أخرى من العتاد، وترجع أهمية تلك المعركة إلى أنها أنهت وجود ما يسمى بمملكة صربيا والتي ستقسم فيما بعد بين الصرب والكروات والسلوفينيين، ثم ستصبح يوغوسلافيا فيما بعد.

نتائج المعركة

على أثر هزيمة الجيش الصربي في كوسوفو أصدر الجنرال بوتنيك أوامره بالانسحاب الكامل إلى الجنوب والغرب من مونتنجرو وإلى داخل ألبانيا وكان الطقس رهيبًا وكانت الطرق سيئة، وكذلك كان على الجيش أن يساعد عشرات الآلاف من المدنيين الذين كانوا يقومون بإخلاء المدينة معهم، ولم يبق هناك معدات أو طعام ولم يتمكن العديد من الجنود الفارين من الوصول إلى الساحل فقد كانت ظروف الانسحاب كارثية، وعندما وصل الجنود المتبقين وعددهم حوالي مائة وخمسة وخمسون ألفا إلى البحر الأدرياتيكي نقلتهم سفن الحلفاء إلى اليونان، وكان على الجنود الفارين أن يحملوا الجنرال بوتنيك طوال فترة الانسحاب بل قل الهروب وتم نقله إلى فرنسا ومات بعد أكثر قليلاً من العام في أحد مستشفياتها، وتكبدت صربيا بالذات خسائر هائلة، ووفقا للإحصاءات الصادرة عن الحكومة اليوغوسلافية في عام 1924 فإن القوات الصربية فقدت ما يزيد عن ستة وعشرين بالمائة من قواتها المسلحة إلا أن الحقيقة أنه تمت إبادة الجيش الصربي الصغير أصلا بالكامل، ولم يتبق منه إلا حوالي خمسة وعشرون بالمائة من قوته حيث كان الجيش الصربي لا يتعدى عدد جنوده النصف مليون (حوالي أربعمائة وعشرين ألف جندي)، ولم يعد لدى الصرب ما يمكن تسميته بالجيش واضطر الصرب بعد الحرب إلى إعادة بناء جيشهم من الصفر، وكان تعداد جنود الجيش الصربي عند انتهاء الحرب مائة ألف جندي فقط، وفقدت مملكة صربيا أربعة ونصف مليون من عدد سكانها مدنيين وعسكريين، وكانت أسباب ذلك ترجع في معظمها إلى النقص الحاد في الطعام وانتشار الأوبئة، وجرح ما يقرب من خمسة عشرة بالمائة من عدد السكان وهي كارثة ديموغرافية بكل المقاييس، وما تزال أبعادها جلية حتى اليوم.

أما الفرقة الفرنسية فقد سارت إلى الشمال من سالونيكي في أواخر

نوفمبر بقيادة الجنرال الفرنسي موريس ساراي Maurice Sarrail، وبالنسبة للبريطانيين فقد أصدر مكتب الحرب في لندن أوامره إلى القوات البريطانية بألا تعبر الحدود اليونانية، ولا يعرف على وجه الدقة السبب الذي حدا بالبريطانيين في التأخر عن إرسال تلك الفرقة إلى ميدان القتال في صربيا، وهل كانوا يخشون عليها من أن تبيدها قوات المحور، وكذلك لا يعرف على وجه التحديد متى تم صدور الأمر لتلك الفرقة بعدم عبور الحدود اليونانية قبل الهزيمة الكاملة للصرب أم بعدها، وفي الغالب لم يكن قائد الفرقة الفرنسية على علم بذلك الأمر وعلى ذلك استمرت الفرقة الفرنسية في طريقها حتى نهر فاردار، ولم يساعد ذلك القوات الصربية المنسحبة كثيرًا حيث كان الجيش البلغاري يركز قواته على الجناح الجنوبي للتعامل مع التهديد الذي تمثله الفرقة الفرنسية، وفي منتصف ديسمبر اقتنع الجنرال الفرنسي ساراي بأنه لابد من الانسحاب من وجه الهجمات البلغارية القوية على مواقعه، وكانت المحصلة النهائية لكل تلك الأحداث نصرا كاملا لدول المحور فقد تم فتح خطوط السكك الحديدية بين برلين وإسطنبول، وعلى الرغم من أن الحلفاء ينظرون إلى انسحاب الجيش الصربي برغم من عدم تنظيمه على أنه الخطأ الوحيد الذي شاب ذلك الانتصار إلا أن الجيش الصربي والذي كان قد انهار بالكامل وبدأوا في بنائه من الصفر لم يعد يمثل أي تهديد لدول المحور فيما بعد وحتى انتهاء الحرب، بالرغم من أن قوات منه حاربت في عدة جبهات بشكل متفرق، ولم يقاتل الجيش الصربي بعدها إلا في معركة دوبرو بوليه Dobro Pole والتي دارت في الخامس عشر من سبتمبر عام1918، وكان الصرب يقاتلون إلى جانب الفرنسيين والتي انهزم فيها الجيش البلغاري هزيمة نكراء، وتسببت تلك الهزيمة في تمرد الجنود الذين يقاتلون في الخطوط الأولى والتخلي عنها للاتجاه للعاصمة البلغارية صوفيا للتفاوض مع حكومتهم، ولكن هناك استقبلتهم قوات بلغارية موالية للملك وقوات

ألمانية وقامتا بسحقهم، وبعد عشرة أيام مـن تلـك المعركـة دخلـت قـوات الحلفاء بلغاريا بعد أن واجهتها مقاومة بسيطة ووقعت بلغاريـا هدنـة مـع دول الحلفاء لتترك الحرب رسميًّا وأسدل الستار بتوقيع بلغاريا لتلك الهدنة على أعمال القتال في الجبهة الصربية.

الفصل الخامس

حملة الدردنيل

نبذة عن تاريخ الدولة العثمانية

ليس غرض الكتاب على الإطلاق تناول الدولة العثمانية من الناحية التاريخية أو التعرض لأسباب صعودها أو انهيارها، اللهم إلا تلك الفترة من تاريخها الخاصة بفترة الحرب العالمية الأولى والتي تعتبر وبحق الفصل الختامي لتاريخ الإمبراطورية العثمانية، تلك الإمبراطورية التي وصلت إلى أسوار فيينا وكادت أن تسيطر على أوربا، وكانت كابوسًا أقض مضجع أوربا لقرون بعد أن انقلبت من مجرد إمارة صغيرة إلى إمبراطورية شاسعة، ودانت لها الكثير من دول أوربا بالخضوع، ثم بدأ نجم الدولة العثمانية في الأفول حتى تمكنت الدول الأوربية التي كانت في الماضي دولاً ضئيلة الشأن مثل فرنسا التي كانت قبل ذلك بكثير قد بدأت في التوسع واحتلال بعض المستعمرات في إفريقيا نجدها في عام1837 تستكمل احتلالها للجزائر، بعد محاولات دامت سبع سنوات منذ عام1830، ثم تونس في عام1881، وتبع ذلك احتلال إنجلترا لمصر في عام1882، والاحتلال الإيطالي لليبيا في عام1911، وكانت الإمبراطورية العثمانية قد وصلت إلى درجات مشينة من الضعف في تلك الفترة مما جعل الإدارة العثمانية تغضي الطرف مرة تلو الأخرى عن احتلال تلك البقاع لممتلكاتها، ونحو بدايات القرن العشرين كان الجناح الغربي للدولة

العثمانية قد أصبح بالكامل تحت سيطرة إنجلترا وفرنسا وإيطاليا، وقبلها كانت إنجلترا قد احتلت الهند وأفغانستان في الشرق، وكان الروس قد احتلوا دول القوقاز المسلمة، وبدا كما لو كانت الديدان تأكل جسد الدولة وهي تحتضر لدرجة أنه لم يكن لدى الدولة العثمانية إلا أسطولاً صغيرًا يتكون من ثلاث سفن قديمة غير قادرة على الملاحة عندما قامت إيطاليا باحتلال ليبيا، ولم يتبق إلا القلب في منطقة الحجاز والتي تضم أقدس مقدسات المسلمين والعراق والشام، وقد تكفلت الثورة العربية ثم تكفلت الحرب العالمية الأولى ومصطفى كمال بتدمير البقية الباقية من الإمبراطورية العثمانية، تلك كانت الصورة قبل وبعد الحرب العالمية الأولى وقبل أن نتناول حملة الدردنيل ومعارك المنطقة العربية رأينا أن نتناول بشيء من الشرح بعض الأحداث التاريخية التي وقعت قبل ثلاثة قرون أو يزيد من نشوب الحرب العالمية الأولى والتي كان لها عظيم الأثر في انهيار تلك الإمبراطورية العظيمة التي ظلت لفترة طويلة لا تغرب عنها الشمس حقًا لا مجازا، عل تلك الأحداث تسهم في إجلاء الغموض عن القطع الناقصة في المخطط الأوربي لهدم الإمبراطورية العثمانية والتي إعانتها فيها طائفة من اليهود الذين قدر لهم أن يلعبوا دورًا من أكثر الأدوار خسة وعداوة للإسلام والمسلمين في تاريخنا المعاصر، وكان منهم عميل إنجلترا اليهودي مصطفى كمال الملقب فيما بعد بأتاتورك.

مسيح أزمير الكذاب

ولد "شبتاي تسفي" في عام 1626 في مدينة أزمير العثمانية لأسرة من اليهود القرائين، وكان والده موردخاي تاجر دجاج فقير وحسب الروايات اليهودية أرسل موردخاي ابنه ليتعلم التلمود في شرخ شبابه في إحدى الكتاتيب الدينية اليهودية "يشيفاه" والتي كان يدرس بها حاخام أزمير

"يوسف إيسكابا" ولم ترق له دراسة الشريعة اليهودية إلا أنه أحرز تقدمًا ملحوظًا في دراسة التلمود، وكانت تجذبه بشدة علوم السحر والتصوف اليهودية الأمر الذي أفاده فيما بعد، فقد كان أتباعه من اليهود ينسبون اليه الاتصال بالملائكة وتلقي الوحي من الله والتنبؤ بالمستقبل، وكان يميل في شبابه إلى الوحدة والعزلة وقد تزوج مبكرًا إلا أن زوجته لم تلبث أن طلبت الطلاق حيث لم يمسسها فسارع بتطليقها، وحدث نفس الشيء مع زوجته الثانية التي تزوجها عندما كان في العشرين من عمره، وكانت هناك خرافة شائعة بين اليهود في تلك الآونة عن أن سنة1648 هي السنة التي سيظهر بها المسيح، ويحصل لهم الخلاص على يديه، واقتنع "شبتاي تسفي" الذي كان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا في ذلك الوقت بأنه ذلك المسيح وبدأ ينشر دعوته بين يهود أزمير، وتمكن من استمالة بعض الأتباع وإقناعهم بأنه المسيح المخلص الذي سينشئ مملكة إسرائيل الكبرى والذي اختاره الرب وذلك عن طريق نطق اسم الله بالعبرية "يهوفاه" والذي تمنع الديانة اليهودية نطقه خارج الهيكل الذي تم تدميره نهائيًا في القدس، وكان لذلك أهمية كبيرة في أوساط اليهود الذين يتمتعون ببعض العلوم الحاخامية مما كان له أثر كبير في تثبيت سلطته الروحية وسط اليهود في أزمير، وكان الحاخام الأكبر لأزمير "يوسف إيسكابا" يراقب "شبتاي" وأتباعه حيث فرض عليهم حظرًا دينيًا، وبحلول عام1651 تم حظر "شبتاي" وجماعته في أزمير وفي1658 ظهر ثانية في الأستانة عاصمة دولة الخلافة العثمانية، حيث قابل أحد الحاخامات اليهود هناك وهو "إبراهام هاياكيني" والذي أكد بعد لقائه مع "شبتاي" أن "شبتاي" هذا قام بتزوير مخطوط قلد به الأسلوب القديم للأسفار اليهودية، وكان يحمله معه باعتباره شهادة تفيد بأنه المسيح المرتقب، واطلق عليه اسم (حكمة سليمان العظيمة) ويذكر فيه اسم "شبتاي تسفي"، ويقول بأنه هو المسيح الذي سيجلس على عرش

إسرائيل وما إلى ذلك من الهراء، ثم قرر أن يتجه إلى مدينة سالونيكي والتي كانت في ذلك الوقت مركزًا ليهود القبالاه، واختاره مركزًا لعملياته، وهناك أعلن نفسه المسيح علنًا وبشكل بالغ الفجاجة، وتمكن من اكتساب المزيد من الأتباع والمريدين من وسط عوام وجهال اليهود هناك، وطرده حاخامات اليهود من هناك كذلك، وتذكر سيرته الذاتية عدة أماكن لجأ إليها لنشر ما يدعو إليه ومنها الإسكندرية وأثينا واستانبول والقدس، وبعد أن دار بعدة بلاد استقر به المقام أخيرًا في القاهرة حيث أقام بها حوالي العامين، وكان يعيش بها أحد أثرياء اليهود في ذلك الوقت ويدعى رفائيل يوسف حلبي، وكان مسئولاً من قبل الحكومة العثمانية عن دار سك النقود، وعلى الفور قرر "شبتاي" التعرف عليه وبعد لقائهما أصبح رفائيل أحد أكثر أتباعه تحمسًا، ثم انطلق بعدها إلى القدس وظل ساكنًا في البدء، ثم عاد يمارس أفعاله التي لا تعدو ما يمارسه السحرة المنود من الصيام حتى يخفض معدلاته الحيوية فيظنه الناس ميتا ثم يصحو، وما إلى ذلك من الهراء الذي كان ينطلي بشدة على اليهود، وكان يغني أغان فاضحة بلغة اللادينو ويعطي لها تفسيرات دينية، وجذب صوته المزيد من الأتباع في القدس، وكان يصلي باليهود عند مقابرهم، ويوزع اللحوم على أطفال اليهود حتى اكتسب وبالتدريج المزيد من الأتباع، وفي ذلك الوقت اضطر إلى الذهاب إلى القاهرة مرة أخرى حيث احتاجت الطائفة في القدس إلى الأموال واختارته الطائفة اليهودية التي تدرك علاقته باليهودي القاهري الثري رفائيل حلبي ليكون مبعوثها لجلب الأموال وقبل هو من ناحيته لأن ذلك يضفي عليه صورة مخلص اليهود في المدينة المقدسة، وتمكن من الحصول على المبلغ المطلوب بعد مقابلة رفائيل حلبي، الأمر الذي ساهم في إحكام سيطرته على الطائفة اليهودية في القدس، وفي زيارته الثانية للقاهرة ساعدته بعض الظروف فقد حدثت مذبحة لبعض اليهود في بولندا، وأخذت على أثرها فتاة يهودية تبلغ من العمر ستة أعوام

تدعى سارة إلى دير مسيحي ليتم تربيتها به، ولكنها تمكنت من الهرب بعد عشر سنوات، ويدعي اليهود أنها هربت بمعجزة وأخذت إلى أمستردام، وبعد عدة سنوات ذهبت إلى ليفورنو بإيطاليا حيث امتهنت البغاء. هناك، وكذلك أشاعت انها ستكون زوجة المسيح المنتظر والذي سيظهر قريبا!!!! ووصلت الأخبار عن تلك المرأة إلى القاهرة فأعلن "شابتاي" أنه رأى في حلم من قبل أنه سيتزوج من امرأة فاجرة وذهب على أثر ذلك الرسل إلى ليفورنو ليعودوا بتلك المرأة إلى القاهرة ليتزوجها "شبتاي" في منزل رفائيل حلبي، وعن طريقها اكتسب "شبتاي" المزيد من الأتباع، وحتى فجورها قبل أن تتزوجه كان ينظر إليه باعتباره تأكيد آخر على كونه المسيح!!!! وبعد زواجه من تلك المرأة وتمرغه في أموال رفائيل حلبي وزيادة أتباعه عاد إلى فلسطين، وهو يشعر بالزهو وفي طريقه التقى بناثان بنيامين ليفي المعروف باسم (ناتان هعزاتي) أو ناثان الغزاوي والذي أصبح اليد اليمنى له فيما بعد، وتنبأ له بأنه سيكون الياهو الذي يبشر بالمسيح، وأعلن ناثان أن العصر المسيحاني سيبدأ في العام التالي، ونشر "شبتاي" تصريحه هذا بشكل واسع مضيفا الكثير من التفاصيل مثل أنه سيغزو العالم بدون سفك دماء وأنه سيمتطي أسدًا ممسكًا في فكه بتنين ذي سبعة رءوس، وأنه سيستعيد العشرة قبائل اليهودية المفقودة إلى الأرض المقدسة، وأنه سيدخل الأستانة ويضع على رأسه تاج الخليفة العثماني، وتم نشر ذلك الخرف بشكل واسع وصدقه اليهود الجهال، وكان حاخامات القدس ينظرون إلى تلك الحركة بعين الريبة والشك وهددوا بطرد ونفي أتباع "شبتاي"، ومن جانبه أدرك أن القدس ليست بالمكان الملائم لنشر دعوته فانطلق إلى أزمير مرة أخرى، وأعلن ناثان الغزاوي أن غزة ستكون المدينة المقدسة وليست القدس، وفي طريقه إلى أزمير مر بحلب واستقبلته الطائفة اليهودية هناك استقبالاً حافلاً، وكان الاستقبال في أزمير أكثر حرارة وبعد قليل من التردد أعلن نفسه المسيح المنتظر، وتم الإعلان عن ذلك في المعبد

اليهودي الموجود بالمدينة مع نفير الأبواق واستقبله العامة بهتافات ليحيا الملك ليحيا المسيح!!!!! وفي عام1666 غادر "شبتاي" أزمير متجهًا إلى استانبول عاصمة الخلافة، ويبدو أن ذلك كان من جراء إجبار السلطات المحلية في المدينة له على الخروج، وبدلاً من أن يضع تاج السلطان على رأسه عند دخول استانبول، وضعت الأغلال في يده، وتم القبض عليه وألقي به في السجن وبعد شهرين من حبسه تم نقله إلى سجن أبيدوس، وهناك زاره حاخامان من لفوف وجاليسيا ببولندا وأعلنا له عن وجود نبي في بولندا يدعى نحمياه، فطلب هو لقاءه وعندما التقيا لم يتوصلا إلى اتفاق، وانتهت المقابلة بنشوب العداوة بينهما، إذ لم يرض كل منهما عن الآخر، وحاول أتباع "شبتاي" تدبير مؤامرة لقتل نحمياه ذاك، ولكنه نجا وهرب وتظاهر باعتناق الإسلام وطلب مقابلة السلطان محمد الرابع، وأخبره بما دار بينه وبين "شبتاي"، وعلى أثر ذلك سيق "شبتاي" إلى قصر السلطان بأدرنة لتتم محاكمته، وحيث لم يكن يعرف اللغة التركية كان أحد الأطباء اليهودي الأصل وهو حياتي زاده أفندي الذي كان قد اعتنق الإسلام من قبل يقوم بالترجمة من لغة اللادينو إلى التركية، ووجهت إليه التهم الواحدة تلو الأخرى، ولكن لسانه انعقد ولم يستطع الرد من هول الموقف، وفي آخر المحاكمة اقترح عليه المترجم أن يعلن إسلامه لينجو بنفسه فاغتسل ونطق بالشهادتين وأعلن تغيير اسمه إلى محمد عزيز أفندي فرضي عنه السلطان، ولكنه لم ينس دعواه واستطاع إقناع اتباعه باعتناق الإسلام في العلن وممارسة الشعائر اليهودية سرًّا مضافًا إليها اعتباره المسيح المنتظر، وأطلق العثمانيون على تلك الفئة الدونمه، وهؤلاء ظلوا يهودًا من الناحية الفعلية كما سنرى.

يهود الدونمه

تحدرت طائفة الدونمه من أتباع ومريدي "شابتاي تسفي"، والذين اعتنقوا الإسلام ظاهريًا في الثلث الأخير من القرن السابع عشر، وكانوا يأخذون الحذر من جيرانهم المسلمين فكانوا يلتزمون بمظاهر إسلامية في العلن بينما يقومون بشكل سري بممارسة طقوس وشعائر الديانة اليهودية، ولهذا السبب فإنه لا يعرف إلا القليل جدًا عن ذلك المجتمع الغامض، وكان المركز الرئيسي ليهود الدونمه هو مدينة سالونيكي باليونان حيث تجلى تأثيرهم الاقتصادي والاجتماعي بشكل كبير حتى تركوها في عام1924 عندما قامت الحرب التركية اليونانية، وتم تهجير الجاليات التركية كلها من اليونان، وانتقل يهود الدونمه للعيش في استانبول وأزمير وتسببت تلك الهجرة في ضعضعة مؤسساتهم، ويقول البعض بأن تلك الهجرة أدت ضمن ما أدت إلى صهر أجزاء منهم في المجتمع التركي المسلم وازدياد حالات الزواج المختلط مما أدى إلى تقلص حجم يهود الدونمه، وان كان ذلك الرأي يعوزه الدليل الموثق ومصطلح الدونمه من الفعل التركى "Dönme"، والذي يعني أساسًا يعود ثم نجد من ضمن معانيه الردة، وكان يهود الدونمه يعتبرون ذلك المصطلح مصطلحًا تحقيريًا ويفضلون استخدام مصطلح "مأمينيم" والتي تعني مؤمنين بالعبرية، ويشير استخدامهم لذلك المصطلح إلى أنهم قد انشقوا عن الثوابت التي يؤمن بها اليهود الأرثوذوكس حيث آمنوا بأن "شابتاي تسفي" هو المسيح المخلص، وخرجوا على بني جلدتهم بتفسير جديد لليهودية المسيحانية أي التي تؤمن بقدوم المسيح الأمر الذي عارضه فيهم كثير من اليهود في العالم مما نتج عنه انفصال تلك الفرقة اليهودية عقائديًا عن باقي الفرق اليهودية الأخرى، عند موت "شابتاى" هذا في عام1676 ميلادية كان عدد العائلات اليهودية التابعة لتلك الطائفة قد تجاوز المائتي عائلة متركزين

أساسًا في أدرنة وأزمير وبورصة، وأصبح بعض أبناء تلك العائلات قادة للطائفة ونمت تلك الطائفة من جراء التحول للإسلام وخصوصًا التحول الكبير الذي تم في عام1683 في مدينة سالونيكي اليونانية، والتي أصبحت بعد تحول الكثير من اليهود بها إلى الإسلام (ظاهريا بالطبع) أكبر مدينة تضم تجمعًا للدونمه، وذلك حتى عام1924، وحتى ذلك التاريخ كانت تلك الطائفة كانت قد نمت نموًا كبيرًا وتشعبت حتى أصبح لأفرادها أحياءا خاصة، وكذلك كان الدونمه يحتفظون بعلاقات جيدة مع جاليات اليهود المحلية الأخرى الذين كانوا يتعاطفون معهم، ونتج عن ذلك أن أصبحت سالونيكي في وجدان الأتراك المسلمين تعني مركز تواجد الدونمه حتى أن كلمة "Selânikli" والتي تعني في التركية شخصًا من سالونيك أصبحت مرادفًا لكلمة دونمه، وتسببت النزاعات والخلافات المذهبية في انشقاقات عديدة في أوساط الدونمه في سالونيكي وبعض الجهات الأخرى، وكان الدونمه اليعقوبيون على سبيل المثال وهي أحد طوائف الدونمه يقودهم يعقوب المسمى بالفيلسوف والذي يكنى "كريدو" والتي تعنى المحبوب، وهو أخو زوجة "شابتاي تسفي" وأعلن أنه تناسخ لروح المسيح المتوفى "شابتاي تسفي"، وكان الأزميريون يدعون أنهم أحفاد الدونمه الأصليون، وانقسمت منهم طائفة صغيرة في حوالي عام1700 تدعى الكاراكاشيون والتي تعرف كذلك باسم الكونيوسس في لغة اللادينو التي يتكلمها يهود الدونمه، وكان يقودهم "باروخياه روسو" والذي غير اسمه إلى عثمان بابا بعد أن تحول إلى الإسلام، وأعلن أنه تناسخ لروح "شابتاي"، وكان هؤلاء أكثر راديكالية وعملوا على تجنيد يهود آخرين في ألمانيا وأستراليا وبولندا، وكان أحد الرحالة الأوربيين الذين مروا بمدينة سالونيكي وكتبوا عن الدونمه هو "كارستن نيبور"، وكتب أنه يعيش بها حوالي ستمائة عائلة من الدونمه في عام1774، وازداد الرقم إلى أكثر من عشرة آلاف عائلة عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى، وبشكل كبير كانت تلك الطائفة تتحاشى

الزواج المختلط بينهم وبين الآخرين سواء كانوا من اليهود أو المسلمين، وكان الأزميريون يشكلون الطبقة العليا من مجتمع الدونمه في سالونيكي فكان من بينهم التجار الأغنياء ورجال البنوك، وكانت الطبقة المتوسطة غالبًا ما تنتج المدرسين والصحفيين والمحامين وكانوا أول من بدأ ينصهر بداخل الأتراك المسلمين في نهاية القرن التاسع عشر، وكان اليعقوبيون يضمون موظفي الطبقة الدنيا والوسطى، بينما كانت طبقة الكاراكاش تضم الحرفيين مثل الحلاقين والإسكافيين والجزارين والبوابين، وكان كل هؤلاء يعيشون في حي واحد في سالونيكي يقع في الوسط بين حي المسلمين وحي اليهود، وكان لهم مدارسهم الخاصة بهم ونواديهم ومراكزهم الاجتماعية ومؤسساتهم الخيرية، وكان لكل مجموعة مكان لممارسة شعائرهم السرية اليهودية يدعى "كاهال"، ومدرسة خاصة بهم يتم التدريس فيها باللغة التركية، ولكن كانت كل طوئف يهود الدونمه تستخدم مدافن واحدة للكل، وكان معظم أفراد الدونمه في سالونيكي من المتعلمين، ويظهرون نشاطًا فيما يخص شئون المدينة كما وصف ذلك الصحفي الدونمه أحمد أمين يالمان في كتابه تركيا في زمني الصادر عام1956 بالرغم من أن هويتهم كيهود دونمه كانت سرًا لا يطلع عليه غيرهم، وفي ذلك الوقت كان كل يهودي من الدونمه يستخدم اسمين أحدهما يهودي والآخر تركي إسلامي، والكثير منهم احتفظوا بأسمائهم السفاردية القديمة، وكان اليهود يتهمونهم بالردة عن اليهودية بينما لم يكن الأتراك المسلمون يتعاملون معهم باعتبارهم مسلمين مؤمنين حقًا بالإسلام، وكان المسلمون على سبيل المثال يدركون أنهم يتبادلون زوجاتهم في مناسبات معينة، غير أنهم لم يستطيعوا إثبات ذلك، ونتيجة لذلك لم يتعاملوا معهم باعتبارهم مسلمين مخلصين في الغالب، وكان يهود الدونمه في البدء يمارسون طقوسهم باللغة العبرية ثم بلغة اللادينو وهي اللغة التي تبنوها لأعمالهم الأدبية الدينية والعلمانية في نفس الوقت،

وفيما بينهم كانوا يستخدمون تلك اللغة على نطاق واسع، وكانت كتب صلواتهم في أواخر ايام الإمبراطورية العثمانية وفي أيام الجمهورية التركية صغيرة للغاية حتى يتمكنوا من إخفائها بشكل جيد، وفيما يخص شعائرهم وطقوسهم اليهودية كانوا يطبقون أكثر قواعد السرية حزمًا حتى لا يتسرب أي من أسرارها لجيرانهم المسلمين وأدى ذلك إلى قلة المعلومات عنهم وعن تاريخهم ومذاهبهم وثرواتهم، وخصوصًا حيث احترقت الكثير من كتاباتهم في حريق سالونيكي الكبير الذي شب في عام1917 إلا أن بعض المعلومات عنهم أصبحت متاحة عندما اندمجوا أكثر في المجتمع التركي المسلم، وبغض النظر عن النزعات التمازجية التي كانت تسود أوساط يهود الدونمه في أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية إلا أن معظم أفراد تلك الطائفة احتفظوا بعاداتهم الصارمة، ومن ناحية لم يعتبرهم اليهود الأرثوذوكس يهودًا حيث كانوا يعملون في الإجازات والأعياد الدينية اليهودية، وكذلك لم يكن المسلمون يعتبرونهم مسلمين برغم ممارستهم لبعض شعائر الإسلام في الظاهر إلا أنهم كانوا على سبيل المثال يخرقون تلك الشعائر بممارستهم لعادة الختان مثلاً عندما يبلغ الولد سن الثامنة، وفي الحقيقة وحتى مع النقص الشديد في المصادر التي تتكلم عن ممارساتهم الدينية في معابدهم الخاصة فإنهم لا يمكن على الإطلاق اعتبارهم مسلمين حتى ولو نطقوا الشهادتين في الظاهر، إذ أنهم وبخلاف بعض المظاهر الخارجية الإسلامية كانوا يلتزمون بتطبيق شعائر الديانة اليهودية بالكامل مضيفين عليها بعض الطقوس الخاصة بهم مثل التقليد الذي اتبع منذ موت "شبتاي تسفي" هذا والخاص بتبادل الزوجات في عيد ميلاده، في الحقيقة يمكننا اعتبارهم إحدى الفرق التي انشقت عن اليهودية، ولا يمكن القول بأنهم مسلمين حتى ولو تسموا بأسماء المسلمين، وتتلخص معتقداتهم في ثماني عشرة نقطة أو قانون سنه لهم مؤسس فرقتهم "شابتاي" نفسه، ومن المفترض أن توازي تلك الأوامر الوصايا

العشرة في العهد القديم، ولكنها غامضة نوعًا حيث تقضي مثلاً بقراءة المزامير سرًّا كل يوم، وكذلك تقضي بأن يظهروا إسلامهم حيث تقضي إحدى تلك القواعد "ذروا التراب في أعين الأتراك المسلمين"، أي بممارسة أبناء تلك الطائفة للإسلام أمام المسلمين الأتراك، وكذلك الحظر الشّديد الصرامة للزواج ما بين المسلمين والدونمه، وشارك أفراد من تلك الطائفة اليهودية بشكل كبير في الأحداث السياسية في سالونيكا قبل وبعد الحرب العالمية الأولى، وبرز دورهم في الجمعية التي تعرف باسم جمعية الاتحاد والترقي، ومنهم محمد جاويد بك وهو أحد أحفاد "باروخياه روسو" أو عثمان بابا زعيم طائفة اليهود الكاراكاشيين، ووصل محمد جاويد هذا إلى منصب وزير المالية خلال فترة حكم تركيا الفتاة، بينما كان لمصطفى كمال أحد أكبر الأدوار في هدم حكم الخلافة الإسلامية -كما سنرى- وبالرغم من أن الأتراك المسلمين كانوا على وعي تام بالأقليات الأخرى الموجودة داخل حدود الإمبراطورية العثمانية كاليهود والأرمن واليونانيين إلا أن إدراكهم لحجم تغلغل يهود الدونمه كان أقل بكثير وخصوصًا في عصر انعدمت فيه وسائل التحقق من الشخصية وهيئات الإحصاء العامة، وكذلك لم ينصرف جهد المنظمات الرقابية التي كانت قليلة العدد والكفاءة إلى مراقبتهم، وعليه لم يكن المسلمون الأتراك وعلى رأسهم الحكام ومسيري شئون البلاد على وعي أو علم بدورهم الحقيقي وبحجم المشكلة التي يواجهونها، وخصوصًا عندما تم ترحيلهم إلى تركيا في عام1924، وكان ذلك بالطبع راجعًا في أحد أسبابه إلى تقاليد الكتمان الشديد التي يحيط بها يهود الدونمه هوياتهم ودينهم الحقيقي، إلا أنه وفي الحقيقة وبالنسبة للأتراك الذين كان ما يزال الإسلام بالنسبة لهم هو الانتماء الأساسي كانوا يشكون في يهود الدونمه وولائهم للإسلام، وكذلك كانوا يتهمونهم على الدوام بتخطيطهم لإنهاء الخلافة وعلمنة تركيا وتغريبها حتى يتسنى لهم القضاء التام على الإسلام في تركيا، بل إن

هناك تفسيرًا شائعًا أورده أحد الكتاب الأمريكيين، وهو كريستوفر جون بيركنز في كتابه المذابح اليهودية للأرمن يتهم فيه اليهود ممثلين في جمعية الاتحاد والترقي بارتكاب مذابح للأرمن كما سنرى في حينه.

مصطفى كمال

ما من شك أن مصطفى كمال المؤسس المزعوم للدولة التركية الحديثة كان يهوديًّا وما زال ذلك الأمر يثير حيرة بين المسلمين وغير المسلمين على السواء، ولسنا هنا بصدد التعرض لسيرته الذاتية اللهم إلا ما يؤثر منها على مجريات الأحداث في الحرب العالمية الأولى، حيث يظهر لمن يتابع أعماله من إلغاء للخلافة وإلغاء للحرف العربى والتحول إلى الحرف اللاتينى وإلغاء الأذان ومنع الحجاب والكثير من الأعمال التى تدل على كراهية عميقة للإسلام وأهله، وقبل ذلك إخلاؤه لفلسطين والانسحاب المريب الذي نفذه في مواجهة القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللنبى حيث تولى قيادة أحد الجيوش في فلسطين، فقام بإنهاء القتال مع الإنجليز وسمح لهم بالتقدم شمالاً دون مقاومة، وأصدر أوامره بالكف عن الاصطدام مع الإنجليز، ويحار المطالع للدمار الذي أحدثه ذلك الزنيم هل هو مسلم حقًا أم هو شيطان لا دين له، وحقيقة الأمر أن مصطفى كمال هذا كان يهوديًّا من يهود الدونمه، وهذه حقيقة يعرفها القاصى والدانى، فيذكر الكاتب الإنجليزي أرمسترونج في كتابه: "الذئب الأغبر" أن أجداد مصطفى كمال من اليهود الذين نزحوا من إسبانيا إلى سالونيك، وكان يطلق عليهم يهود الدونمة، الذين ادعوا الدخول في الإسلام. ولم يعد هذا بالأمر الجديد فيهودية مصطفى كمال هذا لا تخفى على أحد سواء من المؤرخين العرب أو من الأجانب وكراهيته المتأججة وحقده الدفين على الإسلام لا يعوزه أي دليل، فها هو يقول في أحد خطاباته للأتراك "يجب علينا أن نلبس

ملابس الشعوب المتحضرة الراقية وأن نبرهن للعالم أننا أمة كبيرة راقية ولا نسمح لمن يجهلنا من الشعوب الأخرى بالضحك علينا وعلى موضتنا القديمة البالية (يقصد الإسلام) نريد أن نسير مع التيار والزمن ويجب علينا أن نفصل تركيا عن ماضيها المتعفن والفاسد (يقصد الإسلام أيضًا)".

وفي الثالث من مارس من عام1924 قدم مشروعًا إلى المجلس الملى الكبير [5] يدعو فيه إلى إلغاء الخلافة، وقال في خطابه:

"إن الإمبراطورية العثمانية قامت على أساس الإسلام، إن الإسلام بطبيعته ووضعه عربى وتصوراته عربية وهو ينظم الحياة من ولادة الإنسان ويخنق الطموح في نفوس أبنائه ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتحام، والدولة لا تزال في خطر ما دام الإسلام دينها الرسمي".

وما قاله مصطفى كمال في ذلك الخطاب يفصح عن القليل من حقده على الإسلام وأهله وكراهيته له، وهو أشبه بقمة جبل الثلج العائم في البحر يظهر منه أقل مما يخفى، وواقعة إلقائه بالمصحف في وجه شيخ الإسلام وهو أعلى رتبة دينية في الدولة العثمانية في ذلك الوقت مذكورة في أكثر من مرجع، وقد أشار غير قليل من المؤرخين إلى تلك الحقيقة سواء أكانوا عربًا أم أوربيين أم أمريكيين، ولكن الدليل هذه المرة يأتى من صحفى يهودي يكتب في جريدة "جويش فورورد" التى تصدر في نيويورك بلغة البيديش فقد نشرت تلك الجريدة في أحد أعدادها الصادر بتاريخ الثامن والعشرين من يناير1994 بقلم "هيلليل هالكين" ما نصه:

زيخرون يعقوب - قلت للسيدة باتيا كينان المتحدثة باسم الرئيس الإسرائيلي عيزرا فياتسمان: هناك سؤالان أردت أن أوجههما. وكان من المقرر أن يتجه فايتسمان في اليوم التالي الرابع والعشرين من يناير إلى أنقرة في أول زيارة رسمية لرئيس ما يسمى بإسرائيل لتركيا، سألت: ما إذا

[5] و يسمى بالتركية Büyük Millet Meclisi و هو البرلمان التركي

كان فايتسمان سيضع الزهور على قبر كمال أتاتورك؟ وردت علي السيدة "كينان" بأنه حسب جدول زيارته سيقوم فايتسمان بوضع إكليل من الزهور على قبر أتاتورك في صباح يوم وصوله إلى أنقرة، وكان سؤالي الثاني: هل يعلم فايتسمان أن أتاتورك من أصول يهودية وأنه قد تعلم الصلوات اليهودية عندما كان طفلا؟، وردت علي قائلة: بالطبع بالطبع، كما لو لم تكن قد فوجئت بذلك، فشكرتها وأغلقت الخط، وبعد عدة دقائق خطر على بالي أن أتصل بها وأسأل: هل ينتوي فايتسمان أن يشير إلى ذلك بشكل رسمي عندما يصل إلى أنقرة ؟ فقالت لي: إني سعيدة للغاية باتصالك مرة أخرى، وبدت الآن منفعلة وسألتني: من أين جئت بمعلوماتك عن الموضوع؟ ورددت عليها أليست تلك المعلومات لديكم؟ ولأن تلك المعلومات لم تكن لديها ولأنها لم تكن تعرف شيئًا عن الموضوع فقد افترضت وجود تلك المعلومات لديهم لأني بدوت وأنا اتكلم بلهجة تقريرية، الأمر الذي جعلها تعتقد بوجود تلك المعلومات هناك لا محالة، وقالت: بعد أن أغلقت الخط ذكرت ذلك لفايتسمان ولم يبد أن أحدًا هنا يعرف أي شيء عن الموضوع فهل بإمكانك أن ترسل لنا بالفاكس المعلومات التي لديك؟ فأرسلت لها صيغة قصيرة من المعلومات التي أمتلكها وهنا صيغة أطول من تلك التي أرسلتها، وقد بدأت القصص تتناثر عن أصول أتاتورك اليهودية والذي تنتشر تماثيله في كل مدينة تركية خلال حياته، ولكنه نفاها ونفتها عائلته ولم يأخذها كتاب السيرة الذاتية على محمل الجد، ومن بين ستة عالجوا موضوع سيرته الذاتية لم يذكر أحدهم شيئًا عن أصوله اليهودية، والمصدر الوحيد المطبوع الذي وجدت به ذكرًا للموضوع كان الموسوعة العبرية، والتي تقول ما نصه:

"مصطفى كمال أتاتورك (1881-1938) جنرال تركي ورجل دولة ومؤسس تركيا الحديثة، ولد مصطفى كمال لأب يعمل موظفا صغيرًا بالجمرك في مدينة سالونيكي، وفقد أباه عندما كان صغيرًا، وليس هناك

دليل على الاعتقاد شائع الانتشار بين المسلمين واليهود على السواء في تركيا بأن عائلته من الدونمه، وعندما كان حدثًا تمرد على رغبة والدته بالانخراط في التعليم الديني التقليدي، وفي سن الثانية عشرة تم إرساله بناء على طلبه ليدرس في الأكاديمية الحربية".

من هو مصطفى كمال الذي كان والده يتصرف بطريقة تقليدية تميز يهود الدونمه من الحفاظ على التقاليد الإسلامية في الظاهر بينما يهزأ بها سرًّا؟ جاءت زبيدة أم أتاتورك من جبال سالونيكي الشرقية قرب الحدود الألبانية الحالية ولا يعرف إلا القليل عن أصول والده علي رضا، ويشير اللورد "كينروس" إلى غموض انتماءات مصطفى كمال الحقيقية مشيرًا إلى أبيه باعتباره شخصية تحيط بها الظلال، ويضيف قائلا: كان كمال أتاتورك يبتعد عن كشف كل ما يتعلق بعائلته وخلفياتها، وقد وقعت على فصل مثير للاهتمام عندما كنت أبحث عن السيرة الذاتية لإيتامار بن آفي ابن اليعزر بن يهوداه أول من قام باحياء اللغة العبرية في أواخر القرن التاسع عشر في فلسطين، وكان بن آفي أول طفل يولد في عائلة تتكلم العبرية في البيت، ثم أصبح صحفيًّا، وقام بإصدار صحيفة، وفي كتابه يعرض لواقعة حدثت في عشرينيات القرن العشرين عندما كان يدلف إلى أحد الفنادق في القدس ويدعى فندق "كامينيتس" في ليلة خريفية في عام1911 فسأله مالك الفندق:

"هل ترى ذلك الضابط التركي الجالس هناك في الركن يحتسي زجاجة من العرقي؟".

نعم.

إنه أحد أهم الضباط في الجيش التركي.

ما اسمه؟

مصطفى كمال.

أريد مقابلته.

قلت ذلك لأني قد شدني ذلك البريق المنبعث من عينيه الخضراوين الثاقبتين،

ويصف بن آفي مقابلتين مع مصطفى كمال، وكانت لغة الحوار فيهما هي الفرنسية، وتخللتهما كميات كبيرة من العرقي وقد أسر مصطفى كمال إلى محدثه في أولاهما:

"أنا من نسل "شبتاي تسفي" وأنا من أشد المعجبين بذلك النبي، ورأيي أن كل يهودي في هذا البلد يجب أن يتبعه".

وخلال لقائهما التالي الذي وقع بعد عشرة أيام في نفس الفندق قال مصطفى كمال:

"لدي في البيت التوراة بالعبرية طبعة البندقية وهي قديمة نوعًا، وأذكر عندما اصطحبني أبي إلى المعلم القرائي والذي علمني كيفية قراءتها، وما زلت أذكر بعض الكلمات منها مثل:

"شماع يسرائيل ادوناى الوهينو ادوناى احاد"

"إنها صلاتنا الأساسية أيها الضابط"

فرد عليه مصطفى كمال قائلا:

"وهي صلاتي السرية أيضًا يا سيدي العزيز".

وبالرغم من أن إيتامار لم يكن ليعرف إلا أن أتاتورك كان يقصد سرية حرفيًّا، وأن طائفة اليهود الدونمه تمارس شعائر الديانة اليهودية بشكل سري ومن وجهة النظر العقائدية تلك وليس من غيرها كان أتاتورك يعترف ولأول مرة في شبابه بأنه من يهود الدونمه قبل هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى وقبل توليه مقاليد السلطة في تركيا

وقبل ان يقوم بالغاء الخلافة والتي ظل بعدها في حياته يخفي أصوله اليهودية وانتمائه الفعلي للدين اليهودي، وقبل ان يؤسس الدولة التركية الحديثة التي تم طرد الإسلام منها إلى الأبد كما كان يهمس لنفسه عند النظر إلى المساجد، وكان أتاتورك يمتلك الكثير من الأسباب الوجيهة التي تدفعه إلى إخفاء هويته الحقيقية كيهودي من أبناء طائفة الدونمه فقد كان المسلمون يحتقرون تلك الطائفة، وكذلك اليهود، وكذلك كانت تلك الروايات المثيرة للاشمئزاز عن سلوكهم الجنسي الفاضح وانحلالهم الأخلاقي وخصوصًا ما يتعلق بطقس تبادل الزوجات تنتشر بين أوساط المسلمين الأتراك فكان من الصعب على أي منهم أن يفخر بأصله، وفي كتابه عن المجتمعات اليهودية المفقودة بعنوان "المنفيون والمفتدون" يصف إسحق بن تسفي ثاني رئيس للكيان اليهودي في فلسطين:

"مرة واحدة سنويًّا في أحد أعياد يهود الدونمه ويدعى عيد الكبش يتم إطفاء الشموع أثناء العشاء الذي يحضره الرجال والنساء، ثم ينطلقون في المجون والعربدة الجنسية، ويبدأ أحد طقوسهم المهمة وهو تبادل الزوجات، وتتم مارسة تلك العادة المقبوحة[6] في يوم ميلاد الكذاب "شبتاي تسفي"، ويعتبر الدونمة الأطفال الذين يولدون نتيجة لتلك العربدة قديسين".

وبالرغم من أن كتاب إسحق بن تسفي قد تم نشره في عام1950، ويقول فيه إنه لا توجد دلائل تشير إلى اختفاء تلك العادة كلية من أوساط الدونمه إلا أنه ما زال ينقصنا الكثير من المعلومات حول استمرار تلك العادات في تركيا الحديثة أم لا.

وبعد أن قمت بإرسال الفاكس إلى السيدة "باتياه كينان" اتصلت بها للاطمئنان على وصول الفاكس، وقالت إنها استلمته، وأنه تم إعطاؤه إلى

وربما كان ذلك هو السبب الذى حدا بالكثير من المؤرخين الذين تناولوا أصل مصطفى كمال إلى القول بأن امه كانت تمتهن الدعارة في سالونيكي.

عيزرا فايتسمان لقراءته، وبالطبع كان لدى الحكومة العلمانية التركية والتي ظلت كثيرًا تدافع عن المكاسب التي حققها النظام العلماني الكثير من الأسباب لكيلا ترحب بمثل تلك التصريحات عن الهوية اليهودية الحقيقية لمصطفى كمال، فلن يسعد الجماهير في تركيا معرفة أن أبا الأتراك كان يهوديًا، وكان ذلك بالطبع سرًّا ينبغي إخفاؤه".

وفي كتابه مذبحة الأرمن على يد اليهود يقول الكاتب الأمريكي "كريستوفر جون بيركنز" في صفحة170 منه ما نصه:

"يهودي متخف آخر في الدولة العثمانية والذي سيقدر له أن يقوض الإمبراطورية ويحولها إلى جمهورية هو مصطفى كمال والذي قام بتدمير الجمهورية الأرمنية الناشئة في عام1920 وساعد اليهود البولشفيك في الاتحاد السوفيتي على استعباد الأرمن، وقسم اليهود البولشفيك في الاتحاد السوفيتي واليهود الدونمه بينهم ديار الأرمن وقضوا على الثقافة الأرمنية القديمة".

وفي صفحة 201 من الكتاب نفسه يقول كريستوفر:

"بدأت ثورة تركيا الفتاة على الحكم العثماني للسلطان عبد الحميد في سالونيكي، ومن هناك ظهرت المطالبة بنظام دستوري، ومن بين زعماء الثورة التي كان من نتائجها نشأة حكومة حديثة في تركيا كان جاويد بك ومصطفى كمال وكلاهما كانا من الدونمه شديدي التعصب وأصبح جاويد بك وزيرًا للمالية، بينما أصبح مصطفى كمال والذي لقب بأتاتورك زعيم النظام الجديد، وقد حاول خصومه استخدام أصوله اليهودية للإطاحة به، ولكن دون نجاح، وكان الكثيرون من أعضاء الحكومة التركية يصلون لله ويدعونه ولكن نبيهم الحقيقي كان شبتاي تسفي الذي ادعى أنه المسيح".

هذا هو مصطفى كمال الذي أقيمت له التماثيل في كل مدينة تركية

والذي كان يعلق خصومه على أعمدة الإنارة في استانبول والذي مكن للاحتلال الإيطالي لليبيا قبل الحرب العالمية الأولى بقليل، والذي انسحب بجنوده من فلسطين تاركًا إياها للجنرال اللنبي البريطاني، هذا هو الضابط المغمور الفاشل الذي لمعته المخابرات البريطانية عمدًا ليصبح في وجدان المسلمين الزعيم والقائد العسكري الذي لا يقهر عميل المخابرات الإنجليزية اليهودي الذي لعب أكبر دور في تاريخ المسلمين المعاصر لضرب الإسلام، هذا هو شارب الخمر الماجن عدو الله مصطفى كمال، وهذا هو أصله فإن صح كلامه من أنه حفيد شبتاي تسفي يكون الحفيد قد نجح فيما فشل فيه الجد الكذاب والجدة التي كانت تمتهن الدعارة في ليفورنو بإيطاليا، والذي مايزال الأتراك المخدوعون إلى يومنا هذا يؤلهونه ويقتبس الساسة الأتراك في خطبهم مقاطع من خطاباته، ولا ريب من أن ذلك اليهودي الميت كان من أحد أسباب قيام ما يسمى بدولة إسرائيل، وأحد أسباب نكبات عالمنا الإسلامي المعاصر إلى الآن.

حملة الدردنيل

كانت معركة الدردنيل من أهم معارك الحرب العالمية الأولى، ووقعت معركة الدردنيل في تركيا من الخامس والعشرين من أبريل1915 إلى التاسع من يناير1916 وهي عملية مشتركة بين القوات البريطانية والفرنسية تم شنها بغرض الاستيلاء على الأستانة "استانبول حاليًا" عاصمة الخلافة العثمانية، وكذلك بغرض تأمين طريق بحري لروسيا عدوة الخلافة اللدود، وقد فشلت المحاولة، وتحولت إلى هزيمة مخزية وتكبد فيها المهاجمون خسائر ضخمة بعد أن استمات الأتراك المسلمون في الدفاع، وتعرف تلك المعركة في تركيا باسم "جنق قلعة سافاشلاري" أي معارك "جنق قلعة" نسبة إلى مقاطعة "جنق قلعة"، وكان الحلفاء

حريصين على فتح خط إمداد كفؤ لروسيا، وكانت بريطانيا ترتجف رعبًا من مجرد التفكير في خروج روسيا من الحرب إذ بخروج الروس ستخسر بريطانيا وحلفاؤها حليفا قويًا يقوم باستنزاف الألمان في الشرق بحيث تتبعثر الجيوش الألمانية على جبهتين كبيرتين مما يعزز نسبيًا من فرصها في هزيمة ألمانيا في النهاية، ولم يكن أمامها هي وحلفاؤها سوى احتلال منطقة مضايق الدردنيل العثمانية، لضمان إبقاء الممر البحري مفتوحًا أمام الذخائر والأسلحة إلى روسيا وحثها على مواصلة الحرب.

وكانت الجهود في الجبهة الشرقية قد خففت الضغط على الجبهة الغربية وكانت ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر قد قطعتا طرق التجارة البرية الروسية إلى أوربا، بينما لم تكن روسيا تمتلك طريقًا بحريًا يمكنها استخدامه دون مشاكل، وكان كل من البحر الأبيض في الشمال وبحر "اخوتسك" في أقصى الشرق بعيدين عن الجبهة الشرقية علاوة على أنهما مليئين بالجليد مما يجعل الملاحة فيهما خطيرة وشبه مستحيلة، وكانت البحرية الألمانية ذات الإمكانات الجبارة قد أغلقت بحر البلطيق تمامًا في وجه الملاحة الروسية، وبدا أن الشريان الوحيد الذي تستطيع روسيا التنفس من خلاله هو البوسفور، كان موقف روسيا في بدايات الحرب حرجًا للغاية بعد الهزائم المنكرة التي أنزلتها بها القوات الألمانية، وكانت في أمس الحاجة إلى الذخيرة بعد أن استنفذت احتياطيها من الذخائر، وانعدمت قدرة مصانعها على تلبية أكثر من ثلث حاجتها من الذخائر، والذي كانت تتحكم فيه دولة الخلافة العثمانية، ولم يكن ممكنًا أن يتم تسيير خطوط الإمداد لروسيا من البحر الأبيض المتوسط بعد أن انضمت الدولة العثمانية إلى ألمانيا في أكتوبر عام1914، وفي الثاني من يناير1915 طالب الروس بعمل يقوم به الحلفاء لتوجيه انتباه الأتراك من القوقاز حيث كانت قوات القيصر تواجه هجوما يشنه الأتراك بناء على نصيحة الألمان إلى أنور باشا وزير الحربية العثماني آن ذاك، وكانت الجبهة الغربية

في كل من فرنسا وبلجيكا قد وصلت إلى حالة من الثبات قبل حلول نهاية عام1914 وكان هناك احتياج ملح إلى جبهة جديدة، وكذلك كان الحلفاء يأملون في أن يؤدي الهجوم على الدولة العثمانية إلى جر بلغاريا واليونان إلى الحرب إلى جانب الحلفاء غير أن الاقتراح المبدئي باستخدام قوات يونانية لغزو شبه جزيرة "جاليبولي" قد قوبل بالرفض من جانب روسيا حيث إن حلفاءها السلافيين الجنوبيين سيشعرون بالتهديد الذي سيحدق بهم من جراء اتساع نفوذ وقوة اليونانيين، وكان أول من اقترح مهاجمة الدولة العثمانية هو وزيرالعدل الفرنسي "أريستيد بريان" في نوفمبر 1914، ولكنه قوبل بالرفض، وكان قد تم أيضًا إغفال الاقتراح المقدم من المخابرات البحرية البريطانية برشوة الأتراك للعمل إلى جانب الحلفاء، وفي أواخر نوفمبر كان الأدميرال الأول ألدميرالية البريطانية ونستون تشيرتشيل قد قدم أول خطة لهجوم بحري على الدردنيل، وكان قد اقتنع بالتقارير الواردة من "لورانس العرب" بخصوص تقدير حجم وقوة القوات التركية والتي ثبت خطؤها فيما بعد، وكان يستند إلى أن البحرية الملكية البريطانية لديهم عدد كبير من البوارج المهجورة والتي لا يمكن استخدامها ضد أسطول أعالي البحار الألماني في بحر الشمال، ولكن يمكن الاستفادة بها في مسرح آخر، وكان يحاول إقناع زملائه في مكتب رئيس الوزراء بتبني استراتيجية اقتراب غير مباشر لحل ورطتهم على الجبهة الغربية، وكانت فكرته أن تشق القوات البريطانية طريقها عبر الدردنيل، وتحتل استانبول وبذلك تضرب الدولة العثمانية ضربة حاسمة، وتخرجها من الحرب وبذلك تخرب إستراتيجية الألمان، وكان على البحرية الملكية البريطانية أن تقوم أساسًا بشن ذلك الهجوم وحدها، على أن تستعين فقط بقوات أخرى من الجيش لمهام الاحتلال الروتينية، وكان اللورد كتشنر رافضًا لأية محاولة لتحويل أي مجهود من الجبهة الغربية، وكان يدعمه في ذلك رئاسة الأركان والفيلد مارشال سير "جون فرنش" قائد قوات الحملة

البريطانية والذي كان يؤمن بأن الجيش الألماني لا يمكن هزيمته إلا في فرنسا، وبعد أن واجه تشرتشل رفض كتشنر تخصيص قوات برية لهجوم على الدردنيل، كان كل ما ينشده أن يشن هجومًا بحريًا، وسرعان ما أثار الأميرال "فيشر" الاعتراضات، فكان "فيشر" قد رأى دفاعات الدردنيل بنفسه في1878 وكان مقتنعًا بأن مدافع الدردنيل يمكنها أن تصيب أي أسطول مهاجم يحاول الهجوم على مضيق "جنق" إصابات كارثية، وكذلك فإن الأسطول عندما يكون في بحر مرمرة سيحتاج أن تقوم ناقلات النفط وناقلات الفحم وسفن الإمداد والذخيرة بتموينه، ونظرًا لكونها غير مدرعة فإن فرصتها في النجاة من قصف المدفعية في مثل ذلك المدى القريب ستكون شبه منعدمة، وكذلك رفض "فيشر" تخصيص أية بوارج للأسطول الانجلو فرنسي لغلق المضايق، وتم فتح النار في قصف متقطع على القلاع الخارجية في التاسع عشر من فبراير1915، مما أفقد القوات المهاجمة أية ميزة في المفاجأة، وكانت الغواصة البريطانية "بي2" قد أطلقت طوربيداتها على البارجة التركية القديمة "المسعودية" خارج مدينة "جنق" في عام1914، وقبل وقت طويل كانت الغواصات البريطانية والفرنسية تواجه الألغام وشباك الغواصات لدخول بحر مرمرة هادفة بذلك إلى بث الفوضى والارتباك بين السفن التجارية التركية، وفي شهري فبراير ومارس1915 تم إنزال جماعات على الساحل لاستكمال تدمير القلاع الخارجية الموجودة على السواحل الأوربية والأسيوية والتي تتحكم في مدخل المضايق، وكان الأتراك قد استطاعوا تقوية دفاعاتهم ضد الهجوم المتوقع للحلفاء، وقاموا بنشر هاوتزرات متحركة على كل من جانبي المضيق، ومن ناحية أخرى وفي أوائل مارس كان الأميرال "كاردن" قائد الأسطول قد أعلن استعداده لشن هجوم بحري على المضايق في الثامن عشر من الشهر، وفي لندن كان تشرتشل قد توصل إلى الموافقة على استخدام قوات برية في الهجوم، والذين سيتم إنزالهم لتأمين القلاع بعد

نجاح العملية البحرية وبطاريات المدفعية، وكانت قوات أسترالية ونيوزلندية تقدر بالآلاف قد وصلت إلى الإسكندرية في طريقها إلى بريطانيا والجبهة الغربية، وشكلت فيلق الأنزاك بقيادة الليوتنانت جنرال سير "ويليام بيردهود" من الجيش الهندي وكانوا قد تم الاحتفاظ بهم في مصر لاستكمال تدريباتهم واستخدامهم في الدفاع عن قناة السويس، وكانت القوات الأخرى المتاحة من أجل الهجوم الذي اقترحه تشرتشيل هي الفرقة البحرية الملكية، وكانت كتائبها تتكون من جنود الاحتياط البحريين والمشاة الخفيفة للبحرية الملكية.

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى كانت الدولة العثمانية غير منحازة، بينما كان لبريطانيا مصالح في المنطقة منذ أمد بعيد، وكان الألمان نشطون جدًّا في إقامة علاقة متينة مع العثمانيين، ولما نشبت الحرب كان البريطانيون قد استولوا على بارجتين كان يتم بناؤهم للدولة العثمانية، وكانتا ما تزالان في أحواض السفن البريطانية وعلاوة على ذلك رفضت بريطانيا كذلك أن تدفع ما تسلمته من ثمن البارجتين إلى تركيا، وكرد فعل على ذلك أهدت ألمانيا للدولة العثمانية سفينتين "جوبن" وطرادًا خفيفا باسم "بريسلاو" تعويضًا عن البارجتين اللتين كانت الدولة العثمانية ستأخذهما من إنجلترا، وسميت السفينتان "السلطان سليم" و"ميديللي" وأصبحتا العمود الفقري للبحرية العثمانية وبامتلاكها للسفينة "جوبن" كانت تمتلك أقوى سفينة حربية في البحر الأسود، وفي أكتوبر1914 أغلق العثمانيون الدردنيل في وجه الحلفاء، وفي الثامن والعشرين من أكتوبر بدأ الأسطول العثماني تقوده "جوبن" في الإغارة على الأصول الممتلكات الروسية في البحر الأسود، وتم قصف أوديسا وسيفاستوبول وتم إغراق سفينة بث ألغام وفرقاطة وأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في الثاني من نوفمبر، وتبعتها إنجلترا في السادس من الشهر نفسه، وكان العثمانيون قد شنوا هجومًا على روسيا في القوقاز

مما دعا روسيا إلى طلب المساعدة من إنجلترا في يناير1915 وفي الحادي عشر من يناير وبناء على طلب تشرتشيل قدم قائد بحرية البحر المتوسط الملكية نائب الأدميرال "كاردن" خطة للهجوم على الدردنيل باستخدام بوارج وغواصات وكاسحات ألغام، وفي الثالث عشر منه أقر مجلس الحرب البريطاني الخطة وتم تزويد "كاردن" ببوارج إضافية مثل البارجة "الملكة إليزابث" والطراد "أنفليكسيبل"، وساهمت فرنسا بسرب يتكون من أربع بوارج، بينما شاركت روسيا بالطراد الخفيف "اسكولد"، وكان من المقرر أن تكون العملية بحرية صرفة نتيجة لنقص القوات، ولكن بحلول أوائل فبراير تم الاعتراف بالحاجة إلى قوات مشاة نظامية، وتقرر أن يتم دعم فرق المشاة البحرية بفرقة نظامية أخرى لم يكن قد تم إسناد أية مهام لها، وهي الفرقة التاسعة والعشرون البريطانية وكان قد تم إرسالها إلى مصر لتنضم إلى القوات الأسترالية والنيوزلندية واللتان كان تدريبهما يجري بالفعل على قدم وساق، وفي بدء العمليات كان الدور المتوقع للمشاة هو احتلال استانبول، وكان مقررًا أن يتم الاستيلاء على المضايق على يد القوات البحرية لدول التفاهم.

المضايق

في الثالث من نوفمبر1914 أصدر تشرتشيل الأمر بالهجوم البريطاني على الدردنيل، وقام بشن الهجوم طرادات من سرب البحر المتوسط بقيادة "كاردن" والطرادات "أندوميتابل" و"أنديفاتيجابل"، وكذلك البوارج الفرنسية "سوفرن" و"فيريتيه"، وكان هذا الهجوم حقيقة قد وقع قبل أن تقوم بريطانيا بإعلان الحرب رسميًا على الدولة العثمانية، وكان هدف الهجوم هو اختبار التحصينات الساحلية وقياس الاستجابة التركية لمثل ذلك الهجوم، وكانت النتائج ناجحة بشكل خادع ففي العشرين دقيقة

الأولى للقصف ضربت إحدى القذائف مخزنًا في قلعة "سد البحر" على طرف شبه جزيرة جاليبولي وأزاحت عشر مدافع وقتلت86 جنديًّا تركيًّا، وكان إجمالي الخسائر 150جندي، وكان نظام الدفاع عن الدردنيل يتكون من مدافع محصنة ومتحركة موزعة على الدفاعات الخارجية وفي الوسط وفي الداخل، وبينما كانت الدفاعات الخارجية التي تقع عند مدخل المضيق قد أثبتت أنها هشة في مواجهة القصف والغارة، وكانت الدفاعات الداخلية تغطي أضيق نقطة للمضيق قرب "جنق قلعة" وخلف الدفاعات الداخلية لم تكن هناك دفاعات عن المضيق إلا أن أساس الدفاع عن المضايق كان يتكون أساسًا من عشر حقول ألغام تضم حوالي 370لغمًا، وبدأت المعركة في السابعة والنصف صباحًا في التاسع عشر من فبراير1915 وكان قد تم إرسال مدمرتين لاختبار المضايق، وأطلقت أول طلقة من "قوم قلعة" عند تل "الأورخانية" من بطارية مدفعية من طراز كروب بعيار 24سم في الساعة السابعة وثمان وخمسين دقيقة، وتحركت البارجتان "كورنواليس" و"فينجانس" للاشتباك مع القلاع، وأطلقت "كورنواليس" أول طلقاتها في التاسعة وواحد وخمسين دقيقة، ولم يكن ذلك الهجوم يتمتع بالنجاحات الطيبة التي تمتع بها هجوم الثالث من نوفمبر، وقد تم إجراء محاولة أخرى في الخامس والعشرين من فبراير، وكان الأترك في تلك المرة قد قاموا بإخلاء الدفاعات الخارجية، ودخل الأسطول المضيق للاشتباك مع دفاعات الوسط وأغارت جماعات هدم من المشاة البحرية الملكية قلعة "سد البحر" و"قوم قلعة" ولم يلقوا إلا مقاومة طفيفة، وفي الأول من مارس قامت أربع بوارج بقصف الدفاعات العثمانية في الوسط، ولم يكن هناك تقدم كبير في تطهير حقول الألغام، وكانت كاسحات الألغام التي يقودها رئيس أركان "كاردن" "روجر كيز" في حقيقتها عبارة عن مراكب صيد غير مدرعة، ويعمل بها أطقم مدنية وكانت الأطقم غير راغبة في العمل تحت النيران، وكان التيار القوي في

المضيق يعوق بشكل كبير عملية كسح الألغام، وقد تسببت كل هذه الظروف مجتمعة في تقوية معنويات الأتراك وعزيمتهم.

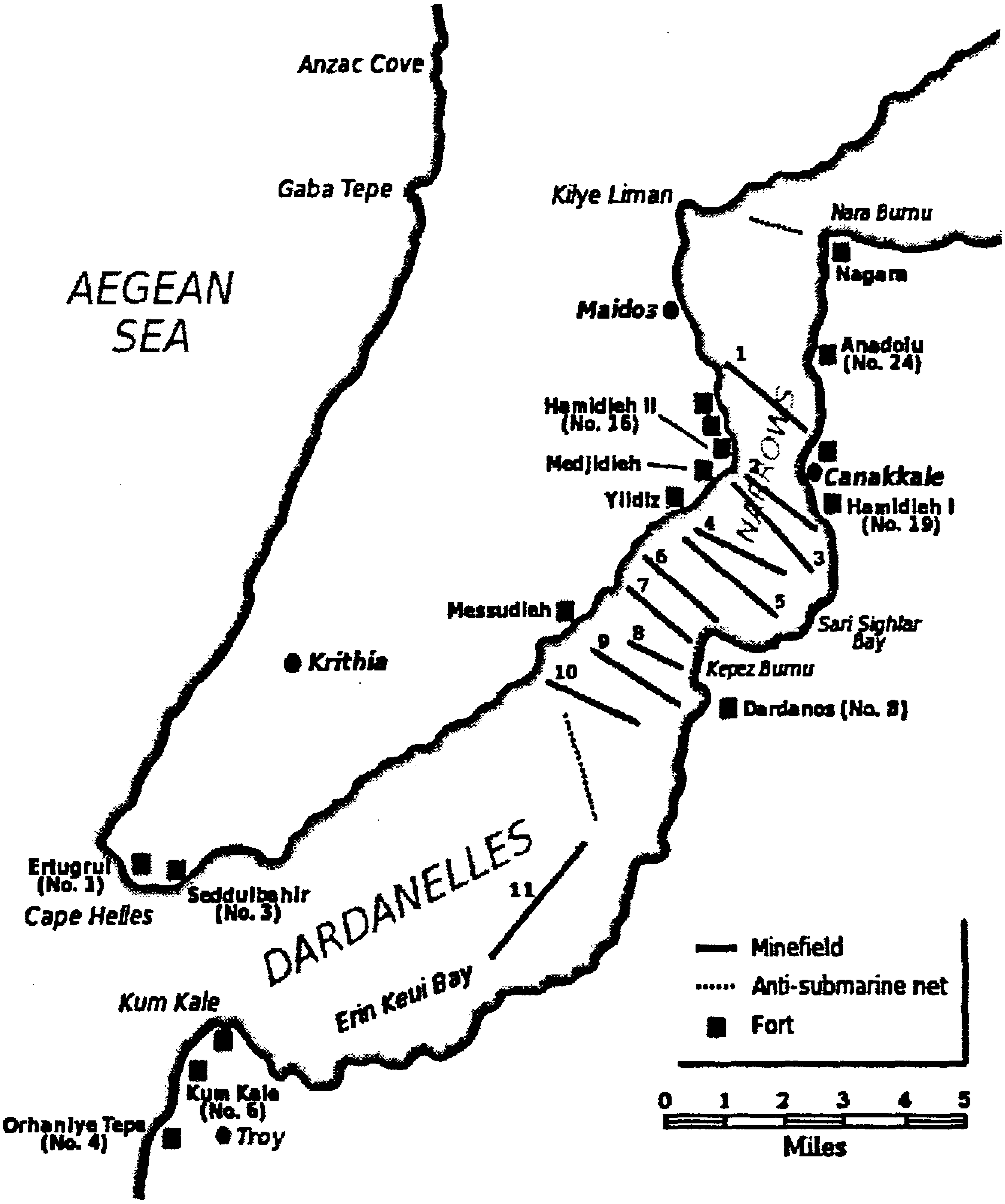

خريطة لدفاعات الدردنيل يظهر بها حقول الألغام والشباك المضادة للغواصات وبطاريات المدفعية الساحلية الرئيسية

وفي الرابع من مارس تم صد الإغارات على الدفاعات الخارجية وتراجع البريطانيون مخلفين وراءهم 23قتيلاً من مشاة البحرية حسب إحصائياتهم، وتم استدعاء البارجة "الملكة إليزابث" للاشتباك مع الدفاعات الداخلية، وبدأت في القصف أولاً من ساحل بحر إيجة قرب تل "جابا" مطلقة نيرانها عبر شبه الجزيرة، ثم بعد ذلك من داخل المضيق، وفي ليلة الثالث عشر من مارس قاد الطراد "أميثيست" ستة كاسحات ألغام في محاولة لتطهير حقول الألغام، وتم ضرب أربعة منها وتمت إصابة الطراد "أميثيست" إصابة فادحة وقتل 19 من طاقمها بقذيفة مدفعية واحدة، وأخيرًا فقد تسبب ذلك الفشل في استقالة الأدميرال "كاردن"، وتسلم منه الأدميرال "جون دي روبيك"، والذي صدر له الأمر للقيام بهجوم شامل قبل أول ضوء مع كاسحات الألغام التي تعمل تحت الحامية المباشرة للأسطول بأكمله.

معركة الثامن عشر من مارس

كانت المعركة الحاسمة التي حسمت معركة الدردنيل التي دامت طويلاً قد وقعت في ليلة الثامن عشر من مارس عندما قامت سفينة بث الألغام "نصرت" خطًا من الألغام في بوغاز "إيرين كوي"، وهو بوغاز واسع بطول الساحل الأسيوي في مدخل المضيق، وقد لاحظ الأتراك أن السفن البريطانية تستدير إلى اليمين داخل المضيق عند انسحابها، وكان الخط الجديد للألغام المتكون من عشرين إلى ستة وعشرين لغمًا يسير بموازاة الساحل بعمق أربعة أمتار ونصف وبفراغ حوالي واحد وتسعين مترًا بين كل لغم، وكانت خطة البريطانيين في الثامن عشر من مارس هي إسكات الدفاعات التي تحرس الخمسة خطوط الأولى للألغام والتي كان مقررًا أن يتم تطهيرها ليلاً بواسطة كاسحات الألغام على أن يتم تدمير الدفاعات

الباقية حول المضيق، وتطهير آخر خمسة حقول ألغام في اليوم التالي، وقد تم ترتيب البوارج في ثلاثة خطوط اثنتين بريطانيتين وواحدة فرنسية مع الدعم النيراني من الأجناب، وسفينتين احتياطيتين وفتح الخط البريطاني الأول النار من بوغاز "إيرين كوي" في حوالي الساعة الحادية عشرة، وبعد ذلك بوقت قصير وفي الظهر أمر "دي روبيك" الخط الفرنسي بالمرور والاقتراب من قلاع المضيق، وبدأت السفن الفرنسية في تلقي نصيبها من النيران التركية فأصيبت كل من "جولوا" و"سوفرن" و"أجاممنون" و"إنفليكسيبل"، بينما لم تكن نيران البوارج قد دمرت بطاريات المدفعية الساحلية العثمانية إلا أنها نجحت مؤقتا في تقليل نيرانها، وفي الساعة الواحدة وخمسة وعشرين دقيقة كانت الدفاعات العثمانية صامتة، ولذا قرر "دي روبيك" سحب الخط الفرنسي، وتقديم الخط البريطاني الثاني إلى الأمام، وكذلك كل من "سويفتشور" و"ماجيستيك"، وفي الواحدة وأربع وخمسين دقيقة كانت البارجة "بوفيه" في طريقها إلى اليمين منسحبة داخل بوغاز "إيرين كوي" بعد أن ارتطم بها لغم، ونحو الساعة الواحدة بدأت المدفعية الساحلية العثمانية تحدث إصابات في السفن المهاجمة، وكان جنود المدفعية الأتراك لا يكادون يرون من دخان القذائف، وكان يتم الإبراق إلى اسطنبول بالموقف كل عشر دقائق، وفي الساعة الثانية سمع انفجار هادر، وكانت بوفيه قد أصيبت فعصفت المدفعية التركية بما تبقى منها وأرسلتها إلى قاع الدردنيل فغرقت تمامًا في أقل من دقيقتين، وأخذت معها كل طاقمها المتكون من ستمائة بحار، وكان تأثير غرقها على معنويات رجال المدفعية العثمانية كبيرًا، فقد كان يمكن للمدافعين رؤية السفينة وهي تغرق، فأخذت المدافع تهدرمحدثة المزيد من الإصابات في السفن البريطانية، وكان التقدير المبدئي البريطاني هو أن قذيفة قد أصابت مخزنها أو أنه قد تم إطلاق الطوربيدات عليها، وكانت كل التقارير تفيد ببقائهم غير عالمين بحقل الألغام غير أن الالغام قد تمت مشاهدتها في

ذلك الصباح، ولم يتخذ الأدميرال "دي روبيك" أي إجراء لحماية السفن منها، وقام البريطانيون بالضغط، وحوالي الساعة الرابعة مساءا بدأ الطراد "إنفليكسيبل" في الانسحاب، وارتطم بلغم قرب المكان الذي غرقت فيه البارجة "بوفيه" الفرنسية، وقتل ثلاثون من طاقمه، ولكن الطراد ظل طافيًا ثم تم تشحيطه على شاطئ جزيرة "تنيدوس" وكانت البارجة "إيريزيستيبل" هي من وقع عليها الدور هذه المرة فارتطمت بلغم، وبدأت تنساق مع التيار وهي عاجزة، وكان الطاقم قد تم إخلاؤه وأعطى "دي روبيك" الأمر للبارجة "أوشان" أن تقوم بجر "إيريزيستيبل" ولكن المياه كانت ضحلة للغاية، ولم تتمكن "أوشان" من الاقتراب منها، وأخيرًا وفي الساعة السادسة وخمس دقائق اصطدمت "أوشان" بلغم أدى إلى تخريب الدفة وتركها عاجزة، وكانت البوارج التي تم إخلاؤها ما زالت تطفو عندما انسحب البريطانيون، وقد عادت فيما بعد مدمرة لتقوم بإطلاق الطوربيدات على السفن المصابة ولكن بالرغم من قيامها بالبحث لمدة أربع ساعات إلا أنها لم تجد ما يشير إلى السفن الطافية، وكان الثامن عشر من مارس نصرًا كبيرًا للعثمانيين إلا أنه كان بين البريطانيين هناك من يطالب بالضغط بهجوم بحري آخر وكان "دي روبيك" يخطط للقيام بذلك بعد عدة أيام وباستثناء الطراد "إنفليكسيبل" كانت السفن التي فقدها البريطانيون قديمة فلم يقدر البريطانيون الدفاعات التركية حق قدرها، وظنوا أنهم ذاهبون في نزهة بحرية، وما عليهم إلا أن يقتحموا المضيق ويقصفوا الساحل التركي ببوارجهم ثم يقوم جنود المشاة البحرية باحتلال الساحل، ثم يدخلون استانبول فاتحين، وقد تسبب استهتارهم ذلك بالإضافة إلى ضعف تقارير مخابراتهم والتي قللت من حجم القوات التركية في هزيمة بحرية مشينة للبريطانيين، كذلك كان الإعداد للهجوم سيئًا للغاية ويفتقد للتخطيط السليم -كما رأينا- إذ كانت كاسحات الألغام البريطانية عبارة عن سفن صيد تجارية وأطقمها من المدنيين الذين

لم يخبروا الحرب ولم يعتادوا العمل تحت ظروف القصف المستمر، علاوة على عدم القيام باستطلاع جاد للساحل والدفاعات الموجودة حوله من حقول ألغام وخلافه، وعدم تبصر القائد البريطاني "دي روبيك" وحمقه والذي أدى إلى إصابة اكثر من بارجة في نفس المكان تقريبًا، وكانت السفن البريطانية غير مجهزة للمعارك البحرية الحديثة في ذلك الوقت، وكان هناك نظريات عن أن القلاع التركية على الساحل قد استنفذت مخزونها من الذخيرة تقريبًا وبناء على ذلك إذا قام الحلفاء باستئناف هجومهم فلن يلقوا إلا مقاومة بسيطة، وعلاوة على ذلك فقد كانت أطقم البوراج التي تم إغراقها قد حلوا محل الأطقم المدنية للسفن التجارية التي كانت تقوم بدور كاسحات الألغام مما كان يرفع نسبيًا من كفاءتها وقدرتها على العمل تحت النيران، وكان في الأسطول البريطاني كاسحات الغام حديثة بحبال كسح ألغام واحد وواحد ونصف، والتي كان يمكنها التعامل مع الألغام بسهولة أكبر، وكان "دي روبيك" قد أصابه الذهول من الخسائر، ولم يكن في نيته الاستمرار في الهجوم فقد أصابه الهلع من حجم الخسائر التي منيت بها قواته، فقد كان يقود أسطولاً لم يعان من تلك الخسائر منذ معركة الطرف الأغر إلا ان الفشل الذي حاق بالهجوم البريطاني في الثامن عشر من مارس قد قاد البريطانيين إلى الاقتناع بأن المشاة يمكن استخدامهم لتحييد القلاع بديلاً عن الهجوم من البحر، علاوة على خروج الصحف البريطانية في اليوم التالي لتعلن عن حجم الخسائر بمانشيتات صدمت الرأي العام البريطاني، فقد كانت الخسائر كبيرة بدون شك الأمر الذي جعل كتشنر يقر سريعًا الخطة التي وضعها القادة البريطانيون لاستخدام المشاة.

عمليات الغواصات

بدأت هجمات الغواصات البريطانية في عام1914 قبل بدء الحملة بالفعل، وفي الثالث عشر من ديسمبر كانت الغواصة البريطانية "بي11" قد دخلت المضيق متجنبة خمسة خطوط من الألغام وقصفت البارجة التركية القديمة "مسعودية" والتي تم بناؤها عام1874 والتي كانت ترسو كقلعة عائمة في بوغاز "ساري سيغلار" جنوبي "جنق قلعة"، غرقت البارجة "مسعودية" في حوالي عشر دقائق وحشر بها الكثير من طاقمها الذي كان تعداده 673رجلاً إلا أنها وبسبب غرقها في مياه ضحلة كان بدنها ما يزال طافيًا فوق السطح مما مكن الكثير من رجالها من النجاة عن طريق قطع فتحات في بدن السفينة، ولم ينجح سبعة وثلاثون من طاقمها في الخروج فماتوا داخلها، وكانت البحرية الملكية البريطانية تعد إغراق البارجة "مسعودية" نصرًا لها بل إن قائد الغواصة البريطانية "بي 11" قد تلقى وسام صليب فيكتوريا البحري نتيجة لذلك، وقد أغرى ذلك النجاح البريطانيين للاستمرار في هجومهم البحري، وقد سبقت الحملة على الدردنيل عملية للغواصة الفرنسية "سافير" قد دخلت المضيق متجاوزة عشر خطوط للألغام قبل أن تجنح عند نقطة "ناجارا"، وهناك العديد من الروايات على أنها قد اصطدمت بلغم أو أنها قد أغرقت بنيران المدفعية الساحلية، وخلفت وراءها 14قتيلاً وثلاثة عشر أسيرًا، وفي السابع عشر من أبريل حاولت الغواصة البريطانية "إي15"، ولكنها غاصت بأعمق من العمق المسموح، وعلقت في التيار وجنحت باتجاه نقطة تسمى "كبز" جنوب طرف "ساري سيغلار"، وأصبحت تحت رحمة النيران المباشرة لبطاريات مدفعية "دردانوس"، وقتل من جراء ذلك سبعة من طاقمها، وتم أسر الباقين على قيد الحياة، وكانت الغواصة "إي 15" غنيمة قيمة للعثمانيين، وحاول البريطانيون إنكار وقوع تلك الغواصة في الأسر وأول غواصة تنجح في عبور المضيق كانت الغواصة الأسترالية "إيه إي 2"،

والتي دخلت المضيق في السادس والعشرين من أبريل بعد يوم من بدء إنزال القوات البرية على رأس "هيلليس" على الساحل، وكانت الغواصة الأسترالية "إيه إي 2" تحت قيادة الليوتنانت كوماندر "ستوكر"، وكانت قد أعاقتها الطوربيدات المعيبة عن إتمام عدة محاولات إغراق أهداف واعدة، وفي التاسع والعشرين من أبريل وفي بوغاز "أرتاكي" قريبًا من "باندرما" كانت الغواصة الأسترالية "إيه إي 2" قد شوهدت، وتم إطلاق الطوربيدات عليها من زورق طوربيد تركي، وتم أسر كل طاقمها عندما كانوا يغادرون الغواصة في محاولة للنجاة، وكانت الغواصة الثانية في المضيق أكثر حظا من سابقتها الأسترالية، كانت الغواصة البريطانية "إي 14" بقيادة الليوتنانت كوماندر "إدوارد بويل" قد دخلت بحر مرمرة، وقامت بتخريب دام ثلاثة أسابيع، وينظر اليها الحلفاء باعتبارها من أنجح العمليات التي قاموا بها في حملة الدردنيل كلها بالرغم من قلة نوعية وقيمة الحمولة الإجمالية التي تم إغراقها، فإن التأثير على معنويات واتصالات الأتراك كان كبيرًا وعند عودته قد تم منحه وسام صليب فيكتوريا وكان "بويل" قد قام بعدد من الجولات في بحر مرمرة، وكانت الثالثة في الحادي والعشرين من يوليو عندما استطاع المرور من المضيق متجاوزًا شباك الغواصات التي كان الأتراك قد وضعوها، هناك غواصة بريطانية أخرى نجحت في القيام بجولة في بحر مرمرة هي "إي 11" والتي أغرقت وأعطبت 11سفينة تركية منها ثلاثة في يوم واحد هو الرابع والعشرين من أغسطس، وقد استطاعت نفس الغواصة في جولة لاحقة أن تغرق بطوربيداتها البارجة التركية "خير الدين باربروسا"، وكانت قد أسندت العديد من عمليات التخريب والهدم إلى جماعات تم إنزالها من الغواصات ففي الثامن من أغسطس سبح أحد الضباط البريطانيين من الغواصة "إي 2" إلى الساحل قرب "كوتشو كتشكميجه" (تراقيا) واستطاع نسف كوبري سكة حديد، وقد تم تدمير الجسر، ولكن الضابط لم ينجح في العودة، وقد أجريت محاولات لقطع

السكك الحديدية التي تسير إلى البحر بطول خليج "أزميت" على الساحل الأسيوي للبحر، وفي ليلة العشرين من أغسطس سبح أحد ضباط الغواصة "إي 11" إلى الساحل، وقام بتدمير جزء من السكك الحديدية، وفي السابع عشر من يوليو قصفت الغواصة البريطانية "إي 7" خط السكة الحديد، وأصابت قطارين وأجبرا على التوقف، واستمرت المحاولات الفرنسية لدخول بحر مرمرة بعد نجاح "إي 14" فقد حاولت الغواصة الفرنسية "جول" العبور في الأول من مايو ولكنها اصطدمت بلغم وغرقت، وتوالت المحاولات بعد ذلك ففي السابع والعشرين من يوليو حاولت الغواصة الفرنسية "ماريت" الدخول ولكن أعاقتها شباك الغواصات، واضطرت إلى الصعود إلى السطح، وغرقت "ماريوت" بعد أن تعرضت لنيران بطاريات المدفعية الساحلية التركية، وفي الرابع من سبتمبر علقت "إي 7" في نفس الشبكة عندما حاولت القيام بجولة أخرى، وكانت أول غواصة فرنسية تستطيع دخول المضيق هي "تركواز"، ولكنها ما لبثت أن أجبرت على العودة، وفي الثلاثين من أكتوبر وأثناء محاولتها لدخول المضيق مرة أخرى جنحت إلى الشاطئ قرب إحدى القلاع، وتم أسرها سليمة وتم أخذ طاقمها المكون من خمسة وعشرين رجلاً أسرى، وكذلك وقعت في أيدي الأتراك وثائق تفصيلية تشرح خطة هجوم الحلفاء، وتضمنت تلك الوثائق جدولاً بالمواعيد مع الغواصة البريطانية "إي 20"، وقام الأتراك بدورهم بتمرير تلك المعلومات للألمان الذين أغرقوا الغواصة البريطانية "إي 20" بواسطة غواصتهم "يو 14" بطوربيداتها، مما تسبب في قتل كل طاقمها، ولم يتبق منهم غير تسعة على قيد الحياة، ودخلت الغواصة الفرنسية خدمة البحرية التركية، وتمت إعادة تسميتها باسم العريف مستجيب جندي المدفعية التركي الذي أجبر قائد الغواصة الفرنسية على الاستسلام، وكان النجاح الوحيد الذي حصلت عليه غواصات الحلفاء هي حملتهم على الدردنيل في بحر مرمرة، حيث

قامت تسع غواصات بريطانية فيما بين عامي 1915 و1916 بإغراق بارجتين مهجورتين ومدمرة وخمسة زوارق وناقلة جنود واحدة وسبع سفن تموين و35 قاربًا بخاريًّا و188 سفينة تجارية مما اضطر العثمانيين إلى ترك ممر مرمرة الملاحي.

دعم الجيش

كانت قوات الحملة البريطانية قد تشكلت في الثاني عشر من مارس بقيادة الجنرال سير "إيان هاميلتون"، وكانت تضم 70000جندي، وفي مؤتمر في الثاني والعشرين من مارس بعد أربعة أيام من فشل القوات البحرية في الدردنيل تقرر في ذلك المؤتمر استخدام المشاة لاحتلال شبه جزيرة جاليبولي والاستيلاء على القلاع وتطهير الطريق للقوات البحرية لتستطيع المرور في بحر مرمرة، واستغرقت الاستعدادات لذلك الإنزال شهرًا كاملاً الأمر الذي أعطى للأتراك فسحة من الوقت لتعزيز الدفاعات الساحلية، وكان المخططون البريطانيون ما يزالون يبخسون الأتراك حقهم، وفي البد. كانوا يعتقدون أن الهجوم سينتهي سريعًا، وكان مقررًا أن تقوم قوة بريطانية يتم إنزالها في رأس "هيلليس" بالتقدم 11كيلومترًا في اليوم الأول، وفي الثاني تقوم باحتلال سهل "كيليتباهير" الذي يطل على المضايق، وفي الحقيقة كانت تقديرات البريطانيين مبالغ فيها فلم يستطيعوا التقدم سوى تسعة كيلومترات خلال ثمانية أشهر من القتال الشرس، وظلت الأهداف التي وضعها البريطانيون لتحقيقها في اليوم الأول مثل تل "أتشي بابا" و"كريتيا" بعيدة المنال عن البريطانيين، وكانت عملية الإنزال التي قام بها البريطانيون هي أكبر عملية إنزال في الحرب العالمية الأولى من حيث حجم القوات التي تم إنزالها، وقام البريطانيون أولا بإنزال الفرقة التاسعة والعشرين عند رأس "هيلليس" والقوات الأسترالية والنيوزلندية

في تل "جابا"، وبالنسبة لتلك الأخيرة فقد تم تنفيذ الإنزال بشكل سيئ، فقد تم إنزال القوات في موقع يبعد كثيرًا عن الموقع المقرر للإنزال، وفي المرتين تم الإنزال من سفن حربية، وكان الإنزال في رأس "هيلليس" ينتشر على خمسة شواطئ، وكان مقررًا أن يتم إنزال القوات الأسترالية والنيوزلندية بدون تمهيد نيراني بحيث يحقق عنصر المفاجأة، بينما سبق الإنزال في رأس "هيلليس" تمهيد نيراني بواسطة البوارج، وتم استخدام البارجة "كورنواليس" للإنزال في الشاطئ الموجود داخل المضيق، ولم يواجه أية مقاومة، وكان دور البحرية هو دعم الإنزال باستخدام مدافع البوارج بدلاً من مدفعية الميدان والتي كانت تعاني من نقص حاد في عام1915، وكان أداء مدفعية البوارج وتأثيرها على الأهداف الأرضية قليلاً ما خلا بعض الاستثناءات القليلة، وخصوصًا ضد المواقع المتخندقة، وكان ينقص تلك المدافع القدرة على الارتفاع، ولذا فقد كانت تطلق نيرانها بشكل مسطح، واجتمع ذلك مع عدم ثبات قاعدة المدفع مما ضاعف من عدم دقته، غير أن مدافع البوراج أثبتت كفاءتها ضد الأهداف المكشوفة، وفي السابع والعشرين من أبريل وخلال أول هجوم مضاد تركي على القوات الأسترالية هاجمت الفرقة السابعة والخمسون من المنحدر المطل على البحر، وكان في نطاق رؤية البارجة "الملكة إليزابث" جماعة من الجنود حوالي مائة فأطلقت عليهم طلقة "شرابنل" فقضت عليهم، وفي المدة التي انقضت منذ ذلك الهجوم وحتى انتهاء حملة الدردنيل كانت القوات العثمانية تأخذ حذرها من التحرك في مناطق مكشوفة للبوارج، وكذلك في السابع والعشرين من أبريل حددت سفينة بريطانية موقع ناقلة جنود تركية تتحرك قرب المضايق وكانت البارجة "الملكة إليزابث" متمركزة بعيدًا عن تل "جابا" وقامت بإطلاق النار عبر شبه الجزيرة بمدى عشرين كيلومترًا وأغرقت الناقلة بطلقتها الثالثة، ولآخر وقت في هجوم الدردنيل بعد تلك الحادثة قام الأتراك بنقل قواتهم عن طريق السكك

الحديدية، وظلت المؤن الأخرى تنقل بطريق الناقلات البحرية في بحر مرمرة والدردنيل، وسرعان ما أدرك البريطانيون أن معركة جاليبولي لن تكون عملية سريعة أو سهلة، وفي رأس "هيلليس" والتي كانت في البدء الميدان الأول للمعارك لم تفلح المعارك المتعددة التي خاضها البريطانيون والتي كلفتهم خسائر فادحة في الأرواح إلا في التقدم قليلاً باتجاه "كريتيا"، وفي المراحل الأولى للمعارك استمرت البحرية البريطانية في تقديم الدعم بالقصف المدفعي إلا أنه وفي شهر مايو تم ضرب ثلاثة سفن بالطوربيد "جالوت" في الثاني عشر من مايو و"تريامف" في الخامس والعشرين من مايو و"ماجيستيك" في السابع والعشرين من مايو، وبالنسبة للبارجة "جالوت" فقد أغرقها زورق الطوربيد التركي "معاونت"، بينما أغرقت الغواصة الألمانية "يو21" البارجتين الأخرتين، وبعد تلك الخسائر تم سحب البوارج التي كانت تعمل كدعم، وكذلك سارعت الأدميرالية البريطانية في استدعاء البارجة "الملكة إليزابث" بمجرد بلوغ الأخبار الخاصة بإغراق البارجة "جالوت" إليهم خوفاً من خسارتها في المعارك أو إغراقها، وبدلاً من توفير الدعم النيراني عن طريق البوارج استخدم البريطانيون الطرادات والمدمرات وسفنًا حربية أخرى تسمى مونيتور صنعت خصيصا لغرض القصف الساحلي، وبمجرد أن أصبحت قيادة البحرية البريطانية عالمة بالتهديد المحدق من الغواصات قلت خسائرها نوعًا ما باستثناء الخسائر في بحر مرمرة والدردنيل، وكانت الخسارة الكبيرة للبحرية البريطانية بعد مايو هي المدمرة "لافوري" والتي جنحت إلى "سوفلا" خلال نوة حين لم يستطع ربانها السيطرة عليها، وسرعان ما قامت المدفعية التركية بتحويلها إلى حطام.

الهجوم البري

بعد الهزيمة النكراء التي منيت بها البحرية البريطانية وفشل هجماتها المتكررة في تحقيق أي من أهدافها تقرر كما قلنا من قبل أن تقوم القوات البرية بالهجوم، وذلك بغرض تدمير المدفعية الساحلية التركية المتحركة والتي كان لها أعظم الأثر في إفشال الهجوم من البحر، وكان ذلك الهدف إذا تحقق سيضمن قيام كاسحات الألغام البريطانية بتطهير مياه المضيق من أجل عبور السفن الأكبر، وعين وزير الحرب البريطاني اللورد كتشنر الجنرال سير "إيان هاميلتون" قائدًا لقوات الحملة المتوسطية والتي كان عليها القيام بتلك المهمة، وفي أوائل عام1915 كانت القوات الأسترالية والنيوزلندية قد عسكرت في مصر، وكان مقررًا إرسالها إلى فرنسا بعد تدريبها، وتشكلت تلك القوات في فيلق كان يعرف باسم "أنزاك"، والذي كان يضم الفرقة الأولى الأسترالية والفرقة الأسترالية والنيوزيلندية، وكان لدى "هاميلتون" الفرقة التاسعة والعشرون النظامية وفرقة البحرية الملكية، وهي قوات مشاة بحرية تم جمعها على عجل، علاوة على فيلق الحملة الشرقية الفرنسية وتضم أربع كتائب من السنغال.

الاستعدادات العثمانية

كانت هناك مدة ستة أسابيع تفصل بين الهجوم البحري ووصول القوات من إنجلترا الأمر الذي أعطى الأتراك مهلة كافية لتجهيز أنفسهم لهجوم بري وشيك، وبدأ القادة العثمانيون في مناقشة إمكانيات الدفاع عن شبه الجزيرة، ووافقوا كلهم أن أفضل شكل للدفاع هو التمسك بالأراضي المرتفعة على سلاسل المرتفعات في شبه الجزيرة، ولكن كان هناك خلاف حول المنطقة التي سيقوم فيها البريطانيون بإنزال قواتهم حتى يقوموا بتركيز قواتهم بها، وكان الليوتنانت مصطفى كمال يبلغ ساعتها

من العمر34 عامًا وكان يعرف شبه الجزيرة جيدًا من خبراته السابقة في حرب البلقان ضد بلغاريا، وكان يعتقد أن رأس "هيلليس" والطرف الجنوبي لشبه الجزيرة وتل "جابا" هي المناطق الأكثر احتمالاً للإنزال المتوقع، ولم يتفق "أوتو ليمان فون ساندرس" في الرأي مع تلك التقديرات، وكان رأيه أن أكبر خطر متوقع هو في بوغاز "بسيكا" على الساحل الأسيوي حيث اعتقد أن البريطانيين قد يستفيدون من الأراضي الأكثر سهولة، وبذلك يكون في إمكانهم استهداف بطاريات المدفعية التي تحرس المضايق، ولذا فقد اقترح وضع فرقتين وهما ثلث مجموع فرق الجيش الخامس، وتمركزت فرقتان في تلك المنطقة في "بولاير" إلى الشمال من برزخ شبه الجزيرة حيث اعتقد أنه في حالة الاستيلاء على تلك المنطقة فسيتم قطع خطوط الإمداد والاتصالات الحيوية عنها، وأخيرًا تم وضع فرقتين عند رأس "هيلليس" في طرف شبه الجزيرة وبطول الساحل على بحر إيجة، وهما الفرقة التاسعة والفرقة التاسعة عشرة وكانت الأخيرة تحت قيادة مصطفى كمال، وبالنسبة لفون ساندرس كان عليه الاحتفاظ بمجموع القوات داخل شبه الجزيرة مع نشر دفاعات ساحلية صغيرة حولها، وقد أثارت تلك الاستراتيجية حفيظة القادة الأتراك بما فيهم مصطفى كمال الذين كان من رأيهم أن القوات التركية بذلك الشكل مبعثرة على نطاق واسع، وليست في موقع يتيح لها صد الهجوم على الفور باتجاه البحر عندما يبدأ الغزو، وقد سمح تأخر القوات البريطانية في الإنزال للأتراك بإعداد الدفاعات، وعن ذلك يقول فون ساندرس:

"لقد منحنا البريطانيون أربعة أسابيع جيدة من الراحة لكل ذلك العمل قبل إنزالهم الكبير، وقد كانت تلك الراحة كافية لاتخاذ كل الإجراءات التي لا غنى عنها".

فقد تم بناء طرق واستخدمت القوارب الصغيرة لجمع القوات والمعدات

عبر المضايق وتم زرع الشاطئ بالاسلاك الشائكة، وبنيت ألغام من رءوس الطوربيدات وحفرت الخنادق ومرابض المدفعية بطول الشاطئ، وأخذت القوات التركية في مسيرات ملاحة برية طويلة لتفادي الخمول، وكان مصطفى كمال والذي كانت الفرقة التاسعة عشرة تحت قيادته والتي ستصبح محورية في القتال يلاحظ الشواطئ وينتظر أية إشارة للغزو من موقعه في "بوغالي" قرب "مايدوس".

الإنزال

كانت خطة الغزو في الخامس والعشرين من أبريل1915، وكان المقرر أن يتم إنزال الفرقة التاسعة والعشرين في "هيلليس" في طرف شبه الجزيرة، ثم التقدم إلى القلاع في "كيليتباهير"، وكانت قوات الأنزاك سيتم إنزالها شمال تل "جابا" على الساحل المطل على بحر إيجة، ومن هناك يستطيعون التقدم عبر شبه الجزيرة ويمنعون أي انسحاب أو إمداد في "كيليتباهير"، وقام الفرنسيون بإنزال تضليلي في "قوم قلعة" على الساحل الأسيوي قبل الإنزال الثاني للتمسك بالمنطقة الشرقية من قطاع "هيلليس"، وكان هناك أيضًا هجوم تضليلي قامت به فرقة البحرية الملكية في "بولاير"، وكانت الفرقة التاسعة والعشرون التي تم إنزالها في تل "هيلليس" تحت قيادة الميجور جنرال "إيلمر هنتر ويستون" على خمسة شواطئ في شكل قوس على طرف شبه الجزيرة، وسميت من الشرق إلى الغرب كالتالي إس وفي ودابليو وإكس وواي، وكان قائد قوات الإنزال في الشاطئ واي قد تمكن من السير حوالي 500متر في قرية "كريتيا" والتي كانت قد هجرت، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي استطاع فيها البريطانيون الاقتراب بذلك الشكل، ولم تتكرر بعد ذلك طوال فترة المعارك، وفي الحقيقة فقد تم إخلاء الشاطئ واي في اليوم التالي بمجرد وصول التعزيزات التركية،

وكانت الإنزالات الكبرى قد تم القيام بها في الشاطئ في تحت قلعة "سد البحر"، وفي الشاطئ دابليو على مسافة قصيرة إلى الغرب من الجانب الآخر لرأس "هيلليس"، وفي شاطئ واي كانت القوة التي تقوم بالتغطية من رماة البنادق (مونستر وهامبشاير) قد تم إنزالها من ناقلة فحم تم تحويلها تسمى "ريفر كلايد" والتي تمت ترسيتها تحت القلعة بحيث يمكن منها إنزال القوات مباشرة عن طريق ألواح من الخشب إلى الشاطئ، وتم إنزال رماة دبلن الملكيين على شاطئ "في" من قوارب مفتوحة وكانت كتيبة عثمانية واحدة بقيادة الميجور محمود صبري هي المسئولة عن الدفاع عن الشاطئ في تلك المنطقة، ولكنهم كانوا متخندقين جيدًا، اقتربت القوات البريطانية في قوارب مفتوحة وكانت "ريفر كلايد" تحمل ألفي جندي، وفي الساعة السادسة واثنين وعشرين دقيقة كانت القوارب ما زالت تقترب من الشاطئ ولم يبد ثمة أي أثر لقوات عثمانية، وبعد ذلك بثلاث دقائق وعندما اقتربت القوارب من الشاطئ أكثر انفتحت عليهم أبواب الجحيم، البنادق تطلق النيران عليهم من كل الاتجاهات وهم داخل قواربهم عاجزين لم يكونوا بعد قد اقتربوا من الشاطئ، ولم يستطيعوا ترك قواربهم واستهدف القناصة العثمانيون قادة القوارب، وعندما بدأت القوارب تجنح فتحت الرشاشات العثمانية النار عليهم لتحصدهم كالأرز، وكان يمكن رؤية الجنود يسقطون في الماء في كل مكان ومن حمولة أربعين جنديًّا كان يحملها القارب الأول وصل إلى الشاطئ ثلاثة فقط وكانوا كلهم جرحى، كان الشاطئ مصيدة للموت وفي أقل من خمسة عشرة دقيقة كان عدد الجنود في القوارب المفتوحة قد انخفض من سبعمائة إلى ثلاثمائة جريح، وكان بالإمكان رؤية بنادق الجنود وشداتهم القتالية تغرق في الماء بشكل منتظم، وبعد فترة بدأ الجنود المتبقين في السقوط بدورهم في المياه من الإعياء أو من كثرة الدماء التي فقدوها، واصطبغت المياه حول الشاطئ وبوجه خاص المنطقة المحيطة بالقوارب بلون الدم القاني، ولم

يستطع سوى القليل من الجنود اللجوء إلى الشاطئ بسرعة للاحتماء من نيران البنادق والرشاشات العثمانية بل إن الجسر الذي حاولت الريفر كلايد إقامته فشل فنزل قائدها إلى الماء ونجح في عمل كوبري مرتجل ثم أعطى الإشارة إلى ريفر كلايد لإنزال الجنود، وبدأ الجنود ينزلزن إلى القوارب عن طريق سلالم الحبال ولم يكن من غير الممكن ألا يلاحظهم العثمانيون، ويقول الميجور محمود صبري في مذكراته "لم تطلق رصاصة واحدة من جنودنا عبثًا فكانت كل رصاصة تسقط واحدًا من جنود العدو"، وبلغت نسبة الإصابة ثلاثة من كل خمسة حاولوا النزول من الريفر كلايد، فصدرت على أثر ذلك الأوامر بوقف الإنزال وعودة الجنود المتبقين إلى الريفر كلايد على أن يتم استئناف الهجوم في وقت لاحق من اليوم نفسه، وكانت خسائر الإنجليز أكثر من ألف قتيل في أقل من ساعة، وفشل الإنزال الأول على الشاطئ "في"، وعلى شاطئ "دابليو" تم إنزال رماة لانكشاير أيضًا من قوارب مفتوحة على شاطئ صغير تطل عليه الكثبان ومحصن بالأسلاك الشائكة، وعلى كلا الشاطئين كان المدافعون الأتراك في موقع يسمح لهم بتكبيد القوات التي يتم إنزالها خسائر فادحة، وكانت القوات التي تخرج واحدًا تلو الآخر من فتحات الهجوم في "ريفر كلايد" تمثل هدفًا ممتازًا للرشاشات في سد البحر، ومن بين المائتي جندي الذين تم إنزالهم استطاع اثني عشر فقط شق طريقهم إلى الشاطئ بعد أن قتل زملاؤهم، وكما في منطقة إنزال الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين كان الجنود الأتراك من القلة بحيث لم يستطيعوا دفع البريطانيين بعيدًا عن الشاطئ، وفي شاطئ "دابليو" في منطقة الإنزال التي تعرف عند الحلفاء باسم إنزال لانكشاير تمكن الجنود من اكتساح الدفاعات التركية بالرغم من خسائرهم الرهيبة، فقد قتل وجرح حوالي600 من عدد الجنود الأصلي الذي كان 1000جندي، وعانت الكتائب التي تم إنزالها على شاطئ "في" من خسائر في الأرواح تقدر بسبعين بالمائة، وبعد الإنزال لم

يتبق إلا القليل من رماة دبلن الملكيين ورماة مونستر، لدرجة أنه تم دمجهم في وحدة واحدة سميت "دبستر"، ولم يتبق من الضباط الأيرلنديين في الإنزال إلا واحد، ومن بين الألف واثني عشر من دبلن الذين تم إنزالهم لم يتبق إلا أحد عشر لم يصابوا بسوء.

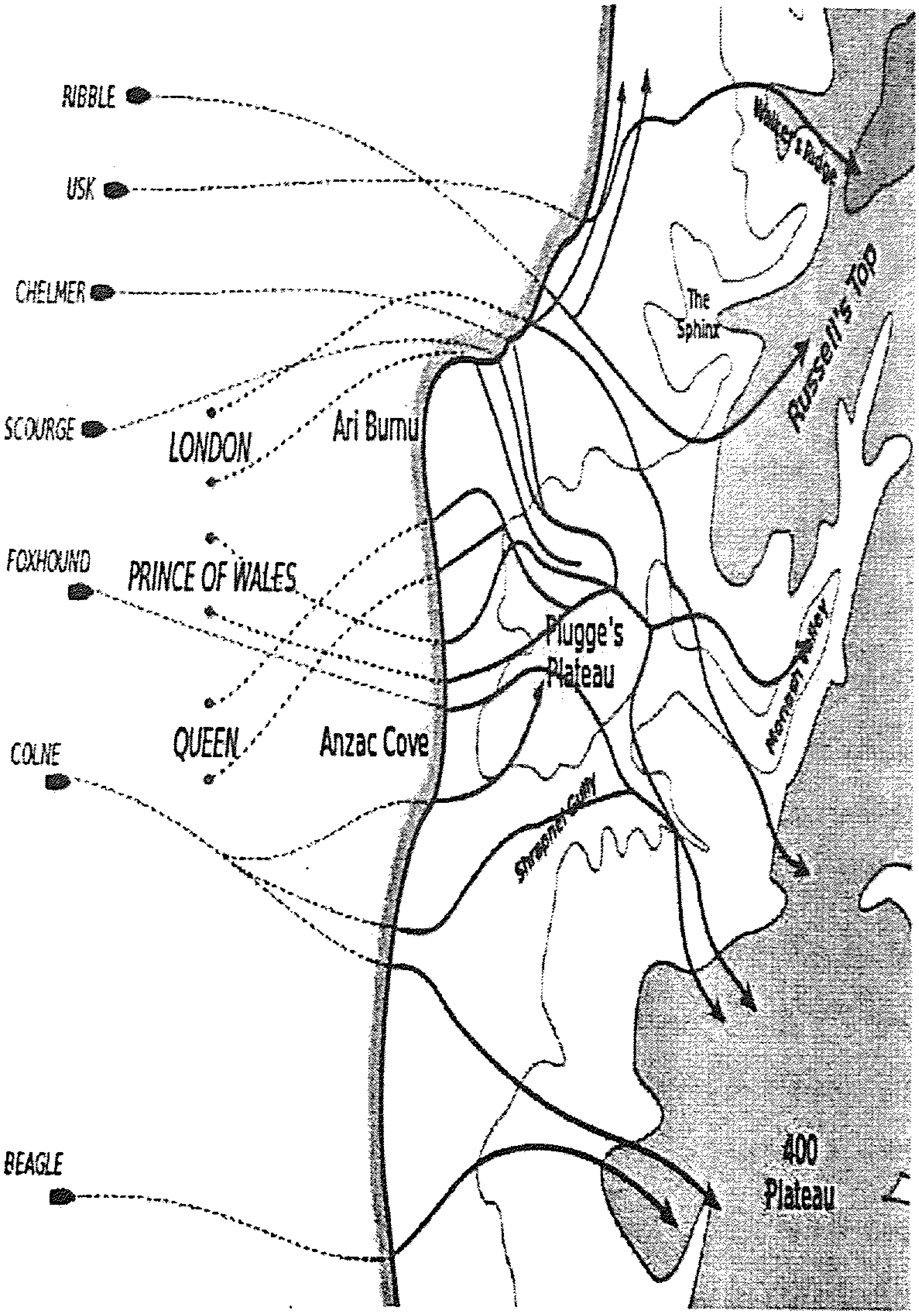

مواقع المدمرات والبوارج البريطانية التي كانت تقوم بتغطية عملية الإنزال

بدء المعارك

في مساء يوم السابع والعشرين من أبريل شن مصطفى كمال هجومًا بهدف دفع الأستراليين والنيوزيلنديين إلى أطراف الشاطئ، ولكن تم تثبيت الأتراك في مواقعهم بسبب الدعم المدفعي الذي وفرته البحرية، وفي الثامن والعشرين من أبريل وكان البريطانيون الآن مدعومين بالفرنسيين على اليمين قد انتووا الاستيلاء على "كريتيا"، فيما عرف بعد ذلك بمعركة كريتيا الأولى، وكانت خطة الهجوم بالغة التعقيد، وكانت الاتصالات مع القيادة ضعيفة جدًّا ميدانيًّا، وكانت قوات الفرقة التاسعة والعشرين ما تزال مرهقة من أثر المعارك التي دارت على الشاطئ بعد الإنزال، ومعارك سد البحر التي انتهت بالاستيلاء على القرية بعد معارك دموية، وتوقف الهجوم في الساعة السادسة مساءا بعد احتلال بعض الأرض، ولكن هدف قرية "كريتيا" لم يتم تحقيقه، وبعد المعركة كانت خنادق الحلفاء تقع تقريبًا في منتصف الطريق بين رأس "هيلليس" وقرية "كريتيا"، ومع تزايد عنف المقاومة التركية تلاشت الفرصة في الحصول على نصر سريع في شبه الجزيرة -كما كان القادة البريطانيون يتخيلون- وتم صد الهجمات المضادة القوية التركية في ليلة الأول من مايو والثالث من مايو بالرغم من اختراقها للدفاعات الفرنسية، وبدأت أول محاولة للهجوم في منطقة الأنزاك في مساء الثاني من مايو عندما أصدر قائد القوات الأسترالية والنيوزيلندية الجنرال "جودلي" الأمر إلى اللواء الأسترالي الرابع مشاة والذي يقوده الجنرال "جون موناش" ولواء المشاة النيوزيلندي بالهجوم من مرتفع يعرف بمرتفع "راسيل"، وموقع "كوين" باتجاه موقع يعرف باسم "بيبي700"، وتقدمت القوات مسافة قصيرة خلال الليل وحاولت حفر خنادق للاحتفاظ بمكاسبها ولكن تم إجبارها على الانسحاب بحلول ليلة الثالث من مايو بعد أن تكبدت ألف قتيل كخسائر، واعتقد "هاميلتون" أن القوات الأسترالية والنيوزيلندية بمأمن، ولذا فقد قام بتحريك لواءين اللواء الثاني

مشـاة ولـواء المشـاة النيوزيلنـدي إلى تـل "هيللـيس" كاحتيـاط لمعركـة "كريتيا" الثانية والتي بدأت في السـادس مـن مـايو، وكـان هـذا هـو أول هجوم كبير في "هيلليس"، ونجح في كسب شريحة من الأرض حوالي ربع ميل على جبهة عريضة بنفس معدل الخسائر الرهيبـة الـتي اعتـاد عليهـا الحلفـاء في حملـة الـدردنيل، وشـن الأتـراك هجومًـا كـبيرًا علـى قـوات "الأنزاك" في التاسع عشر مـن مـايو فقـد هاجمـت قـوة تعـدادها 42000 جندي قوة أسترالية قوامها 17000 جنـدي أسـترالي ونيوزيلنـدي، ولكـن الهجوم كـان سـيئًا في تنفيـذه، فقـد كـان ينقصـه الـدعم المـدفعي الكـافي والذخائر واعتمد الأتراك على المفاجأة وعلى حجم القوات لنجاح الهجوم، ولكن الحلفاء كشفوا استعداداتهم وكانوا مستعدين لها، وخسـر الأتـراك في تلك المعركة ألف جندي، وكانت الخسائر التركية كبيرة بحيث تم التوصـل إلى ترتيب هدنة في الرابع والعشرين من مايو للـتمكن مـن دفـن الأعـداد الكبيرة من القتلى الذين كـانوا يرقـدون في العـراء في الأرض الحـرام بـين القوات، وفي مايو تقلصت الميزة التي وفرتها البوارج للحلفاء نتيجة ضرب البارجة "جالوت" في الثالث عشر من مايو والتي قام بهـا زورق الطوربيـد العثماني" معاونت ميليت"، وبعده بقليل أغرقت الغواصة الألمانية "يو21" البارجة "تريامف" في الثاني والعشرين من مايو، ثم البارجة "ماجيستيك" في السابع والعشرين من مايو، وكما ذكرنا من قبل فبعد تلك الخسـائر تم سحب الكثير من تلك البـوراج، وكـذلك كانـت البـوراج المتبقيـة تطلـق النيران بينما هي تسير، مما قلل من دقتها وفاعليتها، وفي معركة "كريتيـا" الثالثة اعتقد جنرالات الحلفاء أن الثغرة الحاسمة قد فات أوانها وأن المعركة قد انقلبت إلى حرب خنادق حيث كانت الأهـداف تبعـد مئـات الأمتـار، وكانت خسائر القوات المتحاربة من الجانبين تبلغ خمسة وعشـرين بالمائـة من مجموع القوات، فقد تكبد البريطانيون أربعـة آلاف وخمسـمائة قتيـل من مجموع قوات قوامها عشرون ألفًا، وفي شهر يونيو بدأت قـوات الفرقـة

الثانيـة والخمسـين في الإنـزال في "هيللـيس" لتشـارك في آخـر معـارك "هيللـيس" الكـبيرة -معركـة أخـدود الـوادي- والـتي بـدأت في الثـامن والعشرين من يونيو، ونتج عن تلك المعركة تقدم البريطانيين بطول الجناح الأيسر في ميدان المعركة والتي انقلبت نصـرًا محـدودًا للحلفـاء. لم يحصـلوا بعدها على مثله، وبين الأول والخامس من يونيو قام الأتراك بشن سلسـلة من الهجمات المضادة علـى الخـط البريطـاني الجديـد، ولكـنهم فشـلوا في استرجاع شريط الأرض الـذي فقـدوه، وكانـت خسـائر الأتـراك في تلـك الآونة مريعة إذ قدرت بحـوالي أربعـة عشـر ألفًـا أو تزيـد، وقـام الحلفـاء بعملية أخيرة في "هيلليس" قبل أن يتحول مجهود الحلفاء إلى شمال منطقـة الأنزاك (المنطقة التي يحتلها الأسـتراليون والنيوزيلنـديون)، فقـد تم الـدفع بلواءين من الفرقة الثانية والخمسين إلى الهجوم في وسط الخط بطـول خـط "أتشي بابا نولاه"، والذي اصطلح الحلفاء على تسميته بـالوادي الـدموي، ونتج عن ذلك الهجوم ثلاثون بالمائة خسائر للحلفاء بدون إحراز أي تقدم ملحوظ.

معركة كريتيا

بدات معركة "كريتيا" في الثامنة صباحًا في الثامن والعشرين من أبريـل بقصف بحري، وكانت الخطة أن يتقدم الفرنسيون ويتمسكوا بمواقع علـى اليمين، بينما تلتف القوات البريطانية حـول المحـور للاسـتيلاء علـى قريـة "كريتيا" والهجوم على "أتشي بابا" من الجنوب والغـرب، وكانـت الخطـة البالغة التعقيد تتميز بضعف الاتصالات مـع قيـادة اللـواء وقـادة كتائـب الفرقة التاسعة والعشرين الذين قاموا بالهجوم، فقد ظـل "هـنتر ويسـتون" بعيدًا عن الجبهة وبذلك لم يتمكن من السيطرة على تطوير الهجوم، وكـان التقدم الأولي سهلاً ولكن لاقته جيوب من الدفاعات التركية، فتم تثبيـت

القوات المهاجمة في بعض الأماكن، بينما استمر البعض الآخر في الهجوم، وبدأ الالتفاف حولهم، وكلما تقدت القوات في شبه الجزيرة كلما ازدادت صعوبة الأرض حيث مروا بأربعة أخاديد كبيرة كانت تجري من المرتفعات حول "أتشي بابا" إلى الرأس، وفي أقصى اليسار كانت القوات البريطانية تتقدم داخل الأخدود الذي كان مقفرًا ومربكًا مثلما كان الحال في منطقة الأنزاك، فدخلت كتيبتان الأخدود وأوقفهم موقع للرشاشات قرب الشاطئ "واي"، ولم يتم التقدم أكثر من ذلك حتى تم للكتيبة الأولى والسادسة رماة الاستيلاء على الموقع في ليلة الثاني عشر والثالث عشر من مايو وتضمن ذلك تسلق منحدر رأسي بارتفاع 300قدم والذي كان قد تسبب من قبل في هزيمة كل من مشاة البحرية الخفيفة ورماة بنادق دبلن، ولم تستطع القوات البريطانية التي فقدت قيادتها ومعنوياتها وأصابها الإرهاق الشديد التقدم في وجه المقاومة الشرسة للأتراك، وفي بعض الأماكن كانت الهجمات المضادة التركية تقوم بدفع البريطانيين للخلف إلى المواقع التي بدأو منها، وبحلول الساعة السادسة مساءا في يوم الثامن والعشرين من أبريل تم إلغاء الهجوم.

نتائج المعركة

بدأ هجوم الحلفاء بقوات قوامها ثلاثة عشر ألف وخمسمائة جندي وتكبدوا خسائر خسائر ثلاثة آلاف جندي، وكانت المعركة صغيرة من حيث الحجم مقارنة بأعمال القتال اللاحقة، ولكنها بالرغم من ذلك كانت من أهم المعارك في حملة الدردنيل كلها، حيث أثبتت للقيادة البريطانية أن افتراضاتها الأولية الخاصة بنصر سريع على عدو ضعيف كانت خاطئة بشكل فادح، وبعدها أصبحت "هيللس" مسرحًا للعديد من معارك الاستنزاف، وكان النجاح فيها يقاس بالتقدم عدة مئات من

الأمتار أو احتلال خندق، فقد كانت المقاومة التركية عنيفة.

معركة شجرة الصنوبر

كان اتساع جبهة الهجوم مائتي متر فقط، وكانت المسافة بين خطي خنادق الأتراك والحلفاء واحد وتسعون مترًا فقط، ولتقليل المسافة التي كان على جنود الحلفاء عبورها حفر الأستراليون أنفاقا تبعد مسافة ستة وثلاثين مترًا من الخنادق التركية، وبعد الهجوم على الفور كان ينبغي فتح أحد تلك الأنفاق بطوله لصنع خندق مواصلات والذي عن طريقه يمكن للتعزيزات أن تتقدم بدون أن تعبر الأرض المكشوفة، وكان على بعض المهاجمين أن يتقدموا عابرين الأرض المكشوفة من الخنادق الأسترالية، ولتوفير بعض الحماية لهم تم وضع ثلاثة ألغام وتفجيرها لتنتج فجوات يستطيعون الاختباء بها، وامتد القصف الأول لمدة ثلاثة أيام، ونجح في قطع الكثير من الأسلاك الشائكة التركية، وفي الساعة الخامسة والنصف هجم اللواء الأول مشاة الأسترالي وتقدمت نصف القوات عبر الأنفاق بينما عبر النصف الآخر الأرض المكشوفة بين الخنادق، وعندما وصلوا إلى الخنادق التركية وجدوها مسقوفة بجذوع أشجار الصنوبر بدون مداخل سهلة، والبعض أطلق النار أو استخدم السلاح الأبيض من فوق المرتفع، واستطاع البعض شق طريقهم إلى داخل الخنادق، والبعض أخذ يجري إلى خنادق المواصلات المفتوحة بالخلف، وكانت الأرض التي اكتسبها الأستراليون قد تم اكتسابها في الساعات الأولى للهجوم غير أن المعركة استمرت لستة أيام أخرى حيث لم يتوقف الأتراك عن الهجوم المضاد، وتم ضخ جنود اللواء الثاني والثالث مشاة لتعزيز المكاسب الأسترالية، وكان القتال يتم في متاهة معقدة من الخنادق التركية، وكان السلاح الرئيسي في تلك المعركة هو القنابل اليدوية، واستطاع الأستراليون التمسك بخنادق النار التركية

القديمة، واحتفظت بموطئ قدم عميق في الخطوط التركية، وأغلقوا خنادق المواصلات التركية بقدر استطاعتهم، وذلك باستخدام جثث القتلى وذلك لإحباط الغارات وكان هناك جثث أخرى يتم إلقاؤها على المتاريس أو ترقد في أرضية الخندق تحت طبقة رقيقة من الطين.

ما بعد المعركة

بالرغم من انتصار الأستراليين المحدود إلا أن تداعيات تلك المعركة الصغيرة على نتيجة هجوم "جونوق باير" كانت كبيرة، فقد تم توجيه الفرقة التاسعة التركية للاستمرار في طريقها إلى "جونوق باير" حيث كان هناك في ذلك الوقت بطارية مدفعية واحدة يدافع عنها عشرون جندي مشاة، وقد وصلت تلك القوات لتعطل الهجوم الأسترالي بشكل ملحوظ.

هجوم أغسطس

كان الفشل المتوالي للحلفاء في الاستيلاء على "كريتيا" أو إحراز أي تقدم في "هيلليس" قد أدى بالقيادة البريطانية ممثلة في "هاميلتون" إلى تبني خطة جديدة في الحملة، والتي أدت إلى ما عرف فيما بعد بمعركة "ساري باير" -وتعني بالتركية المنحدر الأصفر- ففي ليلة السادس من أغسطس تم -كما رأينا- إنزال فرقتي مشاة في بوغاز "سوفلا" وهو بوغاز صغير يطل على بحر إيجة، وذلك على بعد ثمانية كيلومترات من منطقة تواجد قوات الأنزاك، وفي نفس الوقت كان سيتم القيام بهجوم قوي في منطقة الأنزاك في نطاق "ساري باير" عن طريق التقدم في الأرض الضيقة ذات الدفاعات الجيدة شمالاً من منطقة الأنزاك، ولم يلق الإنزال الذي تم في بوغاز "سوفلا" إلا مقاومة بسيطة، ولكن بذلك التراشق تعطل الهدف

الأصلي للإنزال، واستغرق وقتًا أكثر مما كان في الخطة، ومرة أخرى تمكن الأتراك من الفوز في السباق إلى الأراضي المرتفعة ووصلوا إلى تلال "أنافارتا" مما حول جبهة "سوفلا" إلى صورة أخرى من حرب الخنادق الثابتة، وقد سبق الهجوم في ليلة السادس من أغسطس هجمات تضليلية في "هيلليس" و"أنزاك" وفي "هيلليس" أصبح الهجوم التضليلي على "كريتيا" معركة أخرى بلا طائل وبدون أية مكاسب، وتكبدت القوات المهاجمة خسائر ضخمة، وفي الأنزاك كان الهجوم التضليلي على الخنادق التركية في المنطقة التي عرفت باسم شجرة الصنوبر الوحيدة نصرًا آخر للحلفاء إلا ان الهجوم الأساسي الذي كان يهدف منطقة "جونوق باير" كان أقل نجاحًا، وكانت القوات التي تهاجم المرتفع القريب في "جزنزق باير" تضم لواء المشاة النيوزيلندي الجديد، وقامت القوة بالاقتراب على مسافة خمسمائة متر من المرتفع، وذلك في فجر السابع من أغسطس، ولكنها لم تستطع الاستيلاء على القمة حتى الصباح التالي، وكان لهذا التعطيل نتائج وخيمة على أحد الهجمات المعاونة الأخرى في ذلك الصباح والذي قام به اللواء الثالث خيالة خفيفة الأسترالي في منطقة "نيق" والذي تزامن مع الهجوم النيوزيلندي من "جونوق باير" على مؤخرة الدفاعات التركية، وتمسك النيوزيلنديون بالمنطقة لمدة يومين قبل أن تحل محلهم كتيبتان من فيالق "ويلتشاير" و"لانكشاير"، ثم شن الأتراك هجومًا مضادًا اكتسح الكتيبتين من المرتفعات، وتم فيه القضاء على 711 من قوة الكتيبة النيوزيلندية التي كان قوامها 760 جندي، وكان مقررًا أن يتم شن هجوم آخر على التل971 ولم يقدر له أن يتم، فقد تاهت القوات المهاجمة والمكونة من اللواء الرابع مشاة الأسترالي واللواء الهندي ليلاً، واستطاع المدافعون الأتراك صد كل المحاولات اللاحقة لاستئناف الهجوم، وكبدوا الحلفاء خسائر كبيرة، وتم تعزيز الإنزال في "سوفلا" بوصول الفرقتين الثانية والخمسين والرابعة والخمسين وكذلك

الفرقة العاشرة من الجيش الجديد الذي شكله كتشنر، بالإضافة إلى وحدات المتطوعين من الفرقة الثانية المحمولة، وتم سحب الفرقة التاسعة والعشرين الغير موفقة من "هيلليس" إلى "سوفلا" لتوفير الدعم وكانت المحاولة البريطانية لإحياء الهجوم في الحادي والعشرين من أغسطس بمحاولة احتلال التل الأحدب والتل رقم60، وكان احتلال تلك المرتفعات سيوحد جبهة "سوفلا" والأنزاك، ولكن أي من المعركتين لم يكتب لها النجاح، وبانتهاء القتال عند التل60 في التاسع والعشرين من أغسطس والقتال في "ساري باير" كانت المعركة الدائرة لاحتلال شبه الجزيرة قد انتهت فعليًا، فبعد الإنزال في بوغاز "سوفلا" ازدادت الخسائر، وجعل الحر والرطوبة رائحة الجثث المتعفنة لا تطاق، وتم ترتيب هدنة لتسهيل إخلاء القتلى والجرحى.

إنزال سوفلا

في السابع من يونيو1917 اجتمعت لجنة الدردنيل في لندن، وقررت تحت ارشاد اللورد كتشنر تعزيز قوات الحملة المتوسطية بقيادة الجنرال "هاميلتون" بثلاث فرق جديدة، وفيما بعد تم التخصيص فرقتين أخريين لإعطاء "هاميلتون" العدد المطلوب لتجديد شباب الحملة في الدردنيل، وتم تبني خطة على المدى الطويل للانطلاق من رأس الجسر عند الأنزاك، وكان الليوتنانت جنرال "ويليام بيردوود" هو من اقترح هذه الخطة في الثلاثين من مايو، غير أنه ومثلما حدث في الإنزال الأصلي عند "هيلليس" عندما لم تكن المساحة المخصصة للإنزال تكفي للقوات، ولذا تم تخصيص موقع آخر للإنزال في تل "جابا" كذلك كان الحال في يوليو، فلم تكن هناك أرض كافية لاستيعاب القوات التي سيتم إنزال القوات الجديدة بها في المحيط المكتظ لقوات الأنزاك، وكذلك لم يكن هناك مساحة

تناور بها القوات أثناء المعركة، ولتلك الاسباب تم التخطيط لنقطة إنزال جديدة في "سوفلا" التي ستعمل كمفصل يربط القوات الجديدة بقوات الأنزاك، وكان الفيلق الرابع الذي تم تشكيله سيتم إنزاله مبدئيًّا ويضم لواءين من الفرقة العاشرة الأيرلندية والفرقة الحادية عشرة كاملة، وأسندت قيادة الفيلق الرابع إلى الليوتنانت جنرال "فريدريك ستوبفورد" الذي يقول عنه المؤرخ العسكري البريطاني جي إف فوللر:

"لم يكن يعرف ماذا تعني كلمة جنرال".

ولم يتم تعيينه في الحملة بناء على خبرة عسكرية كان يمتلكها، فلم يكن قد خبر الحرب كثيرًا ولم يقم أبدًا بقيادة جنود في معركة ولم يتم تعيينه كذلك بناء على سنه أو حماسته، فقد كان يبلغ من العمر واحدًا وستين عامًا، وكان قد تقاعد في عام1909 ولكنه قد تم اختيارته بناء على أقدميته، وقد طلب "هاميلتون" اثنين من الضباط أحدهما "رولينسون" الذي خبر الحرب على الجبهة الغربية كما سنرى لاحقًا، ولكنهم بدوا أقل في الاقدمية لليوتنانت جنرال سير "بريان ماهون" قائد الفرقة العاشرة، وكان الإنجليز سيقومون بشن الهجوم في السادس من أغسطس1915 مصحوبين بهجمات تضليلية في "هيلليس" وبدأ الإنزال في "سوفلا" في العاشرة صباحًا بعد ساعة من تحرك طابورين أستراليين للهجوم في طريقهم إلى مرتفعات "ساري باير"، وكانت الخطة الاصلية هي وضع الفرقة الحادية عشرة على الساحل جنوب نقطة "نيبرونيسي" الرأس الجنوبي للبوغاز حيث لم يكن يعتبر الإنزال ليلاً غير آمن داخل البوغاز حيث كانت هناك برك ضحلة غير معلومة التوزيع، وكان على اللواء الثلاثين واللواء الحادي والثلاثين الهبوط على الساحل في الصباح التالي، وكان هدف الفيلق الرابع هو الاستيلاء على مجموعة التلال التي تحيط بسهل "سوفلا"، وعندما تم عرض الخطة على "ستوبفورد" أعلن قائلاً: "إن الخطة

جيدة وأنا واثق أنها ستنجح وأنا أهنئ من وضعها". وكان رئيس أركان "ستوبفورد" البريجادير "هاميلتون ريد" ولم يكن يثق كثيرًا في الخطة، وكانت له عليها الكثير من الانتقادات، وكان في الأصل ضابط مدفعية وخدم في حرب البوير وفي الجبهة الغربية، وكان يؤمن بأن الهجوم على مواقع الخنادق لابد أن يسبقه دعم نيراني من المدفعية، ونجحت الاعتراضات التي أثارها "ريد" في تأرجح "ستوبفورد" في الرأي وتردده، غير أن الاستطلاع لم يكشف عن وجود تحصينات في "سوفلا" إلا أن "ستوبفورد" أخذ يقلص من الأهداف التي كان على الهجوم أن يحققها ولم يستطع "هاميلتون" عمل أي شيء حيال ذلك، وكانت الأوامر النهائية التي أصدرها "ستوبفورد" والميجور جنرال "فريدريك هامرسلي" قائد الفرقة الحادية عشرة غير دقيقة، فقد طلب فقط الاستيلاء على الأراضي المرتفعة إذا كان ذلك ممكنًا، وكان "ريد" و"ستوبفورد" يريدان أن يتم إنزال اللواء الرابع والثلاثين من الفرقة الحادية عشر داخل بوغاز "سوفلا" ذاته، وبخلاف الإنزال الذي تم في أبريل كان الفيلق الرابع مزودًا بقوارب إنزال مصممة خصيصا لذلك الغرض تعرف باسم "الخنفسة" وهي قوارب مدرعة ومدفوعة ذاتيًا، وكان يقود أسطول الإنزال ذلك القائد البحري "إدوارد أنوين" الذي كان يقود "ريفر كلايد" خلال إنزال أبريل في الشاطئ "واى" في رأس "هيلليس" وكان الجنرال "أوتو ليمان فون ساندرس" قائد الجيش الخامس التركي يعلم بأنه سيتم إنزال قريب، وذلك من خلال التقارير الواردة عن حشود القوات التي تتجمع في الجزر اليونانية إلا أنه لم يكن على يقين من الموقع الذي سيتم فيه الإنزال، وقد قامت بريطانيا بتمويه نواياها في الهجوم حتى تمكنت القوات من النزول على الشاطئ بسلام، فكانت تتمركز هناك ثلاث فرق، بينما تمركزت ثلاث فرق أخرى على بعد 48كيلومترًا شمال "سوفلا" في "بولاير" عند عنق شبه الجزيرة، وكانت تدافع عن "سوفلا" قوات قوامها؛ ثلاث كتائب

"مفرزة أنافارتا" بقيادة ضابط من الخيالة البافارية ميجور "فيلهلم فيلمر" والتي كانت مهمته تعطيل أي هجوم للعدو حتى تصل التعزيزات، ولم يكن لدى الميجور "فيلهلم" أية رشاشات وكان بحوزته فقط بعض قطع مدفعية الميدان وقام "فيلمر" ببناء ثلاث نقاط قوية، واحدة على تل "كيرتش" في الشمال والأخرى على التل10 في الوسط، والثالثة في المرتفع الذي كان يعرف باسم تل الشوكولاتة قرب الطرف الجنوبي للبحيرة المالحة التي تقع خلف الشاطئ، ووضع نقاط حراسة في أماكن أخرى شملت نقطة حراسة على تل "لالا بابا" الصغير بين الشاطئ والبحيرة المالحة، وعندما بدأ هجوم شجرة الصنوبر تم إصدار الأمر للميجور "فيلهلم" بإرسال كتيبة من كتائبه للتعزيز، ولذا فعندما بدأ الإنزال البريطاني الذي كان قوامه عشرين ألف جندي في "سوفلا" كان قوام القوات التركية العثمانية التي تدافع عن المواقع ألف وخمسمائة جندي فقط.

بدأ اللواءان الثاني والثلاثون والثالث والثلاثون من الفرقة الحادية عشرة النزول إلى الساحل على شاطئ "بي" جنوب نقطة "نيبرونيسي" قبل العاشرة صباحًا بقليل، وفي أول اشتباك وقع بين القوات المهاجمة والقوات المدافعة قامت سريتان من الكتيبة السادسة من الجيش البريطاني الجديد بدفع الأتراك بعيدًا عن الربوة الصغيرة في "لالا بابا" والتي تطل على الشاطئ، وكانت تلك البداية نذير شؤم على القوات الإنجليزية المهاجمة، إذ فقدت السريتان ثلث جنودها وكل ضباطها، فيما عدا اثنين منهم، وبعد ذلك بقليل حاول اللواء الرابع والثلاثون النزول على الشاطئ "إيه" داخل بوغاز "سوفلا"، ولكن الإنزال لم يسر على ما يرام من البداية، فقد رست المدمرات التي تحمل اللواء على بعد 910مترًا إلى الجنوب من النقطة التي كانت مقررة للإنزال، وواجهت مياهًا ضحلة وكانت في قبالة الجانب الخطأ من القناة التي كانت تصب في البحيرة المالحة إلى الداخل من الخليج،

وجنح زورقان على حزام صخور قريب من الشاطئ، وكان على الجنود ان يخوضوا الماء إلى الساحل وهم مغمورون بالمياه حتى رقابهم التي قدر لبعضها أن تقطع عما قريب في المعارك اللاحقة، وكان أنجح إنزال قد قامت به الكتيبة الحادية عشرة والتي تم إنزالها على الساحل من المدمرة "جرامبوس"، واستطاعت تلك الكتيبة أن تشق طريقها إلى سلسلة مرتفعات "كيرتش"، وتقاتل لتتقدم مسافة ليست بالكبيرة إلى الشرق متكبدة خسائر تقدر بمائتي جندي وضابط، وفي مواقع أخرى تحول الإنزال إلى فوضى، فقد كان الإنزال في تلك المواقع يتم في الظلام الحالك، مما سبب ارتباكًا كبيرًا حيث اختلطت الوحدات ببعضها البعض، وأضحى الضباط غير قادرين على تحديد مواقعهم أو أهدافهم وفيما بعد عندما ارتفع القمر في السماء أصبح الإنجليز هدفًا واضحًا للقناصة الأتراك، وقد تم القيام بمحاولات لاحتلال التل10 ولكنها فشلت ببساطة لأن أحدا لم يكن يعرف أين يوجد التل10!!! وبعد الفجر بوقت قليل استطاعوا تحديد مكانه والاستيلاء عليه لأن المؤخرة التركية كانت قد انسحبت ليلًا، واختار ستوبفورد أن يقود الهجوم من قارب بريطاني يعرف باسم "جونكيل" وعندما كان الإنزال يجري على قدم وساق ذهب للنوم، وكانت أول أخبار حصل عليها عندما وصل "أنوين" على متن القارب في الرابعة صباحًا في السابع من أغسطس ليحذره من الإنزال في بوغاز "سوفلا"، وقد شهد أحد مراسلي الصحف الإنجليزية الإنزال في الفجر من الناقلة "مينيابوليس" بينما كان يستطيع سماع أصوات القتال المستمرة في منطقة الأنزاك، وكانت منطقة "سوفلا" هادئة نسبيًا ولم تظهر أية إشارة على أنه ثمة يد حازمة تقود وتسيطر على تلك الحشود من الجنود الذين تم إنزالهم على ساحل لا يعرفونه ليواجهوا مصيرًا مجهولًا، ولم يتم إحراز تقدم ذي قيمة في السابع من أغسطس اللهم إلا إنزال لواءين من الفرقة العاشرة الأمر الذي زاد الطين بلة وساهم في ازدياد الفوضى في منطقة

الإنزال، علاوة على مشكلة مياه الشرب التي تزايدت حدتها بسبب حرارة الجو اللافحة في ذلك الوقت من السنة، إلا أنه ونحو المساء في ذلك اليوم تم الاستيلاء على تلين شرقي البحيرة المالحة، وكانت تلك هي المكاسب الوحيدة التي حققتها بريطانيا في ذلك اليوم، والحقيقة أن الأتراك العثمانيون استماتوا في الدفاع وقاتلوا بشراسة فكبدوا القوات المهاجمة ألفًا وسبعمائة قتيل في الأربع والعشرين ساعة الأولى للإنزال، وهو رقم يزيد على عدد المفرزة التي كانت تحت قيادة "فيلمر" وفي السابعة صباحًا أرسل "فيلمر" إلى قائده "فون ساندرس" الاشارة التالية:

"لم تقع أية هجمات ذات قيمة من جانب العدو وعلى العكس فإن العدو يتقدم خائفًا".

وأصدر "فون ساندرس" الأمر إلى فرقتين من "بولاير" الفرقة السابعة والفرقة الثانية عشرة بقيادة "فيضي بك" بالتحرك جنوبًا باتجاه "سوفلا"، وعلى الجانب الآخر لم يتحرك "ستوبفورد" أو يغادر القارب "جونكيل" ليشرف على تنظيم القوات، في السابع من أغسطس وبحلول نهاية اليوم كانت سلسلة القيادة البريطانية قد تحطمت بالكامل، وللغرابة فإن "ستوبفورد" كان راضيًا عن نتائج اليوم الأول!!!

وفي صباح اليوم التالي أرسل اشارة إلى "هاميلتون" قائلاً:

"يستحق الميجور جنرال "هامرسلي" والقوات التي تحت قيادته العرفان بسبب النتائج التي حققوها في مواجهة مقاومة شرسة وصعوبات جمة، ويجب علي الآن أن أعزز الموقع الذي تم الاستيلاء عليه".!!!!!

ولم يكن لديه في الواقع أية نية في التقدم إلى الأراضي المرتفعة، وقد قدرت رئاسة الأركان البريطانية أن الفرق التركية في "بولاير" ستستغرق ستًا وثلاثين ساعة لتصل إلى "سوفلا"، وكان من المتوقع أن تصل في مساء

اليوم التالي للهجوم الثامن من أغسطس، وكان "هاميلتون" يرتجف فرقًا من عدم التقدم حتى الآن وغياب أي رد فعل من "ستوبفورد" أو معاونيه، وكان "هاميلتون" قد قام بإرسال كابتين "إسبينال" لمعرفة حقيقة ما يجري هناك في "سوفلا"، وكان يصحبه الليوتنانت كولونيل "موريس هانكي" سكرتير لجنة الدفاع البريطانية والذي كان عليه تقديم تقرير عن تقدم الحملة البريطانية إلى مجلس الوزراء البريطاني، وعندما تلقى "هاميلتون" إشارة "ستوبفورد" قرر الذهاب إلى "سوفلا" بنفسه، وفي البداية وجد كل من "إسبينال" و"هانكي" أن عدم وجود نشاط في "سوفلا" هو أمر مشجع، وافترضوا أن ذلك يعني أن القتال يدور بعيدًا في التلال، وبوصولهم إلى الشاطئ تم تحذيرهم بخفض رءوسهم لأن جبهة القتال كانت على بعد مئات الياردات فقط، ووجدوا أن "ستوبفورد" كان ما يزال على متن القارب "جونكيل" ووجد "إسبينال" "ستوبفورد" في حالة معنوية ممتازة ووجده راضيًا عن تقدم الإنزال!! وعندما إشار إلى أن الجنود لم يصلوا إلى المرتفعات أجاب "ستوبفورد": لا، ولكنهم على الساحل. والتقى كل من "إسبينال" و"هاميلتون" على متن الطراد الخفيف "تشاثام" وأخيرًا وفي ظهر يوم الثامن من أغسطس بعد يومين تقريبًا من بدء الإنزال استطاع "هاميلتون" أن يكون صورة واضحة للأحداث، وصعد على متن "جونكيل" ليواجه "ستوبفورد" والذي نزل إلى الشاطئ أخيرًا ليتشاور مع "هامرسلي"، وقرر الاثنان أن يأمرا بالتقدم في الصباح التالي 9أغسطس، بينما أصر "هاميلتون" على التقدم على الفور، وبالفعل صدر الأمر للواء الثاني والثلاثين بالتقدم ميلين ونصف الميل باتجاه سلسلة مرتفعات "تكه"، ولم تكن القوات مستعدة لمثل ذلك السير، فكانت تسير في الظلام في أرض وعرة لم تختبرها من قبل، ولم يقترب اللواء من القمة إلا بحلول الساعة الرابعة فجرًا يوم التاسع من أغسطس، وكانت التعزيزات التركية العثمانية في استقبال الجنود المنهكين إذ وصلوا المرتفعات قبلهم

بوقت قصير، وهجم العثمانيون على الإنجليز بسونكيات البنادق ففتكوا بهم، ولم تستغرق إبادة اللواء الثاني والثلاثين إلا دقائق معدودة، وتبعثر من تبقى منهم باتجاه الشاطئ هاربين، وبدأت قوات فيضي بك في الوصول في مساء الثامن من أغسطس، وأراد "فون ساندرس" الهجوم على الفور، ولكن "فيضي بك" عارض محتجًا بأن الرجال متعبون ويحتاجون إلى الراحة، وكذلك فإن الهجوم يحتاج إلى دعم من المدفعية، ولم يرض "فون ساندرس" عن ذلك الاحتجاج ففصله وعين مكانه مصطفى كمال الذي كان يقود الفرقة التاسعة عشرة في ذلك الوقت والذي كان يحارب في "جونوق باير"، وسيطر مصطفى كمال على قطاع "أنافارتا" والذي كان يمتد من "سوفلا" إلى "جونوق باير" وكانت القيادة الانجليزية التي يواجهها مصطفى كمال من الأمور التي سهلت مهمته في "سوفلا" إذ كان "ستوبفورد" عديم الخبرة مترددًا، ولا يتمتع بأي من صفات القائد، وقد تصاعدت حدة القتال في "سوفلا" في التاسع من أغسطس، ولكن فرصة القيام بتقدم سريع كانت قد تلاشت تمامًا، وقرب الظهر أشعلت قذائف المدفعية النار في الشجيرات على التل، وكان مراسل الصحيفة البريطانية ما يزال يراقب المعارك من "لالا بابا" ورأى الجرحى الإنجليز وهم يحاولون الهرب من النيران، فقال:

"رأيت اللهب يقترب ورأيت أجسادًا تزحف وتختفي في غلالات الدخان الأسود الكثيف".

وكانت التعزيزات البريطانية قد وصلت ولكن بلا فائدة فقد بدأ إنزال الفرقة الثالثة والخمسين في ليلة الثامن من أغسطس، ووصلت الفرقة الرابعة والخمسون في العاشر من أغسطس إلا أن القيادة البريطانية ظلت مشلولة، وقد ساق "ستوبفورد" أسبابًا عجيبة تبريرًا لامتناعه عن الهجوم ومنها على سبيل المثال قوله: إن الأتراك كانوا يميلون إلى أن يكونوا

عدوانيين!!! وأخيرًا فقد أرسل "هاميلتون" برقية إلى كتشنر يخبره فيها أن قيادة الفيلق الرابع غير مؤهلة للقيادة، ورد كتشنر عليه سريعا بسؤاله: ما إذا كان لديه أي أسماء يرشحها في حالة رغبته في إقالة "ستوبفورد" وغيره، وطلب إليه أن يقوم بالتغيير على الفور إذا رأى عدم كفاءة القيادة، وأنه فهم من برقية "هاميلتون" أنه على "ستوبفورد" أن يرجع إلى إنجلترا مفسحًا الطريق أمام قيادة أخرى أفضل، وقبل أن ينتظر منه ردًا كان قد عين بالفعل الليوتنانت جنرال "جوليان بينج"، وفي الخامس عشر من أغسطس أقال "هاميلتون" "ستوبفورد"، وبينما كان "جوليان" في طريقه من باريس وضع محله الميجور جنرال "بوفوار دو ليل" قائد الفرقة التاسعة والعشرين البريطانية، وعلى أثر ذلك استقال "ماهون" الذي كان يبغض "دو بوفوار" ولم يكن راضيًا عن تعيينه قائدًا له، وترك فرقته والقتال على أشده في تل "كيرتش"، وكذلك استقال قائد الفرقة الثالثة والخمسين الميجور جنرال "جون ليندلي"، وتم توجيه اللوم إلى الجنرال "ستوبفورد" في فشل عملية "سوفلا"، ولكن المسئولية النهائية في الفشل ألقيت على اللورد كتشنر الذي عين جنرالا عجوزًا غير خبير لقيادة فيلق عامل وعلى عاتق السير "هاميلتون" الذي قبل تعيين مثل ذلك الجنرال، وقد ساهمت إقالة "ستوبفورد" في سقوط نجم "هاميلتون" والذي اكتمل في الخامس عشر من أكتوبر عندما تمت إقالة "هاميلتون" من قيادة قوة الحملة المتوسطية، وبالرغم من أن الجنرال "دو ليل" قد قام بإعادة تنظيم القوات في جبهة "سوفلا" مع وصول الفرقة التاسعة والعشرين من "هيلليس" والفرقة الثانية المحمولة من مصر (بدون جيادها)، وتصاعد القتال مرة أخرى في الحادي والعشرين من أغسطس في معركة التل الأحدب وهي أكبر معركة في الدردنيل، وعندما خسرت بريطانيا تلك المعركة انقلب القتال في "سوفلا" إلى معارك متفرقة حتى انسحاب البريطانيين في ديسمبر.

الهروب من الدردنيل

بعد فشل الهجمات في أغسطس دخلت حملة الدردنيل في مرحلة جمود بينما كان مستقبل الحملة على المحك، وكانت الأخبار التي تسربها الصحافة عن عدم التقدم والهزائم المتوالية لقوات الحلفاء تلقي بالظلال على سمعة "هاميلتون"، وتفقد أداءه العسكري أية مصداقية، وقد ساهم الجنرالات الساخطون مثل "ستوبفورد" في المزيد من الغم بين صفوف القوات البريطانية، وتمت مناقشة الانسحاب ولكن "هاميلتون" عارض الاقتراح خشية من انهيار سمعة بريطانيا، وتم الاستغناء عنه بعد ذلك بقليل وحل محله الليوتنانت جنرال سير "تشارلز مونرو"، وازدا الموقف تعقيدًا بدخول بلغاريا الحرب مع قوى المحور، وفي الخامس من أكتوبر1915 فتح البريطانيون جبهة جديدة في سالونيكا والتي بدأت تستأثر بالتعزيزات على حساب حملة الدردنيل، وعلاوة على ذلك أصبحت ألمانيا تتمتع بطريق بري مباشر إلى قلب حليفتها الدولة العثمانية مما مكنها من تزويد الدولة العثمانية بالمدافع الثقيلة التي قامت بدورها خير قيام في تحويل شبكات خنادق الحلفاء إلى حطام، وخصوصا في الجبهة المحصورة التي كانت تشغلها القوات الأسترالية والنيوزيلندية، والمعروفة باسم الأنزاك، وقد أوصى "مونرو" بالانسحاب بعد أن قام بمراجعة الموقف في قيادته، وكان كتشنر يخشى من فكرة الانسحاب من شبه الجزيرة، ولذا فقد قام بزيارة شخصية للتشاور مع القادة الفيالق الثلاثة الفيلق الشامن في "هيلليس" والفيلق التاسع في "سوفلا" و"الأنزاك"، وتم التوصل بالفعل إلى قرار بالانسحاب، وكان انسحاب أربع عشرة فرقة في الشتاء على مقربة من القوات التركية قد يسبب خسائر كبيرة، وكان الوضع الواهي للحلفاء قد تجلى عندما هبت عاصفة شديدة في السابع والعشرين من نوفمبر ودامت لمدة ثلاثة أيام، ثم تلتها عاصفة ثلجية في أوائل ديسمبر، وأغرق المطر الخنادق وغمر الجنود وعرى جثث الجنود القتلى، ثم تكفل الثلج

بقتل عدد آخر من الجنود الذين كانوا عمليًا في العراء، ولا شك أن حملة الدردنيل تذكر من يقرأها بملحمة الإلياذة التي نظمها الشاعر اليوناني هوميروس، حيث حاولت الجيوش اليونانية غزو طروادة ولم تستطع بسبب منعة أسوارها واستحكام دفاعاتها إلا أن النتيجة النهائية بين الحربين لم تكن واحدة، حيث استطاع اليونانيون دخول طروادة مختبئين في حصان خشبي هائل بعد أن اعيتهم أسوارها، بينما انسحب الإنجليز وحلفاؤهم ورُدُّوا على أعقابهم خائبين برغم أن القتال بين الأتراك والحلفاء كان سجالاً، فتارة ينهزم الأتراك وتارة ينهزم الإنجليز، ولكن الهزيمة النهائية كانت من نصيب الإنجليز هذه المرة، وبدون أن يدخلوا استانبول عاصمة الخلافة في ذلك الوقت، وبدلاً من أن يدخلوها فاتحين ثم يرجعوا إلى بلادهم محملين بمفاتيحها كان من نصيبهم حمل عار يزن مائة وعشرين ألف بين قتيل وجريح، وعادوا إلى بلادهم مكللين بالهزيمة وخزيها، وبدا من العواصف الثلجية والأمطار الشديدة التي هطلت على ميدان القتال كما لو كان الله يرسل إلى إنجلترا وحلفائها نذر الهلاك الذي سيحل بهم إن لم يولوا الادبار، كما لو كان الله لم يشأ أن تسقط عاصمة الدولة العثمانية في أيدي البريطانيين كما سقطت العديد من الدول التابعة لها من قبل، وبرغم أن الدولة العثمانية لم تنتصر في الحرب العالمية الأولى إلا أن الانجليز وحلفاءهم لم يستطيعوا تحقيق هدف الحملة ألا وهو احتلال المضايق وضمان طرق إمداد آمنة عبر البحر لحليفتهم في ذلك الوقت روسيا القيصرية، من المضحك أن كان الانسحاب هو أنجح عمل عسكري عمل قام به الحلفاء في تلك الحملة، فكان من المقرر إخلاء "سوفلا" والأنزاك في أواخر ديسمبر على أن تتحرك آخر قوات موجودة هناك في العشرين من ديسمبر، وكانت أعداد الجنود قد بدأت بالتناقص منذ السابع من نفس الشهر، وقد استخدم الحلفاء بعض الحيل مثل بنادق "ويليام سكوري" لخداع الأتراك، ومنعهم من اكتشاف انسحاب الحلفاء، وفي

الأنزاك كان على القوات أن تلـزم الصـمت بالكامـل وتمتنـع عـن القيـام بضوضاء لمدة ساعة أو أكثر حتى يقوم الأتراك بمحاولة استطلاع للخنـادق ثم يفتح عليهم الجنود النار، وحيث إن الأعداد في الخنادق كانـت ضـئيلة فقد تم ربط البنادق لتطلق النار عن طريق صفيحة مربوطة بالزناد وتمتلئ بالماء تدريجيا، وتم الاحتفاظ بـ "هيلليس" في حالة ما إذا رغب البريطـانيون في استئناف الهجوم إلا أنه تم اتخاذ القرار بالانسحاب منها أيضًا في السـابع والعشرين من ديسمبر، وقد خمن الأتراك الآن احتمال قيام الحلفـاء بمثـل ذلك الانسحاب فشنوا هجوما في السادس من يناير، ولكن تم صدهم، وقد غـادرت آخـر القـوات البريطانيـة مـن إنـزال لانكشـاير في التاسـع مـن يناير1915 وتقول التقريرات البريطانية أنه لم يتم فقد أية قوات في عمليـة الانسحاب بالرغم من توقع خسائر تقدر بخمسين بالمائة، ولكن هذا القول في الحقيقة يحتاج إلى دليل.

نتائج الحملة

كان القيصر الروسي يطلق علـى الدولـة العثمانيـة المحتضـرة في ذلـك الوقت وصف رجل أوربا المريض، ولكن بعد انتصار الأتراك على الحلفـاء في الدردنيل عاودت الأتراك أحلام الإمبراطورية من جديد، فبدأ التفكير في استعادة الأجزاء التي استولت عليها القوى الغربية في السـابق مثـل مصـر والعراق، ففي كوت العمارة والتي سنورد تفصـيلاً أكـبر عنهـا فيمـا بعـد حاصرت القوات العثمانية قوات بريطانية مجبرة إياهـا علـى الاستسـلام في عام1916، ومن جنوب فلسطين اندفعت القوات العثمانية إلى سيناء بهدف الاستيلاء على قناة السويس وطرد البريطانيين من مصر، ولكنهم هزموا في معركة تعرف باسم معركة روماني سيرد ذكرها في الفصول التالية، وكانت تلك الهزيمة هي التي أنهت الطموح العثماني في استعادة بـاقي ممتلكـات

الدولة من بريطانيا، وإلى ان انتهت الحرب العالمية الأولى كـان البريطـانيون يقومون بـالهجوم وبعـد الانسـحاب رابطـت القـوات البريطانيـة في مصـر، وخضعت القوات الأسترالية النيوزيلندية إلى إعادة تنظيم فتم توسيع المشـاة وإرسالهم إلى الجبهة الغربية، وتم تجميـع الخيالـة الخفيفـة وتشـكلت منهم الفرقة المحمولة للقيام بعمليات في سيناء وفلسطين، وقاموا بتحقيق نصر في معركة بئر سبع، وفيما يخص الجنرالات فقـد انتهـى المسـتقبل العسـكري لهاميلتون و"ستوبفورد"، ولكن "ويستون" منح فرصة أخرى ليقود الفيلق الثامن في أول يوم مـن معركـة السـوم في شمـال غـرب فرنسـا، وبالنسـبة لكتشنر كانت شعبيته قد تغلبـت علـى المطالبـة بعقابـه، ولكنـه لم يعـد يتمتع بنفس السمعة القديمة كجنرال لا يقهر ونبذه زملاؤه حتى موتـه في السنة التالية، وفي الجانب العثماني فإن كمال اتاتورك الذي سـيقوم فيمـا بعد بتقويض أركان دولة الخلافـة العثمانيـة قـد بـدأ نجمـه بالصـعود في حملة الدردنيل بل إن أحمد شوقي في مصر قد هزتـه انتصـارات القـوات العثمانية التي كان يقودها فنظم قصيدة يقول فيها:

"الله أكبر كم في الفتح من عجب .... يـا خالـد الـترك جـدد خالـد العرب"!!!!

وأصبحت معركة الدردنيل فيما بعد أحد المقومات الأساسية التي بنيت عليها سمعة مصطفى كمال الملقب فيما بعد بأتاتورك.

التداعيات السياسية

كان لفشل الإنـزالات المتكـررة الـتي قـام بهـا الحلفـاء وعلـى رأسـهم بريطانيا في حملـة الـدردنيل، ثـم الفشـل النهـائي والهزيمـة الـتي حاقـت بإنجلترا في تلك الحملة تداعيات كبيرة داخل إنجلترا نفسها، وبدأت تلك

التداعيات في الإعلان عن نفسها، بينما كانت القوات ما تزال تتقاتل في الدردنيل فقد استقال الأدميرال "جون فيشر" أمير البحر الأول في مايو بعد خلاف مرير مع ونستون تشرتشيل على الحملة، واجبرت الأزمة التي تلت ذلك رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الوقت "هربرت اسكويث" على إنهاء حكومة الحزب الليبرالي الذي كان يحكم وحده مفسحًا المجال أمام تشكيل حكومة ائتلافية مع حزب المحافظين، وتم عزل تشرتشيل من منصبه كأمير البحر الأول كمطلب أساسي لحزب المحافظين للموافقة على الانضمام للائتلاف، وبالرغم من أنه قد تم الاحتفاظ به في مكتب رئيس الوزراء إلا أنه قد تم إسناد وظيفة بائسة إليه وهي مستشار دوقية لانكاستر والتي استقال منها في نهاية عام1915 ورحل إلى الجبهة الغربية ليقود هناك كتيبة مشاة في أوائل عام1916، وتم توجيه اللوم إلى "اسكويث" من جراء حملة الدردنيل، وتمت الإطاحة به في ديسمبر1916 عندما استطاع لويد جورج بنجاح شق الحزب الليبرالي إلى نصفين، وشكل لويد جورج الحكومة الجديدة والتي تم فيها إعطاء تشرتشيل الذي كان نشطًا في مجلس العموم منصب وزير الذخيرة في منتصف عام1917 برغم عدم كونه عضوًا في مجلس الحرب، وتم إنشاء لجنة الدردنيل في عام1916 للتحقيق في فشل الحملة، وكان تقريرها النهائي والذي نشر في1919 يصف الحملة بأنها مغامرة خطط لها بشكل سيئ، وكذلك لم تلق بالاً إلى الصعوبات الموجودة وأن الحكومة قد ساهمت بمماطلتها في تفاقم المشاكل التي أحاطت بالحملة. وقال البعض مثل ونستون تشرتشيل بأن الإنزال كان من ضمن الأسباب التي عجلت بما يسمى بمذابح الأرمن في الدولة العثمانية في عام1915.

الفصل السادس

معارك العراق

الحرب في العراق

كما ذكر من قبل فإنه وبعد انتصار الأتراك العثمانيون في حملة الدردنيل على إنجلترا تعاظمت آمال العثمانيين في استعادة ممتلكات الدولة العثمانية، وفكروا جديًّا في طرد الإنجليز من المنطقة بعد أن اختبروا قوة الانجليز في المعارك المختلفة التي دارت في الدردنيل إلا أنه وبحلول عام1914 كان تواجد الإمبراطورية العثمانية سياسيًّا وعسكريا في بلدان المنطقة العربية تواجدًا هزيلاً، وكانت مجموعة ضباط الجيش التابعين لجمعية الاتحاد والترقي مثل أنور باشا وطلعت باشا هم المسئولون عن إدارة دفة السياسة العثمانية فعليًّا، ولم يكن السلطان محمد الخامس غير راغب بالمرة في الدخول في حرب لا مع ألمانيا ولا مع غيرها فقد كان راغبًا في تطوير الإمبراطورية العثمانية، فقد كانت تلك الأخيرة تعاني من حالة ترد كبيرة على جميع الأصعدة، ولكن ضباط الاتحاد والترقي قاموا بتوقيع معاهدة سرية مع الألمان في عام1914 أدت إلى دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى حليفة لألمانيا، وكان العراق في ذلك الوقت مقسما إلى ثلاثة مناطق إدارية أو سناجق وهي الموصل والبصرة وبغداد، وكانت القوات الهندية التابعة لبريطانيا والتي كان قد تمت إعادة تنظيمها في عام1904 وانتهى الأمر بالبريطانيين إلى ترك فرقة واحدة فقط من القوات الهندية

وهي التي كانت مسئولة عن تـأمين مصـالح إنجلـترا في الخلـيج العربـي، وكانت قوات الحملة الهندية التي تتكون من ثلاثة أفواج مشاة الفـوج 16 و17 و18 هي التي تم استدعاؤها بعد عقد من ذلك التـاريخ، وهـي الـتي هاجمت الحامية التركية في الفاو في السادس من نوفمبر1914 ونجحـت في الاسـتيلاء عليهـا عقـب إعـلان الدولـة العثمانيـة الحـرب علـى الحلفـاء وانضمامها لقوى المحور في الخامس من الشهر نفسـه، وكانـت مهمـة تلـك القوات هي تأمين مصالح إنجلترا الحيوية وهي:

- خط أنابيب النفط الأنجلو إيراني والذي يمتد لمسافة مائة وأربعـين ميلاً.
- مصافي النفط في عبادان على الساحل الإيرانى للخليج العربي.

وكان النقاش المحوري بين القادة البريطانيين عند دخول الدولة العثمانية الحرب هو ما إذا كان على بريطانيا أن تكتفي بتأمين مصالحها في عبـادان ومرافق البترول الأخرى فقط أم أنـه مـن الأنسـب القيـام بالضـغط لـدفع القوات العثمانية خراج العراق نهائيًّـا، وانتصـر الـرأي الثـاني في النهايـة، وقررت بريطانيا تبني استراتيجية جريئة عرفت باسم الدفاع الأمامي، ثـم بعد هجوم القوات البريطانية الهندية على الفـاو بأسـبوعين قامـت القـوات البريطانية بمهاجمة البصـرة واحتلالهـا ولم يقـم الجـيش التركـي العثمـانى بقيادة خليل باشا والمتمركز حول بغداد بمجهودات جـادة لطـرد الانجليـز من المناطق التي استولوا عليهـا، وفي أبريـل مـن عـام1915 عـين الجنـرال "نيكسون" على رأس الجيش البريطـاني الموجـود بـالعراق وأصـدر الأمـر للجنرال "تاونسند" بالتقدم إلى الكوت أو إلى بغـداد إن أمكـن، وبالفعـل تقدمت القوات التي يقودها "تاونسـند" وهزمـت في طريقهـا عـدة قـوات عثمانية أرسلت للتعامل معها وإيقافها، وعلى أثر ذلك أرسل وزير الحربية العثماني أنور باشا جنرالاً ألمانيًّا ليتولى قيادة القوات العثمانية في العـراق،

وهو الجنرال "كولمان فون دير جولتس"، والتقت قوات الجانبين عند قطيسيفون أو بلدة سلمان باك العراقية على الضفة الشرقية لنهر دجلة قرب المدائن، ولكن المعركة لم ترجح الكفة لصالح أي من الجانبين، إذ انسحبت قواتهما من المعركة إلا أن "تاونسند" أدرك أنه لا بد من انسحاب كامل فسحب الفرقة السادسة التي كانت تتكون من جنود من الهند إلى منطقة الكوت ثم توقف وقام بتحصين موقعه.

إنزال الفاو

عندما قررت الدولة العثمانية الدخول في الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا خشت الحكومة البريطانية من فقدان حقول البترول التي كانت تسيطر عليها في منطقة عبادان إضافة إلى مرافق البترول الأخرى في الخليج العربي، وعلى ذلك اتخذت القيادة البريطانية قرارًا بضرورة الاستيلاء على ذلك الجزء من ساحل الخليج العربي الذي تسيطر عليه الدولة العثمانية، وكانت بريطانيا قد وضعت قواتها في الهند على أهبة الاستعداد تحسبًا لإعلان الدولة العثمانية الحرب رسميًّا على بريطانيا، وكانت قلعة الفاو هي القلعة الرئيسية التي تتمركز بها القوات العثمانية في الفاو، وكانت تلك الأخيرة هي نقطة الحشد التي تستطيع منها القوات العثمانية مهاجمة المرافق البترولية التي تسيطر عليها بريطانيا، وكترجمة لإستراتيجية القيادة البريطانية في الخليج سيرت بريطانيا حملتها، وكان قوام القوات الهندية التي انطلقت من بومباي سبعة آلاف جندي على العراق في يوم السادس عشر من أكتوبر من عام1914، بعد أن أقلعت من بومباي في الهند التي كانت بريطانيا تحتلها في ذلك الوقت إلى منطقة الخليج العربي، ووصلت إلى البحرين ثم تحركت من هناك في يوم السادس من نوفمبر 1914، باتجاه الفاو، ووصلت إلى الفاو في نفس اليوم وتم إنزال

قوات بريطانية من ستمائة جندي هندي على ساحل الفاو، وفي اليوم التالي أخذت بوارج القوات البريطانية تتقدم شمالاً إلى موقع السنية، حيث قرر الجنرال ديلامين القيام بعملية الإنزال في تلك المنطقة، وظلت عملية الإنزال جارية إلى يوم التاسع من نوفمبر، وعلى الفور واجههم العثمانيون بنيران مدفعية قوية من القلعة واستمر البريطانيون في التقدم بالرغم من ذلك، ثم ما لبثوا أن واجهتهم هجمات شنتها القوات العثمانية بفوجين من المشاة، ونجح البريطانيون في صد الهجمات البرية التي قامت بها القوات المشاة العثمانية ليلاً بقيادة اليوزباشي سامي بك، إلا ان الوقت كان قد فات، ولم تتكبد القوات البريطانية سوى خسائر طفيفة بعد أن كانت القيادة البريطانية قد علمت مسبقاً بالهجوم عن طريق أحد جواسيسها في المنطقة، وتراجعت القوات العثمانية إلى منطقة سيحان إثر تكبدها خسائر جسيمة حيث لم يؤدي الهجوم العثماني إلى أية نتائج، وهناك بدأ العثمانيون في حشد قواتهم والاستعداد لإيقاف تقدم القوات البريطانية التي تحركت قوة منها وقامت بتوجيه ضربة قوية لحشود القوات التركية المتواجدة في معسكر سيحان مما أدى إلى إنزال خسائر كبيرة في صفوفها، ولكنهم لم يكونوا قد تمكنوا بعد من الاستيلاء على القلعة، حيث كانت مدفعيتهم الثقيلة ما تزال في البحر، ولم يكن قد تم إنزالها بعد وعلى أثر هجمات المشاة العثمانيين قامت القوات البريطانية بحفر الخنادق حول القلعة، وكان بإمكانهم حينئذ الرد على نيران المدفعية العثمانية بنيران مدفعية مماثلة، واستمر تبادل إطلاق النار لمدة يومين حتى وصلت المدفعية البريطانية في الثامن من نوفمبر، وفور وصول المدفعية البريطانية بدأ البريطانيون في قصف القلعة العثمانية، وبعد أن تمكنت البارجة البريطانية أودن وبعد عدة مناوشات قصيرة، من إسكات مدفعية البطارية العثمانية المتمركزة في القلعة العثمانية على ساحل الفاو استطاعت المدفعية البريطانية أن تقوم بعمل حفر في أسوار القلعة واستطاع

جنود المشاة من خلالها الدخول إلى داخل القلعة، والهجوم عليها من الداخل، وبعد قتال دام لمدة خمس وأربعين دقيقة استطاعت المشاة البريطانية المتفوقة عدديًا الاستيلاء على القلعة التي كان يدافع عنها ما يزيد قليلاً عن الثلاثمائة رجل مما أدى إلى تراجع وانسحاب الحامية التركية، وتمكن البريطانيون في اليوم التالي من السير باتجاه الميناء دون أن يواجهوا أية مقاومة، ولم تكن القيادة العثمانية على علم باحتلال الفاو بسبب قطع الاتصال البرقي، ولم يكن مقدرًا أن يصل خبر نجاح البريطانيين في احتلال الفاو إلى البصرة إلا بهروب الموظفين من هناك، وبالاستيلاء على الفاو لم يعد العثمانيون يسيطرون على أي جزء من ساحل الخليج العربي وتمكن البريطانيون بذلك من تأمين مرافق البترول في الخليج والتي كانت ضرورية لهم لتأمين الوقود لقواتهم البحرية في الأطلنطي والبحر الأبيض المتوسط على السواء، وخصوصًا في عبادان التي كانت تديرها الشركة البريطانية الإيرانية، وظلت عبادان حتى نهاية الحرب العالمية الأولى توفر البترول للجيش البريطاني وعلى الرغم من محاولة العثمانيين مقاومة القوات البريطانية إذ قاموا على أثر احتلال الفاو بإغراق ثلاث سفن كبيرة بغرض سد الطريق على الملاحة البريطانية في شط العرب بحيث لا تتمكن البوارج البريطانية من الاقتراب من الملاحة، وقاموا بتجهيز بعض الجزر في الخليج بالمدافع وبعض الحاميات إلا أن ضعف التجهيزات الدفاعية وتدهور الموقف العسكري وتراخي القيادة العثمانية أدى بهم إلى التخلي عن مدن العراق مدينة تلو الأخرى، وكان للاستيلاء على الفاو آثارًا مدمرة على القوات العثمانية في العراق، فقد تمكن البريطانيون بذلك من إيجاد موطئ قدم لهم في أراضي العراق وتهديد القوات العثمانية هناك، بالإضافة إلى أنهم بدأوا في تحقيق هدفهم الإستراتيجي بشغل القوات العثمانية في معارك جانبية في الشرق بدلاً من تدعيم حليفتها في ذلك الوقت ألمانيا، علاوة على أن بريطانيا بذلك بدأت

في تحقيق مساعيها بتأمين الطريق من الهند إلى مصر وشمال إفريقيا، وإن لم يكن بشكل كامل في تلك المرحلة، والذي كان مهمًّا من أجل استقدام قوات المستعمرات التي كانت تضخها من حين لآخر في المعارك الدائرة على الجبهة الغربية، ومن ثم نجحت بريطانيا وبعد سلسلة من المعارك وبسبب تراخي القيادة العثمانية في العراق والتجاهل المريب من قبل القيادات العليا في اسطنبول والتي كان يسيطر عليها رجال الاتحاد والترقي في الاستيلاء على بغداد، وذلك بعد سلسلة من الهجمات برغم أن القوات العثمانية حاربت جيدًا في البداية حتى دفعت البريطانيين إلى الاستسلام أثناء سير العمليات كما حدث في معركة كوت العمارة كما سنرى لاحقًا، وكان سقوط الفاو مهما حيث أمن للبريطانيين نقطة بداية جيدة لحملات العراق التي تلت ذلك، وبعد سقوط الفاو لجأت القوات العثمانية إلى مدينة البصرة، وكان البريطانيون يرغبون في الإجهاز على أية مقاومة عثمانية علاوة على أنهم كانوا يخشون من قيام العثمانيين بالتحضير لهجوم وشيك على الفاو، ونتيجة لذلك قرر البريطانيون الهجوم أولاً، وعليه قامت القوات البريطانية بالزحف على البصرة منطلقة من موقعها الجديد في الفاو، وفي محاولة ضعيفة لإيقاف الهجوم البريطاني على البصرة أرسل العثمانيون خيالتهم لوقف التقدم البريطاني، وخاضت الخيالة العثمانية الكثير من المعارك الصغيرة في مواجهة المشاة البريطانية بين يومي السابع والتاسع من ديسمبر من عام1914، ونجح البريطانيون في صد هجوم الخيالة العثمانية ومواصلة التقدم باتجاه المدينة، وانسحب العثمانيون من المدينة وأخلوها أمام القوات البريطانية تاركين فيها حامية ضعيفة قوامها بضع مئات من الجنود وأمام تفوق القوات البريطانية العددي انهزم العثمانيون أمامهم بعد معركة شرسة، ونجح البريطانيون في نهاية الأمر في احتلال المدينة

وفي تحليله لمعارك الفاو والبصرة والدروس المستفادة منها يعرض اللـواء العراقي شكري نديم محمود للأخطاء التي ارتكبتهـا القيـادة العثمانيـة في تلكما المعركتين فقد كان على العثمانيين أن:

1 - يعززوا دفاعات الفاو ويزودوها ببطاريات مدفعية سـاحلية لسـلب البريطانيين القدرة على الإنزال البري.

2 - تطوير خطوط دفاعية ثانوية لاحتواء القوات البريطانية في الفاو.

3 - جعل الملاحة مستحيلة على الزوارق البريطانية في شط العرب عن طريق تلغيمه وإغراق السفن.

4 - كان يجب أن يتم التعرض لمصافي البترول في عبادان بمجرد دخـول القوات البريطانية للخليج العربي.

وبالرغم من احتلال البريطانيين للبصرة إلا أنهـم وفي تلـك المرحلـة لم يكونوا قد حققوا هدفهم الإستراتيجي بعـد في العـراق مـن تحطـيم وإبـادة الجيش العثماني هنـاك وطـرد العثمـانيين تمامًـا مـن العـراق، فقـد تبقـى للقوات العثمانية ما تستطيع المقاومـة بـه، وقـاموا بالانسـحاب إلى كـوت العمارة وأدى عـدم الحسـم في المعـارك الأولى إلى اسـتمرار المعـارك بطـول العراق فيما بعد كما سنرى.

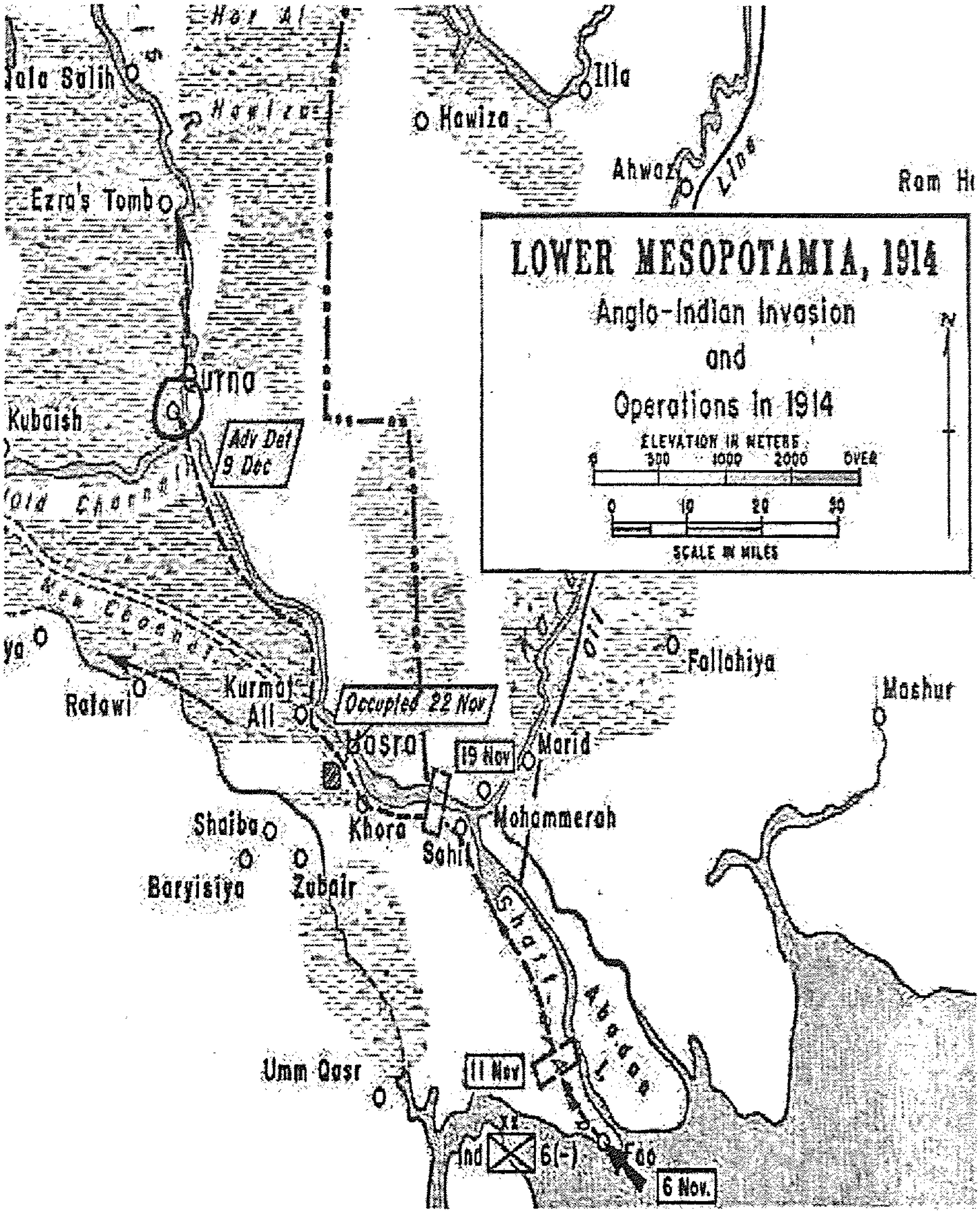

تقدم القوات البريطانية من الفاو باتجاه مدينة البصرة

معركة قطيسيفون

تقع بلدة قطيسيفون على الضفة اليسرى لنهر دجلة في صحراء العراق القاحلة على بعد ثلاثمائة وثمانين ميلاً من البصرة وعلى مسافة أربعين ميلاً شمال كوت العمارة، ومن الناحية العسكرية تعتبر موقعًا عسكريًا دفاعيًا ممتازًا، وقد قام الأتراك العثمانيون ببناء خط من الخنادق المموهة بشكل جيد التي تعبر النهر، وكان هناك أيضًا حائط بارتفاع عشرين قدمًا على بعد ثلاثة أميال من خط الملاحظة الرئيسي الذي كان يستخدمه العثمانيون، وكان قوام القوات العثمانية حوالي ثمانية عشر ألف رجل واثنين وخمسين مدفعًا، وكان خليل باشا هو القائد العام للجيش العثماني في العراق، وكانت القوات العثمانية ولمدة تسعة أشهر تحت قيادة جنرال عربي وهو الجنرال نور الدين باشا إلا أن العثمانيين كما ذكرنا آنفا قاموا بإرسال الجنرال "فون جولتس"، وهو جنرال ألماني مشهود له بالكفاءة علاوة على عمله كمؤرخ عسكري، وكذلك كان مسئولاً لمدة اثني عشر عامًا عن تحديث الجيش العثماني، وبالرغم من كبر سن الجنرال "فون جولتس" إلا أنه كان خبيرًا في الشئون العسكرية ولديه فهم عميق لنقاط الضعف والقوة للدولة العثمانية، وكان الجنرال نور الدين ما يزال في ميدان القتال وقد أدى ذلك إلى اعتقاد الانجليز بأنه ما يزال القائد، وكانوا لا يقيمون وزنًا لقدرات نور الدين باشا العسكرية، بينما كانت القوات البريطانية تتكون من الفرقة السادسة (بونا) وقوامها 11000جندي، وتركت بعض القوات في المؤخرة كحامية لحراسة المدينة التي تم الاستيلاء عليها حديثًا ومفصل الكوت عند النهر، وكان تقدم القوات البريطانية بعد الكوت بطيئًا وكانت الأرض رطبة، وكذلك كان الجنرال "توانسند" غير راغب في التقدم، ولكن القائد العام للقوات البريطانية في المنطقة الجنرال "نيكسون" أصدر الأمر "لتاونسند" بالتقدم لاحتلال بغداد والذي بدأ في السير بمحاذاة نهر دجلة.

الخطة البريطانية

كانت خطة "تاونسند" أن يقسم قواته إلى أربعة أرتال، ثلاثة أرتال من المشاة وتدعى "إي وبي وسي" وخصصت للهجوم في المواجهة في نقاط مختلفة من الخط التركي العثماني، والرتل الرابع وكان يشار إليه بالرتل الطائر، وتم تشكيله من خليط من المشاة والخيالة، وكان المفترض أن يلتف حول الجناح الأيسر التركي على أن يتم دعم الهجوم بقاربين نهريين وزورق المدفعية "فايرفلاي".

التحرك

أعطى "تاونسند" الأمر بالتحرك ليلاً في أواخر ساعات ليلة الحادي عشر من نوفمبر1915 بهدف الهجوم عند الفجر في اليوم التالي الثاني والعشرين من نوفمبر، وقد وقع الهجوم في الوقت المقرر له، ولكنهم هاجموا النقاط القوية في المواقع التي على الضفة الشرقية، وكان من المقرر دعم الهجوم بواسطة زوارق المدفعية غير أن شيئين منعا الزوارق من المشاركة، ومن أن تكون عنصرًا فاعلاً في المعركة، الأول أن المدفعية التركية على الضفة الغربية للنهر أمطرتهم بوابل من القذائف والعامل الثاني هو أن الأتراك العثمانيين قد قاموا بتلغيم بعض أجزاء نهر دجلة، ووضعت بعض العوائق لتجعل الملاحة في بعض الأجزاء شاقة للغاية، وفي بدء المعركة كان الرتل "سي" قد فشل في الوصول لخط الخنادق الأول بعد أن تعرض لنيران مدفعية وأسلحة صغيرة كثيفة من الجانب التركي العثماني، وعلى اليمين تمكن الرتل "بي" المكون أساسًا من البنجابيين والجوركا من الوصول إلى خط الخنادق العثمانية، وانسحب العثمانيون إلى خط الخنادق الثاني، وعندها أعطى تاونسند الأمر للرتل "سي" بالتراجع، وكان مثل ذلك التحرك معقدًا، وكان الأتراك يطلقون النار على الجنبة مما جعل الأمر

صعبًا عليهم، وفي تلك الأثناء كان الرتل الطائر قد تم تثبيته في معركة غير حاسمة مع الخيالة العثمانية المكونة من العرب والأتراك، وقبل حلول نهاية اليوم كانت الفرقة السادسة (بونا) قد استولت على خط الخنادق الأول ولكن بخسائر فادحة.

اليوم الثاني

في اليوم الثاني هاجم العثمانيون المواقع البريطانية، وكان غرض ذلك الهجوم المضاد استعادة خط الخنادق الأول، ولكنه لم يكن بالقوة التي تحقق غرضه، وسرعان ما توقف بعد فترة قصيرة من بدءه، وعاود العثمانيون الهجوم ليلاً وكان الهجوم تلك المرة أعنف من سابقه ولكن الخط البريطاني تمكن من الصمود.

اليوم الثالث

في اليوم الثالث أعطى الجنرال "فون جولتس" أوامره بالانسحاب، وأدرك "تاونسند" أن عليه أيضًا أن ينسحب نظرًا لكبر حجم خسائره، فلم يكن قادرًا على الاستمرار في القتال بمثل ذلك المعدل من الخسائر وانتهى القتال بانسحاب الطرفين من ميدان القتال، وكانت الفرقة السادسة (بونا) قد خسرت أربعين في المائة من جنودها أي ما يعادل أربعة آلاف وستمائة جندي، وكانوا مصابين بالإرهاق من القتال الشديد في اليومين السابقين، وكان قوام القوات القادرة على القتال ثمانية آلاف وخمسمائة فقط، وكان على "تاونسند" أن ينسحب إلى الكوت حيث يقوم هناك بإعادة بناء قواته، وتقول التقديرات البريطانية أن العثمانيين خسروا ستة آلاف ومائتي رجل في الثلاثة أيام التي استغرقتها المعركة إلا أن ذلك الرقم يبدو مبالغًا فيه، وكان لدى القوات العثمانية خطوط تموين قصيرة واستطاعوا نقل

التعزيزات من بغداد والمحافظات الشمالية، وعندما علم البارون "فون جولتس" أن البريطانيين ينسحبون استدار بجيشه، وطارد البريطانيين وتعقبت القوات العثمانية الإنجليز إلى الكوت، وكشفت معركة قطيسيفون ونتائجها عن أهم نقاط الضعف البريطانية في تلك الحملة وهي خطوط الإمداد الغير ملائمة، كان تموين القوات البريطانية أقل مما تحتاجه، وكان الفيلق الطبي يحتاج إلى أعداد كبيرة أكثر مما كان به بالنظر إلى أعداد القوات وحجم الخسائر، ولكن في الحقيقة لم تكن خسائر بريطانيا كبيرة حيث إنها كانت تقاتل جنودًا عثمانيين بجنود هنود على أرض عراقية!!!

معركة كوت العمارة

كما ذكرنا منذ قليل كانت الفرقة السادسة الهندية تحت قيادة الميجور جنرال "تاونسند" قد انسحبت إلى كوت العمارة بعد الخسارة التي تكبدتها في معركة قطيسيفون، ووصلت القوات إلى كوت العمارة في الثالث من ديسمبر1915 بعد أن بلغت خسائرهم قرابة الأحد عشر ألف جندي علاوة على الخيالة، ووقع اختيار "تاونسند" على موقع الكوت ليبقى به ويتمسك به بدلاً من الاستمرار في اتجاه البصرة، وكانت كوت تعطي المدافع عنها ميزات دفاعية جيدة حيث كان تحيط بها حلقة من النهر، وكانت المشكلة هي كيفية الحصول على الإمدادات وكانت كوت تبعد كثيرًا عن البصرة، في الحقيقة كان قرار "تاونسند" بالبقاء في الكوت كارثيًا على القوات البريطانية.

الحصار

وصلت القوات العثمانية المطاردة في السابع من ديسمبر1915 وعندما أضحى واضحًا أن القوات العثمانية لديها من القوات ما يكفي لفرض

حصار على الكوت أصدر "تاونسند" الأمر للخيالة بالمروب جنوبًا، وكان قوام القوات العثمانية أحد عشر ألفًا من الجنود، وبعد ثلاث هجمات في ديسمبر أمر الجنرال "فون جولتس" ببناء تحصين بمواجهة الكوت بغرض حصارها، وقام بالتحضير للهجوم على البصرة مستخدمًا نهر دجلة عن طريق بناء مواقع دفاعية بامتداد النهر مثل قيصر في إليسيا، وبعد حصار دام شهرًا أراد "تاونسند" أن ينسحب جنوبًا ولكن قائده السير "جون نيكسون" رأى فائدة في تثبيت القوات العثمانية في حصار إلا أن "تاونسند" أرسل له إشارة تفيد بأنه لا يملك مؤنًا تكفي إلا لمدة شهر، وتم إرسال قوة إنقاذ على عجل ولم تكن إشارته تلك دقيقة في فحواها، وليس من الواضح لماذا أرسل تلك الإشارة بينما كان لديه فعليًّا من الطعام ما يكفي لأكثر من أربعة أشهر، فربما أراد التخلص من القتال والانسحاب جنوبًا بعد أن أنهكت قواته.

النجدة تصل

كانت أول نجدة أرسلت لقوات الكوت تضم 19000جندي تحت قيادة جنرال "إيلمر" والتي توجهت بمحاذاة النهر من على الغربي في يناير1916، وكانت قد استهلكتها ثلاثة صدامات دارت رحاها في يناير في وادي الشيخ سعد وحنة، وعند وصول تلك القوات وصل خليل باشا القائد العام ومعه تعزيزات بين عشرين إلى ثلاثين ألفًا من الجنود، وبعد انهزام قوات "إيلمر" أمام القوات العثمانية تم استبدال "بيرسي ليك" بالجنرال "نيكسون" القائد العام الأسبق، وأرسلت المزيد من القوات لدعم قوات "إيلمر"، وقد حاول الأخير ثانية، وهاجم تحصين دجيلة في الثامن من مارس، وفشل ذلك الهجوم وتكبد الإنجليز خسائر تقدر بأربعة آلاف جندي حسب التقديرات البريطانية، وتم فصل الجنرال "إيلمر" وحل محله

"جورج جورينج" في الثاني عشر من مارس، ويطلق على أول محاولة لدعم القوات قام بها "جورينج" معركة الكوت الأولى واصطدمت فيها قوات قوامها ثلاثون ألفا من الجانب البريطاني ومثلهم من الجانب العثماني، وبدأت أعمال القتال في الخامس من أبريل وسرعان ما استولى البريطانيون على الفلاحية ولكن بخسائر كبيرة، وتم الاستيلاء على بيت آسيا في السابع عشر من الشهر نفسه، وكان الجهود الأخير موجها إلى سنائيات في الثاني والعشرين من أبريل، ولم يستطع البريطانيون الاستيلاء عليها وخسروا ألفا ومائتي قتيل في تلك المحاولة، وعند انتهاء المعارك كان البريطانيون قد خسروا ثلاثة وعشرين ألفاً بين قتيل وجريح، ويقدر البريطانيون الخسائر العثمانية بعشرة آلاف ومات الجنرال "فون جولتس" في التاسع عشر من أبريل إثر إصابته بالتيفود إلا أن الشائعات كانت قد انتشرت عن قيام زملائه من الضباط العثمانيين بوضع السم له في الطعام، وبعد موت "جولتس" لم يحل محله أي قائد ألماني في منطقة العراق حتى انتهاء الحرب.

الإنجليز يستسلمون

حاول القادة البريطانيون شراء أرواح جنودهم من العثمانيين وكان "تي إي لورانس" المعروف باسم "لورانس العرب" أحد فريق الضباط الذين تم إرسالهم للتفاوض سراً مع العثمانيين، وعرض البريطانيون مبلغ اثنين مليون جنيه إسترليني، ووعدوا بألا يقوموا بمحاربة العثمانيين ثانية لقاء تسليم قوات "تاونسند" وأصدر أنور باشا وزير الحربية العثماني أوامره برفض ذلك العرض، وقد حاول الإنجليز طلب المساعدة من الروس، وكانت قوات القوزاق التي تقدر بعشرين ألفاً تحت قيادة الجنرال "باراتوف" في فارس في ذلك الوقت، وتقدم كما طلب البريطانيون باتجاه

بغداد في أبريل 1916، ولكنه ارتد على أعقابه بعد علمه باستسلام البريطانيين، ورتب الجنرال "تاونسند" لوقف إطلاق النار في السادس والعشرين من أبريل، وفي الثامن والعشرين من الشهر التقى كل من خليل باشا و"تاونسند"، وطلب خليل باشا استسلامًا غير مشروط للقوات البريطانية في الكوت أو أن يرحلوا عن الكوت، وكان ذلك المطلب الأخير غير ممكن التحقيق إذ كانت قوات تاونسند قد بلغ منها الإنهاك والضعف مبلغه، فلم يكن أمامه إلا الخيار الأول وبعد فشل المفاوضات التي كانت دائرة بين فريق الضباط الانجليز والعثمانيين لضمان سلامة القوات البريطانية في الكوت استسلم "تاونسند" للقوات العثمانية في التاسع والعشرين من أبريل 1916 بعد حصار دام مائة وسبعة وأربعين يومًا وقد نجا ثلاثة عشر ألفًا من الجنود ليصبحوا أسرى، وكان سبعون بالمائة من القوات البريطانية وخمسون بالمائة من الهنود قد مات معظمهم من المرض، وأخذ "تاونسند" إلى جزيرة مالكي في بحر مرمرة.

نتائج المعركة

يعلق المؤرخ العسكري البريطاني "جيمس موريس" على استسلام القوات البريطانية في الكوت واصفًا إياها بأن تلك هي أكثر الاستسلامات إذلالا في التاريخ العسكري البريطاني، وبعد الاستسلام تم إبعاد كل من جنرال "ليك" وجنرال "جورينج" من القيادة، وانضم بعد ذلك بعض من الأسرى الهنود في الكوت إلى القوات العثمانية، بعد أن أقنعهم بذلك الزعماء الهنود الذين كانوا يسعون للقيام بثورة إسلامية في الهند ضد الاحتلال البريطاني بمعونة الحكومة العثمانية، وقد حارب أولئك الجنود علاوة على الجنود الذين تم أسرهم في جبهات أوربية أخرى إلى جانب القوات العثمانية في عدة جبهات، وكانت القوات الهندية تحت قيادة "أمبا

براساد صوفي" وهي القوات التي كانت فيما بعد مسئولة عن الاستيلاء على مدينة كارمان واحتجاز القنصل البريطاني بها، وكانوا يسببون إزعاجًا شديدًا فيما بعد للحملة البريطانية ضد البلوشيين ورؤساء العشائر الفارسية في فارس بقيادة الجنرال "بيرسي سايكس".

سقوط بغداد

بعد استسلام القوات البريطانية في الكوت في التاسع والعشرين من أبريل 1916 كما سلف القول أعيد فحص وتقييم أداء القوات البريطانية الموجودة في العراق، ووضع قائد جديد للقوات وهو الجنرال سير "فريدريك ستانلي مود"، وأوكلت إليه مهمة استعادة سمعة بريطانيا العسكرية وقضى الجنرال "فريدريك" بقية عام1916 في إعادة بناء الجيش البريطاني، وتم تجنيد معظم الجنود من الهند وإرسالهم عن طريق البحر إلى البصرة، وبينما كانت تتم عملية تدريب القوات كان المهندسون العسكريون يعملون على إنشاء سكة حديدية من الساحل إلى البصرة وما خلفها، وحصل الجنرال "فريدريك" على قوة صغيرة من الزوارق النهرية وسفن التموين النهرية، وبدأ البريطانيون في شن حملتهم الجديدة في الثالث عشر من ديسمبر1916 وكان لديهم الآن خمسون ألف جندي مدربون تدريبًا جيدًا ومزودون بمعدات حديثة، وكان الفيلق الهندي الثالث والذي كان يسمى فيلق دجلة يواجه قوات عثمانية أصغر منه في الحجم وقوامها حوالي خمسة وعشرون ألف جنديًّا تحت قيادة خليل باشا، بدأ الجنرال "فريدريك" في التقدم بشكل حذر هذه المرة على جانبي نهر دجلة، وقد ناضلت القوات العثمانية في قتالها الذي دار في تحصين يعرف باسم منعطف الخضايري والذي تمكن البريطانيون من الاستيلاء عليه بعد أسبوعين من الحصار من السادس من يناير إلى التاسع عشر من يناير

عام1917 وكان على البريطانيين في ذلك الوقت دفع العثمانيين خارج مواقعهم الدفاعية القوية بطول نهر الحي، وقد استغرق ذلك حوالي أسبوعين آخرين، ثم استولى البريطانيون على موقع آخر للعثمانيين يعرف باسم منعطف الدهرة في السادس عشر من فبراير، وأخيرًا تمكن البريطانيون من الاستيلاء على كوت العمارة مرة أخرى في الرابع والعشرين من فبراير في معركة الكوت الثانية، ولم يعط الجنرال كارابكير بيك الذي كان يقود القوات العثمانية في الكوت الفرصة للقوات للبريطانية لحصر قواته كما حدث مع "تاونسند"، وبعد نجاح "فريدريك" في الاستيلاء على كوت العمارة أوقف العمليات في العزيزية منتظرًا الأوامر من لندن للتقدم نحو بغداد التي كانت على مسافة أقل من سبعين كيلومترًا، وتم استئناف العمليات بعد أسبوع في الخامس من مارس1917 وأعطت تلك الوقفة الفرصة للقائد العام العثماني خليل باشا فرصة قصيرة لمراجعة خياراته في الدفاع عن بغداد والتي كانت تعتبر العاصمة الجنوبية للدولة العثمانية، وكان تحت إمرة خليل باشا 12500 رجل، وكذلك فإنه في طريقه إلى بغداد أتم استدعاء فرقتين قوامهما عشرين ألف رجل بقيادة على إيشان بك، غير أنه لم يكن من المحتمل أن تصل قوات إيشان بك في وقت معقول لتمنح قوات خليل باشا المعاونة المطلوبة، وكان لدى خليل باشا ثلاث خيارات

ا- الانسحاب خلف بغداد بما يستتبع ذلك انهيار المصالح العثمانية في المنطقة، والتأثير المعنوي الذي سيترّكه سقوط بغداد بدون قتال.

ب - تشكيل دفاع مباشر حول بغداد.

ج - محاولة الدفاع عن طريق الهجوم على القوات البريطانية.

وكان خليل باشا قد بدأ في العمل على تحصين قطيسيفون إلا أنه تركها وسارع بالذهاب إلى بغداد للدفاع عنها، ولهذه الغاية قام بإنشاء

دفاعات على كل من جانبي نهر دجلة على بعد خمسة وثلاثين كيلومترًا من المدينة ووضع الجيش السادس العثماني إلى الجنوب الشرقي من بغداد، وللغرابة أسقط خليل باشا من حساباته خيار إغراق الأرض التي يمكن عن طريقها الدخول إلى بغداد والتي عبرتها بالفعل قوات "فريدريك"، وظل تهديد إغراق الأرض قائمًا ومقلقًا للبريطانيين قبل الاستيلاء على بغداد، استأنف الجنرال "فريدريك" تقدمه في الخامس من مارس بطول الضفة الشرقية لنهر دجلة، وبعد ثلاثة أيام كان البريطانيون قد وصلوا إلى ديالة، وفشلت أول محاولة للبريطانيين لعبور النهر إلا أن المحاولة اللاحقة لعبور النهر في المساء التالي قد نجحت في إقامة رءوس جسور صغيرة، ورغم الصعوبات التي واجهته إلا أنه أمر الجزء الأكبر من قواته بالعبور إلى الضفة الغربية باستخدام كباري عائمة على بعد عدة كيلومترات ليتمكن من تطويق قوات خليل باشا، ويتحرك مباشرة إلى بغداد، وعلم خليل باشا بالمحاولات البريطانية عن طريق الاستطلاع الجوي الألماني، وعلى أثر ذلك أرسل معظم قواته لملاقاة البريطانيين عند دجلة تاركًا فيلقًا واحدًا لحماية موقعه عند ديالة، وقد تم الاستيلاء عليه سريعا في صباح العاشر من مارس، وقرر خليل باشا على أثر ذلك سحب قواته من موقعه عند تل أسود لحماية خط السكك الحديدية الذي كان يربط بغداد ببرلين، وبسبب العواصف الرملية توقفت العمليات في ذلك اليوم وقبل أن تستقر الأحوال الجوية استقر رأي خليل باشا على أن يقوم بانسحاب عام من بغداد نفسها مهملاً الخيارات التي كانت متاحة أمامه للقيام بهجوم مضاد، وعلى ذلك بدأ إخلاء بغداد في الساعة الثامنة صباحًا من يوم العاشر من مارس، ودخلت القوات البريطانية بغداد بدون أن تطلق عليها رصاصة واحدة، وبغض النظر عن التأثيرات الدعائية الكبيرة التي خلفها سقوط بغداد واستغلال البريطانيين له في الدعاية فإن سقوط المدينة قد أدى إلى إنهاء النشاط العسكري العثماني في فارس، وتوقف الجنرال "فريدريك"

في بغداد ليتذوق النجاح الذي حققه له خليل باشا بدون أي مجهود من جانبه، ثم استمر في التقدم ليقوم بعد ذلك بالاستيلاء على خطة سكة حديد سامراء.

هجوم سامراء

بعد الانتصار المجاني الذي أهداه خليل باشا للبريطانيين قرر الجنرال "فريدريك" شن هجوم إلى الشمال لتعزيز موقعه في بغداد، وكانت هناك قوات عثمانية إلى الشمال من المدينة قوامها عشرة آلاف رجل، واستمرت المعارك التي عرفت فيما بعد بهجوم سامراء لمدة ستة أسابيع بقوات قوامها خمسة وأربعون ألفًا في منتصف مارس1917 قبل أن تتوقف العمليات ليتم استئنافها مرة أخرى، في الخريف كان لدى خليل باشا عشرة آلاف جندي، وكان يعتمد على التعزيزات الوشيكة التي كان من المقرر أن تأتي بقيادة علي إيشان بك التي تقدر قواته بخمسة عشر ألف جندي قادمين من فارس، وقدر الجنرال "فريدريك" أنه لن يكون بالإمكان شن هجوم بريطاني كبير قبل الاستيلاء على سكة حديد سامراء التي تبعد مائة وثلاثين كيلومترًا عن بغداد، وفي تخطيطه للاستيلاء على سكة حديد سامراء وضع "فريدريك" خطة ذات أربعة محاور؛ البدء في سلسلة هجمات صغيرة أعلى نهر دجلة لمنع احتمال إغراق العثمانيين للسهل المحيط بنهر الفرات، ولمنع قوات علي إيشان بك من الوصول إلى خليل باشا، وللقيام بعملية تثبيت للقوات العثمانية في الغربة في حالة قيامهم بالدفاع لوقف تقدم قوات الجنرال "فريدريك"، وبدأت العمليات في الثالث عشر من مارس بعد ثلاثة أيام من دخول البريطانيين إلى بغداد بإغارات ناجحة على الخطوط العثمانية إلى الشمال قليلاً من المدينة أرغم فيها البريطانيون العثمانيين على الانسحاب خمسة وثلاثين كيلومترًا إلى المفصل الذي

يربط نهري دجلة والأضيم، وبعد حوالي أسبوع من ذلك الهجوم تم الاستيلاء على الفلوجة، وفي ذلك الوقت كان الأتراك يقاتلون بشراسة في وجه قوات مود Maude التي كانت تتقدم، وبدأت العملية في الثالث عشر من مارس بعد يومين من سقوط بغداد ذاتها في يد البريطانيين بإغارة ناجحة على الخطوط التركية على مسافة غير بعيدة من الشمال إلى المدينة، وأجبر ذلك الهجوم القوات العثمانية على الانسحاب لمسافة تقرب من خمسة وثلاثين كيلومترًا من مواقعهم الأولى إلى المفصل بين نهري جلة والأضيم، وبعد حوالي أسبوع من تلك العملية سقطت الفلوجة هي الأخرى في يد البريطانيين، وكانت استيلاء البريطانيين على الفلوجة أمرًا في غاية الأهمية للقيادة البريطانية حيث ضاعت على العثمانيين فرصة إغراق السهول بالمياه الأمر الذي إذا كان قدر للعثمانيين إتمامه كان سيعيق بشكل كبير التقدم البريطاني غير أن النجاح لم يكن حليف البريطانيين على طول الخط، حيث إنه وبعد ستة أيام من الاستيلاء على مدينة الفلوجة قام البريطانيون بمحاولة لتطويق قوات علي إيشان بك والتي كان قوامها خمسة عشر ألف جندي، ولكن العثمانيون استماتوا في الدفاع وقاتلوا بشراسة أجبرت البريطانيين على الارتداد على أعقابهم وتولية الأدبار، ونجح العثمانيون في صد ذلك الهجوم حيث تمكن علي إيشان بك من التحرك بقواته إلى الغرب، والالتقاء مع قوات عثمانية أخرى قوامها خمسة آلاف رجل كانت قد أرسلت لدعمه في دوجامه عند نهر دجلة إلا أن محاولة مود Maude لمنع علي إيشان بك من الالتقاء بتلك القوات قد نجحت أخيرًا وبخسائر فادحة في الأرواح، عن طريق الهجوم بمفارز من الخيالة والمشاة بشكل متكرر على دوجامه حتى تم الاستيلاء عليها في نهاية الأمر في الحادب والثلاثين من مارس، وكنتيجة لتلك العملية تراجع الخط الدفاعي العثماني إلى مفصل نهري دجلة والأضيم، وفي وسط تلك الأحداث كانت المنية قد وافت الجنرال البريطاني مود

Maude وخلفه الجنرال ويليا مارشال William Marshall كقائد عام في منطقة العراق، وكان أول ما فعله عند توليه للقيادة هو مهاجمة المواقع العثمانية في الثامن عشر من أبريل بعد التفاف سريع لمعاونة قوات الخيالة البريطانية المحاصرة في شيالة، وكانت القوات العثمانية بقيادة خليل باشا قد انسحبت الآن لمسافة تزيد عن الخمسة وثلاثين كيلومترًا إلى مواقع دفاعية محصنة بين نهر دجلة وقناة الجالي، وكان خط سكة حديد سامراء يقع بينهما، واستمر الهجوم في الحادي والعشرين من أبريل في عدة نقاط قرب النهر، ونتيجة للقتال العنيف في تلك الجهة كانت السيادة على المواقع تتبدل من حين لآخر فتارة يحتلها البريطانيون، وتارة أخرى يسترجعها العثمانيون، وهكذا دواليك، فقد كان القتال في تلك الجهة سجالاً بين أولئك وهؤلاء في تلك الليلة حتى صباح اليوم التالي حين انسحبت القوات العثمانية مرة أخرى تاركة مواقعها في تلك النقطة، ولجأت إلى سلسلة مرتفعات تبعد حوالي عشرة كيلومترات عن خط السكك الحديدية، وكان ذلك بدون مبرر عسكري واضح، وبالرغم من أنهم كبدوا البريطانيين خسائر كبيرة في تلك الليلة فقد قتل منهم حوالي ألفين بين ضابط وجندي، وهو رقم يظهر عنف وشراسة الدفاع العثماني، وكان من الممكن لو أصر العثمانيون على التمسك بمواقعهم أن يستنزفوا البريطانيين في معركة قد تطول أو تقصر، ولكن في النهاية كان البريطانيون سيضطرون إلى الانسحاب، وأدى انسحابهم هذا بالقيادة البريطانية أن تقرر استكمال هجماتها، وكانت هناك احتياطيات بريطانية في الطريق الأمر الذي جعل القيادة العثمانية تتخلى عن فكرة التمسك بسامراء على الرغم من إمكانية كسر موجات الهجوم البريطاني عن طريق الدفاع المستميت، وخصوصًا في ظروف الحر القائظ الذي كان يفتك بالبريطانيين، علاوة على أن العثمانيين كان بمقدورهم ضخ قوات جديدة وبأعداد قد تحدث فارقًا في ميزان القوة في منطقة العراق خصوصًا مع الأخذ في

الاعتبار أن البريطانيين لم يكن بإمكانهم ضخ المزيد من القوات في تلك الجبهة نظرًا لظروف القتال في الجبهة الغربية والتي كانت تستنزف معظم طاقتهم وجهدهم، في الحقيقة كانت كل تلك الظروف وبحسابات بسيطة كفيلة مع الوقت والاستماتة في الدفاع ثم التحول في مرحلة مناسبة إلى الهجوم عندما تضعف القوات البريطانية كفيلاً بتحقيق النصر للقوات العثمانية على القوات البريطانية إلا أن القيادة العثمانية المتراخية في تلك المنطقة فضلت تقديم سامراء للبريطانيين على طبق من فضة بعد أن أضاعوا فرصة تلو الأخرى لدحر البريطانيين، وفي الثالث والعشرين من أبريل قامت القوات العثمانية بإخلاء المدينة وترك سككها الحديدية لتقع بدون رصاصة واحدة في أيدي القوات البريطانية، ونجح البريطانيون في نهاية الأمر في الاستيلاء على سامراء بدون جهد يذكر، حيث تخلى العثمانيون عنها جزءا تلو الآخر حتى سقطت في أيدي البريطانيين، ويقدر عدد القتلى البريطانيين في الهجوم على سامراء بحوالي ثمانية عشر ألف قتيل علاوة على أربعين ألفاً سقطوا صرعى المرض والإعياء، وقد أجبر حجم تلك الخسارة القيادة البريطانية على وقف هجماتها في الصيف حيث الحر اللافح الذي قد يقضي على الكثير من القوات البريطانية، وإعادة تجميع قواتها التي لم تتعود على القتال في مثل ذلك الجو، وإرجاء هجماتها إلى الخريف من نفس العام، فلم يكن في إمكان القيادة البريطانية دعم القوات الموجودة في العراق بقوات أخرى حيث إن ذلك يعني إضعاف الجبهة الغربية بسحب المزيد من القوات منها، وكان البريطانيون يرغبون وبشدة في تقليص العمليات العسكرية في مسرح العراق حتى يتم الاستفادة بتلك القوات في تدعيم الجبهة الغربية، ولكن ذلك الغرض بدا بعيد المنال في ظروف القتال تلك.

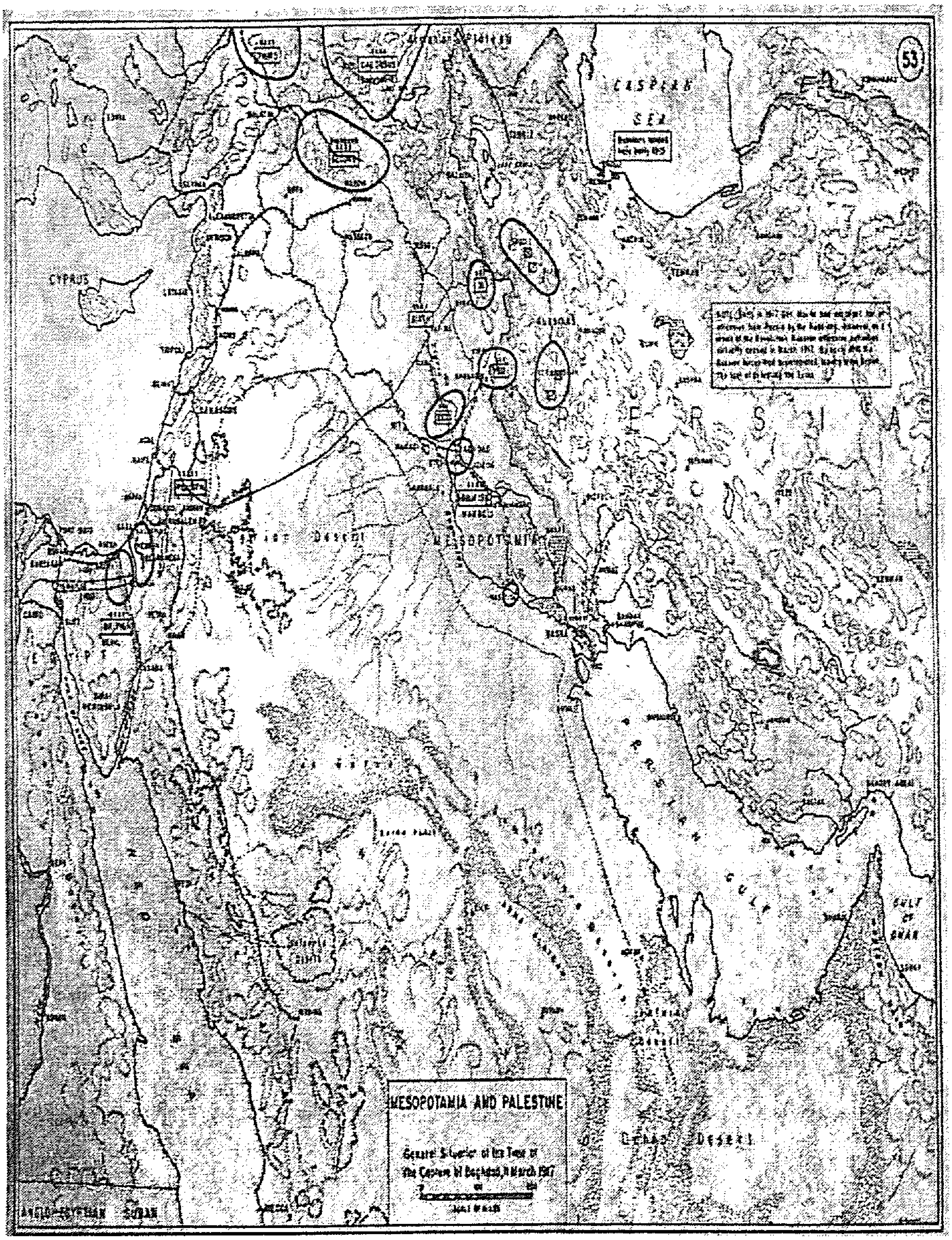

خريطة تبين مواضع تقدم القوات البريطانية

في وجه القوات العثمانية التي اتخذت جانب الدفاع

الفصل السابع

معارك فلسطين وسيناء

معارك سيناء

تمهيد

دارت معارك غزة بين قوات المحور ممثلة في الدولة العثمانية وبين الحلفاء بقيادة إنجلترا، وقد أحدثت تلك الحرب نوعًا من الاضطراب في وضع مصر إذ كانت من ناحية الشرعية تتبع الدولة العثمانية، وفي نفس الوقت ترسف في أغلال الاحتلال البريطاني منذ أن دخل الجيش البريطاني مصر في عام1882، وعند دخول الدولة العثمانية للحرب ضد إنجلترا أعلن السلطان العثماني الجهاد ضد الانجليز، وطالب رعايا الدولة العثمانية في الدول العربية بمهاجمة البريطانيين وخصوصًا مصر، وقامت إنجلترا بإجراءات مضادة فقامت على الفور بعزل السلطان عباس حلمي سلطان مصر المعادي الذي كان يكن كراهية شديدة للإنجليز وأحلت محله السلطان حسين كامل، وكان لمصر وضع بارز من الناحية الإستراتيجية نظرًا لموقعها الجغرافي ووجود قناة السويس بها حيث تربط بين البحرين الأحمر والمتوسط، وبالتالي تربط بين انجلترا ومستعمراتها في الهند وآسيا، وكذلك تتصل مصر بريًّا بمنطقة الشام عن طريق شبه جزيرة سيناء، وكانت استعادة الدولة العثمانية لمصر وطردها للإنجليز يشكل خطرًا كبيرًا تخشاه إنجلترا، إذ أنها بذلك تقطع الطريق على بريطانيا

لاستغلال مستعمراتها في الهند، ويفقدها عنصرًا مهمًّا من القوات التي كانت تعتمد عليها، حيث كان جزء كبير من الفيالق البريطانية من جنود المستعمرات وخصوصًا الهند وشرق أفريقيا، كما أنها بذلك تسد الطريق على بريطانيا لاستغلال مصافي البترول في عبادان على شط العرب الأمر الذي يحرمها من البترول الذي استبدلته بالفحم لتزويد قواتها البحرية بالوقود، مما يؤثر سلبًا على أسطولها ويضعفه بشكل كبير خاصة إذا علمنا مدى التهديد الذي كانت تشكله الغواصات الألمانية في تلك الفترة على الأسطول التجاري والحربي البريطاني، ومن ناحية أخرى كانت استعادة الأتراك العثمانيين لمصر وشغل القوات البريطانية الموجودة بها في معارك طويلة مما يشكل استنزافًا رهيبًا للقوات البريطانية، ويشغل جزءًا كبيرًا من قواتها عن القتال الدائر في أوربا آنذاك مع القوات الألمانية، مما قد يضعف قوات الحلفاء التي كانت تعتمد بشكل كبير على المشاركة البريطانية لاستمرار جيوش الحلفاء الأخرى في القتال، وتحديدًا الفرنسيين، باختصار كان فقد الإنجليز للسيطرة العسكرية على مصر يمثل خسارة لا يمكن تعويضها وقد تتسبب في فشل إنجلترا عسكريًّا في أوربا الأمر الذي حتم على القيادة البريطانية أن تقوم بدفع قواتها إلى سيناء لمجابهة القوات التركية العثمانية في الشام، حيث كان هذا التقدم سيهدد بشكل كبير القوات العثمانية الموجودة في الأناضول خصوصًا إذا اقترن ذلك بهجوم أوربي من الناحية الأخرى في اليونان.

هجوم السويس

وقد حدث فعلاً أن تحركت قوات تركية عثمانية في الرابع عشر من يناير1915 من بئر سبع، واجتازت شبه جزيرة سيناء سرًّا بقوات قوامها اثنان وعشرون ألف رجل بقيادة وزير البحرية العثمانية في ذلك الوقت جمال باشا، وقد قامت مقدمة هذه القوات بعبور القناة في الثاني من

فبراير عند الإسماعيلية مستخدمة معدات عبور ألمانية بهدف الاستيلاء على قناة السويس، ولحماية مصالحها في قناة السويس كانت بريطانيا قد حشدت سبعين ألفًا من الجنود تحت القيادة العامة للميجور جنرال سير جون ماكسويل John Maxwell، وكانت معظم فرق ذلك الجيش من الجنود الهنود علاوة على الفرقة الثانية والأربعين وفيلق الأنزاك الأول، وكان يتمركز في مصر من جنوده ثلاثون ألفًا، وهؤلاء هم الذين كانوا مسئولين عن المواقع الدفاعية التي أقامها البريطانيون بطول قناة السويس، وكان أمام القوات العثمانية أن تسلك طريقًا من ثلاثة طرق لتصل إلى قناة السويس عبر شبه جزيرة سيناء.

أ- التقدم على الطريق الساحلي والذي كان سيوفر الإمداد بالمياه، ولكنه كان سيكون في مدى مدفعية سفن الأسطول البريطاني.

ب- طريق في الوسط من بئر سبع إلى الإسماعيلية

ت- طريق جنوبي بين القصيمة وقناة السويس.

ووقع الاختيار على طريق الوسط حيث سيوفر طريقًا واضحًا للقوات العثمانية.

المعركة

كانت فرقتان عثمانيتان بالإضافة إلى فرقة أخرى احتياطية على الاستعداد للانطلاق في منتصف يناير، واستغرق تقدم القوات العثمانية في سيناء عشرة أيام مرورًا بأم خشيب وكانت طائرات الاستطلاع البريطانية تتابع تقدمها بالإضافة إلى توفر معلومات تفصيلية لدى البريطانيين عن تحركات القوات العثمانية من جواسيسها، وكان هؤلاء المراقبون قد شاهدوا تشكيلاً كبيرًا من القوات في الثامن والعشرين من يناير، واتخذت إثر ذلك السفن البريطانية والفرنسية مواقعها في قناة السويس، وفتحت النار على

القوات العثمانية أثناء تقدمها واشتبكت مفارز من القوات المتحاربة بشكل متفرق في الثاني من فبراير، ولكن هبوب عاصفة رملية منع حدوث اشتباك كبير بين القوات، ونفذ العثمانيون في الساعات الأولى لليوم التالي هجومهم الرئيسي باستخدام القوارب والأطواف، وعبرت القوات العثمانية إلى الضفة الشرقية للقناة وواجهوا نيران الرشاشات الآلية البريطانية والهندية التي قطعت القوارب في المياه ومزقت الجنود العثمانيين المتجمعين على حافة الضفة الشرقية للقناة، وفوجئت القوات العثمانية بعنف النيران وسيطر عليها الذعر لدرجة أن البعض منهم استسلم للنجاة بحياته ودمر ذلك أي امل في نجاح الهجوم، وفي السادسة صباحًا شنت القوات العثمانية هجومًا جديدًا وتم القيام بهجمات تضليلية هذه المرة إلى الشمال من منطقة العبور، وواجهت القوات البريطانية بالإضافة إلى مدافع السفن الفرنسية والبريطانية في القناة الهجوم العثماني، وتلاشى الهجوم العثماني وفشل بالكامل وصدرت الأوامر بالقيام بانسحاب كامل، وتم تنفيذه بالفعل، وانسحبت القوات العثمانية التي أنهكتها المعارك والجوع والعطش إلى بئر سبع بدون أية مضايقات أو تعرض من القوات البريطانية.

نتائج المعركة

كان الهجوم على قناة السويس فاشلاً وخسرت القوات العثمانية فيه حوالي ألف وخمسمائة رجل، وإنه ولغرض شن هجوم على القوات البريطانية في مصر سيكون من الضروري للجيش العثماني أن يقوم بحشد قوات كبيرة بإمدادات كافية حيث إن المصريين لم يثوروا على القوات البريطانية الموجودة في مصر، كما كان العثمانيون يأملون بعد أن أعلن السلطان العثماني الدعوة لجهادهم وبالرغم من هزيمة القوات العثمانية إلا أن البريطانيين أيقنوا انه من قبيل المخاطرة أن يعتمدوا على قناة السويس

كخط دفـاع وقـاد الجنـرال الألمـانى فـون كرسنشـتاين von Kressenstein رئيس أركان جمال باشا قوة صغيرة لشن هجمات على القوات البريطانيـة المنتشرة بطول قناة السويس حتى يدفع البريطانيين إلى زيادة أعداد قـواتهم العاملة في مصر وبالتالي تقليل القوات التي يمكن للبريطانيين اسـتخدامها في جبهات أخرى كالجبهـة الغربيـة وجبهـة الـدردنيل، وبـالنظر إلى ذلـك الهدف فقد حققته القوات العثمانية تمامًا حيث اضطر البريطانيون في مصـر إلى الاحتفاظ بقوات أكبر مما كانوا يتوقعون في بداية الحرب.

معركة روماني

بعد هزيمة العثمانيين في هجوم القناة ورغبة البريطانيين في مـد خطـوط دفاعهم إلى منطقة أبعد من قناة السويس ونظرًا لغياب أي مصـدر ميـاه في وسط سيناء، كان قائد القوات البريطانيـة في مصـر الجنـرال سـير أرشـيبالد موراي Archibald Murray واثقًا بأن الهجوم العثماني المقبل سـيكون عـبر الطريق الشمالي، وعلى ذلك ركـز دفاعـه في منطقـة رومـاني وتم اختيـار موقع روماني لأنه كان يجعل القناة بعيدة عن مدى المدفعية، وفي يوليو من عام1916 أصدر السير جنرال لـورنس Lawrence قائـد القطـاع الشـمالي لدفاعات القناة أوامره لقواته المتكونة من الفرقة الثانيـة والخمسـين بحفـر خنادق على الحافـة الشـرقية لـتلال الرمـال في رومـاني، وكـان يسـتخدم الألوية الراكبة للقيام بأعمال الدوريـة والاسـتطلاع في الواحـة الواقعـة إلى الشرق، وقام كـذلك بإرسـال لـواء البنـادق النيوزيلنـدي الراكـب واللـواء الخامس الراكب ليعملا في قوات الفيلق، وتمركزا إلى الغرب من روماني في المنطقة التي كانت تعـرف باسـم التـل70، ويقودهـا الجنـرال النيوزيلنـدي تشيتور Chaytor وفي الثامن عشر من يوليـو وصـلت قـوة عثمانيـة كـبيرة تتكون من الفرقـة الثالثـة وبعـض المفـارز إلى منطقـة واحـة أوغراتينـا إلى

الشرق من روماني، ولم يتم اكتشاف تلك القوات العثمانية حتى وصولهم إلى تلك النقطة لأنهم تعمدوا السير إلى المنطقة ليلاً من فلسطين مرورًا بالعريش، وفي خلال الأسابيع القليلة اللاحقة قام العثمانيون بتعزيز مواقعهم تجهيزًا لهجوم كبير على الدفاعات البريطانية.

المعركة

كان الجنرال موراي قد توقع هجومًا إلى الشرق من المواقع المحصنة، وفي ليلة الثالث من أغسطس قامت قوات عثمانية يقدرها البريطانيون بثمانية آلاف جندي بتتبع اللواء الخيالة الثاني الخفيف عندما كان في طريق عودته إلى روماني من استطلاع نهاري، وبعدما تيقن قائد الموقع من أن الهجوم أضحى وشيكًا وضع لواء الخيالة الأول في خط دفاعي غير ثابت يمتد من قاطب جانيت عند الطرف الجنوبي لخندق المشاة، ويتجه إلى الشمال الغربي محاذيًا تلال الرمال، ويمر عبر كثيب رملي كبير يدعى جبل مريديث وينتهي في حوض الآنة، وكانت أعداد القوات العثمانية المهاجمة تفوق أعداد اللواء البريطاني إلا أن البريطانيين نجحوا في تعطيل القوات العثمانية في معركة التحمت فيها القوات العثمانية مع البريطانيين، وقام البريطانيون بالتخلي ببطء عن الأرض وبعد منتصف الليل في الساعة الثانية والنصف تقريبًا شن العثمانيون هجومًا بالسلاح الأبيض على جبل مريديث، وأخلى لواء الخيالة الخفيف الموقع في الثالثة صباحًا نظرًا لعنف الهجوم، ودفع العثمانيون القوات البريطانية إلى كثيب رملي كبير يعرفه البريطانيون باسم مرتفع ولينجتون Wellington عند الحافة الجنوبية لمعسكر روماني، وبعد أن تم تعطيل القوات العثمانية في جنوب روماني حاولت أن تقوم بمناورة التفاف إلى الغرب، وركزت حوالي ألفين من القوات حول تل رملي آخر يعرفه البريطانيون باسم جبل رويستون

Royston إلى الجنوب الغربي من روماني، وعند الفجر أرسل البريطانيون لواء الخيالة الثاني الخفيف للمعركة أمام تل رويستون، وكان التقدم العثماني ما يزال في مراحله الأولى في كل المواقع، وبعد مسيرة ليلية شاقة واجهت القوات العثمانية يومًا عصيبًا في حر النهار وبدون مصدر للمياه، وكذلك كانت القوات العثمانية مكشوفة أمام مدفعية روماني، وبعد الفجر بقليل نجحت القوات العثمانية في رد القوات المهاجمة على أعقابها بعيدًا عن تل ولينجتون، وجعلهم ذلك على مسافة حوالي سبعمائة متر من معسكر روماني، ولكن القتال طوال الليل كان قد استنزفهم إلى حد كبير وأرهقهم وعرضهم للقصف من مدفعية الخيالة، ولم يكن بمقدورهم أن يشنوا هجومًا إلى الأمام، وبمجرد أن علم الجنرال لورنس Lawrence بأن العثمانيين يحضرون لهجوم كبير أصدر الأمر إلى ألوية تشيتور Chaytor بالتقدم من تل70 للقيام بهجوم مضاد على الجنبة العثمانية، وواجه العثمانيون إلى الشمال من جبل رويستون فوجي الخيالة الخفيفة الثالث والسادس، وتحت وطأة القصف الذي لم ينقطع من مدفعية الخيالة والمدفعية الثقيلة للفرقة الثانية والخمسين، وهجوم قوات تشيتور من الغرب استسلمت القوات العثمانية بالجملة في حوالي السادسة صباحًا في الرابع من أغسطس وتوقف القتال تمامًا في ليلة الرابع من أغسطس، وفي فجر الخامس من أغسطس كانت أفواج الخيالة الخفيفة الأسترالية وفوج البنادق المحمول النويزيلندي والذي كان يتمسك بالخط المقابل لجبل ولينجتون قد قام بهجوم على المواقع العثمانية، وبحلول الساعة الخامسة صباحًا كانت قد أسرت أعدادًا من القوات العثمانية يقدرها البريطانيون بحوالي ألف أسير، ودفعوا ما تبقى من القوات العثمانية إلى التقهقر، وفي كل مكان على الجبهة كانت القوات العثمانية تنسحب أو تستسلم، وقاد ذلك في النهاية إلى فوز إنجلترا في المعركة التي دارت حول السيطرة على قناة السويس بجنود من الهند وأستراليا ونيوزيلندا.

معارك غزة

معركة غزة الأولى

عبر آلاف السنين كانت سيناء وغزة هي المعبر الذي تمر به أية جيوش تحاول غزو مصر، وأية جيوش مصرية تتقدم لغزو فلسطين لتأمين حدودها أو لإقرار الأمن هناك أو لملاقاة عدو على أرضه، وهي بوابة مصر الشمالية تمامًا كما حدث في معركة قادش بين رمسيس الثاني والحيثيين، وغيرها من المعارك، وقد فطن حكام مصر منذ القدم إلى تلك الحقيقة، فكان إرسال حملات استكشافية إلى سيناء أو حملات عسكرية إلى فلسطين أمرًا لابد من القيام به وواجبًا على كل من حكم مصر القديمة، ولم يغب ذلك عن أنظار المسلمين عندما فتحوا مصر في القرن السابع الميلادي فكان تأمين فلسطين عسكريًّا يعني تأمين مصر، والعكس، وكانت الجيوش الإسلامية التي تخرج لتحرير فلسطين في الحروب الصليبية تلاقي أعداءها من الصليبيين في فلسطين، وكذلك كان الحال مع التتار، فكل منهما مفتاح لأمن واستقرار الأخرى، وتولى العثمانيون زمام الأمور وانتقل مركز الخلافة إلى اسطنبول، ولم تغب تلك الحقيقة عن أذهان السلاطين العثمانيين، وفي أواخر أيام الإمبراطورية العثمانية أقام العثمانيون خطًا دفاعيًّا يمتد من الساحل في غزة إلى بئر سبع بعمق ثمانية وأربعين كيلومترًا تقريبًا، وكانت طبيعة الأرض هناك تعطي ميزة لأية قوات مدافعة، وكذلك كانت هناك خطوط لإمداد القوات بالماء قريبًا من بئر سبع وتقع غزة على هضبة منخفضة على بعد ميلين من ساحل البحر الأبيض المتوسط، ويفصل بينهما إلى الغرب قريبًا من الشاطئ رمال كثيفة، وإلى الشرق كان هناك مرتفع وترتفع قمته إلى ثلاثمائة قدم ويدعى علي منطار، وقريبًا حول المدينة وبطول المرتفع كانت هناك حقول مزروعة يتاخمها سور من شجيرات الصبار الأمر الذي كان مثاليًّا للدفاع ولعمل الكمائن، وفي مارس من عام 1917 نقل موراي إلى قادته رغبته في الاستيلاء على غزة

وخصوصًا أن قواته كانت تتمركز في سيناء إلى الجنوب من غزة بعد معركة روماني وكان يتم إمدادها عن طريق خط السكك الحديدية الذي يمتد من مصر، وكذا حيوانات الحمل والعربات، وذلك لنقل الاحتياجات اللازمة، وكان ما يدفعه ويحمسه نحو قراره هذا أنه كان يعتقد أن القوات العثمانية ستقوم بالانسحاب إلى خط دفاعي ثان بين يافا والقدس، وكانت تقديرات البريطانيين لحجم القوات العثمانية في منطقة غزة بئر سبع حوالي خمسة عشر ألف جندي منهم أربعة آلاف على وجه التقريب متمركزين في غزة نفسها، وكان يحتمل وجود ألفين في بئر سبع والباقون يتمركزون بطول الخط الدفاعي، وكانت القوات البريطانية التي شاركت في الهجوم حوالي اثنين وعشرين ألفًا، وكانت تضم الفرقتين الثانية والخمسين والثالثة والخمسين، وبكل منهما لواءان من قوات الأنزاك الأسترالية بالإضافة إلى فرق محمولة ولواء الهجانة.

المعركة

كان مقررًا أن يكون الهجوم على غزة هجومًا سريعًا بكل الوحدات المتاحة بما فيها المدفعية على أن يتم الهجوم ليلاً بعد اجتياز وادي الغز العميق في تمام الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل في السادس والعشرين من مارس، وعطلته سحابة من الضباب الكثيف والتي لم تنقشع حتى الساعة الثامنة صباحًا، وكان على الفرقة الثالثة والخمسين أن تضطلع بالهجوم تحت قيادة الميجور جنرال دالاس Dallas مدعومة بلواء واحد، وهو اللواء مائة وواحد وستون من الفرقة الرابعة والخمسين، وكان على الفرقتين المحمولتين أن توفر غلالة من القوات على الأجناب، تقوم فرقة الأنزاك بالإحاطة بغزة من الشرق والشمال بينما تقوم الفرقة الإمبراطورية المحمولة ولواء الجمال والتي ستتمركز على الجناح الشرقي

بمنع وصول التعزيزات العثمانية من الأجزاء الأخرى من خط غزة بئر سبع الدفاعي، وبالرغم من الضباب إلا أن الفرق المحمولة استكملت تطويقها لغزة بدون أية صعوبات بينما جعل الضباب الملاحة البرية شاقة إلا أنه مكن الخيالة من التحرك بحرية بدون أن يتم اكتشافهم من قبل عناصر الاستطلاع العثمانية، وباغت تقدم تلك القوات العثمانيين بشكل كامل، وتم تحطيم طائرتين على الأرض وتم تطويق عدد من المواقع العثمانية المعزولة، وتم أسر قائد الفرقة الثالثة والخمسين العثمانية ورئيس أركانها حينما كانا في طريقهما لقيادة حامية غزة، ومع ذلك كان تقدم المشاة أقل نجاحًا وكانت الخطة أن تقوم الفرقة الثالثة والخمسون البريطانية بعبور وادي غزة في الخامسة صباحًا لتحتل مواقعها لمهاجمة موقع علي منطار إلى الجنوب الشرقي من غزة بعد قصف تمهيدي من المدفعية، على أن يهاجم اللواء158 من الشرق واللواء160 من الغرب، ويكون اللواء159 احتياطيًا غير أن المشاة لم تصل إلى مواقعها قبل الثامنة والنصف صباحًا، وكذلك لم تبدأ المدفعية قصفها حتى الساعة التاسعة صباحًا، وفي ذلك الوقت كان البريطانيون قد فقدوا عنصر المفاجأة، وكان الجنرال دالاس مترددًا في بدء الهجوم، ويبدو أن ذلك كان راجعًا إلى عدم تأكده من حجم القوات العثمانية حتى أنه ترك مقر قيادته وذهب بنفسه ليستطلع ميدان المعركة، وغاب دالاس وضباط أركانه عن مقر القيادة لمدة ساعتين أو أكثر وفي تلك الأثناء كانت قيادته تحاول يائسة الاتصال به لتنقل له الأمر بالبدء في الهجوم على الفور، وكانت رؤية دالاس للغبار الثائر عن بعد قد أدخلت في روعه أن هناك تعزيزات عثمانية في الطريق، الأمر الذي زاد من توتره، وجعله أكثر ترددًا في القيام بالهجوم، ولكن فيما بعد اتضح أن تقديره لم يكن صحيحًا، وبعد حوالي خمس ساعات بدأ دالاس هجومه بالمشاة، وكان اللواء161 يقوم بدعمه مع مدفعية الفرقة الرابعة والخمسين في الساعة الواحدة ظهرًا، وفي تلك الأثناء وحيث ضوء النهار قد بدأ في

التلاشي أصدر تشيتود Chetwode أوامره إلى تشوفيل Chauvel قائد فرقة الأنزاك المحمولة بالهجوم على غزة من الشمال والشرق بلواءين محمولين قبل أن يحل الليل، وحتى لا تنشأ مشكلة في الإمداد بالماء ليلاً للجياد عندما تصل إلى غزة وتضطر للعودة للتزود بالماء والطعام تاركة قوات المشاة خلفها وجانبها الشرقي مكشوف مع وجود ثغرة كبيرة بين لواءي الفرقة الرابعة والخمسين، وكانت المشاة تهاجم عبر أرض مفتوحة تمتد لمسافة أربعمائة ياردة تحت وابل من قصف مدفعي عثماني شديد ومستمر، حيث استبسل جنود المدفعية العثمانيون في القتال للدفاع عن المدينة من خطر السقوط في أيدي البريطانيين، وعندما اقترب خط المشاة لمسافة ألف ياردة من موقع علي منطار فتح العثمانيون النار من رشاشاتهم الآلية وبنادقهم على القوات المهاجمة، وبدأ هجوم المشاة يتداعى فأرسل دالاس قواته الاحتياطية في الساعة الواحدة متمثلة في اللواء159، وعند الساعة الثالثة وصل بعض البريطانيين إلى نطاق الصبار على سفح تل علي منطار، وبدأت معركة التحمت فيها القوات البريطانية المهاجمة مع القوات العثمانية وفي الساعة الرابعة وعشرين دقيقة تقريباً أرسلت الفرقة الاحتياطية161 البريطانية للهجوم على التل بثلاث كتائب منها، ونجحت في الاتصال بالمشاة وواصلت الهجوم، وتم دفع القوات العثمانية بعيداً عن التل في بداية الليل، وقاموا بتنفيذ انسحاب منظم باتجاه مدينة غزة، وبعد الواحدة صباحًا بقليل كانت الفرقة الثانية خيالة خفيفة الأسترالية وفرقة البنادق النيوزيلندية المحمولة قد تحركتا باتجاه غزة من الشمال والشرق، وكانت القوات العثمانية قد اطمأنت إلى الهدوء النسبي الذي ميز نشاط تلك الألوية فسحبوا قوات من تلك الأجناب لمواجهة القوات البريطانية التي تهاجم من الجنوب، ونتيجة لذلك أصبح الجنود قادرون على السير والاقتراب من غزة قبل أن ينزلوا من على الجياد ويتحركوا بين شجيرات نطاق الصبار، وفي السادسة صباحًا أصبحت المواقع العثمانية في موقف

خطير، حيث بدأت الحلقة تضيق حول غزة غير أن دوبل Dobell وتشيتود Chetwode قررا إنهاء الهجوم والانسحاب بعد ان تكبدت القوات البريطانية المهاجمة أربعة آلاف قتيل فقط عند تليعلى منطار، حيث كانت الهجمات المضادة العثمانية من الشراسة بحيث أفشلت كل المحاولات البريطانية للاستيلاء على التل، وبعد أن أيقن أن الدفاع العثماني المستميت لن يترك للقوات البريطانية أي احتمال في الفوز في تلك المعركة.

نصر عثماني

صور كل من دوبل Dobell وقائده الأعلى الجنرال موراي المعركة على أنها نصر للقوات البريطانية في التقرير الذي بعثا به إلى مكتب الحرب البريطاني، بل إنهما تلقيا التهنئة من الملك على نجاحهما، بل وطلب إلى موراي التقدم داخل فلسطين واحتلال القدس!!!! وفيما بعد أرجعا سبب انسحابهما إلى التعزيزات العثمانية التي كانت في الطريق، وكانت تقدر حسب الأرقام البريطانية بسبعة آلاف رجل والتي كانت تهدد القوات البريطانية وإلى أن جياد القوات المحمولة لم تسترح أو تشرب الماء طيلة اليوم، وفي الواقع فإن الحجة التي تذرعا بها من أن الجياد ظلت عطشى طوال اليوم تفندها حقيقة أن القوات المهاجمة كان لديها مصدر للمياه في ميدان القتال نفسه، ولم تكن بحاجة إلى الراحة، وخيبت الهزيمة التي منيت بها القوات البريطانية من آمال الجنرال موراي وقضت على طموحاته في احتلال فلسطين في تلك المحاولة، وفي المحاولة الثانية التي قامت بها القوات البريطانية لاحتلال غزة في التاسع عشر من أبريل قد ووجهت بخط دفاع أقوى بكثير من ذلك الذي كان يحيط بغزة أثناء المحاولة الأولى، وكانت تلك المواجهة ضربة شديدة للجيش البريطاني حيث إنها أثرت على القوات البريطانية لدرجة أبعد من الحدود المتصورة، حيث تكبدت تلك

الأخيرة خسائر فادحة في ذلك الهجوم، وعلى الناحية الأخرى رفع ذلك النصر من معنويات القوات العثمانية كثيرًا.

معركة غزة الثانية

كان لا بد للبريطانيين بعد فشل الهجوم الأول على غزة أن يعاودوا الهجوم عليها مرة أخرى وخصوصًا بعد أن كذبوا على مكتب الحرب في لندن، وصوروا إخفاقهم أول مرة على أنه نجاح للقوات البريطانية، وكان دوبل يخطط لهجوم من تلك الهجمات التقليدية التي تميزت بها الجبهة الغربية حيث يسبق الهجوم يومان من التمهيد المدفعي يتبعهما هجوم أمامي للمشاة على خنادق القوات العثمانية، وكان القادة البريطانيون الآخرون أقل تفاؤلاً بنجاح ذلك الهجوم في كسر الخطوط الدفاعية العثمانية، بينما وعلى الجانب الآخر كان نجاح القوات العثمانية في الدفاع عن غزة، ورد البريطانيين على أعقابهم في المعركة الأولى سببًا في تخليهم عن فكرة الانسحاب إلى خط الدفاع الثاني يافا - القدس، ونتيجة لانعدام عنصر المفاجأة هذه المرة حيث كانت قيادة القوات العثمانية تتوقع هجومًا فقد اتخذ البريطانيون عدة إجراءات، وكان عنصر المشاة في قوات دوبل قد بدأ في التطور والتوسع منذ معركة غزة الأولى، حتى أصبحت تشكيلات المشاة تتكون من أربع فرق؛ الفرق الثانية والخمسين والثالثة والخمسين والرابعة والخمسين علاوة على الفرقة الرابعة والسبعين التي تم تشكيلها حديثًا والتي اعتمدت في تشكيلها أساسًا على فرق الخيالة التي تم حلها واستخدام أفرادها كجنود مشاة، وكان العنصر المتحرك ما يزال متكونًا مما كان يعرف بعمود الصحراء، والمتكون من فرقة الأنزاك الراكبة والفرقة الإمبراطورية الراكبة، علاوة على لواء من فيلق الهجانة الإمبراطوري، وكان مقررًا أن تبقى الفرقة الرابعة والسبعين احتياطيًا

للقوات أثناء المعركة، وكانت القوات العثمانية تتكون من الفرقة الثالثة التي كانت تحتل غزة، والفرقة السادسة عشرة في تل الشريعة، والفرقة الثالثة والخمسين في بئر سبع والآلاي79 من الفرقة الثالثة ويحتل المسافة بين الفرقة الثالثة والفرقة السادسة عشرة، وكان تسليح الجنود العثمانيين ضعيفاً مقارنة بتسليح القوات البريطانية المهاجمة، حيث كان الجنود مسلحين بحوالي ألف وخمسمائة سيف وثمانية عشر ألف بندقية، وكان عدد المدافع التي بحوزة القوات العثمانية لا يزيد عن مائة وواحد مدفع، وتميزت تلك المعركة باستخدم البريطانيين للغازات السامة التي كان يشيع استخدامها على الجبهة الغربية، وكذلك استخدموا الدبابات، وكانت تلك أول مرة يتم فيها استخدام الدبابات في مسرح عمليات المنطقة العربية، وقام البريطانيون بتجهيز حوالي ألفي قذيفة غاز وست دبابات، وعلى الرغم من ذلك كان البريطانيون يشكون في فعالية قذائف الغاز حيث كان هناك احتمال ألا تكون قذائف الغاز تعمل بكفاءة، وليس بسبب الاعتبارات الإنسانية كما أشاع البريطانيون فيما بعد، وتم تدريب القوات على العمل بشكل مشترك مع الدبابات وقامت الطائرات البريطانية بالتقاط صور للمواقع التي قام العثمانيون بتحصينها، وكانت القوات العثمانية التي تحتل خط غزة - بئر سبع الدفاعي تقدر بحوالي من عشرين إلى اثنين وعشرين ألفاً، وكان العثمانيون قد قاموا بتقوية الخط الدفاعي منذ معركة غزة الأولى تحسباً لهجوم بريطاني وشيك، وكانت قلعة غزة تقوم بدور الدفاع على الجناح الغربي للخط الدفاعي، وعلى ناحية الشرق كانت هناك مجموعة من التحصينات الواقعة على مرتفعات حيث كان كل تحصين يوفر قوة نيرانية تمكنه من الدفاع عن التحصين الذي يليه بينما كانت الأراضي المنخفضة بين التحصينات غير محتلة، أو يحتلها عدد قليل من القوات قليلة الكثافة، وكانت تلك التحصينات من الغرب إلى الشرق هي دبابة وعطاوينة وهريرة وشريعة، وخلف دفاعات الشريعة

كانت الدفاعات قليلة الكثافة حتى مدينة غزة، وبسبب ندرة المياه في ذلك الطريق كان العثمانيون يعتقدون أن الهجوم عليها يمكن أن يتم بأية طريقة اللهم إلا الهجوم بالخيالة.

الهجوم

بدأ الهجوم الثاني على غزة في السابع عشر من أبريل بقصف مدفعي شديد على التحصينات العثمانية، واستمر ذلك القصف لمدة يومين، واستخدم البريطانيون مائة وسبعين مدفعًا من العيار الثقيل للقصف بمساندة نيرانية من قطع بحرية فرنسية وبريطانية عند الساحل من الطراد الفرنسي ريكان Requin بالإضافة إلى بارجتين بريطانيتين أخريين، وبالرغم من أن القصف كان في غاية العنف إلا أن تأثيره على المواقع الدفاعية والتحصينات العثمانية كان ضئيلاً، وفي التاسع عشر من أبريل بينما كان هجوم المشاة يوشك أن يبدأ قصفت المدفعية البريطانية المواقع العثمانية في جنوب شرق غزة وتل منطار، وشمل القصف إطلاق دانات الغاز على الخنادق التي يتحصن بها الجنود العثمانيون وذلك للمرة الأولى في المنطقة العربية، وكانت النتيجة التي حصل عليها البريطانيون من جراء ذلك القصف هو تحذير القوات العثمانية بقرب إطلاق هجوم بريطاني كبير، ومنح ذلك العثمانيون فسحة من الوقت لاستكمال دفاعاتهم، وكان من العيوب التي شابت عملية القصف المدفعي البريطاني أن كل القصف تركز على الدفاعات والمواقع الحصينة ولم تتركز على مدافع وبطاريات المدفعية العثمانية، وأتاح ذلك للعثمانيين أن يطلقوا النار بحرية على خطوط القوات البريطانية، وكانت قوات المشاة قد تقدمت إلى مواقعها على مرمى حجر من غزة في صباح السابع عشر من أبريل، وظلوا هناك حتى انتهت مرحلة القصف المدفعي في التاسع عشر من أبريل، ودمرت إحدى

الدبابات هناك قبل أن يبدأ الهجوم، وفي الساعة السابعة وخمسة عشر دقيقة صباحًا تقدمت الفرقة الثالثة والخمسون إلى أقصى الغرب من الجبهة بهدف الوصول إلى الكثبان الرملية بين غزة وساحل البحر الأبيض المتوسط، وتبعها بعد ذلك بقليل اللواءان155 و156 من الفرقة الثاية والخمسين والتي هاجمت في الوسط عند تل منطار، واللواءان161 و162 من الفرقة الرابعة والخمسين والتي هاجمت على اليمين بين غزة وتحصين دبابة، وبطول الجبهة التي تقدمت عليها القوات البريطانية توقفت القوات قبل أن تصل إلى أهدافها، حيث شدد العثمانيون من نيرانهم على القوات المهاجمة من مدافع الماكينة وبطاريات مدفعيتهم، وبحلول الظهر وفي الساعة الثالثة تقريبًا كان البريطانيون قد خسروا ما يزيد على ستة آلاف وأربعمائة قتيل من قواتهم نتيجة لشراسة وصلابة الدفاع، وكان الهجوم البريطاني قد تداعى عند كل النقاط التي تتقدم عليها القوات، وكانت المكاسب التي تم تحقيقها قليلة للغاية، واحتفظت نيران مدفع الماكينة القوات المهاجمة على مسافة من الدفاعات العثمانية، حيث كلما اقتربوا كلما زادت خسائرهم ولم ينجح البريطانيون إلا في صد هجومهم المضاد في الغرب عندما حاولوا استعادة موقع كان البريطانيون قد احتلوه، وفي الثالثة وكانت القيادة البريطانية قد اعترضت رسالة من غزة تفيد بأن حامية غزة ليست بحاجة إلى تعزيزات، وقبل ذلك كان البريطانيون قد ألقوا بكل احتياطياتهم في الهجوم، وافترضوا أن الرسالة لم تكن خدعة وكان من الجلي أمامهم الآن أنه لا توجد أدنى فرصة للنجاح إذا عاودوا الهجوم، وكان مقررًا وفقًا للخطة الأولى أن يتم استئناف الهجوم في صباح اليوم التالي بالفرقة التاسعة والسبعين، وكان القرار الذي توصلت إليه القيادة البريطانية هو تأجيل الهجوم لمدة أربع وعشرين ساعة، ثم بعدها اتخذوا قرارًا بإلغائه كليًا، بينما كانت القوات العثمانية ما تزال تحتفظ باحتياطياتها، وتحت ضغط الهجمات المضادة العنيفة التي شنتها القوات

العثمانية رأى القادة البريطانيون أن الدفع بأية قوات أخرى لـن يـؤدي إلا إلى زيادة خسائرهم، وكانت ذخائر المدفعية البريطانية في تناقص مستمر مما أدى بهم إلى وقف الهجوم تمامًا بعد أن بـاء بالفشـل، ولم يكـن أمـامهم إلا انتظار تعزيزات جديـدة، حيـث كـان أي هجـوم كـبير يشـنه البريطـانيون سيؤدي إلى كارثة محققة، وكان جل مـا يشـغل بـال البريطـانيين الآن هـو الهجمات المضادة العثمانية ولكن ذلك لم يحدث.

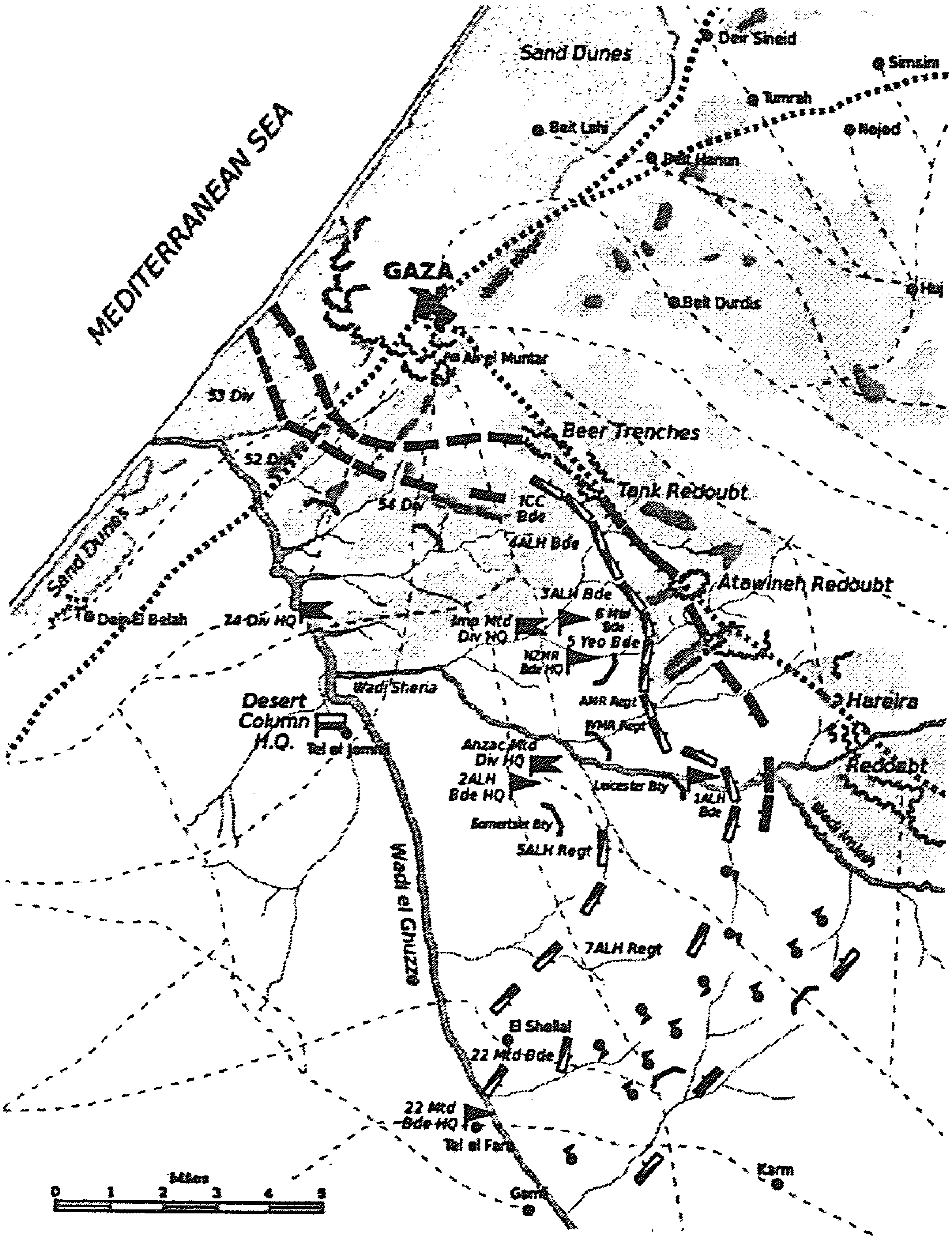

اتجاه الهجوم البريطاني على غزة حتى الساعة الثانية

معركة غزة الثالثة

كان سقوط فلسطين في قبضة الجيوش البريطانية مهمًّا جدًّا لبريطانيا من الناحية الإستراتيجية حيث تسبب انهيار الجبهة الروسية وخروج روسيا من الحرب في تحرير أعداد كبيرة من القوات العثمانية التي كانت تقاتل هناك حتى أنهم حشدوا قوات كبيرة في حلب استعدادًا للانقضاض على بغداد واستعادتها من البريطانيين، وكان ذلك يعني توجيه قوات بريطانية كبيرة إلى العراق، وكانت هزيمة البريطانيين للقوات العثمانية في فلسطين تعني استدراج القوات المحتشدة في حلب، وبذلك تتفادى بريطانيا النتائج التي من الممكن أن تترتب على استعادة العثمانيين لبغداد، ومن ناحية أخرى كان موقف القوات العثمانية قد تدهور إلى حد كبير، حيث سحبت أقوى تشكيلاتها لتقاتل مع ألمانيا في الجبهة لشرقية ضد روسيا ورومانيا، وفقدت بغداد ثم مكة فيما بعد نتيجة للهجوم الذي شنته القوات التي يقودها الشريف حسين في الحجاز، وبذلك اهتزت مكانة الدولة العثمانية إلى حد بعيد لدى المسلمين في البلاد التابعة لها في ذلك الوقت، وعلى ذلك كانت تلك المعركة علامة تاريخية حاسمة يحصد الفائز فيها كل المجد بينما يخسر المهزوم كل شيء.

الخطة البريطانية

في مايو عام1917 خط الجنرال تشيتود والذي قد عين خلفًا لـدوبل في يومياته ملحوظات عن حملة فلسطين والتي أصبحت فيما بعد خطوطًا ارشادية للجنرال اللنبي Allenby الذي استلم القيادة في مسرح فلسطين، وكان من ضمن تلك الملاحظات أنه هناك ثمة تكافؤ بين القوات البريطانية والعثمانية، ولكن البريطانيين يتفوقون في المدفعية بينما يتفوق العثمانيون في دفاعاتهم، وكان البريطانيون يتفوقون في أعداد القوات الراكبة، وبالتالي

كان تشيتود يطرح فكرة استئناف الهجوم الأمامي على غزة باستخدام المشاة، فحتى لو تم الاستيلاء عليها فإن أي تقدم سيهدده وجود القوات العثمانية في الجناح الشرقي، وكانت أضعف نقطة في الدفاعات العثمانية هي الجناح الشرقي في أقصى اليسار عند بئر سبع، والتي تبعد حوالي تسعة وأربعين كيلومترًا من الساحل، ونتيجة لقلة الماء في المنطقة فإن القيادة العثمانية كانت تعتقد بأنه من المستحيل شن هجوم كبير بقوات راكبة على ذلك الجناح، لذلك كانوا يكتفون بفرقة واحدة للدفاع عنه، غير أن تشيتود كان ينظر للقيمة العسكرية الكامنة في ذلك القطاع نتيجة لقلة كثافة القوات المدافعة به، فإنه القطاع الوحيد الذي قد يمنح البريطانيين فرصة لفتح ثغرة في الدفاعات العثمانية عن طريق قوات تهاجم على مجنبة القوات، هناك يمكن للبريطانيين أن يحاولوا تطويق القوات القوات العثمانية في غزة بالضرب، ويقوموا بالهجوم من الغرب باتجاه الساحل وقطع طريق السكك الحديدية الذي يمثل شريان الإمداد للقوات العثمانية، وعند التفكير بتلك الطريقة أصبحت المشكلة هي كيفية إمداد قوات تهاجم في الشرق وتوصل البريطانيون لحل وهو ملء الآبار الرومانية القديمة بالماء وإصلاح الآبار التي كانت القوات العثمانية قد دمرتها، ومحاولة حفر آبار فرعية، وفي تلك الأثناء قام البريطانيون بمجهودات كبيرة لإقناع القوات العثمانية بأن الهجوم القادم سيكون على غزة، بينما حاولوا الاحتفاظ بسرية استعداداتهم في الشرق، وكان على الفيلق الحادي والعشرين أن يظهر أمام غزة بدون أن يهاجم وللأسف خدعت القوات العثمانية بتلك الحيل البريطانية لدرجة أنه عندما هاجم البريطانيون بئر سبع بفيلقين وبفيلق الصحراء الراكب في التاسع والعشرين من أكتوبر ظل العثمانيون مقتنعين بأن ذلك الهجوم ما هو إلا مناورة صغيرة يقصد بها التطويق تقوم بها فرقة مشاة وفرقة خيالة، وأن الهجوم الرئيسي سيتم شنه ضد غزة، وكان على البريطانيين أن يقوموا بهجمات

بالمشاة من الفيلق الحادي والعشرين في الثاني من نوفمبر على غزة، وفي الرابع من نوفمبر على تحصين شريعة في الطرف الغربي لخط التحصينات في منتصف الطريق تقريبًا بين غزة وبئر سبع، وفي ذلك الوقت كان يجب أن يقنع الضغط على منطقة بئر سبع العثمانيين بتحريك احتياطياتهم من غزة.

بئر سبع

كان نجاح البريطانيين يتوقف على احتلال بئر سبع في اليوم الأول فيقوم الفيلق العشرين بالهجوم من الغرب بينما تقوم القوات الراكبة من فيلق الصحراء بالهجوم من الجنوب والشمال والشرق، وكانت أول مرحلة من هجوم المشاة هي الاستيلاء على المواقع الموجودة على حافة المدينة، وكانت القوات البريطانية تتمتع بالتفوق في المدفعية والتي تم استخدامها لهدم الخنادق العثمانية، ولتوفير الدعم النيراني ضد المدفعية النمساوية التي كانت تعمل إلى جانب العثمانيين في تلك المنطقة، وبدأ الهجوم بمحاولة للاستيلاء على المواقع العثمانية شرق بئر سبع، وتوقف الهجوم عند حصن تل السبع، وقبل أن يقع ذلك الحصن كان الهجوم قد بدأ متأخرًا عدة ساعات عن وقته المقرر، وبدا أن فرصة شن هجوم المشاة المشترك على المدينة قبل حلول الليل ضعيفة وعندئذ أمر تشوفيل قائد فيلق الصحراء الراكب ببدء الهجوم، وتم الهجوم على ثلاث موجات عبر أربعة أميال من الأرض المكشوفة تحت نيران بطاريات المدفعية ومدافع الماكينة العثمانية، ومن عنف الهجوم كان جنود المشاة العثمانيون يوجهون نيرانهم بشكل خاطئ على القوات المهاجمة، ونجح الهجوم بشكل كبير، وكانت خسائر القوات المهاجمة قليلة، وسرعان ما انهارت المقاومة العثمانية في بئر سبع، وبدأ الجنود في إخلاء المدينة، ولم يتمكن الجنود من تدمير كل الآبار

الموجودة بالمدينة فلم يتمكنوا سوى من تدمير بئرين فقط من أصل سبعة عشر، واستولى البريطانيون على مستودعين للماء يحويان تسعة آلاف جالون من الماء بالإضافة إلى عدد من الأسرى، وقبيل الرابع من نوفمبر تمكن البريطانيون من توفير ثلاثة آلاف وتسعمائة جالون من الماء يوميًّا في بئر سبع، وكان ذلك كافيًا لإعاشة القوات البريطانية غير أن العثمانيين كانوا لا يزالون يسيطرون على إمدادات الماء في الشمال في الخويلفة وجمامة وهوج، ولذا كان بمقدور القوات البريطانية أن تعمل بعيدًا عن قاعدتها الجديدة في بئر سبع لمسيرة يوم واحد فقط حتى يتم الاستيلاء على تلك المواقع.

غزة والخويلفة

اضطر اللنبي بناء على نصيحة تشيتود وتشوفيل لتأجيل المرحلة الثانية من الهجوم حتى السادس من نوفمبر نظرًا لنقص الماء في شمال بئر سبع، وفي تلك الأثناء استمر الإنجليز في الضغط على القوات العثمانية في الشرق بهدف جذب احتياطياتهم من غزة، وبينما كان العثمانيون قد أخلوا بئر سبع فإنهم لم يتخلوا عن بقية الخط الدفاعي، وتمحور الجناح الأيسر لقواتهم في المواقع القوية في هريرة، وتحولوا إلى الشمال من بئر سبع إلى نقطة الخويلفة والتي تسيطر على الطريق المؤدي إلى مدينة الخليل، وعلى الممر الشمالي الغربي المؤدي إلى الساحل، وبعد الاستيلاء على بئر سبع بيوم هرع اللواء السابع البريطاني يدعمه الفوج الثامن خيالة خفيفة الأسترالي إلى الخويلفة للاستيلاء عليها قبل ان تتمكن القوات العثمانية من تحصينها، ولكنهم وصلوا متأخرين، وبعد ذلك ولمدة أربعة ايام حاول البريطانيون والأستراليون الاستيلاء عليها، وفي كل ليلة كانت جياد لواء من الألوية تأخذ قسطًا من الراحة، ويتم أخذها إلى بئر سبع من أجل الماء،

ويحل محله لواء آخر ليستأنف الهجوم، وأخيرا وصلت قوات المشاة التابعة للفرقة الثالثة والخمسين مع فيلق الهجانة الإمبراطوري مع دعم مدفعي مصاحب للقيام بهجوم آخر في السادس من ،نوفمبر واستمر ذلك الهجوم لمدة يومين قبل أن تخلي القوات العثمانية الخويلفة في الثامن من نوفمبر، وبالرغم من فشل البريطانيين في احتلال الخويلفة إلا أن الضغط قد حقق هدفه المنشود، وهو اجتذاب احتياطيات من غزة، مما بدا معه أنه من الممكن أن تنجح القوات البريطانية في غزة وهريرة، وكانت أول مناوشة قرب غزة قد جرت في الثاني من نوفمبر عندما هاجم اللواءان161 و162 من الفرقة الرابعة والخمسين منظومة الخنادق العثمانية عند الكثبان الرملية بين غزة والبحر، وكان هجومًا جيدًا شنته قوات منظمة جدًّا مع دعم مدفعي قوي وبمساندة ست دبابات، وتقدمت المشاة البريطانية لمسافة ميلين على جبهة عرضها خمسة آلاف ياردة واستطاعوا الاحتفاظ بمكاسبهم على الأرض في وجه الهجمات المضادة العثمانية المتكررة، وكانت الخسائر عالية.

الثغرة

وبدأ خط غزة بئر سبع الدفاعي المنيع في التداعي شيئًا فشيئًا وفي فجر السادس من نوفمبر نفذت القوات البريطانية ضربة أخرى على جبهة واسعة بكل فرق الفيلق العشرين على حصن شريعة عند منتصف الخط الدفاعي تقريبًا، وتم الاستيلاء على الأهداف الأولية للهجوم قبل الساعة الواحدة، بينما تم إيقاف الفرقة الرابعة والسبعين على اليمين، وعبرت الفرقتان الفرقة العاشرة والفرقة الستون خطوط الدفاعات العثمانية بحلول الساعة الثانية والنصف، واحتلت الفرقة الستون محطة السكك الحديدية في شريعة، وكان من المخطط أن تقوم الفرقة الستون بالاستمرار بمطاردة

القوات العثمانية على تل الشريعة أثناء الليل، ولكن العثمانيين قاموا بحرق مخزن قريب للذخيرة أثناء انسحابهم مما جعل الهجوم الليلي مخاطرة كبيرة، وفي صباح السابع من نوفمبر قامت الفرقة الحادية والعشرون بهجومها الكبير على غزة نفسها وهاجمت من مواقعها عند الكثبان الرملية في الشرق، ومن الغرب هاجمت الفرقة الخامسة والسبعون موقع منطار الحصين والذي سفكت أمامه دماء الإنجليز مرة بعد أخرى في محاولاتهم المتكررة للاستيلاء عليه في معركتي غزة الأولى والثانية، ولكن كان مقدرًا لهم هذه المرة أن ينجحوا في الاستيلاء عليه، وتم احتلال جميع الأهداف، ودخلت القوات البريطانية غزة في التاسعة صباحًا، واستمرت الفرقة الثانية والخمسون في ضغطها على القوات العثمانية المنسحبة، وفي الشرق احتلت الفرقة العاشرة حصن هريرة، واحتلت الفرقة الستون تل الشريعة، وتم احتلال موقع دبابة الحصين وموقع عطاوينة الذي كانت تحتله الفرقة الرابعة والخمسون العثمانية في الثامن من نوفمبر.

النتائج

بعد دخول القوات الإنجليزية غزة وإخلاء العثمانيين للخط الدفاعي انسحبت القوات العثمانية إلى الشمال، وكان أحد أهداف اللنبي هو تدمير الجيش العثماني في جنوب فلسطين، ولتحقيق ذلك كان على الألوية الصحراوية الراكبة أن تشن هجومًا إلى الشمال الغربي من بئر سبع عبر قرية الجمامة وهوج على الساحل لاعتراض طريق انسحاب القوات العثمانية، وتقدمت فرقة الأنزاك الراكبة على اليمين باتجاه الجمامة، وتقدمت الفرقة الأسترالية الراكبة والفرقة الستون باتجاه هوج، ولكي تنجح الخطة كان على القوات أن تصل في السابع من نوفمبر، وبعد أن احتلت الفرقة الستون تل الشريعة استمرت في طريقها باتجاه الشمال،

ولكن واجهتها مؤخرة القوات العثمانية، واستدعي اللواء الرابع خيالة خفيفة الأسترالي للدعم، وقام الفوجان الحادي عشر والثاني عشر خيالة خفيفة بشن هجوم فأجبرتهم النيران العثمانية على الترجل، واتخاذ سواتر على بعد خمسمائة ياردة من القوات العثمانية، ولم يتم الاستيلاء على الموقع قبل السابع من نوفمبر بلواء من الفرقة الستين، واستؤنف التقدم باتجاه هوج في الصباح التالي وواجه المهاجمون قوات مؤخرة عثمانية من المدفعية ومدافع الماكينة، وفي تلك المرة قامت مفرزة من اللواء الخامس الراكب بهجوم بالسيوف، ونجحوا في قتل أطقم المدافع، وبذلك أصبح الطريق خاليًا لاحتلال القرية فيما بعد في نفس اليوم، ولم تلق فرقة الأنزاك الراكبة التي اتجهت إلى الجمامة نفس النجاح، ولم تتمكن من الاستيلاء على أهدافها حتى التاسع من نوفمبر حين وصلها الفوج الثالث خيالة خفيفة، وبذلك انهار خط غزة بئر سبع الدفاعي تمامًا واجتاحته القوات البريطانية، وتم أسر اثني عشر ألف جندي من القوات العثمانية إلا أن التضحية التي قامت بها مؤخرة القوات العثمانية والصلابة التي قاتلوا بها لم تذهب سدى، فقد نجح ذلك في تعطيل القوات البريطانية وأنقذ بالتالي القوات العثمانية من التطويق، إلا أنه وباحتلال غزة أصبح الطريق أمام القوات البريطانية مفتوحًا للاستيلاء على القدس، واحتلال فلسطين بالكامل، ووضعها تحت الانتداب، ثم تسليمها فيما بعد إلى اليهود.

سقوط القدس

بعد انتصار الإنجليز بقيادة اللنبي في معركة غزة والاستيلاء عليها تحركت القوات البريطانية مرة أخرى وهاجمت القوات العثمانية وهزمتها في معركة تل المغار في منتصف نوفمبر، واضطرت القوات العثمانية إلى الانسحاب إلى نهر العوجا وإلى المنطقة الجبلية المحيطة بالقدس للدفاع

عنها، وكانت القوات البريطانية قد بدأت في التحرك باتجاه القـدس، وكـان الجناح الأيسر لقوات اللنبي قد تم تأمينه عند يافا، وتقـدم الجنـاح الأيمـن إلى القدس، وكان فالكنهاين قائد القوات العثمانية في فلسطين قد حصـل على تعزيزات جديدة، وكان يخطط لشن هجوم مضاد على قـوات اللـنبي، وقد تم تحذير الجانبين مـن القتـال في المدينـة أو حولهـا وشـن فالكنهـاين سلسلة من الهجمات المضادة على خطوط قوات اللنبي، وكان العثمـانيون قد حصنوا مجموعة من المواقع حول القدس بما فيها تل دير ياسـين، وأعـاد اللنبي تجميع قواته، وأرسل الفيلق العشرين بقيادة تشيتود للاستيلاء على المدينة، وبدأ هجوم تشيتود علـى المدينـة في الثـامن مـن ديسـمبر، وكـان الهجوم يتكون من اندفاعة مـن الوسـط للاسـتيلاء علـى مرتفعـات الـنبي صمويل، وهي مجموعة من التباب الحاكمة على بعد ثلاثة عشر كيلـومترًا إلى الغرب من القدس، وهجوم ثنوي إلى الجنوب من بيت لحـم، وتمكنـت القوات البريطانية من الاستيلاء على المرتفعـات في معركـة تعـرف باسـم معركة النبي صمويل، وكانـت معنويـات القـوات العثمانيـة في الحضـيض بسبب الهزائم المتلاحقة التي منيت بها في مواجهة الإنجليز، فاستمر تقـدم القوات البريطانية وظلوا يحتلون المرتفعات حول القدس واحدًا تلو الآخـر، وفشلت الهجمات العثمانية المضادة واحدًا تلو الآخـر في دفـع البريطـانيين عن المرتفعات، وتمكنوا في نهاية الأمر مـن تطويـق القـوات العثمانيـة مـن ثلاث جهات، وعلى أثر ذلك أمر فالكنهاين بإخراج القوات العثمانية من القدس فقامت تلـك الاخـيرة بـإخلاء المدينـة دون قتـال لتدخلـها قـوات اللنبي بدون أن تتلقى رصاصة واحدة، وهكذا كسـبت القـوات البريطانيـة نصرًا بلا دماء، ودخل اللنبي القدس كجنرال فاتح في اليوم التالي بعد أن أخلى فالكنهاين له الطريـق إلى القـدس، وحـاول العثمـانيون بعـد ذلـك القيام بهجوم مضاد كبير لاستعادة القدس من طريق يافا القـدس، ولكـن اللنبي أرسل قوة التحمت مع الجنود العثمانيين، وصدت هجومهم، ومع أن

القوات العثمانية في القدس لم تخض معركة ولم تهزم إلا أن ذلك لم يمنع الإنجليز أن يتمسكوا بمواقعهم في المدينة التي تسلموها مجانًا، وبالرغم من أن سقوط القدس ليست له أية قيمة تكتيكية إلا أن النتائج الإستراتيجية والسياسية التي ترتبت عليه كانت رهيبة، وتختلف التقديرات البريطانية والتركية في تقدير حجم الخسائر التي مني بها كل طرف في الحملة من معركة السويس إلى سقوط القدس، ولكن أوثق التقديرات هي أن البريطانيين خسروا ثمانية عشر ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير بينما فقد العثمانيون خمسة وعشرين ألف قتيل واثني عشر ألف أسير.

الفصل الثامن

اليهود في الحرب

الفيلق اليهودي

أثناء الحرب العالمية الأولى ثار نزاع بين القيادات الصهيونية حول الموقف الذي ينبغي اتخاذه بمساندة أحد الجانبين المتحاربين دول المحور أو الحلفاء أو البقاء على الحياد، وكيفية استغلال تلك الحرب لتهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إلى أرض فلسطين، وكان أحد أبرز النشطاء في اتجاه دعم الحلفاء هو زئيف جابوتينسكي Zeev Jabotinsky، والذي كان يتمنى ويتوقع أن تكون أيام الإمبراطورية العثمانية (التي كانت تجثم على أنفاس اليهود وتمثل العائق الأكبر في إقامة الدولة اليهودية) معدودة، وكان يدعو إلى مساندة بريطانيا ومناصرتها علنًا في مجهودها الحربي لكي يتمكن اليهود من إقامة وطن قومي في فلسطين، وسانده في ذلك جوزيف ترومبلدور Joseph Trumpeldor أحد كبار الزعماء اليهود في ذلك الحين، والتقت مصالح الجانبين حيث كانت بريطانيا تسعى في ذلك الوقت بكل السبل لتجنيد كل من تستطيع تجنيدهم في حربها على الإمبراطورية العثمانية، وإذا كان تجنيد رجال من الدول العربية التي كانت في ذلك الوقت تحت الإدارة التركية غير آمن باستثناء ما جرى في الثورة العربية، فإن اليهود كانوا مرشحين مثاليين لتلك المهمة لأنهم يرغبون في تدمير الدولة العثمانية، وبالتالي سيكونون جنودًا مخلصين في الحرب، ويمكن للبريطانيين أن يأمنوا جانبهم ويعتمدوا ،عليهم وفي عام1915 وصل

جابوتينسكي إلى معسكر جاباري قرب الإسكندرية بمصر، وكان عدد المجندين اليهود حتى ذلك الحين حوالي ألف ومائتان يهودي حسب التقديرات اليهودية، والحقيقة أن التقديرات البريطانية في هذا الصدد أكثر واقعية حيث بنهاية شهر مارس من عام1915 كان عدد المتطوعين اليهود قد وصل إلى خمسمائة متطوع من بين اليهود الذين قام العثمانيون بطردهم من فلسطين، وخطب فيهم زيئيف جابوتينسكي مصرحًا بأهمية مساندة الحلفاء لليهود حتى يتسنى لهم إقامة دولة على أرض فلسطين، والتي لم تكن بريطانيا قد خططت للهجوم عليها بعد في تلك المرحلة، وكان الغرض من تطوع اليهود بمساعدة البريطانيين هو الانخراط في صفوف الجيش البريطاني الذي سيمكنهم من احتلال فلسطين، والاستعداد بالتالي لمواجهات عسكرية محتملة في المستقبل مع العرب في فلسطين، وعمل كل من يوسف ترومبلدور وزيئيف جابوتينسكي على إقامة علاقات قوية مع الدوائر العليا في الجيش البريطاني والحكومة البريطانية على حد سواء، وبالفعل اشتركت كتيبة يهودية في حملة جاليبولي وكانت مهمتهم هي قيادة البغال التي تقوم بنقل العتاد والأسلحة للقوات التي تم إنزالها هناك، وقنع الزعماء اليهود بذلك الدور في الحملة ولم يعتبروه دورًا وضيعًا بل بالعكس اعتبروه فرصة جيدة لتطعيم المتطوعين على جو الحروب، وتعويدهم على خوض معارك حقيقية وسط النيران، حيث لم يكن قبل ذلك لليهود أي جيش أو قوات مقاتلة، وذلك منذ طردهم من فلسطين من حوالي ألفي عام، وبالتأكيد لم تمض الأمور بسلاسة فكان هناك من بين اليهود أنفسهم من عارض إقامة مثل ذلك الفيلق، وعلى رأسهم اليهود في بريطانيا الذين كانوا يخشون على وضعهم في بريطانيا من عواقب تشكيل مثل ذلك الفيلق وبعض الشخصيات اليهودية المعروفة في ذلك الوقت مثل آحاد هاعام[7]، والذي كان يرى أن المهمة الأساسية

---

[7]آحاد هاعام وتعني بالعبرية واحد من الشعب، هو الاسم الأدبي لأشر تسفي جينتسبرج (1856 - 1927) المولود في كييف، والناطق باسم الحركة الصهيونية وأول من قام بجهود لإحياء اللغة العبرية، وكان يتكلمها في المنزل وهو مؤسس تيار الصهيونية

للحركة الصهيونية هي مهمة روحية في المقام الأول، وكان من بين المعارضين أيضًا بعض اليهود الذين كانوا يعيشون على أرض فلسطين ومن بينهم حركة هابوعيل هاتساعير[8]، والذين كانوا يرون الحصول على الأرض بطريق العمل، وليس بطريق الحرب، ولذلك عارضوا فكرة إنشاء الكتيبة اليهودية ورفضوا الانضمام إليها.

كتيبة البغالين

كانت كتيبة البغالة الصهيونية Zion Mule Corps هي أول كيان عسكري يهودي يتم تشكيله في الأزمنة الحديثة، وكان مسئولاً كما ذكرنا عن نقل المؤن والإمدادات على جبهة جاليبولي، وعقب انسحاب البريطانيين من جاليبولي بعد فشل حملتهم هناك قاموا بحل الفيلق اليهودي ورفضوا نقله إلى أي جبهة أخرى، وسافر زيئيف جابوتينسكي وسعى خلال لقاءاته المتكررة مع الساسة البريطانيين والفرنسيين والروس في اجتذاب الاهتمام لفكرته بإقامة كتائب يهودية تنخرط بين صفوف الجيوش المتحاربة، وذلك لأن البريطانيين في ذلك الوقت لم يكونوا في حاجة إلى كتائب غير محترفة تتكون من المتطوعين وليس لديهم أي خبرة في القتال، وبالطبع لم تعتبر خبرة قيادة البغال لنقل المؤن والعتاد خبرة قتالية، وعلاوة على ذلك السبب لم يكن في نية البريطانيين في ذلك الوقت من الحرب فتح جبهة جديدة ضد العثمانيين في أرض فلسطين، علاوة على عدم تأييد اليهود في بريطانيا أو زعمائهم لتلك المبادرة، وفيما

الروحانية.

[8] تعني العامل الصغير باللغة العبرية، وهي حركة من العمال الصهيونيين الذين كانوا يرون تحقيق أهداف الصهيونية عن طريق العمل وشغل الوظائف في المستعمرات الصغيرة التي كانوا يقيمونها بالإضافة إلى إحياء الثقافة العبرية، وقد تأسست تلك الحركة في عام1905.

عدا بعض اليهود المعدودين لم يحظى جابوتينسكي بأي دعم من اليهود في أوربا، بل إن اللجنة التنفيذية للاتحاد الصهيوني أصدرت بيانًا تحث فيه كل اليهود في أوربا على مقاومة ورفض إقامة فيلق يهودي، ومن ثم قرر جابوتينسكي تركيز كل جهوده في لندن، ومخاطبة ثلاثين ألفًا من اليهود الشباب الذين أتى معظمهم إلى إنجلترا كلائجين من جبهات القتال الأخرى من بولندا وجاليسيا أو من روسيا، ومرة أخرى تفشل جهوده بسبب الرفض العنيف الذي كانت تبديه الجالية اليهودية هناك، وحتى وزير الحربية البريطاني في ذلك الوقت هوريشو كيتشنر Horatio Kitchener صرح علانية أن بريطانيا ليست بحاجة إلى فيالق أجنبية، واستمر الأمر كذلك حتى بدأ البريطانيون يعانون من خسائر جسيمة، وبدأت الحكومة البريطانية في فرض التجنيد الإجباري على الشباب، وفي البداية رفض اليهود أن يتم تجنيدهم في صفوف الجيش البريطاني، حيث لم تكن الحرب بالنسبة لهم تعني شيئًا، ولم يكن لهم مصلحة فيها، ولكن في النهاية لم يكن لهم أي مخرج من ذلك الموقف، وفي تلك اللحظة بدأ جابوتينسكي يشرح للسلطات البريطانية أهمية وجود فيلق يهودي يجمعهم حتى تصبح عملية تجنيدهم أسهل، حيث كانت بريطانيا في حاجة إلى كل جندي يمكن تجنيده، وكذلك رحبت للشباب اليهودي أهمية تجنيدهم في فيلق يهودي وأن ذلك هو المخرج الوحيد من أزمتهم، وفي تلك الآونة ظهر عاملان كان لهما تأثير كبير على الإسراع بتجنيد اليهود وانتظامهم في فيلق يهودي، الأول هو مقالة نشرتها جريدة التايمز البريطانية الشهيرة تشجع الفكرة، والثاني ظهور نواة مكونة من مائة وعشرين جندي يهودي كانوا من قبل جنودًا في فيلق قادة البغال، ثم انضموا إلى الكتيبة20 لحملة البنادق الملكيين، وشكلوا بها سرية يهودية، وبعد لقاء مطول بين جوزيف ترومبلدور وزئيف جابوتينسكي من جهة وممثلين عن وزارة الحربية

البريطانية من جهة أخرى صدر قرار بتشكيل كتيبة يهودية مقاتلة أو الفيلق اليهوديThe Jewish Regiment، وكانت علامتها الشمعدان اليهودي، وعين لقيادتها جون باترسون John Patterson والذي كان على رأس كتيبة البغالة اليهودية بعد أن رفض البريطانيون قبول جوزيف ترومبلدور كضابط في جيشهم، وسافر هو بدوره إلى روسيا لمحاولة إنشاء جيش يهودي كبير لمحاربة العثمانيين في القوقاز، ثم محاولة التقدم إلى فلسطين واحتلالها بينما انضم جنود السرية اليهودية في الكتيبة20 إلى الكتيبة اليهودية.

الكتيبة 38 من الرماة الملكيين

تمت تسمية الكتيبة38 من الرماة الملكيين اليهودية التى تم إنشاؤها بكتيبة لندن، حيث كان معظم جنودها من العاصمة البريطانية والقليل منهم من اليهود الأمريكيين، وفي تلك الكتيبة كان ثلثا الضباط من اليهود وكان اليهود في إنجلترا ما يزالون على معارضتهم لإقامة الكتيبة اليهودية، وحاولوا حله وتمت إزالة الشعار اليهودي من الكتيبة وأعطى له اسمًا بريطانيًا عاديًا إلا أنه وبالرغم من ذلك كانت الصحافة لا تزال تذكره باسمه القديم، وفي مكتب التجنيد البريطانى كان يمكن للمرء رؤية اللافتات باللغة العبرية، وكان جنود تلك الكتيبة يحملون على ذراعهم شارة نجمة داود، وكان مقر تلك الكتيبة في معسكر قريب من بورتسموث Portsmouth، وفي الثانى من فبراير قامت الكتيبة اليهودية بعرض بغرض الدعاية بين اليهود، وزيادة عدد المتطوعين، وفي اليوم التالى سافرت الكتيبة لفرنسا، ومنها إلى إيطاليا، ومنها إلى مصر، وتلقت الكتيبة 38 اليهودية تدريبها في مصر التى كانت في ذلك الوقت تحت الاحتلال البريطاني، ومن مصر أرسلت إلى فلسطين، وفي فلسطين تم جمع مجموعة

من المتطوعين اليهود لتشكيل الكتيبة40، وفي بداية يونيو خاضت تلك الكتيبة معارك صغيرة مع فلول القوات العثمانية الممزقة والتى كانت تفتقر إلى القيادة الجادة في فلسطين، وفي منتصف أغسطس أرسلت الكتيبة إلى الأردن، وكانت تعمل ككتيبة ربط للقوات البريطانية هناك، وفي سبتمبر أصدرت القيادة البريطانية أمرًا للكتيبة اليهودية باحتلال جسر أم الشرط في وادي الأردن، وكان الجسر الوحيد هناك، وعند اقتراب السرية الأولى من الكتيبة واجهت وابلاً من النيران الشديدة ففرت على أثر ذلك مولية الأدبار بعد أن خلفت وراءها قتيلاً واحدًا حسب التقديرات اليهودية -التى لا يمكن بأي حال من الأحوال الثقة فيها- ونجا قائد السرية من القتل بمعجزة بعد أن استسلم ووقع أسيرًا في يد القوات العثمانية، فأرسل البريطانيون سرية أخرى من الكتيبة يقودها زئيف جابوتينسكى فكللت مهمته هذه المرة بالنجاح، ويدعى اليهود أن الكتيبة عادت إلى فلسطين بأسرى عثمانيين وألمان، إلا ان رواية جابوتينسكى نفسه لا تذكر سوى عددهم، ولا تذكر أية تفاصيل أخرى عن المعركة التى تم فيها أسر هؤلاء الأسرى المزعومين، ولا عن الفترة التى استغرقتها تلك المعركة مثلاً ولا حجم القوات التى كانوا يواجهونها أو أيًا من تلك التفاصيل، ويقول زئيف جابوتينسكي في روايته للواقعة:

"قمنا باقتيادهم ألف ومائة رجل أتراك وألمان لمسافة ستة عشر كيلومترًا مجتازين أرضا خالية من البشر ومليئة بالأشواك المحترقة، وكان يرافقهم ثمانية عشر جنديًا!!!!!! وكلهم تقريبا خياطون من وايت تشابيل Whitechapel ومعهم ضابطان وحاخام الكتيبة الذي أصر على السير معنا، وكنت أنا في المؤخرة في الظلام الحالك الرطب والحرارة الشديدة وكنت أفكر في أن الأسرى يمكنهم خنقنا واحدًا واحدًا بأيديهم فقط إلا أنهم التزموا بالطاعة، وكانوا يسيرون صفوفًا، أربعة في كل صف، وكان الألمان بالرغم من ذلك يحاولون أن يمشوا مشية عسكرية، وكان جنودنا قد

وضعوا سناكى البنادق على استعداد وعمروا بنادقهم، وهـم يمشـون علـى يمينهم وعلى يسارهم، وكان الحاخام يقوم بدور المراقب لئلا يسيء الجنود للأسرى!!!!! وألا يصيبوا هم أنفسـهم أحـدهم الآخـر، وهكـذا سـرنا نحـن أيضًا في ذلك الوادي، وكان كل شيء ساكنًا ما خلا أولئـك الـذين الـذين كادت رءوسهم تنفجر مـن الملاريـا، وكـان هنـاك العشـرات مـنهم، وكـان الألمان وكنا قد وضعناهم بالخلف يتأوهون بصوت خفيض، ولكن الأتراك كانوا ينوحون بصـوت عـال كالأطفـال الصـغار أو كـأولاد ابـن آوى غـير مرئيين يجرون خلفنا باكين على الأرض الملعونة، وكان الحاخـام قـد نـزل من فوق الحمار وسار معى خلف الأسرى وفجأة سمعنا على مسافة كـبيرة أمامنا صرخة وصفارة، ثم بعد ذلك صـوت إطـلاق نـار، تركـت الحاخـام بالمؤخرة وهرعت إلى مكان الصوت في آخـر الطريـق وبينمـا كـان طـابور الأسرى يسير في طريقه، رأيت شخصين على الأرض جندي تركـى يتـأوه، وإلى جانبه جندي من جنودنا من مواليد الإسـكندرية مـن الجنـود الـذين شـاركوا في جـاليبولى مـع ترومبلـدور Trumpeldor فصـحت بـه غاضـبًا بالتركية من الذي أطلق النار؟ فقال: الجندي التركى لا يريـد التحـرك إلى الأمام. كانت قواه قد خارت من الملاريا، وأراد أن يموت بالصحراء. وهـدده الجندي بوجود البدو والذئاب، ولكن بدون فائـدة فقـام بـإطلاق النـار في الهواء، وقال له: سوف أطلق النار عليك هكذا إذا لم تسر.

وكان ذلك أيضًا بدون فائدة فقلت: خذوا اثـنين مـن الأتـراك الأقويـاء وليسحبوه هم، وفي الظلام أدركت أنه ينظر باحتقار كمن ينظـر إلى إنسـان لا يفهم شيئًا وقال بطريقة مختصـرة وعمليـة: سـوف يرمـوننى في الظـلام. وانتظم الطابور وكان الألمان يسيرون أمامى فـاخترت أربعـة وسـألتهم عـن أسمائهم متظاهرًا بأننى أسـجلها في دفـتري فأعطـاهم أحـد الجنـود بطانيـة وأمرتهم بأن يجروا التركى حتى أريحا، ولكنى لا أعلم على وجه الدقة هل جلبوه معهم إلى أريحا أم لا، وعدت حيـث كنـت وأخـذنا في السـير بـبطء.

وصمت مرة أخرى، واجتزنا كيلومترًا ثم سمعنا صوت إطلاق نار من جديد، ومن جديد كانت من الأمام ولكنه كان أبعد بكثير وأمسكت بكتف الحاخام، وكان هو يريد أن يرفع رجله ليركب على الحمار، فأمسكت قدمه بغلظة، وقلت له: لا تتدخل إن ذلك أمامنا وسيعتنى آرنس بالأمر، فهمس بصوت مرتعد قائلاً: وإذا قتلته الطلقة؟ كان الألمانى الذي يسير أمامنا يفهم الإنجليزية على ما يبدو، فقال لزميله: هناك وسيلة واحدة فقط أن يقتلوه بطلقة حيث إنه لا يمكنهم تركه هنا ليموت من الجوع، وستقوم أولاد آوى بقضم آذانهم. وصمت الحاخام ونقل بصره يمينًا ويسارًا ولكن كيف يمكنك في الظلام العثور على حجر، وكيف تميز بين الشجيرة وبين شيء آخر، وصمتنا نحن وفي رءوسنا فكرة واحدة فقبل أسبوع كان هؤلاء الأسرى هم رعب الأرض وعظمتها، والآن نقتادهم نحن كأسرى وليس العكس، وأخذت أفكر كثيرًا في تلك الليلة، ورأيت الهيكل الكبير في ريمس تحت إطار القنابل ومعارك الطائرات والهجمات الجوية الألمانية على لندن، وكان الجنود الذين أتوا من الجبهة يقسمون على أن ذلك كان أقل مما حدث في آيبر Ypres فعلى الأقل في آيبر لم تكن هناك أصوات بكاء النساء والأطفال، كان ذلك فظيعًا حتى ولو كان تخريب المدن وتشويه الناس مما تعرفه الطبيعة ولكن شيئًا واحدًا لا تعرفه الطبيعة، وهو الإذلال وفرض المهانة على شعب كامل إن هذا أكثر مرارة من أي شيء إن هذا لشيء يحتقره الإنسان، وقد عشت في برلين وفي فيينا وفي اسطنبول، ورأيت هؤلاء الذين هم الآن أسرى كيف يعملون، وكيف يضحكون، وكيف يخرجون مع فتياتهم، ويدخنون النرجيلة في أزقة جالاتا، وعلى أوقات متقاربة حينما يدعوننى الآن علنًا بأننى داعية حرب أتذكر تلك الليلة، وفي نفس الطريق في وادي الأردن في ظل ذلك الجبل والذي مات عليه موسى[9]، وأتذكر أيضًا أن حياة أمة هو أمر ليس بالهين، من الصعب

---

[9]معلومة مغلوطة حتى وفقًا للتوراة التي بين يدي اليهود الآن فنبي الله موسى عليه

فرض النظام في الصحراء فإن لم تستطع ارقد ومت والإنسانية أيضًا، هي كتيبة غير أنا بدون حاخام طيب ولن يحملك أحد إلى أريحا، سر قدر ما يقدر لك السير واظلم نفسك واظلم جارك أو ارقد واذهب إلى الضياع مع كل آمالك".

ولا ريب أن رواية ألف ليلة وليلة تلك لا تنطلى على أحد سواء أكان عالمًا بتاريخ الحرب العالمية الأولى أم لا، فالمصادر الألمانية مثلاً التى تسرد الواقعة لا تذكر أبدًا نشوب معركة كبيرة (إذ لابد أن تكون تلك المعركة معركة كبيرة بحيث ينتج عنها هذا العدد من الأسرى) في تلك الجهة بين السرية الثانية للكتيبة اليهودية بقيادة زيئيف جابوتينسكى وبين أية قوات أخرى لا عثمانية ولا ألمانية، بل تقول الرواية الألمانية: إنه في يونيو من عام1918 كانت الكتيبة40 التى تم تشكيلها من بين اليهود الموجودين في فلسطين بالإضافة إلى مناطق أخرى تحت قيادة الجنرال ميجور تشيتور Chaytor النيوزيلندي الجنسية موجودة بوادي الأردن، وتم نشرها على مسافة ثلاثين كيلومترًا شمال القدس لمعركة قتل وجرح وأسر فيها أكثر من عشرين جنديًا ومرض الباقون بالملاريا، ومات من تلك المجموعة فيما بعد ثلاثون جنديًا، وكانت مهمة الكتيبة هى عبور نهر الأردن، ثم فيما بعد قاد جابوتينسكى الهجوم وحصل بسببه على ميدالية قام على الفور بإعادتها. هذه هى الرواية الألمانية لا أسرى ولا معركة كبيرة ولا تبعد الرواية البريطانية كثيرًا عن الرواية الألمانية إلا انها تزيد عليها أن عدد القتلى في الهجوم الأول كان ثلاثين قتيلاً، وكانت مهمة الكتيبة محاولة عبور نهر الأردن لتأمين الوادي ونجحت السرية الأخيرة التى تم إرسالها بقيادة زيئيف جابوتينسكى في عبور النهر وتأمين الوادي، ونظرًا لصغر حجم العملية وجه تشيتور خطابا إلى الكتيبة اليهودية قائلاً:

السلام ووفقًا للتوراة التي يؤمن بها اليهود مات في سيناء، وليس في الأردن.

"باقتحامكم لمعبر الأردن فقد ساعدتم بشكل غير صغير في النصر الذي حصلنا عليه في دمشق".

ولا حاجة هنا لتكرار أن تلك الرواية لا أساس لها من الصحة، وإن المرء ليقف ذاهلاً أمام قدرة هؤلاء القوم على اختلاق ونسج الأكاذيب بدون أدنى وازع من ضمير أو منطق، حيث إن مثل ذلك النوع من الأكاذيب لا يصمد أبدًا أمام أقل مجهود بحثي، فالرواية فضلاً عن أنها يعوزها الدليل فوقائعها أيضًا متخبطة ومتضاربة وتفتقر إلى المنطق المحكم، فكيف يتصور أن يقتاد ثمانية عشر جنديًا ألف ومائة جندي من جيشين كانا من أقوى الجيوش في ذلك الوقت؟ وكيف -بالله- يتمكن جنود سرية واحدة لن يزيد عدد أفرادها حتى لو بالغنا في عددها عن ثلاثمائة جندي من أسر ألف ومائة أسير؟ وكم كان قوام القوات التركية أو الألمانية التى كانت تحتل الموقع المقابل حتى يقع منهم ألف ومائة في الأسر؟ وألم تكن مواقعهم مجهزة بالرشاشات؟؟ إنه وبمجرد إلقاء نظرة سريعة على خسائر البريطانيين في اليوم الأول فقط لمعركة السوم أدركنا أن مجرد افتراض احتمال صدق أحد عناصر تلك الرواية لهو من قبيل العبث، علاوة على أن ذلك الجزء من رواية زيثيف جابوتينسكى الزائفة للواقعة تتضمن وصفًا للجنود الأسرى كما يدعى المصابين بالملاريا، أفلم تفتك الملاريا بالجنود اليهود الثمانية عشر؟

ثم عادت الكتيبة بعد فترة قليلة قضتها بدون قتال في الأردن إلى فلسطين، وكانت بريطانيا قد أتمت احتلالها لفلسطين وأسندت إلى الكتيبة مهمة حراسة المواقع العسكرية البريطانية.

الفصل التاسع

الثورة العربية

الثورة العربية

كانت الثورة العربية من أهم الأحداث التى جرت في عام1916، وكانت بداية النهاية للخلافة الإسلامية، وكانت بريطانيا قد فشلت في تحقيق أي من أهداف حملت الدردنيل حيث كانت تبغى فتح الطريق أمام حليفتها روسيا، ومنيت بريطانيا بهزيمة نكراء في تلك الحملة، وبدأ النشاط يدب في جسد الإمبراطورية فبدأت تحرك جيوشها لاستعادة الأراضى التابعة لها في المنطقة العربية، وكانت استعادتها للعراق ثم لمصر تعنى كارثة بالنسبة لبريطانيا، وكانت الجيوش العثمانية ضاغطة، وكانت حاميات إنجلترا قد بدأت في التراخى، فاستسلم تاونسند قائد القوات البريطانية في كوت العمارة، وكانت بريطانيا تخشى أن تأتى دعوة السلطان العثمانى إلى الجهاد بنتيجة، فيجتمع بذلك المسلمون عليها في الهند أو في مصر، ورأى الساسة الإنجليز أن القرار الصائب هو تحريض الشعوب من رعايا الدولة العثمانية عليها واستغلال فساد الإدارة العثمانية، علاوة على أن المسلمين العرب قد طفح بهم الكيل من سياسات جمعية الاتحاد والترقى التى كانت تمسك بزمام الأمور فعليًا في الدولة العثمانية، وكان معظم رجالها من اليهود مبغضى الإسلام، وكانوا يتبعون سياسة تهدف إلى إثارة النزعات القومية في الأقاليم التابعة للدولة العثمانية عن طريق إعلاء شأن العنصر التركي

على غيره مما يستفز القوميات الأخرى، ومن ناحية أخرى لم تكن بريطانيا تهدف فقط من وراء ذلك إلى تخفيف الضغط على جيوشها، بل كانت تهدف إلى إزالة الدولة العثمانية من الوجود، وإفقادها المناطق التابعة لها واحدة تلو الأخرى وشطبها من قائمة أعداء بريطانيا إلى الأبد، حيث رأت بريطانيا في بقاء الخلافة العثمانية على قيد الحياة خطرًا على وجودها في الهند، وكان البريطانيون يعتمدون كثيرًا على الجنود الذين يأتون بهم من الهند، ويزجون بهم في ميادين القتال المختلفة، فنراهم يقتادونهم للقتال في العراق في إنزال الفاو ومعركة البصرة، ونراهم يقاتلون على الجبهة الغربية، وكانت بريطانيا تستنزف كل يوم فلم يكن لها غنى عن الجنود الهنود، بالإضافة بالطبع إلى الجنود المستجلبين من مستعمرات بريطانيا الأخرى، ونظرًا لارتباط المسلمين الهنود الروحى بالسلطان العثمانى كان الخطر يكمن في أن أي دعوة جهاد يعلنها السلطان على الإنجليز في حالة قيام حرب ستجد صداها في الهند، ولم يكن ذلك الهدف الطموح يتحقق لولا أن قيض الله لبريطانيا رجلاً قدر له أن يلعب أكثر الادوار أهمية في هدم الدولة العثمانية -كما سنرى- وبدأت بريطانيا تنشط في اتجاه تأليب الشعوب التى كانت تحت الحكم العثمانى بهدف فتح جبهات جديدة، وبعثرة القوات العثمانية، وبدأت تسعى إلى إثارة الاضطرابات وأعمال الشغب حتى تسحب الدولة العثمانية جزءًا من قواتها لمواجهة مثل تلك الاضطرابات مما يخفف الضغط على جيوش إنجلترا، فبدأت في تشجيع الشخصيات والاتجاهات العربية المناهضة للاتحاديين في تركيا، وأصبحت القاهرة مركزًا لنشاطهم، وأقام الإنجليز صلات مع بعضهم إلى أن سعت إليهم بالحل نفسه في القاهرة، حين التقى عبد الله بن حسين المعتمد البريطانى في القاهرة كتشنر، وعرض عليه الموقف في الحجاز وسأله عن موقف الإنجليز إذا نشبت الحرب بين الحسين والاتحاديين، ويبدو أن الإنجليز قد رفضوا التورط في خطة لمساعدة الشريف حسين، ولم

يبدوا متحمسين أول الأمر للتدخل في مثل ذلك الصراع، فلم تكن العلاقة بينهم وبين الدولة العثمانية قد فسدت بعد إلا أنه وبرغم عدم رغبتهم في التدخل أبقوا على خطوط الاتصال مفتوحة معه، وأخيرًا فكرت بريطانيا في أن قيام ثورة عربية يجبر تركيا على حجز جزء من قوتها العسكرية في البلاد العربية بعيدًا عن جبهات القتال الرئيسية، ولا سيما الجبهة الروسية كما أن قيام ثورة في المنطقة العربية يمكن أن يعزل بين القوات العثمانية الرئيسية في الشام والجيوب العسكرية العثمانية في جنوب شبه الجزيرة العربية، يضاف إلى ذلك أن ألمانيا كانت تأمل في استخدام تحالفها مع الدولة العثمانية لإيجاد جسر لها يوصل بين المستعمرات الألمانية في شرق إفريقيا وألمانيا عن طريق اليمن، وبالتالى فإن الثورة ضد العثمانيين في وسط شبه الجزيرة العربية تفسد هذه الخطة على الألمان بما يصب في مصلحة بريطانيا، كان الشريف حسين من وجهة نظر بريطانيا هو خير من يقوم بمثل تلك المهمة حيث إنه مسلم عربى وينحدر من أسرة تنتسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وهو حاكم مكة في نفس الوقت، فإذا قامت شخصية من ذلك الوزن بثورة على السلطنة العثمانية قد يخفف ذلك كثيرًا من وقع دعوة السلطان العثمانى للجهاد ويقلص من أصدائه، وكانت بريطانيا تخشى كثيرًا من عواقب تلك الدعوة علاوة على أن علاقاته مع العثمانيين كانت شديدة التوتر بسبب سياسة الاتحاديين الأتراك التى كانت تقوم على المركزية وربط الولايات العثمانية شبه المستقلة -مثل الحجاز- بالدولة الأم في القسطنطينية، وكان هذا يعنى تحطيم نفوذه في مكة لذلك ازدادت العلاقات تدهورًا بين الجانبيين خاصة بعد تعيين الاتحاديين وهيب باشا واليًا على الحجاز، ووجد الشريف حسين في مد الدولة العثمانية خط سكة حديد الحجاز من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة خطرًا كبيرًا عليه لأنه يربط الحجاز كله بالشام والدولة العثمانية، ومن هنا فإن الصدام بينهما كان على وشك الوقوع، وتطلع

الشريف حسين إلى دولة كبرى تساعده، ولم يكن أمامه إلا إنجلترا فالتقت مصالح الطرفين، وأدرك مدى فائدته للانجليز وارتباط مصالحهم في هدم الدولة العثمانية بمصالحه، فبدأ تفكيره يزداد طموحًا فلم يعد راغبًا فقط في بسط سيطرته على مكة أو الحجاز بل بات يحلم بالخلافة وقيادة الأمة الإسلامية كلها، فبدأ يتحسس موقف زعماء العرب وأمرائهم في شبه الجزيرة العربية في إمكانية مساندته في القيام بثورة في الحجاز ضد العثمانيين، ورأى في موقفهم ما يشجع على الثورة إلا أن أكبر اتصال قام به كان بالجمعيات الوطنية في سوريا، ويرجع ذلك إلى أن الرأي العام السائد في سوريا والعراق كان يسير في اتجاه الثورة على العثمانيين؛ بسبب قمع جمال باشا قائد الجيش العثماني الخامس في سوريا للحركة القومية العربية، وإعدام كثير من الشاميين، فلما اتصل الشريف حسين بالقوميين العرب في سوريا ارتضوا أن تنطلق الثورة العربية من مركز رئيسي وهو الحجاز، على أن يكون دورهم في سوريا دورًا مساعدًا، وكان الشريف حسين قد أرسل ابنه فيصل إلى دمشق بغرض الاتصال بزعماء الحركة القومية العربية ليعرض عليهم الموقف واتصالاته بالإنجليز، واتفقت كلمة جميع من اتصل بهم فيصل على قبول عروض الإنجليز!!!! وانعقد رأيهم على زعامة الشريف حسين للثورة، وأعطى زعماء جمعيتي العربية الفتاة، والعهد فيصل بن الحسين خريطة تعين حدود الدولة العربية، وطالبوه أن يسعى الشريف حسين على أساسها لنيل الاستقلال، كذلك وضعوا مخططًا للمطالب التي يريدون الشريف حسين أن يتفاوض على أساسها مع الإنجليز.

وهي ما عرفت باسم "بروتوكول دمشق" الذي ينص على:

اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التي تبدأ شمالًا: بخط مرسين - أضنة، ممتدًا على أورفة وماردين وجزيرة ابن

عمر فحدود فارس، وشرقا: حدود إيران حتى الخليج العربي، وجنوبا: المحيط الهندي (ما عدا عدن)، وغربًا: البحر الأحمر والأبيض حتى مرسين.

إلغاء الامتيازات الأجنبية.

عقد تحالف دفاعي بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة.

منح بريطانيا الأفضلية في الشئون الاقتصادية.

لم يكد فيصل ابن حسين يعود إلى مكة بعد الجولة المشئومة التى قام بها في سوريا حاملاً معه ما يسمى بميثاق دمشق حتى بدأت الرسائل تترى بين الشريف حسين والسير آرثر هنري ماكماهون المندوب السامى البريطانى في مصر تلك المراسلات التى عرفت فيما بعد باسم مراسلات حسين - مكماهون، وكان جل محتواها يدور حول منح بريطانيا دولة مستقلة للعرب بالحدود التى حددها ميثاق دمشق، والاعتراف بالشريف حسين خليفة للمسلمين، ورد الإنجليز بعد أن تشاوروا مع مخابراتهم على رسائل الشريف حسين ردودًا غير واضحة المعالم فيما يتعلق بمسألة الحدود، وقالوا بأنها سابقة لأوانها إلا أنهم ومن ناحية أخرى يرون أن فكرة إقامة خلافة عربية هي الصواب بعينه.

إعلان الثورة

كان العثمانيون قد عينوا واليًا جديدًا على الحجاز وكان يتقدم إلى المدينة المنورة ومعه قوة كبيرة، وكان لابد من منعه من الوصول إلى مكة، وعند قبر عم الرسول صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، وفي اليوم الخامس من يونيو من عام1916 -وكأنما يأبى ذلك اليوم إلا أن يكون مشئوما على المسلمين والعرب منهم بشكل خاص- وكان يحتشد هناك ألف وخمسمائة جندي من أولئك الذين جندهم الشريف حسين، وأعلن أبناء الشريف بدء الثورة العربية واستقلال الحجاز

عن الدولة العثمانية، وبعد ذلك الإعلان انطلق الجميع إلى المدينة إلى الجنوب الشرقي منها تحديدًا، وبعد خمسة أيام من ذلك وفي مكة أعلن الشريف حسين قيام ما يسمى بالثورة العربية، وأطلق بنفسه أول رصاصة على القلعة التي كانت تضم الحامية العثمانية الموجودة بمكة، وأذاع بيانًا اتهم فيه الاتحاديين في اسطنبول بالخروج على الشريعة الإسلامية، وكان مما جاء في ذلك البيان:

"وانفصلت بلادنا عن المملكة العثمانية انفصالاً تامًّا، وأعلنا استقلالاً لا تشوبه شائبة مداخلة أجنبية ولا تحكم خارجي".

وتمكنت القوات التي تتبع الشريف حسين وبإشراف من ضابط الاستخبارات الإنجليزي الشهير المعروف باسم لورنس العرب في غضون ثلاثة شهور تقريبًا أن تستولي على جميع مدن الحجاز الكبرى فيما عدا المدينة المنورة التي بقيت محاصَرة إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، وبويع الشريف حسين ملكًا على العرب، وكان من أخس الأعمال التي قامت بها الثورة العربية أن قامت قواتها بقيادة الأمير فيصل بن الحسين بنسف خط سكة حديد الحجاز الذي كان يمتد من الأناضول إلى الحجاز مرورًا بأراضي الشام، وكان من الضروري للإنجليز وللشريف حسين تدمير ذلك الخط الذي كان شريانًا يمكن للقوات العثمانية أن تستخدمه في الإمداد، فكان لابد من قطعه ومنع العثمانيين من استغلاله، وتمكنت تلك القوات من احتلال ينبع ثم العقبة، واتخذوا من العقبة نقطة انطلاق لمحاربة القوات العثمانية في شرق الأردن والتي كان من أهم أسباب هزيمتهم هو أنهم أصيبوا بالذهول مما فعلته قوات الثورة العربية، فلم يكونوا يتصورون أن يقوم إخوانهم من المسلمين العرب بخيانتهم على هذا النحو، وبذلك قدم الشريف حسين للإنجليز ثم لليهود من بعدهم أكبر هدية، حيث استطاع اللنبي قائد القوات الإنجليزية أن يدخل القدس بمعاونة قوات الثورة العربية، وليت الخيانة تقف عند قوات الثورة العربية بل إن مصطفى كمال

أتارتوك فيما بعد قام بسحب الجيش السابع العثمانى كله من فلسطين بدون أن يواجه الإنجليز وسار إلى الأناضول، وزعم بذلك أنه أنقذه من التطويق ثم التدمير، ومن ناحية أخرى فإن احتلال قوات الثورة العربية للمنطقة شرقى معان قد حمى ميمنة القوات البريطانية في فلسطين من هجمات القوات العثمانية عليها في منطقة بئر سبع والخليل وحمى خطوط مواصلاتها، ولم تلبث القوات العربية أن تقدمت في سبتمبر من عام1918 فاحتلت دمشق واصطدمت بالأتراك قبل أن يدخلها اللنبى الذي ركل قبر الناصر صلاح الدين الأيوبى، وأعلن أن آخر الحروب الصليبية قد انتهت بدخول القدس، ولم يمض أكثر من شهر حتى انسلخت سوريا تمامًا من عباءة الدولة العثمانية التى كانت تحكم هناك لمدة ما يقرب من أربعة قرون وبعد انهيار الدولة العثمانية وانتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وتمكن القوات الفرنسية والبريطانية من دخول بعض العواصم العربية أصيب عدد من رواد الإصلاح بخيبة أمل، وعلى رأسهم الشيخ محمد رشيد رضا عندما علموا أن الأسطول الإنجليزي هو الذي أسقط ثغور جدة ورابغ وينبع وغيرها من موانئ الحجاز، وأن ثغر بور سودان كان القاعدة التى انطلق منها الأسطول الإنجليزي لدعم ثورة الشريف حسين، وازداد شعورهم بالخيبة عندما وجدوا ضباط إنجلترا وفرنسا هم الذين يقودون القبائل العربية مثل اللنبى وبرسى كوكس وكاترو وهنري غورو والضابط الشهير توماس لورانس، ثم تكررت المرارة والحسرة عندما ارتفعت أعلام بريطانيا وفرنسا على المناطق التى قاتل فيها العرب، ولم يكن بينها علم الدولة العربية المنتظرة فبعد أن تولى الملك فيصل حكم سوريا طرده الفرنسيون بالاتفاق مع بريطانيا منها، واحتلوها في يوليو من عام1920 بعد معركة ميسلون، ومنحه الإنجليز العراق بعد أن ثار العراقيون على الحكم البريطانى لهم في الوقت الذي منحوا فيه أخيه الملك عبد الله بن الحسين الأردن ليؤسس دولة للهاشميين؛ لتكون حاجزا

يفصل بين الدولة اليهودية التى كانت حينئذ قيد الإنشاء وبين أي تهديـد عربى مستقبلى، وكذلك كمقابل لقـاء تعـاون الشـريف حسـين معهـم في إسقاط الدولة العثمانية.

الفصل العاشر

أهم معارك الجبهة الإيطالية

إيطاليا وأوربا

كانت إيطاليا حليفة لألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر منذ عام1882 حيث كانت إيطاليا أحد الدول الثلاث التي وقعت تلك الاتفاقية والتي بمقتضاها تعهدت كل من الدول الثلاث بأن تقف عسكريًّا إلى جانب أي من الدولتين الأخريين إذا تعرضت أي منهما إلى هجوم عسكري، وأعلنت إيطاليا أن حلفها هذا مع الدولتين لا ينبغي أن يفسر على أساس أنه عمل موجه ضد إنجلترا، وبرغم توقيعها لتلك المعاهدة وتجديدها في عام1902 إلا أن إيطاليا كانت لها أطماعها الإقليمية في الأراضي التي كانت تابعة في ذلك الوقت لإمبراطورية النمسا والمجر، حيث كانت ترغب في ضم ترنتينو وإستريا ودالماشيا، وفي نفس الوقت كانت إيطاليا قد دخلت في حلف سري مع فرنسا في عام1902 وكان ذلك الحلف بمثابة إلغاء فعلي لاتفاقية التحالف الثلاثي، وعند اندلاع الحرب رفضت إيطاليا تقديم أي قوات إيطالية لتحارب إلى جانب دول المحور، وكانت حجتها في ذلك أن اتفاقية التحالف الثلاثي كانت دفاعية في طبيعتها، وأن النمسا والمجر هي التي بدأت العدوان، وبدأت حكومة النمسا والمجر التي كانت تتشكك في نوايا إيطاليا في الدخول معها في مفاوضات لضمان وقوفها على الحياد مقايضة إياها بتونس، في المقابل التي كانت في ذلك الوقت مستعمرة فرنسية بعد

انتزاعها من فرنسا، حيث كانت دول المحور تأمل تجريد إنجلترا وفرنسا من مستعمراتهما، وكانت إيطاليا في ذلك الوقت كانت قد انضمت إلى دول التفاهم Entente في أبريل من عام1915 والتي كانت تضم بريطانيا وفرنسا وحليفتهما في ذلك الوقت روسيا القيصرية وأعلنت إيطاليا الحرب على النمسا والمجر في شهر مايو من نفس العام، ولاحقاً وبعد خمسة عشر شهراً أعلنت إيطاليا الحرب على ألمانيا، ومن الناحية العسكرية كان الإيطاليون متفوقين عددياً، ولكنهم وأثناء سير المعارك فقدوا تلك الميزة، ولا يرجع ذلك فقط إلى صعوبة الأرض التي دارت عليها المعارك، ولكن كذلك بسبب الاستراتيجيات والتكتيكات التي استخدموها والتي كانت دائمًا ما تثبت فشلها، وكان الفيلد مارشال لويجي كادورناLuigi Cadorna وهو من أشد أنصار الهجوم من الأمام تحمسًا يحلم دائمًا بالاندفاع إلى السهل السلوفيني والاستيلاء على "ليوبليانا" وتهديد فيينا، وكانت تلك خطة نابوليونية ليس لها أية فرصة واقعية للنجاح في ذلك العصر الذي تعتمد فيه الدفاعات على الأسلاك الشائكة والرشاشات ونيران المدفعية غير المباشرة، إضافة إلى طبيعة الأرض الجبلية الوعرة المليئة بالتلال، وأصر المارشال الإيطالي على الهجوم على جبهة "إيسونزو" وشن إحدى عشرة هجمة غير ملتفت إلى حياة رجاله، وكان الإيطاليون قد قاموا بالهجوم من ناحية أخرى لتخفيف الضغط على جبهات الحلفاء الأخرى، وفي جبهة ترنتينو استغل قادة النمسا والمجر الطبيعة الجبلية للأرض في الدفاع الجيد، وبعد انسحاب إستراتيجي أولي ظلت الجبهة كما هي لم تتغير بشكل كبير، بينما اشتبكت القوات النمساوية المجرية المعروفة باسم المدافعين القيصريينKaiserschützen وStandschützen مع قوات الألب الإيطالية Alpini في معارك مريرة بالسلاح الأبيض وبالأيدي خلال الصيف، وقامت قوات النمسا والمجر بهجوم مضاد على منطقة التوبيانوازياجو Altopiano Asiago باتجاه فيرونا Verona وبادوا Padua في ربيع عام1916 في الهجوم

المعروف باسم Strafexpedition أو الحملة التأديبية، ولكنهم لم يحرزوا تقدمًا ملموسًا، وبدءًا من عام1915 شن الإيطاليون أحد عشر هجومًا بطول نهر إيسونزو Isonzo شمال شرق تريسته Trieste، وصدت القوات النمساوية المجرية كل تلك الهجمات حيث كانوا يسيطرون على مناطق عالية، وهناك مقولة مشهورة عن محاولات الجيش الإيطالي لاحتلال التيرول في الحرب العالمية الأولى وهي أنه في إحدى عشرة مرة حاول فيها الإيطاليون احتلال التيرول لم يفشلوا إلا إحدى عشرة مرة، وفي صيف عام1916 تمكن الإيطاليون أخيرًا من تحقيق انتصار بسيط باستيلائهم على مدينة جوريتسيا Gorizia، وبعد ذلك الانتصار ظلت الجبهة ثابتة على حالها لأكثر من عام برغم الهجمات الإيطالية العديدة، وفي خريف عام1917، وبفضل الموقف الذي تحسن على الجبهة الشرقية تمكنت قيادة النمسا والمجر من نقل قوات من الجبهة الشرقية إلى الجبهة الإيطالية بما فيهم قوات الاقتحام الألمانية Stormtroopers، وأفضل عناصر القوات وهي فيلق الألب Alpenkorps، وشنت قوات دول المحور هجومًا ساحقًا في السادس والعشرين من أكتوبر1917، وكان الألمان على رأس حربة الهجوم وحققوا انتصارًا في معركة كابورتو Caporetto، واندحر الجيش الإيطالي، وانهزم هزيمة منكرة وانسحب إلى الخلف لمسافة أكثر من مائة كيلومتر، وبعد انسحابهم استطاع الإيطاليون إعادة تنظيم صفوفهم وتثبيت الجبهة عن نهر بيافيه Piave، ومن بعد انتهاء معركة كابورتو Caporetto عانى الجيش الإيطالي من خسائر كبيرة، واستدعت الحكومة كل ذكر بدءًا من سن ثماني عشرة سنة، وفي عام1918 فشلت القوات النمساوية المجرية في اختراق القوات الإيطالية في سلسلة من المعارك في سهل أزياجو Asiago، وأخيرًا هزمت القوات النمساوية المجرية بشكل حاسم في معركة فيتوريو فينيتو Vittorio Veneto في أكتوبر من نفس العام، واستسلمت النمسا والمجر في أوائل نوفمبر من عام 1918.

معارك إيسونزو

سميت معارك إيسونزو Isonzo بذلك الاسم لأنها دارت حول نهر Isonzo في القطاع الشرقي للجبهة الإيطالية فيما بين يونيو من عام1915 ونوفمبر من عام1917، وتقع منطقة Isonzo داخل ما يعرف اليوم باسم جمهورية سلوفينيا غير أنه وخلال الحرب العاليمة الأولى كان ذلك النهر وطوله ستين ميلاً إلى الشمال الشرقي داخل إمبراطورية النمسا والمجر على حدودها مع إيطاليا على رأس البحر الأدرياتي وهو محاط بالجبال من الجانبين.

القطاع الأساسي للعمليات الإيطالية

كانت المنطقة الفعلية للعمليات العسكرية الإيطالية خلال الحرب هي منطقة الجبال الممتدة بطول أربعمائة ميل من الجبهة، والتي كانت تسيطر عليها القوات النمساوية المجرية، وقد عنى النمساويون بتحصين الجبال أمام دخول الإيطاليين الحرب في الثالث والعشرين من مايو من عام1915 وقد قدر رئيس الأركان الإيطالي لويجي كادورنا Luigi Cadorna بأن الجيش الإيطالي يمكنه تحقيق مكاسب في السهل الساحلي شرق النهاية المنخفضة لنهر Isonzo بالاستيلاء على المنطقة من جوريتسيا Gorizia إلى تريسته Trieste، وكذلك كان يعتقد بأن الجيش الإيطالي يمكنه القيام بضربات في الشمال، وتجاوز الجبال على جانبي النهر للوصول إلى مؤخرة القوات النمساوية المجرية.

الصعوبات الخاصة بالجبهة الإيطالية

لم يكن لويجي كاورنا يتوقع أن يكون قطاع إيسونزو سهلاً، وكان على

دراية تامة بأن النهر قارب على الفيضان، وفي الحقيقة سجلت أمطار غزيرة خلال الفترة من1914 إلى1918، وعلاوة على ذلك عندما يقوم الجيش الإيطالي بالهجوم في الشمال فستواجهه ورطة، وهي أنه لكي تتمكن القوات الإيطالية من اجتياز نهر إيسونزو بسهولة فعليها قبل ذلك أن تقضي على المدافعين من قوات النمسا والمجر المتحصنين في أعالي الجبال، وفي نفس الوقت يحتاجون من أجل عبور النهر أن يقوموا بتحييد تلك القوات، وهو عائق لم ينجح الإيطاليون في تجاوزه، وفي الجنوب بطول المنطقة الساحلية كانت هناك بعض الخصائص الطوبوغرافية، مثل وجود مجموعة من المرتفعات والأودية، وبدا كما لو كانت الطوبوغرافيا تعمل لمصلحة قوات النمسا والمجر.

الخسائر الكبيرة

بالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الإيطاليون والموارد الضخمة التي استنزفوها للانتصار على جبهة إيسونزو إلا أن النتائج كانت مخيبة للآمال بشكل كبير، ولم تكن لها أية قيمة تكتيكية وخصوصًا مع الصعوبات الطوبوغرافية التي انطوت عليها الحملة، وقد تم اختيار القطاع أساسًا لأن الإيطاليون كانوا يأملون اغتنام مكاسب على الأرض من ورائه إلا أن الخسائر المتوالية الناتجة عن المعارك المختلفة التي تم خوضها في جبهة إيسونزو كانت ضخمة في مجموعها، وكانت الخسائر هناك وحدها تعادل نصف عدد الجنود الذي خسرته إيطاليا في تلك الحرب (ثلاثمائة ألف قتيل)، وبالرغم من أن خسائر القوات النمساوية المجرية لم يكن بمثل تلك الضخامة إلا أنها كانت عالية ولا ريب، حيث كانت الخسائر الإجمالية لإمبراطورية النمسا والمجر في الحرب كلها 1.2مليون قتيل، بينما كانت خسائرها في جبهة إيسونزو مائتا ألف قتيل، وهو رقم مرتفع بلا شك،

خصوصًا وأنها كانت تواجه جيشًا ضعيف التدريب يقوده رجال هم أقرب للإداريين منهم للجنرالات.

عدد المعارك

يعتبر عدد المعارك التي خاضها الإيطاليون ضد قوات النمسا والمجر على جبهة إيسونزو محلا للنقاش، ولا شك أن بعض المعارك التي تم خوضها اختلطت مع معارك أخرى، وقد أطلق بعض المؤرخين أسماء محددة على بعض معارك إيسونزو وأكثرهم شهرة هي معركة كابوريتو Caporetto في أكتوبر من عام1917، وهي المعركة الثانية عشرة في سلسلة معارك إيسونزو.

معركة إيسونزو الأولى

عكست معركة إيسونزو في كثير من أوجهها الملامح التي ميزت معارك الجبهة الغربية، بالرغم من أنها كانت على نطاق أصغر، وحيث كانت المعارك الدائرة في فرنسا والفلاندرز فإن معارك إيسونزو تحددت ببدء معارك الخنادق.

الموقف العسكري الإيطالي

بالتأكيد لم يكن في نية رئيس الأركان الإيطالي لويجي كادورنا أن تكون الحرب على تلك الجبهة إلا حربًا متحركة، وأصر هو بأكثر مما فعل معاصروه على الجبهة الغربية على أن يجعل الإستراتيجية الإيطالية تعتمد على تكتيكات المشاة الهجومية إلى حد بعيد، فعاود الكرة مرة بعد مرة لكسر الجمود الذي يميز حرب الخنادق، ولكن الظروف في كل مرة كانت

تتعاون من أجل هزيمة أهدافه، وحيث كان كادورنا قد يئس من محاولة إرضاء الحلفاء وكذا حكومته بالطبع عن طريق تأمين مكاسب سريعة على الأرض يقتنصها من أيدي القوات النمساوية المجرية، وكانت تلك الأخيرة سعيدة لعدم اضطرارها لشن هجوم، والتزامها سياسة الدفاع نظرًا لأن الجيش النمساوي المجري بقيادة إويجن Eugen وريوورويفيتس Boroevic كان معدًّا فقط لحرب دفاعية، وكانت الجبال التي يتحصن بها بطول نهر إيسونزو ذات فائدة كبيرة له لخدمة ذلك الغرض.

حرب الخنادق على الجبهة الإيطالية

بينما بدأت العمليات الحربية رسميًّا بدخول إيطاليا الحرب في أواخر مايو من عام1915 إلى جانب الحلفاء. كانت الاستعدادات للمعركة قد قطعت شوطًا كبيرًا، وكان كادورنا ينتوي القيام بعدة هجمات مفاجئة عبر نهر إيسونزو بمجرد أن تبدأ الحرب، وكان القادة النمساويون يتوقعون شيئًا مماثلاً فقاموا بتحصين الممرات الجبلية التي يتوقعون فيها هجومًا مماثلاً، واستغرق إعداد الخنادق والخطوط الدفاعية من النمساويين السنة التي انقضت من الحرب.

العد التنازلي للمعارك

بمجرد إعلان الحرب شن كادورنا هجومه المفاجئ وكان يسمى القفزة الأولى Primo Sbalzo والذي كان يستهدف مناطق معينة على طول الجبهة الإيطالية، وكانت سلسلة الهجمات تلك قد تم التخطيط لها بهدف دفع مواقع الجيش الإيطالي إلى الأمام، وهكذا تقدمت القوات الإيطالية إلى الشمال الشرقي عبر الحدود الإيطالية النمساوية إلى ضفة النهر، وتمكن الجنرال الإيطالي فروجوني Frugoni من الاستيلاء على كابورتو

وإلى الشمال نوعًا حاول الدوق أوستا Aosta التقدم على Caporetto جوريتسيا، ولكن قاومت القوات النمساوية المجرية المتمركزة حول المدينة والجبال المحيطة بها، وفي الجنوب لم يكن الإيطاليون قادرين على التقدم بنفس القوة بسبب الفيضانات الموسمية حول مونفالكونيه Monfalcone والتي كان ينبغي على دادورنا التنبؤ بها، وكذلك فشلت الهجمات الإيطالية على رأس جسر تولمينو Tolmino في جبل كرن Krn بسبب عيوب في التخطيط ونقص الدعم المدفعي، وعند ذلك أصدر كادورنا أوامره بمحاولة إقامة رأس جسر بين جوريتسيا وتولمينو في هجوم فاشل استمر بين الحادي عشر والسابع عشر من يونيو من عام1915، وكان ذلك هو الهجوم الأخير قبل معركة إيسونزو الأولى والتي بدأت بعد أسبوع من ذلك في الثالث والعشرين من الشهر وهي واحدة من أربع هجمات إيطالية على تلك الجبهة خلال عام 1915 .

معركة إيسونزو الأولى

دارت تلك المعركة من الثالث والعشرين من يونيو إلى السابع من يوليو وكان هدف الإيطاليين هو دفع القوات النمساوية المجرية بعيدًا عن مواقعها الدفاعية بطول النهر، وعدديًا كان الإيطاليون يتفوقون على قوات النمسا والمجر، وكان الجنرال بورويفيتتس قد جهز قوة من حوالي مائة ألف جندي، بينما كان لدى فروجوني وأوستا حوالي ضعف هذا العدد، علاوة على امتلاكهم لمائتي مدفع، وبالرغم من تفوقهم العددي الظاهر وبعد أسبوع من القصف المدفعي المتواصل على مواقع قوات النمسا والمجر إلا أن هجومهم بالمشاة على تلك المواقع قد انسحق تمامًا وضاعت محاولتهم لعبور النهر وسلسلة الجبال من ورائه سدًى، وكأن كادورنا كان يقوم بإعادة أخطاء القادة على الجبهة الغربية، فقد اختار أن يقوم بهجوم بقوات كبيرة العدد من المشاة بدون أن يوفر لها الدعم المدفعي الكافي لحمايتها،

والأكثر من ذلك أنه أضعف من قوة هجومه بشن هجمات ثانوية وغير ضرورية تكتيكيًّا في ترنتينو Trentino ووسط إيسونزو قرب جوريتسيا، وتم على عجل إرسال فرقتين إضافيتين من القوات النمساوية لمعاونة بوروبفيتس، ومنع النمساويون محاولة إيطالية لعبور النهر وفشل الهجوم الإيطالي فشلا ذريعًا -كما سيكون الحال في معظم المعارك التي ستخوضها إيطاليا في هذه الحرب- وعلى أثر ذلك ألغى كادورنا الهجوم بعد أسبوعين في السابع من يوليو، غير أن الإيطاليين قد حققوا بعض المكاسب الضئيلة، فقد تمكنوا من احتلال جبل كرن جزئيًّا واستولوا على المرتفعات قرب بليتزو Plezzo وكذلك جبل كولورات قبالة ترنتينو، وكان توقف العمليات قصيرًا فقد بدأت معركة إيسونزو الثانية في الثامن عشر من الشهر.

معركة كابوريتو

استمر الفشل والهزيمة علامة مميزة لقتال القوات الإيطالية على تلك الجبهة طوال فترة الحرب تقريبًا حتى ختمت معركة كابورتو سلسلة الهزائم المروعة التي منيت بها إيطاليا، وكانت في تلك المعركة تواجه قوات ألمانية ونمساوية مجرية حيث استمع القادة الألمان أخيرًا إلى المطالب المتلاحقة للقيادة النمساوية بمد العون لهم على الجبهة الإيطالية، وعرف كادورنا باستعداد الألمان للتدخل وكان يخشى من ذلك كثيرًا وأمدته تقارير الاستطلاع الجوي بالإضافة إلى التقارير التي كان يحصل عليها من الجنود الفارين بصورة جيدة للوضع والتنسيق الألماني النمساوي، فقرر إلغاء هجومه المزمع والتزام جانب الدفاع هذه المرة وبدأت تسع فرق نمساوية مجرية وست فرق ألمانية في التحرك نحو ميدان المعركة بقيادة الجنرال أوتو فون بيلوفOtto von Below وبالرغم من أن الإيطاليين احتفظوا بأفضليتهم العددية تلك المرة أيضًا حيث كان عدد فرقهم إلى عدد الفرق النمساوية

والألمانية واحد وأربعون إلى خمسة وثلاثين بطول جبهة إيسونزو إلا أنهم كانوا أضعف في النقطة التي اختارتها القيادة الألمانية لشن الهجوم المشترك، وصدرت الأوامر إلى القائد المحلي في كابوريتو كابلو Capello بإعداد خط دفاعي واختار هو بدلاً من ذلك انتهاج سياسة هجومية، وحشد قواته للهجوم على الجناح الجنوبي لجيش فون بيلوف إلى الشرق من جوريتسيا، وفي الثانية صباحًا في الرابع والعشرين من شهر أكتوبر1917 ومن نتوء عند تولمينو وخلال ضباب كثيف شنت القوات الألمانية النمساوية المجرية المشتركة هجومًا مفاجئًا على القوات الإيطالية، وبدأ بتمهيد مدفعي بدانات تحوى المواد شديدة الانفجار ودانات الغاز والدخان، واجتاحت القوات المشتركة خطوط الجيش الثاني الإيطالي بدون إبطاء وتقدموا لمسافة خمسة وثلاثين كيلومترًا قبل طلوع النهار مهاجمين بأساليب الاقتحام واستغلال الثغرات في الخطوط الإيطالية عن طريق القنابل اليدوية وقاذفات اللهب إلا أن الهجمات الثانوية التي شنها بيلوف على كل من جانبي القوات الإيطالية قد قام الإيطاليون ،بصدها وبالمثل لم يتمكن الجيش الخامس النمساوي المجري من التقدم بشكل جيد إلى الساحل الجنوبي غير أن النجاحات الكاسحة لبيلوف في الوسط قد شكلت خطورة على القوات الإيطالية الرئيسية عند نهر تاليامنتو Tagliamento، وبمجرد كسر تلك الخطوط في الصباح الباكر بدأ كابلو في الانسحاب باتجاه نهر تاليامنتو، وكان يدفعه إلى ذلك كادورنا الذي كان يأمل في تعافي قواته من تلك الهزيمة، حتى مر أسبوع فصدرت الأوامر إلى القوات الإيطالية بعبور النهر في عملية استغرقت أربعة أيام، وفي تلك الأثنا. كانت الفرقة الألمانية قد أقامت رأس جسر لها إلى الشمال عند تاليامنتو في الثاني من نوفمبر، وبدأ النجاح الذي أحرزته القوات المشتركة في العمل ضدها حيث استطالت خطوط إمدادهم وبدأت تتهاوى، واستغل كادورنا عدم قدرة القوات المشتركة على شن هجوم وأصدر أوامره بالانسحاب إلى نهر بيافيه على

بعد ثلاثين كيلومترًا من فينيسيا، وهي عملية استغرقت عدة أيام حتى اكتملت في العاشر من نوفمبر، وكانت خسائر الإيطاليين في تلك المعركة هائلة بحق حيث فقدوا أحد عشر قتيلاً وجرح عشرون ألف جندي وأسر مائتان وخمسة وسبعون ألفًا من جنودهم، واستولى النمساويون على ألفين وخمسمائة قطعة مدفعية بالرغم من أن معظمها قد أعطبه الإيطاليون قبل انسحابهم، وتقدمت القوات الألمانية والقوات النمساوية المجرية لمسافة مائة كيلومتر باتجاه فينيسيا، ولكنهم لم يتمكنوا من عبور نهر بيافيه Piave حيث أقام الإيطاليون بمساعدة حلفائهم من البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين خطًا دفاعيًا تمسك به الإيطاليون في معركة نهر بيافيه، وجعلوه نقطة انطلاق لهم في معركة فيتوريو فينيتو فيما بعد، ومما يذكر أن المارشال روميل الشهير كان يقود كتيبة فورتمبرج Württemberg من القوات الجبلية في تلك المعركة، ونجحت كتيبته في أسر ثلاثة آلاف جندي إيطالي، وتم منحه وسام الاستحقاق عن تلك العملية وكانت عبقريته قد تجلت في الاستيلاء على جبل ماتاجور Matajur إلى الجنوب الغربي من كابوريتو، وبالرغم من الرواية الشهيرة (التي لم تثبت صحتها) التي تفيد بأنه لم ينم لمدة خمس وأربعين ساعة إلا أنه لم يتوقف هناك، واندفع إلى الأمام ليستولي على حامية مدينة لونجارونيه Longarone، وأدت هزيمة الإيطاليين في تلك المعركة إلى انعقاد مؤتمر رابالليو Rapallo وإنشاء مجلس حرب أعلى لتحسين التنسيق بين جهود الحلفاء العسكرية ولإيجاد إستراتيجية موحدة في القتال، وأجبر رئيس أركان القوات الإيطالية في ذلك الوقت لويجي كادورنا على الاستقالة بعد تلك الهزيمة المخزية، وحل محله آرماندو دياز Armando Diaz وبيترو بادوليو Pietro Badoglio، وبعد هزيمة كابوريتو أنشأت الحكومة الإيطالية مكاتب للدعاية كانت تعد الجنود بالعدالة الاجتماعية وبامتلاك الأراضي، والتزمت إيطاليا بسياسة عسكرية أكثر حذرًا منذ تلك المرحلة حيث انخفضت خسائرها العسكرية إلى

الخمس بعد تلك الهزيمة، وأصبح اسم كابوريتو في إيطاليا يعني الهزيمة.

معركة نهر بيافيه

بعد هزيمة كابوريتو وتسلم الجنرال آرماندو دياز للقيادة قام بتجهيز خط من الدفاعات القوية بطول نهر بيافيه، وكان الجيش الإيطالي حتى تلك اللحظة يحارب وحده، وبعد هزيمة كابوريتو أرسلت بريطانيا وفرنسا بتعزيزات إلى الجبهة الإيطالية، وكانت القوات النمساوية المجرية قد مرت بتغيير في القيادة مؤخرًا حيث استلم رئاسة الأركان آرتور فون شتراوسنبرجArthur von Straussenburg، وبدأت الاستعدادات لشن هجوم على الإيطاليين في فبراير بعد اجتماع تم انعقاده في بولتزانوBolzano بين القيادة الألمانية والقيادة النمساوية، وأوصى فيه الألمان وعلى رأسهم لودندورف بأنه من الأفضل دفع الحلفاء إلى إعادة توجيه القوات الأمريكية المتزايدة في فرنسا إلى الجبهة الإيطالية.

التكتيك

لم يكن القادة النمساويون قد أعدوا للهجوم في نقطة واحدة ولكن كهجوم شامل بطول المواجهة مستخدمين في ذلك كامل قوة جيشهم على الجبهة، وتم تدريب القوات النمساوية المجرية على تنفيذ التكتيكات التي استخدمها الألمان في هجوم الربيع على الجبهة الغربية، حيث كان الضباط النمساويون الذين عادوا من الجبهة الشرقية قد تم تدريبهم بشكل مكثف إلى جانب نظرائهم الألمان، وعلى الجانب الآخر كان رئيس الأركان الإيطالي الجديد قد توصل بعد تحليله لهزيمة كابوريتو إلى أن الأسباب التكتيكية المباشرة للهزيمة هي نقص في قدرة الوحدات الإيطالية على

الحركة، وأنها قد هوجمت وهي تـدافع في إطـار فكـر دفـاعي يخلـو مـن المرونة، وكذلك نظام القيادة والسيطرة الشديد المركزية وانعـدام الـدفاعات الإيطالية في العمق، وكانت الخطط الجديدة التي تم إعـدادها للمعركـة قـد ألغت كل النظم القديمة من الخنادق المتصلة وتطوير نظام دفاعي ذي قـدرة عالية على الحركة والذي كـان يسـمح فيـه للوحـدات الأصـغر بـالتحرك بحرية بين نقاط حصينة معروفة لهم، وحرية اتخاذ القرار حسب ما تقتضيه الظروف من الانسـحاب أو شـن هجـوم مضـاد أو طلـب الـدعم المـدفعي مباشرة، علاوة على ذلك تم تنظيم ثلاث عشـرة فرقـة مـزودة بسـتة آلاف شاحنة كاحتياطي مركزي لإرسالها إلى حيث يتطلب الأمر.

المعركة

علم الجنرال دياز بالموعد المحدد للهجوم النمساوي في الثالثة صـباحًا في الخامس عشر من يونيو، وعليه قامت المدفعية الإيطالية بفـتح النـار بطـول المواجهة على خنادق النمساويين المكتظـة بـالجنود مما تسـبب في خسـائر جسيمة، وفي بعض الأماكن كان يـتم إلغـاء أو تأجيـل الهجـوم مـن جـراء القصف المدفعي حيث بدأ الجنود النمساويون يلجئون إلى الخنـادق حيـث ظنوا أنهم بصدد هجوم إيطالي غير متوقع، ولكن الهجوم النمساوي الجـري استمر على قطـاع كـبير مـن الجبهـة، وأطلـق بـورويفيتس الموجـة الأولى للهجوم متحركًا إلى الجنوب بطـول سـاحل الأدريـاتيكي وعنـد منتصـف مسار نهر بيافيه، ونجح في اكتساب أرض بـالرغم مـن المقاومـة الإيطاليـة العنيفة هذه المرة قبل أن تتوقف قواته بسـبب المقاومـة الإيطاليـة، ويصـدر أوامره بالانسحاب، وفي الأيام التالية استأنف بـورويفيتس هجماتـه ولكـن القصف المدفعي دمر الكثير من الكباري النهريـة، وأصـبحت التشـكيلات النمساوية التي عبرت النهر غير قادرة على تلقي التعزيزات أو الإمـدادات،

وفي التاسع عشر من يونيو شن دياز هجومًا مضادًا على مجنبة بـورويفيتس مكبـدًا إيـاه خسـائر فادحـة، وفي الثالـث والعشـرين مـن يونيـو اسـتعاد الإيطاليون كل الأراضي جنوب بايفيه، وانتهت المعركة، وفي نفـس الوقـت هاجم كونراد بطول الخطوط الإيطالية إلى الغرب من بـورويفيتس في سـهل آزياجو في الخامس عشر من الشهر بهدف احـتلال فيتشـنتزا Vicenza، ولم يأت ذلك الهجوم بجديد اللهم إلا أربعـين ألـف قتيـل تكبـدتهم القـوات النمساوية، وبعد انتهاء المعركة انتقد بورويفيتس بشدة سلوك كونراد الذي فضل استمرار الهجوم في قطاعه بعد فشل الهجوم على بيافيـه في أول يـوم بدلاً من إرسال قواته كتعزيزات إلى قطاع بيافيه.

النتائج

بعد انسحاب النمساويين ألح الحلفاء على دياز للاستمرار في الضـغط وعدم التوقف ومحاولة الهجوم على الـدفاعات النمسـاوية، واقتنـاص نصـر حاسم، ولكنه رفض معللاً بانتشار قواته وتبعثرها وصعوبة جمعها، علاوة على ذلك بمجرد عبورهم للنهر سيواجهون نفس المشكلة اللوجيستية التي واجهها النمساويون، ولتلـك الأسـباب تميـزت الأيـام الـتي تلـت المعركـة بالهدوء النسبي ما خـلا بعـد العمليـات البسـيطة بهـدف اكتسـاب وقـف أفضل عند بدء القتال مجددًا، ومن ناحية أخرى أشارت هزيمـة نهـر بايفيـه إلى بداية انتهاء جيش النمسا والمجر والذي تم الإجهاز عليه بعد أربعة أشهر في معركة فيتوريو فينيتو، حيث هاجم الجنرال ديـاز مـدعومًا بقـوات مـن الحلفاء في الثالث والعشرين من أكتوبر مـن عـام1918 النمسـاويين، وقـام بالهجوم الأخير في الحرب على الجبهة الإيطالية، وقامـت القـوات المشـتركة بعبور نهر بيافيه واستولى الجيش الإيطالي على فينيتو، وتقدم باتجاه ترنتـو Trento مهددًا بقطع الطريـق علـى انسـحاب القـوات النمسـاوية، وتقـدم

الجيش الحادي عشر بقيادة الجنرال جراتزياني يدعمه على جانبه الجيش التاسع، وفي الثلاثين من أكتوبر تم شق الجيش النمساوي إلى نصفين، وكانت النتيجة أن فقدت النمسا والمجر ثلاثين ألفا وما بين ثلاثمائة ألف إلى خمسمائة ألف أسير، وفقد الإيطاليون ثمانية وثلاثين ألفا والذي أجبر النمساويين على قبل المدنة والتي أصبحت سارية المفعول في الرابع من نوفمبر من عام1918، وأنهت تلك المعركة الحرب العالمية الأولى على الجبهة الإيطالية، وكذلك أنهت وجود ما يسمى بإمبراطورية النمسا والمجر، ففي الحادي والثلاثين من أكتوبر تركت المجر الاتحاد مع النمسا، وأعلنت أجزاء أخرى من الإمبراطورية استقلالها، وجعل انقسام النمسا والمجر بهذا الشكل الاستمرار في الحرب شيئًا مستحيلا بالنسبة لألمانيا.

الفصل الحادي عشر

معركة جوتلاند وحرب الغواصات

معركة جوتلاند

الأدميرال راينهارد شير

في عام 1916 تولى الأدميرال "راينهارد شير" القيادة العامة لأسطول عالي البحار الألماني خلفًا للأدميرال "هوجو فون بول"، وكان "شير" عدوانيًا وتميز بالروح القتالية العالية فعكف منذ توليه قيادة الأسطول الألماني على وضع خطة لتقليص حجم الأسطول البريطاني عن طريق إدخال أعداد صغيرة منه في معارك صغيرة، يتم فيها تحطيمه، وكان "راينهارد" قد تدرج في المناصب القيادية في سلاح البحرية القيصري الألماني، فمنذ أن عين قائدًا لبارجة في عام1907 حتى بدأ نجمه في البحرية الألمانية في الصعود، فعينه قائد أسطول أعالي البحار الألماني الأدميرال "هنينج فون هولتسندورف" رئيسًا لأركانه في عام1910 ثم بعدها بثلاث سنوات، أصبح "شير" قائدًا للسرب القتالي الثاني وقد تولى "شير" التخطيط لعمليات الغواصات ضد الحلفاء. وكان من أكبر المتحمسين للغواصات، وقبل نهاية الحرب بقليل تم تعيينه رئيسًا لأركان السلاح البحري الألماني، وخطط "شير" لعدة عمليات شديدة الجرأة على الأسطول البريطاني إلا أن التمرد الذي قام به البحارة في مدينة "كيل" الألمانية قد عرقل كل خططه، حتى انتهى الحال بإقالة القيصر له في نهاية

عام1918، ويحسب له أنه وإن لم يحقق أغراضه الإستراتيجية في معركة جوتلاند إلا أنه تمكن من جر البريطانيين للفخ الذي أعده بمهارة، وهز ثقة البريطانيين في سلاحهم البحري وحتى من الناحية التكتيكية البحتة يعتبر "شير" هو المنتصر في تلك المعركة التي تمت على أثرها إقالة الأدميرال "جليكو" من قيادة البحرية البريطانية.

معركة جوتلاند

كانت معركة جوتلاند Jutland أكبر المعارك البحرية في الحرب العالمية الأولى على الإطلاق، وكانت أكبر معركة من حيث الحجم تصطدم فيها البوارج، ويعتبرها البعض أكبر معركة بحرية في التاريخ، وإن كان ذلك القول محل نظر، وقد دارت تلك المعركة بين الحادي والثلاثين من مايو إلى الأول من يونيو من عام1916 في بحر الشمال قرب "جوتلاند"، وهي شبه الجزيرة الرئيسية التي تشير نحو الشمال من أرض الدنمارك، وكانت الأساطيل المتحاربة في تلك المعركة هي أسطول بحر الشمال للبحرية الإمبراطورية الألمانية بقيادة نائب الأدميرال "راينهارد شير" والأسطول البريطاني الكبير من البحرية الملكية البريطانية بقيادة الأدميرال سير "جون جليكو"، وكان هدف الأسطول الألماني هو اجتذاب وعمل فخ وتحطيم جزء كبير من الأسطول البريطاني الكبير، حيث لم يكن الأسطول الألماني يمتلك أعدادًا كافية من السفن الحربية تسمح له بالاشتباك دفعة واحدة مع الأسطول البريطاني كله، وكان ذلك يشكل جزءًا من إستراتيجيتهم الكبيرة لكسر الحصار البريطاني البحري في بحر الشمال، والسماح للأسطول التجاري الألماني بالعمل مرة أخرى، ومن ناحية أخرى كانت الإستراتيجية البحرية البريطانية تقوم على منهج الاشتباك مع الأسطول الألماني بأعداد كبيرة وتدميره أو على الأقل الإبقاء على القوة البحرية

الألمانية حبيسة وبعيدة عن الخطوط الملاحية للبحرية التجارية البريطانية، وكانت الخطة الألمانية هي استخدام مجموعة استطلاع نائب الأدميرال "فرانتس هيبر" المكونة من خمس طرادات حديثة لاجتذاب أسراب الطرادات التابعة لنائب الأدميرال سير "ديفيد بيتي" من خلال مفرزة غواصات باتجاه الأسطول الألماني الأساسي وبالتالي تدميرها، ولكن البريطانيين علموا من خلال اعتراض الإشارات أن هناك عملية كبيرة للأسطول الألماني في الطريق، وفي الثلاثين من مايو أبحر "جليكو" بالأسطول الكبير ليلاقي "بيتي" أثناء مروره بالمواقع المفترض وجود الغواصات الألمانية بها قبل أن تصل إليها الغواصات، وفي ظهر الحادي والثلاثين من مايو التقى "بيتي" بطراد "هيبر" قبل الوقت الذي توقعه الألمان، ولم تكن هناك أية تأثيرات للغواصات، ولكن في خلال المعركة تمكن "هيبر" بنجاح من سحب الطليعة البريطانية إلى الممر الذي يحتله أسطول أعالي البحار، وعندما تمكن "بيتي" من الالتفات باتجاه الأسطول البريطاني الرئيسي كان قد فقد طرادين، وذلك بالرغم من الميزة العددية التي كان يمتلكها على "هيبر" غير أن الأسطول الألماني الذي كان يطارد "بيتي" تم سحبه باتجاه الأسطول البريطاني الأساسي، ومن الساعة السادسة والنصف عندما كانت الشمس قد بدأت في الغروب ملقية بضوئها الخافت على الأسطول الألماني وحتى الساعة الثامنة والنصف بعد أن هبط الليل اشتبكت سفن الأسطولين الألماني والبريطاني البالغ مجموعهما مائتين وخمسين سفينة في معركة دموية رهيبة، وخلال ساعتين غرقت أربع عشرة سفينة بريطانية وإحدى عشرة سفينة ألمانية بخسائر كبيرة في الأرواح من الجانبين، ومنذ الغروب وأثناء الليل كان "جليكو" يناور لقطع الطريق على الألمان بينهم وبين قاعدتهم على أمل استئناف المعركة في الصباح، ولكن وفي جنح الليل تمكن "شير" من اجتياز السفن البريطانية الساهرة والعودة إلى الميناء، وادعى البريطانيون أنهم انتصروا في تلك المعركة، ولكن

بحسابات الخسائر المجردة يكون الألمان هم المنتصرين، حيث تكبد الإنجليز خسائر كبيرة في البحارة في تلك الليلة، وانتقدت الصحافة البريطانية أداء قيادة الأسطول البريطاني، ولكن من ناحية أخرى فإن خطة "شير" بسحب السفن الإنجليزية ثم تدميرها لم تكن ناجحة، فلم يتمكن من تحقيق هدفه بتدمير الأسطول البريطاني كله كما أراد، واستمر الألمان في تهديد الأسطول البريطاني مما دفع البريطانيين إلى الإبقاء على سفنهم مركزة في بحر الشمال، ولكنهم لم يقاتلوا بعدها للسيطرة على أعالي البحار، ووجهت البحرية الألمانية جل جهدها بعد ذلك لحرب الغواصات.

الخطة الألمانية

كان الألمان يمتلكون في أسطولهم ست عشرة بارجة مدرعة من طراز "دريدنوت"، وكان إنتاجهم في البوارج أقل بكثير من إنتاج بريطانيا، وحيث كانت بريطانيا تمتلك ثمان وعشرين بارجة من ذلك الطراز فكانت فرصة الألمان شبه معدومة في هزيمة البريطانيين بحريًّا في صدام مباشر، ولذا كانت الإستراتيجية الألمانية تقوم على تقسيم الأسطول الإنجليزي إلى وحدات صغيرة وسحب كل وحدة على حدة وتدميرها، وعن طريق شن سلسلة من الإغارات في بحر الشمال وقصف الساحل الإنجليزي أرادوا أن يجتذبوا أسرابًا ومفارز صغيرة من الأسطول البريطاني على أساس مهاجمتها فيما بعد وتدميرها بقوات أكبر من الغواصات، وكانت الإستراتيجية البحرية الألمانية وفقا لآراء "شير" هي:

"إتلاف الأسطول الإنجليزي بغارات هجومية ضد القوات البحرية المسئولة عن حراسة وحصار الخليج الألماني، وكذلك بزرع الألغام على الساحل البريطاني والهجوم بالغواصات حيثما كان ذلك ممكنًا، وعندما يتساوى ميزان القوى البحري كنتيجة لتلك العمليات وعند وضع قواتنا

في حالة من الاستعداد وحشدها بشكل كامل تتم حينئذ محاولة جر الأسطول البريطاني إلى معركة يشتبك فيها الأسطولان في ظروف غير مواتية للأسطول البريطاني".

وكانت الخطة المقرر اتباعها في عام1916 هي تمركز عدد كبير من الغواصات الألمانية خارج القواعد البحرية البريطانية، وإغراء اسراب الطرادات بقيادة "بيتي" للخروج عن طريق إرسال قوة من الطرادات السريعة بقيادة "هيبر" للإغارة على السواحل البريطانية في "سندرلاند"، وإذا سار كل شيء على ما يرام بعد أن تخرج الطرادات البريطانية كرد فعل على الإغارة التي قامت بها القوات المهاجمة يتم ضربها بكمائن الغواصات، ثم يتم استغلال الروح الهجومية للأسطول البريطاني لسحب القوة المهاجمة البريطانية من الطرادات خلف طرادات "هيبر" بعد إضعافها بالغواصات باتجاه القوات البحرية الألمانية الرئيسية بقيادة الأدميرال "شير"، وكان من المأمول أن يقوم "شير" بنصب كمين فعال لجزء من الأسطول البريطاني، ويقوم بتدميره حينئذ، وكذلك كان من المأمول أنه بمجرد تنفيذ الغواصات لهجومها بنجاح فإن السفن السريعة المرافقة مثل الغواصات ستتقيد ويتم تعطيلها في محاولة لاصطياد الغواصات، وبذلك الشكل كانت الخطة الألمانية تتركز على أكثر من محور ولو كان الألمان قد تمكنوا من وضع البريطانيين حيث يريدون بالتحديد لكانوا قد عوضوا بشكل كبير فارق القوة البحرية بينهم وبين الإنجليز، ولكانوا قد كبدوا الإنجليز خسائر فادحة في السفن والأطقم، وكان ذلك بالطبع سيقود إلى تقليص الفرق بين الأسطولين الألماني والبريطاني ولسوء حظ الألمان كان الإنجليز قد حصلوا عن طريق حلفائهم الروس في ذلك الوقت على كتاب شفرة البحرية الألمانية عندما جنحت إحدى السفن الألمانية وهي الطراد الخفيف "ماجدبورج" في المياه الإقليمية الروسية، وصعد على متنها الضباط الروس الذين قاموا بدورهم بتفتيش السفينة وعثروا على كتاب الشفرة،

ولذا كان من السهل على البريطانيين ترجمة الرسائل والإشارات المتبادلة بين قيادة القوات البحرية الألمانية وأسطولها، وجعل ذلك البريطانيين عالمين دائمًا بالتخطيط الألماني ونشرهم لقواتهم ومستويات نشاطهم، الأمر الذي جعلهم يتوخون جانب الحذر من الخطط الألمانية.

كيف تصرف الإنجليز

اعترض البريطانيون إشارة في الثامن والعشرين من مايو تأمر كل السفن بالاستعداد للإبحار في الثلاثين من مايو، وكذلك تم اعتراض إشارات أخرى كثيرة، وعلى الرغم من فشل الإنجليز في ترجمتها ومعرفة المقصود منها إلا أنهم أدركوا حينئذ أن الألمان بصدد القيام بعملية بحرية كبيرة، وبالرغم من أن البريطانيين لم يكونوا على علم بالهدف من وراء تلك العملية إلا أن الأدميرال "جليكو" وضباط أركانه قرروا وضع الأسطول في وضع يمكنه من اعتراض أية محاولة من قبل الألمان للدخول إلى شمال الأطلنطي أو البلطيقي من خلال "سكاجراك"، عن طريق التمركز خارج سواحل النرويج، حيث يمكن أن يكون بمقدورهم حينئذ قطع الطريق على أية إغارة ألمانية على خطوط الشحن للأطلنطي أو منع الألمان من الاتجاه إلى البحر البلطيقي، ولم يكن من الضروري التمركز في موقع إلى أقصى الغرب حيث إن تلك المنطقة كان يمكن تغطيتها بالمناطيد واستطلاعها بالطائرات، ونتيجة لذلك قام الأدميرال "جليكو" بقيادة الأسطول الكبير المكون من أربع وعشرين بارجة وثلاثة طرادات باتجاه الشرق خارج مضيق "سكابا" قبل أن تبدأ قوات "هيبر" في التحرك من مصب "جيد" في الثلاثين من مايو، وقبل أن يتمكن أسطول أعالي البحار الألماني من تتبعهم، وكانت قوات "بيتي" المتكونة من الستة طرادات سريعة وأربع بوارج قد غادرت مصب نهر "فورث" الأسكتلندي في اليوم التالي، وكان

"جليكو" ينتوي ملاقاتهم على مسافة مائة وخمسة وأربعين كيلومترًا غرب فم "سكاجراك" خارج ساحل "جوتلاند" وانتظار الألمان، وترقب تحركاتهم حتى تتضح نواياهم، وكان الوضع المخطط له يعطيه مجالاً واسعًا للقيام بردود أفعال تتناسب والتحرك الألماني المزمع، وكان أسطول "جليكو" مقسمًا إلى جزئين أسطول السفن المدرعة والذي كان يقوده "جليكو"، وكان يمثل القوة الرئيسية، وكان يتكون من أربع وعشرين بارجة وثلاثة طرادات، وتم تقسيم البوراج إلى ثلاثة أسراب، كل سرب مكون من ثمان سفن، ثم قسمت تلك إلى أربعة اقسام أخرى يقود كل منها ضابط يسمى ضابط علم، وتصحبهم ثمانية طرادات مدرعة واثنا عشر طرادًا خفيفًا وواحد وخمسون مدمرة وسفينة زرع ألغام، وكان الاستطلاع يقوم به أسطول الطرادات بقيادة "ديفيد بيتي" والمتكون من ستة طرادات وأربع بوارج سريعة من طراز "الملكة إليزابث" وأربعة عشر طرادًا خفيفًا وسبعة وعشرين مدمرة، ويوفر لهم الاستطلاع الجوى حاملة طائرات مائية تسمى "أنجادين" وهي أحد أول حاملات الطائرات في التاريخ تشارك في معركة بحرية، وكان الأسطول الألماني بقيادة "شير" ينقسم أيضًا إلى قوة أساسية وقوة استطلاع منفصلة، وكان الأسطول الرئيسي بقيادة "شير" يتكون من ست عشرة بارجة وست بوارج من الطراز الغير مدرع مرتبين بنفس الطريقة البريطانية ومعهم ستة طرادات خفيفة وواحد وثلاثون زورق طوربيد، وكانت قوة الاستطلاع الألمانية التي يقودها "فرانتس هيبر" تتكون من خمس بوارج وخمسة طرادات خفيفة وثلاثين زورق طوربيد، ولم يكن لدى الألمان مقابلاً لحاملة الطائرات البريطانية "أنجادين"، ولكن كان لديهم أسطول الطائرات المائية الذي كان متاحًا للقيام بالدوريات في بحر الشمال، وكانت السفن الألمانية الرئيسية تحمل عددًا أكبر من المدافع وقدرة أكبر لجوانب السفن على حمل أوزان أكبر ما كانت تسطيع حمله نظيرتها البريطانية، فكانت السفينة الألمانية تحمل حوالي "150756

كيلوجرامًا" بينما يمكن لنظيرتها البريطانية تحمل "608794 كيلوجرامًا"، وكانت معظم البوارج والطرادات على الجانبين الألماني والبريطاني تحمل طوربيدات من مختلف الأحجام، وكذلك الطرادات الخفيفة، وكان مما يعيق الأسطول الألماني السرعة البطيئة والتسليح الضعيف نسبيًا إذا ما قورن بالتسليح البريطاني حيث لم يكن لدى الألمان بوارج مدرعة بل كان لديهم سربان من البوارج الغير مدرعة من طراز أقدم من "دريدنوت"، وعلى الجانب الآخر فإن الست طرادات البريطانية كان يعيبها كل من السرعة والتدريع، وكانت كل تلك الأسراب هشة أمام أي هجوم تقوم به سفن معادية أحدث، وكانت السفن الألمانية مقسمة داخليًا بشكل أفضل، حيث كانت مصممة للإبحار لفترات قصيرة في بحر الشمال، وكانت أطقمها تعيش في ثكنات على الساحل عندما تكون السفينة في الميناء، ولذا لم يكونوا بحاجة إلى أن تكون السفينة قابلة للسكنى مثلما كان الحال لدى البريطانيين، وكان بها أبواب أقل ونقاط ضعف أخرى عند الحاجز الخاص بكل سفينة، ومن ناحية أخرى كانت القذائف الألمانية الخارقة للدروع أكبر تأثيرًا بكثير من نظيرتها الإنجليزية، والتي كانت دائمًا ما تفشل في اختراق الدروع الثقيلة، غير أنه ومن ناحية أخرى كانت الاختلافات في التعبئة ،والمعاملة الكيميائية لمواد الدفع المستخدمة لإطلاق الدانات من المدافع إذا ما قورنت بنظيرتها الألمانية فكانت تثبت أنها عامل حيوي وحاسم في المعارك، وكانت مواد الدفع البريطانية "الكوردايت" والتي كان يتم تعبئتها في أكياس مكشوفة من الحرير كانت تلك المواد تميل إلى الاحتراق بعنف مما كان يسبب نيرانًا لا يمكن التحكم بها وخصوصًا عندما تشتعل بجانب الدانات، بينما كانت مواد الدفع الألمانية التي كان يتم تعبئتها في علب من المعدن كانت أقل هشاشة وأقل تطايرًا في التركيب، وعلاوة على ذلك كانت المخازن البريطانية غير محمية بشكل مناسب ضد النيران، وكانت البحرية البريطانية تغلب عامل السرعة

في التعامل مع الذخيرة على إجراءات الأمن والسلامة.

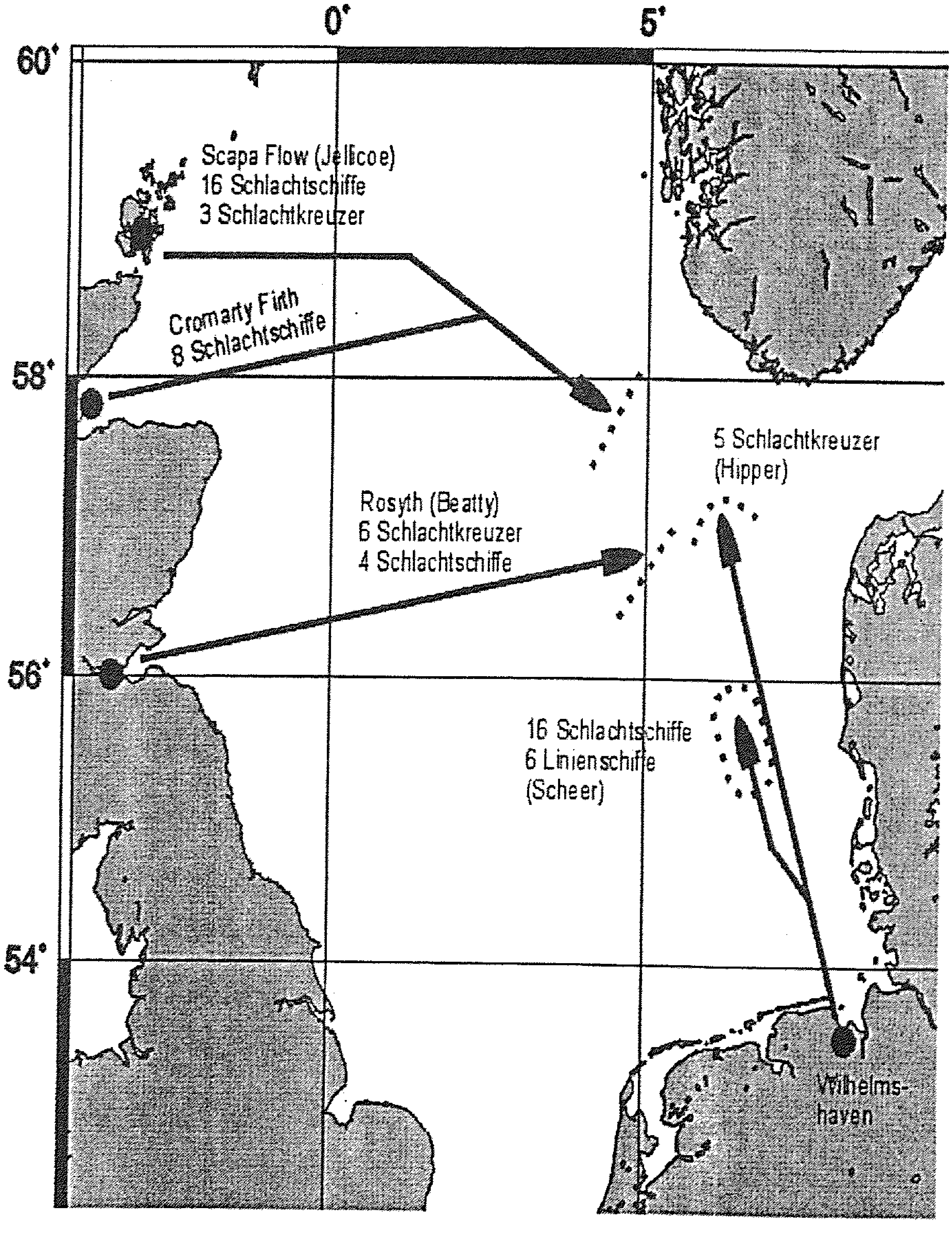

خريطة تبين خط سير الأسطولين البريطاني والألماني وأين التقيا

وكـان ذلـك يـؤدي إلى زيـادة فـرص اشـتعال الـنيران في الكـثير مـن الشحنات المكشوفة في الغرف الموجودة بين أبراج المـدافع والمخـازن، وكـان ذلك يترك السفينة غير محمية مـن التفـاعلات المتسلسـلة إذا مـا انـدلعت النيران وانفجار مخزن الذخيرة، ومن ناحية أخرى كانت أنظمة إدارة الـنيران البريطانية والمؤسسة على جـداول "دراي" والحاسـبات الميكانيكيـة كانـت متقدمة على نظيرتها الألمانية، وكان مما يظهر ذلك هو نسبة الضربات التي تلحقها السفن البريطانية أثناء مناوراتها، وكانت البحرية الملكية البريطانيـة تستخدم أنظمة إدارة نيران مركزية في سفنهم الكـبيرة، بينمـا كـان الألمـان يديرون النيران من الأبراج كل على حدة.

التكتيكات البحرية

كان مبدأ تركيز القوات مبـدءا مهمًّـا في تكتيكـات الأسـطول في تلـك الفترة (كما كـان في فـترات أخـرى سـابقة)، وكانـت العقيـدة التكتيكيـة للأسطول في تناوله للمعركة هو أن يكون في تشكيل مـدمج مـن صـفوف متوازية تسمح بقدر خفيف من المناورة، وتعطي خطوط رؤية قصيرة داخل التشكيل والذي يسهل تمرير الإشارات الضرورية للقيادة والسيطرة، وكانت ميزة أساسية لمثل ذلك التشكيل أن يتشـكل الأسـطول في خطـوط قصـيرة متعددة؛ ليتمكن من تغيير وجهته بشكل أسرع مما يستطيع أسطول مكون من خـط واحـد طويـل، حيـث كانـت إشـارات القيـادة في ذلـك العصـر مقصورة على الوسائل المرئية فقط، مثل الأعلام أو الطلقـات المضـيئة بـين السفن، وكانت سفينة العلم يتم وضعها على رأس الخط الموجود في المركز بحيث يتم استلام إشاراتها بشكل أكثر يسرًا، ويمكـن للكـثير مـن سـفن التشـكيل أن تراهـا، وكانـت الرؤيـة الضـعيفة في ذلـك الوقـت تعـني أن تستطيع السفينة أن تتعـرف علـى إشـارات أقـرب السـفن المجـاورة لهـا في

الأسطول، وتلك الظروف كان ضروريًّا أن تقوم كل سفينة بإعادة الإشارة حتى تصل أوامر الأدميرال إلى كل سفن الأسطول، وكانت تلك الوسيلة يعيبها الدخان الكثيف الذي كان ينبعث مع الفحم الذي يستخدم للإشارات والذي تقوم كل سفينة بإطلاقه مما يعوق بدوره الرؤية، ويساهم في تشويشها، ولذا فكان من الممكن أن تتأخر الإشارة التي تطلقها سفينة العلم في الوصول إلى كل سفن الأسطول مما يفقدها وقتًا ثمينًا تحتاجه في العمليات، بل والأصعب من ذلك أن كانت كل سفينة تحتاج إلى تأكيد الإشارة قبل أن تصل إلى السفينة التالية لها، وعلى سبيل المثال كان الأمر بالتحرك يتم استقباله وإعطاء التأكيد عليه قبل أن يتم تنفي الحركة نفسها، وفي تشكيل الخط الطويل كان إرسال الإشارة يستغرق عشر دقائق أو أكثر لتمريرها من نهاية الخط إلى نهاية الخط الآخر، بينما كانت الرؤية على القطر في تشكيل الخطوط المتوازية أفضل بكثير، وكانت تستغرق عادة وقتًا أقصر من ذلك الذي تستغرقه في عمود أو خط واحد كبير، وكان نظام الخطوط أو الأعمدة المتوازية يعطي فرصة أفضل لرؤية الإشارة وترجمتها بشكل صحيح، غير أنه وقبل المعركة فإن الوحدات الثقيلة تقوم بالانتشار إن أمكنها ذلك في خط واحد، وذلك من أجل تشكيل معركة أفضل لقائد المعركة الذي كان يرغب دائمًا في معرفة مسافة تواجد الأسطول المعادي وحمولته واتجاهه وسرعته، وكانت تلك مهمة قوات الاستطلاع التي تتكون أساسًا من طرادات وزوراق للعثور على العدو، وإعطاء تقرير بتلك المعلومات في وقت كاف، وأن تحرم قوة الاستطلاع للأسطول المعادي من أية فرصة للحصول على معلومات مثيلة كلما أمكنها ذلك، وكانت الظروف المثالية هي الدخول بخط المعركة في الممر المقصود للقوات المعادية والاشتباك معها، بحيث يكون أكبر عدد من المدافع موجهًا إلى القوات المعادية، في حين لا تستطيع تلك القوات أن تطلق النار إلا من سفينة واحدة الموجودة على رأس العمود -أي سفينة

القيادة- وكان الأدميرال الياباني قد حقق ذلك من قبل ضد الأسطول الروسي في معركة "تسوشيما" في عام1905، وكان "جليكو" يرغب في تحقيق ذلك مرتين في مواجهة أسطول أعالي البحار الألماني في "جوتلاند"، ولكن في المرتين كان "شير" يتمكن من الالتفاف بعيدًا ويخرج من مدى مدافع السفن الإنجليزية وبذلك يتفادى تدمير أسطوله.

عمليات الطرادات

في تلك المعركة لم تكن الغواصات الألمانية على مستوى الكفاءة المطلوب، حيث لم تتمكن من إغراق سفينة واحدة، ولم توفر معلومات جيدة عندما عملت كمفارز استطلاع، واستأنفت السفن البريطانية بقيادة "جليكو" طريقها إلى النقطة المقررة لها، ولم تصب بسوء، ولكن خطأ ارتكبته مخابرات الأدميرالية تسبب في تضليل "جليكو"، ولم يكن الخطأ هينًا، فقد أخطرته مخابرات الأدميرالية بأن السفن الألمانية مازالت في موانيها، وفي الساعة الثانية وعشرين دقيقة وبالرغم من سحب الضباب التي عوقت الرؤية بشكل ما إلا أن قوة الاستطلاع لأسطول "بيتى" أفادت برؤية السفن الألمانية إلى الجنوب الشرقي حيث كانت الوحدات البريطانية الخفيفة تقوم بفحص الباخرة الدانماركية المحايدة "فيورد" والتي كانت متوقفة بين الأسطولين قد وجدت مدمرتين ألمانيتين تقومان بنفس المهمة وهي "بي 109" و"بي 110"، وكانت أول الطلقات في تلك المعركة قد تم إطلاقها في الساعة الثانية وثمان وعشرين دقيقة عندما قام الطرادان الإنجليزيان "جلاتيا" و"فيتون" من سرب الطرادات الخفيفة الأول بفتح النار على المدمرتين الألمانيتين، فقامتا على أثر ذلك بالانسحاب باتجاه طراداتهم الخفيفة التي تقوم بالتقدم، وفي الساعة الثانية وستة وثلاثين دقيقة سجل الألمان أول هدف في المعركة عندما ضربت "البينج" التابعة

لمجموعة الاستطلاع الخلفية الثانية للأدميرال "بوديكر" الطراد البريطاني "جلاتيا" على مدى صغير، وفي نفس الوقت كان "بيتي" قد بدأ في تحريك طراداته وقوته الداعمة باتجاه الجنوب الشرقي ثم الشرق لقطع الطريق بين السفن الألمانية وقواعدها، وأصدر أمرًا إلى حاملة الطائرات "أنجادين" بإطلاق إحدى طائرات الاستطلاع المائية لمحاولة الحصول على معلومات أكثر بخصوص حجم ومواقع القوات الألمانية، وكانت تلك هي أول مرة في التاريخ يتم فيها استخدام طائرة تنطلق من حاملة طائرات بغرض الاستطلاع في معركة بحرية، وتمكنت الطائرة التي أطلقتها حاملة الطائرات "أنجادين" من تحديد مواقع بعض الطرادات الألمانية الخفيفة قبل حلول الساعة الثالثة والنصف، وأرسلت بها إشارة إلى قيادتها ثم تلقت دفعة من نيران المدفعية المضادة للطائرات، ولم تفلح المحاولات بإيصال التقرير الذي أرسلته الطائرة ولسوء حظ "بيتي" كانت التغيرات الأساسية في مساره والتي تمت في الساعة الثانية واثنتين وثلاثين دقيقة لم تبلغ إلى السرب القتالي الخامس بقيادة السير "هيو ايفانز" حيث كان بعيدًا جدًّا ولم يتمكن من رؤية الإشارة التي كانت عبارة عن علم، حيث كان الطراد "تايجر" قد فشل في إعادة تأكيد الإشارة بطريق الضوء، وكان "بيتي" قد أمر الطراد "تايجر" بتأكيد الإشارة ونتيجة لذلك بقيت الأربع بوارج الثقيلة من طراز الملكة إليزابث على مسارها السابق، وكانت تلك البوارج هي الأكثر تسليحًا والأسرع من نوعها في العالم في ذلك الوقت، ونتج عن بقائها على نفس المسار السابق أن سبقتها باقي سفن الأسطول غير أنه وبالرغم من أننا نجد البريطانيين يحاولون في أكثر من مناسبة إلقاء مسئولية الفشل دائمًا على تخلف وسائل الاتصال مثلا في تلك الحرب، أو على أسباب لا تتعلق بمهارتهم العسكرية، ولا نجدهم يحملون المسئولين الحقيقيين عن تلك الأخطاء بأية مسئولية اللهم إلا في القليل النادر من الأحوال، غير انه وفي هذه المعركة حملت الدوائر السياسية والعسكرية

"بيتي" بسبب سوء حظه أو لنقل خطئه التكتيكي لأنه كانت لديه كل الفرص لتركيز قواته خلال الساعات السابقة، ولم يكن لديه أي سبب يدعوه ألا يفعل، وكان لذلك عواقب كارثية على البريطانيين كلفهم عددًا من السفن وفقدان قوة نيرانية خلال النصف ساعة الأولى من المعركة، كان من الممكن أن يصبح ميزة استراتيجية ترجح كفة البريطانيين في البحر البحرية التي دارت رحاها طوال الفترة بين1914 إلى1918، وكانت ظروف الرؤية في جانب الألمان ففي الساعة الثالثة واثنتين وعشرين دقيقة كانت طرادات "هيبر" تبحر تقريبًا في الشمال الغربي، وشاهدت سرب "بيتي" على مدى حوالي خمسة عشر ميلاً، بينما لم تتمكن قوات "بيتي" من ملاحظة طرادات "هيبر" حتى الساعة الثالثة والنصف -كما يبين الوضع "واحد" على الخريطة المبينة في الصفحة التالية- وفي الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة التف "هيبر" إلى الجنوب الغربي ليسحب "بيتي" بعيدًا باتجاه "شير" والذي كان على بعد ستة وأربعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي منتظرًا مع القوة الأساسية لأسطول أعالي البحار الألماني.

الركض جنوبًا

تسببت تصرفات "بيتي" في الربع ساعة التالية لتلك الأحداث في توجيه اللوم والانتقاد إليه بشكل عنيف، حيث كانت سفنه في مجال رؤية السفن الألمانية، وكانت أقل عددا منها إلا أنه امتنع عن إطلاق النار لمدة عشرة دقائق عندما كانت السفن الألمانية في مدى مدفعية الطرادات التي يقودها، وفي الساعة الثالثة وثمان وأربعين دقيقة عندما توازت القوى على بعد أربعة عشر كيلومترًا تقريبًا فتح "هيبر" النار، وتبعه "بيتي" على الفور، ففتح النار وتبينها النقطة رقم 2 في الخريطة، وبذلك بدأت المرحلة الافتتاحية لعمليات الطرادات في المعركة، والمعروفة باسم الركض جنوبًا

والتي طارد فيها البريطانيون الطرادات الألمانية غير عالمين بأن "هيبر" يقـود قائدهم "بيتي" عمدًا نحو الفخ الذي نصـبته لهـم قـوات "شـير"، وفي أول دقائق المعركة كانت الطلقات البريطانية تذهب بعيدًا عـن السـفن الألمانيـة وتخطئهـا، حيـث لم تكـن الرؤيـة في جانـب البريطـانيين، ونتيجـة كـذلك للمفاجأة التي ألحقها بهم الأسطول الألماني قبل أن تبدأ أخيرًا في التهديف، وكان "بيتي" في اتجاه الريح من "هيبر"، ولذلك فإن الدخان المتصاعد مـن المداخن ودخان سفنه بشكل عام كان يعيق الرؤية لديه ويمنعه من إصـابة أهدافه، ولا شك أن الألمـان هـم الـذين قـادوا الإنجليـز إلى ذلـك الوضـع العاجز عمدًا، بينما كـان الـدخان المتصـاعد مـن سـفن "هيـبر" يتصـاعد بشكل منتظم لا يعيـق الرؤيـة، كـذلك كانـت السـماء في الشـرق ملبـدة بالغيوم، ولم تكن السفن الألمانية المطليـة بـاللون الرمـادي مميـزة في ذلـك الجو، ومن الصعب جدًّا العثـور عليهـا وتحديـد موقعهـا، وأصـدر "بـيتي" أوامره بأن تشتبك سـفنه في تشـكيل خطـي بحيـث تشـتبك كـل سـفينة بريطانية مع أخرى ألمانية، وتشتبك سفينة العلم الخاصـة بـه "ليـون" مـع سفينة العلم الألمانية "لوتسوف"، غير أنه وبسبب خطأ تكتيكـي بريطـاني آخر تركت السفينة الألمانية "ديرفلينجر" لتطلـق نيرانهـا بحريـة بـدون أن تشتبك معها أية سفينة بريطانية وبدون أي إزعـاج مـن قبـل البريطـانيين، بينما اشتبكت مع السفينة الألمانيـة "مولتكـه" سـفينتان بريطانيتـان مـن طرادات "بيتي" إلا أن "مولتكه" كانت تطلق النيران بدقة مميتـة في وقـت المعركة، حيث أصابت الطـراد "تـايجر" بتسـع قـذائف في أول اثـنتي عشـر دقيقـة، وتمكـن الألمـان مـن سـفك أول دم إنجليـزي في المعركـة، وكانـت تساعدهم في ذلك ظروف الرؤية الجيدة والمفاجأة التكتيكيـة الـتي وضـعوا الإنجليز فيها، حيث سجلت طرادات "هيبر" الخمسة أول إصـابة في ثلاثـة طرادات إنجليزية، ومرت سبع دقائق قبل أن يتمكن الإنجليز من تسجيل أول إصابة في السفن الألمانية، ولمدة عشرين دقيقة إضـافية وبسـبب تعطـل

سلسلة الإشارات التي أشرنا إليها فيما سبق كان التشكيل البريطاني الخامس القوي في موقع لم يسمح له برؤية السفن الألمانية، وأخيرًا وفي الساعة الرابعة وثمان دقائق اشتبكت بارجة القيادة "بارهام" مع الألمان، وفتحت عليهم النار من مدى مؤثر، وسجلت إصابة خمس عشرة بوصة على البارجة الألمانية "فون در تان" في خلال ستين ثانية، ولم تتمكن كل بوارج التشكيل الخامس من الاشتباك بشكل كامل مع الألمان قبل الساعة الرابعة وخمس عشرة دقيقة على مدى طويل، وخلال تلك المرحلة من الساعة الثالثة وثمان وأربعين دقيقة إلى الساعة الرابعة وأربع وخمسين دقيقة تمكنت الطرادات الألمانية من عمل اثنتين واربعين إصابة إجمالية بعرض إحدى عشرة بوصة واثنتي عشرة بوصة في الطرادات البريطانية (تسع إصابات في "ليون" وست في "برنس رويال" وسبع في "كوين ماري" وأربع عشرة في "تايجر" وواحدة في "نيوزيلند" وخمس في "إنديفاتيجابل")، وأحدثت ‘صابتين أخريين في البارجة "بارهام"، وفي المقابل أحدث الإنجليز إحدى عشرة إصابة بعرض ثلاث عشرة ونصف البوصة في الطرادات البريطانية (أربع في "لوتسوف" وأربع في "سيدليتس" واثنتين في "مولتكه" وواحدة في "فون در تان") وخمس إصابات بعرض خمس عشرة بوصة عن طريق البوارج (واحدة في "سيدليتز" وأربع في "مولتكه" وواحدة في "فون در تان").

الموت المفاجئ

كان أول قتل في أثناء عملية الركض نحو الجنوب في الساعة الرابعة تمامًا عندما أحدثت طلقة من السفينة "لوتسوف" إصابة في البرج المتوسط في السفينة "ليون" سفينة العلم الخاصة بالأدميرال "بيتي" وقتل على الفور العشرات من جنود الطاقم، ولكن تم تجنب إصابة أخرى قاتلة عندما

أصدر قائد البرج الجريح الميجور "فرانسيس هارفي" من مشاة البحرية الملكية أمرًا بإغلاق أبواب المخزن وبغمر المخزن بالمياه، وقد منع ذلك من إصابة المخزن وانفجاره، ففي الساعة الرابعة وثمان وعشرين دقيقة أشعلت طلقة ألمانية شحنات الكوردايت تحت البرج وقتلت كل من كان في الغرف خارج المخزن، وكان من الممكن ساعتها أن ينفجر المخزن لولا التصرف الحكيم الذي قام به ذلك الضابط، وبذلك تم إنقاذ "ليون"، ولكن زميلتها "أنديفاتيجابل" لم تكن محظوظة مثلها، ففي الساعة الرابعة ودقيقتين بعد تلك المباراة اللاكمة سحقتها إصابة من قذيفة أطلقتها "فون در تان" بعرض إحدى عشرة بوصة، وتسببت في إصابتها وإخراجها من الصف البريطاني، ومن ثم انفجر مخزن الذخيرة بها، وما لبثت السفينة "فون در تان" أن اطلقت قذيفة صائبة أخرى مما نتج عنه إحداث إصابة أخرى في البرج الأمامي في "أنديفاتيجابل"، وكانت القذائف الألمانية تخرق الدروع الرقيقة، وفي خلال ثوان كان انفجار مخزن الذخيرة الثاني يمزق "أنديفاتيجابل" ويتسبب في إغراقها على الفور بطاقمه المكون من ألف وتسعة عشر ضابطًا وجنديًا، ولم يتبق منهم غير اثنين فقط (الموقع رقم ثلاثة على الخريطة). وتدهور وضع "هيبر" نوعًا بحلول الساعة الرابعة والربع عندما أصبح التشكيل القتالي الخامس في المدى، فقد كان عليه أن يوقف نيران أربع من بوارجه في المقدمة، وكذلك خمسة من الطرادات المتبقية في الأجناب، ولكنه كان على علم حينئذ بأن مهمة الاجتذاب التي كان يقوم بها قد قاربت على الانتهاء، وفي الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة ازدادت حدة القتال مرة أخرى بين الطرادات، حيث تمت إصابة السفينة البريطانية "كوين ماري" بطلقات من "درفلينجر" و"سيدليتز" وانهارت تمامًا عندما انفجر مخزنا الذخيرة الأماميان، وغرقت بكل طاقمها المكون من ألف ومائتين وخمسة وسبعين ضابطًا وجنديًا، ولم ينج منهم غير تسعة (انظر الخريطة الموقع رقم أربعة).

وبعد ذلك بقليل أصابت طلقة "رويال برنس" والتي كانت مختفية خلف سحب من الدخان الناتج عن انفجارات القذائف والسفن المبعثرة، وقفز أحد جنود الإشارة إلى جسر السفينة "ليون" ليعلن "بيتي" بانفجار "رويال برنس" فاستدار "بيتي" إلى نقيب العلم قائلا:

"يبدو أنه ثمة خطأ ما في سفننا اللينة اليوم".

وفي التناول الإنجليزي الشعبي للموضوع كان يحكى أن "بيتي" أعطى أوامره للسفن بالتقدم نقطتان إلى الميناء على عكس التعبير البحري الشائع نقطتان إلى العدو إلا أن التحريف الشعبي للتعبير يعني الانسحاب، ولكن لم يرد أي دليل على صدور مثل ذلك الأمر من "بيتي"، ولم تسجله سجلات السفينة الخاصة بالأوامر والتحركات، وبعد أن خرجت "رويال برنس" وتراجعت إلى الخلف كانت ما تزال طافية بعد أن انقشع الدخان قليلا، وفي الساعة الرابعة والنصف شاهدت البوارج الأمامية في أسطول "شير" معركة الطرادات الدائرة بعيدًا مباشرة بعد أن شاهدت السفينة "ساوثهامبتون" من تشكيل الطرادات الخفيفة الثاني للأدميرال "بيتي" بقيادة الكومودور "ويليام جودناف" القوة الرئيسية لأسطول أعالي البحار تحت قيادة "شير"، وأطلقت عدة طلقات من أعيرة مختلفة لتختبر مدى قوة الأسطول الألماني، وتبعث بتقريرها إلى القيادة البريطانية ست عشرة سفينة مدرعة وست بوارج قديمة، وكان ذلك أول خبر يصل إلى "جليكو" و"بيتي" عن وجود أسطول "شير" الحربي في البحر، ولم يكونا يعلمان بوجوده أصلا، وفي نفس الوقت اندلعت معركة بين المدمرات في المنطقة الفراغ الفاصلة بين قوات الطرادات المتحاربة، حيث حاولت كل من المدمرات الألمانية والبريطانية إغراق السفن الكبيرة لدى الطرف الآخر عن طريق إطلاق الطوربيدات، وأطلق كل طرف الكثير من الطوربيدات،

ولكن كل الطرادات التي كانت موجودة بمنطقة القتال هربت حتى لا تطولها نيران المدمرات ما عدا "سيدليتز" والتي أصابها طوربيد من الأمام أطلقته المدمرة البريطانية "بيتارد" في الرابعة وسبع وخمسين دقيقة واحتفظت "سيدليتز" بسرعتها، وكانت المدمرة البريطانية "نيستور" بقيادة الكابتن "باري بينجهام" هي التي تقود الهجوم البريطاني، وتمكن البريطانيون من إعطاب زورق الطوربيد الألماني "في 27" والذي قفز من طاقمه وسرعان ما غرق ثم أطلقت "بيتارد" طوربيداتها على الزورق "في 29" مسجلة ثاني إصابة لها في ذلك اليوم، وقام الزورقان "إس 35" و"في 26" بإنقاذ طاقم السفن الغارقة، ولكن المدمرة "نسيتور" ومدمرة أخرى بريطانية تدعى "نوماد" اعطبتهما قذائف المدمرات الألمانية، ثم تم إغراقهما بعد ذلك بواسطة مدمرات "شير" المدرعة، وتم إنقاذ الكابتن "بينجهام" من غرق محقق.

الركض شمالاً

بمجرد أن شاهد "بيتي" بنفسه طليعة خط البوارج التابعة لأسطول "شير" على بعد حوالي اثني عشر ميلاً أصدر أوامره لقوة الطرادات بالاستدارة مائة وثمانين درجة متوجهًا نحو الشمال؛ لجذب الألمان نحو "جليكو" (الوضع خمسة في الخريطة) ويسمى انسحاب "بيتي" باتجاه "جليكو" الركض شمالاً، والذي انقلبت فيه دفة القتال وتحول الألمان من طعم وفريسة للإنجليز إلى صياد يقوم بالمطاردة، وفشل "بيتي" في إرسال إشارة توضح نواياه بشكل دقيق كما تقول المصادر البريطانية، ووجد التشكيل القتالي الخامس والذي كان متمركزًا بعيدًا في الخلف نفسه يجتاز الطرادات في اتجاه معاكس، ويتوجه مباشرة نحو القوة الأساسية من أسطول أعالي البحار الألماني، وفي الساعة الرابعة وثمان وأربعين دقيقة فتحت

بارجة القيادة في أسطول "شير" النار من مدى بعيد على السفن البريطانية المقتربة، وفي تلك الأثناء كان "جليكو" قد استقبل إشارة "جودناف" وعلم أن "بيتي" كان يحاول استدراج الأسطول الألماني إلى الشمال منه، فأرسل إشارة إلى قواته بانتظار الأسطول الألماني، وأبرق إلى قيادته في لندن بالراديو في الساعة الرابعة وواحد وخمسين دقيقة وازدادت الصعوبات التي تواجه التشكيل الخامس عندما أصدر "بيتي" إلى "إيفانز توماس" إشارة تفيد بأن يستدير ويلحق به بدلاً من أن يستدير معه، وذلك في الساعة الرابعة وثمان وأربعين دقيقة، وعندما مرت به البوراج تسبب الليوتنانت كوماندر "رالف سايمور" ضابط العلم الخاص ببيتي في تفاقم الوضع عندما استمر يرفع العلم لمدة ستة دقائق حتى يتم تنفيذ الإشارة، ولذا لم يبدأ التشكيل الخامس في الاستدارة إلا عند الساعة الرابعة وأربع وخمسين دقيقة، وكانوا قد أصبحوا في مدى المدمرات الألمانية، وتسبب ذلك الأمر المرتبك في أن تعبر أربع سفن بشكل متلاحق نفس الموقع مما أعطى المدمرات الألمانية فرصًا متكررة لقصفها، وأعطاها كذلك الوقت الكافي لتحديد المدى المناسب لإطلاق النار عليها، وكان من الممكن تقليل الخسائر إذا كانت السفينة "ملايا" قد قامت بالاستدارة مبكرًا، وفي الساعة التالية كان التشكيل الخامس المدرع والمسلح تسليحًا ثقيلاً يعمل كحرس خلفي لقوة "بيتي"، وكانت كل السفن الألمانية تصب عليه النيران من مدى قريب، وفي الساعة الخامسة وعشرة دقائق كان "بيتي" قد تمكن بترو من جعل تشكيله الخاص يفلت من المدى النيراني لقوة الطرادات الألمانية المتفوقة بقيادة "هيبر" لتتمكن السفن من الحصول على بعض الراحة من النيران الدقيقة والمميتة التي تصبها عليهم الطرادات الألمانية، حيث إن ظروف الرؤية كانت في صف الألمان، وكذلك ظهرت براعتهم في إدارة النيران إذ أداروا نيرانهم بكفاءة ضد السفن البريطانية، لم يكن لدى القائد البريطاني "بيتي" خيار سوى الانسحاب لكيلا يخاطر بخسائر أفدح في

طراداته حيث لم تكن مدافع تلك الطرادات مؤثرة، ولكي نصور الفرق بين الأداء الألماني والأداء البريطاني يكفي أن نعلم أن البريطانيين لم يسجلوا أي إصابة ضد الألمان في تلك المرحلة حتى السابعة وخمس وأربعين دقيقة، وتلقت طراداته خمس ضربات أخرى قبل أن يتمكن من فتح المدى (أربع ضربات في "ليون" سجلتها "لوتسوف" وضربة في "تايجر" سجلتها "سيدليتز")، وكانت الآن الأهداف الوحيدة التي يستطيع الألمان الوصول إليها هي سفن السرب الخامس والتي تلقت نيرانًا متزامنة من طرادات "هيبر" في الشرق والتي اشتبكت فيها الطرادات "فاليانت" و"بارهام"، ومن البوارج الأمامية الألمانية في الجنوب الشرقي والتي اشتبكت معها "وارسبايت" و"مالايا"، وتلقت الثلاث سفن الضربات "بارهام" ثلاث ضربات من "ديرفلينجر" و"وارسبايت" ضربتان من "سيدليتز" و"مالايا" سبع ضربات من البوارج الألمانية، والسفينة الوحيدة التي خرجت سالمة هي "فاليانت"، ولحسن حظ الإنجليز كانت البوارج المدرعة محصنة أكثر من الطرادات لتلقي ذلك النوع من الدك العنيف، ولم يفقد الإنجليز أيًا منهم في تلك المعركة بالرغم من أن "مالايا" عانت من خسائر كبيرة وحريق سببه احتراق الذخيرة وخسائر فادحة في الطاقم، وفي نفس الوقت كانت نيران المدافع من عيار 15بوصة البريطانية دقيقة وفعالة، حيث اتجه سربان بريطانيان إلى الشمال بسرعة كبيرة، وطاردهم الأسطول الألماني كله، وسجل السرب الخامس ثلاث عشرة ضربة على الطرادات الألمانية (أربع على "لوتسوف" و3 على "ديرفلينجر" و6 على "سيدليتز") وخمس ضربات على البوارج إلا أنها لم تتسبب إلا إصابة واحدة من تلك الإصابات في إحداث تلفيات جسيمة وهي الإصابة التي لحقت بالبارجة "ماركجراف" (انظر الخريطة الموقع 6).

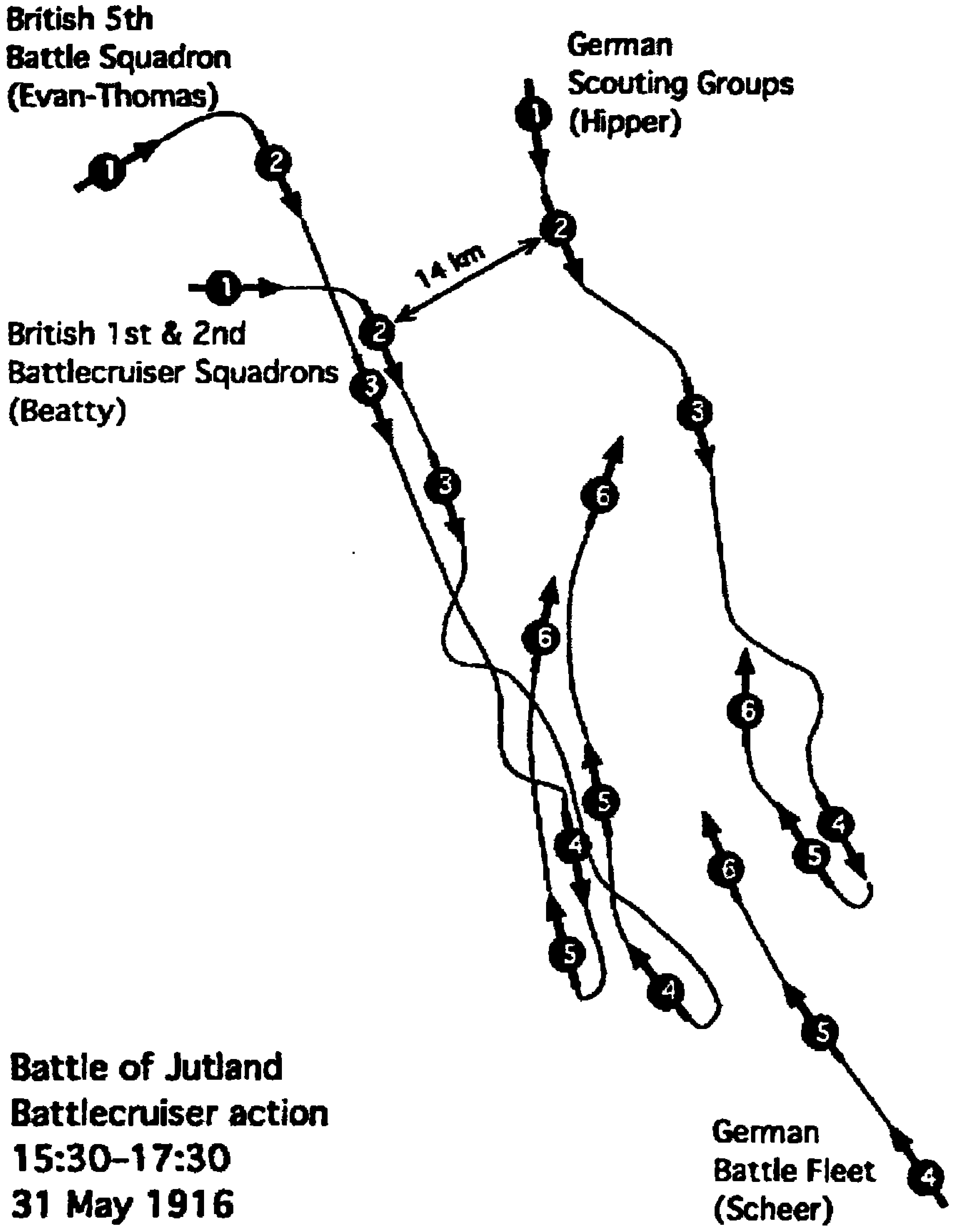

خريطة تبين تحركات الأسطول البريطاني والألماني في جوتلاند

الأسطولان يلتقيان

كان "جليكو" الآن على علم بأن اشتباك الأسطولين بشكل كامل قد بات وشيكًا، ولكن لم يكن لديه معلومات كافية عن مواقع ومسار الألمان، ومن أجل مساعدة "بيتي" في معركته أصدر الأدميرال "جليكو" في الساعة الرابعة وخمس دقائق الأمر لأدميرال المؤخرة "هوريس هود" قائد سرب الطرادات الثالث بأن يسرع على الفور للعثور على "بيتي" ونجدته ودعمه، وكان "هوريس" الآن يسابق الوقت ليلحق بتشكيل "بيتي" متقدمًا على قوة "جليكو" الشمالية، وكان أدميرال المؤخرة "آربوثنوت" قائد سرب الطرادات الأول يجول أمام طليعة قوات بوارج "جليكو" أثناء تقدمها الحثيث باتجاه الجنوب الشرقي وفي الساعة الخامسة وثلاث وثلاثين دقيقة ظهر أخيرًا الطراد المدرع "بلاك برينس" من سرب "آرثونبوت" على الجنبة البعيدة إلى الجنوب الغربي من قوات "جليكو"، وتمكن الطراد "فالموث" من رؤيته والذي كان على بعد خمسة أميال أمام "بيتي" مع سرب الطرادات الخفيفة الثالث، وفي الساعة الخامسة وثمان وثلاثين دقيقة تم اعتراض الإشارات التي يرسلها الطراد "تشيستر" والذي كان يعلن عن وصول الطرادات البريطانية بقيادة "هوريس" بواسطة طليعة قوات الاستطلاع الألمانية بقيادة أدميرال المؤخرة "بودليكر"، وصبت الطرادات الألمانية بقيادة "بودليكر" نيرانها على الطراد "تشيستر" قبل أن تخفف عنه الضغط الوحدات الثقيلة بقيادة "هوريس" والتي تقدمت إلى الغرب لذلك الغرض، وقامت سفينة العلم التابعة للأدميرال "هوريس" وتدعى "أنفينسيبل" بتعطيل الطراد "فيسبادن" في الساعة الخامسة وست وخمسين، وأصبح "فيسبادن" هدفًا لنيران سفن الأسطول البريطاني في الساعة التالية، ولكن الطراد "فيسبادن" ظل طافيًا وقام بإطلاق بعض الطوربيدات على السفن البريطانية من مدى بعيد، وفي تلك الأثناء انطلقت سفن "بودليكر" باتجاه "هيبر" و"شير" مدفوعين باعتقاد خاطئ

بأن "هوريس" يقود قوة ضخمة من السفن البريطانية الكبيرة من الشمال والشرق، ثم تبع ذلك اندلاع معركة بين المدمرات بين الضباب والدخان حيث حاولت زوراق الطوربيد إفساد وصول التشكيل الجديد، ولكن طرادات "هوريس" تمكنت من تفادي كل الطوبيدات الألمانية التي أطلقت عليها، وفي تلك العملية وبعد أن قام البريطانيون بهجوم مضاد بالطوربيدات أصيبت المدمرة البريطانية "شارك" وتعطلت ولكنها استمرت في رد النيران على السفن الألمانية التي تعبر من أمامها لمدة ساعة تالية.

الانتشار

في تلك الأثناء استأنف كل من "بيتي" و"إفان توماس" اشتباكهما مع طرادات "هيبر"، وكانت ظروف الرؤية في صالحهما هذه المرة، واستدار "هيبر" إلى الخلف باتجاه "شير" في الساعة السادسة في نفس الوقت الذي تمكنت فيه سفينة العلم "ليون" من رؤية سفينة العلم الخاصة بمجموعة "جليكو" المسماة "إيرون دوك"، وطلب "جليكو" مرتين تقريراً عن آخر موقع للأسطول الألماني من "بيتي" والذي لم يتمكن من رؤية البوارج الألمانية، وفشل في الإجابة على طلب "جليكو" حتى الساعة السادسة وأربع عشرة دقيقة، وفي تلك الأثناء تلقى "جليكو" تقارير مرتبكة عن رؤية السفن الألمانية تختلف في دقتها وتتميز بمحدودية فائدتها من الطرادات الخفيفة، وعلى الأجناب من البوارج من ناحية الجنوب إلى قواته وكان وضع "جليكو" مقلقاً، فقد كان بحاجة إلى معرفة موقع الأسطول الألماني ليتمكن من اتخاذ قرار بوقت وكيفية نشر بوارجه من وضع الملاحة (حيث كانت السفن مصفوفة في ستة أعمدة يضم كل منها أربع سفن) إلى وضع الصف القتالي الواحد، ويمكن أن يتم النشر في أقصى الصف الغربي أو في أقصى الصف الشرقي، وكان ينبغي أن يتم النشر قبل

قدوم القوات الألمانية ولكن في الوقت نفسه كان النشر المبكر للسفن البريطانية يعني أن يفقد البريطانيون أية فرصة لحسم الصدام مع القوات الألمانية، والنشر إلى الغرب معناه تقريب السفن إلى أسطول "شير" وكسب وقت ثمين حيث كان الليل قد بدأ في الحلول.

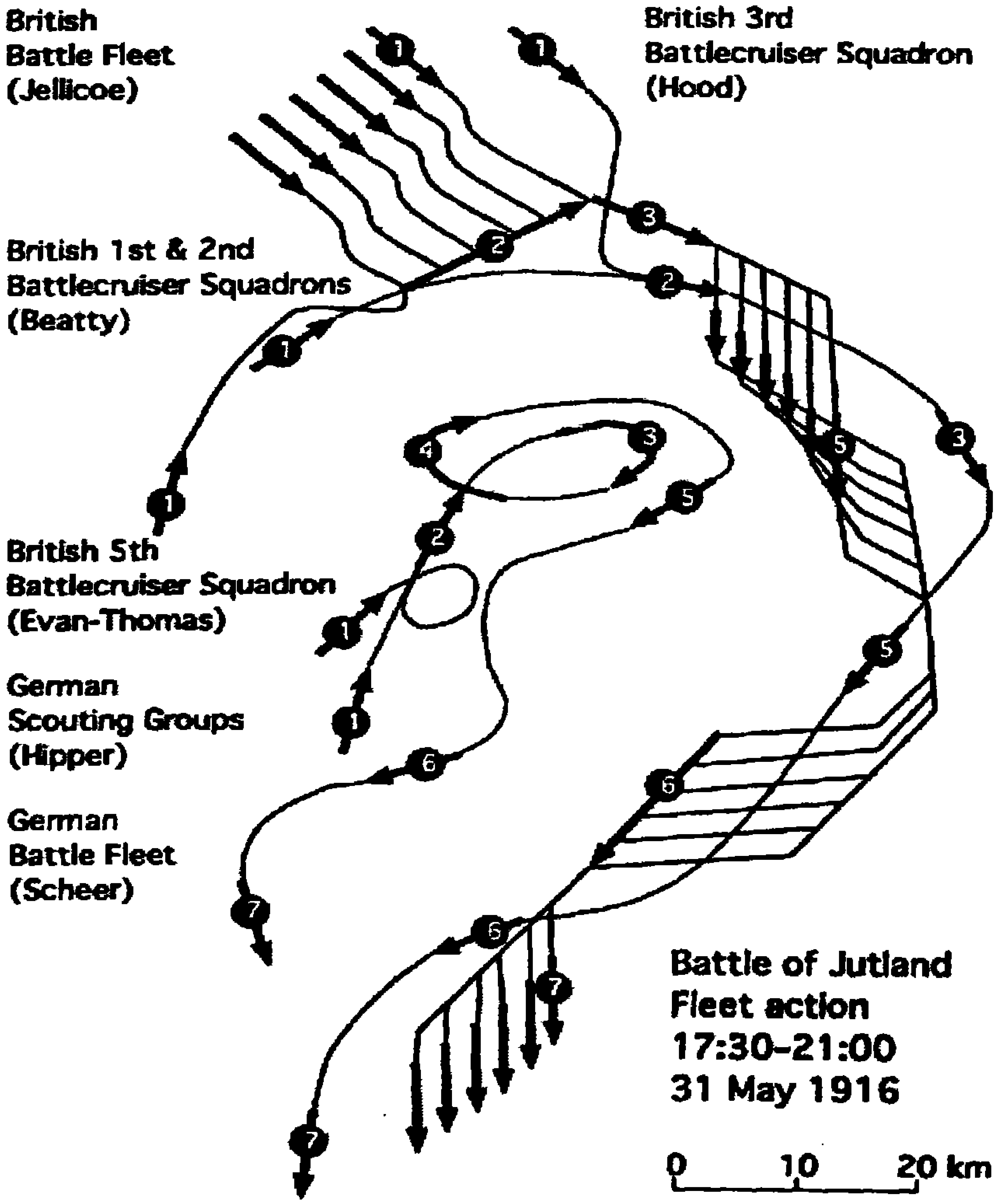

خريطة توضح تحركات الأسطولين البريطاني والألماني

ولكن في الوقت نفسه كان هناك احتمال أن يصل الألمان قبل أن تكتمل المناورة، وبالنسبة لنشر السفن إلى الشرق فقد كان يبعد ذلك السفن البريطانية، ولكن سفن "جليكو" قد تعبر في تشكيل على شكل حرف "تي" وتكون الرؤية في صالح المدافع البريطانية بشكل كبير، وستبدو سفن "شير" كالظلال أمام الشمس الغاربة في الغرب، بينما سيكون الأسطول البريطاني غير مميز في السماء التي بدأت في الإظلام في الشمال والشرق، وسيخفيها انعكاس ضوء الشمس القليل من تداخل الضباب والدخان، وكان النشر سيستغرق عشرين دقيقة، وليس أقل من ذلك، وكان الأسطولان يقتربان من بعضهما البعض بسرعة، وفي واحد من أكثر قرارات القيادة دقة وصعوبة على المستوى التكتيكي أصدر "جليكو" أوامره بالانتشار شرقاً في الساعة السادسة وخمس عشرة دقيقة.

الركن العاصف

فى تلك الأثناء كان "هيبر" قد انضم بسفنه إلى "شير"، وكان أسطول أعالي البحار المشترك يتوجه إلى الشمال باتجاه "جليكو" مباشرة، ولم تكن لدى "شير" أية معلومات تفيد أن "جليكو" يمخر البحر بسفنه، ناهيك عن أنه كان يستعد للهجوم من الشمال الغربي، وتسبب تدخل "هوريس" بسفنه إلى الشمال والشرق منه في تشتيت انتباهه، وكانت الأربع طرادات التي نجت من طرادات "بيتي" تعبر طليعة السفن المدرعة للانضمام إلى طرادات "هود" الثلاثة، وفي تلك الأثناء كانت سفينة العلم التابعة لأدميرال المؤخرة "آربوثنوت" واسمها "دفينس" و"وريور" تهجم في مدى نيران "بيتي"، وتجنبت "ليون" بالكاد الاصطدام مع "وريور"، وفي الحقيقة لم يكن لطرادات "آربوثنوت" المدرعة أي مكان في الصدام الوشيك بين السفن المدرعة الحديثة، ولكن ما جذبه هو بدن الطراد "فيسبادن" الذي

أصيب تمامًا وبدأت المياه تجرفه مع اقتراب "وريـور" و"ديفـنس" للإجهـاز على "فيسبادن" لتتخبط يمينًا وتصبح في مدى نيران مدافع السفن الكبيرة القادمة بقيادة "هيبر" و"شير"، وغمر وابل من نيران مدافع البوارج الألمانية ثقيلة العيار، وتسببت تلك الضربات المتلاحقة في تفجير مخازن الذخيرة بشكل استعراضي مخيف شهدته معظم سفن الأسطول البريطاني التي تقوم بعملية الانتشار، وغرقت بكل طاقمها (تسعمائة وخمسة ضابط وجنـدي) ونجت "وريور" من الغرق بأعجوبة والغريب أنها نجت من الغرق بسـبب الحظ العاثر للسفينة المدرعة الكبيرة التي كانـت في الجـوار "وارسـبايت"، وكانت دفة "وارسبايت" انحشرت بسبب عطل ميكـانيكي، حيـث كانـت تسير بسرعة كبيرة تنوء بوزنها الكبير حيث كان السرب القتـالي الخـامس قد استدار إلى الشمال في السادسة وتسع عشرة دقيقة مبحرًا بأقصى سـرعة في دوائر واسعة، وظهرت "وارسبايت" كهدف جيد للسفن المدرعة الألمانية التي أصلتها بطلقات مدفعيتها فأحدثت بها ثـلاث عشـرة إصـابة، فتلقـى الطراد سيئ الحظ "وريور" الـنيران، وكانـت المنـاورة الغـير مقصـودة الـتي قامت بها "وارسبايت =" تعـرف باسـم الـركن العاصـف، وتمـت اسـتعادة السيطرة على "وارسبايت"، وتمكنت من النجاة من تلك المذبحـة، ولكنهـا تلفت بشكل فظيع، وكان علـى ربانهـا أن يخفـض سـرعتها كمـا توجـب سحبها إلى الشمال، وفيما بعد وفي السـاعة التاسـعة وسـبع دقـائق أصـدر "إيفان توماس" الأمر لها بالعودة إلى الميناء، وفيمـا بعـد سـحبت السـفينة المدرعة "وارسبايت" إلى الميناء حيث تم إصـلاحها وخـدمت كـذلك فيمـا بعد في الحرب العالمية الثانية، ومن ناحية أخرى قام طاقم الطراد "وريـور" بإخلائه، وغرق في اليوم التالي بعد أن تم التقاط أفـراد الطـاقم في السـاعة الثامنة وخمس وعشرين في الأول من يونيـو بواسـطة السـفينة "أنجـادين" والتي جرت الطراد المدرع الغارق حـوالي مائـة ميـل لـيلا، وحـين غـرق الطراد "ديفنس" وكانت "وارسبايت" تدور، وفي حـوالي السـاعة السادسـة

وتسع عشرة دقيقة تحرك "هيبر" إلى مدى سرب الطرادت الثالث لأدميرال المؤخرة "هود"، وكذلك كان في مدى سفن "بيتي"، وفي البداية كانت الرؤية جيدة وفي صالح البريطانيين، حيث تمكن "آندوميتابل" من ضرب "ديرفلينجر" ثلاث مرات و"سيدليتز" مرة واحدة، بينما تلقى الطراد "لوتسوف" عشرة ضربات من "ليون" و"إنفليكسيبل" و"إنفينسيبل" بما فيها ضربتان في الغاطس تلقتهما من "إنفينسيبل" والتي أهلكت سفينة العلم التابعة للأدميرال "هيبر"، ولكن في الساعة السادسة والنصف ظهر "إنفينسيبل" كهدف واضح أمام "لوتسوف" و"ديرفلينجر"، وأطلقت كل من السفينتين الألمانيتين ثلاث دفعات على "إنفينسيبل" وغرق الطراد البريطاني في دقيقة ونصف فقط، وكانت أحد الدفعات الثلاثة وكانت من عيار اثنتي عشرة بوصة قد ضربت البرج الموجود في وسط السفينة وفجرت المخازن الموجودة تحته، وانفجرت السفينة منشطرة إلى نصفين وقتل في ذلك الانفجار كل طاقمه المكون من ألف واثنين وثلاثين ضابطًا وجنديًا ولم يبق منهم على قيد الحياة إلا ستة فقط، ومنهم الأدميرال "هوريس هود" نفسه، ومن الطرادات البريطانية المتبقية لم يتلق ضربات من مدافع ثقيلة العيار إلا "برينسس رويال" فقد تلقت ضربتين بحجم اثنتي عشرة بوصة أطلقتها عليها البارجة "ماركجراف"، وكان الطراد "لوتسوف" الذي أصبح الآن يسير إلى الأمام وغير قادر على الاتصال بالراديو، قد أصبح خارج القتال وبدأ في محاولة الانسحاب، وعلى أثر ذلك ترك "هيبر" سفينة العلم الخاصة به وانتقل إلى المدمرة "جي 39" على أمل أن يعتلي أحد الطرادات الأخرى فيما بعد.

تشكيل حرف "تي"

قبل حلول الساعة السادسة والنصف كانت عملية الأسطول قد

أضحت مشتركة للمرة الأولى، حيث كان "جليكو" بسفنه يعبر أمام سفن "شير" مشكلاً أمامها الجزء العلوي من حرف "تي" باللغة الإنجليزية، وهو تشكيل بحري قديم يسمح للسفن التي تشكل الجزء العلوي الأفقي من الحرف بمهاجمة السفن التي تعبر أمامها مشكلة الجزء السفلي من الحرف بكفاءة، حيث تقوم كل سفينة بإطلاق النار على سفينة أخرى في شكل ربع قوس، بينما تقلل السفن المهاجمة من النيران التي تطلق عليها، حيث تقوم سفينة واحدة فقط في الخط الأمامي بإطلاق النار، نعود الآن لبوارج "شير" الذي كان قد فوجئ تمامًا هو وضباط بوارجه عندما رأوا السفن البريطانية تخرج إليهم من السحب الضبابية السيارة فجأة، ووجدوا أنفسهم الآن أمام كتلة من سفن الأسطول البريطاني الكبير بكامل قوته النيرانية والذي لم يعرفوا حتى بوجوده في البحر، وعلى الفور قامت سفينة العلم التابعة للأدميرال "جليكو" "إيرون دوك" بتسجيل سبع إصابات على سفينة القيادة الألمانية المدرعة "كونيج"، ولكن في ذلك الوقت القصير الذي لم يدم أكثر من عشر دقائق لم يفتح النار إلا أربعة وعشرون سفينة مدرعة من سفن الأسطول البريطاني الكبير، وكانت الرؤية السيئة تعيق الألمان هذه المرة إضافة إلى وضعهم التكتيكي الغير جيد والذي يعطي البريطانيين عليهم ميزة نيرانية بينما يحرمهم منها، وعندما أدرك "شير" ـن الأمر قد يتحول إلى فخ للموت وأن منطقة المعركة قد تصبح منطقة قتل لسفن أسطوله آثر عندئذ السلامة، وأصدر أوامره إلى السفن الألمانية بالاستدارة والانسحاب فورًا في الساعة السادسة وثلاث وثلاثين دقيقة تحت غطاء كثيف من الدخان والضباب، ونجحت قوة "شير" البحرية في تجنب الاشتباك عن طريق الانسحاب المتناغم بالالتفاف مائة وثمانين درجة والذي نفذه "شير" باحترافية وخبرة عاليتين، وذلك بالتفاف السفن على أجنابها وفي ذلك يقول "شير":

"كان من الواضح الآن أننا نواجه جزءا كبيرًا من الأسطول الإنجليزي، وكان القوس الكامل الذي يمتد من الشمال إلى الشرق عبارة عن بحر من النيران، وكان بالإمكان رؤية اللمعة التي يحدثها إطلاق النيران عند فوهات المدافع وتمييزها ورؤيتها في الأفق من خلال الضباب والدخان بالرغم من أن السفن نفسها لم تكن واضحة الرؤية أو مميزة".

وكان "جليكو" مدركًا تمامًا للمخاطر التي تنطوي عليها مطاردة أسطول "شير" المنسحب على سفنه الكبيرة، حيث كان بإمكان الألمان حينئذ إطلاق الطوربيدات على سفنه وإصابتها أكثر من مرة، وعليه لم يشأ أن يقوم بمطاردة أسطول أعالي البحار الألماني، ولكنه اتجه جنوبًا وقرر الاحتفاظ بالأسطول الألماني إلى الغرب منه، وفي الساعة السادسة وأربعين دقيقة كانت مؤخرة خط السفن التي يقودها "جليكو" ترى وتتفادى الطوربيدات الألمانية، وفي الساعة السادسة وأربع وخمسين دقيقة أصيبت "مارلبورو" بطوربيد ربما أطلقه عليها الطراد الألماني المصاب "فيسبادن"، والذي قلل من سرعتها حتى وصلت إلى ست عشرة عقدة، وفي الوقت نفسه كان "شير" يدرك أن الوقت ليس مناسبًا تمامًا للانسحاب، حيث لم يحل الظلام بالكامل، وأن أسطوله قد يعاني من خسائر كبيرة في حالة انسحابه بتلك الطريقة، أي بتمكين البريطانيين من ضرب أسطوله من الخلف، وعن ذلك كتب يقول في مذكراته:

"كان على المناورة أن تقترن بمباغتة العدو لإفساد خططه حتى نهاية اليوم وإذا كانت الضربة شديدة الوطء فإن ذلك سيسهل الانسحاب ليلاً".

ولكن الالتفات شرقًا أخذ سفنه مرة أخرى باتجاه خط السفن الذي كان "جليكو" قد نشره في تشكيل قتالي، وفي نفس الوقت كانت المدمرة البريطانية المصابة "شارك" تقاتل بلا أمل تقريبًا في مواجهة أربع مدمرات ألمانية، ولكنها تمكنت من إصابة المدمرة "في 48" بنيران مدفعيتها إلا أنها

أخيرًا تلقت طوربيدًا من المدمرة الألمانيـة "إس 54" تسـبب في إغراقهـا في الساعة السابعة ودقيقتين، وللتغطية على الضربات الشـديدة الـتي تعـرض لها الأسطول البريطاني في تلك المعركة قرر البريطانيون منح وسـام صـليب فيكتوريا لقبطان المدمرة "شارك" الغارقـة الكـابتن "لوفتـوس جـونز" في محاولة لرفع الروح المعنوية للبحارة وللشعب البريطاني، وكـذلك للتغطيـة على انجازات الألمان العسكرية.

معركة أخرى

كان سرب الطـرادات الخفيفـة الثـاني بقيـادة الكومـودور "جودنـاف" يتفادى نيران البوارج الألمانية للمرة الثانية، يقوم بإعادة الاتصال بأسـطول أعالي البحار، وفي السابعة والربع تقريبًا كان "جليكو" بسـفنه يعـبر أمـام سفن "شير" مشكلاً أمامها الجزء العلوي مـن حـرف "تـي" مـرة أخـرى، وفي تلك المرة كان القوس النيراني أقصر وأكثر ضـراوة، وتسـبب ذلـك في إصـابة البـوارج الألمانيـة بإصـابات فادحـة وخصوصًـا السـرب الثالـث في المؤخرة بقيادة أدميرال المؤخرة "بينكه" ("كونيج" و"جروسر كورفورست" و"ماركجراف" و"كايزر")، وكذلك "هلجولاند" من السـرب الأول بينمـا لم يصب على الجانب البريطاني سوى الطراد "كولوسوس" والـذي أصـابه الطراد الألماني "سيدليتز" مرتين، وفي الساعة السابعة وسـبع عشـرة دقيقـة وللمرة الثانية في أقل من ساعة أعطى "شـير" الأمـر لأسـطوله بالاسـتدارة حيث كانت سفنه أقل عددًا وأقل في القوة النيرانية، ولـكن الأمر تلك المرة لم يتم تنفيذه بنفس السهولة التي تم بها في أول مرة، حيـث كـان السـرب الأول من أسطول أعالي البحار الألماني قد بدأ يفقد تشـكيله تحـت وطـأة النيران البريطانية المركزة، ولأجل إثناء البريطانيين عن المطـاردة أمـر "شـير" مدمراته بشـن هجـوم كـبير بالطوربيـدات، وكـذلك أصـدر الأمـر للأربـع

طرادات الباقية من مجموعة الاستطلاع الأولى بالقيام بالهجوم، وكان "هيبر" ما يزال على متن المدمرة "جي 39" ولم يكن قادرًا على قيادة سربه للقيام في ذلك الهجوم، ولذا قام قائد الطراد "درفلينجر" الكابتن "هارتوج" بقيادة الطرادات التي كانت قد أصيبت إصابات شديدة متوجهًا بها إلى قلب المعركة، وكان البريطانيون يقومون بإطلاق النار من مدافعهم في أكبر تركيز نيراني بحري حتى ذلك التاريخ، وبالطبع نجح البريطانيون في إصابة كل الطرادات الألمانية من مدى قريب جدًا حوالي ثمانمائة ياردة فيما عدا الطراد "مولتكه" حيث كانت ثمان عشرة بارجة بريطانية تقوم بإطلاق النار علي الطرادات الألمانية، وتم تدمير برجي مدفعية على الطراد "درفلينجر"، ومات معظم أفراد أطقم المدفعية، ولكن الطراد نفسه نجا من القصف حيث قام بتغيير اتجاهه بعيدًا مع الطرادات الأخرى بمجرد أن ابتعد "شير" بسفنه عن منطقة القتال، وبمجرد أن بدأت المدمرات الألمانية تتحرك للهجوم في الحقيقة كان ذلك الهجوم عملاً انتحاريًا ولكنه في نفس الوقت عمل بالغ الشجاعة، إذ تمكن قادة الطرادات الألمانية وبمنتهى البسالة من شغل السفن البريطانية في معركة فرعية، وتحملوا كثافة نيران شديدة حتى يتمكنوا من تغطية انسحاب زملائهم، وفي تلك المواجهة المحدودة زمنًا حيث دامت خمسًا وعشرين دقيقة تقريبًا من الساعة السابعة وخمس دقائق إلى الساعة السابعة والنصف، والشرسة من حيث القوة النيرانية والضراوة تلقت الطرادت الألمانية مجموع ضربات يقدر بحوالي سبع وثلاثين إصابة منها أربع عشرة إصابة فقط في بدن الطراد "درفلينجر"، ولم تنجح في إصابة البريطانيين إلا مرتين فقط، ولكنها تمكنت حرفيًا من تنفيذ خطة "شير" الذي كان يهدف إلى الخروج من الفخ النيراني الذي أعده له البريطانيون ريثما يتراجع ويجهز نفسه للهجوم من وضع يتمكن فيه من إصابة السفن البريطانية، وبينما كانت تلك الطرادات الألمانية قد جذبت نيران الأسطول البريطاني بعيدًا عن أسطول

"شير" الذي تسلل خارجًا من الفخ وقام بإطلاق غلالة من الدخان، وفي نفس الوقت من الساعة السابعة وست عشرة دقيقة إلى حوالي الساعة السابعة وأربعين دقيقة كانت المدمرات الألمانية تشتبك مع البوارج البريطانية، ونفذت ضدها موجات متتابعة من الهجمات بالطوربيد لتغطية الانسحاب، وانشغلت السفن البريطانية بتفادي الطوربيدات الألمانية وتمكنت بالفعل من تفادي واحد وثلاثين طوربيدًا أطلقتها عليها المدمرات الألمانية، وتمكنوا من إغراق المدمرة الألمانية "إس 35"، وتمكنت القوات البريطانية الخفيفة من إغراق المدمرة "في 48" والتي كانت قبل ذلك قد أعطبت من القذائف التي أطلقتها عليها المدمرة البريطانية "شارك" قبل أن تغرق، وكلف ذلك الاشتباك الأسطول البريطاني وقتًا ثمينًا كان هو بالضبط ما يحتاج إليه "شير"، مما سمح له بالابتعاد بسفنه الثقيلة بعيدًا عن الخطر المحقق كما كان ينتوي بالضبط، وكان آخر تبادل كبير لإطلاق النار في ذلك اليوم قد وقع بعد الغروب من حوالي الساعة الثامنة وتسع عشرة دقيقة إلى الساعة الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة حيث اشتبكت الطرادات البريطانية المتبقية مع نظيرتها الألمانية من السرب الثاني الألماني، وتلقى البريطانيون إصابة شديدة حيث أصابت طلقة "برينسس رويال"، ولكن البريطانيين سجلوا خمس إصابات أخرى في الطراد "سيدليتز" وثلاثًا في سفن ألمانية أخرى، وعندما بدأ الليل يحل تبادلت السفينة "كينج جورج" بعض الطلقات مع السفينة الألمانية "فيستفالن"، ولم يتخيل أي من الطرفين أنه لن يكتب للسفن المدرعة الألمانية والبريطانية الالتقاء حتى نهاية الحرب.

معارك ليلية

فى تمام الساعة التاسعة مساءا قرر "جليكو" (الذي كان على علم

بمواطن ضعف الأسطول البريطاني الكبير وعدم قدرته على القتال ليلاً) محاولة تفادي أي اشتباك كبير حتى طلوع الفجر، وقام بوضع غلالة من الطرادات والمدمرات على بعد خمسة أميال من مؤخرة أسطوله للقيام بأعمال الدورية بينما توجه هو إلى الجنوب لحراسة الطريق المتوقع أن يقوم "شير" بالانسحاب منه، وفي الحقيقة فقد آثر "شير" عبور حرس "جليكو" والهروب عن طريق الحيد البحري المسمى "هورنز"، ولحسن حظ "شير" لم تتمكن أي من وحدات "شير" الخفيفة من الإفادة بملاقاة أي من البوارج الألمانية خلال الليل، ولم يتم استقبال رسائل الراديو القليلة جداً التي تم إرسالها إلى سفينة العلم البريطانية حيث كان الألمان يشوشون على موجات الراديو البريطانية، ولم يدرك "جليكو" وقادته أن إطلاق النار الشديد الذي كان يراه ويسمعه أفراد أطقم السفن البريطانية معناه أن السفن الألمانية الثقيلة كانت تشق طريقها خلال غلالة السفن التي تستر مجنبة الأسطول البريطاني، ولاحظت واحدة من أكبر السفن البريطانية وأشدها تسليحاً (مسلحة بمدفع من عيار 15بوصة وتتبع السرب القتالي الخامس) البوارج الألمانية مباشرة، وهي تعبر على مجنبتها ومشتبكة مع القوات الخفيفة البريطانية على مدى ست آلاف ياردة أو أقل، واستعد أفراد المدفعية على ظهر "مالايا" لإطلاق النار ولكن قبطانها رفض مذعناً لسلطة أدميرال المؤخرة "إيفان توماس" ولم يبعث أي منهما بتقرير عن مشاهدته للسفن الألمانية إلى "جليكو" مفترضين أنه قد شاهدها بنفسه، وكذلك لم يشاءا أن يكشفا موقعهما للألمان إذا ما تتبع هؤلاء بث الراديو المرسل منهما، ورأى أن ذلك التصرف غير حكيم، وبينما كانت طبيعة انسحاب "شير" بالإضافة إلى تراخي "جليكو" يشير إلى تفوق الألمان في المعركة إلا أن نتائج القتال الليلي لم تكن قاطعة في دلالتها كما كانت النتيجة النهائية للمعركة ككل، وتمكن الألمان عدة مرات في تلك الليلة من مفاجأة السفن البريطانية بظهورها المفاجئ من خلف حجب الظلام، وكانت تطلق النار

عليها من مدى قريب وبإصابات مباشرة، وكانت سفينة العلم "ساوثهامبتون" بقيادة الكومودور "جودناف" والتي كانت تقوم بأعمال الاستطلاع قد أصيبت بالتلف الشديد في اشتباك مع مجموعة استطلاع ألمانية تتكون من طرادات خفيفة، ولكنها نجحت في إغراق الطراد الخفيف "فراونلوب" والذي غرق في الساعة العاشرة وثلاث وعشرين دقيقة بكل طاقمه الذي كان قوامه ثلاثمائة وعشرين ضابطًا وجنديًا، ومن الساعة الحادية عشرة تقريبًا إلى الساعة الثانية والربع بعد منتصف الليل قامت العديد من أسراب المدمرات بهجمات بالطوربيد على الأسطول الألماني في سلسلة من الاشتباكات العنيفة والتي دارت رحاها من مدى قريب جدًا حوالي تسعمائة وأربعة عشر مترًا، وخسر البريطانيون في تلك الاشتباكات خمس مدمرات أغرقها الألمان وأصيبت خمس مدمرات أخرى بشكل عنيف، وتمكن البريطانيون بصعوبة بالغة من إصابة الطراد الخفيف "روستوك" الذي غرق على أثر تلك الإصابة بعدها بساعات قليلة بالإضافة إلى السفينة القديمة الطراز "بومرن" والتي غرقت بكل طاقمها البالغ عدد أفراده ثمانمائة وأربع وأربعين ضابطًا وجنديًا خلال آخر موجة من موجات الهجوم قبل الفجر، ونتيجة للفوضى التي أحدثتها النيران الألمانية وتخبط القيادة البريطانية اصطدمت ثلاث مدمرات ببعضهم البعض، ودكت البارجة الألمانية "ناساو" المدمرة البريطانية "سبيتفاير" وتسببت في تفجير معظم البنية القوية، وانفجرت مدافعها الكبيرة غير أن المدمرة البريطانية تمكنت من النجاة واستطاعت التوجه إلى الميناء في آخر الأمر، وارتطمت السفينة البريطانية المدرعة "بوزن" بالصدفة بالطراد الألماني "البينج" وغرق مبكرا في اليوم التالي بعدما أخلاه طاقمه، وغرقت خمس مدمرات بريطانية أخرى خلال المعركة الليلية وهي "تيبراري" و"أردينت" و"فورتشين" و"سباروهوك" و"تربيولنت" وبعد منتصف الليل وفي الأول من يونيو أغرقت البارجة الألمانية "تورينجن"

بالاشتراك مع بوارج أخرى الطراد البريطاني "بلاك برينس" التابع لسرب الطرادات الأول البريطاني المشئوم والتي كانت تترنح بين الخطوط الألمانية، واكتسحتها نيران المدفعية الألمانية المباشرة وغرق بكل طاقم بحارته وضباطه البالغ عددهم ثمانمائة وسبعة وخمسين فردًا، كما غرقت سفينة قيادة السرب "ديفنس" من ساعات، وكاد الطرادان الألمانيان "مولتكه" و"سيدليتز" يشتبكان في معركة مشابهة غير أن السفن البريطانية لم تقم بضربهما من مدى قريب، وتمكن الطرادان من النجاة ولم يلقيا مصير "بلاك برنس" البريطاني حيث لم يرغب قادة السفن البريطانية في فتح النار وبالتالي كشف مواقعهم للسفن الألمانية التي كانت ولابد ستصليهم نيرانًا شديدة، وفي الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة أطلقت المدمرة الألمانية "جي 38" طوربيداتها على الطراد الألماني "لوتسوف" والذي كان قد أصيب بالتلف الشديد نتيجة إصابة الطراد البريطاني "إنفينسيبل" له من قبل، وكان قد أوشك على الغرق، وكان ذلك القصف بناء على أوامر قائد الطراد الكابتن "فيكتور فون هاردر" بعد أن تم إخلاء الطراد من طاقمه البالغ عددهم ألف ومائة وخمسون بحارًا وضابطًا إلى مدمرة كانت بجانبه، وفي الساعة الثانية وخمس عشرة دقيقة انفجرت فجأة مقدمة المدمرة الألمانية "في 4"، وتم استدعاء المدمرتين "في 6" و"في 2" لإخلاء طاقمها وغرقت المدمرة "في 2" وحيث لم يكن هناك أية سفن بريطانية في الجوار فإنه يفترض أنها غرقت بسبب اصطدامها بلغم أو غواصة، وأخيرًا وفي الساعة الخامسة وعشرين دقيقة وبينما كان أسطول "شير" يبحر بأمان في طريقه إلى الموانئ الألمانية اصطدمت البارجة الألمانية "أوستفريسلاند" بلغم، ولكنها تمكنت من شق طريقها إلى الميناء، وكان الطراد "سيدليتز" قد أصابه التلف بشكل فظيع، وتحمل بالكاد رحلة العودة إلى ألمانيا بعد أن كاد يغرق وتم جره إلى الميناء، ومما ساعد الألمان في انسحابهم فشل المخابرات البحرية البريطانية في لندن أولاً في الإحاطة بتحركات الأسطول

الألماني ونوايا قيادة البحرية الألمانية، وثانيًا فشلها في نقل سبع رسائل هامة اعترضتها تشير إلى الموقع الحقيقي للألمان وتفكير القيادة الألمانية في تلك الليلة أثناء وحين عرف "جليكو" أخيرًا بموقع "شير" وإحداثيات أسطوله في الساعة الرابعة وخمس عشرة دقيقة فجرًا كان ذلك الأخير قد أصبح بعيدًا، ولم يكن بإمكان "جليكو" اللحاق به، وأصبح واضحًا أن المعركة لن تستأنف.

نتائج المعركة

تمكن الألمان بتسع وتسعين سفينة في "جوتلاند" من إغراق 115000 طن من السفن البريطانية، بينما أغرق البريطانيون الذين كان لديهم في تلك المعركة مائة وواحد وخمسون سفينة من إغراق 62000 طنًّا من السفن الألمانية، وخسر البريطانيون في تلك المعركة ستة آلاف وأربعة وتسعين جنديًّا وضابطًا، أي اكثر مما خسره الأمريكيون في الهجوم الياباني على بيرل هاربور، وخسر الألمان ثلث ذلك العدد تقريبًا بالرغم من أنهم هاجموا البريطانيين بسفن تقل عن سفن البريطانيين بحوالي خمسين قطعة بحرية، فخسروا حوالي ألفين وخمسمائة وواحد وخمسين قتيلاً، وتلفت سفن أخرى بريطانية مثل "ليون" وأخرى على الجانب الألماني مثل "سيدليتز"، ويعتبر معظم المعلقين العسكريين ما تحقق في المعركة نصرًا للألمان من الناحية التكتيكية، وإن كان نصرًا غير حاسم، ومن الناحية الإستراتيجية كانت نتيجة تلك المعركة محلا لنقاش مطول لم يتم حسمه لصالح أي من الآراء المختلفة حتى الآن، فلم يتمكن الأسطول الألماني من تحقيق هدفه الذي تغياه من شن ذلك الهجوم ألا وهو تدمير جزء كبير من الأسطول البريطاني إلا أننا يمكننا القول وبغير مجانبة للحقيقة أن الأسطول الألماني قد أثبت نفسه وأثبت أنه قادر على قتال أقوى الأساطيل البحرية

في ذلك الوقت بل وتمكن من هزيمته حتى ولو كان ذلك على المستوى التكتيكي، وتم إصلاح معظم القطع التي قد أصيبت بتلفيات كبيرة وذلك خلال شهر واحد من انتهاء المعركة وحتى الطراد "سيدليتز" الذي كان قد قارب على الغرق في تلك المعركة ونجح بالكاد في الوصول إلى ألمانيا كان قد تم إصلاحه بالكامل، وبحلول شهر أكتوبر عاد رسميًّا إلى الخدمة في القوات البحرية الألمانية بحلول شهر نوفمبر، ويقول المعلقون العسكريون البريطانيون: إن معركة "جوتلاند" كانت نصرًا بحريًّا لبريطانيا من الناحية الإستراتيجية، وأنه بسبب تلك المعركة لم يجازف الأسطول الألماني بالخروج من موانيه إلا مرتين في شهري أغسطس وأكتوبر من عام 1916، وأنه ومن جراء تلك المعركة توقف الألمان عن تحدي السيادة البحرية الإنجليزية، والحقيقة أن هذا القول يحمل الكثير من الزهو الزائف أكثر منه تحليلاً عسكريًّا، ويَتْشَتَّمُّ المرء من ذلك القول بسهولة محاولة تخدير الوعي الإنجليزي، وفي الحقيقة فإن وصف معركة "جوتلاند" والتي أحرزت فيها البحرية الألمانية نصرًا تكتيكيًّا مستخدمة عدد سفن أقل من السفن البريطانية، وأضعف منها تسليحًا بأنه انتصار إستراتيجي للإنجليز لهو قول يشوبه الكثير من الادعاء وقلب الحقائق، فصحيح أن الألمان لم يصلوا إلى تحقيق هدفهم الإستراتيجي الكبير من ضرب الأسطول البريطاني وتكبيده خسارة هائلة إلا أنهم ومن ناحية أخرى قد أثبتوا أولا قدرة سلاحهم البحري على تحدي البحرية الملكية البريطانية، والدخول معها في معارك طويلة بل جرها إلى فخاخ، وتكبيدها خسائر كبيرة في الأرواح والسفن، ثانيًا القدرات العسكرية الممتازة التي يتمتع بها القادة الألمان، فقد أدار "شير" المعركة بلياقة عسكرية وحنكة عالية، سواء في تجهيزه الفخ للبريطانيين في بدء المعركة أو في انسحابه الذي قام به عندما لمح بوادر فخ يحاول الإنجليز القيام به، ثالثا فشل المخابرات البحرية البريطانية وتمكن الألمان من التعمية على أهدافهم الحقيقية حتى استطاعوا جذب ذلك

العدد من السفن الإنجليزية إلى فخ بذلك الحجم، ومهما قال الإنجليزعن اعتراضهم لرسائل الراديو الألمانية فإن ذلك لا يعدو محاولة إلصاق مسئولية الهزيمة في معركة "جوتلاند" بمخابراتهم البحرية بدلاً من تشويه سمعة سلاحهم البحري الذي كانوا يفخرون به، ومن الناحية الإستراتيجية كانت معركة "جوتلاند" على الجانب الألماني من المعالم البحرية التي غيرت فكر وإستراتيجية القيادة العسكرية الألمانية، وفي كتابه الحرب العالمية الأولى عرض مصور ينقل الأستاذ عمر الديراوي عن أحد الأدميرالات الألمان قوله:

"إن انتصارنا في جوتلاند لم يكن كليًّا، ومنه عرفنا أنه يستحيل علينا إحراز النصر المنشود عن طريق مواجهة أسطول العدو في معركة نهائية، إذن علينا أن نستغل سلاحًا جديدًا للقضاء عليه، وهذا السلاح هو الغواصات، إنه يقتضي أن نحول جميع أحواض السفن في بلادنا لبناء الغواصات وأن يتلقى بحارتنا التدريب الكافي على العمل تحت الماء، بهذا نستطيع تحطيم القوات البحرية المعادية ورجالنا في مأمن، كما أن العدو سيظل عاجزًا عن اللحاق بنا في هذا المضمار. وقد كان بمقدورنا أن نفعل ذلك منذ سنة 1915 لو كان لدينا العدد الكافي من الغواصات آنذاك أما الآن فيجب توفير هذا العدد".

إلا أنه ومن ناحية أخرى يقول الأدميرال "شير" في مذكراته:

"لقد تمكنا أن نثبت للعالم أن البحرية الإنجليزية لم تعد تمتلك ذلك الوضع الذي كانت تفخر به، وبالنسبة لنا كنا قد ضمنا أن نحارب من أجل حقوق الأمة الألمانية في البحار العالية، وأثبتت المعركة أن تنظيم بحريتنا في أسطول أعالي البحار هو خطوة في الاتجاه الصحيح، ولا يمكن للروح القومية الألمانية أن تفرض نفسها على العالم إلا من خلال أسطول أعالي البحار الذي يتم توجيهه ضد إنجلترا إلا أنه يجب أن نستخدم

الغواصات بشكل كامل كوسيلة للحرب، وذلك للضغط على أعصاب بريطانيا الحيوية".

بينما وعلى الناحية الأخرى يقول البريطانيون:

"ليس من السهل إحراز نصر على الأسطول الألماني في عرض البحر، فقد أثبتت معركة "جوتلاند" أنه خصم قوي استطاع التغلب على أسطولنا ذاته، ولهذا فإنه ينبغي الاستمرار في تطبيق الحصار البحري المفروض مع تشديده إلى درجة كبيرة، وفي نفس الوقت ينبغي إبقاء أسطولنا في قواعده ما لم يضطره الأسطول الألماني إلى الالتحام".

فأين إذن ذلك النصر الإستراتيجي؟ لقد وضع الألمان أيديهم على نقاط الضعف في الأسطول البريطاني، وتمكنوا معرفة كيف يواجهون البريطانيين، وتمكنوا باستغلالهم للغواصات فيما بعد من إذلال إنجلترا بحريًّا -كما سنرى- إلا أنه وبالرغم من الأداء المتفوق للقوات البحرية الألمانية في تلك المعركة، وبالرغم من أن الأسطول البريطاني لم يتمكن من تدمير الأسطول الألماني كما كان يأمل، إلا أنه تسيد المنطقة بالرغم من خسائرهم الكبيرة، وهناك تقييم آخر للمعركة قدم في العديد من الدوريات الحديثة، وهو يقوم على أن "جوتلاند" هي آخر معركة بحرية كبيرة بين البوارج والتي صورت مدى انعدام فائدة البوارج مقارنة بالتطور الذي طرأ على الغواصات فيما بعد والألغام والطوربيدات، ومن وجهة النظر تلك فإن من أهم عواقب معركة "جوتلاند" هو قرار الألمان بالاشتباك فيما سمي بحرب الغواصات الغير محدودة، وبالرغم من بناء أعداد كبيرة من البوارج في العقود التي سبقت قيام الحرب إلا أن ذلك كان يعكس سيادة الرأي الداعي إلى بناء البوارج في أوساط صانعي القرار في الأسلحة البحرية والذين قصروا الخيارات التكنولوجية المطروحة لتناسب الأعمال التقليدية للأساطيل البحرية في ذلك الوقت، ونرى في الحرب العالمية الثانية على

سبيل المثال تقلص الدور الذي تلعبه البوارج، حيث ظهرت حاملة الطائرات كسلاح هجومي فعال في الحروب البحرية، هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبته الغواصات الألمانية في الحربين العالميتين الأولى والثانية، والتطويرات التي أدخلها الألمان على استخدامات ذلك السلاح وتكتيكاته مما يشهد لقادتهم بالعبقرية.

النقد البريطاني

اعترفت التقارير التي صدرت عن الأدميرالية البريطانية في معرض تقييمها لأداء الأسطول البريطاني في معركة "جوتلاند" بأن أوجه القصور تتلخص في المشكلتين الآتيتين:

أولا: كانت القذائف الخارقة للدروع تنفجر خارج الدروع الألمانية بدلاً من أن تخترقها وتنفجر بداخلها، وكنتيجة لذلك كان بإمكان سفن ألمانية بدروع يبلغ سمكها 203 مليمتر أن تتحمل إصابات بقذائف من عيار 15 بوصة أي 381 مليمترًا، ويقول البريطانيون: إنه لو كان قدر لتلك القذائف أن تخترق الدروع الألمانية كما أراد لها مصمموها فربما كانت الخسائر الألمانية في المعركة أعلى مما تكبده الألمان بكثير.

ثانيًا: كانت الاتصالات بين السفن البريطانية وبين سفينة القائد العام سيئة للغاية، وفي معظم أوقات المعركة لم يكن "جليكو" على علم بمواقع السفن الألمانية حتى عندما كانت تشاهدها بعض السفن البريطانية، فقد كانت تفشل في الإفادة بموقعها، وبعكس أسطول أعالي البحار الألماني كانت الإشارات المهمة تتم عن طريق سفينة العلم فقط بدلاً من اللاسلكي لضمان وصول الإشارة، بالإضافة إلى الدخان والسحب التي كانت تتسبب في إعتام ميدان القتال، بالإضافة إلى العقليات المتحفظة

لبعض الضباط للأخذ بالتكنولوجيا الحديثة، والخلاصة أن معركة "جوتلاند" كانت نصرًا تكتيكيًا للألمان وضربة موجعة للأسطول البريطاني.

معركة الأطلنطي

في عام 1914 كان ينظر إلى الغواصات باعتبارها اختراعًا بحريًا غير مؤكد النتائج، ولا يمكن التعويل عليه، ولكن بحلول عام 1918 أصبحت القيمة العسكرية للغواصة كسلاح بحري خطير لا تخضع للشك، ففي السادس من أغسطس 1914 وعلى أثر إعلان بريطانيا للحرب على ألمانيا تحركت عشرة غواصات ألمانية من القاعدة البحرية في "هليجولاند" لتهاجم سفن سلاح البحر البريطاني في بحر الشمال، وكانت تلك كل الغواصات التي تمتلكها ألمانيا في ذلك الوقت، وكانت تلك أول دورية للغواصات في تاريخ الجنس البشري كله، ولم يحالف تلك الغواصات النجاح حيث إن إحداها غرقت في حقل ألغام، والأخرى وهي إليو 15 قامت بإطلاق كل طوربيداتها على سفن حربية بريطانية، ولم تصب هدفها في أي مرة، ثم فيما بعد قام الطراد الخفيف "برمنجهام" من البحرية الملكية البريطانية بدكها ثم إغراقها فيما بعد، بينما كانت قد علقت على السطح بسبب عطل ميكانيكي، وفيما بعد انطلقت الغواصات الألمانية في دوريات بأعداد صغيرة إلا أنه قد حالفها التوفيق أخيرًا في الخامس من سبتمبر 1914 عندما أطلقت الغواصة "يو 21" طوربيداتها على الطراد البريطاني الخفيف "باثفايندر" وانفجر مخزن الذخيرة بالطراد مما أدى إلى غرقه في أربع دقائق فقط آخذا معه 259 من طاقمه إلى قاع المحيط، وكان ذلك أول نصر عسكري تسجله الغواصات منذ اختراعها، وكان يوم الثاني والعشرين من سبتمبر هو يوم سعد

الغواصات الألمانية، ففي الصباح الباكر في ذلك اليوم رصدت نقطة الاستطلاع على جسر الغواصة "يو 9" التي يقودها الليوتنانت "أوتو فيديجن" سفينة في الأفق وعلى الفور أصدر "فيديجن" أوامره بالغطس وانطلقت الغواصة للتحري، وعندما اقتربت الغواصة اكتشف "فيديجن" ثلاثة طرادات بريطانية مدرعة "أبو قير" و"كريسي" و"هوج"، وكان معظم أفراد الطاقم في تلك السفن الثلاث من الاحتياط، وكانت الأدميرالية البريطانية تخطط لسحبهم، وأصدر " فيديجن" الأمر بإطلاق طوربيد على الطراد "أبو قير" وافترض ربانا "هوج" و"كريسي" أن "أبو قير" قد اصطدم بلغم، وقدموا على الفور للمساعدة، وأطلقت الغواصة "يو 9" طوربيدين على الطراد "هوج" ثم ضربت "كريسي" بطوربيدين آخرين بينما كان يحاول الهرب، وغرقت الطرادات الثلاث في أقل من ساعة وقتل منهم حوالي ألف وأربعمائة وستون بحارًا وفق التقديرات البريطانية، وبعد ثلاثة أسابيع في الخامس عشر من أكتوبر أغرقت نفس الغواصة الطراد القديم "هوك"، وأصبح أفراد طاقم الغواصة "يو 9" أبطالاً قوميين، وتم منح كل منهم وسام الصليب الحديدي من الدرجة الثانية ما عدا "فيديجن" الذي حصل على وسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى، وكان إغراق تلك الطرادات إنذارًا للقوات البحرية البريطانية، وكانت القاعدة البحرية في "سكابا فلو" في جزر أوركني قرب أسكتلندا تبدو هشة أمام اية هجمات محتملة للغواصات الألمانية، وكانت قيادة القوات البحرية الملكية البريطانية متوترة بشكل شديد بخصوص الألغام التي تسببت في إغراق الطراد الخفيف "أمفيون" خارج مصب نهر التيمز في أول اسبوع من الحرب، وأغرقت كذلك البارجة "أوداشوس"، وأرسلتها إلى قاع البحر الأيرلندي في السابع عشر من أكتوبر، وعلى الرغم من تمكن البريطانيين من إنقاذ معظم أفراد طاقم البارجة "أوداشوس" إلا أن إغراقها كان يعتبر بمثابة إذلال للقوات البحرية البريطانية، وعلى أثر ذلك تم إرسال الأسطول

لحمايته إلى أيرلندا وإلى الساحل الغربي لأسكتلندا حتى يتم إنشاء دفاعات مناسبة في قاعدة "سكابا فلو" البحرية، وكان اضطرار بريطانيا إلى نقل سفنها بعيدًا عن قواعدها الرئيسية لحمايتها يعتبر نصرًا للألمان في حد ذاته، إذ كانت إنجلترا تعتبر في ذلك الوقت من أقوى الدول البحرية في العالم، وحتى ذلك الوقت لم تكن الغواصات الألمانية قد ضربت الحلفاء تحت الحزام بعد، إذ كانت كل السفن التي تم إغراقها سفنًا حربية وتمثل أهدافا شرعية لدولة في حالة حرب مع دولة أخرى عدوة لها، وذلك حتى على الرغم من صدمة البريطانيين وذهولهم من أعداد القتلى الكبيرة إلا أن المسألة ظلت "إما أن تقتل أو تقتل"، إلا أن ألمانيا لم تلتزم حرفيًّا بتلك القواعد ففي الشهر التالي لتلك الأحداث قامت الغواصات الألمانية بإغراق سفينة تجارية للمرة الأولى، ولكنهم فعلوا ذلك حسب القواعد المعمول بها وتصرفوا كجنتلمانات، ففي العشرين من أكتوبر صعد طاقم الغواصة "يو 17" على سطح سفينة شحن تجارية بريطانية "جليترا" خارج الساحل النرويجي، وسمحوا لطاقمها بأخذ قوارب النجاة، ثم قاموا بإغراقها، ولم يدم مثل ذلك السلوك المتحضر كثيرًا، ففي السادس والعشرين من أكتوبر أغرقت الغواصة "يو 17" الباخرة الفرنسية "الأدميرال جانتوم" في القنال الإنجليزي، وكان على متنها ألفان وخمسمائة لاجئ بلجيكي كما تقول التقديرات البريطانية، ولكن العبارة الفرنسية نجت في الرسو قبل أن تغرق ومات فيها أربعون فقط وكان ذلك نذير شؤم للبريطانيين، وفي يناير 1915 أغرقت الغواصة الألمانية "يو 20" ثلاث سفن في القنال الإنجليزي بدون تحذير مسبق، وبعد ذلك بيومين أغرقت السفينة "استوريا" التي كانت تعمل كمستشفى عائم برغم أنها كانت تحمل علامات الصليب الأحمر بشكل واضح، وكانت الغواصة "يو 20" تحت قيادة اللوتنانت "فالتر شفيجر" الذي اشتهر بشكل غير مسبوق قبل حلول نهاية العام، وبدا أن انتهاج ألمانيا لإغراق مثل تلك السفن ليس من قبيل الخطأ أو

الحادثة بل هي سياسة رسمها القادة الألمان، وفي الحقيقة أصبحت تلك الأعمال الموجهة إلى السفن المدنية سياسة تمارسها الغواصات الألمانية، ولم لا وهي تنقل المؤن والعتاد والسلاح بل والمعلومات أيضًا إلى عدوتهم بريطانيا، وتمدها بشريان ترغب ألمانيا في قطعه، وكانت كل من ألمانيا وبريطانيا تعتمدان بشكل كبير على الصادرات ليوفرا لرعاياهما المؤن الضرورية، ولتغذيا صناعاتهما الحربية، ولذا فقد لجأ الجانبان إلى محاولة فرض حصار بحري على الآخر، وكانت البحرية البريطانية متفوقة من ناحية العدد، وكان أسطول سفن السطح الألماني قاصرًا على الخليج الألماني، وكان يعتمد أساسًا على الإغارة على السفن التجارية البريطانية، في أوائل عام 1915 أفاقت الاطراف المتحاربة من وهم فكرة أن الحرب ستكون حربًا قصيرة، وبدأوا في اتخاذ إجراءات أكثر صرامة لمحاولة الحصول على أية ميزة قتالية، وكان البريطانيون بالطبع قد فرضوا حصارًا بحريًّا على ألمانيا مستغلين في ذلك قدرات أسطولهم الكبير في المراحل الأولى للحرب، وكذلك لم يتعامل الإنجليز بتحضر فقد كان حصارهم البحري على ألمانيا يستهدف فيما يستهدف منع الطعام عن الألمان، واعتبرت القيادة الألمانية أن ذلك الحصار هو محاولة وقحة من البريطانيين لتجويع الشعب الألماني وإجباره على الخضوع، وسيطرت على الألمان الرغبة في رد الصاع للإنجليز بنفس الطريقة، ولم يكن الألمان يستطيعون التعامل بنفس الأسلوب مع البريطانيين حيث لم يكن لديهم نفس الأسطول القوي من سفن السطح مثل أعدائهم الإنجليز، وكانت الطريقة الوحيدة التي أتيحت للألمان لفرض الحصار على الإنجليز هي الغواصات، وكان المستشار الألماني "تيوبالد فون بيتمان هولفيج" يخشى من أن الحصار الذي تفرضه الغواصات المبني على أسلوب الضرب بدون تحذير سيتسبب في إثارة الولايات المتحدة والدول الأخرى المحايدة، غير أنه لم يكن قادرًا على مقاومة الضغوط التي كانت تمارس من أجل اتخاذ تلك الخطوات، وفي

الرابع من فبراير 1915 أعلن فيلهلم الثاني قيصر ألمانيا أن البحار المحيطة بالجزر البريطانية هي منطقة حرب اعتبارًا من الثامن عشر من فبراير، وأصبح يتم إغراق سفن الحلفاء بدون إنذار، وحتى السفن البريطانية التي كانت تختبئ خلف علم محايد لم يكن الألمان يرحمونها غير أنهم كانوا يبذلون مجهودًا للتعرف على السفن المحايدة فعلاً، وكانت الغواصات الألمانية متمركزة أساسًا في "أوستند" ببلجيكا، الأمر الذي أعطى الغواصات الألمانية منفذًا أفضل للطرق البحرية حول إنجلترا، واستغل الألمان تلك الميزة أفضل استغلال وبدءوا حصارهم البحري بحوالي عشرين غواصة، وفي يناير وقبل البدء في الحصار كانت حمولة 43550 طن قد تم إغراقها وتزايدت أعداد السفن التي تم إغراقها بشكل متزايد عندما بلغت الحمولة التي أغرقها الألمان في اغسطس 168200 طن، وكانت خسائر البريطانيين في السفن الحربية قليلة بالرغم من إغراق البارجة "فورميدابل" في أول يوم من أيام السنة الجديدة، فقد مضى الوقت الذي كانت فيه الغواصات الألمانية تهاجم السفن البريطانية بينما قوادها نائمون، وساهمت المدمرات السريعة في تقليل نسبة الخسائر التي كانت البحرية البريطانية تتكبدها، ومن ناحية أخرى فلم يكن هناك ما يمكن عمله فلم تكن البوارج البريطانية قادرة على التعامل مع الغواصة أو إغراقها، إذ كان قائد الغواصة يتمتع ببعض الحذر وتصبح الغواصة في مأمن من القصف في حالة غطسها، ولكن يمكن دكها إذا كانت على العمق الذي يسمح للبريسكوب بالمراقبة، ولكن تلك الطريقة كانت غاية في الصعوبة، ولكنها نجحت في بعض المناسبات، ففي الثامن عشر من مارس 1915 عثرت سفن الأسطول البريطاني التي كانت تقوم بمناورات على الغواصة "يو 29" التي كان يقودها الليوتنانت "فيديجن"، وكانت البارجة "دريدنوت" قد رصدتها ودكتها وغرقت بكل طاقمها، ولم تكن المدمرات قادرة على اصطياد الغواصات حيث إنها كانت مشغولة بحماية الأسطول، وقد أدخل

البريطانيون كل السفن التي كانت في أيديهم إلى الخدمة حتى اليخوت وسفن الصيد كسفن دوريات مساعدة، غير أن الغواصات كانت قادرة على تجنب الدوريات وإغراق السفن التي تبحر بدون حراسة، وكانت حرب الغواصات تسير بشكل جيد، وأثبتت أنها ناجحة إلى حد كبير، وبدا أنها تستطيع تجويع البريطانيين ودفعهم إلى الاستسلام، غير أنه ومن الناحية الدعائية كانت كارثة كبيرة على ألمانيا، إذ أن الحلفاء استغلوا ذلك بشكل جيد ضد الألمان، ولم يكن الأمريكيون راغبون في التدخل في الحرب، ولكن القصص البشعة التي كان الحلفاء يشيعونها عن الحرب مثل اغتصاب بلجيكا في بداية الصراع قد نجحت في تحريك الرأي العام الشعبي في أمريكا ضد الألمان، وكانت حرب الغواصات عنصرًا آخر يضاف إلى حملة الدعاية للحلفاء التي كانت تقوم على إظهار الألمان بمظهر المتوحشين القساة، وبدأت مانشيتات الصحف الأمريكية تعلن عن قتل الرعايا الأمريكيين على متن السفن البريطانية، وفي أبريل من عام 1915 تم ضرب سفينة البضائع البريطانية "هاربااليس" بالطوربيد وإغراقها بدون تحذير وكانت "هاربااليس" في طريقها إلى أمريكا لجلب الطعام لبلجيكا، وكانت تحمل كلمات لجنة الطعام من أجل بلجيكا بحروف بيضاء كبيرة، وكانت تحمل علمًا أبيض، وثار الرأي العالمي على ألمانيا.

إغراق لوزيتانيا

كانت السفينة لوزيتانيا من أسرع السفن التي تمت صناعتها قبل زمن الحرب، وكانت تزن 31500 طن، وكانت سرعتها اكثر من 26 عقدة، وكان بها كبائن فاخرة للمسافرين وقاعات مزدوجة وكبائن مضادة للماء على سبيل الأمان، وبعد اندلاع الحرب استمرت رحلات لوزيتانيا عبر المحيط، وكانت قيادة السلاح البحري البريطاني قد فكرت في ضمها إلى

السلاح البحري، ولكن انتهت إلى أنها لن تكون اقتصادية من حيث تكاليف التشغيل، غير أن قيادة السلاح البحري قد طلبت أن يخصص جزء من الحمولة لنقل المواد الحربية من الولايات المتحدة، وفي السابع من مايو 1915 كانت لوزيتانيا في طريقها إلى ميناء "كوينزتاون" في أيرلندا عندما رصدتها الغواصة الألمانية "يو 20" في الساعة الثانية وعشرة دقائق، وأصدر قائدها "فالتر شفيجر" الأمر بإطلاق النار، وبالفعل أطلقت الغواصة طوربيدًا نحو لوزيتانيا مما نتج عنه انفجار أحدث فتحة كبيرة في جانب السفينة، وأعقبه انفجار ثانوي، ولم يعرف حتى الآن سبب الانفجار الثانى إلا أن الكثيرين يعتقدون أنه نتج عن انفجار حمولة من الذخيرة كانت السفينة تحملها معها من الولايات المتحدة، بينما يعتقد آخرون أنه كان بسبب انفجار غاز الكربون أو من جراء طوربيد ثان، بالرغم من أن سجلات الغواصة أظهرت إطلاق طوربيد واحد فقط عليها، وفي ظرف ثمان دقائق من إطلاق الطوربيد غرقت لوزيتانيا على بعد ثمانية أميال فقط من رأس "كينسيل" أيرلندا وقتل بها 1198 شخصًا بينهم 128 أمريكيًا وحوالي ألف طفل، وقد جعلت تلك الحادثة الأمريكيين مستعدين تمامًا لإعلان الحرب على ألمانيا، وخوفًا من رد فعل أمريكي فرض القيصر فيلهلم عقوبات صارمة على الغواصات التي تقوم بمهاجمة سفن ركاب، وبالطبع بدأ البريطانيون في استغلال تلك الحادثة دعائيًا ضد الألمان بالرغم من عدم تورعهم عن استخدام المدنيين والأطفال ستارًا لاعمال حربية، وفي الثامن عشر من سبتمبر 1915 ألغى القيصر حملة الغواصات على السفن التجارية نهائيًا، ومن ناحية أخرى أصبحت البحرية البريطانية في وضع يائس من جراء خسائر حمولات السفن التي كبدتها إياها الغواصات الألمانية في عام 1914 وأوائل عام 1915، ولعجزها عن اتخاذ إجراءات وقائية لوقف الخسائر فقد بدءوا سلسلة من الإجراءات الخداعية مثل السفن الهيكلية والسفن التجارية التي يتم إخفاء أسلحة عليها بحيث يتم

إغراء الغواصات بالاقتراب إلى مدى قريب ومن ثم يتم قصفها وإغراقها، وكان على السفن الهيكلية أن تكون قديمة وبالية بحيث لا تستحق إطلاق طوربيد بل تكون هدفاً مناسبا لمدفع السطح للغواصة بحيث يتم إجبارها على الصعود للسطح، ولم يكن هناك بطل منفرد لتلك الفكرة بل نبتت الفكرة لدى الكثير من الضباط في قيادة القوات البحرية، وفي نوفمبر 1914 جهزت القوات البحرية البريطانية السفينة "فيتوريا" بعدة مدافع ودفعتها في دورية في الخطوط البحرية تحت علم محايد، وقامت "فيتوريا" بأعمال الدوريات لمدة ثلاثة شهور بدون أن ترصد غواصة واحدة، وتم سحبها في يناير 1915، وتم تسليح عدد من مراكب الصيد بشكل سري وإرسالهم إلى البحر في ربيع عام 1915 للبحث عن غواصات، ولكن حظها لم يكن أفضل من حظ "فيتوريا"، ولم تدخل السفن الهيكلية في اشتباكات حتى الصيف، كانت الغواصات تجتاح البحر إلى الشمال من سواحل أسكتلندا، وكانت الناقلات التي تنقل الفحم إلى القاعدة البحرية في "سكابا فلو" أهدافاً أساسية، وتم تجهيز إحدى تلك الناقلات الصغيرة - وهي البرنس تشارلز- بزوج من المدافع البحرية، وكان طاقمها يتكون من الطاقم المدني العادي وطاقم من السلاح البحري، وفي الرابع والعشرين من يوليو 1915 تقابلت البرنس تشارلز مع الباخرة الدانماركية "لويز" والتي قامت الغواصة "يو 36" بإيقافها، ورصدت الغواصة الألمانية البرنس تشارلز وقرر قائد الغواصة ترك الباخرة الدانماركية ومطاردة البرنس تشارلز، واقتربت الغواصة من الناقلة وفتحت النار عليها من مدفع السطح الموجود على سطح الغواصة من مدى بعيد، وأوقف الربان السفينة وأخلى طاقمها المدني والذين قاموا بإخلائها وهم في حالة ذعر، واقتربت الغواصة "يو 36" إلى مسافة خمسمائة وخمسين متراً للإجهاز على الناقلة، وقرر ربان السفينة أنه بذلك قد استطاع اجتذاب الغواصة إلى أقرب ما يستطيع وعندما أطلق صفارته قام طاقم المدفع برفع الستائر التي كانت تخفي

المدفعين وفتحوا النار على الفور على الغواصة، وذهل الألمان وقفزوا إلى داخل الغواصة وحاولوا الغطس على عجل، ولكن نيران المدفعين كانت دقيقة ومؤثرة، وغادر طاقم الغواصة غواصتهم وتركوها تغرق، وأثبت إغراق الغواصة الألمانية "يو 36" أن فكرة السفن الخداعية فكرة عملية جيدة، وبدأت البحرية في تحويل سفن أخرى إلى سفن خداعية، وتم الاحتفاظ بالأمر سرًّا وكان يشار إلى تلك السفن بأنها سفن الخدمة الخاصة، ولكن لأسباب غير معلومة كانت تلك السفن تعرف باسم "سفن كيو"، وكان يتم تحويل كل السفن إلى سفن خداعية من سفن الصيد إلى السفن عابرة المحيطات، ولكن كانت أفضلها البواخر والناقلات، وكانت مناطق العمل الرئيسية لتلك السفن هي المداخل الجنوبية لإنجلترا من خليج "بيسكاي"، والمداخل الشمالية خارج الساحل الغربي لأيرلندا، وكانت الناقلات والبواخر تستخدم تلك الطرق، ولم يكن هناك شيء غير عادي في ذلك، وكانت السفن التي يتم اختيارها هي أقل السفن لفتًا للأنظار، وكان من المفترض بكل سفينة من تلك السفن أن تصطدم مع الغواصات الألمانية من مدى قريب، بحيث يكون لديها الفرصة في النجاة من الغرق، ولوحظ أنه كلما كانت السفينة أقل لفتًا للنظر كلما كان قائد الغواصة يميل إلى الصعود إلى السطح والتعامل معها بمدفع السطح على مدى قريب بدلاً من استخدام الطوربيدات، وكان تسليح السفن الخداعية يتنوع اعتمادًا على عوامل، مثل الأسلحة المتاحة في ذلك الوقت وكيفية إخفاء السلاح، وكان يمكن للسفن الخداعية أن يتم تجهيزها بأنابيب طوربيد وثلاثة مدافع بحرية ورشاشات، وكان يمكن إخفاء الأسلحة تحت ألواح، أو في بدن السفينة داخل بنية السفينة، أو في الحمولة على السطح، أو حتى داخل قوارب النجاة التي كان يتم قطعها إلى نصفين ووضعها مفتوحة على مفاصل لإطلاق النار، وفيما بعد في الحرب كان يتم ملء مخازن السفينة بمواد قابلة للتعويم على أمل إبقائها فوق الماء حتى إذا تمت

إصابتها بشكل كبير، ولم يكن كافيًا أن يتم تجهيز الباخرة بـبعض المدافع وإرسالها إلى البحر على أمل عمل فخ لغواصة ألمانية، بل كان الأمر يتضمن تجهيزات مسرحية معقدة، حيث كان من المحتمل أن تقوم الغواصة بمراقبة السفينة لبعض الوقت قبل مهاجمتها وكان على أفراد طاقم السفينة الخداعية أن يبدوا مثل أية بحارة سفينة تجارية متسخين وقذرين فوق سطح السفينة، وكان السود يتم تعيينهم كطهاة، وعلى متن تلك السفن كان بعض الرجال يرتدون ملابس النساء، بحيث لا يتسرب أي شك لطاقم الغواصة في كون البحارة من سلاح البحرية البريطاني، وكان الضبط والربط تحت السطح أكثر صرامة بشكل غير معتاد، وكان التنكر يستمر حتى عند عودة السفينة إلى الميناء، حيث يمكن أن يكون هناك عملاء للألمان يراقبون السفن، وكان طاقم تلك السفن يتم التعامل معهم كجبناء يتجنبون الخدمة، وكان قباطنة السفن يتعرضون أحيانا لعجرفة بعض ضباط البحرية الذين كانوا أحيانًا اقل منهم في الرتبة، وفي الحقيقة كان أفراد أطقم تلك السفن من صفوة ضباط البحرية البريطانية، وكان يتم اختيارهم على أساس التطوع، وكان بعضهم أدميرالات متقاعدين يرغبون في العودة للحركة، وكانت تلك السفن مثل الحرباء حيث إن أي سفينة تجوس نفس المكان بشكل منتظم لابد أن تكون عرضة للشكوك، وكان يتم إعادة دهان السفينة ليلاً ووضع مداخن مزيفة وتغيير شكل السطح والصواري وإزالة وإضافة شحنات على السطح، وحتى الأعلام كان يتم تغييرها بحلول الصباح، وكان القليل فقط يمكنهم التعرف على السفينة، وكان بتلك السفن أيضًا نظام أنابيب خاص ليسمح لهم بمحاكاة الإصابة في المعركة عن طريق إطلاق سحب من الدخان، وأصبحت التجهيزات المسرحية أكثر كثافة مع الوقت، وخصوصًا حينما كانت تهاجمها غواصة ألمانية فكان جزء من الطاقم يتظاهر بالفزع، ويجرون للحصول على أي شيء من السفينة مثل بغبغاء أو ما شابه، وكل ذلك كان هدفه تشتيت

قائد الغواصة بحيث تستطيع السفينة أن تقترب، وكان القبطان هو آخر من يغادر السفينة، ويحمل معه حزمة من أوراق السفينة وكان لابد لقائد الغواصة من الحصول على تلك الأوراق حيث إنها توفر المعلومات عن حمولة السفينة، وبمجرد بلوغ الطاقم المسئول عن التظاهر بالهروب قوارب النجاة، كانوا يثيرون ضجة كبيرة بهدف التشويش على وإزعاج قائد الغواصة الألمانية واجتذابه للاقتراب بشكل أكبر، وكانت تلك لعبة خطيرة حيث إن بعض قادة الغواصات كانوا يترددون في استخدام الرشاشات، وبدأ سر تلك السفن في الانكشاف في التاسع عشر من أغسطس 1915، عندما تم الهجوم على السفينة "نيكوسيان" على السطح بواسطة الغواصة "يو 27" بقيادة الليوتنانت "برينهارد فيجنر"، وكانت "نيكوسيان" تحمل 800 بغلاً مخصصا للجيش البريطاني للنقل، وكانت البغال قد تم تحميلها من ميناء نيو أورليانز، وكانوا تحت إشراف ثمانين أمريكيًّا، وكانت السفينة تقترب من الميناء عبر القنال الإنجليزي، وكانت الغواصة تقصف السفينة "نيكوسيان" عندما تدخلت السفينة "بارالونج" التي كانت ترفع العلم الأمريكي بدون حذر لمساعدة "نيكوسيان" وقرر "فيجنر" قصف "بارالونج" ولكنهم مروا خلف "نيكوسيان"، وكان عليهم حينئذ وقف نيرانهم، وعندما ظهرت مرة أخرى لم تكن ترفع العلم الأمريكي ورفعت علم القتال الأبيض الخاص بالبحرية الإنجليزية، وكان على ظهرها زوج من مدافع السطح عيار 36 بوصة، واستطاعت الغواصة أن تتفادى طلقة غير دقيقة قبل أن تصنع بها المدافع فتحات وتغرقها، وحاول بعض الناجين الصعود على سطح "نيكوسيان"، وأمر قائد السفينة البريطانية بحارته بقتل البحارة الألمان وأطلق الإنجليز النار عليهم بينما كانوا يصعدون إلى السطح على "نيكوسيان"، ثم أطلقوا النار على كل من نجح في الصعود إلى السطح، واستطاعت "نيكوسيان" أن تصل إلى الميناء، وحاول البريطانيون إقناع طاقم السفينة والمسافرين عليها بالتزام الصمت

حيال ما رأوه من "بارالونج" غير أن الرجال الثمانين الذين كانوا مسئولين عن البغال تكلموا إلى الصحافة بحرية عندما عادوا إلى الولايات المتحدة، وأثار موضوع قتل طاقم الغواصة "يو 27" الرأي العام في ألمانيا، وأطلق الألمان النار على قائد السفينة التجارية التي حاولت دك غواصة في يوليو 1916، وعرفت أطقم الغواصات الألمانية الآن أن بعض السفن كانت تتنكر في شكل ضحايا، وبدأت عمليات السفن الخداعية في التراجع بعد ذلك، ولكن البحرية البريطانية استمرت في إنكار وجود تلك السفن إلى ما قبل انتهاء الحرب بقليل.

الألمان في البحر الأبيض المتوسط

بعد وقف عمليات الغواصات انحصرت أنشطة الغواصات حول الجزر البريطانية في عمليات بث ألغام روتينية عند بدايات الموانئ في الطرق البحرية، وحيث إنه لم يكن هناك ما تفعله الغواصات في المحيط الأطلنطي بدأت الغواصات الألمانية في نقل مسرح عملياتها إلى البحر الأبيض المتوسط، وثبتت كفاءة ذلك حيث كان الألمان يرغبون في دعم حلفائهم في ذلك الوقت العثمانيين، والذين كانوا يحاربون الإنزال البريطاني في جاليبولي، وكذلك لاعتراض الشحنات البريطانية التي تتحرك عبر المتوسط من خلال قناة السويس، وكان لديهم الكثير من الأهداف لضربها هناك، بينما لم تواجههم مقاومة كبيرة، وقاد الليوتنانت "أوتو هرسينج" الذي كان قد قام بإغراق أول سفينة بريطانية قبل ذلك بعام بقيادة العمليات في مسرح البحر الأبيض المتوسط، حتى عندما كانت حرب الغواصات في الأطلنطي على أشدها، وبعد التسلل من خلال مضيق جبل طارق بغواصته "يو 21"، وبعد عبور البحر المتوسط كله قام بالاشتباك مع الأسطول البريطاني الذي يقوم بقصف شبه جزيرة جاليبولي، وفي الخامس

والعشرين من مايو 1915 رصدت غواصة "هرسينج" البارجة "تريامف" من خلال البريسكوب وأغرقها بطوربيد واحد، وفي السابع والعشرين من مايو اقتربت الغواصة من البارجة "ماجيستيك"، وبعد أن انتظرت بصبر تحينت الفرصة المناسبة للانقضاض وأطلقت عليها طوربيدًا واحدًا وأرسلتها إلى القاع، واضطر البريطانيون إلى سحب السفن الكبيرة من أسراب القصف، وتبعت غواصات أخرى غواصة "هرسينج" بالرغم من أن الألمان تمكنوا من شحن القليل من الغواصات الصغيرة المخصصة للدوريات الساحلية عن طريق السكك الحديدية عبر النمسا للعمليات في بحر الأدرياتيكي والبحر الأسود إلا أن الألمان أرسلوا غواصات أخرى كبيرة عبر مضيق جبل طارق، وقبل حلول خريف عام 1915 كان هناك خمس من تلك الغواصات تعمل في مسرح البحر الأبيض المتوسط، وقد حقق عدد من قادة الغواصات الألمانية أرقامًا مهمة في مسرح العمليات الجديد، وكان أكثر من حظي بالاهتمام هو "ماكس فالنتينر" قائد الغواصة "يو 38" والذي كان متحمسًا لفكرة الهجوم بدون تحذير، وقد قام بإغراق ناقلات جنود وسفن ركاب ووضعه الإنجليز على رأس قائمة مجرمي الحرب، لإغراقه سفينة الركاب "برشيا" في الثلاثين من ديسمبر 1915 والتي قتل فيها ثلاثمائة وأربعة وثلاثون مسافرًا، وقادت الاحتجاجات على تلك العمليات القيادة الألمانية إلى التنازل شيئًا فشيئًا عن سياسة إغراق السفن التجارية وسفن الركاب كما رأينا آنفا، وكان ترتيب "فالنتينر" من حيث كمية الأطنان التي أغرقها هو الثالث بين قواد الغواصات الألمانية في أسطول غواصات البحر الأبيض المتوسط بعد "فالتر فورتسمان" قائد الغواصة "يو 39" و"فون أرنولد" الذي كان يقود الغواصة "يو 35" الذي حقق نتائج إغراق لم يتم تحقيقها من قبل، وأغرقها بالضبط طبقًا للقواعد، فكان يقوم بإيقاف السفينة التجارية، ويصعد على سطحها، ويقوم بفحص أوراقها، وإذا كانت السفينة تمثل هدفًا شرعيًّا كان يأمر الطاقم بركوب

قوارب النجاة ويوجههم ناحية البر، ثم يقوم بإغراق السفينة، وبين السادس والعشرين من يوليو والعشرين من أغسطس 1916 أغرق "فون أرنولد" ستًّا وخمسين سفينة بحمولة إجمالية 82850 طنًّا، وعندما ترك قيادة الغواصة "يو 35" كان قد أغرق مائة وخمسًا وتسعين سفينة، بما فيها سفينتين حربيتين وسفينة تجارية مسلحة وخمس ناقلات جنود وعدد كبير من البواخر وسفن الإبحار، وأثبتت إجراءات الحلفاء المضادة للغواصات في البحر الأبيض أنها متخبطة، كما كانت في الأطلنطي، وبالرغم من نشر الدوريات كانت الغواصات الألمانية قادرة على تفاديها، وبذل الحلفاء مجهودات كبيرة في محاولة العثور على القواعد السرية للغواصات في البحر الأبيض التي كانت الغواصات تعمل منها، ولم يدركوا أبدًا أن الغواصات الألمانية كانت قادرة على العمل لفترات طويلة بدون الحاجة إلى تموين على خلاف غواصات الحلفاء، وأنها لم يكن لديها مثل تلك القواعد علاوة على أنها لم تكن في حاجة إليها، وكانت الخسائر في البحر الأبيض المتوسط كبيرة لدرجة أن الحلفاء بدءوا في تحويل شحناتهم حول رأس الرجاء الصالح، وليس عبر قناة السويس بالرغم من أن الألمان لم تكن لديهم سوى حفنة من الغواصات في البحر الأبيض المتوسط، وكان الحلفاء قد بلغ منهم اليأس مبلغه للدرجة التي دفعتهم إلى أن يطلبوا من اليابان التي كانت قد دخلت الحرب إلى جانب الحلفاء أن ترسل لهم المساعدات، وبالفعل أرسل اليابانيون مجموعات صغيرة من المدمرات إلى البحر الأبيض المتوسط عام 1917.

السفن التجارية

وبحث الألمان أيضًا فكرة استخدام الغواصة كوسيلة للتملص من الحصار البحري مثل الغواصة "دويتشلاند" والتي تم تطويرها بأموال

خاصة، وكانت تقوم شركة شحن ألمانية بتشغيلها ويقودها "باول كونيج"، ولم تكن الغواصة "دويتشلاند" مسلحة، وكان قاعها عريضًا ليوفر مكانًا للشحنات، وتمكنت تلك الغواصة من التسلل من الحصار البريطاني، وهي تحمل شحنة من الأصباغ والكيماويات والأحجار الكريمة، ووصلت إلى ميناء بالتيمور في يوليو 1916 بعد أربعة أسابيع في البحر، وكانت تلك الرحلة خبطة دعائية بالغة الأهمية ومربحة كذلك، حيث عادت تلك الغواصة إلى ألمانيا محملة بشحنة من النيكل والمطاط الخام، وكانت الغواصة التجارية "بريمين" قد رحلت من الولايات المتحدة ولكنها اختفت في الطريق، ويبدو أنه تم إغراقها عن طريق لغم اصطدم بها شمال "اوركني" وكانت تحرسها الغواصة الألمانية "يو 53" وكانت بعض مخازن الذخيرة في تلك الغواصة قد تم تحويلها بحيث تكون قادرة على حمل المزيد من الوقود، ليسمح لها بالقيام بالرحلة غير أن قائد تلك الغواصة "هانس روز" أراد إظهار كم هي رهيبة تلك الغواصات فقام بإغراق ثلاث سفن تجارية إنجليزية وواحدة نرويجية وأخرى هولندية خارج المياه الاقليمية الأمريكية، ويبدو أنه أراد إخافة الأمريكيين، ولكن بدلا من ذلك نجح في إثارة غضبهم، وقامت الغواصة "دويتشلاند" برحلة تجارية أخرى في خريف عام 1916 ورست في نيو لندن وكونكتيكوت، ولكن بعد ذلك تم وقف الرحلات التجارية للغواصات، وتم تسليح "دويتشلاند" بأنبوبين للطوربيد ومدفع سطح، وتم الانتهاء من ست غواصات أخرى كانت تحت الإنشاء من نفس الطراز، ولكن تم تحويلها إلى غواصات عسكرية، وأعيدت تسمية "دويتشلاند" ليصبح اسمها "يو 155".

استئناف حرب الغواصات

بعد أن توقفت الغواصات الألمانية في شهر سبتمبر من عام 1916 عن

ضرب السفن التجارية أصبح لدى البحرية الألمانية عدد وفير من الغواصات تستطيع توجيهها إلى أهداف أخرى، وأراد العسكريون الألمان استغلال الغواصات في استئناف الحصار البحري بينما كان لدى المستشار الألماني أسبابًا قوية تجعله يخشى استئناف تلك المعركة، حيث كان يخشى أنه إذا استمر في استهداف السفن التجارية فإن الولايات المتحدة قد تدخل الحرب ضد ألمانيا، وكما ذكرنا سلفًا أن الخطة العسكرية التي وضعتها ألمانيا للحرب وهي خطة "شليفن" كان هدفها الأساسي تمكين ألمانيا من الحرب على جبهتين بحيث تقوم سريعًا بتصفية جبهة منهما، ثم تحول باقي مجهودها لتصفية الجبهة الأخرى متفرغة لها تمامًا وهي بكامل قوتها، وبغض النظر عن نجاحها في ذلك من عدمه، وقد رأينا أن كل أطراف الحرب كانوا يتوهمون أنها ستكون حربًا قصيرة بما فيهم ألمانيا، غير أن هذا التصور قد هدمه الواقع الذي فرض نفسه على ميادين القتال بالإضافة إلى مئات التفاصيل التي لم تكن خطط البلدان المتحاربة قد وضعتها في اعتبارها، وعلى ذلك فإن ألمانيا لم تكن لتحتمل عسكريًّا فتح جبهة جديدة، والدخول مع الولايات المتحدة في مواجهة قد لا تكون في صالحها إذا أخذ في الاعتبار قدرات الولايات المتحدة كقارة كبيرة شاسعة الأطراف غنية الموارد مقارنة بألمانيا ومواردها المحدودة، إلا أن أحد الرأيين لم يتغلب على الآخر، وتم أخيرًا التوصل إلى حل وسط بينهما فإن الدبلوماسيين الألمان سيقومون بالتفاوض من أجل التوصل إلى السلام، وإذا ما فشلوا في ذلك فسيتم إطلاق يد الغواصات في القتال ثانية، وتحت تلك الظروف كان يمكن للألمان التصريح بأنهم قد تم إجبارهم على اتخاذ ذلك المسار بسبب عناد الحلفاء، ولم تصل المفاوضات إلى أية نتيجة، وفي أوائل عام 1916 كان الحصار البحري قد بدأ مجددًا، ولكن الهجوم في تلك المرة قصر على السفن التجارية المسلحة بعد الاحتجاجات التي ضجت بها الدول المحايدة، وخصوصًا الولايات المتحدة، وتم وقف الحملة بعد شهرين من بدءها غير

أن الضغط العسكري على ألمانيا استمر في التصاعد مما دفعها في خريف نفس العام إلى استئناف الحصار البحري، وكان مثل سابقه مقصورًا على السفن الحربية أو السفن المسلحة فقط، وفي ذلك الوقت كان لدى الألمان مائة وأربع وثلاثون غواصة، وتم تطوير الغواصات من طراز المحيط الأزرق ليصبح لديها أربعة أنابيب طوربيد أمامية واثنتان خلفيتان، وبها مدفع أو مدفعين من عيار 86 مليمتر أو مدفع واحد من عيار 105 مليمتر، وتم كذلك بناء غواصة وضع ألغام من طراز "يو إي"، وتضمن التطوير زيادة الحجم، وشمل التطوير غواصات الدوريات الساحلية من طراز "يو بي" بثلاثة أنواع وغواصات وضع الألغام الصغيرة من طراز "يو سي" بثلاثة أنواع، وحتى مع تقييد عمل الغواصات وقصره على السفن الحربية أو السفن المسلحة فإن تأثير ذلك الأسطول على البحرية البريطانية والحلفاء كان كاسحًا، ففي الشهور الأخيرة لعام 1916 أغرقت الغواصات الألمانية مائة وأربعة وخمسين سفينة تجارية بمجموع حمولات 443000 طن، وبلغ اليأس مبلغه من الإنجليز لدرجة أن الأدميرال سير "جون جليكو" قال بأنه إذا استمرت الأمور تسوء بنفس المعدل فسيكون على بريطانيا أن تطلب السلام قبل حلول صيف 1917، وفي أوائل عام 1917 أعلن القيصر حرب غواصات غير محدود شاملة مرة أخرى، وكان بعض الدبلوماسيين الألمان يعتقدون بأن الولايات المتحدة ترغب في تجنب الحرب بأي ثمن، وإذا لم يكن الأمر كذلك كانت ألمانيا تأمل بأن تكون قد تمكنت من تركيع إنجلترا قبل ذلك، قبل أن يدخل الأمريكيون الحرب بكل ثقلهم في أوربا، وفي فبراير تم إغراق ست وثمانين سفينة، ثم تبعتها مائة وثلاث سفينة في مارس، ومائة وخمس وخمسون في أبريل، وقام السلاح الملكي البحري البريطاني من التوسع في استخدام السفن الخداعية، وبلغ عدد تلك السفن ثماني وسبعين سفينة، واستطاعت أن تحقق بعض الضربات الناجحة، فضربت السفينة "برايز" الغواصة "يو 93" في الثلاثين

من أبريل 1917 وأسرت ثلاثة من طاقمها وجدوا يسبحون في المياه بما فيهم قائد الغواصة البارون "فون بكلسهايم"، وتم افتراض أن الغواصة غرقت، وكتب البارون "فون بكلسهايم" خطابات تعزية لزملائه، ثم اكتشف فيما بعد أن الغواصة تمكنت من شق طريقها إلى ألمانيا الأمر الذي أسعده وضايقه في نفس الوقت بالرغم من أن برج الغواصة قد أصيب بشكل كبير، وتسببت الطلقات في عمل حفر في بدن الغواصة، ونزلت الغواصة إلى العمق مما نتج عنه أن لفظته الغواصة هو وطاقم المدفع، وفي السابع من أغسطس 1917 تمكنت السفينة الخداعية "بارجوست" من إغراق الغواصة الألمانية "يو 29" وغرقت السفينة "بارجوست" نفسها كنتيجة للمعركة، وكانت تلك ثالث غواصة يغرقها ربان السفينة "جوردون كامببيل" الذي كان قائدًا للسفينة الخداعية "فارنبورو" التي أغرقت الغواصة "يو 68" في مارس 1916 ثم أغرق الغواصة "يو 83" في فبراير 1917، ونال عن ذلك وسام صليب فيكتوريا، وكان الكابتين "كامببيل" مثالاً للبرود الإنجليزي فعند غرق السفينة "فارنبورو" بعد اشتباكها أرسل اشارة إلى قيادته تقول "السفينة تغرق ببطء إلى اللقاء"، وفي الحقيقة فقد نجت "فارنبورو"، ثم تم بيعها بعد ذلك بثمن زهيد في عام 1919، وظهر برود "كامببيل" في أحد أكثر المعارك البحرية في الحرب درامية وفي الثامن من أغسطس 1917 كان حينئذ قائد السفينة الخداعية "دونرافين" عندما هاجمته الغواصة "يو 71" في الحادية عشرة وسبع عشرة دقيقة من صباح ذلك اليوم، وكانت السفينة "دونرافين" قد تم تمويهها كسفينة تجارية مسلحة، وكان مركبًا بها مدفع سطح صغير، كان بمقدور طاقم الغواصة رؤيته، وتبادل طاقم المدفع الطلقات لبعض الوقت مع الغواصة، ولم يكن الألمان قادرين على ضرب السفينة "دونرافين" وكذلك لم يكن البحارة الإنجليز حريصين بشكل كبير على ضرب الغواصة الألمانية، وبعد مناوشات دامت نصف ساعة نفذ صبر قائد الغواصة

الليوتنانت "راينهولد زالتسفيدل" واقترب أكثر من "دونرافين"، وبدأ طاقم مدفع الغواصة في تسديد ضربات للسفينة، وغادر الطاقم الذي يمثل دور الركاب المذعورين السفينة في الثانية عشرة وعشرة دقائق، وضربت إحدى الطلقات مخزنًا في مؤخرة السفينة والذي كان يحتوي على بارود في داخله وطاقم مدفع في أعلاه وعرف "كامبييل" أن البارود سينفجر في النهاية، وسيأخذ معه طاقم المدفع، ولكن كان عليه أن يوازن ما بين إغراق الغواصة، وما بين إنقاذ ارواح البحارة الذين كانوا على متن السفينة، ويبقي أفراد الطاقم كل في موقعه على أمل أن يظن الألمان أن لا أحد على متن السفينة "دونرافين" واجتذاب الغواصة للاقتراب، ونجح ذلك تقريبًا واقتربت الغواصة، ولكن المخزن انفجر في الساعة الثانية عشرة وثمان وخمسين دقيقة، وانفجرت معه معظم المؤخرة وألقي بطاقم المدفع في الهواء، وللعجب لم يقتل منهم غير واحد، غير أن الآخرين قد جرحوا، وكان الليوتنانت الذي يقود طاقم المدفع قد أصيب بحروق وأوشك على فقدان الوعي، وزعقت صافرات الإنذار على متن السفينة التي كانت النيران قد اندلعت في مؤخرتها، وفي الغواصة الألمانية كان قائدها قد توخى الحذر، وغطس بغواصته على الفور في الواحدة وعشرين دقيقة، وكانت "دونرافين" قد أصيبت بطوربيد أحدث فتحة كبيرة في جانبها، وأصدر "كامبييل" الأمر إلى طاقم آخر ليقوم باصطناع الفزع والقفز من السفينة، ولكنه بقي على متن السفينة مع طاقم صغير ليقوم بتشغيل أسلحتها على أمل أن يخدع قائد الغواصة بجعله يعتقد أن السفينة قد أخليت، ولم يخدع قائد الغواصة الألمانية مرة أخرى إلا أنه استمر في استطلاع السفينة من بريسكوب الغواصة حتى الساعة الثانية وثلاثين دقيقة عندما صعدت الغواصة إلى السطح من ناحية المؤخرة وبدأت في قصفها من مدفع السطح، ولم يكن لدى "دونرافين" القدرة على رد الهجوم من ذلك الوضع، وظلت الغواصة الألمانية تقصف السفينة "دونرافين" لمدة عشرين دقيقة، وغطست

الغواصة ودارت حول السفينة مرة أخرى، وأمر "زالتسفيدل " بإطلاق الطوربيدين اللذين سلحت بهما الغواصة على السفينة وأخطأها الطوربيد الأول واحتك بها الثاني، ولكنه لم ينفجر، وأعد "كامبييل" الطاقم الثالث الذي يمثل دور الركاب المذعورين، ولكنه أصدر أوامره لأحد أطقم المدافع بالبقاء على متن السفينة ولحسن حظ طاقم السفينة "دونرافين" رحلت الغواصة الألمانية بعد أن استنفذت كل طوربيداتها، واكتفى الليوتنانت "زالتسفيدل" بقصف السفينة "دونرافين" والتي بدا من الواضح أنها لن تستطيع الإبحار إلى أي مكان، وتم التقاط البحارة البريطانيين الجرحى بواسطة يخت أمريكي، وقامت مدمرة بريطانية بجر السفينة "دونرافين" غير أن السفينة كانت قد أصيبت بشكل كبير الأمر الذي لم يمكنها من البقاء عائمة، وغرقت في الليلة التالية، وتم منح الليوتنانت والضابط المسئول عن طاقم المدفع الخلفي وسام صليب فيكتوريا وتلقى باقي الطاقم جوائز أخرى عبارة عن منحة 300 جنيه إسترليني للمجموع، وتم نقل "كامبييل" والطاقم مرة أخرى إلى البحرية النظامية، وكانت تلك المعركة هي آخر عمل جيد تقوم به السفن الخداعية، فلم تكن السفن الخداعية سلاحًا ذا تأثير، فقد كانت البحرية تستخدم مائة وثمانين سفينة خداعية نجح عشرة منهن فقط في إغراق أربع عشرة غواصة، وكان سبعة من العشر سفن المشار إليها قد اشتركوا في إغراق غواصة واحدة من العشرة المشار إليهم وأغرقت واحدة منهم ثلاث غواصات، وتم استخدام ذلك النوع من السفن الخداعية مرة أخرى في الحرب العالمية الثانية، وفي الحقيقة فقد علق بعض المحللين العسكريين البحريين -ولديهم في ذلك كل الحق- في أن كل ما فعلته تلك السفن هو استفزاز قادة الغواصات الألمانية، وتسببت في عدم إظهارهم لأي قدر من الرحمة تجاه السفن التجارية، وعلى العكس فقد دفعهم ذلك إلى ضربها بدون تحذير كما كان متبعًا، إن القوات البحرية البريطانية كانت في طريقها إلى هزيمة كبرى وكانت سمعة السلاح

البحري الإنجليزي قد قاربت على الانهيار، ففي مسرح الأطلنطي كان الألمان يحققون ضدهم نصرًا تلو الآخر، وفي البحر الأبيض المتوسط كانت القوات البحرية البريطانية على شفا الهاوية، وفي الدردنيل وبعد هجوم بريطانيا البحري الفاشل الذي خسرت فيه البحرية الملكية البريطانية سمعتها كأقوى سلاح بحري لم يكن أمام الألمان وقتها إلا أن يضغطوا بشدة على البريطانيين ليحققوا انتصارًا بحريًّا كاملاً عليهم إلا أن الأساليب الخبيثة واللا أخلاقية التي اتبعتها بريطانيا في محاولة الإفلات من الحصار البحري الذي فرضته عليها ألمانيا، مثل الاحتماء بالركاب والأطفال في نقل ذخائر ومعدات حربية من الولايات المتحدة علاوة -من الناحية الأخرى- على الطيش الذي تعامل به الألمان مع تلك الحيل والذي تسبب في استفزاز الولايات المتحدة، ونمو رأي عام معاد لألمانيا في الشارع الأمريكي مما أدى في النهاية إلى دخول الولايات المتحدة الحرب ضد ألمانيا، الأمر الذي كان له عظيم الأثر في هزيمة ألمانيا النهائية، ولولا ذلك لكان السلاح البحري البريطاني قد هلك ولا محالة، ومن ناحية أخرى لم يكن أمام بريطانيا إلا استخدام تلك السفن الخداعية لأنها كانت السلاح البحري الهجومي المؤثر في مواجهة الغواصات الألمانية ففي حالات أخرى ألحقت تلك السفن إصابات بستين غواصة أخرى، وكانت الإصابات شديدة في بعض الحالات وتكتيكيًّا، فقد كان من جراء استخدام تلك السفن أن أصبح قادة الغواصات الألمانية يميلون إلى التعامل معها بالطوربيدات بدلاً من الصعود للسطح وقصفها وإغراقها من مدفع السطح، وكانت الطوربيدات مكلفة أكثر ولم تكن الغواصات قادرة على حمل كميات كبيرة منها الأمر الذي حد من القدرات القتالية للدوريات، وعلى كل حال فإن تلك السفن قد قدر لها أن تسطر أحداثًا مثيرة في المعارك البحرية التي دارت في الحرب العالمية الأولى، وفي الحقيقة كانت بريطانيا تحتاج إلى أسلحة وتكتيكات جديدة لتتمكن من هزيمة الغواصات الألمانية،

وكانت هجمات الغواصات المتزايدة في شدتها قد أدت بالرأي العام الأمريكي إلى نقطة الغليان، وتزايد الغليان الشعبي في الولايات المتحدة على ألمانيا عندما أرسلت وزارة الخارجية الألمانية برقية إلى حكومة المكسيك تعلن فيها عن استعدادها لمساعدة المكسيك في حالة قيامها بغزو للولايات المتحدة من الجنوب لاسترداد الولايات الجنوبية التي كانت الولايات المتحدة قد اقتطعتها من المكسيك في السابق، وقام البريطانيون باعتراض تلك البرقية وفكوا شفرتها ومرروها إلى الولايات المتحدة، وكانت تلك القشة التي قسمت ظهر البعير، فأعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا في أبريل 1917 ووجهت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا مواردهما للتعامل مع الغواصات الألمانية، وقد وعت بريطانيا الدرس فمثلما بذلت بريطانيا كل جهدها لجر الولايات المتحدة ودول أخرى إلى الحرب على ألمانيا، قامت بفعل المثل في الحرب العالمية الثانية إذ إنه بدون فتح جبهات أخرى ودخول دولة ذات إمكانات وموارد كبيرة مثل الولايات المتحدة كانت الحرب العالمية الأولى ستتحول إلى حرب استنزاف طويلة تستنزف فيها إنجلترا وحلفاؤها وربما استسلمت في النهاية، أو على افضل تقدير سعت إلى السلام مع ألمانيا.

أمريكا تدخل الحرب

استطاع الألمان استفزاز الولايات المتحدة كما ذكرنا آنفًا، وكانت حكومة الولايات المتحدة متشوقة للقتال، ولكن كانت المشكلة الوحيدة أن الولايات المتحدة لم تكن بعد مستعدة للدخول في الحرب، وكان من الممكن بسهولة أن تنهزم إنجلترا قبل أن تستكمل أمريكا تعبأتها من أجل الحرب، وكان ذلك هو رأي الأدميرال "ويليام سيمز" قائد القوات البحرية الأمريكية في أوربا والذي كان يرى أن البريطانيين في طريقهم إلى كارثة

وشيكة على يد الغواصات الألمانية، وكان يستعطف حكومته من أجل الموارد اللازمة المضادة للغواصات، ونقل السفير الأمريكي في لندن "والتر هاينز بيدج" نفس المخاوف إلى حكومته في واشنطن، ومع استئناف عمليات إغراق السفن التجارية مرة أخرى في مايو تنبأت قيادة السلاح البحري بأن إنجلترا لن تكون قادرة مطلقًا على الصمود بعد شهر نوفمبر 1917 إذا استمرت الغواصات الألمانية على نفس المعدلات، وأرسلت القوات البحرية الأمريكية ست مدمرات إلى "كوينزتاون" في ايرلندا في أوائل مايو، ثم الكثير بعدها، وكانت بالطبع قدرات أمريكا الإنتاجية أكبر بكثير من قدرات بريطانيا، وكانت ترسانات السفن في أمريكا تستطيع إنتاج مدمرة كل ستة أسابيع، وكانت بريطانيا تنتجها في سنة ونصف، وأصبح الآن في الإمكان تعويض الخسائر البريطانية.

نظام القوافل

كان أبسط إحصاء يمكن للبريطانيين القيام به عن الإمكانيات التي قد تتوفر لهم من الآن فصاعدًا بعد دخول أمريكا الحرب ستشجعهم على بدء قوافلهم التجارية، وكان نظام القوافل معمولاً به لدى البريطانيين منذ الحروب النابوليونية مع الفرنسيين، فقد استخدمت القوافل لحماية السفن، وتم استخدامه بنجاح في الحرب العالمية الأولى لحماية ناقلات القوات، ولكن فكرة استخدام القوافل لحماية السفن التجارية قد نوقشت لسنوات عديدة، ولم يكن أحد متأكدًا من أن نظام القوافل سيكون إنقاذا لبريطانيا أم خرابًا عليها، وقد يكون تدعيم السفن التجارية بنظام القوافل سببًا في توفير أهداف أكثر للألمان الذين لن يكون عليهم الآن إلا التواجد بغواصاتهم واصطياد السفن التجارية في مجموعات لتتضاعف خسائر بريطانيا، إضافة إلى أن جمع السفن معًا بذلك الشكل قد يكون سببًا في

حوادث تصادم لبعض السفن، وعلاوة على ذلك فقد يمثل جمع السفن بذلك الأسلوب مشكلة لوجيستية، وكان ذلك حكم قادة البحرية البريطانية على المسألة برمتها، وكذلك فقد أحسوا أن تلك الطريقة بالغة السلبية في التعامل مع الحرب، وقاومت القوات البحرية بضراوة فكرة تشكيل قوافل تجارية، ولم تكن تلك الورطة أو ذلك الخلاف يشكل مشكلة كبيرة نظرًا لوجود حليف يمكنه تعويض الخسائر بشكل سريع، وفي النهاية رجح الكفة إصرار رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج الذي صمم على تنفيذ نظام القوافل التجارية، وبعد تجارب في أوائل عام 1917 أثبتت نجاح ذلك النظام، تم تشكيل أول قافلة رسميًّا في أواخر مايو وانجرت أرجل قيادة السلاح البحري إلى تنظيم القوافل، وهبطت معدلات الخسائر في السفن بشكل كبير، فقد أصبحت معدلات الخسائر 2٪ بعد تبني نظام القوافل بعد أن كانت 10 ٪ في السابق للسفن التي تسافر منفردة، وهبط معدل الخسائر في السفن مرة أخرى إلى 1 ٪ في أكتوبر غير أن نظام القوافل لم يكن إجباريًّا، ولم تهبط الخسائر الشهرية عن معدلاتها التي تم تسجيلها في عام 1916 إلا في أغسطس من عام 1918، وفي الوقت ذاته بدأ الحلفاء في بث الألغام لمنع الغواصات الألمانية من الوصول إلى البحر المفتوح، وقد تم بث تلك الألغام في المراحل الأولى للحرب، ولكن الألغام البريطانية لم تكن فعالة، ولكن في عام 1917 كان لدى البريطانيين ألغام "ماركة إتش 2" المنسوخة من الألغام الألمانية، والتي كانت أكثر فتكًا من الألغام البريطانية الأولى، وكانت بعض حقول الألغام ضخمة فعلى سبيل المثال كان أحدها يحتوي على سبعين ألف لغم، وكان يمر عبر بحر الشمال من جزر "أوركني" إلى النرويج، وكان يسد الطريق البحري إلى شمال الأطلنطي، بالرغم من أنه بشكل عملي كانت الألغام موزعة على مساحة واسعة، مما أدى إلى التقليل من كفاءتها، وفي حقول أخرى كان هناك خمسة وعشرون ألف لغم أغلقت الطريق إلى القاعدة البحرية في

بحر الشمال، واغلق حقل ألغام آخر القنال الإنجليزي في مضيق دوفر، وأخيرًا فإن الألغام كانت قادرة على إصابة عدة عشرات من الغواصات الألمانية، وأجاد الإنجليز صناعة أول سلاح كان من شأنه إصابة الغواصات في الأعماق تحت المياه، وكان يسمى شحنة الأعماق والذي اقترحه الأدميرال "تشارلز مادن" عندما كان يقرأ تقريرًا عن هروب غواصة ألمانية من بارجة بريطانية عن طريق الغطس في الأعماق فنبتت على الفور الفكرة في رأسه، فقال للادميرال "جون جليكو": ألم يكن من الحري بهم أن يكون لديهم لغمًا يمكنهم إسقاطه على الغواصة، وينفجر عند بلوغه العمق الذي تشغله الغواصة. وأعجب الأخير بالفكرة وبدأت قيادة القوات البحرية في دراستها، واتضح أن تصميم سلاح كهذا كان في غاية البساطة، وكان المنتج النهائي عبارة عن شحنة الأعماق من طراز "دي ماركة 3"، وهو عبارة عن حاوية كبيرة تملأ بمادة الـ "تي إن تي" ومفجر حساس للضغط، ويمكن ضبط المفجر لينفجر اللغم على ستة أعماق من 30 إلى 180 مترًا، وكانت آلية المفجر داخل غرفة مجوفة في غرفة العمق التي يتم ملؤها بالماء، ويمكن فتح مدخل الغرفة بأداة من ست فتحات بأحجام مختلفة، واستخدمت ألغام الأعماق تلك لأول مرة في يوليو من عام 1916 عندما هاجم زورق الدورية "إتش إم إس سالمون" الغواصة الألمانية "يو سي 7" بالرغم من تمكن الغواصة من الهرب، وفي السادس من ديسمبر 1917 سجلت ألغام الأعماق أول نتيجة لها عندما أغرقت المدمرة "ليويلين" الغواصة "يو سي 19" في مضيق دوفر، وفي الأسبوع التالي أغرقت "لاندريل" الغواصة "يو بي 29" في القنال الإنجليزي، وتبنى الأمريكيون على الفور مطفأة التبغ كما كانوا يسمون لغم الأعماق، وتمكن الإنجليز باستخدام ذلك السلاح من إغراق العشرات من الغواصات الألمانية قبل نهاية الحرب، وحتى عندما لم يكن تفجير ذلك اللغم يحدث إصابات حقيقية في الغواصة فإن صوته كان يحدث تأثيرًا

مروعا على معنويات أفراد طاقم الغواصة، وفي البدء كان يتم إلقاء ألغام الأعماق من مؤخرة المدمرة أو السفينة الخداعية، ولكن بحلول عام 1918 كانت المدمرات تحمل قاذفات، وهو قاذف يشبه الهاون قام الإنجليز بتطويره في إحدى ترساناتهم البحرية والذي كان قادرًا على إطلاق اللغم إلى مسافة سبعين مترًا من السفينة، وكانت كل مدمرة تحمل أربع قاذفات وأنبوبين للإطلاق في مؤخرتها قادرة على إسقاط حمولة من الألغام لتحيط بالموقع الافتراضي للغواصة، وبالتوازي مع تطوير ألغام الأعماق وفي خلال بحثهم المحموم حول إنتاج جهاز يمكنه تحديد موقع الغواصة في الأعماق استطاع البريطانيون إنتاج "الهايدروفون"، وكان ذلك الجهاز البدائي في الحقيقة عبارة عن ميكروفون لتحديد الأصوات تحت الماء، ويمكن لعامل مختص أن يقوم بتشغيله ليرصد الأصوات المنبعثة تحت الماء، وكان "الهايدروفون" فعليًّا قد تم تطويره منذ 1894، وكان في الأصل مبنيًّا على نظرية عمل التلفون، وتم تطويره في الأساس كوسيلة ملاحية مساعدة لالتقاط الأجراس تحت الماء قرب الفنارات، وكذلك الحطام والمخاطر البحرية الأخرى أو كجهاز استقبال على المدى القصير على أساس نظرية عمل التلغراف لتحديد مواقع الأجسام تحت الماء، وبدمج الجهازين معًا أصبح بالإمكان الحصول على بعض القدرات التي تفيد في تحديد الاتجاه، حيث يقوم الجندي الذي يعمل على تشغيل الجهاز بموازنة قوة الصوت في السماعتين وكان يعيب ذلك النظام صعوبة تحديد ما إذا كان الصوت في اتجاه محدد أم في اتجاه آخر او يبعد مائة وثمانين درجة، وكان جهاز الهايدروفون خداعًا عند الاستخدام فقد كان من السهل أن يحدث خلط مع أصوات أخرى ومصادر ضوضاء أخرى مثل أن يكون الصوت صادرًا من مروحة صائد الغواصات، ولكنه كان بشكل كبير أفضل من لا شيء على الإطلاق، وتم كذلك إنشاء محطات تحديد اتجاه عن طريق موجات الراديو على أمل رصد الغواصات من خلال بثها اللاسلكي، ولكن تلك

المحطات لم تحقق نجاحًا يذكر، وبدأ الحلفاء في استخدام قواتهم الجوية بشكل أكثر فاعلية، فقد تم تشييد قواعد جوية حول بريطانيا لدعم الدوريات البحرية جوًّا وشرعت الطائرات المائية في مهاجمة الغواصات التي كانت تصعد إلى السطح، ونجحت في إغراق سبعة وإصابة أربعين غواصة، ودخلت المناطيد المعركة، فقد تم بناء أربعمائة منطاد لتحلق ببطء وتبقى في الجو لمدد طويلة لتصاحب القوافل خلال المداخل البحرية الخطرة التي تقود إلى بريطانيا، وكذلك القيام بأعمال الدورية على الخطوط البحرية بحثًا عن أية غواصات مغيرة، وكان الألمان قد راهنوا على قدرتهم على خنق بريطانيا قبل أن تدخل الولايات المتحدة الحرب أو على الأقل أن يقوموا بقطع شريان الإمدادات والتعزيزات الممتد من الولايات المتحدة إلا أن غواصات ألمانيا لم تنجح إلا في إغراق ناقلة جنود واحدة، وكانت الإجراءات المضادة للغواصات التي يقوم بها الحلفاء ترفع من عدد الغواصات التي يتم إغراقها واضحًا، وتسبب ذلك في خفض الروح المعنوية لأفراد اطقم الغواصات الألمانية، وفي شهر مايو من عام 1918 تم إرسال خمس وخمسون غواصة إلى أعالي البحار وهو رقم قياسي، ولكن تم إغراق ست عشرة غواصة، وبحلول نهاية عام 1918 أصبح العمر الافتراضي للغواصة هو ست دوريات فقط، وزاد ذلك من قسوة قادة الغواصات الألمان، وكرد فعل على ارتفاع خسائر الغواصات الألمانية قام الليوتنانت "فيلهم فيرنر" قائد الغواصة "يو 53" بصف البحارة الذين أسرهم بعد إغراق سفينتهم علي سطح الغواصة، وأمرهم بخلع سترات النجاة، ثم قام بالغطس تاركًا إياهم للغرق، وقام الليوتنانت "باول فاجنفور" بنفس الفعل مع بحارة سفينة أخرى في يوليو 1917، وبحلول عام 1918 كان قادة الغواصات الألمانية يضربون تحت الحزام، حيث كانوا يقومون بوضوح بضرب السفن التي تستخدم كمستشفيات عائمة، ففي الرابع من يناير من عام 1918 أغرق الليوتنانت "فيرنر" بغواصته "يو

55" المستشفى العائم "ربوا"، وبالرغم من ذلك تم التقاط معظم الطاقم، وتم إغراق المستشفى العائمة "جلينارت كاسل" في السادس والعشرين من فبراير 1918 بخسائر بلغت مائة وثلاثة وخمسين قتيلا، وفي العاشر من مارس نجت السفينة "جيلدفورد كاسل" بأعجوبة من الغرق واستطاعت مناورة الطوربيد الذي أطلق عليها والذي احتك بجانب السفينة ومضى في طريقه، وفي ليلة السابع والعشرين من يوليو 1918 أطلقت الغواصة "يو 86" طوربيداتها على السفينة "لاندوفيري" خارج سواحل أيرلندا، وعندما ألقى البحارة بزوارق النجاة سحقتها الغواصة ما عدا واحدًا، وأطلقت النار على البحارة واتسع زورق النجاة المتبقي لأربع وعشرين بحارًا، أما الآخرون وعددهم مائتان وأربع وثلاثون بحارًا فقد غرقوا في مكانهم، وبعد الحرب استدعى الليوتنانت "هيلموت باتسيج" واثنان آخران من ضباط الغواصة "يو 86" إلى المحاكمة، ولكن "باتسيج" كان قد اختفى، وأدين الآخران وحكم اعليهم بالسجن أربع سنوات، ولكن كلاهما هرب، وكان بعض قادة الغواصات يظهرون بعض الإنسانية، فقد كان الليوتنانت "هانس روز" يقوم بجر زوراق النجاة التي تحمل طاقم السفن الغارقة إلى حيث يستطيعون رؤية البر، وبعد إغراقه للمدمرة الأمريكية "جاكوب جونز" في السادس من ديسمبر 1917 كان قلقًا على مصير بحارتها في المحيط المظلم، فقام بعمل فيه مخاطرة كبيرة عليه وعلى طاقم غواصته إذ قام بإبلاغ البريطانيين باللاسلكي عن إغراق المدمرة، وحدد لهم موقع زوارق النجاة، في الحقيقة يشهد تاريخ الحرب العالمية الأولى أن معظم قادة الغواصات الألمانية قاتلوا بشرف.

الغواصات في أمريكا

فى أواخر أيام الحرب قررت القيادة العليا الألمانية نقل حرب

الغواصات إلى سواحل الولايات المتحدة الأمريكية، وكان ذلك يتطلب غواصات ذات مدى طويل جدًّا، وكان لدى ألمانيا سبع غواصات من طراز مطور عن طراز الغواصة الألمانية التجارية "دويتشلاند"، وصممت غواصتان بعيدتا المدى خصيصًا من أجل ذلك الغرض، وكانت مزودة بستة أنابيب طوربيد ومدفعي سطح من عيار 150 مليمترًا، وقام القليل من الغواصات التي تم تطويرها برحلات طويلة جنوبًا إلى جزر اللازورس والساحل الإفريقي حيث كانوا يعملون بدون أي إزعاج ضد حركة النقل البحري الدائرة في المنطقة إلا أن الغواصة البريطانية "إي 35" تمكنت من إصابة الغواصة "يو 154" خارج سواحل البرتغال في مايو 1918، وبدأت واحدة من أهم تلك الرحلات لذلك الطراز من الغواصات في الرابع عشر من أبريل 1918 عندما غادرت الغواصة "يو 151" ميناء كيل، وكانت تلك الغواصة تحت قيادة الليوتنانت "هاينريش فون نوستيتس"، وكانت المهمة المسندة إليه هي مهاجمة السفن التي تحمل شحنات على طول ساحل الولايات المتحدة المطل على المحيط الأطلنطي، وبث ألغام على المخارج البحرية الرئيسية، وقد قامت الغواصة ببث كمية من الألغام خارج ميناء بالتيمور في الحادي والعشرين من مايو، ولم يكن الأمريكيون يتوقعون تلك المتاعب خارج سواحلهم، ولم يتخذوا أية إجراءات او احتياطات، وقامت الغواصة الألمانية بعملها بدون أي تدخل أو أية إشارة تدل على أن الأمريكيين قد تنبهوا، واستولت الغواصة على ثلاثة قوارب بشكل سري في تلك الليلة، وقد قامت بذلك على ما يبدوا للحصول على المواد الغذائية، وأخذ الألمان أطقم تلك القوارب على متن غواصتهم، وأغرقوا المراكب الثلاث، ثم بعد ذلك قامت الغواصة بوضع ما تبقى لديها من ألغام عبر خليج ديلاوير ثم أكملت طريقها إلى نيو يورك، وبلغتها في الثامن والعشرين من مايو، وقضت الغواصة الثلاثة أيام التالية تجوس في قاع البحر بقاطع كابلات، وقامت بقطع خطي تلغراف، وبعدها أبحر

"نوستيتس" جنوبًا لمهاجمة السفن مسجلاً هدفًا تلو الآخر، وكان سلوكه شريفًا بقدر ما أمكنه، فقد كان يسمح لأفراد الطاقم بمغادرة السفينة، ثم يقوم بمساعدتهم بعد ذلك، وفي إحدى المرات أغرق سفينة كان عليها أم وابنتها فأخذهم على متن الغواصة، واعتنى بهم جيدًا حتى استطاع وضعهم على زورق نجاة، وهم يرون البر إلا أنه وفي إحدى المرات وبعد إغراق الغواصة للباخرة "كارولينا" والتي كانت في طريقها من بورتو ريكو إلى نيويورك وبعد أن سمح للركاب بركوب قوارب النجاة هبت ليلا عاصفة شديدة اقتلعت أحد قوراب النجاة وقلبته مما نتج عنه غرق ثلاثة عشر راكبًا، ونجحت الأعمال التي قامت بها تلك الغواصة في إثارة الهلع لطول الساحل الشرقي للولايات المتحدة، ولم تنجح أية إجراءات اتخذها الأمريكيون حيث كانت الغواصة تتحرك باستمرار، وتسبق مطارديها بعدة خطوات، وأخيرًا عادت الغواصة "يو 151" إلى قاعدتها في ميناء كيل، بعد أن أبحرت لمسافة 17570 كيلومترًا، وأغرقت سبعًا وعشرين سفينة شاملة أربع سفن أغرقتها الألغام التي زرعتها الغواصة، وتشجع الألمان من جراء النجاح الذي حققته غواصتهم الأولى فأرسلوا ثلاث غواصات "يو 140" و"يو 156" و"يو 117"، ولكن الأمريكيين كانوا مستعدين هذه المرة، ولم يكن الصيد جيدًا مثلما كان في المرة السابقة، وفقدت الغواصة "يو 156" عندما اصطدمت بلغم خارج برجن في النرويج في الخامس والعشرين من سبتمر 1918، وكانت هناك ثلاثية أخرى من الغواصات بعيدة المدة في طريقها عبر الأطلنطي إلى سواحل الولايات المتحدة عندما انتهت الحرب، وأغرق الليوتنانت "لوتار فون أرنولد" آخر سفينة ظفرت بها الغواصات الألمانية في الحرب العالمية الأولى في الأول من أكتوبر من عام 1918، عندما كان يقود الغواصة "يو 139" وهي إحدى الغواصات الألمانية الكبيرة في ذلك الوقت، فقد أطلق طوربيدًا على إحدى السفن التي كانت إجراءات الامن والحماية حولها غاية في الشدة في إحدى القوافل البريطانية التي تعبر

خليج "بيسكاي"، ولسوء حظه غرقت السفينة وحطت فوق غواصته، ونجح "فون أرنولد" وأفراد طاقم غواصته في الهرب عن طريق تفجير الخزانات، ونجحوا في الصعود بالغواصة إلى السطح، وقبل حلول أوائل أكتوبر من العام نفسه كانت ألمانيا تبحث شروط الهدنة، وفي الثانى والعشرين من أكتوبر ارسلت القيادة الألمانية إشارة لاسلكية إلى الغواصات التي كانت في عرض البحر تأمرهم فيها بوقف الهجمات على السفن التجارية إلا أن السفن الحربية في وقت إرسال تلك الإشارة كانت ما تزال أهدافًا شرعية، وبحلول نهاية الشهر بدأ البحارة الألمان في التمرد بشكل غير منظم، وفي أوائل نوفمبر كانت ألمانيا في حالة انهيار كامل، فقد تنازل القيصر فيلهلم عن العرش، وذهب إلى منفاه في هولندا في التاسع من نوفمبر، ووقع الألمان الهدنة في الحادي عشر من الشهر نفسه، وكان من ضمن شروط تلك الهدنة تسليم كل الغواصات إلى بريطانيا بدءا من العشرين من نوفمبر، وتم التحفظ على الغواصات في ميناء "هارويتش"، وبلغ عدد الغواصات التي سلمتها ألمانيا إلى بريطانيا 176 غواصة، وتم تحويل معظمها إلى خردة، وبالرغم من هزيمة ألمانيا، فقد تميزت الغواصات الألمانية في قتالها ضد الحلفاء، وكان لدى ألمانيا عشرين غواصة عند بدء الحرب، ثم تكفلت الآلة الحربية الألمانية الجبارة ببناء ثلاثمائة وخمس وأربعين غواصة فيما بعد، وقامت الغواصات بإغراق ما يربو على خمسة آلاف سفينة للحلفاء مستخدمة في ذلك مائة وثمان وسبعين غواصة، وخسرت خمسة آلاف بحار من مجموع بحارة غواصاتها الذي بلغ 13000 بحار، وقتلوا 15000 مدني حسب التقديرات البريطانية، وإن كانت تلك التقديرات مشكوك فيها حيث إنه لابد أن الدعاية البريطانية قد ضخمت من أعداد القتلى حتى تكسب عطف العالم، وتحشد شعبها حول قضية محاربة ألمانيا، وكذلك تستثير الرأي العام في الولايات المتحدة التي كانت بريطانيا تتمنى أن تؤازرها بإماكانياتها الإنتاجية الضخمة،

الأمر الذي لم يلبث أن نجح وانضمت أمريكا بالفعل إلى الحرب في جانب الحلفاء، وخرجت مانشيتات الصحف البريطانية تنادي بشنق القيصر فيلهلم وشنق قادة الغواصات، وفي الحقيقة لم يتم شنق قادة الغواصات الألمانية بل تم حبسهم، وكان من بين الضباط قادة الغواصات الألمانية الذين وقعوا في أيدي الحلفاء ضابط صغير السن برتبة ليوتنانت يدعى "كارل دونيتز" الذي أخذ يدرس بينما هو في السجن الأخطاء التي قام بها سلاح الغواصات الألماني والمعارك التي قاتل بها السلاح كما ينبغي، وخرج بدروس وفكر جديد قدر له أن يطوره ويطبقه بعد عشرين عامًا من حبسه في معركة الأطلنطي الثانية في الحرب العالمية الثانية، عندما قدر له أن يتسلم قيادة القوات البحرية الألمانية في الرايخ الثالث.

قوة الغواصات الألمانية بين عامي 1914 إلى عام 1918

مجموع الغواصات في العمليات: 351

مجموع ما تم اغراقه في العمليات: 178

خسائر أخرى: 39

ما تم بناؤه بعد الهدنة: 45

عدد الغواصات التي استسلمت للحلفاء: 179 طنًا في أربعة سنوات.

الحمولة التي أغرقتها الغواصات (بالأطنان): 12,850,841

الفصل الثاني عشر

أهم أسلحة الحرب

الطيران في الحرب العالمية الأولى

من أحد أهم الأسلحة الحديثة التي قدمتها الحرب العالمية الأولى هي الطائرات والتي استخدمت في بادئ الأمر لأغراض الاستطلاع، ثم كمقاتلات ثم كقاذفات، وكانت تلك أول مرة في التاريخ الإنساني تتم فيها محاولة السيطرة على الجو فقبل ذلك لم يكن الجو ميدانا للمعارك.

قبل الحرب

بعد حوالي عشر سنوات من قيام الأخوين "رايت" بأول رحلة طيران باستخدام محرك كان ما يزال الكثير مما يحتاج إلى التحسين، وبسبب قصور قدرات المحركات في ذلك الوقت لم يكن بمقدور الطائرة أن تحمل إلا قدرًا محدودًا من الأوزان، وكانت الطائرات تصنع حينئذ من الخشب الذي يتم تثبيته بواسطة أسلاك من الصلب ومن قماش الكانفا المشرب بسائل قابل للاشتعال لإعطائها الصلابة المطلوبة لتشكيل سطح الجناح، وبغض النظر عن تلك المواد البدائية التي كانت تستخدم لصناعة البدن لم يكن تطور الهندسة الجوية في ذلك الوقت يسمح بصناعة نموذج يصمد أمام التيارات الهوائية، فكانت الطائرات تعاني من إخفاقات الهيكل في تجاوز المطبات الهوائية مثلاً، الأمر الذي كان ينتج عنه في بعض الأحيان الإطاحة بالجناح

أو الذيل، مما كان يدفع بالطائرة إلى أن تهوي أو تفقد توازنها على أحسن الأحوال، وفي أوائل عام 1909 كانت تلك اللعب الجوية التي لم تكن قد تطورت بعد تعتبر في عداد الأسلحة، وعلق أحد ضباط الأركان الإيطاليين، ويدعى "جوليو دويه" على وجود الطائرة بقوله :

"توشك السماء أن تصبح ميدان قتال آخر لا يقل أهمية عن الميادين الأخرى في البر والبحر، ومن أجل غزو الجو فمن الضروري أن نحرم أعداءنا من أية وسيلة للطيران عن طريق ضربه في الجو في قواعد عملياته أو مراكز إنتاجه، ويجدر بنا أن نتعود على تلك الفكرة وأن نعد أنفسنا".

وفي عام 1911 كان النقيب "برترام ديكسون" أول ضابط بريطاني يطير بطائرة، وقد تنبأ بشكل صحيح بالاستخدام العسكري للطائرة فقد تنبأ بأن الطائرة سيتم استخدامها أولاً في الاستطلاع، ولكنها ستطور على أكثر من مستوى بمحاولة تعطيل أو منع العدو من الحصول على المعلومات، الأمر الذي سيتحول في النهاية إلى معركة للسيطرة على السماء، وهذا بالفعل ما تم بعد مضي عدة سنوات، ويعتبر أول استخدام للطائرة في العمليات الحربية في الثالث والعشرين من أكتوبر من عام 1911 في الحرب العثمانية الإيطالية، عندما قام النقيب "كارلو بياتزا" بأول طلعة استطلاع في التاريخ قرب بنغازي في ليبيا.

السنوات الأولى

منذ اللحظات الأولى لبداية الحرب دارت مناقشات حامية حول استخدام الطائرة في الحرب، وبالرغم من أن فرنسا كانت تمتلك أكبر قوة جوية في ذلك الوقت حيث كان لديها 1500 طائرة وكان لدى ألمانيا ألف منها إلا أن باقي دول العالم كانت تفتقر إلى ما يمكن تسميته بالقوة الجوية، فكانت بريطانيا مثلا تمتلك عدة مئات من الطائرات، وكان الجيش

الأمريكي والسلاح البحري الأمريكي يمتلكان مجتمعين ما يقل عن عشرين طائرة، وكانت الطائرة تستخدم أساسًا في البداية كمركبة استطلاع متحركة، وكانت المسئولية الأساسية المسندة إليها هي وضع الخرائط لمواقع العدو على الأرض، وكانت تعتبر تحسينا لمركبات استطلاع قائمة بالفعل مثل المناطيد التي كانت بطيئة، وتمثل عبئًا وكان إطلاقها عسيرًا، وبالونات الملاحظة والتي كان على الأطقم المسئولة عن إطلاقها أن تشدها بحبل إلى الأرض، وكما تنبأ "ديكسن" فإن كل من دول التفاهم ودول المحور استخدمت الطائرات في أول الأمر لأغراض الاستطلاع فقط، فحينما كانت طائرات الاستطلاع تجتاز الخطوط كانت أطقمها في البدء تتبادل الابتسامات، وتلوح بأيديها لبعضها البعض، ثم تطور الأمر إلى إلقاء قوالب الطوب ثم القنابل اليدوية، وأشياء أخرى مثل الحبال والتي كانوا يأملون في أن تعلق بمروحة الطائرات المعادية، ثم بدأ الطيارون بعد ذلك في إطلاق النار من الأسلحة الصغيرة على الطائرات المعادية، وبمجرد أن تم تركيب المدافع على متن الطائرات بدأت السماء تتحول إلى ميدان قتال، وكانت طرازات الطائرات المبكرة في تلك الفترة تتراوح بين "شورتهورن" و"لونجهورن"، وبالرغم من القصور التكنولوجي والمشاكل الميكانيكية التي كانت تعانيها طائرات الاستطلاع تلك إلا أنها لعبت دورًا مهمًّا في المعارك التي كانت تدور على الأرض خلال عام 1914، وخصوصًا في مساعدة الحلفاء في وقف الغزو الألماني لفرنسا، ففي الثاني والعشرين من أغسطس 1914 أرسل كل من النقيب البريطاني "تشالتون" والليوتنانت "وادام" تقريرًا عن بدء الجيش الألماني بقيادة الجنرال "فون كلوك" في التجهيز لمحاصرة قوة الحملة البريطانية الأمر الذي كان يتعارض مع كل تقارير المخابرات الأخرى، واستمعت القيادة البريطانية إلى الطيارين، وبدأت في الانسحاب إلى "مونس" الأمر الذي سبب تقويضًا للروح المعنوية، ولكنه أنقذ أرواح مائة ألف جندي، وفيما بعد وخلال معركة المارن الأولى

اكتشفت طائرات الاستطلاع نقاطًا ضعيفة، وكشفت الأجناب في الخطوط الألمانية، الأمر الذي سمح للحلفاء بامتلاك ميزة قتالية عليهم، وكانت الضربة الجوية الألمانية الكبرى في عام 1914 في معركة تاننبرج في شرقي بروسيا حينما أبلغ الطيارون عن هجوم روسي لم يكن الألمان يتوقعونه مما أدى إلى إجبار الروس على الانسحاب في النهاية، ومع حلول عام 1915 وتثبيت الجبهة الغربية وتحول أعمال القتال فيها إلى أعمال ثابتة نتج عنها حرب الخنادق الشهيرة التي سبق الحديث عنها تحولت طائرات الاستطلاع إلى مهمة تزويد قيادات القوات المتحاربة بالصور الجوية، وأصبح من مسئولياتها وضع خرائط للمواقع المعادية على الأرض، وتم تقسيم مهام تحديد أماكن بطاريات المدفعية بينها وبين بالونات الاستطلاع التي كانت تربط إلى الأرض.

بداية المعارك الجوية

كما تنبأ ديكسون قبل ذلك كانت المواجهات الجوية في بدء الحرب نادرة بشكل كبير، وكانت مرتبطة بشكل كبير بمهام الاستطلاع التي كانت تقوم بها الطائرات، وهناك قصص كثيرة تحكي كيف كانت أطقم طائرات الاستطلاع تتبادل الابتسامات والتلويح بالأيدي في البداية، ثم تطور الأمر إلى القتال بطريقة مضحكة ألا وهي الإلقاء بقوالب الآجر وحتى الحبال، والتي كانوا يأملون أن تعلق في مراوح الطائرات الأخرى المعادية فتتسبب في إعطابها وسقوطها، ثم بعد ذلك إلقاء القنابل اليدوية ثم بدأ يتم تسليح الطيارين بالمسدسات التي كانوا يقومون بإطلاق النار منها على الطائرات المعادية في محاولة لإصابة قائدها، ولكن عهد القتال الجوي بدأ فعليًّا وبشكل منظم عندما بدأ يتم تسليح الطائرات بالرشاشات.

مشاكل ميكانيكية

خلال عام 1912 كان المهندسون البريطانيون الذين يعملون في شركة فيكرز البريطانية يقومون بإجراء التجارب على تركيب الرشاشات في الطائرات، وكانت النتيجة الأولى هي رشاش الفيكرز من طراز "إي إف بي" والذي تم استخدامه في العرض الجوي الذي تم إجراؤه في عام 1913 قبل عام من نشوب الحرب، وظهر بشكل مطور في عام 1915 وواجه البريطانيون عدة مشاكل ميكانيكية في التوفيق بين حركة الطائرة في الجو، وبين حركة الرشاش عندما يتم إطلاق النار منه، ولكن وفي عام 1915 أدخل الألمان تطويراً على استخدام الرشاش المركب في الطائرة، فقد قام المهندس الألماني أنتوني فوكر Anthony Fokker بتصميم ترس لقطع الحركة، والذي تسبب في قلب كفة الميزان لصالح الألمان، وكانت تلك الأداة تربط بين الرشاش ومروحة الطائرة، وكانت تقوم بوقف الرشاش عن العمل عندما تمر ريشات المروحة أمام فوهة الرشاش وتم استخدام ذلك النموذج بعد إجراء التجارب عليه في ربيع عام 1915، ومكن ذلك الاختراع الميكانيكي الطائرات الألمانية من إحراز قدرة عالية على المناورة مما مكن الليوتنانت كورت فينتجنس Kurt Wintgens من تسجيل أول انتصار عسكري على طائرات الحلفاء، وتمكن من إسقاطها قرب لونفيل Luneville في فرنسا، وما لبثت طائرات الحلفاء أن اتخذت إجراءا لصالح الألمان في المعارك الجوية، فقد كانت طائرات الحلفاء تهرب على الفور لدى رؤيتها لطائرة ألمانية، وكانت هناك حاجة إلى حل سريع، وأتى الحل سريعًا بالفعل فقد تمكن الحلفاء من إنتاج طائرات تعمل بنفس المبدأ الذي تعمل به الطائرات الألمانية، وسرعان ما اتضحت أهمية المقاتلات التي كانت ما تزال تحبو في ذلك الوقت على سلم التطور لمهاجمة الطائرات المعادية، ذلك الدور الذي أصبح على نفس المستوى من الأهمية كاستطلاع مواقع العدو وإدارة نيران المدفعية، وكذلك كانت الطائرات تقوم

بمصاحبة طائرات الاستطلاع الصديقة لحمايتها من نيران الطائرات المقاتلة الألمانية كما استخدمت الطائرات أيضًا لضرب بالونات الاستطلاع، وضرب الأهداف الأرضية المعادية والدفاع عن المجال الجوي الصديق ضد قاذفات القنابل.

أبريل الدموي

في عام 1917 شن الحلفاء هجومًا مشتركًا فقد قام البريطانيون بالهجوم قرب آراس Arras بينما كان على الفرنسيين أن يقوموا بالهجوم في آين Aisne فيما عرف بهجوم نيفل Nivelle، وتم استدعاء الطائرات لتقديم الدعم للقوات المهاجمة، وكانت المهام التي أسندت إلى الطائرات أساسًا على كلا الجبهتين هي القيام بالاستطلاع، وتحديد أماكن بطاريات المدفعية غير أن الألمان كانوا على علم بالهجوم، وكانوا مستعدين له، وكانت تدعمهم طائرات الباتروس دي 3 Albatros D-III وهي أفضل طائرات الاستطلاع القتالية على الجبهة الغربية في ذلك الوقت على الإطلاق، وعرف ذلك الشهر فيما بعد في أدبيات الحرب العالمية الأولى التي تناولت القوات الجوية للحلفاء بأبريل الدموي حيث عانت القوات الجوية الملكية البريطانية من خسائر فادحة، غير أنهم وبرغم خسائرهم تلك إلا أنهم تمكنوا من جعل الألمان في وضع دفاعي مما أدى بالتالي إلى منع الألمان من استخدام طائراتهم في مهام الاستطلاع أو القصف وشغلهم ذلك بالتالي عن معاونة قواتهم الأرضية، وبعد شهر أبريل الدموي بوقت قصير قام الحلفاء بإعادة تزويد أسرابهم بطائرات حديثة في ذلك الوقت مثل سوبويث بوبSopwith Pup وطائرات من طراز إس إي 5 إيه S.E.5a والتي ساعدت في استعادة بعض التوازن لميزان القوى الجوية بين الحلفاء والألمان، وما لبث الألمان أن ردوا باستخدام أنواع جديدة مثل الفوكر دي آر إل

والتي بدورها كانت ندًّا للطائرات البريطانية الجديدة من طراز Fokker Dr.I سوبويث والفرنسية سباد إس SPAD S.XIII 13، وكنتيجة لذلك وقبيل نهاية الحرب كان الحلفاء قد نجحوا في تحقيق بعض السيادة الجوية بشكل عام وذلك حتى نهاية الحرب.

نهاية الحرب

شهد عام 1918 نقصًا متزايدًا في المؤن والعتاد على جانب دول المحور، وكانت طائرات الحلفاء التي يتم إسقاطها يتم نهبها بالكامل بحثًا عن أي مواد حتى إن صندوق التشحيم الخاص بالطائرة كان يتم أخذ الشحم منه ليتم استعماله في طائرة ألمانية أخرى، وكان مانفريد فون ريشتهوفن Manfred von Richthofen والذي كان يسمى بالبارون الأحمر قد أحرز رقمًا قياسيًّا في إسقاط طائرات الحلفاء حيث تمكن وحده من إسقاط ثمانين طائرة للحلفاء قد قتل في أبريل بنيران مدفع استرالي مضاد للطائرات على ما يبدو برغم الادعاء البريطاني بأن طيارًا من القوات الجوية الملكية البريطانية قام بإسقاط طائرته، واستلم قيادة السرب الاول الجوي الألماني والذي كان في ذلك الوقت يسمى سرب الصيد الاول Jagdgeschwader 1 الطيار الألماني في ذلك الوقت هيرمان جورينج Hermann Göring والذي أصبح فيما بعد قائد سلاح الجو الألماني بعد اعتلاء هتلر لمقعد الحكم في ألمانيا، وساهم كثيرا في تطوير المقاتلات والقاذفات الألمانية قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناءها والتي كانت تعرف بالشتوكا Stuka، ودفع الألمان بالطراز الجديد من الفوكر Fokker D.VII والذي بهر الحلفاء للدرجة التي جعلتهم بعد استسلام ألمانيا يحصلون على عينات منه، وفي تلك السنة كان التدخل الأمريكي في أوجه، وبينما كان الطيارون المتطوعون الأمريكيون يقومون بالطيران في أسراب الحلفاء منذ الأعوام الأولى للحرب

إلا أنه لم يقم سرب أمريكي بالطيران فوق الخنادق الألمانية قبل عام 1918، وفي البداية كان العتاد الأمريكي بالرغم من وفرته قليل الكفاءة، ولكن بعد زيادة أعداد القوات الأمريكية على الجبهة الغربية بدأت نوعية العتاد في التحسن، وتم تسليح الأسراب الأمريكية بالطائرة سباد إس 13 SPAD S.XIII والتي كانت واحدة من أفضل طرازات الطائرات الفرنسية أثناء الحرب.

أثر الطيران

قبيل انتهاء الحرب كان تأثير المهام الجوية على الحرب على الأرض لا يعدو كونه تأثيرًا تكتيكيًّا، وكان القصف التكتيكي ما يزال في مراحله البدائية الأولى، وكان ذلك يعود أساسًا للتمويل المحدود والاستخدام الذي كان قاصرًا في بدء الحرب على مهام الاستطلاع، ويرجع قصور التمويل في الأساس إلى عدم وضوح أهمية الطائرة كسلاح في أذهان القادة العسكريين للدول المتحاربة، حيث كان أولئك يفضلون الاستثمار في القوات البرية أو القوات البحرية، حيث لم تكن لديهم رؤية للطيران كسلاح بل كأداة معاونة، وفي الحقيقة لا يمكن لومهم على ذلك، فالطائرة مثلها مثل باقي الاختراعات الحديثة في تاريخ الإنسانية لم تتضح أهميتها والمدى الواسع من المكاسب التكتيكية والإستراتيجية الذي يمكن أن تحرزه إلا بمرور الوقت وبالعديد من التجارب، وكذلك لأن الطائرة كانت في ذلك الوقت تمثل تكنولوجيا جديدة إلا أن بعض العسكريين الغربيين مثل البرجادير جنرال في ذلك الوقت ويليام ميتشيل William Mitchell قائد الوحدات الجوية الأمريكية المقاتلة في فرنسا -كما كانت تسمى في ذلك الوقت- قد صرح بأن الخسارة الفادحة الوحيدة التي تكبدتها ألمانيا هي في المجال الجوي، وإن كان ذلك القول تعوزه الدقة وينقصه الدليل إلا أنه يظهر مدى

أهمية السلاح الجوي وانتباه قادة الحلفاء لتلك الحقيقة، ونقـل أيضًـا عـن ويليام ميتشيل قول متطرف آخر حيث قـال: إن الحـرب في المسـتقبل لـن تكون على الأرض بل في الجو.

الأسلحة المضادة للطائرات

بالرغم من الاستخدام المحدود في بدء الحرب للطـائرات وقصـرها علـى الاستطلاع وعدم استخدامها كسلاح في حد ذاتها إلا أنه وبشـكل متزايـد استمرت المعارك الجوية بين الطائرات فوق الجبهة الغربية ونشـأت الحاجـة إلى تسليح الطائرات ليس فقط بالرشاشات، ولكن بالصواريخ الجوية أو ما يعرف بصواريخ جو جو، وبالفعل تم استخدام مثل تلك الصواريخ، حيـث استعمل الحلفاء صـواريخ جـو جـو مـن طـراز لـو بريـور Le Prieur ضـد بالونات الاستطلاع الألمانيـة، ولم تقتصـر الحاجـة علـى تحسـين الأسـلحة وتطويرها على صـواريخ جـو جـو ولكـن كـذلك علـى الأرض، وكانـت الأسـاليب الـتي تم تطويرهـا قبـل الحـرب تسـتخدم لتشـتيت طـائرات الاستطلاع، وكان يتم إطلاق قذائف من المدافع المضادة للطـائرات بحيـث تنفجر في الجو مسـببة سـحبًا مـن الـدخان والشـظايا، وكـان البريطـانيون يطلقون على تلـك القـذائف اسـم آرتشـيarchie ، وتم اسـتخدام الـدفاع الأرضي المعتمـد علـى المدفعيـة المضـادة للطـائرات بشـكل متزايـد ضـد بالونات الاستطلاع وأصبحت هدفًا للطائرات الألمانية الـتي كانـت مجهـزة بطلقات خارقـة خاصـة، ولأن البالونـات كانـت قابلـة للاحـتراق بسـرعة بسبب غاز الهيـدروجين الـذي يسـتخدم لملئهـا فقـد تم تزويـد الملاحظـين بمظلات تمكنهم من القفز بشكل آمن، وفي الحقيقة لم يكن كل الملاحظـين مزودين بتلك المظلات ويرجع ذلك من ناحية إلى الاعتقاد الخـاطئ الـذي ساد بأنها تمنع العنف، ومـن ناحيـة أخـرى إلى قـدرة الطـائرات في الفـترة

الأولى من الحرب على حمل أوزان كبيرة.

القصف

بتطور الموقف على الجبهة الغربية وتحول الحرب إلى تلك الصورة الراكدة التي ميزت أعمال القتال منذ عام 1915 حيث لم يكن في مقدور أي من الطرفين إحراز أي تقدم حتى ولو كان لبضع ياردات بدون الدخول في معركة ضخمة يتكبد فيها كل من الطرفين خسائر فادحة، ومن ناحية أخرى أصبح الدور الذي تقوم به الطائرات لا غنى عنه في جمع المعلومات ورصد واستطلاع مواقع القوات المعادية وقصف خطوط إمداد القوات المعادية خلف الخطوط التي كانت تشغلها الخنادق، وكان يتم استخدام الطائرات الكبيرة بطيار واحد وفرد استطلاع لاستطلاع مواقع القوات المعادية، وإلقاء القنابل على قواعد إمدادهم، ونظرًا لكون تلك الطائرات كبيرة الحجم وبطيئة الحركة فقد كانت هدفًا سهلاً للطائرات المقاتلة، وكنتيجة لذلك استخدم الطرفان الطائرات المقاتلة للقيام بمهمتين أولاً مهاجمة الطائرات المعادية ذات المقعدين، وكذلك لحماية طائراتهم القاذفة عند تنفيذها لمهامها، وعلى حين كانت الطائرات ذات المقعدين التي كانت تستخدم كاطائرات استطلاع وطائرات قاذفة بطيئة وهشة - كما ذكرنا- إلا أنها لم تكن عارية من أية دفاعات، فكانت تلك الطائرات ذات المقعدين مسلحة برشاش أمامي ورشاش خلفي، وكذلك كان الطيار يتحكم في الرشاش الموجود خلف المروحة والذي يشبه الرشاش الموجود في المقاتلات، بينما كان المراقب أو فرد الاستطلاع يتحكم في الرشاش الخلفي والذي كان بإمكانه تغطية القوس الموجود خلف الطائرة، وكان الطيارون الألمان يستخدمون تكتيكًا لتفادي الرشاش الخلفي وهو المهاجمة من أسفل الطائرة بشكل طفيف ومن الخلف، حيث يصعب على من

بالخلف إطلاق النار على الطائرات التي تهاجم من ذلك الوضع، بل في الحقيقة لا يكون قادرًا على الإطلاق على إصابتها، ولكن يمكن للطائرة ذات المقعدين التغلب على ذلك التكتيك بالغطس بسرعات عالية، ويساعدها في تلك المناورة وزنها الكبير، وكانت مطاردة القاذفة ذات المقعدين حال قيامها بتلك المناورة خطيرًا على طيار المقاتلة، حيث كانت مجرد مطاردتها في تلك الأثناء تضع الطائرة أمام الرشاش الخلفي بالضبط، وقد تمت إصابة العديد من رواد الطيران المقاتل في تلك الحرب من الرشاشات الخلفية للقاذفات على ارتفاعات منخفضة.

القصف الإستراتيجي

كانت أول المدن التي قام الألمان بقصفها هي لوتيش Lüttich في السادس من اغسطس وتلتها في بلجيكا مدينة أنتورب Antwerp في الرابع والعشرين من أغسطس، وقد قام بالقصف منطاد ألماني واحد، وكانت أول غارة جوية ناجحة على بريطانيا هي الغارة التي قامت بها الطائرات الألمانية قرب دوفر في الرابع والعشرين من ديسمبر، وفي التاسع عشر من يناير تم شن أول هجوم بالقنابل من الجو على العاصمة البريطانية لندن، وفي نفس الوقت تقريبًا كان الألمان يعملون على قدم وساق لتطوير أجهزة التهديف الخاصة بإلقاء القنابل، وكان الجهازان اللذان يستخدمهما الألمان في ذلك الوقت يتميزان بالبدائية، ولكن كان يمكن العمل على تحسينهما وتطويرهما للوصول إلى نتائج أفضل، وازدادت حدة القصف الألماني في عام 1916 وأضيفت القنابل الحارقة الآن إلى القنابل الأخرى شديدة الانفجار والتي تسببت في خسائر كبيرة عند القصفات التي كان الألمان يقومون بها فوق إنجلترا، وخلال الفترة بين الحادي والثلاثين من مارس إلى السادس من أبريل قام الألمان بأشرس هجماتهم الجوية فوق بريطانيا، مما

أجبر البريطانيين على إظلام المصانع أو إيقافها في بعض الحالات، وفيما بعد قام الألمان بنشر العديد من المناطيد للمعاونة في القصف الجوي، واعتبارًا من عام 1917 تم بناء طائرات كبيرة، ثم تم بناء قاذفات عملاقة ليتم استخدامها كقاذفات استراتيجية، وقد حلت تلك الأخيرة محل المناطيد التي كانت تعتبر حتى ذلك الحين أهم وسيلة للقصف الجوي، وكانت الطائرات الكبيرة أسرع وبالتالي كان من الصعوبة بمكان اعتراضها، وبشكل إجمالي كانت هناك حاجة عسكرية وإستراتيجية للقصف كانت تتجاوز بشكل كبير التلفيات والخسائر المادية التي كانت الطلعات الجوية الألمانية تتسبب فيها، فكان على بريطانيا أن تستثمر جزءا كبيرًا من طاقاتها في الدفاع الجوي ضد الإغارات الألمانية وبأعداد كبيرة من وحداتها الجوية في الدفاع عن أراضيها بدلاً من نشرها على الجبهة لقتال الألمان بها هو ما حدث فعلاً، علاوة على توقف الإنتاج نهائيًا في المصانع عند سماع صفارات الإنذار، وكان ذلك أكبر بكثير من الخسائر التي يحدثها القصف، وشهدت الحرب العالمية الأولى أول قصف منظم من الجو للمدن في التاريخ، ففي اليوم التاسع عشر من يناير من عام 1915 أسقط منطادان ألمانيان من طراز زبلين Zeppelin أربعًا وعشرين قنبلة تزن كل واحدة منهن خمسين كيلوجرامًا وتحتوي على مواد شديدة الانفجار وقنابل حارقة زنة ثلاثة كيلوجرامات، ولم تكن تلك الأخيرة فعالة، وذلك على مدن يارموث Yarmouth وشيرينجهام Sheringham وكينجز لين King's Lynn والقرى المحيطة بها، ونتج عن تلك الغارة قتل أربعة وجرح ستة عشر، وتم في حينها تقدير الخسائر المادية بسبعمائة وأربعين جنيهًا إسترلينيًا، وذلك حسب التقديرات البريطانية، ولكن تلك الغارة سببت رعبًا شديدًا بطول بريطانيا وعرضها، وبالإضافة إلى توقف الإنتاج وانتشار الذعر بين عمال المصانع، وقام الألمان بعد ذلك بتسع عشرة غارة في عام 1915، وتم خلال تلك الغارات إسقاط سبعة وثلاثين طنًا من القنابل،

وقتل نتيجة لذلك مائة وواحد وثمانون وجرح أربعمائة وخمسة وخمسون حسب التقديرات البريطانية، واستمرت الغارات في العام التالي، وتم قصف لندن في شهر مايو، وفي شهر يوليو أصدر القيصر أوامر بتوجيه الغارات ضد مراكز المدنيين، ويبدو أن الغرض من ذلك كان كسر إرادة القتال لدى البريطانيين وتركيعهم، وفي ذلك العام قام الألمان بشن ثلاث وعشرين غارة تم فيها إسقاط مائة وخمسة وعشرين طنًا من القنابل، وتقول الأرقام الرسمية البريطانية إن مجموع القتلى في تلك الغارات هو مائتان وثلاثة وتسعون، بينما أصيب ستمائة وواحد وتسعون بجروح، وبالطبع فإن تلك الأرقام وسابقتها محل نظر ولا ينبغي نسيان التزوير المتعمد الذي كانت تقوم به حكومة بريطانيا في الحرب العالمية الثانية، فعلى سبيل المثال وفي إحدى الإغارات على بريطانيا أخفى رئيس الوزراء البريطاني أعداد القتلى الحقيقية، وادعى أن عدد القتلى بعد القصف هو خمسمائة في حين كان العدد الحقيقي هو خمسة آلاف قتيل، إلا أنه ومن ناحية أخرى تحسنت الدفاعات الأرضية البريطانية يومًا بعد آخر وبالتدريج، ففي عام 1917 وعام 1918 لم يقم الألمان سوى بإحدى عشرة غارة فقط بالمناطيد فوق الأجواء البريطانية، وبحلول نهاية الحرب كان عدد الغارات التي قام بها الألمان على بريطانيا قد وصل إلى واحد وخمسين غارة، تم فيها إسقاط خمس آلاف وثمانمائة وست قنبلة، وقتل بها -حسب التقديرات البريطانية- خمسمائة وسبعة وخمسون شخصًا، وجرح ألف وثلاثمائة وثمانية وخمسون، ومن عام 1917 بدأ الألمان بإرسال قاذفات القنابل من طراز جوتا جي Gotha G والتي كانت أثقل من المناطيد، وفي الحقيقة فإن الغارات كانت على درجة من الكفاءة وحققت الأهداف الموكلة إليها بالإضافة إلى تأثير آخر مهم، وهو شغل البريطانيين وتحويل أكثر من عشرة آلاف جندي واثني عشر سرب للقيام بمهمة الدفاع الجوي، وكذلك كانت الطائرات القاذفة تستخدم لإلقاء مواد الدعاية والمنشورات التي تدعو إلى

الاستسلام، أو تشرح موقف الألمان كل تلك العوامل بالإضافة إلى أرقام القتلى التي نتجت عن تلك الغارات قد دفعت بالحكومة البريطانية إلى التغيير من سلوكها بشكل كبير.

بالونات الاستطلاع

تم استخدام بالونات الاستطلاع التي تقودها أطقم مخصصة لذلك الغرض وتقوم بالطيران فوق الخنادق كنقاط استطلاع ثابتة على الخطوط الأمامية، وكانت مهمتها الإبلاغ عن مواقع قوات العدو وإدارة نيران المدفعية، وعادة ما كانت تلك البالونات تطير بطاقم مكون من اثنين مزودين بالمظلات، حيث كان ينظر لتلك البالونات على أنها اساس مهم للقيام بالاستطلاع بالرغم من أنها كانت سريعة الاشتعال، وكانت بالونات الملاحظة هدفا مهما للطيران الألماني، وللدفاع عن تلك البالونات في مواجهة الهجوم الجوي كانت دائمًا تحاط بشبكة مركزة من المدافع الأرضية المضادة للطائرات، وكانت تحرسها طائرات صديقة، وقد ساهمت تلك البالونات والمناطيد في تثبيت الركود الذي فرضته طبيعة حرب الخنادق، وكانت من العوامل التي أدت إلى تفاقم المواجهات الجوية من أجل السيادة في الجو، وذلك بسبب قيمتها الاستطلاعية المهمة، وبسبب تلك الأهمية كانت قيادات الجوانب المتحاربة على السواء تشجع طياريها على إسقاط البالونات، وذلك عن طريق اعتبار إسقاط احد البالونات كإسقاط طائرة في معركة جوية، ونتيجة لذلك كان بعض الطيارين يعرفون باسم صائدو البالونات، واشتهروا بسبب مهارتهم في إسقاط البالونات المعادية، كانت الحرب العالمية الأولى فتحًا في استخدام الطائرة كسلاح، ومن يوم انتهائها إلى الآن لم تتوقف حركة التطوير والتحديث حتى رأينا الطائرات الأسرع من الصوت والطائرات التي لا يكتشفها الرادار.

المدفعية الألمانية

أنتجت ألمانيا قبل نشوب الحرب العالمية الأولى مدفعًا ثقيلاً لتتمكن من دك القلاع البلجيكية والفرنسية؛ لتحقق عنصر السرعة في احتلال بلجيكا لاستكمال مراحل خطة "شليفن" التي تم الإشارة إليها، وقد طورت ذلك المدفع مجموعة من المصانع الألمانية الشهيرة التي تخصصت في مجال صناعة السلاح، وكان يسمى مدفع "برتا"، وتمت تسميته بذلك الاسم على اسم زوجة جوستاف كروب مالك مصنع كروب الذي قام بتصنيع ذلك المدفع، وقد قام بتصميمه مدير إدارة التصميم في المصنع البروفيسور "فريتس راوزنبرجر" وسابقه البروفسيور "دريجر"، وكان هذان المصممان هما من قاما بتدشين هذا المدفع وتقديمه للعالم، وكان الحلفاء يسمونه مدفع "برتا الكبير"، وكانوا يطلقون ذلك الاسم علّى أي مدفع ألماني كبير مثل مدافع البوارج التي كان يتم تركيبها على قضبان السكك الحديدية والذي يعرف باسم "لانجر ماكس"، وكان ذلك الطراز من المدافع من عيار 42 سم، وقد فكر الألمان في صناعة ذلك المدفع أساسًا بعد الدروس التي استفادها الألمان والنمساويون من الحرب اليابانية الروسية بين عامي 1904 و1905، وأثناء تلك الحرب قام اليابانيون بفك عدد من مدافعهم الساحلية الدفاعية من عيار 28 سم، واستخدموها للمساعدة في كسر الحصار حول القاعدة الروسية البحرية المحصنة في ميناء آرثر، وكان ذلك في وقته يعد اختراعًا حديثًا فحتى ذلك الوقت كان الخبراء العسكريون يفترضون أن أكبر مدفعية يمكن نقلها هي من عيار 20 سم، غير أن معظم دول أوربا فشلت في الاستفادة من تلك الدروس اليابانية فيما عدا الألمان والنمساويين، وقد طوروا سلسلة من المدافع الثقيلة ذاتية الحركة بما فيها مدفع شلانكه إيما *Schlanke Emma* من عيار 30,5 سم، وياربارا وجودرون من عيار 38 في عام 1900، وعليه بدأت شركة كروب

في تطوير سلسلة من المدفعيات والهاونات بمدى ما بين 28 سم إلى 30,5 سم، وقد تم استيحاء تصاميمها من خبرات شركة كروب في تصميم المدفعيات الساحلية *küstenmörser* مثل Beta-Gerät من عيار 30,5 سم، وقد تم تقديم أول نموذج له في عام 1897، وفي عام 1908 تم تطوير شكل جديد من نفس المدفع، ولكنه أفضل بكثير من سابقه، وعندما اختبرته اللجنة المختصة في الجيش الألماني وهي لجنة اختبار المدفعية الألمانية التابعة للجيش الألماني *artillerieprüfungskommission* طلبت من شركة كروب زيادة القدرة الهجومية به حتى يكون قادرًا على دك التحصينات الجديدة، وبداية بدأت الشركة تبحث إمكانية بناء نموذج من عيار 35 سم، ولكن الحال انتهى بها إلى القفز إلى عيار 42 سم، حيث كانت الدانة من ذلك العيار هي أصغر دانة يمكنها حمل شحنة متفجرة للقيام بما طلبته منها اللجنة من دك للقلاع الحديثة في ذلك الوقت، وكان أول تصميم للمدفعية من عيار 42 سم هو مدفع جاما، وهو أساسًا نسخة مزيدة ومنقحة من مدفع بيتا، وكان مدفع جاما كبيرًا وكان محمولاً على عربة كانت توضع على منصة خرسانية استغرق إعدادها أيامًا، وكان ذلك المدفع العملاق يزن مائة وخمسين طنًّا، وكان يتم نقله على مراحل في عشرة عربات قطار ست عربات للمدفع وأربعة لقاعدته، وكان مدفعًا رهيبًا حيث كان يطلق دانات تزن ألف ومائة وستين كيلوجرامًا تقريبا، ولكن مجرد نقله كان مشكلة لوجيستية ضخمة بل كابوسًا، وطلبت لجنة اختبار المدفعية مدفعًا أكثر قدرة على الحركة، وطلبت اللجنة مدفعًا في يوليو 1912، ثم طلبت عينة أخرى في فبراير 1913، وتم تسليمه في يونيو 1914، وكان المدفع الجديد يمكنه الحركة على الطريق على عربة ميدانية كبيرة الحجم، وكان يتشابه قليلاً مع مدفع جاما، بل ويمكن اعتباره سلاحًا مختلفًا تمامًا فقد كانت ماسورته أقصر وكان يعتمد على وتد منثن لرفعه وخفضه، وكانت الماسورة أخف في بنائها من سابقتها، وعليه فكانت أوزان

الدانات التي تستطيع إطلاقها أخف وزنًا من السابقة حيث كانت تطلق دانات تزن ثمانمائة وثلاثين كيلوجرامًا، وعندما كان يتم تجميعه بالكامل كان وزنه يبلغ ثلاثة وأربعين طنًّا فقط، ولم يكن يتعين وضعه على قاعدة خرسانية، فقد تم تطوير قواعد من الصلب كانت يتم تركيب العجلات عليها وقوس للتنشين في مؤخرة العربة، ولمنع السلاح من الغرز في الطين عند نقله فقد تم تزويد العربة بسيور للإطارات بأذرع مختلفة لتقوم بتوزيع الحمل وطورت شركة كروب بالتعاون مع شركة ديملر الشهيرة جرارًا للمدفع لجر المدفع والتي كان يتم فكها إلى خمسة أجزاء عند نقل المدفع على الطريق، وتشير المصادر الأمريكية إلى أن نظام الدانات شديدة التفجير التي كانت تستخدم كذخيرة لذلك المدفع قد تأثرت بأفكار المهندس الأمريكي لويس جاثمان Louis Gathmann، وكذلك إلى أن هذا المهندس هو مخترع مدفع البرتا إلا ان ذلك الادعاء غير صحيح بالمرة ويعوزه الدليل، وفيما بعد قام مصمم المدفع البروفيسور فريتز راوزنبورجر Fritz Rausenburger بتصميم المدفع الذي عرف فيما بعد باسم مدفع باريس والذي كان يتم استخدامه في أواخر أيام الحرب لقصف العاصمة الفرنسية، وبالنسبة لعدد قطع المدفعية من ذلك الطراز فلم يكن متوفرًا منها عند بداية الحرب إلا قطعتان، وتم استخدامهما لدك القلاع البلجيكية في لييج ونامور وأنتورب، وكذلك القلاع الموجودة في شمال فرنسا وأثبتت مدافع البرتا أنها في غاية الكفاءة عند قصف القلاع المبنية قديمًا مثل القلاع البلجيكية التي تم تصميمها وبناؤها في ثمانينات القرن التاسع عشر، فقد كانت مدفعية البرتا تدمر الكثير منها في أيام معدودة، وكان أكثر النجاحات إبهارًا في قلعة لونسان Loncin عندما دمرتها قذيفة واحدة مباشرة سقطت على مخزن ذخيرتها، ونتيجة للنجاحات الأولى المبهرة التي حققتها مدافع البرتا فقد اكتسبت سمعة جيدة على الجانبين، فأخذت الصحافة الألمانية تشيد بتلك المدافع وتذكر مزاياها بحماس

وسمتها السلاح المعجزة Wunderwaffe، ولكنها لم تثبت جدارتها تلك عندما تم استخدامها فيما بعد في الهجوم على مدينة فردانVerdun الفرنسية في فبراير من عام 1916، فكانت كفاءتها ضعيفة نوعًا، حيث كانت جدران القلعة الموجودة في مدينة فردان مبنية حديثًا بالخرسانة المسلحة بالصلب، وكان بمقدورها أن تصمد أمام قذائف البرتا الخارقة للدروع، ويتراوح عدد مدافع البرتا التي تم إنتاجها أثناء فترة الحرب بين اثني عشر مدفعًا وثمانية عشر حسب بعض المصادر، وفيما بعد وأثناء الحرب تم تطوير مواسير البرتا من عيار 30,5 سم لتناسب عربات البرتا وتوفر مدًى أطول، وفي نهاية الحرب تم الاستيلاء على مدفعين من ذلك الطراز، وتم نقل أحدهما إلى الولايات المتحدة حيث تم إجراء الاختبارات عليه هناك، ثم وضع في متحف المدفعية التابع للجيش الأمريكي، أما المدفع الثاني فلا يعرف مصيره على وجه التحديد، ولا ريب أن احد دول الحلفاء قد استلبته لنفسها للعمل على تطوير مدفعيتها، وأغلب الظن أن بريطانيا هي التي استولت عليه، وهناك ادعاءات بأن الألمان نجحوا في الاحتفاظ بأحد تلك المدافع بعد الحرب، وتم بالفعل استخدامه في معركة سيفاستوبول Sevastopol في الحرب العالمية الثانية، ولكن تلك الادعاءات غير صحيحة، ولكن الحقيقة أنهم قاموا بتجميع بعض القطع التي كانت موجودة بشركة كروب لتصبح مدفعًا جديدًا وأرسلوه إلى الجبهة ليشارك في المعركة مع مدفع آخر من طراز جوستاف Gustav الثقيل، وفي أحد الكتب التي نشرت عن المدفعية الألمانية ظهرت صورة لمدفع برتا احتفظ به الألمان في متحف ميونيخ، وكان المتفرجون في الصورة هم مجموعة من الضباط النازيين أثناء الحرب العالمية الثانية، ويظهر تحت تلك الصورة تعليق يفيد بأن ذلك المدفع قد نجا من التدمير في الحرب العالمية الأولى، ولكن يبدو أن ذلك كان مجرد هيكل للمدفع مصنوع من الخشب بناه هاو ألماني في عام 1923، وكان ذلك الرجل قد خدم كجندي على مدفع

برتا خلال الحرب العالمية الأولى، وبعد ذلك تحول إلى بناء الهياكل للمتاحف، ولم يقم فقط ببناء هيكل للبرتا وقام بعرضه في جولة في ألمانيا في الثلاثينات بل إنه أيضًا قام ببناء نموذج لمدفع باريس.

استخدام الغازات

كان يوم الثاني والعشرين من أبريل 1915 يومًا جميلاً وصحوًا ولم يكن ذلك معتادًا في منطقة الفلاندرز، وكانت القوات الكندية والقوات الفرنسية التي جندتها حكومة الاحتلال الفرنسية من الجزائر تسيطر على قرية "نوف شابيل" التي خربتها الحرب، وفي حوالي الساعة الخامسة صباحًا هبت ريح شرقية خفيفة حملت معها سحب لونها مزيج بين الأخضر والرمادي في التصاعد من الخنادق الألمانية مجتازة الأرض الحرام، وبدأت تتجه نحو القوات الجزائرية وغطت السحابة الخنادق التي تشغلها القوات الجزائرية وغمرتهم تمامًا، وعلى أثر ذلك شاهد الكنديون حملة البنادق الجزائريين يركضون إلى الخلف وهم يسعلون والبعض منهم يختنق، وترك رحيلهم فجوة يقدر اتساعها بحوالي أربعة كيلومترات ونصف في خط خنادق الحلفاء، وبعد دقائق قليلة بدأت تلك السحابة تتسرب إلى الخنادق الكندية وذاق الكنديون قليلا مما مر به الجزائريون، ولكن لحسن حظهم كانت تلك السحابة قد تبعثرت فلم يكن لها أثر كبير عليهم، وتمكنوا من الاحتفاظ بتماسك صفوفهم والتصدي للمشاة الألمان الذين اندفعوا إلى الأمام حالما بدأت سحابة الغاز تلك في الانقشاع علاوة على أن المشاة الألمانية كانت أيضًا تخشى الغاز، وكانت تنقصهم التعزيزات ففشلوا في استغلال الفجوة التي أحدثها هروب الجزائريين قبل أن تصل التعزيزات البريطانية والكندية، وعلى الفور استغل الحلفاء ذلك الهجوم في دعاياتهم ضد الألمان فأعلنوا أن الهجوم بالغاز يمثل خرقًا صارخًا للقوانين

الدولية، ورد الألمان بأن معاهدة لاهاي حظرت فقط الدانات الكيماوية وليس إطلاق الغازات عن طريق قاذفات، وكان يوم الثاني والعشرين من أبريل هو أول يوم تستخدم فيه الغازات السامة في الحروب، وكانت ألمانيا هي أول من استخدم الغازات كسلاح على نطاق واسع، وكان أول استخدام ألماني للغازات في الثالث من يناير 1915، إذ أنه وقبل تلك الواقعة بعدة أشهر استخدم الألمان الغاز المسيل للدموع على الجبهة الشرقية، إذ تم إطلاق 18000 دانة مدفعية تحتوي على الغاز المسيل للدموع السائل على المواقع الروسية على نهر "راوكا" غرب وارسو خلال معركة بوليموف -التي أشرنا إليها من قبل- غير أن ذلك لم يكن له أي تأثير على الروس، فقد كان الطقس قارس البرودة مما أدى إلى تجمد الدانات التي تحتوي على الغاز المسيل للدموع بدلاً من تبخره، وعلى ما يبدو فإن ذلك هو السبب الذي دفع الألمان إلى استخدام الصمامات في هجوم الغاز الثاني حيث يمكن فتحها عندما تكون الريح في الاتجاه المطلوب، وكان ذلك يمكنهم من رؤية الغاز يتبخر، وكان الغاز المستخدم تلك المرة هو غاز الكلورين، وهو مركب كيميائي يستعمل في عدد من المواد، وهو كذلك منتج فرعي لصناعة الأصباغ كانت تنتجه شركات كيماويات ألمانية كبيرة مثل "فارين"، وكان طلاب المدارس الثانوية يستطيعون إنتاج كميات صغيرة من ذلك الغاز، وتمكن المهندسون الألمان من التوصل إلى طريقة لإنتاج الغاز بكميات كبيرة في معامل "فارين" العملاقة، ثم بعد ذلك تتم تعبئة الغاز المسيل في أسطوانات ويتم إطلاقها من الخنادق، وكان ذلك ثاني أكبر انتصار للكيميائي الألماني "فريتس هابر" من معهد القيصر فيلهلم للكيميا، في برلين، فقبل ذلك كان كل من شركة "فارين" بالتعاون مع "هابر" قد اخترعا طريقة لسحب غاز النيتروجن من الهواء، وكان ذلك التطور لا غنى عنه لمجهودات الحرب الألمانية نظرًا للحصار البحري الذي كانت بريطانيا قد فرضته على ألمانيا

عن طريق قواتها البحرية، والذي منع عنها المصدر المعتاد لصادرات النيترات من تشيلي، وقبل حلول الثاني والعشرين من أبريل 1915 كان لدى الجيش الألماني 168 طنًا من الكلورين تم نشرها في 5730 أسطوانة شمال "آيبر"، وتم اطلاق الغاز على الخنادق، ونقل عن "هابر" إثر ذلك قوله: إن هذا الغاز سيسوي لحم الإنجليز المفروم إلا أن ماحدث هو أن الجزائريين تلقوا الضربة التي كانت موجهة ضد الإنجليز وبعد يومين من ذلك الهجوم أصبح الكنديون هدفًا لهجوم الغاز السام الألماني الثاني، ففي الثالث والعشرين وبرغم أن الضباط الكنديين قد تعرفوا على الغاز وأصبحوا على يقين شبه تام من أن تلك السحابة الغامضة لم تكن إلا غاز الكلورين، وهو غاز يذوب في الماء، وعليه فقد قام الكنديون بربط ملابس مبللة حول وجوههم وساعد ذلك قليلاً في التخفيف من أثر الغاز، وكانت قوات الحلفاء قد قامت بدفع المزيد من التعزيزات خلف القوات الكندية حتى تحل محلها في حالة وقوع هجوم بالغاز، ونجح الخط في الصمود أمام الألمان، وعلى أثر ذلك قام الكنديون والإنجليز والفرنسيون بالهجوم المضاد، وأخيرًا وفي الأول من مايو تم استخدام اختراع "هابر" ضد الإنجليز ضد الكتيبة الأولى من فوج "دورسيت"، وكان جنود ذلك الفوج لم يكونوا قد سمعوا عن إمكانية استخدام الخرق المبلة للحماية من الغاز، وعندما بدأ جنود الكتيبة يختنقون هرب كثير منهم، وحاول أحد الضباط برتبة ملازم مقاومة السحابة الخضراء التي يستنشقها الجنود فالتقط بندقية جندي هارب من الفصيلة التي يقودها واطلق النار داخل السحابة الخضراء التي تتجه نحوه ظنًا منه أنه يستطيع إبعادها بالرصاص، وانضم إليه أربعة من الجنود الذين تبقوا من فصيلته التي كان عدد جنودها أربعون قبل ان يستنشقوا الغاز، كذلك انضم إليه جنود بريطانيون آخرون، ومرة أخرى تم صد المشاة الألمان، ولكن الثمن الذي دفعه الإنجليز كان كبيرًا، فقد قتل تسعون رجلاً على الفور، وتم إخلاء 207 آخرين إلى محطة

رعاية طبية مات منهم ستة وأربعون فور وصولهم إلى المحطة ثم 12 بعد معاناة طويلة، وغاز الكلورين هو غاز مهيج قوي يسبب أضرارًا للعين وللأنف والحلق، وكذلك يتسبب غاز الكلورين في امتلاء الرئة بالسوائل فيموت من يتعرض له مختنقًا، ولم يكن الكلورين هو الغاز الوحيد في الترسانة الحربية الألمانية، فقد كان ما يزال في جعبة ألمانيا الكثير، فبعد ذلك استخدم الألمان غاز الفوسجين، وهو غاز عديم اللون ورائحته مثل القش الذي تم حصده حديثا، وهو يتسبب في اختناق من يتعرض له بأسرع مما يفعل ذلك الكلورين، ثم كان استخدام غاز الخردل بعد ذلك وهو غاز يسبب قروحًا وحروقًا في الجلد الذي يلمسه، وكذلك في رئة من يستنشقه وهو مميت إلى حد كبير، وفي الهجمات بهذا الغاز بقي بعض الجنود على قيد الحياة، ولكنهم بقوا معوقين طيلة حياتهم بل إن حتى ليدل هارت Liddell Hart المعلق العسكري والإستراتيجي البريطاني المعروف تم إخراجه من الجيش على أثر جروح أصابته في هجوم بغاز الخردل، وعلى الفور بدأ الحلفاء في تطوير غازات سامة ليردوا بها على هجمات الغاز الألمانية، ودخلت الولايات المتحدة السباق، وبالرغم من دخولها متأخرًا إلا أنها انتجت غازًا شديد الفتك وهو اللويسايت Lewisite وهو إحدى المشتقات التي تنتج عن صناعة المطاط الصناعي ويتسبب في بثور أكثر من تلك التي يسببها غاز الخردل، وكانت كل تلك الغازات تشترك في عامل واحد وهي أنها اثقل من الهواء. فبدلا من التصاعد في الهواء. كانت تترسب على الأرض، °ويقول أحد الجنود الذين خاضوا الحرب العالمية الأولى وخرج منها حيًا: إنه كان يخشى الهجوم بالغاز أكثر من أي سلاح آخر، وكان يخدم في سلاح الإشارة وكان عمله أن يساعد في وصل لوحة الاتصالات التلفونية، ويقول: إن الخندق الذي كان يعمل فيه كان عميقا جدًا إلى الحد الذي لا يمكنه من سماع صفارة الإنذار عند الهجوم بالغاز، وحتى إذا سمعه فقد يكون ذلك في مرحلة متأخرة بحيث لا

يتمكن من وضع السماعة ويرتدي قناع الغاز قبل أن يخنقه غاز الفوسجين، لقد كان الغاز سلاحًا يلقي الرعب في قلوب جنود الحلفاء، وكان الهجوم بالغاز يسبب حالة من الذعر تزيد عن التأثير الفعلي له حيث كانت نسبة القتلى على الجبهة الغربية من جراء هجمات الغاز لا تتجاوز واحدًا وواحدًا من عشرة من مجموع القتلى، ولكن الذعر الذي يسيطر على الجبهة حينئذ لا يمكن السيطرة عليه لدرجة أن الذعر استولى على الحكومات والشعوب عشية قيام الحرب العالمية الثانية خوفًا من هجمات الغاز فقامت السلطات في كل الدول بتوزيع أقنعة الغاز على مواطنيها، ولم يكن يتوافر منها إلا أقل القليل ولحسن حظ الدول المتحاربة في الحرب العالمية الأولى أو غيرها لم تحاول أي من الدول المتحاربة استخدام الغاز في هجمات على المدنيين، فلم تكن أقنعة الغاز لتكفي، وكانت ستكون إبادة جماعية وحتى لو كانت أقنعة الغاز كافية لما كانت لتحل المشكلة، فغاز اللويسايت على سبيل المثال يحترق عند ملامسته للجلد، وأما غازات الأعصاب الحديثة فتقتل قبل استنشاقها فغاز التابون Tabun يقتل إذا مس الضحية منه ألف مليجرام، أما غاز السارين Sarin فهو يقتل بألف وسبعمائة مليجرام، ولكن غاز الـ "في إكس" VX فتكفي فقط خمسة عشر مليجرامات منه تلمس جلد الضحية ليموت على الفور، بل إن الشخص الذي تتم مهاجمته بتلك الغازات لهو تهديد خطير على من يقومون بإسعافه، وتعمل اقنعة الغاز على تغطية وجه الجندي وعند بدء عملها ينشط الفحم الموجود بداخلها لتنقية الهواء الذي يتم استنشاقه، وقد وزعت تلك الأقنعة على كل الجنود وبالنسبة للجنود الذين يخدمون في مواقع خطرة فقد وزعت عليهم بدلات حماية كاملة، وكانت الغازات السامة خطرة على كل من بجانبها خصوصًا عندما تم استخدامها في الثاني والعشرين من أبريل من عام 1915 حيث تم إطلاقه في الهواء بواسطة أسطوانات لتحمله الريح فيمكن ساعتها أن ينحرف اتجاه

الريح إلى جهة أخرى، وعلى أثر ذلك الهجوم ونظرًا لخطـورة إطـلاق الغـاز بتلك الطريقة قررت الأطراف المتحاربة إلى العـودة إلى نظـام إطـلاق الغـاز عن طريق الدانات، وظل الحال كذلك إلى أن انتهت الحرب.

خاتمة

الهدنة

وقعت ألمانيا الهدنة مع دول الحلفاء في الحادي عشر من نوفمبر 1918، وكان هندنبورج قد طلب في برقية أرسلها إلى الفرنسيين أن يلتقي بالمارشال فوش في السابع من نوفمبر، وكان احتمال نشوب ثورة في برلين يضغط على القيادة الألمانية، وعبر الوفد الألماني الحدود والتقى بفوش في اليوم الأول ودارت المفاوضات بينهم وبين الجانب الفرنسي، ولم تكن تلك الجولة مفاوضات بالمعنى الصحيح للكلمة، ولكن الحلفاء كانوا يملون شروطهم، ولم يتمكن الألمان المهزومون إلا من تصحيح بعض النقاط مثل تسليم عدد غواصات أكثر مما كان لديهم في الواقع، وبعد ثلاثة أيام من المفاوضات وقعت اتفاقية الهدنة في الساعة الخامسة صباحًا في اليوم الحادي عشر من نوفمبر في عربة قطار في غابة كومبيين في فرنسا، وكانت شروطها مجحفة وقاسية ولكن الألمان لم يكن أمامهم إلا قبولها حيث إن تلك الاتفاقية لم ترفع عنهم حتى الحصار البحري الذي فرضته إنجلترا منذ بداية الحرب بل أرجأت مناقشته إلى وقت تتم فيه مناقشة شروط السلام بالكامل، وكان القيصر الألماني قد تنازل عن العرش أثناء إتمام المفاوضات، ووصل النبأ إلى الوفد الألماني المفاوض في فرنسا، وتبادل هندنبورج وحكومته في برلين البرقيات بشأن شروط الهدنة إلى أن وصلته برقية من رئيس الحكومة الجديدة فريدريش إيبيرت Friedrich Ebert تأمره بالتوقيع، وكانت الضغوط على إيبيرت كثيرة، حيث كانت الأوضاع سيئة للغاية في

ألمانيا، والمدن الألمانية تغلي، وكانت شروط المدنة سيئة للغاية، ولا يمكن أن تقبل بها إلا أمة مهزومة، وكانت تقضي بسحب القوات الألمانية من بلجيكا وفرنسا وإقليم الألزاس واللورين، والانسحاب إلى داخل الحدود الألمانية إلى الداخل بعمق ثلاثين كيلومترًا بطول الضفة الشرقية لنهر الراين، والتسليم الفوري للمعدات الحربية الثقيلة بما فيها الأسلحة والغواصات، ونزع سلاح ما تبقى من الأسطول الألماني، ووضعه تحت رقابة الحلفاء في موانئ محايدة أو تابعة للحلفاء. وأجبر الألمان على التنصل من معاهدتي برست ليتوفسك وبوخارست وبذلك خرجت ألمانيا من الحرب العالمية.

نهاية الحرب

وقعت ألمانيا معاهدة فرساي التي ألقت كل اللوم على الألمان في إشعال فتيل الحرب وفي كل الخراب الذي أصاب أوربا في السنوات الأربع التي قضت على الأخضر واليابس، وأجبرت ألمانيا على دفع تعويضات تبلغ ستة وستة من عشرة مليار جنيه إسترليني يتم دفعها على سبع سنوات، وحرص الحلفاء وعلى رأسهم فرنسا على فرض شروط عنيفة اعتبرها القوميون الألمان مشينة مثل تخفيض عدد قواتها إلى مائة ألف جندي وألا يسمح لها بامتلاك دبابات أو سلاح طيران، وتم إعطاء أجزاء من أراضيها إلى الدنمارك وتشيكوسلوفاكيا وبولندا وبلجيكا، إضافة إلى مستعمراتها في إفريقيا التي فقدتها بالطبع وأدت تلك الشروط إلى شعور عميق بالخذلان لدى الشعب الألماني والجيش الذي ساد فيه شعور أن ألمانيا وجيشها قد طعنا من الخلف، وغدرت بهما حكومتها، ومن أبرز نتائج الحرب العالمية الأولى ظهور هتلر الذي امتلأ بغضًا للحلفاء، وخصوصًا فرنسا ووضع نصب عينيه تركيع فرنسا، وقد كان له ما أراد بعد حوالي عشرين عامًا

من انتهاء الحرب، كذلك أدت الحرب إلى إعادة رسم خريطة أوربا، وانتهاء الدول الكبيرة بها حيث انتهت وإلى الأبد إمبراطورية النمسا والمجر والتي كانت تضم قوميات وأعراق متباينة فطالبت كل قومية بإنشاء دولة، فتفككت الإمبراطورية وتحولت إلى تشيكوسلوفاكيا وبولندا، وأعطيت أجزاء منها إلى ما سمي فيما بعد بيوغوسلافيا وأجزاء إلى رومانيا، ونفي الـ هابسبورج إلى خارجها، فتفتت بذلك الحليف الشرقي لألمانيا، وهكذا أسدل الستار ولمدة عشرين عامًا على الآلة العسكرية الجبارة التي أفرزت أحد أكبر الحروب التي عرفها العالم حتى ذلك الوقت، وبخروج ألمانيا من الحرب كان بمقدور أوربا كلها أن تلتقط أنفاسها عدة سنوات قبل أن تواجه شبح الحرب التي كانت إحدى نتائج الحرب العالمية الأولى، ولكن أكبر الخاسرين في تلك الحرب كانت الدولة العثمانية التي أجبرت بعد احتلال الحلفاء لاسطنبول وتوقيع معاهدة سيفر Sèvres، ونتيجة لاتفاق سايكس بيكو على أن تشهد اقتسام ممتلكاتها وأراضيها بين أعدائها، حيث كانت فلسطين ومصر والعراق من نصيب إنجلترا وكانت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا، وكانت الحرب على جبهة الشرق العربية في الواقع حملة صليبية جديدة نجحت فيها بريطانيا فيما فشلت فيه حملات صليبية أخرى كثيرة على مدار ألف عام حيث سعت إلى تغيير ديموغرافية المنطقة بضخ المهاجرين اليهود وحمايتهم في فلسطين، ونجحت في تفتيت دولة الخلافة، وأزالت الخطر الإسلامي بقيادة الدولة العثمانية عن طريق دق أسفين في قلب الأراضي التابعة للدولة العثمانية ليفصل بين شرقها وغربها، وزرعت عميلها مصطفى كمال في تركيا، وقام هذا الأخير بتدمير ما تبقى من الدولة العثمانية التي كانت جيوشها يومًا ما تقف على أسوار فيينا، وتزرع الرعب في قلب أوربا.

تم بحمد الله.

المراجع

مراجع عربية

الحرب العالمية الأولى، عرض مصور عمر الديراوي.

مذكرات مونتجومري، د. أيمن محمد عادل.

مراجع أجنبية

A Military Atlas of the First World War – Arthur Banks

The Origins of the World War - SIDNEY BRADSHAW

The First World War – The War to End All Wars – Peter Simkins, Geoffrey Jukes, Michael Hickey

www.wikipedia.org

و بعض مواقع الإنترنت الأخرى باللغات العربية والإنجليزية والألمانية والعبرية.

المحتويات

المقدمة	3
الفصل الأول – ما قبل الحرب	7
الجذور الحقيقية للحرب	7
الفصل الثاني – أهم معارك الجبهة الغربية	21
الحرب على الجبهة الغربية	21
خطة شليفن	22
التعديلات على الخطة	24
الخطة الفرنسية	27
غزو لكسمبورج	30
غزو بلجيكا	31
معركة لييج	36
معارك الحدود	42
معركة مولوز	47
معركة اللورين	48

معركة الاردين	51
معركة مونس	55
الانسحاب الكبير	62
معركة المارن	64
الحرب في 1915	70
معركة الفردان	73
معركة السوم	93
اليوم الأول	99
حرب الخنادق	104
الاتصالات	106
معركة "بازانتين"	124
معركة بوزيير	133
معركة فروميل	138
الخطوط الألمانية القديمة	142
ظهور الدبابة	146
معركة كورسيليه	151
معركة تيبفال	157
خط هندنبورج	163
معركة كامبري	163
أمريكا تدخل الحرب	174
هجوم الربيع	177
هجوم المائة يوم	181
المزيمة	182
الفصل الثالث – أهم معارك الجبهة الشرقية	185

الموقف على الجبهة الشرقية	185
الجيش الروسي	187
الغزو الروسي لبروسيا	191
معركة جومبينن	196
معركة تاننبرج	198
معركة بحيرات مازوريان	219
معارك وارسو	222
معركة لودز	225
هجوم بروسيلوف	229
الثورة قادمة	232
معاهدة برست ليتوفسك وخروج روسيا من الحرب	233
الفصل الرابع – أهم المعارك في صربيا	235
حملة صربيا	235
معركة تسير	236
معركة درينا	241
معركة كولوبارا	242
الفصل الخامس – حملة الدردنيل	253
نبذة عن تاريخ الدولة العثمانية	253
مسيح أزمير الكذاب	254
يهود الدونمه	259
مصطفى كمال	264
حملة الدردنيل	271
معركة الثامن عشر من مارس	279
عمليات الغواصات	283

دعم الجيش	286
الهجوم البري	289
الاستعدادات العثمانية	289
الإنزال	291
بدء المعارك	295
معركة كريتيا	297
معركة شجرة الصنوبر	299
هجوم أغسطس	300
إنزال سوفلا	302
الهروب من الدردنيل	311
التداعيات السياسية	314
الفصل السادس – معارك العراق	317
الحرب في العراق	317
إنزال الفاو	319
معركة قطيسيفون	325
معركة كوت العمارة	328
سقوط بغداد	332
هجوم سامراء	335
الفصل السابع – معارك فلسطين وسيناء	341
معارك سيناء	341
هجوم السويس	342
معركة روماني	345
معارك غزة	348
سقوط القدس	364

الفصل الثامن – اليهود في الحرب	367
الفيلق اليهودي	367
كتيبة البغالين	369
الكتيبة 38 من الرماة الملكيين	371
الفصل التاسع – الثورة العربية	377
الفصل العاشر - أهم معارك الجبهة الايطالية	385
ايطاليا وأوربا	385
معارك إيسونزو	388
معركة إيسونزو الأولى	390
معركة كابوريتو	393
معركة نهر بيافيه	396
النتائج	398
الفصل الحادي عشر – معركة جوتلاند وحرب الغواصات	401
معركة جوتلاند	401
معركة الأطلنطي	442
الفصل الثاني عشر – أهم أسلحة الحرب	475
الطيران في الحرب العالمية الأولى	475
المدفعية الألمانية	489
استخدام الغازات	493
خاتمة	499

الحرب العالمية الأولى

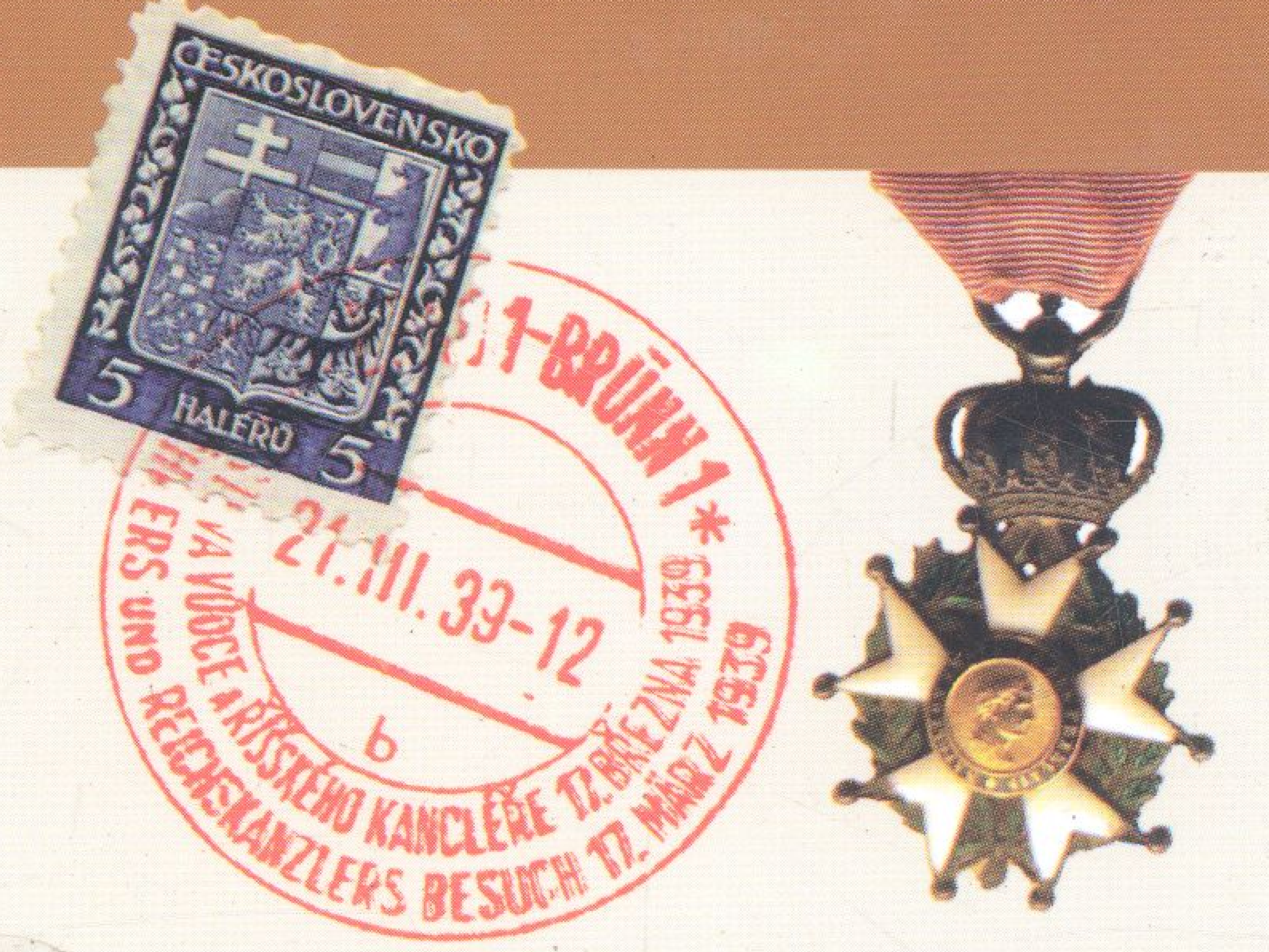

1914

9 789776 189317

Bibliotheca Alexandrina
0672779

مكتبة النافذة